

تفسير الجلالين

الفتوى الرباني والإمام الصمداني

سيدي محيي الدين عبد القادر الجلالين

المتوفى ٧١٣ هـ

تحقيق وتحرير وتعليق

الشيخ أحمد رفيع الزنيري

المجلد الخامس

المحتوى:

أول سورة الفتح - آخر سورة الناس



المكتبة المعروفة

كانسي روڈ شالدرہ کوٹہ پاکستان

فون: 0333-7807152, 0333-7907398

جميع حقوق هذه الطبعة محفوظة للناشر

طبعة جديدة منقحة

ISBN: 9953-27-144-5

2010م 1431هـ



رَجَاءُ

غَفَرَ اللَّهُ ذُنُوبَ هَذَا النَّاشِرِ

وَذُنُوبَ وَالِدَيْهِ مَعًا فِي النَّظَرِ

غَفَرَ اللَّهُ ذُنُوبَهُ وَبَنَاتِهِ وَوَالِدَيْهِ وَالْمُسْلِمِينَ

أَجْمَعِينَ وَلَمْ يَدْعَ لَهُ بِخَيْرٍ

راجي عفو ربه

عبدالفني حليمي



المكتبة المعرفية - الكويت - باكستان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الفتح

فاتحة سورة الفتح

لا يخفى على أرباب السكينة والوقار من الفائزين بسرائر التوحيد، المنكشفين بأسرار الربوبية والألوهية من استقام على طريق الحق متوكلاً عليه، مفوضاً أموره كلها إليه، مخلصاً في جميع أعماله وأحواله، مستوياً على منهج العدالة المأمورة له من قبل ربه، فقد فتح عليه سبحانه أبواب الفتوحات الغيبية، وأفاض عليه أنواع الكرامات السنية القدسية، وأوصله إلى الدرجات العلية اللاهوتية، وأنقذه من الدركات الدنية الناسوتية الإمكانية الجهنمية.

لذلك من سبحانه على حبيبه ﷺ بالفتح والظفر على عموم ما يسر الله له ووفقه عليه من أنواع الخيرات والكرامات المنتظرة له، وأصناف السعادات العاجلة والآجلة، فقال متيمناً باسمه الأعظم الأعلى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ الذي فتح على خلص عباده أبواب المعارف واليقين ﴿الرَّحْمَنِ﴾ عليهم بإفاضة العقل المتشعب من حضرة علمه؛ ليهديهم إلى صراط مستقيم ﴿الرَّحِيمِ﴾ عليهم، يوصلهم إلى مقر التوحيد؛ ليتمكنوا في جنة الرضا وروضة التسليم.

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ۝١ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ۝٢ وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ۝٣ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزِيدَهُمْ إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ ۝٤ وَهُوَ جُنُودَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝٥ لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتُ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ۝٦ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ۝٧ وَيَعَذِّبُكَ الْمُتَفَقِّهِينَ وَالْمُتَفَقِّهَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ

الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَلَمَ السَّوْءَ عَلَيْهِمُ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ
وَمَكَاتٍ مُصِيرًا ﴿٦﴾ وَاللَّهُ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ
شَهِيدًا وَبَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِيُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ
بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾ [الفتح: 1-9].

﴿إِنَّا﴾ من مقام عظيم جودنا ﴿فَتَحْنَا لَكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿فَتَحْنَا مُبِينًا﴾^(١)

(١) قال سيدي محمد البيطار في وارده على الآية بالفتح المدرار ما نصه: اعلم - رحمك الله - أن الجوهر الفرد الأصلي للعالم العقل المحمدي، وهو نور ذاتي مفاض إفاضة ذاتية من الحقيقة الكلية الجامعة للحق والخلق، إلا أن الحقيقة الكلية برزخ بين الوجود والعدم، وهي العماء الذي كان فيه ربنا قبل أن يخلق الخلق ما فوقه هواء وما تحته هواء، المراد بالهواء الأول: حقيقة الحق. وبال هواء الثاني: الخلق، فالعماء حقيقة برزخية، ولا يخفى أن البرزخ إذا انتهى حكمه آل إلى أحد الطرفين مع عدم المناقاة لمقامه الأول العمائي، فتجلى الحق تعالى من اسمه الباطن تجلياً أحدياً من نفسه لنفسه في نفسه، فانفتح من غيب ذاته النور المحمدي، وهو جوهر العالم وحقيقته، فكان مرآة وجود الحق وهو العقل الأول الوجودي، ولولا هذا العقل لم يتقيد تعالى باسم الوجود، فلذا قال: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ﴾ [الفتح: 1] أي: من ذاتنا المطلقة التي لا تختص بالوجود ولا بالعدم، ولا تعلم لا من اسم ولا من صفة، وقد حجب الشرع المطهر التفكير فيها؛ لأنها لا ترتبط بأمر، وتظهر بنقيض ذلك الأمر، فالعلم بالذات عبارة عن الجهل بها وأنها لا تعلم، ففتح الله من ذاته جوهر الوجود المحمدي لأجل وجود محمد ﷺ؛ لأنه تعالى هو المحب لأن يعرف، ولا يعرف إلا بظهوره بصورة محبوبة؛ لأنه هو الجميل، فأحب نفسه فكانت نفسه عين الحقيقة المحمدية، فكان هذا الفتح لأجل المحبوب الجميل وهو يحب الجمال، فأحب أن يظهر جماله بمحمد وأن يعرف بأن الجوهر المحمدي عنه لا غيره، فلذا قال: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ﴾ [الفتح: 1] أي: لأجلك حتى نريك نفسك عيننا، وأنت المسمى بأسمائنا، فهذا الفتح من حقيقة اسمنا (الفتاح) بين لك ذاتك، وأنت حقيقة حياتنا الذي منها كل شيء حي.

فالحقيقة المحمدية مستوى الرحمانية وعرشها، وبالرحمة كان الوجود فهو عين الرحمة، ولذا قال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: 17]، فكان هذا الفتح ميثاقاً له حقيقة نفسه بأنه نور الوجود المقدس الطيب الطاهر، كما قال ﷺ: «سبحان الله إن المؤمن لا ينجس» فبين من هذا أنه المسمى بالأسماء الحسنى؛ لأنه باطن الكثر المخفي، فقوله أي لأجل ظهور أحديتنا لك في نفسك، وأحديتنا تغفر ما تقدم من ذنب الكثرة المتقدمة والمتأخرة الملهية عن تلك الأحدية، ولذا أخبره بقوله: ﴿لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: 2]، وليس

ذنبه إلا الكون جميعه مع جميع ما يصدر منه، فالمقصود: ستر جميع ذلك بأحدية الذات الوجودية المطلقة؛ ليظهر تقديس تلك الحقيقة المحمدية بمحو كون شرك الأغيار، وتجلي وجود أحدية الغفار، فالذنب لتلك الحقيقة المحمدية حقيقي أصلي لا مجازي، بل نسبته الذنب الكوني لغير الجوهر المحمدي بطريق المجاز عند المحققين، ومع كون الحقيقة المحمدية جوهرًا وجوديًا ذاتيًا عينيًا فلا توجد إلا بالصور الكونية، فالصور الكونية هي ذنبه ﷺ المستور بحقيقة الأحدية، والعجب أن هذا الذنب لا عين له حقيقية، وإنما هو أمر وهمي يظهر أنه عيني من ظلمة الحجاب، ومع ذلك فلولا هذا عدم البوهمي ما ظهر الوجود، فالوجود لا مظهر له إلا العدم وبالعكس. فلذا فتح الله لمحمد ﷺ ﴿فَتَحًّا مُبِينًا﴾ [الفتح: 1]، ليغفر له، أي: لأجل أنه يبين هذا الفتح المبين له، مغفرة ما تقدم من صور حقيقته، وما تأخر بوجود حقيقته، وسُميت هذه الصورة الكونية ذنبًا باعتبار نسبة الوجود إليها؛ لأن ذلك من أعظم الذنوب .. فلما بدا هذا الفتح المبين لمحمد ﷺ أبان له أن الكون كله مغفور بحقيقته، وحقيقته مغفورة بوجود الله الغافر بوجوده كل أول وآخر وظاهر وباطن، فالكل هو وهذه هي مغفرة الذنب الكوني ما تقدم منه وما تأخر، فلذلك قال: ﴿وَيُتِمَّرُ نِعْمَتُهُ عَلَيْكَ﴾ [الفتح: 2]، فأتَمَّ نعمته بتجلي ذاته وأسمائه وصفاته وشئونه ووجوهه واعتباراته، وهذا هو الصراط المستقيم الذي قال في حقه: ﴿وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ [الفتح: 2]، ولما اقتضى إتمام النعمة عليه بما ذكرنا أن يكون مظهر الاسم الأعظم الجامع قال تعالى: ﴿وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ﴾ [الفتح: 3]، أي: بكونه إياك ﴿نَصْرًا عَزِيزًا﴾ [الفتح: 3]، إذ لا أعز من الله تعالى، وقد أحبه فكان سمعه وبصره كما في الحديث.

واعلم - رحمك الله - أن من فتح الله له فتحًا مبينًا وكشف له عن حقيقة نفسه لا يرى في الوجود غير نفسه، وأهل الفتح متفاوتون في هذا المشهد، وقد قال فيه ﷺ: «أوتيت جوامع الكلم» أي: أوتيت الكلم الجوامع، والكلم الجوامع هي أسماء الحق وأوصافه.

ألا ترى أن الاسم الله الأول مثلاً يجمع كل أولية، واسمه الآخر يجمع كل آخرية، واسمه الباطن يجمع كل باطنية، واسمه الظاهر يجمع كل ظاهرية، فهذه هي جوامع الكلم التي أوتيتها، ومعنى أوتيتها أنه مدلولها ومعناها، فمن تحقق بهذا المعنى فتحًا وكشفًا كان ذنب الوجود كله ذنبه، وأعظم الذنوب دعوى الوجود مع الله تعالى، فمن فتح له وشاهد مقام واحديته فقد غفر له ذنب شهود كونيته وأثنينيته، ولذلك علل سبحانه الفتح المبين بقوله: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ﴾ [الفتح: 2]، فهذا الغفران انمحي من الوجود سواء وبهذه الحال سماه الله بالفؤاد فقال: ﴿مَا كَذَّبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ [النجم: 11]، لأن الفؤاد قلب القلب وصره وباطنه، وأشار لذلك ﷺ بقوله: «قلب القرآن يس» فالقرآن بلسان الإشارة وجود الله الجامع لكل شيء، فهو قلب كل شيء، وقلب هذا القلب هو الفؤاد وهو ياسين ﷺ، ولما اقتضى الفتح المبين أن يغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر بأن

يكون هو عين جميع من تقدم أو تأخر، كما قال: «نحن الآخرون الأولون» بشره الله تعالى بشارة مؤكدة لهذا المعنى بقوله: ﴿طه﴾ [طه:1]، أي طاهر الذات يا مرجع الأسماء والصفات ﴿مَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ﴾ [طه:2]، أي: ما تجلينا عليك بمقتضى واحدتنا ﴿لِتَشْقَى﴾ [طه:2]، يعني أن هذه الحقيقة لا يلحقها الشقاء الذاتي، وإنما الشقاء عارض نسبي.

ألا ترى قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس:4]؛ لأنه خلقنا منه كما قال: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾ [الباقية:13]، أي: من ذاته، ولو كان المراد من فعله لاكتفى بقوله سخر لكم، فأفاد بقوله: ﴿جَمِيعًا مِنْهُ﴾ إنه عين المسخر، كما أنه عين المسخر، فليس الشقاء إلا الحجاب، والحجاب عارض فداوى جلّ وعلا علة، فمنهم شقي وسعيد بدواء آية طه، فكان الشقاء من هذه العلة هو العاقبة، ولا سيما وقد قال: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ [الحديد:3] فمن فهم هذا المعنى فقد فهم الفتح المبين وأدرك حقيقة قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء:17] فنزلت السكينة في قلبه فسكن إليها، لأنه يؤمن بأن محمدًا ﷺ حقيقة وعينه وذاته، وأي شيء نسكن إليه أعظم من ذلك، فمن أدرك هذا السر فقد شرب وسقي وطرب، ألا ترى من دخل هذه الحان وهو أبو تراب ﷺ كيف شرب وطرب وعربد من سماع هاتيك الألحان، فقال: أنا العرش أنا الكرسي أنا القلم أنا اللوح أنا جنب الله الذي فرطتم فيه، فبهذه السكينة التي نزلت في قلبه من إفاضة قلب القلوب وفؤاد كل محب ومحبوب حصل له كما قال الله تعالى: ﴿لِيَزَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيْمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الفتح:4]، فمن ازداد إيمانًا مع إيمانه الأول أيقن بأن جنود الأسماء والصفات ومظاهرها في الأرض والسموات هي الله الذي سكن إليه، فكان هو المسكن وكان الله إلى وجودنا الذي نسكن إليه ﴿عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الفتح:4] أي: بناء؛ إذ نحن مظهره، وهو الظاهر بنا فثبت جنود السماوات والأرض إلينا، ولذا قال: ﴿لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ﴾ [الفتح:5]، وهي اللطائف المحمدية المشتملة على الأسرار الربانية تجري من تحتها الأنهار التي هي العلوم الإلهية، وهي من تحت هذه اللطائف؛ لأن الأسماء في الرتبة هي تحت الذات؛ إذ العلم والسمع والبصر وأمثال ذلك في قبضة حياة الذات، والذات التي هي الجنات، وهي المظاهر الحق من تحتها تجري أنهار الأسماء والصفات ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ [الفتح:5] يعني أن الذات التي يدخلونها بالكشف والتحقيق هي خالدة وهم فيها خالدون فلهم بذلك البقاء الدائم ﴿وَنُكَفِّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ [الفتح:5]، فلا يسوءهم شيء بعد ما عرفوا فيهن الخلود بل يفوزون فوز الأبد كما قال تعالى: ﴿وَوَكَانَ ذَلِكَ عِندَ اللَّهِ﴾ [الفتح:5] الذين هم عنده بالعنوية اللاتية فوزًا

[الفتح: 1] ظاهرًا عظيمًا بأن ألهمنا عليك، وأوضحنا لك طريق الخروج من مضيق الإمكان إلى فضاء الوجوب، ويسرنا لك الترقى والعروج من حضيض الجهل وأودية الضلال على ذروة العلم وأوج الوصال.

وإنما فتحنا لك ما فتحنا ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ﴾ ويسر عليك ﴿اللَّهُ﴾ المحيط بعموم أحوالك وشئونك ﴿مَا تَقْدَمُ مِنْ ذَنْبِكَ﴾⁽¹⁾ الذي عرض عليك بمقتضى بشرتك وإمكانك قبل انكشافك بوحدة الحق ﴿وَمَا تَأْخُرُ﴾ بعده من تلويناتك في بعض الأحوال المسرة والمؤلمة حسب النشأة البشرية ﴿و﴾ بالجملة: ﴿يَسِّمُ نِعْمَتَهُ﴾ الموعودة لك حسب استعدادك ﴿عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ [الفتح: 2] موصلًا على مقصد التوحيد الذاتي.

﴿و﴾ بالجملة: ﴿يَنْصُرَكَ اللَّهُ﴾ الوكيل الكفيل لك في عروجك وترقيك عن بقعة الإمكان ﴿نُصْرًا عَزِيزًا﴾⁽²⁾ [الفتح: 3] منيعًا غالبًا حيث لم يغلب عليك بعد انكشافك

عظيمًا، أي: به هذا الفوز العظيم، فإذا سرت بهذا المعنى في هذه السورة فانت الطائر في الأفق الأعلى ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَرَىٰ بَعْدَهُ لَمَلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [الإسراء: 1] وهي صورته المحترمة إلى المسجد الأقصى، أي: باطن ذاته الذي هو أقصى عن أن تدركه الأبصار، وفي هذه السورة من البشارات واللطائف ما لا تدركه العقول، وقد مهدنا لك الطريق إلى سلوك تلك المسالك، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

(1) قال المحقق البقلي: تبهنا الله في ذلك من سرّ عجيب، وهو أن أبواب كشف القدم مسدودة على أهل الحدثان، ولم يظهر لأحد عين ذات الأزل، ففتح الله أبوابه لعين محمد ﷺ حتى رآه كفاخًا، فتح سمعه فأسمعه كلامه شفاهاً، وفتح باب قلبه وروحه وسرّه، فعرف نفسه لها، حتى وجدت أبواب خزائن علومه الغيبية مفتوحة، وفتح الله جميع أبواب وجود حبيبه ﷺ حتى الشعرة على بدنه وجعلها عيونًا مفتوحة بمفاتيح توحيده وأنوار حقيقته حتى رآه بجميع عيون وجوده، وذلك الفتح ظاهر من وجوده حتى لا يراه أحد إلا ويرى نور الصمدية يتشر من بشرته، لكن كان محجوبًا من عيون الأغيار.

(2) قال ابن عطاء: جمع الله للنبي ﷺ في هذه الآية من نعم مختلفة: بين الفتح المبين وهو من أعلام الإجابة، والمغفرة وهي من أعلام المحبة، وتمام النعمة وهي من أعلام الاختصاص، والهداية وهي من التحقق بالحق، والنصر وهو من أعلام الولاية، والمغفرة تبرئة من العيوب، وتمام النعمة إبلاغ الدرجة الكاملة من الحق، والهداية هي الدهوة إلى المشاهدة، والنصرة هي رؤية الكل من الحق من غير أن يرجع إلى سواه. وقال الواسطي: فتح عين رسوله ﷺ لمشاهدته في

بسرائر التوحيد جنود أمارتك وشياطين بشريتك مطلقًا.

وكيف لا ينصر ك ربك؟ ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ﴾ أي: الطمأنينة والوقار ﴿فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ مقتبس من مشكاة نبوتك نور الولاية اللامعة المتشعشة من شمس الذات ﴿لِيَزِدَادُوا إِيمَانًا﴾ بهدايتك وإرشادك ﴿مَعَ إِيْمَانِهِمْ﴾ بأنك على الحق المبين ﴿وَكَيْفَ لَا يَزِدَادُونَ إِيمَانًا يَا أَكْمَلِ الرُّسُلَ﴾ مع أنك فزت بالفوز العظيم من الوحدة الذاتية وصرت مصونًا محفوظًا في كنف الحق وجواره، منصورًا على عموم أعدائه؛ إذ ﴿لِلَّهِ﴾ وفي حيلة قدرته الغالبة ﴿جُنُودُ السَّمَوَاتِ﴾ أي: مدبرات الأسماء والصفات ﴿وَالْأَرْضِ﴾ أي: قوابل الأركان والطبائع التي هي حوامل آثار العلويات والمأثورات منها ﴿وَكَانَ اللَّهُ﴾ المطلع لعموم ما في استعدادات عباده وقابلياتهم ﴿عَلِيمًا﴾ بحوائجهم لدى الحاجة ﴿حَكِيمًا﴾ [الفتح: 4] في تدبيرات أمورهم على وفق الحكمة المتقنة والمصالحة المستحكمة.

كل ذلك ﴿لِيَدْخُلَ﴾ سبحانه بمقتضى سعة رحمته وجوده ﴿الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ من أمة حبيبه وصفية المستخلف منه سبحانه في بريته وعموم خليقته ﴿جَنَّاتٍ﴾ منتزهات العلم والعين والحق ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي: جداول المعارف والحقائق المترشحة من بحر الذات ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ بلا تلوين وتحويل ﴿وَنُكَفِّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ أي: يمحو عن عيون بصائرهم أشباح أنانياتهم، وأمواج هوياتهم المستحدثة على بحر الوجود، ومن نكبات التعينات وحرص الإضافات ﴿وَكَانَ ذَلِكَ﴾ الإدخال والإيصال والتكفير ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ المتمركز برداء العظمة والكبرياء ﴿قَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: 5] وأجزًا جميلًا، لا فوز أعظم منه وأعلى.

﴿وَكَمَا يَدْخُلُ﴾ كما يدخل سبحانه المؤمنين والمؤمنات في روضات الجنات تفضلاً وإحساناً ﴿يُعَذِّبُ﴾ أيضاً ﴿الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ﴾ وهم الذين أخرجوا أعناقهم عن عروة العبودية بمتابعة الأهوية الفاسدة والآراء الباطلة، وأظهروا الإيمان على طرف اللسان بلا إخلاص وإذعان ﴿وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ﴾ وهم الذين جحدوا في الله الواحد الأحد الصمد، المنزه عن الشرك مطلقًا، وأثبتوا له شركاء ظلمًا وزورًا ﴿الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ﴾ المستقل بالالوهية والربوبية ﴿ظَنُّ الشُّؤْمِ﴾ وهو أنه لا ينصر أوليائه الباذلين

مهجهم في طريق توحيدهم، بل تدور ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ ويحيط بهم وبآل ما تظنونه على أولياء الله، كيف ﴿وَغَضِبَ اللَّهُ﴾ المطلع على ما في ضمائرهم ﴿عَلَيْهِمْ﴾ بل ﴿وَلَعَنَهُمْ﴾ أي: طردهم عن ساحة عز قبوله ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ﴾ الطرد والحرمان ﴿وَسَاءَتْ لَهُمْ جَهَنَّمَ﴾ [الفتح: 6] أي: مقرًا ومنقلبًا ومرجعًا ومآبًا.

﴿وَوَيْلٌ لِلَّذِينَ لَا يَلْعَنُهُمْ سَبْحَانَهُ وَلَا يَغْضَبُ عَلَيْهِمْ﴾ مع أنهم يظنون بالله ظن السوء، ويعتقدونه عاجزًا عن نصر أوليائه، مع أنه ﴿اللَّهُ﴾ وفي حيلة قدرته وتحت تصرفه ﴿جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وله أن يأمرهم ما يشاء، ويغلبهم على من يريد إرادة واختيارًا ﴿وَوَيْلٌ لِلَّذِينَ لَا يَلْعَنُهُمْ سَبْحَانَهُ﴾ المتوحد بالعظمة والكبرياء ﴿عَزِيزًا﴾ غالبًا على عموم مراداته ومقدوراته بلا معاونة أحد ومظاهرتة ﴿حَكِيمًا﴾ [الفتح: 7] في أفعاله المتقنة، يدبرها بالاستقلال وفق حكمته البالغة.

ثم قال سبحانه في مقام الامتنان لحبيبه ﷺ: إظهارًا لكمال قدرته الشاملة وحكمته الكاملة: ﴿إِنَّا﴾ من مقام عظيم جودنا ﴿أَرْسَلْنَاكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿شَاهِدًا﴾ على عموم عبادنا، يشهد لهم عندنا عموم ما صدر عنهم من الصالحات الجالبة لأنواع المثوبات والكرامات ﴿وَمُبَشِّرًا﴾ بهم، يبشرهم برفع الدرجات والفوز بالسعادات ﴿وَنَذِيرًا﴾⁽¹⁾ [الفتح: 8] ينذرهم عن الدركات العاتقة عن الوصول إلى جنة الذات التي دونها تجري بحر الحياة.

كل ذلك ﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ﴾ وتذعنوا بتوحيده ﴿وَرَسُولِهِ﴾ أي: تصدقوا برسوله الذي أرسل إليهم من عنده سبحانه ﴿وَوَيْلٌ﴾ بعد اتصافهم بكمال الإيمان والإذعان ﴿تُعَزِّرُوهُ﴾ سبحانه؛ أي: تعتقدوا أن الحول والقوة بالله جميعًا، لا حول ولا قوة لسواه مطلقًا ﴿وَوَيْلٌ﴾

(1) قال البقلي: أي: شاهدًا على توحيدهم ومعرفتهم ومحبتهم وولايتهم، وبنور الله على قلوبهم وأسرارهم، ومبشرًا يبشرهم بالوصول ورؤية الجمال والجلال، ونذيرًا من العتاب والحجاب، وأيضًا شاهدًا للعازفين، بدا من الحق لهم؛ ليروا من مشاهدته أنوار جمال الحق، ومبشرًا للمخبيين، يبشرهم بالوصول إلى قرب حبيبهم بلا علة، ونذيرًا للمقبلين إليه لثلا يميلوا إلى غيره. قال سهل: شاهدًا عليهم بالتوحيد، ومبشرًا لهم بالمعرفة والتأييد، ونذيرًا محذرًا إياهم البدع والضلالات.

قال ابن عطاء: شاهدًا علينا، ومبشرًا لنا، نذيرًا عنا، وداعيًا إلينا، وأنت المأذون في الكل؛ لأنك أمين على الكل، ولا يطبق هذه المراتب إلا الأسماء؛ فإنك الأمين حق أمين.

بعدهما اعتقدتم كذلك ﴿تُوقِرُوهُ﴾ وتعظموه حق تعظيمه ﴿وَر﴾ بعدما وفرتموه وعظمتوه كما ينبغي ويليق بشانه ﴿تُسَبِّحُوهُ﴾ وتزهوه عما لا يليق بجنابه ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفتح: 9] أي: في عموم أوقاتهم وحالاتهم؛ إذ لا يتأتى منهم بالنسبة إلى جنابه سبحانه إلا التفويض والتعظيم والتتزيه والتقديس، وإلا فما للعباد ورب الأرباب أن يتكلموا عن ذاته وصفاته، سوى أن يخوضوا في لجة بحر توحيده، ويتيهوا في بيداء ألوهيته حتى يفنوا في فضاء صمديته؛ إذ لا إله إلا هو ولا شيء سواه ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: 88].

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمِىْزَتُهُمْ أَجْرًا عَظِيمًا ١٠﴾ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِآيَاتِنَاهُمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ أَهْلِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ١١﴾ بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّتْ السَّوْءَ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا ١٢﴾ وَمَنْ لَمْ يُؤْمِرْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا ١٣﴾ وَاللَّهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ١٤﴾ سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَائِمٍ لِنَاخِلْتُمْ ذُرُونَا لْتَبِعْكُمُ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكَ أَلَفَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ سَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ١٥﴾ [الفتح: 10-15].

ثم قال سبحانه بلسان الجمع على سبيل الإرشاد والتكميل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ﴾ يا أكمل الرسل، ويختارون متابعتك، ويستهدون من هدايتك وإرشادك ﴿إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ الذي استخلفك عليهم وجعلك نائباً عن ذاته فيما بينهم، فعليهم ألا ينقضوا العهد والبيعة التي عهدوا معك، بل وكيف يسع لهم النقض مع أن ﴿يَذُ اللَّهُ﴾ وقبضة قدرته الغالبة ﴿فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ﴾ ونقض البيعة والعهد مع رسوله ﴿فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ أي: ما يعود وبال نقضه إلا عليه ﴿وَمَنْ أَوْفَى﴾ وحفظ ﴿بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ﴾ وهو معاهدتهم مع الرسول الله ﷺ بخلافته ﷺ عنه سبحانه ﴿فَمِىْزَتُهُمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾

للفداء ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾⁽¹⁾ [الفتح: 10] هو الفوز بشرف اللقاء والتحقيق لدى المولى. ﴿سَيَقُولُ لَكَ﴾ يا أكمل الرسل على سبيل الاعتذار ﴿الْمُخَلَّفُونَ﴾ أي: المنافقون الناقضون للعهود، المتخلفون عن الجهاد ﴿مِنَ الْأَغْرَابِ﴾ المجبولين على الكفر والنفاق: ﴿شَغَلْتَنَا﴾ عن متابعتك ومشايعتك ﴿أَمْوَالَنَا وَأَهْلُونَا﴾ أي: ليس لنا متعهد سوانا؛ لذلك حرمانا عن صحبتك وعن أجر الجهاد ﴿فَاسْتَغْفِرْ لَنَا﴾ يا رسول الله عند الله حتى يغفر ما صدر عنا من التخلف، لا تبال يا أكمل الرسل بهم وباعتذارهم واستغفارهم هذا، فإنه من شدة شكيمتهم وغيظهم وضعف عقيدتهم ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ تغريراً وتلييساً ﴿قُلْ﴾ لهم على سبيل التفضيح والتبكيث: ﴿فَمَنْ يَمْلِكُ﴾ أي: يدفع ويمنع ﴿لَكُمْ مِنَ اللَّهِ﴾ القادر المقتدر ﴿شَيْئًا﴾ من غضب الله إن ﴿أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ﴾ شيئاً من لطفه ورحمته إن ﴿أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا﴾ وبالجمله: لا راد لفضله، ولا معقب لحكمه ﴿بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [الفتح: 11] يجازيكم على مقتضى خبرته.

﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ﴾ أيها المتخلفون المثقلون ﴿أَنْ لَّنْ يَنْقَلِبَ﴾ ويرجع ﴿الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾ بل يستأصلهم العدو، فلن يرجع منهم أحد من سفرهم هذا، بل ﴿وَرُزِقَ﴾ أي: حُِبَّ وَحُسْنِ ﴿ذَلِكَ﴾ الاستتصال وعدم الرجوع، وتمكن ﴿فِي قُلُوبِكُمْ وَ﴾ قد ﴿ظَنَنْتُمْ﴾ بزعمكم هذا ﴿ظَنَّ السُّوءِ﴾ بالله ورسوله والمؤمنين ﴿وَ﴾ بالجمله: ﴿قَدْ كُنْتُمْ﴾ أزلاً ﴿قَوْمًا بُورًا﴾ [الفتح: 12] هالكين في تيه الجهل والعناد.

﴿وَ﴾ بالجمله: ﴿مَنْ لَّمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي: لم يجمع بين الإيمان بالله وتصديق الرسول المستخلف منه سبحانه ﴿فَإِنَّا﴾ بمقتضى قهرنا وجلالنا ﴿أَغْتَدْنَا﴾ وهياناً ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾ المصرين على الكفر والتكذيب ﴿سَعِيرًا﴾ [الفتح: 13] ناراً مسعرة ملتهبة تحيط بهم؛ جزاء ما أوقدوا في نفوسهم نار الفتن والطغيان لأولياء الله.

﴿وَ﴾ كيف لا يتقم عنهم سبحانه مع أنه ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وله

(1) قال الإمام الحسين - عليه السلام -: أسقط الرسائط عند تحقيق الحقائق، فأبقى رسومها، وقطع حقائقها، فمن بايع النبي ﷺ بايع الله على الحقيقة؛ فإن تلك بيعة الله؛ لأن يده في تلك البيعة يد عارية.

قال القاسم النصر آبادي: في وقت الاستنفار إلى الروم: ها قد ظهرت صفة البيعة فهل من راغب فيها، بيعة بلا واسطة.

التصرف فيهما بالاستقلال والاختيار ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ﴾ فضلاً وإنعاماً ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ عدلاً وانتقاماً ﴿وَكَانَ اللَّهُ﴾ المتصف بكمال اللطف والرحمة ﴿غَفُورًا﴾ لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ﴿رُحِيمًا﴾ [الفتح: 14] يقبل توبة التائبين، ويعفو عن زلاتهم.

ثم لما سمع المخلفون من الأعراب يوم الحديبية أن الله قد وعد المؤمنين فتح خيبر، وخص لهم الغنائم، قصدوا الخروج نحوها طامعين الغنائم؛ لذلك أخبر الله سبحانه حبيبه بقصدتهم هذا، فقال: ﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ﴾ المذكورون وقت ﴿إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ﴾ الموعودة لكم خاصة ﴿لِتَأْخُذُوهَا﴾ بفضل الله إياكم: ﴿وَذَرُونَا تَتَّبِعْكُمْ﴾ بغزوتكم هذه ونصركم، مع أنهم لا يقصدون الرفاقة والوفاق في نفوسهم ونياتهم، بل ﴿يُرِيدُونَ﴾ ويقصدون بقولهم هذا أن ﴿يُبَدِّلُوا﴾ ويغيروا ﴿كَلَامَ اللَّهِ﴾ الدال على تخصيص غنائم خيبر لمن حضر الحديبية بدل غنائم مكة.

﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل على وجه التأييد في النفي: ﴿لَن تَتَّبِعُونَا أَبَدًا كَذَلِكَ﴾ أي: مثلما سمعتم ﴿قَالَ اللَّهُ﴾ المطلع على ما في نفوسهم من النفاق والشقاق ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي: قبل تهيئاتكم أيها المؤمنون للخروج إلى خيبر ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾ بعدما سمعوا النهي على وجه التأييد في نفوسهم: ما أمرهم الله هذا ﴿بَلْ تَخْشَوْنَآ﴾ على أخذ الغنيمة؛ أي: ما حملهم على هذا النهي المؤكد المؤبد إلا الحسد والشح ﴿بَلْ﴾ هم قوم جاهلون ﴿كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ﴾ ولا يفهمون مراد الله العليم الحكيم عن منعهم هذا ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الفتح: 15] منهم، وهم المصدقون بالله ورسوله في سرائرهم ونجواهم.

﴿قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سُدُّعُونَ إِلَى قَوْمِ أُولَىٰ بِأَن سُلِّمُوا نَفْسَهُمْ أَوْ يُسْلَمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤَيِّدْكُمْ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ١٦﴾ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يَدْخُلْهُ جَنَّتُي تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ١٧﴾ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُوكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ١٩﴾ وَعَدَّكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ آيَةَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَتَهْدِيَكُمْ

صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَوْ قَتَلْتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُوكَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ يَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ [الفتح: 16-23].

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل ﴿لِلْمُخْلَفِينَ مِنَ الْأَغْرَابِ﴾ بعدما أسوا من الخروج إلى خيبر: ﴿مُسْتَدْعُونَ إِلَى﴾ غزوة ﴿قَوْمِ أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ وشوكة عظيمة ﴿تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسَلِّمُونَ﴾ أي: مآل أمرهم إمّا القتل وعزته، وإمّا الإسلام لا غير ﴿فَإِنْ تُطِيعُوا﴾ حيثنذ، ولم تتخلفوا كما تخلفتم يوم الحديبية ﴿يُؤْتِكُمُ اللَّهُ﴾ المطلاع بنياتكم ﴿أَجْرًا حَسَنًا﴾ في الدنيا والآخرة ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ وتنصرفوا ﴿كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ﴾ يوم الحديبية ﴿يُعَذِّبُكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح: 16] لتضاعف جرمكم، وشدة شقاقكم ونفاقكم.

ثم أخذ سبحانه في تعداد ما يرخص لهم التخلف والقيود على سبيل الاضطرار فقال: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ﴾ أي: ليس لهؤلاء وزر مؤاخذه إن تخلفوا عن القتال بأمثال هذه الأعذار إن كانوا من أهل الطاعة والإيمان ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ على وجه الإخلاص والوفاق بلا بطانة ونفاق ﴿يُدْخِلْهُ﴾ سبحانه بمقتضى فضله وسعة رحمته وجوده ﴿جَنَّاتٍ﴾ منتزهات الكشوف والشهود ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ من المعارف والحقائق المتجددة بتجددات التجليات الإلهية، المتشئة من النفسات الرحمانية ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ﴾ أي: يعرض وينصرف عن مقتضى العدالة الإلهية بمتابعة الآراء الفاسدة والأهوية الباطلة ﴿يُعَذِّبْهُ﴾ بمقتضى قهره ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح: 17] في نيران الإمكان، لا عذاب أشد إيلا ما منه.

ثم قال سبحانه على وجه التحريض والترغيب للمؤمنين: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ المخلصين في الإطاعة والانقياد ﴿إِذْ يَبَايِعُونَكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ يوم الحديبية بيعة الرضوان، والشجرة هي: السمرة أو السدرة ﴿فَعَلِمَ﴾ سبحانه بعلمه الحضورى ﴿مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ من الرغبة والإخلاص ﴿فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ﴾ أي: الطمأنينة والوقار ﴿عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ﴾ بعدما أسوا عن فتح مكة، ورجعوا من الحديبية ﴿فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: 18] هو فتح خيبر بعد رجوعهم منها.

﴿وَقَدْ رَزَقَ لَهُمْ خَاصَةً﴾ مغايم كثيرة يأخذونها ﴿مِنْ خَيْرِ بَعْدِ غَنَائِمِ مَكَّةَ﴾ بالجملة: ﴿كَانَ اللَّهُ﴾ المراقب لأحوال عباده ﴿عَزِيزًا﴾ غالبًا على عموم مقدوراته

﴿حَكِيمًا﴾ [الفتح: 19] مراعيًا مقتضى الحكمة البالغة.

إنه ﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ﴾ أيها المؤمنون المخلصون في إطاعة الله ورسوله ﴿مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾ من أيدي الكفرة إلى قيام الساعة؛ إذ يظهر دينكم على الأديان كلها ﴿فَعَجَلْ لَكُمْ هَذِهِ﴾ غنائم خيبر ﴿وَكَفَّ أَيْدِي النَّاسِ عَنْكُمْ﴾ أي: أهل خيبر وأوليائهم، وكفى مؤنة عموم من قصد السوء على أموالكم وذراريكم ﴿وَوَ﴾ إنما فعل بكم سبحانه ذلك ﴿لِتَكُونَ﴾ هذه الكفة والغنيمة ﴿آيَةً﴾ علامة وأمانة ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ الذين يأتون بعدكم، ويقتفون أثركم بأن المؤمن المخلص في جوار الله وكنف حفظه وحضائته ﴿وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ [الفتح: 20] هو الثقة بالله وبكرامته ونصره لأوليائه.

﴿وَ﴾ كذا عجل لكم عناية من الله إياكم مغانم ﴿أُخْرَى﴾ مع أنكم ﴿لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا﴾ لشوكة الأعداء وكثرة عددهم وعددهم، بل فررتم أنتم منهم مرارًا ﴿قَدْ أَخَاطَ اللَّهُ بِهَا﴾ وأباحها عليكم بالنصر والغلبة عليهم مع أنكم خائفون وجلون منهم، وهي مغانم هوازن وفارس ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿كَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ دخل في حيلة علمه وإرادته ﴿قَدِيرًا﴾ [الفتح: 21] لا يعجز عنه ولا يفتر دونه؛ إذ القدرة من جملة الأوصاف الغالبة الذاتية الإلهية، التي لا تفتر به ولا تضعف بحال.

﴿وَ﴾ من كمال قدرته ونصره لأوليائه: إنه ﴿لَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بعدما فررتم منهم وجبتهم عنهم ﴿لَوَلُّوا الْأَدْبَارَ﴾ عنكم بنصر الله إياكم ﴿ثُمَّ﴾ بعدما ولوا ﴿لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا﴾ يولى أمرهم ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ [الفتح: 22] ينصرهم وينقذهم من أيديكم.

ولا تستبعد يا أكمل الرسل من قدرة الله أمثال هذا؛ لكونها ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ﴾ أي: مضت واستمرت ﴿مِّن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ أَبَدًا لِّسُنَّةِ اللَّهِ﴾ التي جرت منه سبحانه بمقتضى حكمته ﴿تَبْدِيلًا﴾ [الفتح: 23] ولا لحكمه الصادر عنه بالإرادة والاختيار تغييرًا وتحويلاً.

﴿وَمُؤَلَّى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِطَنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾
وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْمَدِينِ
مَعَكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ حِلُّهُ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّزَّ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَافُوهُمْ فَيَنصِبِيكُمْ

مِنْهُمْ مَعْرَةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ لُغْمِيَّةً حَمِيَّةً لِبَغْيِيَّةٍ فَانْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ مَآمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ تَحْمَدُ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَيْجٍ أَخْرَجَ شَطَنَهُ فَتَازَرَهُ فَاسْتَفَلَظَ فَاَسْتَوَى عَلَى سُوْقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ [الفتح: 24-29].

﴿و﴾ كيف تبدل سنة الله وتغير حكمته مع أنه ﴿هُوَ﴾ القادر المقتدر ﴿الَّذِي كَفَّ﴾ وضع ﴿أَيْدِيَهُمْ﴾ أي: أيدي كفار مكة ﴿عَنْكُمْ﴾ حين استيلاءهم عليكم ﴿وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ﴾ حين غلبتم عليهم ﴿يَبْطُنْ مَكَّةَ مِنْ بَغْدٍ أَنْ أَظْفَرَكُمْ﴾ وأظهركم ﴿عَلَيْهِمْ﴾ وذلك أن عكرمة بن أبي جهل خرج مع خمسمائة إلى الحديبية، فبعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد على جند، فهزمهم حتى أدخلهم حيطان مكة، ثم قال: ﴿و﴾ بالجملة: ﴿كَانَ اللَّهُ﴾ العليم الحكيم ﴿بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ من خير وشر ﴿بَصِيرًا﴾ [الفتح: 24] خبيرًا، لا يعزب عنه شيء مما جرى عليكم، يجازيكم على مقتضى بصارته وخبرته.

وكيف لا يجازي الكفرة سبحانه بأسوء الجزاء؟ إذ ﴿هُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله ظلماً وعدواناً ﴿و﴾ لم يقتصروا على الكفر فقط، بل ﴿صَدُّوكُمْ﴾ أي: حصروكم وصرفوكم ﴿عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ عام الحديبية ﴿و﴾ الحال أنه قد صار ﴿الْهُدَى﴾ أي: الذبائح

والقرايين التي ساقها رسول الله ﴿مَغْكُوفًا﴾ محبوبًا قريبًا أن ﴿يَبْلُغَ مَجْلَهُ﴾⁽¹⁾ أي: مذبحه الذي عينه الله لذبح الضحايا، وهو المنى.

﴿وَلَوْلَا رِجَالُ مُؤْمِنُونَ بَيْنَهُمْ وَنِسَاءُ مُؤْمِنَاتٍ﴾ في خلالهم، لم يكف سبحانه أيديكم عنهم، بل نصركم عليهم واستأصلتموهم بالمرّة، لكن لما كان بينهم من المؤمنين والمؤمنات كف سبحانه أيديكم عنهم مخافة ﴿لَمْ تَعْلَمُوهُمْ﴾ أي: المؤمنين المخلوطين بهم، ولم يميزوهم من الكفار ﴿أَنْ تَطَّوَّهُمْ﴾ تدوسوهم ﴿فَتَصِيَّكُمْ مِنْهُمْ﴾ أي: من أجل المؤمنين المخلوطين بالكافرين وجهلهم ﴿مُعَذَّة﴾ أي: مضرة وكروه من لزوم دية وكفارة، وإثم عظيم وتعير شديد، وغير ذلك من المنكرات مع أنه إنما صدر عنكم الوطأة والدوس لو صدر ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ وخبرة، وإنما كف أيديكم عنهم حين أظفركم عليهم ﴿لِيُدْخِلَ اللَّهُ﴾ المطلاع بما في استعدادات عباده من الإيمان والكفر ﴿فِي رَحْمَتِهِ﴾ التي هي التوحيد والإسلام ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ منهم حتى ﴿لَوْ تَرَّأَلُوا﴾ وتفرقوا أي: المؤمنين من الكافرين ﴿لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح: 25] في غاية الإيلام من السبي والجلاء وأنواع المصيبة والبلاء.

اذكر يا أكمل الرسل إذ ﴿جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ﴾ الأنفة والغيرة لا على وجه الحق بل ﴿حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ وذلك أنه ﷺ لما نزل الحديبية، فهم بقتال أهل مكة، بعثوا سهيل بن عمرو وحويطب بن عبد العزى ومكرز بن حفص، ليرجع من عامه، وتُخلى له مكة من العام القابل ثلاثة أيام.

فقال ﷺ لعلي عليه السلام: «اكتب بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما صالح رسول الله ﷺ أهل مكة»، فقالوا: ما نعرف هذا، اكتب: بسمك اللهم، هذا ما صالح محمد بن عبد الله.

فقال ﷺ: «اكتب ما يريدون»⁽²⁾، فكتب، فهم المؤمنون أن يبطشوا ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ﴾ ووقاره ﴿عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ إذ هم أحقاء بالطمأنينة والوقار وكظم

(1) قال في التأويلات: ومحل الصدق والإخلاص يعني: من خاصة النفس أن تصد وجه الطالب عن الله، وينشوب الخيرات والصدقات التي يتقرب بها إلى الله بالرياء والسمعة والعجب؛ لئلا يبلغ محل الإخلاص والقبول.

(2) ذكره القرطبي في «تفسيره» (318/9).

الغيظ وتوطين النفس بالمكاره ﴿و﴾ بالجملة: ﴿الْزَمَهُمْ﴾ سبحانه ﴿كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾ واختار لهم صون النفس عن التهور والغلظة ﴿وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا﴾ من غيرها ﴿وَأَهْلَهَا﴾⁽¹⁾ أي: كانوا أهلاً لحفظها ورعايتها ﴿و﴾ بالجملة: ﴿كَانَ اللَّهُ﴾ المراقب لعموم أحوالهم ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ﴾ يليق بهم وينبغي لهم ﴿عَلِيمًا﴾ [الفتح: 26] يوفقهم عليه ويسهل عليهم الاتصاف به.

ثم لما رأى ﷺ في منامه أنه وأصحابه دخلوا مكة آمنين، وقد حلقوا وقصروا، فقص ﷺ الرؤيا على أصحابه، ففرحوا وظنوا أن ذلك في عامهم هذا، فلما تأخر بالصلح والمعاهدة، قال بعضهم: والله ما خلقنا وما قصرنا وما رأينا البيت، فنزلت: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا﴾ أي: جعله سبحانه صادقاً في ما رأى ملتبساً ﴿بِالْحَقِّ﴾ والله أيها المؤمنون ﴿لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾ من العدو؛ إذ ما أريناه ما أريناه إلا بالحق ﴿مُخَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ﴾ على الوجه المتعارف ﴿وَمُقَصِّرِينَ﴾ كما هو عادة الحجاج يحلق بعضهم ويقصر بعضهم، وبالجملة: ﴿لَا تَخَافُونَ﴾⁽²⁾ بعد ذلك؛ إذ الله معكم ﴿فَعَلِمَ مِنْكُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا﴾ من أنفسكم، ولا تستعجلوا إلى الفتح؛ إذ هو

(1) قال في التأويلات: مع جميع الأمم؛ لأن النبي ﷺ كان خلاصة الموجودات وأصلها، وهو الحبيب الذي خلقت الموجودات بتبعيته، والكلمة هي صورة الجذبة التي توصل الحبيب بالحبيب والمحب بالمحبيب، فهي بالنبي أحب؛ لأنه هو الحبيب لتوسله إلى حبيبه، وأمه أحق بها من الأمم؛ لأنهم المحبون لتوصل المحب بالمحبيب، وهم أهلها لأن أهل هذه الكلمة من يفدي بذاته وصفاته من حقيقة الكلمة، فينتفي بنفها عن ذاته وصفاته، ويبقى بإثباتها معها بلا أنانية، وما بلغ هذا المبلغ بالكمال إلا النبي ﷺ، فيقول: «أما أنا فلا أقول أنا وأمتي»؛ لقوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: 110].

(2) إشارة الآية مع المشتاقين إلى مشاهدة الحق بأنهم يدخلون حرم الربوبية آمنين عن جريان العبودية عليهم، آمنين من ذل الحجاب بعد كشف النقاب، والاستار وقع على المشيئة الأزلية السابقة بحسن العناية لهم، وفي نفس الآية أنه لو يريد أن يلبسهم وصف الصمدية حتى لا يفنوا في الوجدانية لقدر، وهو هكذا يفعل، لكن رمز الاستار يورث هبة الحق؛ إذ صار عروس القدر غير منكشف لأهل الحدث، أدب الجمهور برؤية الله مع رؤية القدر السابق؛ حتى لا يسقط عنهم شروط الهيبة والمراقبة، سئل بن عبد الله: ما هذا الاستار من الله؟ قال: تأكيداً في الافتقار إليه، وتأكيداً لعباده في كل حال ووقت تنبيهاً أن الحق إذا استثنى مع كمال علمه ألا يجوز له الحكم من غير استثناء مع قصور علمه.

مرهون بوقته ﴿فَجَعَلَ﴾ لكم ﴿مِنْ دُونِ ذَلِكَ﴾ أي: فتح مكة ﴿فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: 27].
هو فتح خيبر؛ ليطمئن به قلوبكم إلى أن يتيسر لكم الفتح الموعود الذي أخبر به نبيكم
الصادق المصدق.

وكيف لا يصدق سبحانه مع أنه ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ﴾ ملتسبًا ﴿بِالْهُدَى﴾
والإرشاد إلى سبيل توحيده ﴿وَدِينِ الْحَقِّ﴾ الفاروق بين الباطل والضلال، ووعد له
﴿لِيُظْهِرَهُ﴾ أي: دينه ﴿عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ أي: جنس الأديان النازلة من عنده بأن نسخ
الجميع به ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [الفتح: 28] على صدقه في رؤياه وفي دعوته ونبوته،
وإظهار أنواع المعجزة بيده.

إنه قال سبحانه: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ﴾ حق، مرسل من عنده، مبعوث إلى كافة
البرايا؛ ليهديهم إلى توحيده الذاتي ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ من المؤمنين له، المصدقين لدعوته،
المتعطين بزلال مشربه ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ﴾⁽¹⁾ الساترين بغيوم هوياتهم الباطلة هوية
الحق الظاهر في الآفاق والأنفس، يدفعون مؤنة كثراتهم الوهمية بترويج الحق على
الباطل، وإعلاء كلمة التوحيد، وتقويم الدين القويم وإظهاره على سائر الأديان ﴿رُحَمَاءُ
فِيمَا بَيْنَهُمْ﴾ متواضعون مع أهل الحق وأرباب التوحيد؛ لذلك ﴿تَرَاهُمْ﴾ في عموم
أوقاتهم ﴿رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ أي: راكعين، ساجدين، متذللين، خاضعين، خاشعين، بلا
رعونة ولا رياء ولا سمعة ولا هوًى، بل ﴿يَتَتَفَعَّلُونَ﴾ ويطلبون بتذللهم هذا ﴿فَضْلًا مِّنْ

(1) اعلم أنه قد اجتمع حروف المعجم التسعة والعشرون في كل من الآيتين المذكورتين، وأول
الحروف في الآية الأولى: التاء المثناة في ثم، وآخرها: الصاد المهملة في صدروكم، وأولها في
الثانية: الميم في محمد، وآخرها: الصاد أيضًا في الصالحات، وليس في القرآن آية خوت
الحروف كلها غيرهما، ومن دعا الله تعالى بهما؛ استجيب له. والمراد: من قرأهما، ودعا
عندهما؛ استجيب له؛ لأنهما لجمعهما الحروف كلها؛ كانت بمنزلة القرآن كله، وقد صُحِّحَ أن
الدعاء مستجاب، مستجاب عند ختم القرآن، ولما كانت هذه الحروف مما أنزله الله تعالى على
آدم عليه السلام، وكان آدم قد تكلم بسبعمائة ألف لغة على ما جاء في بعض الروايات: كان من تكلم
بتلك الحروف؛ كمن تكلم بتلك اللغات كلها؛ لأن كلاً منها مشتملة على تلك الحروف، وقد
ضم إليها الحروف الأربعة الفارسية التي هي: الباء، والجيم، والزاي، والكاف المعجمة التي
تكلم بها بعض القبائل؛ ولذا كانت اللغة الفارسية ملحقة باللغة العربية؛ فجعلت كل منهما لسان
أهل الجنة.

اللَّهُ وَرِضْوَانًا ﴿ مِنْهُ سُبْحَانَهُ، وَبِالْجَمْلَةِ: ﴿سَيِّمَاهُمْ﴾ أي: سمتهم وعلاماتهم الدالة على نجابة طينتهم وكرامة فطرتهم ظاهرة ﴿فِي وَجُوهِهِمْ وَجِبَاهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ وكثرة التذلل والخشوع نحو الحق ﴿ذَلِكَ﴾ المذكور من أوصافهم ﴿مَثَلُهُمْ﴾ وصفتهم العجيبة المذكورة ﴿فِي الثُّورَةِ وَمَثَلُهُمْ﴾ هكذا أيضا ﴿فِي الْإِنْجِيلِ﴾.

وبالجملة: مثلهم في بدء ظهورهم وخروجهم أولاً في غاية الضعف والنعافة، واشتدادهم وغلظهم على الأعداء، ووفور رأفتهم ورحمتهم على الأولياء ثانياً ﴿كَزَرْعٍ﴾ أي: كمثل زرع وقع على الأرض ضعيفاً وبرز منها نحيفاً، ثم ظهر عليها ونبت قوياً يوماً فيوماً إلى حيث ﴿أَخْرَجَ شَطَأَهُ﴾ أي: أفراخه وأغصانه دقيقاً دقيقاً ﴿فَأَزْرَهُ﴾ قومه بالمعاونة ﴿فَأَسْتَقْلَطَ﴾ وعاد غليظاً بعدما رباه وأحسن تربيته ﴿فَأَسْتَوَى﴾ واستقام بعد ذلك ﴿عَلَى سَوْبِهِ﴾ أي: قصبه وساقه على وجه ﴿يُنْجِبُ الزَّرْعَ﴾ عند رؤيته بكمال كثافة وغلظته ونضارته ولطافته.

وإنما رباهم سبحانه وقواهم على أبلغ وجه وأحسنه ﴿لِيَغِيْظَ﴾ ويتحسر ﴿بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ المخالفون المخاصمون لهم من كمال تشدهم وترقبهم، وبالجملة: ﴿وَعَدَ اللَّهُ﴾ المطلع على ما في استعدادات عباده من الإخلاص والتفويض ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بكمال المحبة والتسليم ﴿وَوَ﴾ مع ذلك ﴿عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ المقربة لهم إلى الله ﴿مِنْهُمْ﴾ أي: من جنسهم ﴿مُغْفِرَةً﴾ سترًا ومحواً لأنانياتهم الباطلة ﴿وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: 29] هو الفوز بشرف اللقاء، والوصول إلى سدرة المنتهى، وليس وراء الله مرمى.

رزقنا الله الوصول إليه، والوقوف بين يديه.

خاتمة السورة

عليك أيها المحمدي المتوجه نحو توحيد الذات - مكنك الله في مقعد الصدق، ووطنك في مقر التوحيد - أن تعتدل في عموم أوصافك وأخلاقك وأعمالك، مجتنباً عن كلا طرفي الإفراط والتفريط، معرضاً عن قصور مطلق التخمين والتقليد، مقتصدًا في جميع أطوارك وشئونك، مقتفيًا في جميع أخلاقك وأطوارك أثر نبيك الهادي إلى سواء السبيل حتى يفتح لك أبواب عموم الكرامات والسعادات، وينغلق دونك مداخل أنواع المكروهات والمنكرات، وإياك إياك أن تختلط مع أهل الغفلة وأصحاب

الجهالات المترددين في أودية الغي والضلالات؛ ليتيسر لك التحقق إلى فضائل الوصال.

جعلنا الله من زمرة أوليائه المقتصدين، الذين ثبتوا على الصراط المستقيم.

سورة الحجرات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فاتحة سورة الحجرات

لا يخفى على أرباب المحبة والولاء، المتحققين بمقام التسليم والتأديب مع الله في عموم أحوالهم وأفعالهم أن كمال العبودية والإخلاص إنما يظهر بحسن الأدب والمحافظة على أداء حقوق الربوبية والوفاء على مقتضيات عهد الألوهية، وذلك إنما يحصل برعاية حقوق من اختاره الله لرسالته واصطفاه لخلته وخلافته؛ إذ هو الوسيلة الموصلة لعباد الله إلى الله والهادي لهم إلى جناب قدسه.

لذلك أوصى سبحانه خلص عباده بمحافظة الأدب مع الله ورسوله، فقال بعدما تيمن باسمه العظيم: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ المراقب لأحوال عباده ﴿الرَّحْمَنِ﴾ عليهم بتعليم الأدب إياهم ﴿الرَّحِيمِ﴾ لهم بتلقين الرضا والتسليم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَانْقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝١﴾
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَفْضُونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ آمَنُوا قُلُوبُهُم لِلنَّقْوَىٰ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ۝٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝٤﴾ [الحجرات: 1-4].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ مقتضى إيمانكم: مراعاة الأدب مع الله ورسوله، فعليكم أن ﴿لَا تَقْدِمُوا﴾ ولا تتقدموا في أمر من الأمور وحكم من الأحكام ﴿بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي: لا تبادروا بإمضاء الأحكام ما لم تشاوروا بكتاب الله وسنة رسوله ولم تعرضوها عليهما ﴿وَانْقُوا اللَّهَ﴾ الغيور المطلع على ما في ضمائركم ونياتكم، واحذروا عن المسابقة والمبادرة في الأقوال والأحكام بمقتضى آرائكم وأهوائكم ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المراقب عليكم في عموم أحوالكم ﴿سَمِيعٌ﴾ لأقوالكم ﴿عَلِيمٌ﴾ [الحجرات: 1] بنياتكم فيها.

السنية، الموروثة له من ربه بعد مماته، فعليكم الإطاعة والمراجعة إليه حين حياته، وإلى سنته وشرعه في مطلق الأمور والعرض عليه وعليهما والمشاورة معه، فعليكم ألا تكلفوه إلى قبول ما حسنت لكم نفوسكم من الأمور، فإنه ﴿لَوْ يَطِيعُكُمْ﴾ ويقبل قولكم ﴿فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ﴾ أتممتم وهلكتم في الإثم البتة، واستفرقتم فيه؛ إذ من مقتضى إيمانكم وانقيادكم له أن تفوضوا أموركم كلها إليه، وتستصوبوها منه، فإن صوب بعضها فيها، وإلا فلا تكلفوه؛ إذ منصب النبوة ومقتضى الحكمة يأبى عن ذلك ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبِيبٌ إِلَيْكُمْ الْإِيمَانِ﴾ يعني: لا تعتذروا في إصابة البريء بمجرد القول الباطل والظن الفاسد بمحبة الإيمان وكراهة الكفر، فإنه سبحانه وإن حجب إليكم الإيمان ﴿وَزَيَّنَّ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ﴾ المؤدي إليه ﴿وَالْعِصْيَانَ﴾ المستلزم له، لكنه إنما حجب الإيمان على مقتضى الصدق والعدالة، وكره الكفر الناشئ عن قصد واختيار، لا أن ينسب إلى من ينسب عن بهتان وزور، فإنه سبحانه لا يرضى لعباده أمثاله، وبالجمل: ﴿أُولَئِكَ﴾ المؤمنون، المجتنبون عن الزور والتهمة ﴿هُمْ الزَّائِدُونَ﴾ [الحجرات: 7] المقصرون على الرشد والهداية إلى صراط مستقيم، هو صراط التوحيد المشتمل المعتدل بين كلا طرفي الإفراط والتفريط.

ولما صار رشادهم هذا ﴿فَضْلًا﴾ ناشئاً ﴿مِّنَ اللَّهِ﴾ المطلع لاستعدادات عباده وقابلياتهم ﴿وَنِعْمَةً﴾ موهوبة لهم من عنده ﴿وَاللَّهُ﴾ المحيط بعموم أحوال عباده ﴿عَلِيمٌ﴾ لحوائجهم المصلحة ﴿حَكِيمٌ﴾ [الحجرات: 8] في إفاضتها حسب المصلحة. ﴿وَ﴾ من جملة أخلاقكم أيها المؤمنون المعتدلون في مقتضى الإيمان: ﴿إِنْ﴾ كان ﴿طَائِفَتَانِ﴾ كلتا هما ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا﴾ عند ثوران القوة الغضبية، وهيجان الحمية الجاهلية من كلا الجانبين بسبب الخصومة المستمرة ﴿فَأُضْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾⁽¹⁾

(1) قال الشيرازي: إشارة الحقيقة في الآية أن وقائع الغيب عند كشفها في صدور الأولياء على خلاف مذاق الروح والعقل والسر؛ لوجود إتيانها من الغيب بالبدية، فبعضها للروح، وبعضها للسر، وبعضها للعقل، وبعضها للقلب فما وقع في السر فهو أعظم مما وقع على الروح، وما وقع على الروح أعظم مما وقع على القلب، وما وقع على القلب أعظم مما وقع على العقل؛ لأن واقعة السر كشف الأولية والآخرية من الأزل والأبد، ونواذره الشطح والعلم المجهول، وما وقع على الروح من كشف الجمال والجلال وعجائب الشوق والمحبة والسكر والانبساط، وما وقع على القلب من كشف العظمة ولطائفه الهيبة والإجلال وعلوم الصفات وحكم الربوبية، وما وقع على العقل من كشف نور الأفعال ونتائجها الأذكار والأفكار والمعاملة

مهما أمكن الصلح على وفق الحكمة والعدالة ﴿فَإِنْ بَغَتْ﴾ أي: غوت وغلبت ﴿إِخْدَاهُمَا عَلَى الْآخَرَى﴾ بحيث أدت بغيتها إلى الإفراط والظلم الخارج عن مقتضى العدالة الإلهية ﴿فَقَاتِلُوا﴾ بأمر الله، مظاهرين مع الطائفة المغلوبة على الطائفة الغالبة ﴿الَّتِي تَبْغِي﴾ وتغوي ﴿حَتَّى تَفِيءَ﴾ وترجع ﴿إِلَى أَمْرِ اللَّهِ﴾ وحكمه المترتب على القسط والعدالة ﴿فَإِنْ فَاءَتْ﴾ ورجعت عن بغيتها وطغيانها ﴿فَأُصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾ بعدما وقع ما وقع ﴿بِالْعَدْلِ﴾ المنبئ عن الحكمة ورعاية الغبطة بين الجانبين ﴿وَالْجَمَلَةَ﴾ ﴿أَقْسَطُوا﴾ واعتدلوا أيها المؤمنون في عموم أحوالكم وأحكامكم ﴿إِنَّ اللَّهَ الْمُسْتَوِي عَلَى الْعَدْلِ الْقَوِيمُ﴾ [الحجرات: 9] من عباده.

وكيف لا تصلحون بينهما أيها المؤمنون المصلحون؟ ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ﴾ الموقنون بوحدة الحق، المصدقون لرسوله المبين لطريق توحيده ﴿إِخْوَةٌ﴾ في الدين القويم ﴿فَأُصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ بالعدل والإنصاف ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في صلاحكم هذا عن الميل والانحراف ﴿لَعَلَّكُمْ تُزْحَمُونَ﴾ [الحجرات: 10] لأجل عدالتكم وتقواكم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ مقتضى إيمانكم ترك المراء والاستهزاء بحيث ﴿لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ﴾ منكم أيها الرجال القوامون المقيمون لحدود الله ﴿مِنْ قَوْمٍ﴾ أمثالكم في القيام والتقويم؛ أي: أقوياؤكم ورؤساؤكم من أراذلكم وضعفائكم ﴿عَسَى أَنْ يَكُونُوا﴾ أي: المسخورون المرذولون ﴿خَيْرًا مِنْهُمْ﴾ أي: من الرؤساء الساخرين عند الله، كذا ﴿وَلَا﴾ لا تسخر منكم ﴿نِسَاءٌ﴾ عالياً متعزلات ﴿مِنْ نِسَاءٍ﴾ سافلات مستضعفات ﴿عَسَى أَنْ يَكُنَّ﴾ أي: المستضعفات ﴿خَيْرًا مِنْهُنَّ﴾ أي: من العالياً عند الله، وكن أقرب إلى رحمته سبحانه منهن ﴿وَلَا تَلْمِزُوا﴾ أيها المؤمنون ولا تعيبوا ﴿أَنفُسَكُمْ﴾ أي: بعضكم بعضاً؛ إذ المؤمنون كنفس واحدة، فما لحق لهم وعليهم إنما لحق بهم وعليهم جميعاً ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ أي: لا يدعوا بعضكم بعضاً باللقب السوء الدال على الذم والقبح، فإن النبذ إنما يستعمل في اللقب السوء، وإنما نهيتهم عما نهيتهم؛ لأنه من جملة الفسوق والعصيان المستلزم لأنواع الخيبة والحرمان، المسقط

والعبودية، وهذه الأحكام عند أربابها مختلفة باختلاف كواشفها، ولبعضها على بعض معارضة من جهة غرائبها، فأصلاح بينهم لا يكون إلا بالكتاب والسنة وموازينهما؛ لا أن يعلمها بفرق بيان موارد الأسرار وعجائب الأنوار.

للمروءة والعدالة المترتبة على الحكمة الإلهية.

وبالجملة: ﴿بَشِّرِ الْأَنْفُسَ الْفُسُوقُ﴾ المنبئ عن الخروج والانحراف عن صراط الحق سيما ﴿بَغْدَ الْإِيمَانِ﴾ أي: بعد الاتصاف بالإيمان المنبئ عن كمال الاعتدال ﴿و﴾ بالجملة: ﴿وَمَنْ لَمْ يَتُبْ﴾ ولم يرجع إلى الله بعدما صدر عنه أمثال هذه الجرائم المذكورة هفوة ﴿فَأُولَئِكَ﴾ البعداء المصرون على الغواية والطغيان ﴿هُمْ الظَّالِمُونَ﴾ [الحجرات: 11] المقصودون على الخروج عن مقتضى الحدود الإلهية.

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّهُ بِغَضِ الظَّنِّ إِنَّهُ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ١٢﴾ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ١٣ ﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَلَنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتُكُمْ عَنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ ظَهِيرٌ رَّحِيمٌ ١٤﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَنَّهْدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ١٥ ﴿ قُلْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ١٦﴾ يَمْشُونَ عَلَيْكَ أَوْ لَا تَعْلَمُونَ ١٧ ﴿ قُلْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ١٨﴾ [الحجرات: 12-18].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ مقتضى إيمانكم: متابعة اليقين في عموم الأحوال والمقامات، وترك الظنون والجهالات في جميع الحالات إلا ظن الخير بالله وبخلص عباده من الأنبياء والأولياء، المستبعدين بمراحل عن التهمة والتغريب ﴿اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ﴾ المورث لكم المراء والمجادلة مع الله ورسوله وعموم المؤمنين، وبالجملة: ﴿إِنَّ بَغْضَ الظَّنِّ﴾ هو الملقى إليكم من قبل الشيطان المزور المغوي ﴿وَإِثْمٌ﴾ خروج وفسوق عن مقتضى الحدود الإلهية ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ أي: من جملة أخلاقكم المحمودة ترك التجسس والتفحص عن خلائل بني نوعكم قطعاً عليكم ألا تبحثوا عن عورات المسلمين وغيرهم، سيما بما يوجب هتك حرمانهم من المفتريات الباطلة الشنيعة

﴿وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ أي: من جملة أخلاقكم، بل من معظمها أيها المؤمنون القاصدون لسلوك طريق التوحيد: ترك الغيبة، وهي: أن يذكر بعضكم بعضاً منكم في غيبته بشيء لو كان حاضراً عندكم، ليشق عليه ويكرهه.

وسئل عليه السلام عن الغيبة، فقال: «أن تذكر أخاك بما يكرهه، فإن كان فيه، فقد اغتبتَه، وإن لم يكن فقد بهته»⁽¹⁾ وكلاهما خارجان عن اعتدال أهل الإيمان.

ثم أكد سبحانه هذا النهي على وجه المبالغة في التوبيخ، فقال: ﴿أَيُّحِبُّ أَخَذَكُمْ﴾ وترضى نفسه ﴿إِنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ﴾ سيما حال كونه ﴿مَيْتًا﴾ لو فرض عرض هذا عليكم ﴿فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ ألبتة؛ إذ لا يمكنكم إنكار كراهته، وغيبة الأخ المؤمن أكرهه وأقبح من هذا ﴿وَوَ﴾ بالجملة: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾ المتتقم الغيور عن ارتكاب الغيبة المحرمة، وتوبوا إليه عنها وعن أمثالها ﴿إِنْ اللَّهَ﴾ المطلع على ما في ضمائركم من الندم والإخلاص ﴿تَوَاتٍ﴾ يقبل منكم توبتكم ﴿رُحِيمٌ﴾ [الحجرات: 12] يمحو عنكم زلتكم بعدما تبتم ورجعتم نادمين عما فعلتم.

ثم أكد سبحانه أيضاً هذا الحكم على وجه التفصيل، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ الناسون للمنشأ الأصلي والفطرة الجبلية ﴿إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ﴾ أي: أوجدناكم وأخرجناكم جميعاً ﴿مِنْ ذَكَرٍ﴾ هو: آدم المصور بصورتنا اللاهوتية، المجبول على خلافتنا ﴿وَأَنثَى﴾ هي: حواء المتشعبة من آدم باعتبار ناسوته ﴿وَوَ﴾ بعدما صيرناهما زوجين ممتزجين، مزدوجين من حصة اللاهوت والناسوت ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا﴾ متكثرة من أصل واحد هو آدم ﴿وَقَبَائِلَ﴾ مختلفة متجزئة من تلك الشعوب.

الشعب: هي الجمع المتكثر المنشعب عن أصل واحد.

والقبيلة: هي الفرق المختلفة الحاصلة من الشعب.

والعمارة: هي الطائفة المتفرعة على القبيلة.

والبطن: الجمع المتفرع على العمارة.

والفخذ: جمع متفرع على البطن.

والفصيل: على الفخذ.

فخزيمة مثلاً شعب، وكنانة قبيلة، وقريش عمارة، وقصي بطن، وهاشم فخذ،

(1) ذكره البيضاوي في «تفسيره» (215/5).

وعباس فصيل.

وإنما جعلناكم كذلك ﴿لِتَعَارَفُوا﴾ أي: يعرف بعضكم بعضاً، وأدى تعارفكم إلى التلاحق في المنشأ لا للتفاخر والتغالب؛ إذ لا تفاخر بينكم إلا بالكرامة والنجابة المترتبة على حقبة اللاهوت⁽¹⁾، وبالجملية: ﴿إِنْ أَكْثَرَمَكُمُ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ عن لوازم الناسوت وشواغل الهيولي ﴿إِنْ اللَّه﴾ المطلع على استعدادات عباده ﴿عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: 13] بما في ظواهرهم وبواطنهم، يوفقهم على مقتضى علمه وخبرته.

ومن عدم امتثالهم وانقيادهم بأمر التعارف والتلاحق الموصى إليهم من قبل الحق ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ﴾ التي هي المثل في اللدد والعناد على سبيل التغالب والتفاخر حين قدموا المدينة في سنة جدبة، وأظهروا الشهادتين لا عن عزيمة خالصة وقصد صادق، بل على سبيل الخداع والتفاخر، ولهذا كانوا يقولون لرسول الله ﷺ على سبيل الامتنان: أتيناك بالأحمال والأثقال، ولم نقاتل معك كما قاتل بنو فلان ﴿أَمَّا﴾ بك بلا سبق خصومة منا معك، وبالجملية: يحنون عليك يا أكمل الرسل بإيمانهم الواهي وصدقاتهم الغير وافية ﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل بعدما أظهروا ما أضمرُوا في ضمائرهم من المنة والغلول المنافي للإخلاص والإيمان ﴿لَمْ تُؤْمِنُوا﴾ أيها الأعراب بمجرد قولكم آمنا؛ إذ الإيمان إنما هو من أفعال القلوب الصافية عن كدر المن والأذى مطلقاً ﴿وَلَكِنْ قُولُوا﴾ بدل قولكم «آمنا»: ﴿أَسْلَمْنَا﴾ أي: دخلنا في السلم، وصالحنا على ألا نخاصم بيننا وبينكم ولا نزاع، وكيف تقولون: آمنا ﴿وَهُوَ الْحَالُ أَنَّهُ﴾ لَمَّا يَدْخُلُ الْإِيمَانُ ﴿وَالْإِذْعَانُ﴾ ﴿فِي قُلُوبِكُمْ﴾ التي هي وعاءه وهو من أفعالها ﴿وَهُوَ﴾ بالجملية: ﴿إِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي: حق إطاعتها وانقيادها مخلصين ﴿لَا يَلْتَكُمُ﴾ ولا ينقصكم ﴿مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً﴾ أي: من أجورها وجزائها إن أخلصتم فيها، وجتم بها بلا من وأذى ﴿إِنْ اللَّه﴾ المطلع بنيات عباده ﴿غَفُورٌ﴾ لمن تاب عن فرطاته ﴿رَحِيمٌ﴾ [الحجرات: 14] يرحم عليه ويقبل توبته.

(1) قال في التأويلات: (لتعارفوا) أي: أصحاب القلوب وأرباب النفوس، لا ليتكاثروا ويتنافسوا ويتشابهوا بالمقول والأخلاق الروحانية الطبيعية، فإنها ظلمانية لا يصلح شيء منها للتفاخر به ما لم يقرن به الإيمان والتقوى، فإن تنورت الأفعال والأخلاق والأحوال بنور الإيمان والتقوى، ولم تكن الأفعال منسوبة بالرياء، ولا الأخلاق مصحوبة بالأهواء، ولا الأحوال منسوبة إلى الإعجاب؛ فعند ذلك تصلح للتفاخر والمباهات بها.

وبالجملة: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ﴾ المخلصون هم ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ وأخلصوا في إيمانهم وإذعانهم؛ ليصلوا إلى مرتبة التوحيد المسقط لعموم الإضافات ﴿ثُمَّ﴾ بعدما آمنوا وأيقنوا ﴿لَمْ يَزْتَابُوا﴾ ولم يشكوا قط فيما آمنوا ﴿وَوَ﴾ مع ذلك ﴿جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ مع أعداء الله ﴿أُولَئِكَ﴾ السعداء المقبولون عند الله ﴿هُمْ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات: 15] المقصرون على الصدق والإخلاص، الفائزون عند ربهم بأنواع الفوز والفلاح، المتمكنون في مقعد الصدق عند ملك مقتدر.

﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل بعدما أظهروا الإيمان الجعلي بالسنتهم، ولم تواطئ عليه قلوبهم: ﴿أَتَعْلَمُونَ﴾ وتخبرون أيها الجاهلون ﴿اللَّهُ﴾ المطلع لعموم السرائر والخفايا ﴿بِدِينِكُمْ﴾ وإيمانكم هذا ﴿وَوَ﴾ الحال أنه ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ﴾ بعلمه الحضوري جميع ﴿مَا فِي السَّمَوَاتِ﴾ من الغيوب والشهادات ﴿وَوَ﴾ جميع ﴿مَا فِي الْأَرْضِ﴾ أيضًا كذلك ﴿وَوَ﴾ بالجملة: الله المحيط بالكل ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ﴾ دخل في حيلة الوجود ﴿عَلَيْمٌ﴾ [الحجرات: 16] لا يعزب عن علمه شيء مما لمع عليه برق الوجود.

ثم قال سبحانه تعليمًا لحبيه ﷺ وإرشادًا: ﴿يَعْمُونَ عَلَيْكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿أَن﴾ أَسْلَمُوا ﴿إِسْلَامَهُمْ﴾ ودخولهم في السلم مع أنهم ليسوا مؤمنين مدعين ﴿قُلْ﴾ في جوابهم يا أكمل الرسل إلزامًا وتبكيًا: ﴿لَا تَعْمُوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ﴾ أي: بإسلامكم هذا، ولا تعدوا أنفسكم من جملة الموقنين بمجرد ما تفوهتم بالإيمان ﴿بَلِ اللَّهُ﴾ العالم لعموم السرائر والخفايا ﴿يَعْنُ عَلَيْكُمْ أَن هَذَا كُمْ﴾ أي: يهديكم وأرشدكم ﴿لِلْإِيمَانِ﴾ المشر للعرفان، المستلزم للتوحيد وعلى العيان ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الحجرات: 17] في إيمانكم، موافقين قلوبكم بألسنتكم، مطابقين لجامع أنكم لستم كذلك.

وبالجملة: ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المطلع في ضمائر عباده من الثقة والإخلاص ﴿يَعْلَمُ﴾ بحضرة علمه الحضوري ﴿غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَ﴾ بالجملة: ﴿اللَّهُ﴾ المراقب بعموم أحوالكم وأطواركم ﴿بِصَبْرِ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾⁽¹⁾ [الحجرات: 18] من الأعمال خيرًا

(1) قال في التأويلات: في الظاهر أنه من نتائج ما أودعته في باطنهم، فمن لاحظ شيئًا من أعماله وأحواله، فإن رآها من نفسه كان شركًا، وإن رآها لنفسه كان مكزًا، وإن رآها من ربه لربه كان توحيدًا، وفقنا الله لذلك بمنه وكرمه وجوده.

كان أو شرًا، يجازيكم بمقتضى بصارته وعلمه.

جعلنا الله من زمرة المؤمنين المخلصين الذين ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: 62].

خاتمة السورة

عليك أيها الموحد المحمدي، المتمكن المتحقق في مقام التوحيد الذاتي - مكنك الله في مقر عزك وتمكينك - أن تترفع بنفسك عن مطلق الرذائل المتعلقة بالأهوية الفاسدة والأمانى الكاسدة، سيما عن المنّ والأذى في الإنفاق، ورعونات السمعة والرياء في مطلق الطاعات، وإياك إياك أن تتفوق على أحد من بني نوعك وإخوانك في عموم حالاتك وأزمانك، فإنه من شيم أصحاب النخوة والكفران المورث لهم أنواع الخيبة والخسران وأصناف الخذلان والحرمان، ولك أن تلازم التواضع والانكسار مع عموم المظاهر والمجالي، والاعتزال عن مطلق أصحاب الجاه والاعتبار، والقناعة مع الكفاف والعزلة.

جعلنا الله ممن تنبه على منهج الصدق والصواب، واجتنب عما ينافيه بتوفيق الحق وتيسيره.

سورة ق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فاتحة سورة ق

لا يخفى على من تنور قلبه بأنوار الوحدة الذاتية، المتشعشة عن مشكاتي النبوة والولاية، المتربتين على صورة الإنسان المصور بصور الرحمن أن أكمل المظاهر وأولاها لقبول التجليات الإلهية، وأليقها لرتبة الخلافة والنيابة عنه سبحانه، وأحراها للتخلق بأخلاق الحق هو الإنسان الكامل، القابل لانعكاس أشعة شمس الذات الأحدية المستهلكة دونها عموم الكثرات والإضافات.

فظهر ألا مظهر أجمع من الإنسان وأكمل منه، وأشرف هذا النوع وأكمله، وأتمه علماً وعيناً وكشفاً وشهوداً، هو نبينا - صلوات الله عليه وسلامه - فمن تعجب عن رسالته وخلافته عتوا، وأنكر إرشاده لبني نوعه عناداً، وإنزال الوحي استكباراً، فقد ضل وغوى، ولم يهتد إلى ما هو الرشd والهدى، لذلك أنزل سبحانه على حبيبه ما أنزل، وأقسم ما أقسم تأكيداً ومبالغة؛ لإثبات هدايته وإرشاده ﷺ وكمال لياقته لخلافة الحق ونيابته.

فقال بعدما تيمن: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ المرسل للرسول، المنزل للكتب؛ لتبين طريق توحيده ﴿الرَّحْمَنِ﴾ بعموم عبادته، يدعوهم إلى دار السلام ﴿الرَّحِيمِ﴾ لخواصهم يوصلهم إلى أعلى المقام بأنواع الإنعام والإكرام.

﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ۝١ بَلْ عَجَّبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَاْفِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ۝٢ لَهُ ذَاتُ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ۝٣ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيفٌ ۝٤ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيعٍ ۝٥ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَلَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ۝٦ وَالْأَرْضِ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَواسِيَ وَأَشْبَقْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۝٧ تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ۝٨ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جِبْتًا وَحَبَّ كُلِّ صَيْدٍ ۝٩ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ۝١٠ رِزْقًا

لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَاهُم بِلَدَّةٍ مِّثْنًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ﴿١١﴾ كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّيِّسِ وَنُوحٌ
 ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ ثَمُودَ كُلٌّ كَذَّبَ آيَاتِنَا لَقِيَ وَجِدٌ ﴿١٤﴾
 أَفَعَيْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾ [ق: 1-15].

﴿ق﴾⁽¹⁾ أيها الإنسان الكامل، القابل لخلعة الخلافة والنيابة الإلهية والقيم، القائم

(1) قال سيدي محمد البيطار: - رحمك الله - أن قاف حرف برزخي، لأن عدده مائة، وهي برزخ بين العشرة والألف؛ لأنك إن نقصت من عدد القاف صفراً كان عشرة، وإن زدت عليه صفراً كان ألفاً فله منزلة الأعراف، وهي منزلة وسطى ما بين الجمال والجلال، قال تعالى: ﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَانِهِمْ﴾ [الأعراف: 46] أي: يعرفون أهل الجمال الجنائين بسيماهم، ويعرفون أهل الجلال النيرانين بسيماهم، ومنزلة الأعراف هي منزلة العماء، الذي كان فيه ربنا قبل أن يخلق الخلق، وهو برزخ؛ لأنه ما فوقه هواء وما تحته هواء، أي: لا ظاهر ولا مظهر، ألا ترى أنه إذا انتفى الخلق انتفى اسم (الرب)، وإذا انتفى اسم (الفوق) انتفى اسم (التحت) وبمعكس ذلك، وإذا انتفى الظاهر فلا مظهر، وإذا انتفى المظهر فلا ظاهر، فلا يتحقق أحدهما إلا بالآخر، إذ لا رب بدون مربوب، ولا مربوب بدون رب، فعلى هذا لا عماء ولا فوق ولا تحت، ولا هواء، فالسؤال أين كان ربنا قبل أن يخلق الخلق؟ أمر حكمي اعتباري، والجواب عنه بالعماء أمر اعتباري حكمي، وكل من السؤال والجواب لا حقيقة له، إلا في الحكم والاعتبار لا في الواقع، لأن أمر الحق مربوط بالخلق، وأمر الخلق مربوط بالحق، وكل منهما لا يتصور إلا بالآخر فلا حق إلا بخلق، ولا خلق إلا بحق، كالحقيقة والصورة، فلولا الصورة لم تعلم الحقيقة، ولولا الحقيقة لم تعلم الصورة، ولذلك كان العماء عند الأكابر من أهل الحقائق عبارة عن الأمر الجامع للطرفين وذلك هو البرزخ، ولذلك ظهر برزخ القاف بلفظ القرآن، تنبيهاً على برزخيته بين الغيب والشهادة، فظهر من حقيقة الأولية، وهي حقيقة محمد ﷺ، ومن حقيقة الآخرة وهي خلقية محمد ﷺ، وكذلك ظهر برزخاً من حقيقة باطنة، ومن صورة ظاهرة، فظهر في قومه ﷺ العجب، فقال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْوَعْدَانِ الْمَجِيدُ﴾ [ق: 1]، فكان محمد ﷺ حين القرآن المجيد لأن أصله مجد الحق، وشرفه المعبر عنه بروح القدس، وهو من جهة صورته بشر مثلهم، فلذلك قال الله تعالى: ﴿بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِّتَّهُمْ﴾ [ق: 2]، ﴿فَقَالَ الْكَافِرُونَ﴾ وهم المحجربون عن ظهور الحق فيه، ﴿هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ أي: هو صورة بشرية من حقيقة الإنسانية المشتركة بيننا، فأى شيء يوصله إلى مرتبة الغيب حتى يخبر عنها كحال المعاد بعدما آل الجسم البشري إلى التراب؟ ولذلك قالوا: ﴿أَيُّذَا مِثْنًا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ [ق: 3]، فلما قرن الله تعالى قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْوَعْدَانِ الْمَجِيدُ﴾ [ق: 1]، بقوله: ﴿بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِّتَّهُمْ﴾

فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿ق:2﴾، علمنا أن الله تعالى نبّه على ما هو أعجب، فقال تعالى: ﴿ق:1﴾ وَالْقُرْآنُ الْمَجِيدُ ﴿ق:1﴾، إشارة للحقيقة المحمدية الجامعة للأسماء الحسنی التسعة والتسعين وللمذات المحيطة بكل موجود، وهي مدلول الأسماء التسعة والتسعين إذ عددها مائة، فكما أن قاف جبل محيط بالدنيا، كذلك حقيقة محمد ﷺ مُحِيطَةٌ بأهل هذا العَجَب، وبكل موجود في الوجود، فكأنه تعالى يقول: عجبتم من كونه صورة بشرية منكم؛ أي: من أفراد الصور البشرية، ويكون منه الإنذار إليكم، حيث يخبر أنكم بعد استحالة أجسامهم إلى التراب، تبعثون وتعادون، وذلك رجع بعيد عنكم فثم ما هو أعجب، وهو أن هذا الذي ترونه بشرًا مثلكم هو حقيقة أحدية الوجود؛ لأنه وإن كان مقيدًا بشخص معين يسمى محمدًا، فهو نور مطلق الحقيقة، جامع لكل شيء في الوجود، لما أنه حقيقته التي هو متحقق بها تجمع الأسماء الإلهية، وذاته المطلقة العظمى هي مدلول تلك الأسماء، فليس العجب من شخص منكم يندركم بالرجع البعيد عنكم، بل العجب من صورة مقيدة ظاهرًا، مطلقة باطنًا، تجمع الأول والآخر، والظاهر والباطن، ولذلك أخرج الله تعالى: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ وإن أبصرتموه صورة، فما أبصرتموه حقيقة، قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَىٰ آهْدَىٰ لَا يَسْمَعُوا وَتَرْنَهُمْ يُنْظَرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف:198]؛ لأنه كتاب الله الحفيظ الذي يحفظ كل شيء بذاته، وليس كتاب الله إلا أسماء، ولا يحفظها من أن تكون عددًا إلا الحقيقة المحمدية، بظاهرها ومعناها، إذ المعاني لا تتصور أن تقوم بذات تظهر بها فالمعاني في حقيقة الأمر تتولد من الجسوم، فالجسم هو الكتاب الحفيظ للمعاني الإلهية، فلذلك قال علي عليه السلام: «أنا كتاب الله الناطق» وإنما استبعدوا رجوع التراب إلى الجسوم الإنسانية البشرية؛ لأنه إذا كان الأمر كذلك فلا بد أن تجري العادة كما تدعى: أولاً: بأن يخلق الله آدم، ثانياً: من تراب ويخلق منه زوجة له تسمى (حواء) ويتناكحان، ويتوالدان، ويدور الدور الإنساني إليهم، فإذا دبت الحياة بالتراب وصار إنسانًا، وصل الدور إليهم بسبب التناكح والتناسل، فهذا الرجوع بعيد؛ لأنه ذو وسائط كثيرة، فوقفوا عند العادة التي تقدمت أولاً، ولم ينظروا لقوله ﷺ: «كل ابن آدم يُبلى إلا عجب الذنب» فقال العلماء في عجب الذنب: هو عظم صغير في العصعص يركب عليه الخلق الإنساني بعد النفخة الثانية، التي هي نفخة البقاء.

ومن العجب الخفي أن الأمر البرزخي سري فيهم، فما أقروا بالرجع ولا أنكروه، بل استبعدوه فهم في استبعادهم في حال برزخي، بين الإقرار والإنكار، وعجب الذنب عند أهل الحقائق: هو النفس الرحماني الذي به يخفي الله ويميت، وهو معدن الحياة والموت البرزخي، ومظهر هذه البرزخة إسرافيل عليه السلام فهو من كونه برزخ الموت والحياة، يميت الخلق بنفخة، ويحييهم بنفخة، فبدأ الخلق كان على الترتيب، وهو ما تقتضيه الحكمة، والإعادة على حسب ما تقتضيه القدرة، ولذلك بدأ الله هذه السورة بقوله: ﴿ق:1﴾ وهذا الحرف هو تاج الاسم (القدير) الدال على

لتبليغ الوحي والإلهام المنزل عليك من عنده سبحانه على عموم الأنام، القائد لهم إلى

القدرة الإلهية، والإعادة حسبما تقتضيه القدرة، قال تعالى: ﴿وَنُشِيقُكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الواقعة: 61]، فنبه أنه يعيدنا على غير مثال سبق، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الواقعة: 62].

والنشأة التي لا نعلمها نشأة أهل الجنة ونشأة أهل النار، وهذه النشأة ليست هي الدور الترابي الذي يقول فيه الكافر: ﴿يَبْلَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾ لأن الدور الترابي نزول لأسفل سافلين، وأهل الجنة والنار لا في العروج ولا في النزول، فمن العروج إلى العروج دور، ومن النزول إلى النزول دور على حسب أيام الله، التي قال تعالى في حقها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ذُكِّرْتُم بَلَّغُوا إِلَىٰ الَّذِينَ لَا يَفْقَهُونَ الصَّلَاةَ وَالْحَقَّ وَالْحَقَّ وَالْحَقَّ﴾ [إبراهيم: 5]، فمن الأيام ما هو للاسم الأول فقط، ومنها ما هو للاسم الآخر فقط، ومنها ما هو للاسم الظاهر فقط، ومنها ما هو للاسم الباطن فقط، ومنها يوم الرب وهو ألف سنة، ومنها يوم ذي المعارج، تخرج الملائكة والروح فيه إلى الله، ومقداره خمسون ألف سنة، وأما يوم الاسم الجامع وهو الله، فهو الكتاب الحفيظ الذي يحفظ مرتبة كل شيء عليه، ويعيده كما بدأ، وإليه ترجع الأدوار كلها، وهو الحقيقة المحمدية، ولهذه النكتة أزال الله العجب الذي زعموا أن حصوله بعيد، فقال تعالى: ﴿بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِّمَّنْ هُمْ أَتَوْا بِالْحَقِّ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ [ق: 4] أي: علمنا أن الأرض تفني صورهم الإنسانية بأعضائها الصورية كأيديهم وأرجلهم، وقواها الروحانية كأسمائهم وأبصارهم، وعندنا كتاب الوجود المطلق، وهو الحقيقة المحمدية التي هي عين الحياة ومجمع البحرين، فمن شرب منها أعادت ما تنقص الأرض منه؛ لأنها مدلول الاسم الحفيظ الذي يحفظ المراتب كلها، فلا يزول من كل شيء ما نقص منه بالنسبة للكتاب الحفيظ، لأن كل شأن وجسم، وروح، وصورة، ومعنى مندرج في الأولية والآخرية، والظاهرية والباطنية، وكل دور من هذه الأربعة محفوظ في الكتاب الحفيظ حتى الرجوع البعيد الذي عجبوا منه فإنه في خزائن هذا الكتاب الحفيظ، قال تعالى: ﴿وَلَا يَمْنُنَ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر: 21]، فإذا جاء قدره الدوري نزل، فإن اعتبرت دور الأولية الإنسانية من ماء مهين نزل بقدر معلوم أو من آدم، فكذلك أو من تراب كما اعتبره الذين عجبوا نزل بقدر وإن استبعدوه، وإن اعتبرته بالنبات نزل بقدر قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَتَبَرُّ مِنَ الْآرْضِ تَبَارًا ۖ لَمْ يُعِندْكُمْ فِيهَا وَمَنْ يَخْرِجُكُمْ مِنْهَا﴾ [نوح: 18، 17]. فانظر إلى هذا الدور القرآني في إنباتنا من الأرض وإعادتنا فيها، ثم إخراجنا منها، وقد ورد: «إن آدم كان شجرة بؤادي ثعنان»، وكذا محمد ﷺ كان كوكبا دريا يوقد من شجرة مباركة الأدهان، وأول الأدوار الكثر المخفي، وهو ما قبل العرفان، وجميع أدوار الوجود في ضمن القرآن.

توحيد الملك العلام القدوس السلام، ذي القدرة والقوة الكاملة الشاملة على أنواع الإنعام والانتقام ﴿وَوَ﴾ حق ﴿الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾⁽¹⁾ [ق: 1] العظيم المنزل من المجيد العظيم أنك يا أكمل الرسل لمرسل إلى كافة الخلق من الحق على الحق بالحق؛ لتبين طريق الحق وتوحيده، وبعدها لم يجد المنكرون فيك يا أكمل الرسل شيئاً شيئاً يدعوهم ويبعثهم إلى إنكارك وتكذيبك صريحاً، اضطروا إلى العناد والمكابرة.

﴿بَلْ عَجِبُوا﴾ واستبعدوا أولئك الحمقى الجاهلون ﴿أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ﴾ أي: بعث إليهم رسول من جنسهم وبني نوعهم، ينذرهم عن أهوال يوم القيامة وأفزاعها مع أنهم منكرون للحشر وإرسال البشر جميعاً ﴿فَقَالَ الْكَافِرُونَ﴾ المستكبرون بعدما سمعوا منك الدعوة والإنذار من شدة إنكارهم واستبعادهم: ﴿هَذَا﴾ أي: إرسال البشر إلى البشر، والإنذار من الحشر المحال كلاهما ﴿شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ [ق: 2] وأمر بديع، ما

(1) الذي هو مخبر عن جميع الذات والصفات، المشتمل على حكميات الأفعال، المقدس عن تغاير الأزمنة والذهور، الذي كشف بيان ما يقع لأرواح العارفين وأسرار الواصلين، وقلوب المحبين، وعقول الصديقين، وصدور المقربين، ظاهره ظاهر البيان من حيث العبودية، وباطنه باطن العيان من حيث الربوبية، وحرف القاف كناية عن كل اسم فيه القاف، مثل القديم والقادر والباقي والقيوم والقوي والقاهر والمقتدر والقريب أي: بقربي عن قلوب العارفين، وقرب أرواحهم وأسرارهم من مشاهدة بقائي وقدمي، ويقصد كل ذي قصد بنعت الإرادة والشوق إلى مشاهدتي، وأيضاً أي: بقيامي على كل ذرة من العرش إلى الثرى، وبقيامهم بقيوميتي إلى الأبد، وأيضاً أي: بالقلم القادر الذي رُقم القرآن على أوراق لوح الملكوت، وأيضاً أي: بحرقة قلوب العاشقين والشائقين والمشتاقين إلى جمالي، والقرآن الذي يشوقهم إلى قربي، وأيضاً أي: بقسمي الاصطفائية لأنبيائي وأوليائي والمقربين في سوابق علوم قدمي، أنا أقرب إلى قلوب الضارئين مني من عروق قلوبهم، أكشف بكشف جمالي قساوة قلوبهم، وأقربهم مني حتى يشاققوا إلي، وأيضاً بقربك مني يا محمد يا قرّة عيون الأنبياء والأولياء والمرسلين والعارفين والصديقين وما أنزلت إليك من القرآن المجيد قف عند قوام كبريائي، ولا تغص في قاموس «قلزم» قدمي؛ حتى لا تستغرق في قعر بحر بقائي، فينقطع منك قوافل الحدثان، ويبقوا عن محل القربان، بل قف في مقابلة قمر جمالي؛ لتشرب قهوات ودادي وعشقي في مشاهدة برقان جلالي، وتبقى ببقائي، وتلقى عجائب قرآني المجيد على قلوب القائمين في مقام الاستقامة، يا فهم إنما يتعلق بحرف القاف ما يكون فيه القاف من جميع كلمات الله، وما كان وما يكون في أفعاله، فهذا القاف القاسم عليه رمز جميعاً، فإذا قال سبحانه: ﴿قَفْ﴾: أعلم بذلك حبيبه ﷺ جميع معانيها من خبر اللات والصفات والأفعال، وهو عرف بالله ما قال الله فيه بأقل لمحة، فإنها تنبئ عن جميعها، وهذا رمز بين المحب والحبيب. [العرائس].

سمعنا بهذا في آبائنا الأولين.

ثم فصلوا ما أجملوا على سبيل التعجب والإنكار، فقالوا مستفهمين، مستفيدين فيما بينهم، مستعيزين: ﴿أَيُّدًا مِثْنًا﴾ أي: أنرجع ونعود أحياء كما كنا. إذا متنا ﴿وَكُنَّا تُرَابًا﴾ وهباء منبثا ﴿ذَلِكَ﴾ العود والرجوع ﴿رَجَعُ بَعِيدٌ﴾ [ق: 3] عن الوقوع وقبول العقول.

ثم قال سبحانه ردغا لهم وردا عليهم: وكيف تستبعدون وتنكرون عنا قدرتنا على بعث الموتى وإعادتهم أحياء كما كانوا ١؟ مع أنا ﴿قَدْ عَلِمْنَا﴾ على التفصيل والتحقيق ﴿مَا تَنْقُضُ﴾ تاكل وتضمحل ﴿الْأَرْضُ مِثْنُهَا﴾ أي: من أجزائهم وأوصالهم، وكيف لا نعلم ﴿وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ﴾ [ق: 4] حاصر لتفاصيل الأشياء، حافظ لها، ألا وهو حضرة علمنا الحضوري ولوح قضائنا.

﴿بَلْ﴾ هو من غاية عمهم وسكرتهم، وكمال غيهم وغفلتهم ﴿كَذَّبُوا بِالْحَقِّ﴾ الصدق المطابق للواقع، المؤيد بالبرهان الساطع والدليل القاطع، وهو نبوة محمد ﷺ ﴿لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ وحين بعث إليهم على الحق؛ لتبين الحق وتميزه عن الباطل؛ لذلك أنكروا البعث الذي جاء ﷺ لتبينه وللإنذار بما فيه من أنواع العقاب والعقوبات، وبالجمل: ﴿فَهُمْ﴾ بمقتضى أحلامهم السخيفة مغمورون ﴿فِي أَمْرِ مُرِيحٍ﴾ [ق: 5] مضطرب، مخلوط، يلتبس عليهم حقيقته ﷺ وحقية ما جاء به من عند ربه؛ لذلك يضطربون في شأنه ويقولون تارة: إنه شاعر، وتارة: إنه ساحر وكاهن، وتارة: إنه مجنون مخبط، مختل العقل، يتكلم بكلام المجانين، إلى غير ذلك من المفتريات الباطلة.

﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا﴾ ولم يفكروا حين أنكروا الحشر والبعث ﴿إِلَى السَّمَاءِ﴾ المطبقة المعلقة ﴿فَوْقَهُمْ كَيْفَ بُنِيْنَاهَا﴾ ورفعناها بلا أعمدة وأساطين ﴿وَزَيَّنَّاهَا﴾ بالكواكب المتفاوتة في الإضاءة والتنوير ﴿وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ [ق: 6] تنوء وفتوق، بل خلقناها ملساء متوازية السطوح متلاصقة الطباق.

﴿وَلَمْ يَنْظُرُوا أَيْضًا﴾ ولم يدبروا فيها كيف ﴿مَدَدْنَاهَا﴾ أي: مهدناها وبسطناها بكمال قدرتنا وحكمتنا ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا﴾ وعليها ﴿زُرَّاسِي﴾ جبالا ثوابت شامخات ﴿وَأَنْبَثْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ﴾ صنف من النبات ﴿بِهَيْجٍ﴾ [ق: 7] حسن كريم، تهيج بها عيون الناظرين وتسرع قلوبهم.

وإنما خلقنا ما خلقنا من العجائب والغرائب؛ ليكون ﴿تَبَصُّرَةً وَذِكْرَى﴾ أي: عظة

وعبرة دالة على كمال قدرتنا ومثانة حكمتنا وحكمنا ﴿لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾⁽¹⁾ [ق: 8] راجع إلينا، متوجه نحونا بكمال التبتل والتفويض؛ ليتبصروا ويتذكروا بها كمال اقتدارنا واختيارنا في خلق عموم المرادات والمقدورات، ومن جملتها حشر الأموات، وبعثهم من قبورهم أحياء.

﴿وَ﴾ كيف يسع لأولئك الحمقى إنكار قدرتنا على الإعادة مع أنا ﴿نَزَّلْنَا مِنْ جَانِبِ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا﴾ كثير الخير والبركة ﴿فَأَنْبَتْنَا بِهِ﴾ بعد تنزيله على الأرض اليابسة الميتة ﴿جَنَاتٍ﴾ أي: حدائق ذات بهجة وبهاء ونزاهة وصفاء ﴿وَ﴾ لاسيما ﴿حَبِّ الْخَصِيدِ﴾ [ق: 9] من البر والشعير وسائر الحبوب المحصورة للثقوت والتعيش.

﴿وَ﴾ أنبتنا به خصوصاً ﴿النَّخْلَ﴾ وجعلناها ﴿بَاسِقَاتٍ﴾ طوال متحلمات ﴿لَهَا طَلْعٌ﴾ ثمر ذو عنقود ﴿نُضِيدٌ﴾ [ق: 10] منضود منضد بعضه فوق بعض من كمال كثرته.

ولما أنبتا ما أنبتنا؛ ليكون ﴿رِزْقًا لِلْعِبَادِ﴾ يرتزقون بها ويشكرون منعمها ومبدعها ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿أَخْيَيْنَا بِهِ﴾ أي: بالماء المنزل من السماء ﴿بَلَدَةً مَيْثًا﴾ يابسة جذبة، لا كلاً فيها ولا نماء ﴿كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾ [ق: 11] أي: خروجهم من قبورهم أحياء بقدرتنا مثل ذلك، فمن أين ينكرون ويستبعدون أولئك الحمقى الجاهلون بقدرة العليم الحكيم؟!

وليس هذا التكذيب والإنكار ببدع من هؤلاء المكذبين المنكرين يا أكمل الرسل، بل قد ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ﴾ مثل تكذبيهم وإنكارهم ﴿قَوْمُ نُوحٍ﴾ أخاك نوحاً عليه السلام.

(1) راجع بقلبه إلى ربه، مطيع له تعالى، إذ المنيب لا يخلو من النظر في آيات الله، فيعتبر، ويعلم أن من قدر على إنشاء هذه الأجرام العظام، قادر على إحياء الأموات وبعثها، وحسابها وعقابها. الإشارة: يقول شيوخ التربية: بقدر ما يمزق الظاهر بالتخريب والإهمال؛ يحيى الباطن ويعمر بنور الله، وبقدر ما يعمر الظاهر يخرب الباطن، فيقع الإنكار عليهم، ويقول الجهلة: هل ندلكم على رجل يُنبئكم إذا مُزقتم في الظاهر كل مُمزق، يُجدد الإيمان والإحسان في بواطنكم، أفترى على الله كذباً أم به جنة؟ بل الذين لا يؤمنون بالنشأة الآخرة وهي حياة الروح بمعرفة الله في عذاب الحجاب والضلال، عن معرفة العيان بعيد، ما داموا على ذلك الاعتقاد، ثم يهددون بما يُهدد به منكرو البعث، والله تعالى أعلم. البحر المديد (126/5).

حين بعث إليهم وأنذرهم، ونهاهم عما هم عليه من الكفر والجحود والخروج عن مقتضى الحدود ﴿وَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ كذا ﴿كُذِّبَ أَصْحَابُ الرَّيِّسِ﴾ وهو بشر كانوا يسكنون حوله أخاك حنظلة بن صفوان رضي الله عنه ﴿وَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [ق: 12] أخاك صالحا عليه السلام، فعقروا الناقة المترحة.

﴿وَعَادَ﴾ أخاك هودا رضي الله عنه ﴿وَفِرْعَوْنَ﴾ وملؤه أخاك موسى الكليم ﴿وَأَخْوَانَ لُوطٍ﴾ [ق: 13] سماهم إخوانه؛ لأنهم أصهاره، أخاك لوطا رضي الله عنه.

﴿وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ﴾ أخاك شعيبا رضي الله عنه ﴿وَقَوْمُ ثَبَعٍ﴾ وهو تبع الحميري، واسمه أسعد أبو كريب، كذبوا علماءهم وأئمتهم المصلحين لمفاسدهم، وبالجمله: ﴿كُلُّ﴾ منهم ﴿كُذِّبَ الرُّسُلَ﴾ المبعوثين إليهم لإهدائهم وإرشادهم أمثال هؤلاء المسرفين المكذبين لك يا أكمل الرسل ﴿فَحَقُّ﴾ أي: حل ولحق عليهم ﴿وَعِيدٌ﴾ [ق: 14] الموعود لهم بتكذيبهم وإصرارهم، فهلكوا واستؤصلوا، فكذا هؤلاء المكذبون المسرفون سيهلكون ويستأصلون عن قريب، فاصبر يا أكمل الرسل على أذاهم ولا تستعجل لهم فسيرون ما يوعدون.

ثم قال سبحانه على سبيل الإنكار والاستبعاد على المنكرين المستباعدين بالحشر والبعث: ﴿أَفَعِيتَنَا﴾ أي: ينكرون قدرتنا على الإعادة، وتظنون أن صرنا عاجزين ﴿بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ﴾ أي: الإبداء الإبداعي عن الخلق الثاني الإعادي، ويزعمون أن قدرتنا تفر وتضعف عند الخلق الأول، بل ينتهي دونه، ولم يعلموا أن قدرتنا لا تتصف بالانتهاء والفتور، ولا بالانقضاء والقصور، ليفهموا أن تعلق قدرتنا لكل مقدور من المقدورات في كل آن من الأناء على شأن من الشئون الكمالية، بحيث لم يمض مثله، ولا يتأتى شبهه ﴿بَلْ﴾ يتفطن بمقتضى الفطرة الأصلية أن ﴿هُمُ﴾ في أنفسهم دائما ﴿فِي لَبِيسٍ﴾ وخلع ﴿مِّنْ﴾ توارد ﴿خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [ق: 15] منا، وإيجاد متجدد من قبلنا في كل آن وزمان حسب قدرتنا واختيارنا.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تَوَسَّوْا بِهِ قَسِيَّةٌ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ ١٦ ﴿إِذْ يَتَلَفَّى السَّمْعَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَيْدٌ﴾ ١٧ ﴿مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْ رَقِيبٍ عَيْنِدُ﴾ ١٨ ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيَّةً﴾ ١٩ ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعْدِ﴾ ٢٠ ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ ٢١ ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكُشِفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَرِيدٌ﴾

﴿٢٢﴾ وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَىٰ عَيْنِي ﴿٢٣﴾ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ كُلٌّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ ﴿٢٧﴾ قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ ﴿٢٩﴾ مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٣٠﴾ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَنَقُولُ هَلْ مِنْ مَّزِيدٍ ﴿٣١﴾ وَأَزَلَفْتِ الْجَنَّةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٢﴾ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٣﴾ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ وَجَاءَهُ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٤﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ﴿٣٥﴾ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٦﴾ ﴿ق: 16-35﴾.

﴿و﴾ بالجملة: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ﴾ وأظهرناه من كتم العدم ﴿و﴾ نحن ﴿نَعْلَمُ﴾ منه حيثن ﴿مَا تُؤْمِسُ﴾ وتحدث ﴿بِهِ نَفْسُهُ﴾ وتخطر بباله الآن من أمثال هذه الأوهام والخيالات الباطلة، المترتبة على حصة ناسوته، المقيدة بسلاسل الرسوم وأغلال العادات الموروثة له من العقل الفضول، الممتزج بالوهم الجهول ﴿و﴾ كيف لا نعلم منه هواجس نفسه؛ إذ ﴿نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: 16] أي: وريده، وهو مثل في القرب المفرط، كما قال: الموت أدنى لي من الوريد، وإضافة الحبل إليه للبيان، وبالجملة: نحن أقرب إليه منه.

الوريدان: هما العرقان المنبثان من مقدم الرأس، المتنازلان من طرفي العنق، المتلاصقان عند القفا، المنتهيان إلى آخر البدن؛ وهما قوام البدن ومداره عليهما؛ إذ هما أقوى عالم هيكل الإنسان.

وبالجملة: نحن حسب روحنا المنفوخ فيه من عالم اللاهوت أقرب إليه من ناسوته، لا على توهم المسافة، ولا على طريق التركب والاتحاد والحلول والامتزاج، بل على وجه الظلية والانعكاس، ومع غاية قرب الحق إليه وكمال إحاطته إياه، وكُلُّ عليه الحفظة من الملائكة؛ ليراقبوا أحواله إلزامًا للحجة عليه لدى الحاجة يوم القيامة.

اذكر يا أكمل الرسل: ﴿إِذْ يَتْلَقَى﴾ ويتحفظ ﴿الْمُتَلَقَّيَانِ﴾ الموكلان عليه ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ [ق: 17] أي: قاعد كل من الموكلين عن يمينه وشماله، مترقبين على أحواله وأعماله وأقواله، بحيث

﴿مَا يَلْفِظُ﴾ ويتلفظ ﴿مِنْ قَوْلٍ﴾ يرميه من فيه ﴿إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ﴾ حفيظ عليه ﴿عَتِيدٌ﴾ [ق: 18] مهيا، معد، حاضر عنده، غير مغيب على وجه لا يفوت عنه شيئًا من

ملتقطاته.

﴿و﴾ هما يحفظانه ويرقبان عليه وقت؛ إذ ﴿جَاءَتْ﴾ وحضرت ﴿سَكْرَةُ الْمَوْتِ﴾ شدته وغمراته ﴿بِالْحَقِّ﴾ والحقيقة وظهرت علاماته، وانكشفت عليه أهواله وأمارته، قيل له حيثنذ من قبل الحق: ﴿ذَلِكَ﴾ أي: الموت الذي ينزل عليك الآن ﴿مَا كُنْتُ مِنْهُ تَعِيدُ﴾ [ق: 19] أي: الموت الذي أنت تميل، وتفر عنه فيما مضى.

﴿و﴾ بعدما ذاق مرارة العذاب وقت سكرات الموت ﴿تُفْعَخُ فِي الصُّورِ﴾ للبعث والحشر، فإذا هو حيثنذ قائم، هائم ينظر، قيل له من قبل الحق على سبيل التهويل: ألسنت تنظر وتتحير يا مسكين؟! ﴿ذَلِكَ﴾ اليوم الذي أنت فيه الآن ﴿يَوْمُ الْوَعِيدِ﴾ [ق: 20] الموعود لك في دار الدنيا، وأنت حيثنذ لم تؤمن به ولم تخف من أهواله حتى وقعت فيه، وذقت من عذابه.

﴿و﴾ بعدما بعث الأموات من أجداثهم للحشر والجزاء ﴿جَاءَتْ﴾ وحضرت ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ من النفوس الطيبة والخبيثة ﴿مَعَهَا سَائِقٌ﴾ موكل، يسوقها إلى المحشر للعرض والجزاء ﴿وَشَهِيدٌ﴾ [ق: 21] من حفظة أعمالها وأحوالها، يشهد لها وعليها.

وبعدما حضر كل منهم بين يدي الله، قيل لكل منهم من قبل الحق على سبيل الخطاب والعتاب: ﴿لَقَدْ كُنْتَ﴾ أيها المغرور ﴿فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا﴾ اليوم، وانكسار عظيم من وقوعه؛ لذلك كذبت بالرسل والكتب، واستهزأت بالهداة الثقات، واستكبرت عليهم ﴿فَكَشَفْنَا﴾ اليوم ﴿عَنْكَ غِطَاءَكَ﴾⁽¹⁾ الذي هو سبب غفلتك وإنكارك، وتعاميك

(1) قوله: ﴿فَكَشَفْنَا عَنْكَ﴾ أي: عن ذاتك، وهو الصورة، ويكشف هذا الغطاء تترك حقيقة الغطاء، وإنه عين الذات؛ إذ لا غطاء للذات إلا عين الذات، جلّت الذات أن يسترها شيء غيرها، فسبحان الذي ما أبطنه إلا ظهوره، وما ظهر إلا الصورة، فالصورة عين الباطن المستور، ولذا قال تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَجَعَلْنَا بَيْنَكَ وَتَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ [الإسراء: 45] أي:

الصورة المحمدية التي هي عين غيب الحقيقة ﴿حِجَابًا مَسْتُورًا﴾ [الإسراء: 45].

فالحجاب المستور عين الصورة المحمدية؛ إذ هي حقيقة الحق ولا يعرفونه، فليس هذا الحجاب ساترًا بل هو مستور عنهم، فالحجاب عين المحجوب، فهو مستور مع أنه مكشوف، فما حجبه إلا كشفه فعلمنا أن الغطاء ليس إلا الجهل، لا أنه من قبيل القشر على اللب أو من قبيل الساتر على المستور، بل أن المستور بنفسه هو الساتر، فهذا الكشف كشف معنوي لا حسي، وإنما هو كشف الجهل بالعلم، والجهل ظلمة معنوية، والعلم نور معنوي أيضًا، فمن

كشف له غطاء ذاته فأبصر ذاته وأدركها أدرك أنها جميع ما يراه في آخرته، فكان بصره حديثاً، أي: قوياً؛ لأن بصره حيثئذ هو الله تعالى، فالبصر عين المبصر، كما في الحديث القدسي: «لا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به» وإذا كان الحق بصره فهو القوي؛ إذ لا أقوى منه جلّ وعلا.

فالذين لا يؤمنون بالآخرة هم الذين لا يؤمنون بأن محمداً ﷺ هو الاسم الآخر لله من جهة صورته، كما أنه الاسم الأول لله من جهة حقيقته ومعناه، فجعل الله بينه وبينهم حجاباً مستوراً، والحجاب المستور هو الرسول محمد ﷺ بعينه، فهو مكشوف لهم مع أنه مستور عنهم بلا ستر، فهم لا يؤمنون بالآخرة التي هي صورته الكريمة مع أنها هي الحق الناطق بالقرآن، وأن الكلام الظاهر من تلك الصورة هو كلام الله بعينه، وقد أعلمهم الله بحقيقة الأمر لو علموا.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ [الفتح: 10]، وقد أخبرهم الله أن الكلام الظاهر منه هو كلام الله بعينه، قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ

حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ﴾ [التوبة: 6] أي: حتى يسمع كلام الله من صورة الله، فيعلمون أن الله هو الظاهر

المتكلم بكلام نفسه في صورة تسمى محمداً ﷺ وهي آخرة الله تعالى؛ لأنها مجلى اسمه (الآخر) المنظوي فيه الأول، فالحجاب المستور الذي جعله الله بينه وبينهم حين يقرأ عليهم القرآن هو محمد ﷺ بعينه، فهو حجاب الله وليس حجاب الله إلا هو؛ لأنه الأول الآخر الظاهر الباطن، فقدم الظاهر على الباطن ليكون هذا الظاهر هو الموصوف بالبطون، فإذا لا بطون، فالحجاب المستور عين المحجوب وعين الساتر، فلا حجاب ولا محجوب ولا ساتر ولا مستور، ولذا قال

تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾ [الأنعام: 25]، الضمير في قوله: ﴿يَفْقَهُوهُ﴾ راجع

للحجاب المستور، فلو فقهوه لعلموا أن الداعي - وهو الحق تعالى - ما دعاهم إليه إلا بنفسه

بلا واسطة، فإذا لا رسالة بل الأمر أصالة، فما كان رسوله إليهم إلا عينه لا سواه، فمن لم يؤمن

بآية المباعدة صراحة على ظاهرها بدون تأويل وحيادة عن اللفظ الظاهر فليس عندنا من الذين لا

يؤمنون بالآخرة ولو سمعناه مسلماً؛ إذ ليس كل مسلم بمؤمن حق الإيمان، ولذا قال تعالى: ﴿

قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَأَمَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾

[الحجرات: 14]. فالإيمان متعلق القلب، والإسلام متعلق اللسان، وكذلك نقول: طاعة الرسول

هي طاعة الله بعينها بلا واسطة؛ لقوله تعالى: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: 80]،

ولا يقال: يلزم من ذلك التشبيه والتجسيم؛ لأننا نقول: ليس عندنا مشبه ومشبه به، ولا حجاب

جسمي، فإن الحجاب الجسمي إنما هو من الوهم فقط بسبب تقييد البصر بالأوهام.

الا ترى أن بصر أهل الله لا تحجبه الجدران، ولا بعد البلدان، بل الكون كله مكشوف لهم كأنه

فزة في كفهم، حتى قال بعضهم: لو دبت نملة سوداء على صخرة صماء في ليلة ظلماء ولم

أعلم بها لقلت: إني مخدوع، ومن تحقق بحقيقة قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾

عن الآيات والنذر، وهو ألفك بالمحسوسات العادية وإنكارك على الأمور الغيبية الخارجة عن حيازة حواسك وقواك ﴿فَبَصُرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾⁽¹⁾ [ق: 22] أي: صار

[النور: 35].

فقد انفك عن قيد الجسمانية، وتحقق بالحقائق الروحانية، ثم يترقى إلى المعاني القدسية بمقتضى قوله تعالى: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ [الحديد: 3]، فيكون الكثيف عنده عين اللطيف، بل يرى الوجود كله عيناً واحدة، فيتحقق أن الأمر الواحد يظهر بعدة صور، كالقبر مثلاً فإنه عند البعض حفرة تراب، وعند الشقي حفرة نار، وعند السعيد روضة من رياض الجنة، وقد صح في الحديث: «ما بين يتي ومنبري روضة من رياض الجنة» وفي رواية: «ما بين قبري ومنبري» وقد صح أيضاً: «منبري على حوضي»⁽¹⁾ مع أنه عندنا على الأرض، وبالجمله فمن كشف غطاؤه خرق له حجاب الزمان، وبعث ودخل الجنان، ومن لم يكشف غطاؤه فهو محبوس في قفص التراب، مشغول بمشاهدة العذاب.

أقول: من كشف عنه الغطاء علم يقيناً أن الذات المحمدية - عليها صلوات الله وسلامه - أحق وأولى باسم الله الجامع من اسم محمد أو أحمد أو محمود؛ لأن التسمية لها بالاسم الله تسمية إلهية قرآنية لم يشبه ولم يخالطها كون من الأكوان، فهي منزلة في القرآن من الكريم المنان، وذلك محقق عند أهل الإيمان.

(1) قال سيدي محمد البيطار: - رحمك الله - أن قاف حرف برزخي؛ لأن عدده مائة، وهي برزخ بين العشرة والألف؛ لأنك إن نقصت من عدد القاف صفراً كان عشرة، وإن زدت عليه صفراً كان ألفاً فله منزلة الأعراف، وهي منزلة وسطى ما بين الجمال والجلال، قال تعالى: ﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَتِهِمْ﴾ [الأعراف: 46] أي: يعرفون أهل الجمال الجنائين بسيماهم، ويعرفون أهل الجلال النيرانيين بسيماهم، ومنزلة الأعراف هي منزلة العماء، الذي كان فيه رينا قبل أن يخلق الخلق، وهو برزخ؛ لأنه ما فوقه هواء وما تحته هواء، أي: لا ظاهر ولا مظهر، ألا ترى أنه إذا انتفى الخلق انتفى اسم (الرب)، وإذا انتفى اسم (الفوق) انتفى اسم (التحت) وبعكس ذلك، وإذا انتفى الظاهر فلا مظهر، وإذا انتفى المظهر فلا ظاهر، فلا يتحقق أحدهما إلا بالآخر، إذ لا رب بدون مربوب، ولا مربوب بدون رب، فعلى هذا لا عماء ولا فوق ولا تحت، ولا هواء، فالسؤال أين كان رينا قبل أن يخلق الخلق؟ أمر حكمي اعتباري، والجواب عنه بالعماء أمر اعتباري حكمي، وكل من السؤال والجواب لا حقيقة له، إلا في الحكم والاعتبار لا في الواقع؛ لأن أمر الحق مربوط بالخلق، وأمر الخلق مربوط بالحق، وكل منهما لا يتصور إلا بالآخر فلا حق إلا بخلق، ولا خلق إلا بحق، كالحقيقة والصورة، فلو لا الصورة لم تعلم الحقيقة، ولو لا الحقيقة لم تعلم الصورة، ولذلك كان العماء عند الأكابر من أهل الحقائق عبارة عن الأمر الجامع للطرفين وذلك هو البرزخ، ولذلك ظهر برزخ القاف بلفظ القرآن، تبييناً على برزخية

بين الغيب والشهادة، فظهر من حقيقة الأوليّة، وهي حقيقة محمد ﷺ، ومن حقيقة الآخريّة وهي خلقية محمد ﷺ، وكذلك ظهر برزخاً من حقيقة باطنة، ومن صورة ظاهرة، فظهر في قومه ﷺ العجب، فقال تعالى: ﴿قَدْ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ [ق:1]، فكان محمد ﷺ عين القرآن المجيد؛ لأن أصله مجد الحق، وشرفه المعبر عنه بروح القدس، وهو من جهة صورته بشر مثلهم، فلذلك قال الله تعالى: ﴿بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ﴾ [ق:2]، ﴿فَقَالَ الْكَافِرُونَ﴾ وهم المحجوبون عن ظهور الحق فيه، ﴿هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ أي: هو صورة بشرية من حقيقة الإنسانية المشتركة بيننا، فأى شيء يوصله إلى مرتبة الغيب حتى يخبر عنها كحال المعاد بعدما آل الجسم البشري إلى التراب؟ ولذلك قالوا: ﴿أَوَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ [ق:3]، فلما قرن الله تعالى قوله: ﴿قَدْ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ [ق:1]، بقوله: ﴿بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ [ق:2]، علمنا أن الله تعالى نبّه على ما هو أعجب، فقال تعالى: ﴿قَدْ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ [ق:1]، إشارة للحقيقة المحمدية الجامعة للأسماء الحسنى التسعة والتسعين وللذات المحيطة بكل موجود، وهي مدلول الأسماء التسعة والتسعين إذ عددها مائة، فكما أن قاف جبل محيط بالدنيا، كذلك حقيقة محمد ﷺ مُحِيطَةٌ بأهل هذا العجب، وبكل موجود في الوجود، فكأنه تعالى يقول: عجبتم من كونه صورة بشرية منكم؛ أي: من أفراد الصور البشرية، ويكون منه الإنذار إليكم، حيث يخبر أنكم بعد استحالة أجسامهم إلى التراب، تبعثون وتعادون، وذلك رجع بعيد عنكم فثم ما هو أعجب، وهو أن هذا الذي ترونه بشراً مثلكم هو حقيقة أحدية الوجود؛ لأنه وإن كان مقيداً بشخص معين يسمى محمداً، فهو نور مطلق الحقيقة، جامع لكل شيء في الوجود، لما أنه حقيقته التي هو متحقق بها تجمع الأسماء الإلهية، وذاته المطلقة العظمى هي مدلول تلك الأسماء، فليس العجب من شخص منكم ينذركم بالزجع البعيد عنكم، بل العجب من صورة مقيدة ظاهراً، مطلقة باطناً، تجمع الأول والآخر، والظاهر والباطن، ولذلك أخرج الله تعالى: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ وإن أبصرتموه صورة، فما أبصرتموه حقيقة، قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف:198]؛ لأنه كتاب الله الحفيظ الذي يحفظ كل شيء بذاته، وليس كتاب الله إلا أسماء، ولا يحفظها من أن تكون عدماً إلا الحقيقة المحمدية، بظاهرها ومعناها، إذ المعاني لا تتصور أن تقوم بذات تظهر بها فالمعاني في حقيقة الأمر تتولد من الجسوم، فالجسم هو الكتاب الحفيظ للمعاني الإلهية، فلذلك قال علي عليه السلام: «أنا كتاب الله الناطق» وإنما استبعدوا رجوع التراب إلى الجسوم الإنسانية البشرية؛ لأنه إذا كان الأمر كذلك فلا بد أن تجري العادة كما كانت، أولاً: بأن يخلق الله آدم، ثانياً: من تراب ويخلق منه زوجة له تسمى (حواء) ويتناكحان، ويتوالدان، ويدور الدور الإنساني إليهم، فإذا دبت الحياة بالتراب وصار إنساناً، وصل الدور

إليهم بسبب التناكح والتناسل، فهذا الرجوع بعيد، لأنه ذو وسائط كثيرة، فوقفوا عند العادة التي تقدمت أولاً، ولم ينظروا لقوله ﷻ: «كل ابن آدم يُبلى إلا عجب الذنب» فقال العلماء في عجب الذنب: هو عظم صغير في العصعص يركب عليه الخلق الإنساني بعد النفخة الثانية، التي هي نفخة البقاء.

ومن العجب الخفي أن الأمر البرزخي سري فيهم، فما أقروا بالرجع ولا أنكروه، بل استبعدوه فهم في استبعادهم في حال برزخي، بين الإقرار والإنكار، وعجب الذنب عند أهل الحقائق: هو النفس الرحماني الذي به يخفي الله ويميت، وهو معدن الحياة والموت البرزخي، ومظهر هذه البرزخة إسرافيل عليه السلام فهو من كونه برزخ الموت والحياة، يميت الخلق بنفخة، ويحييهم بنفخة، فبدأ الخلق كان على الترتيب، وهو ما تقتضيه الحكمة، والإعادة على حسب ما تقتضيه القدرة، ولذلك بدأ الله هذه السورة بقوله: ﴿ق﴾ وهذا الحرف هو تاج الاسم (القدير) الدال على القدرة الإلهية، والإعادة حسبما تقتضيه القدرة، قال تعالى: ﴿وَنُشِيقُكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الواقعة: 61]، فنبه أنه يعيدنا على غير مثال سبق، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الواقعة: 62].

والنشأة التي لا نعلمها نشأة أهل الجنة ونشأة أهل النار، وهذه النشأة ليست هي الدور الترابي الذي يقول فيه الكافر: ﴿يَلْبِثُنِي كُنْتُ تَرْبًا﴾ لأن الدور الترابي نزول لأسفل مسافلين، وأهل الجنة والنار لا في العروج ولا في النزول، فمن العروج إلى العروج دور، ومن النزول إلى النزول دور على حسب أيام الله، التي قال تعالى في حقها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا وَذَكِّرْهُمْ بِاللَّهِ﴾ [إبراهيم: 5]، فمن الأيام ما هو للاسم الأول فقط، ومنها ما هو للاسم الآخر فقط، ومنها ما هو للاسم الظاهر فقط، ومنها ما هو للاسم الباطن فقط، ومنها يوم الرب وهو ألف سنة، ومنها يوم ذي المعارج، تعرج الملائكة والروح فيه إلى الله، ومقداره خمسون ألف سنة، وأما يوم الاسم الجامع وهو الله، فهو الكتاب الحفيظ الذي يحفظ مرتبة كل شيء عليه، ويعيده كما بدأ، وإليه ترجع الأدوار كلها، وهو الحقيقة المحمدية، ولهذه النكته أزال الله العجب الذي زعموا أن حصوله بعيد، فقال تعالى: ﴿بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ [ق: 4] أي: علمنا أن الأرض تفني صورهم الإنسانية بأعضائها الصورية كأيديهم وأرجلهم، وقواها الروحانية كأسمائهم وأبصارهم، وعندنا كتاب الوجود المطلق، وهو الحقيقة المحمدية التي هي عين الحياة ومجمع البحرين، فمن شرب منها أعادت ما تنقص الأرض منه، لأنها مدلول الاسم الحفيظ الذي يحفظ المراتب كلها، فلا يزول من كل شيء ما نقص منه بالنسبة للكتاب الحفيظ، لأن كل شأن وجسم، وروح، وصورة، ومعنى مندرج في الأولوية والآخرية، والظاهرة والباطنية، وكل دور من هذه الأربعة محفوظ في الكتاب الحفيظ حتى الرجوع البعيد الذي عجبوا منه فإنه

بصرك بعد انكشافك بهذا اليوم حادًا حديدًا نافذًا، إلا أنه لا ينفعك حينئذ حدة بصرك وانكشافك بعد انقراض نشأة الاختبار والاعتبار.

﴿وَقَالَ﴾ له حينئذ ﴿قَرِينُهُ﴾ من الحفظة المراقب عليه في النشأة الأولى: ﴿هَذَا مَا لَدَيَّ عِنْدِي﴾ [ق: 23] أي: هذا الذي سمعت الآن من الخطاب والعتاب، هو الذي حفظته لك عندي، وكتبته في صحيفة عملك قبل وقوعك فيه.

وبعدما جرى بين كل من العصاة وبين قرينهم ما جرى، أمر من قبل الحق للسائق والشهيد أمرًا وجوبيًا حتمًا: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ﴾ واطرحا فيها ﴿كُلَّ كَفَّارٍ﴾ مبالغ في الكفر والإنكار ﴿عَنِيدٍ﴾ [ق: 24] مبالغ متناه في العناد والاستكبار.

﴿مُنَّاعٍ لِلْخَيْرِ﴾ متبالغ في المنع عن الإنفاق المأمور ﴿مُعْتَدٍ﴾ متجاوز عن الحق، مائل نحو الباطل ﴿مُرِيبٍ﴾ [ق: 25] موقع لعباد الله في الشك والشبهة في دينه القويم والصراط المستقيم الذي أنزله على رسوله المتصف بالخلق العظيم، وهو ﴿الَّذِي جَعَلَ﴾ وأثبت ﴿مَعَ اللَّهِ﴾ الواحد الأحد الصمد، المنزه عن الشرك مطلقًا ﴿إِلَهَا آخَرَ﴾ واعتقده موجدًا مثله، شريكًا في أفعاله وآثاره، وبالجمله: ﴿فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ﴾ [ق: 26] بدل ما تجاوز عن التوحيد الإلهي، وأصر على التشريك والتعديد.

وبعدما أراد الموكلان أن يبطشا به ويجراه نحو النار، أخذ يصرخ وينسب شركه وضلاله إلى الشيطان المضل المغوي، وهو حاضر عنده، وبعدما سمع الشيطان منه ما سمع ﴿قَالَ﴾ له حينئذ ﴿قَرِينُهُ﴾ أي: الشيطان، متضرعًا إلى الله، مناجيًا معه: ﴿رَبَّنَا مَا

في خزائن هذا الكتاب الحفيظ، قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ [الحجر: 21]، فإذا جاء قدره الدوري نزل، فإن اعتبرت دور الأولية الإنسانية من ماء مهين نزل بقدر معلوم أو من آدم، فكذلك أو من تراب كما اعتبره الذين عجبوا نزل بقدر وإن استبعدوه، وإن اعتبرته بالنبات نزل بقدر قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا * ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ [نوح: 17، 18]. فانظر إلى هذا الدور القرآني في إثباتنا من الأرض وإعادتنا فيها، ثم إخراجنا منها، وقد ورد: «إن آدم كان شجرة بؤادي نغمان»، وكذا محمد ﷺ كان كوكبًا دريًا يوقد من شجرة مباركة الأدهان، وأول الأدوار الكثر المخفي، وهو ما قبل العرفان، وجميع أدوار الوجود في ضمن القرآن. [كشف الواردات الإلهية].

أَطْفَيْتُهُ وَأَضْلَلْتَهُ ﴿وَلَكِنْ كَانَ﴾ فِي نَفْسِهِ ﴿فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ [ق: 27] بِمَرَا حِلْ عَنْ
الْهُدَايَةِ بِمَقْتَضَى أَهْوِيَّتِهِ وَأَمَانِيهِ الْفَاسِدَةِ.

وَبَعْدَمَا اخْتَصَمَ الْكَافِرُ وَقَرِينَهُ عِنْدَ اللَّهِ ﴿قَالَ﴾ اللَّهُ سَبْحَانَهُ: ﴿لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيْ﴾
وَلَا تَتَنَازَعُوا عِنْدِي؛ إِذْ لَا نَفْعَ لَكُمْ الْآنَ فِي الْخُصُومَةِ وَالْتِزَاعِ ﴿وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ﴾ فِي
كِتَابِي وَعَلَى أَلْسِنَةِ رُسُلِي ﴿بِالْوَعِيدِ﴾ [ق: 28] الْهَائِلِ، وَالْعَذَابِ الشَّدِيدِ عَلَى أَهْلِ
الشَّرْكِ وَالطَّغْيَانِ وَالْكَفْرِ وَالْكَفْرَانِ، فَالْحَكْمُ عَلَى مَا جَرَى بِلا تَبْدِيلٍ وَتَغْيِيرٍ.

إِذْ ﴿مَا يَبْدُلُ الْقَوْلُ﴾ وَالْحَكْمُ ﴿لَدَيْ﴾ بَلِ الْمَقْدَرُ فِي عِلْمِي كَائِنٌ عَلَى مَا ثَبَتَ
وَكَانَ عَلَى مَقْتَضَى الْعَدَالَةِ وَالْقِسْطِ الْحَقِيقِيِّ ﴿وَوَ﴾ بِالْجُمْلَةِ: ﴿مَا أَنَا بِظَلَامٍ لِلْعَالَمِينَ﴾ [ق: 29]
أَي: لَيْسَ مِنْ شَأْنِي الظُّلْمُ وَالتَّعْدِي عَلَى عِبِيدِي، بَلِ هُمْ يَظْلِمُونَ أَنْفُسَهُمْ،
فَيَسْتَحِقُّونَ الْعُقُوبَةَ عَلَى قَدَرِ عَصْيَانِهِمْ.

اذْكُرْ يَا أَكْمَلَ الرُّسُلِ لِلْعَصَاةِ وَالْكَفْرِ الْمُشْرِكِينَ، الْمَصْرِينَ عَلَى الْعِنَادِ وَالْإِنْكَارِ
﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ﴾ الْمَعْدَةَ لِجَزَائِهِمْ، سُؤَالَ تَخْيِيلٍ وَتَصْوِيرٍ حِينَ طَرَحْتَ عَلَيْهَا أَفْوَاجَ
الْكَفْرِ وَالْعَصَاةِ: ﴿هَلْ امْتَلَأَتْ وَتَقُولُ﴾ جَهَنَّمَ مِنْ شِدَّةِ تَلْهَبِهَا وَتَسْعَرُهَا بِإِنْطَاقِ اللَّهِ
إِيَّاهَا: ﴿هَلْ مِنْ مُزِيدٍ﴾ [ق: 30] مِنَ الْمَطْرُوحِينَ حَتَّى يَطْرَحَ مَا بَقِيَ مِنْ أَهْلِهَا إِلَى أَنْ
تَمْتَلِئَ إِنْجَازًا لِمَا وَعَدَ لَهَا الْحَقُّ، نَقُولُ لِجَهَنَّمَ: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ
أَجْمَعِينَ﴾ [هُود: 119].

﴿وَ﴾ اذْكُرْ أَيْضًا لِلْمُؤْمِنِينَ الْمُطِيعِينَ يَوْمَ ﴿أُزْلِفَتْ﴾ وَقَرِيبَتْ ﴿الْجَنَّةُ﴾ الْمَوْعُودَةُ
﴿لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ [ق: 31] بَلِ بَحِثْ يَرُونَ مَنَازِلَهُمْ فِيهَا قَبْلَ دُخُولِهِمْ مِنْ غَايَةِ
قَرْبِهَا، وَيَتَمَنُّونَ الْوَصُولَ إِلَيْهَا.

فَيَقَالُ لَهُمْ حِينَئِذٍ: ﴿هَذَا مَا تُوْعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ﴾ رَجَاعٍ، تَوَّابٍ إِلَى اللَّهِ عَنْ عَمُومِ
زَلَاتِهِ وَمَطْلُوقِ فِرْطَانِهِ فِي نَشْأَةِ الْإِخْتِبَارِ ﴿حَفِيفٍ﴾ [ق: 32] لَتَوْبَتِهِ عَلَى وَجْهِ النَّدَمِ
وَالْإِخْلَاصِ، بَلَا تَوْهَمِ عَوْدٍ وَرَجُوعٍ عَلَيْهَا أَصْلًا.

وَبِالْجُمْلَةِ: ﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ﴾ وَاجْتَنَبَ عَنْ مَحَارِمِهِ وَمَنْهِيَّاتِهِ، خَائِفًا
مِنْ سَخَطِهِ، رَاجِيًا مِنْ سَعَةِ رَحْمَتِهِ فِي نَشْأَةِ الْإِعْتِبَارِ وَالْإِخْتِبَارِ قَبْلَ انْكِشَافِ السَّرَائِرِ
وَالْأَسْتَارِ وَحُلُولِ النُّشْأَةِ الْآخَرَى، وَرَضِيَ بِالتَّكَالِيفِ الْإِلَهِيَّةِ، وَوُطِنَ نَفْسَهُ بِامْتِنَالِ عَمُومِ
الْأَوَامِرِ وَالنَّوَاهِي وَمَطْلُوقِ الْأَحْكَامِ الْجَارِيَةِ عَلَى أَلْسِنَةِ الرُّسُلِ وَالْكِتَابِ ﴿وَجَاءَ بِقَلْبٍ

مُنِيبٌ ﴿ق: 33﴾ إِلَى اللَّهِ، مُخْلِصًا فِي إِطَاعَةِ اللَّهِ وَإِطَاعَةِ رَسُولِهِ.

قِيلَ لَهُمْ حَيْثُ مِنْ قَبْلِ الْحَقِّ عَلَى وَجْهِ التَّبَشِيرِ: ﴿ادْخُلُوهَا﴾ أَي: الْجَنَّةَ الْمَعْدَةَ لِأَرْبَابِ التَّقْوَى ﴿بِسَلَامٍ﴾ حَالُ كَوْنِكُمْ سَالِمِينَ آمِنِينَ مِنَ الْعَذَابِ ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَخْزَنُونَ﴾ [الأعراف: 49] ﴿ذَلِكَ﴾ الْيَوْمَ الَّذِي أَنْتُمْ فِيهِ الْآنَ ﴿يَوْمَ الْخُلُودِ﴾ [ق: 34] فِي الْجَنَّةِ الْمَوْعُودَةِ لِأَرْبَابِ الْعَنَايَةِ وَالشَّهَادَةِ.

جَعَلْنَا اللَّهَ مِنْ زِمْرَتِهِمْ بِعَيْنِهِ وَجُودَهُ.

وَبِالْجُمْلَةِ: ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا﴾ مِنَ اللَّذَاتِ الْحَسِيَّةِ وَالْعَقْلِيَّةِ الْمُحَاطَةِ بِمَدَارِكِهِمْ وَأَلَاتِهِمْ، بَلْ ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق: 35] عَلَى مَا يَسْأَلُونَ حَسَبَ اسْتِعْدَادَاتِهِمْ، مِمَّا لَا عَيْنَ رَأَتْ وَلَا أُذُنَ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَحْيِيصٍ﴾
 ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ ﴿٣٨﴾ فَأَصْبَحَ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَرَ الشُّجُورِ ﴿٤٠﴾ وَاسْمِعْ يَوْمَ يُنَادِي الْمُنَادُ مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِيهِم وَنُمِيتُهُمْ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ نَشَقُّوهُمُ الْأَرْضَ عَنْهُمْ مِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرُ ﴿٤٤﴾ نَحْنُ أَظْهَرُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكَرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾ [ق: 36-45].

ثُمَّ قَالَ سُبْحَانَهُ تَهْدِيدًا عَلَى مَنْ أَعْرَضَ عَنْ دِينِهِ وَنَبِيِّهِ: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ﴾ أَي: قَبْلَ قَوْمِكَ يَا أَكْمَلَ الرُّسُلِ ﴿مِنْ قَرْنٍ﴾ أَي: أَهْلِهِ، مَعَ أَنَّهُ ﴿هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا﴾ قُوَّةً وَفَكْرَةً، وَأَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا، كَعَادَ وَثَمُودَ وَفِرْعَوْنَ وَغَيْرِهِمْ ﴿فَنَقَّبُوا﴾ أَي: انصرفوا وانقلبوا وساروا ﴿فِي الْبِلَادِ﴾ مُتَمَنِّينَ ﴿هَلْ﴾ يَجِدُونَ ﴿مِنْ مَحْيِيصٍ﴾ [ق: 36] مَهْرَبٍ وَمُخْلِصٍ مِنْ بَطْشِ اللَّهِ وَحُلُولِ عَذَابِهِ عَلَيْهِمْ، فَلَمْ يَجِدُوا بَعْدَمَا اسْتَحَقُّوا التَّعْذِيبَ وَالْإِهْلَاكَ، وَبِالْآخِرَةِ هَلَكُوا وَاسْتَوْصَلُوا حَتْمًا، فَكَذَا هَؤُلَاءِ الْمُسْرِفُونَ الْمُعَانِدُونَ سَيَهْلَكُونَ كَمَا هَلَكُوا، وَبِالْجُمْلَةِ: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ، الَّذِي نَزَلَ عَلَيْكَ يَا

أكمل الرسل ﴿لَذِكْرِي﴾ عظة وتذكيرًا وعبرة وتنبيهًا ﴿لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ يتفطن من تقلبات الأحوال وتطوراتها إلى شئون الحق وتجلياته الجمالية والجلالية حسب اقتضاء الذات بالإرادة والاختيار، وكمالات الأسماء والصفات ﴿أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ﴾ أي: يكون من أرباب الإرادة الصادقة الخالصة عن شوب السمعة ورعونات الرياء، ألقى سمعه إلى استماع كلمة الحق من أهله ﴿وَهُوَ﴾ حيثُ ﴿شَهِدَ﴾⁽¹⁾ [ق: 37] حاضر القلب، فارغ الهم، حديد الفطنة، صحيح الإرادة، خالص العزيمة.

ثم لما قال اليهود: إن الله خلق العالم في ستة أيام من الأسبوع، وبعدهما عي من الخلق والإيجاد استلقى على العرش في يوم السبت للاستراحة، رد الله عليهم فقال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا﴾ وأظهرنا ﴿السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من الكائنات الممتزجة منهما ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَ﴾ مع ذلك ﴿مَا مَسَّنَا﴾ ولحقنا ﴿مِنْ لُغُوبٍ﴾ [ق: 38] وصب وتعب وإعياء وفطور؛ إذ ذاتنا منزهة عن طريان أمثال هذه النقائص الإمكانية.

﴿فَاضْبِرْ﴾ يا أكمل الرسل ﴿عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾ وينسبون إلى الله الصمد القدوس من أمثال هذه المفتريات الباطلة، الناشئة من جهلهم المفرط بالله وبمقتضى ألوهيته وربوبيته ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ بمقتضى توحيدك وتمجيدك إياه، ونزه ذاته عما يقول

(1) قال الورتجبي: أثبت الله سبحانه رؤية أنوار حكمته الأزلية وسناء الكبرياء والمظمنة وظهور قهر الجبارية لمن له قلب، وله إلقاء السمع، وله شهود السر، والقلب عبارة عن نقطة دائرة الفطرة القدسية التي خلقها الله من نور فعله الخاص، وهو يتجلى لها من نور صفته ونور ذاته، وهناك لطيفة كبرى، وهي سر النقطة، حولها دائرة العقل، وراء الدائرة حواشي فعله، ألقى تحتها ستر الصفات، ثم تحت ذلك الستر ظهور الذات لها، فهو بذاته وصفاته حافظ فعله الخاص، ليس ستر الفعل العام على غاشيتها، وحولها عالم الملك والشهادة، وباطنها كشف الصمدية وجلال الأزلية، وبينها وبين الحق لم يبق حجاب استناع قدمه عن إحاطتها، وذلك الكشف والعيان من بدو وجودها إلى أبد الأبد لا ينقطع؛ لذلك قال الشبلي: وقتي مسمد، وتجري بلا شاطئ، سقط عنها أضداد التجلي؛ إذ لم يبق بين الحق وبينها جريان الحوادث، ولتلك اللطيفة عيون وأسماع؛ إذ كل وجودها سمع وبصر، فجميع سمعها وبصرها مشغول بخطاب الله ورويته، فألقت سمعها لأصوات وصلة الأزلية، شهدت أبصارها بمشاهدة القديم، ثم نورث الهيكل بالحضور والخدمة، وطلب مزيد الصفاء والقراية، وجعلتها مركب سيراتها وطيرانها إلى عالم الملكوت، ورأت من روزنة البصر ما رأت بلا واسطة، وسمعت بسمع الظاهر ما سمعت بلا وسيلة، فإذا رأى صاحب هذا القلب شيئًا من عجائب صنعه صار خاضعًا لعظمته، خاشعًا لهيبته، مطيعًا لأمره، جعلنا الله وإياكم من أصحاب القلوب، وأقر عيوننا بأنوار الغيوب.

الظالمون الجاحدون، الجاهلون بقدره وعلو شأته، وتوجه نحوه سبحانه في عموم أوقاتك وحالاتك، سيما ﴿قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ [ق: 39] يعني: كلا طرفي النهار؛ إذ هما أوان الفراغ من مطلق الأشغال.

﴿وَمِنْ آثَامِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ في خلال تهجداتك ﴿وَوَ بِالْجَمَلَةِ: سَبِّحْهُ﴾ ﴿أَذْبَارِ الشُّجُودِ﴾ [ق: 40] أي: في عقب كل صلاة ذات ركوع وسجود.

ثم قال سبحانه أمراً لحبيه ﷺ: ﴿وَاسْتَمِعْ﴾ يا أكمل الرسل النداء الهائل ﴿يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ﴾ من قبل الحق؛ لقيام الساعة والبعث ﴿مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ [ق: 41] بكل أحد، بحيث يسمعه بلا كلفة وشبهة، فيقول: أيتها العظام البالية والحموم المتمزقة والشعور المتفرقة، إن الله يأمركن أن تجتمعن للحساب والجزاء.

﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ﴾ النفخة الثانية ملبسة ﴿بِالْحَقِّ﴾ تحققوا حيثئذ أن ﴿ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ﴾ [ق: 42] من القبور والبعث والنشور.

وبالجملة: ﴿إِنَّا﴾ من كمال قدرنا وحكمتنا ﴿نَخْنُ نُخْيِي وَنُمِيتُ﴾ في النشأة الأولى بالإرادة ﴿وَالْيُنَا الْمَصِيرُ﴾ [ق: 43] أي: مصير الكل ومرجعهم إلينا في النشأة الأخرى.

اذكر يا أكمل الرسل لمن أنكر الحشر والميعاد ﴿يَوْمَ تَشَقُّقُ﴾ أي: تنشق وتتخرق ﴿الْأَرْضُ عَنْهُمْ﴾ ويخرجون منها ﴿مِرَاعًا﴾ مسرعين ﴿ذَلِكَ﴾ أي: إخراجهم وخروجهم كذلك ﴿خَشَرٌ﴾ وبعث وجمع ﴿عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ [ق: 44] سهل.

لا تستبعدوا ولا تستعسروا عن قدرتنا الكاملة أمثال هذا؛ إذ ﴿نَخْنُ أَعْلَمُ﴾ واحفظ ﴿بِمَا يَقُولُونَ﴾ أي: المنكرون، المشركون في مرائرهم ونجواهم ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ﴾ يا أكمل الرسل ﴿بِجَبَّارٍ﴾ تردعهم وتزجرهم عما هم عليه من الإنكار والإصرار، بل ما أنت إلا مذكر.

﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ﴾ أي: بوعيداته وإنذاراته ﴿مَنْ يَخَافُ وَعَبِيدُ﴾ [ق: 45] إذ لا ينفع تذكيرك إلا للخائف منهم، ومن لم يخف ليس لك عليهم سلطان ليزعجهم إلى الإيمان، ويلجئهم إلى قبول الإسلام؛ إذ ما عليك إلا البلاغ والتذكير، والتوفيق من الله العليم الخبير.

خاتمة السورة

عليك أيها المحمدي المترقب لتوفيق الحق في عموم أحوالك - وفقك الله على سلوك طريق توحيده - أن تفرغ همك عما سوى الحق، وتصفى سرك عن مطلق الشواغل المنافية لصرافة الوحدة الذاتية، وكن في نفسك خائفًا من غضب ربك، راجيًا من عفوه وغفرانه في عموم أعمالك التي جشت بها تقريبًا إليه، مفوضًا أمورك كلها إلى مشيئته، وبالجمل: عليك أن تتذكر بوعيدات القرآن ومواعيده المستلزمة لصلاح الدارين، وفلاح النشأتين.

وإياك الإعراض عن الحق وأهله، والانصراف عن معالم الدين المنزل من عنده سبحانه، لتبين مسالك توحيده.

جعلنا الله من زمرة الراسخين، المتمكنين في معالم الدين القويم بمئه وجوده.

سورة الذاريات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فاتحة سورة الذاريات

لا يخفى على الموحدين المنكشفين بظهور الحق في مطلق المظاهر بوحدته الذاتية، المتصفة بجميع الأوصاف الكاملة والأسماء الشاملة، المحيطة كل منها بعموم ما ظهر وبطن، أن كل مظهر من مظاهر الحق باعتبار ظهور الحق فيه بذاته قابل لأن يقسم به ويتمن منه، كما أقسم سبحانه في هذه السورة بما أقسم تنبيها وتعلیما لعباده بظهوره في عموم مظاهره.

فقال بعدما تيمن باسمه الأعلى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ المتجلي في الرياح المروحة لنفوس أرباب الطلب والإرادة شوقا إلى لقائه ﴿الرَّحْمَنُ﴾ لهم يوقظهم من سنة الغفلة ﴿الرَّحِيمُ﴾ لهم يوصلهم إلى فضاء الوحدة.

﴿وَالذَّارِيَاتُ ذُرَّوًا ۝١ فَالْحَالِكَاتُ وَقرًا ۝٢ فَالْجَارِيَاتُ يُسرًا ۝٣ فَالْمَقْسَمَاتُ أَمْرًا ۝٤ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۝٥ وَإِنَّ الَّذِينَ لَوْعَدَ ۝٦ وَالسَّمَاءَ ذَاتَ الْحُبُوكِ ۝٧ إِنَّكُمْ لَنِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ ۝٨ يُؤَفَّكُ عَنْهُ مَنَ أُنْفَكُ ۝٩ قِيلَ الْخَرَّاصُونَ ۝١٠ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرٍ وَسَاهُونَ ۝١١ يَسْتَلُونَ أَيَّانَ يَوْمَ الَّذِينَ ۝١٢ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ۝١٣ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ۝١٤ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۝١٥ يَخِذِينَ مَا هَاهُنَا رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ۝١٦ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۝١٧ وَلَا انشعاب لهم يستغفرون ۝١٨ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُورِ ۝١٩ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢٠ وَفِي أَنْشُكُمُ أَقْلًا تُبْصِرُونَ ۝٢١ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ۝٢٢ قُورِبَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ ۝٢٣ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُرْيَمَ الْمُكْرَمَةِ ۝٢٤ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهَا فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ۝٢٥ فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهَا فَجَاءَهُ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ۝٢٦ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ۝٢٧ فَأَوْحَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ۝٢٨﴾

فَأَقْبَلَتِ أَمْرَاتُهُ فِي صَرَافَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ
الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾ [الذاريات: 1-30].

﴿وَالذَّارِيَاتِ﴾ يعني: وحق النسمات الروحانية من النفسات الرحمانية على وفق
العناية الأزلية؛ بحيث تذرو والبعث النفوس الخيرة الموفقة المجبولة على نشأة التوحيد
﴿ذُرُوءًا﴾^(١) [الذاريات: 1] نوعًا من الذرو والبعث على سبيل الشوق، والتحنن نحو
المبدأ الحقيقي والمنشأ الأصلي.

﴿فَالْحَامِلَاتِ﴾ من القوى، والآلات الحاملة كل واحد منها ﴿وَقَرَّاءِ﴾ [الذاريات:
2] حملاً ثقیلاً خطيراً من أعباء الوحي، والإلهامات الإلهية من العلوم اللدنية
والإدراكات الكشفية، المنشعبة من حضرة العلم ولوح القضاء، المتعلقة بالمعارف
والحقائق الإلهية.

﴿فَالْجَارِيَاتِ﴾ أي: سفن النفوس المشتملة على أنواع المدارك، والمشاعر
الجارية في بحر الوجود ﴿يُسْرًا﴾ [الذاريات: 3] سهلاً بلا تشاقل وتكاسل.

﴿فَالْمُقَسَّمَاتِ﴾ من الأسماء والصفات الإلهية، الموسومات بالملائكة، المقسمة
لقوابل المظاهر ﴿أَمْزًا﴾ [الذاريات: 4] أي: أمور أرزاقهم، ومطلق حظوظهم وأبصارهم
من الفيوضات والفتوحات الصورية والمعنوية، الموهوبة لهم من قبل الحق حسب
استعداداتهم الفطرية وقابلياتهم الجبلية.

﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ﴾ أنتم أيها المكلفون، المجبولون على فطرة التوحيد والعرفان من
البعث والحشر والحساب والجزاء، وغير ذلك من المعتقدات الأخروية، المترتبة على
العالم المحيط الإلهي، وقدرته الغالبة وإرادته الشاملة ﴿لَصَادِقٌ﴾ [الذاريات: 5] ثابت
محقق وقوعه بلا شك وشبهة.

﴿وَإِنَّ الدِّينَ﴾ والجزاء الموعود لكم في النشأة الأخرى، المتفرع على أعمالكم

(١) أقسم الله سبحانه بعواصف تجلي عظمته وكواشف أنوار كبريائه التي تفرق أسرار العارفين في
هواء القدم، والبقاء حتى لا يبقى من وجودها من صولة ظهور القيومية في سماء الهوية أثراً
لغلبة القدم على الحدث وبشمال جماله الذي يأتي بنسيم الوصلة إلى قلوب المحيين، وينشق
طيب نسائم الدنو أرواح الشائقين ومحمل أنين العاشقين إلى بساتين الملكوت، ويطيبها بطيب
الجبروت.

وأفعالكم في النشأة الأولى ﴿لَوَاقِعٌ﴾ [الذاريات: 6] محقق وقوعه، كائن إتيانه ألبتة، بلا تردد وارتياب.

ثم لما أقسم سبحانه بما يتعلق بعالم الأمر، أراد أن يقسم بما يتعلق بعالم الخلق تميماً للتأكيد والمبالغة بالقسم باعتبار كلا العالمين، فقال: ﴿وَالسَّمَاءِ﴾ أي: وحق السماء الرفيعة، البديعة النظم، العجيبة التركيب ﴿ذَاتِ الْخُبُكِ﴾ [الذاريات: 7] أي: الحسن والزينة، وكمال الصفاء، والبهجة والبهاء؛ لاشتمالها على الكواكب المشيرة إلى الطرق الموصلة إلى قدرة الصانع القديم، ومتانة حكمة الحكيم العليم.

إن اليوم الموعود لبعثكم وجزائكم لآت ألبتة ﴿إِنْكُمْ﴾ أيها الشاكون في شأنه، وشأن من أخبر به بمقتضى الوحي والإلهام الإلهي، وشأن ما أنزل لبيانه من الكتاب المبين لإعداد الزاد له، وطريق النجاة عن أهواله وأفزاعه ﴿لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ﴾ [الذاريات: 8] تنكرون له، وتكذبون المخبر الصادق، وتنسبون له وإلى الكتاب المبين المعجز من المفتريات الباطلة؛ حيث تقولون تارة: إنه سحر، أو من أساطير الأولين أو كهانة اختلقها الشاعر، أو كلام المجانين يتكلم به هذا المجنون.

وبالجملة: ﴿يُؤْفَكُ﴾ ويصرف ﴿عَنَّهُ﴾ وعن دينه وكتابه ﴿مَنْ أْفَكُ﴾⁽¹⁾

[الذاريات: 9] وصرف عن الحق وقبوله، ومال إلى الباطل، وسعى نحوه.

وبسبب إفكهم، وذبتهم عن طريق الحق والامثال به ﴿قَتِلَ﴾ أي: طرد ولعن على السنة عموم أهل الحق ﴿الْخَرَّاصُونَ﴾ [الذاريات: 10] المنكرون الكاذبون، المكذبون من أصحاب القول المختلق، وهم: ﴿الَّذِينَ هُمْ﴾ من شدة انصرافهم عن الحق وأهله ﴿فِي غَمْرَةٍ﴾ وغفلة عظيمة، وجهل متناهٍ ﴿سَاهُونَ﴾ [الذاريات: 11] غافلون عن الله وقدر ألوهيته وحقوق ربوبيته.

ومن كمال غفلتهم، وشدة عمههم في سكرتهم ﴿يَسْأَلُونَ﴾ على سبيل التهكم والاستهزاء: ﴿أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ﴾ [الذاريات: 12] أي: يقولون: متى يوم الجزاء والقيامة

(1) قال في التاويلات: يشير إلى أن في قطاع الطريق على أرباب الطلب للكثرة، فمن يصرفه طلبه قاطع من القطاع من النفس والهوى والدنيا وزينتها وشهواتها وجاهها ونعيمها فصرف؛ فقد حرم عن متمناه وأهلكه هواه، كما قيل نعوذ بالله من الحور بعد الكور، وينادي عليه منادي العزة: وكم مثلها فارقتها وهي تصفر..

يا محمد! وفي أي آن يأتينا عذاب الساعة وأهوالها؟!

قال تعالى في جوابهم: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ [الذاريات: 13] أي: يوم يقع عليه الجزاء والعقاب والعذاب، وهم يحرقون فيه في النار، ويطرحون عليها صاغرين مهانين.

ويقول لهم الموكلون حين طرحهم فيها توبيخًا وتقريعًا: ﴿ذُوقُوا﴾ أيها المجرمون المترفون ﴿فِشْتَكُمْ﴾ التي أنتم تستعجلون بها في دار الدنيا على سبيل الاستهزاء والمراء، وبالجمله: ﴿هَذَا الَّذِي﴾ وقعتم فيه، وحبستم عليه الآن من العذاب ﴿كُتِّمَ بِهِ تَسْتَفْجِلُونَ﴾ [الذاريات: 14] في سالف الزمان على سبيل الإنكار والاستكبار.

ثم قال سبحانه على مقتضى سنته المستمرة: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ﴾ الممثلين لأوامر الله، المجتنبين عن نواهيه الموردة في كتبه الجارية على السنة رسله، الحافظين لنفوسهم عن الإفراط في الرخص والمباحات، فكيف عن تفريط المحظورات والمحرمات! متلذذون باللذات الروحانية ﴿فِي جَنَّاتٍ﴾ أي: متزهات العلم والعين والحق ﴿وَعُيُونٍ﴾ [الذاريات: 15] جاريات من الحكم، والمعارف اللدنية المستخرجة من ينابيع قلوبهم، المترشحة إليها من بحر الوجود على مقتضى الحفظ الإلهي، حسب استعداداتهم واستفاضتهم بمقتضاها.

﴿أَخْلِدِينَ مَا آتَاهُمْ﴾ وأعطاهم ﴿زِيَهُمْ﴾ تفضلاً عليهم، وتكريماً على وجه الرضاء بجميع ما جرى عليهم من مقتضيات قضائه ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ﴾ الفضل واللف في النشأة الأولى ﴿مُخْسِنِينَ﴾ [الذاريات: 16] الأدب مع الله ورسله، وخلص عباده العاكفين ببابه.

ومن جملة إحسانهم: إنهم ﴿كَانُوا﴾ في دار الابتلاء ﴿قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ [الذاريات: 17] أي: يرقدون قليلاً من ساعات الليل، وذلك أيضاً بسبب ألا يعرضهم الكلال العائق من المواظبة على الطاعات.

﴿وَهُمْ﴾ هم مع قلة هجوعهم، وكثرة تهجدهم وتخشوعهم ﴿بِالْأَسْحَارِ﴾ المغدة

للتوجه والاستغفار ﴿هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾⁽¹⁾ [الذاريات: 18] دائماً، كأنهم يرون أنفسهم قاصرة عن رعاية حقوق العبودية على ما ينبغي، لذلك يبالغون في الإنابة والاستغفار. ﴿وَكَانَ فِي أَمْوَالِهِمْ﴾ وأرزاقهم المسروقة إليهم من قبل الحق ﴿حَقٌّ﴾ حظ ونصيب مفروض مقدر، يستوجبونه على أنفسهم ﴿لِلْمَنَائِلِ﴾ السائر في سبيل الله، المتعرض للسؤال مقدار ما يحتاج إليه ﴿وَالْمَخْرُومِ﴾ [الذاريات: 19] المتعفف عن ذل السؤال، المتمكن في زاوية التوكل والتفويض.

ثم أشار سبحانه إلى حيلة وحدته الذاتية، وشمولها على عموم ما ظهر وبطن في الآفاق والأنفس بالاستقلال والانفراد، وسر سريان هويته الذاتية على ذرات الكائنات، تنبيهاً للمريد المستبصر، وإيقاظاً لهم عن سنة الغفلة ونعاس النسيان، فقال: ﴿وَإِنِّي الْأَرْضُ﴾ أي: عالم المسيبات، والاستعدادات المعبرة بالآفاق المعدة لظهور آثار القدرة الكاملة الإلهية من العجائب والغرائب، المتفرعة على كمال العلم، ووفور الحكمة المتقنة آيات دلائل واضحة وشواهد لاثبات دالة على قدرة الصانع الحكيم، ووحدته ذاته، واختياره في مطلق تصرفاته، واستقلاله في حكمة ومصالحة ﴿الْمُوقِنِينَ﴾ [الذاريات: 20] المنكشفين باليقين العلمي والعيني والحق.

بل ﴿وَإِنِّي أَنفُسِكُمْ﴾ أيضاً أيها المستبصرون، المستكشفون عن سرائر الألوهية وأسرار الربوبية شواهد ظاهرة تشهد على حقية الحق، وتوحيده في ظهوره ووجوده ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: 21] أيها المجبولون على فطرة الكشف والشهود.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: عالم الأسماء، والأسباب المعبرة عنها بالأعيان الثابتة ﴿رِزْقُكُمْ﴾ أي: أرزاقكم الصورية والمعنوية، المبقية لأشباحكم وأرواحكم ﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾⁽²⁾ [الذاريات: 22] من الآجال المقدرة، والجزاء المترتب على الأعمال

(1) قال في التاويلات: أي: يستغفرون عن رؤية عبادات يعلمونها في سهرهم إلى الأسفار بمنزلة العاصين، يستغفرون استصغاراً لقدرة واستحقاقاً لفعلهم، والليل إما للأحباب في أنس المناجاة وإما للعصاة في طلب النجاة، والسهر لهم في ليالهم دائم؛ لفرط أسف أو لشدة لهف، وإما للاشتياق أو للفراق.

(2) أي تفرغوا لعبادتي ولا يشغلكم طلب الرزق عنا، فإننا نرزقكم، ثم قال: إن الله رضي عنكم بعبادة يوم قارضوا عنه برزق يوم بيوم. قال: وفيها وجه آخر: ﴿وَإِنِّي السَّمَاءُ رِزْقُكُمْ﴾ أي من الذكر وثوابه. تفسير التستري (67/2).

والأفعال الصادرة عن هوياتكم الباطلة في نشأكم الأولى، وحالاتكم الواقعة فيها. ثم أقسم سبحانه تأكيداً لما أومأ، فقال: ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: وحق موجدتهما، ومربيهما على هذا النمط البديع والنظم الغريب ﴿إِنَّهُ﴾ أي: ما يستدل بإيجادهما، وإظهارهما على وجوده سبحانه وكمال وقدرته، ووفور حكمته، ومتانة حكمه ﴿لَحَقُّ﴾ ثابت محقق حقيق بالحقية، وحيد بالقيومية، فريد بالديمومية، لا يعرضها زمان، ولا يعترئها كلال.

وهو في حقيقته وتحققه ﴿مِثْلُ مَا أَنْتُمْ تَنْطِقُونَ﴾ [الذاريات: 23] أي: كمال لا شبهة لكم في تنطقكم، وتلفظكم بالكمالات المنطوقة، كذلك لا شبهة في حقية الحق وظهوره، بل هو أظهر من كل شيء ظاهر، وأجلى من كل جلي، بل الكل إنما يظهر به وبظهوره، إلا إنكم بغيوم تعيناتكم الباطلة وظلام هوياتكم العاطلة، تسترون شمس الحق الظاهر في الآفاق بكمال الكرامة والاستحقاق.

ثم ذكر سبحانه قصة إبراهيم الخليل، المتحقق بمقام الكشف والشهود، النازلة من عنده سبحانه من كمال المحبة والإخلاص والخلة والاختصاص مع ضيفه من الملائكة المكرمين، فقال مستفهماً لحبيبه ﷺ على سبيل العبرة والتذكير: ﴿هَلْ أَتَاكَ﴾ ووصل إليك يا أكمل الرسل ﴿حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾ وقصة إمام الملائكة ونزولهم عنده على صورة الأضياف ﴿الْمُكْرَمِينَ﴾ [الذاريات: 24] لكرامتهم، وحسن صورتهم وسيرتهم.

ومن كمال كرامتهم ونجاتهم: ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ﴾ وحضروا عنده بلا استئذان ﴿فَقَالُوا﴾ ترحيباً وتكريماً: ﴿سَلَامًا﴾ أي: نسلم سلاماً عليك ﴿قَالَ﴾ إبراهيم ﷺ في جوابهم ظاهراً، وإن أنكر عليهم خفية بدخولهم بلا استئذان: ﴿سَلَامٌ﴾ عليكم، عدل إلى الرفع لقصد الدوام والثبات؛ ليكون رده أكمل من تسليمهم، وهو ﷺ، وإن بادر إلى رد تسليمهم، إلا أنه أضمر في نفسه الإنكار عليهم، فقال في سره: هؤلاء ﴿فَقَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾ [الذاريات: 25] لا أعرف أنفسهم ولا أمرهم.

﴿فَرَاغَ﴾ أي: عدل، ومال عنهم فجأة خفية منهم ﴿إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ [الذاريات: 26] إذ كان أغلب مواشيه البقر، فذبحه وطبخه ﴿فَقَرْنَهُ إِلَيْهِمْ﴾ نزلاً، فأبوا عن أكله، فعرض عليهم، وحشهم على الأكل كما هو عادة أرباب الضيافة؛ حيث ﴿قَالَ﴾ أَلَا تَأْكُلُونَ [الذاريات: 27] منه، فلم يأكلوا بعد العرض والإذن أيضاً.

ثم لما رأى منهم ما رأى من الامتناع عن طعامه ﴿فَأَوْجَسَ﴾ وأضمر الخليل في نفسه ﴿مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ خوفا ورعبا منه، ظنا منه أنه إنما امتنعوا من طعامه؛ ليقصدوا له سوءا، ثم لما تحسسوا منه ما تحسسوا من الرعب المفرط ﴿قَالُوا﴾ له إزالة لرعبه: ﴿لَا تَخَفْ﴾ مئا، ولا تحزن عن امتناعنا من الأكل، إنا لسنا ببشر، بل نحن ملائكة منزهون عن الأكل، مرسلون من عند ربك لأمر عظيم.

قيل: مسح جبريل العجل المشوي فحيي، فقام يدرج ويدب حتى لحق بأمه، وبعدهما رأى منهم إبراهيم ما رأى، وسمع ما سمع، أمن منهم ﴿وَوَ﴾ بعدما أمنوه وأزالوا رعبه ﴿بَشْرُوهُ بِغَلَامٍ﴾ إذ لم يكن له ابن يخلف عنه، وكانت امرأته عجوز عقيمة ﴿عَلِيمٌ﴾ [الذاريات: 28] في كمال الرشد والفطنة، وهو إسحاق عليه السلام.

وبعدما سمع إبراهيم منهم البشرى أخبر به امرأته، ثم لما سمعت ما سمعت استحالت واستبعدت ﴿فَأَقْبَلَتْ امْرَأَتُهُ﴾ سارة إليهم ﴿فِي صُرَّةٍ﴾ صرير وضجة ﴿فَفَصَّكْتُ﴾ ولطمت ﴿وَوَجْهَهَا﴾ بأطراف أصابعها ﴿وَقَالَتْ﴾ مشتكبة: أنا ﴿عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ [الذاريات: 29] عاقر، كيف ألد ابنا سيما بعد انقضاء أوانه وانصرام زمانه؟!

ثم لما شاهدوا منها ما شاهدوا ﴿قَالُوا﴾ لها: ﴿كَذَلِكَ﴾ أي: مثل ذلك الذي نخبرك ونبشرك ﴿قَالَ رَبُّكَ﴾ وما علينا إلا البلاغ، والأمر بيد الله ﴿إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ﴾ في عموم أفعاله وآثاره ﴿الْعَلِيمُ﴾ [الذاريات: 30] بمطلق تدابيرهِ وتقاديره.

﴿قَالَ فَاطَّخْتُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ ٣١ ﴿قَالُوا إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ قَوْمَ بُعْرَيْنَ﴾ ٣٢ ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حَبَارَةً مِنْ طِينٍ﴾ ٣٣ ﴿مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ ٣٤ ﴿فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ٣٥ ﴿فَمَا وَحَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ ٣٦ ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ ٣٧ ﴿وَفِي مُوْسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ ٣٨ ﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكْبِهِ وَقَالَ سِحْرٌ أَوْ يَحْنُونُ﴾ ٣٩ ﴿فَأَخَذَتْهُ وَهْمُهُمْ فَبَدَّلَتْهُمْ فِي آيَةٍ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ ٤٠ ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ ٤١ ﴿مَا تَذُرُّ مِنْ شَيْءٍ أَنْتَ عَلَيْهِمْ إِلَّا جَلَّةٌ كَالرَّيْرِ﴾ ٤٢ ﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ﴾ ٤٣ ﴿فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ ٤٤ ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْصَرِفِينَ﴾ ٤٥ ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلِ إِيَّاهُمْ هَكَائِذَا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ ٤٦ ﴿وَالسَّمَلَةَ بَيْنَهُمَا يَبْتَهِرُ وَإِنَّا لَلْمُوسِعُونَ﴾ ٤٧ ﴿وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا﴾

فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ ﴿٥٨﴾ وَمِنْ كُلِّ شِئٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٩﴾ فَفِرُّوْا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكَرِّمَةٌ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكَرِّمَةٌ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٦١﴾ [الذاريات: 51-31].

وبعدما جرى منهم ما جرى، أخذ إبراهيم عليه السلام يسأل عن سبب نزولهم وإرسالهم، ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ﴾ وشأنكم الذي جئتم لأجله ﴿أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ [الذاريات: 31].

﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ [الذاريات: 32] أقبح الجرائم وأفحش المنكرات؛ يعنون: قوم لوط عليه السلام المبالغين في الفعلة الشنيعة، والديانة القبيحة المتناهية في القبح والفحش.

وإنما أرسلنا ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَازَ﴾ متحجرة ﴿مِنْ طِينٍ﴾ [الذاريات: 33] يريد منه السجيل المركب من الحجر المسحوق مع الطين، ﴿مُسَوَّمَةٌ﴾ معلمة كل منها باسم من رُمي بها ﴿عِنْدَ رَبِّكَ﴾ لتكون جزاء ﴿لِلْمُضْرِفِينَ﴾ [الذاريات: 34] الذين أسرفوا في الخروج عن مقتضى الحدود الإلهية، وعن الطريقة المعتادة لحكمة الإيلاء والاستيلاء.

ثم لما أردنا رجمهم وإهلاكهم، ﴿فَأَخْرَجْنَا﴾ بإذن ربنا ﴿مَنْ كَانَ فِيهَا﴾ أي: في تلك القرية ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: 35] المصدقين بنبوة لوط عليه السلام ودينه، الممثلين بالأوامر والنواهي الجارية على لسانه.

﴿فَمَا وَجَدْنَا﴾ وصادفنا ﴿فِيهَا﴾ أي: في تلك القرى بعدما فتشناها، وكشفنا عن أهلها ﴿غَيْرَ بَيْتٍ﴾ أي: سوى أهل بيت فقط ﴿مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات: 36] المتصفين بالمجتمعين بين الإيمان والتسليم، وهو أهل بيت لوط عليه السلام.

وبالجملة: أهلكنا الكل ﴿وَتَرَكْنَا﴾ آثار هلاكهم واستصالحهم ﴿فِيهَا﴾ أي: في الأرض التي تلك القرى فيها ﴿آيَةً﴾ علامة، وأمارة مستمرة إلى يوم القيامة ﴿لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [الذاريات: 37] النازل على أهل الجرائم والآثام، فيمتنعون عنها ويعتبرون بها.

﴿وَ﴾ تركنا أيضًا ﴿فِي﴾ إهلاك مكذبي ﴿مُوسَى﴾ الكلم آية للمتذكرين المعترين، اذكر يا أكمل الرسل وقت ﴿إِذْ أُرْسِلْنَا﴾ أصالة وإخاء معه تبعًا ﴿إِلَى﴾

﴿فَزَعُونَ﴾ الطاغى الباغى، المبالغ فى العتو والعناد وأيدناه ﴿بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ [الذاريات: 38] وحجة واضحة ودليل لائح.

﴿فَقُولِ﴾ وأعرض عن دعوته إلى الإيمان مستظهرًا ﴿بِرُكْنِهِ﴾ أي: ملئه وجنوده الذين يتقوى بهم، ويركن إليهم فى الخطوب والملمات ﴿وَقَالَ﴾ فى جوابه من كمال بطره وعناده: هو ﴿مَسَاحِرٌ﴾ فيما أتى من الخوارق ﴿أَوْ مَخْنُونٌ﴾ [الذاريات: 39] يعمل له الجن جميع ما يظهر منه الإرهاصات.

وبالجملة: كذبه، وأنكر عليه ونسب معجزاته إلى السحر وأعمال الجن ﴿فَأَخَذْنَاهُ﴾ غيره منّا وتقوية لرسولنا ﴿وَجُنُودَهُ﴾ المظاهرين له ﴿فَتَبَدَّنَاهُمْ﴾ وأغرقناهم ﴿فِي الْيَمِّ وَهُوَ﴾ حيثنذ ﴿مُؤَلِّمٌ﴾ [الذاريات: 40] نفسه بما يلام عليه من الكفر والعناد وأنواع العتو والفساد، نادم عن جميع ما صدر عنه وما ينفعه من الندم.

﴿وَ﴾ تركنا أيضًا آية عظيمة للمعتبرين ﴿فِي﴾ إهلاك قوم ﴿عَادٍ﴾ اذكر ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا﴾ وسلطانا ﴿عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ [الذاريات: 41] لا يثمر نفعا سوى العقم والهلاك على وجه الاستئصال، مع أنهم أملوا نفعا عظيما فيها.

إذ ﴿مَا تَذَرُ﴾ وتترك ﴿مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ﴾ وهبت ﴿عَلَيْهِ﴾ من الأنفس والمواشي ﴿إِلَّا جَعَلْنَاهُ﴾ وصيرته ﴿كَالزَّمِيمِ﴾ [الذاريات: 42] أي: اليابس البالي من النبات وأوراق الأشجار، وبالجملة: صيرتهم هباء مشورا تذروه الرياح حيث شاءت.

﴿وَ﴾ كذا ﴿فِي ثَمُودَ﴾ وإهلاكهم آية عظيمة لأجل العبرة، اذكر يا أكمل الرسل وقت ﴿إِذْ قِيلَ لَهُمْ﴾ على لسان نبيهم حين أردنا أخذهم وإهلاكهم: ﴿تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ جِئَ﴾ [الذاريات: 43] أي: تمتعوا وترفهاوا ثلاثة أيام، فكذبوا المخبر، وأنكروا عليه خبره.

﴿فَعَتَرُوا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ وما تندموا وتضرعوا، مع أن المناسب لهم هذا حيثنذ ﴿فَأَخَذْتَهُمُ الضَّاعِقَةَ﴾ الهائلة المهولة صبيحة اليوم الرابع ﴿وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ [الذاريات: 44] إتيانها عيانا، ولا يقدرّون على دفعها.

بل ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا﴾ وما قدرّوا ﴿مِنْ قِيَامٍ﴾ نهوض، وحركة عن أمكتهم التي كانوا فيها عند ظهورها ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿مَا كَانُوا مُتَّصِرِينَ﴾ [الذاريات: 45] ممتنعين من عذابنا منتقمين منا.

﴿وَمِثْلَ مَا أَهْلَكْنَا الْمَذْكُورِينَ، أَهْلَكْنَا﴾ قَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ﴿أَي: قَبْلَ إِهْلَاكِ هَؤُلَاءِ﴾ إِنَّهُمْ ﴿أَيْضًا أَمْثَالُ هَؤُلَاءِ الطَّغَاةِ الْبَغَاةِ الْهَالِكِينَ فِي تِيهِ الْعَتُو وَالْعِنَادُ﴾ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿[الذاريات: 46] خَارِجِينَ عَنِ مَقْتَضَى الْحُدُودِ وَالْإِلَهِيَّةِ بِأَنْوَاعِ الْكُفْرِ وَالْفُسُوقِ وَالْعِصْيَانِ، لِذَلِكَ أَهْلَكْنَاهُمْ بِالطُّوفَانِ، ﴿وَمَا كَانُوا مُتَّصِرِينَ﴾ [الذاريات: 45].

ثم قال سبحانه إظهارًا لكمال قدرته على الإنعام والانتقام: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا﴾ أَي: كَيْفَ يَسَعُ لَهُمُ الْإِبَاءُ وَالْامْتِنَاعُ عَنْ مَقْتَضِيَّاتِ قُدْرَتِنَا، وَالْخُرُوجُ عَنْ رِبْقَةِ إِطَاعَتِنَا وَعِبُودِيَّتِنَا، مَعَ أَنَّا بَنَيْنَا السَّمَاءَ الْمَرْفُوعَةَ الْمَحْفُوظَةَ ﴿بِأَيْدٍ﴾ غَالِبَةٍ وَقُدْرَةٍ كَامِلَةٍ ﴿وَمِثْلَ الْجَمَلَةِ: ﴿إِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات: 47] قَادِرُونَ غَالِبُونَ بِالْإِسْتِقْلَالِ وَالْإِخْتِيَارِ، لَا يَعَارِضُ فَعْلَنَا، وَلَا يَنَازِعُ أَمْرَنَا وَحُكْمَنَا.

﴿وَالْأَرْضَ﴾ أَيْضًا ﴿فَرَشْنَاهَا﴾ وَمَهْدِنَاهَا بِالْإِسْتِقْلَالِ وَالْإِسْتِيلَاءِ التَّامِ ﴿فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ﴾ [الذاريات: 48] الْبَاسِطُونَ نَحْنُ بِلَا مَشَارَكَةٍ.

﴿وَمِثْلَ مَا خَلَقْنَا الْعُلُويَّاتِ فَوَاعِلَ مُؤَثِّرَاتٍ، وَالسُّفْلِيَّاتِ قَوَابِلَ مَتَأَثِّرَاتٍ﴾ مِّن كُلِّ شَيْءٍ ﴿مِنَ الْأَشْيَاءِ الْكَائِنَةِ فِي بَقْعَةِ الْإِمْكَانِ، وَعَرِصَةِ الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ﴾ خَلَقْنَا زُوجَيْنِ ﴿صَنَفَيْنِ مَزْدُوجَيْنِ﴾ لَعَلَّكُمْ ﴿أَيُّهَا الْمَجْبُولُونَ عَلَى فِطْرَةِ الْمَعْرِفَةِ وَالتَّوْحِيدِ، الْمُؤَيَّدُونَ بِالْعَقْلِ الْمَقَاضِ الْمَتَشَعِّبِ مِنَ الْعَقْلِ الْكُلِّ﴾ تَذَكَّرُونَ ﴿[الذاريات: 49] فَتَعْلَمُونَ أَنَّ الْكُلَّ مِنْهُ بَدَأَ وَإِلَيْهِ يَعُودُ، وَلَا شَيْءَ سِوَاهُ مَوْجُودٍ.

وبعد ما ثبت أن ظهور الكل منه ورجوعه إليه سبحانه: ﴿فَقِفُوا﴾ أَيُّهَا الْعَارِفُونَ الْمَوْحِدُونَ ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ الْمَسْقُطَ لِعُمُومِ الْإِضَافَاتِ مِنْ مَقْتَضِيَّاتِ عَالَمِ النَّاسُوتِ، وَانْخَلَعُوا عَنْ لَوَازِمِ هَوِيَّاتِكُمُ الْبَاطِلَةِ وَأَنَانِيَّاتِكُمُ الْعَاطِلَةِ ﴿إِنِّي لَكُمْ مِّنَّةٌ﴾ بِمَقْتَضَى وَحْيِهِ وَإِلَهَامِهِ ﴿نَذِيرٌ﴾ أَنْذَرَكُمْ عَمَّا يَعُوقُكُمْ مِنْ سُلُوكِ طَرِيقِ تَوْحِيدِهِ ﴿مُبِينٌ﴾ [الذاريات: 50] مَظْهَرٌ لَكُمْ آدَابِ الطَّرِيقَةِ الْمَوْصِلَةِ إِلَى مَقْصِدِ الْحَقِيقَةِ، الَّتِي هِيَ الْوَحْدَةُ الذَاتِيَّةُ الْإِلَهِيَّةُ. ﴿وَمِثْلَ الْجَمَلَةِ: ﴿لَا تَجْعَلُوا﴾ وَلَا تَتَّخِذُوا، وَلَا تَعْتَقِدُوا﴾ مَعَ اللَّهِ ﴿الْوَاحِدِ الْأَحَدِ، الْمُنْتَزِعِ عَنِ التَّعَدُّدِ مَطْلَقًا﴾ إِلَيْهَا آخِرٌ ﴿مُسْتَحَقًّا لِلْإِطَاعَةِ وَالرَّجُوعِ، مُسْتَقْلًا فِي الْوُجُودِ، وَمَا يَتَرْتَبُ عَلَيْهِ مِنَ الْأَثَارِ﴾ إِنِّي لَكُمْ مِّنَّةٌ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿[الذاريات: 51] أَنْذَرَكُمْ عَنِ الْوَعِيدَانِ الْهَائِلَةِ الْعَاجِلَةِ وَالْأَجَلَةِ، الْلاحِقَةِ عَلَيْكُمْ بِالشَّرْكِ وَالْإِشْرَاقِ وَأَنْوَاعِ الْفُسُوقِ وَالْعِصْيَانِ.

﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَلِحُواَوِجْهُونَ ﴿٥٤﴾ اتَّوَصَّوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٥﴾ فَنُوحِلْ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٦﴾ وَذَكَرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٨﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا ﴿٥٩﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٦٠﴾ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا مِثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٦١﴾ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [الذاريات: 52-60].

﴿كَذَلِكَ﴾ أي: الأمر والحكم مثل ذلك أنذرهم، وبلغهم بلا مبالاة بإعراضهم واستهزائهم؛ إذ ﴿مَا أَتَى﴾ الضالين المسرفين ﴿الَّذِينَ﴾ مضوا ﴿مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ﴾ من الرسل الكرام ﴿إِلَّا قَالُوا﴾ حين دعوتهم إلى الإيمان والتوحيد ﴿سَلِحُواَوِجْهُونَ﴾ [الذاريات: 52] مثل ما يقول هؤلاء الحمقى في شأنك يا أكمل الرسل.

ثم قال على سبيل التعجب والإنكار: ﴿اتَّوَصَّوْا بِهِ﴾ أي: أوصى بعضهم بعضاً؛ أي: أسلافهم لأخلاقهم بهذا القول والتكذيب، فتواطئوا عليه جميعاً، مع أنه لا يمكنهم هذه التوصية في الأزمنة الطويلة ﴿بَلْ هُمْ﴾ أي: هؤلاء الأخلاف ﴿قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الذاريات: 53] مشاركون في الغي والضلال والعدوان مع أسلافهم في أهل فطرتهم وجبلتهم؛ لذلك اتصفوا بما اتصفوا لا شراك السبب بينهم.

وبعد ما أصروا على ما هم عليه من العناد، ولم تنفعهم الآيات والنذر: ﴿فَنُوحِلْ عَنْهُمْ﴾ يا أكمل الرسل بعدما بذلت وسعك في إرشادهم وإهدائهم ﴿فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ﴾ [الذاريات: 54] على إعراضك عنهم، وانصرافك عن إرشادهم ودعوتهم بعد المبالغة.

﴿وَذَكَرْ﴾ للقوالب المستحقين ﴿فَإِنَّ الذِّكْرَى﴾ والعظة ﴿تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: 55] الموفقين من لدنا على الإيمان، المجبولين على فطرة اليقين والعرفان. ﴿وَ﴾ اعلم أني ﴿مَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ﴾ وما أظهرت أشباحهم وأظلالهم على هذه الهياكل والهويات، وما صورتهم على هذه الصور البديعة، وما أودعت فيهم ما أودعت من جوهر العقل المفاض ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: 56] ويعرفوني، ويتحققوا بوحدتي واستقلالي في وجودي، وفي عموم تصرفاتي، وباستحقاقي للإطاعة والعبودية مطلقاً بلا شوب شركة ومظاهرة من أحد.

وإلا ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ﴾ ويخلقهم وإظهارهم ﴿مِنْ رِزْقٍ﴾ أي: تحصيل رزق صوري أو معنوي أرزق به عبادي؛ إذ خزائن أرزاقهم مملوءة، وذخائر رحمتي متسعة ﴿وَهُوَ﴾ أيضًا ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ أَنْ يُطْعَمُونَ﴾ [الذاريات: 57] أي: على الفقراء الذين هم عيالي طلبًا لمرضاتي.

كما جاء في الحديث صلوات الله على قائله: «يقول الله ﷻ: استطعمتك فلم تطعمني»⁽¹⁾ أي: لم تطعم عبدي الجائع.

وكيف أريد منهم أمثال هذا ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المتوحد بالألوهية والربوبية ﴿هُوَ الرِّزَّاقُ﴾ المنحصر المخصوص في ترزيق عموم العباد، لا رازق لهم سواه ﴿ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾⁽²⁾ [الذاريات: 58] والطول العظيم المقتدر الحاكم، الغالب على عموم مراداته ومقدوراته على وجه الإحكام من الإنعام والانتقام.

وبالجملة: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ على الرسول الله ﷺ بأنواع التكذيب والإنكار والاستهزاء والاستحقار ﴿ذُنُوبًا﴾ حظًا وافراً ونصيباً كاملاً من العذاب الآجل والعاجل ﴿مِثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ﴾ أي: مثل نصيب أسلافهم من الكفرة المكذبين للرسل الماضين، وسيلحقهم مثل ما لحقهم، بل بأضعافه وآلافه ﴿فَلَا يَسْتَفْجِلُونَ﴾ [الذاريات: 59] لحوقه وحلوله.

وبالجملة: ﴿فَوَيْلٌ﴾ عظيم، وعذاب شديد هائل نازل ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ستروا الحق، وأعرضوا عنه، وأظهروا الباطل، وأصروا عليه ﴿مِنْ يَوْمِهِمْ﴾ الفطيع الفجيع ﴿الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: 60] في النشأة الأخرى، وهو يوم القيامة المعدة لتعذيب العصاة والغواة وتفضييحهم فيه.

جعلنا الله من الأمنين فيه، الناجين من عذابه بفضله ولطفه.

(1) رواه مسلم (1990/4)، رقم (2569)، وابن حبان (503/1)، رقم (269).

(2) هذه الآية وأمثالها هي التي غسلت الأمراض والشكوك من قلوب الصديقين، حتى حصل لهم اليقين الكبير، فسكنت نفوسهم، واطمأنت قلوبهم، فهم في روح وريحان. والأحاديث في ضمان الرزق كثيرة، وأقوال السلف كذلك. البحر المديد (156/6).

خاتمة السورة

عليك أيها الموحّد المعبول على فطرة المعرفة واليقين، أن تتفكر في حكمة ظهورك ومصلحة بروزك من كتم العدم في معرفة نفسك في عموم أحوالك؛ لينكشف لك من التأمل فيها الإطلاع على موجدّها ومظهرها واتصافه بالأوصاف الكاملة والأسماء الشاملة.

ثم منها إلى توحيده واستقلاله في الوجود، وعموم الآثار المترتبة عليها، حتى تفوز إلى غاية قصواك ومبتغاك من اليقين والإيمان، ونهاية ما يترتب على ظهورك من التوحيد والعرفان، والله المستعان وعليه التكلان.

سورة الطور

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فاتحة سورة الطور

لا يُخفى على من تحقق بمقام القلب، وتمكن في مقعد صدق المعرفة والتوحيد أن ذات الحق، وحيطه حضرة علمه، وسعة لوح قضائه وشمول قلم تقديره وتديره مما لا يكتنه ذاته ولا أوصافه، بل لا نهاية لحيطتها ولا غاية لحصرها.

لذلك أقسم بذاته العظيم، وعلمه العميم وأوصافه القديم، تعليمًا لعباده، وتنبيهًا لهم نحو مبدأهم ومعادهم، فقال بعدما تيمن باسمه الأعلى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ الذي تجلى فيما تجلى حسب أسمائه الحسنی وأوصافه العليا ﴿الرَّحْمَنِ﴾ عليهم بالرزق الأوفى ﴿الرَّحِيمِ﴾ لهم يوصلهم إلى سدره المنتهى.

﴿وَالطُّورِ ١﴾ وَكِتَابٍ مُّسْتَوٍ ٢ فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ ٣ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ٤ وَالسَّعْفِ الْمُرْفُوعِ ٥ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ٦ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ٧ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ ٨ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ٩ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ١٠ فَوَيْلٌ لِلْمُكَذِّبِينَ ١١ الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ١٢ يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً ١٣ هَٰذَا النَّارُ الَّتِي كُنتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ١٤﴾ [الطور: 1-14].

﴿وَالطُّورِ﴾ [الطور: 1] أي: وحق الذات المقدس عن الظهور والبطون، المتزّه عن البروز والكمون.

﴿وَكِتَابٍ مُّسْتَوٍ﴾ [الطور: 2] هو حضرة العلم الإلهي الذي سطر بالقلم.

﴿فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ﴾ [الطور: 3] هو لوح القضاء المحفوظ من التباهي والانقضاء،

المحروس عن مطلق التغير ومطلق الانمحاء.

﴿وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ﴾ [الطور: 4] الإلهي الذي هو قلب العارف المحقق،
المتحقق بمقام الفناء عن الفناء، وبالبقاء ببقاء العظمة والكبرياء، المعبر بها عن عالم
العمى اللاهوتي الذي هو سواد أعظم الفقر، وبيت المعمور الأكبر.
﴿وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ﴾ [الطور: 5] الذي هو سماء الأسماء والصفات عن مطلق
التعدد الأصفاء.

﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾⁽¹⁾ [الطور: 6] الذي هو مطلق الوجود المحيط بالكل

(1) قال روزبهان: أقسم الله هاهنا بذاته وصفاته وفعله، الطور ذاته القديم، والكتاب المسطور صفاته
القديمة، والرق المنشور أفعاله اللطيفة، وأيضاً الطور قلب محمد ﷺ، والكتاب المسطور رموز ما
أوحى، والرق المنشور أسرار المنقوشة بأنوار وحيه وإلهامه وغرائب علومه اللدنية، ظاهر قسمه
على الطور الذي تجلى له الحق، فإذا كان ذلك محل قسمه بتجلي واحد فما تقول في طور لا
تنفك أنوار تجليه منه، وهو قلب محمد ﷺ، سماه طور العظمة واستقامته في موازاة سطوات
عزته، وسمى قلب غيره من الأنبياء والأولياء بالبيت المعمور، الذي عمره بنور القربة والمشاهدة
والعلم والحكمة والمعرفة والوجد والحال، والمكاشفة، ويمكن أنه تعالى أراد به صورة محمد ﷺ
وصورة أبيه آدم، الذي خلقه بيده ونفخ فيه من روحه، وجعله مرآة ظهوره، وجعل روحه ورق
أسرار علومه التي ذكرها بقوله: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ ﴿وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ﴾ روح محمد
ﷺ الذي رفعه الحق إليه، ومقام عنديته أرفع من كل رفيع من العرش إلى الثرى، وأيضاً يمكن أنه
أراد به العرش.

﴿رَأَى الْخُرُوجَ الْمَسْجُورِ﴾: بحر سر محمد ﷺ؛ لأن ذلك البحر ملأته أنهار قاموس علومه القديمة،
وأسرار كلماته الباقية، وأيضاً الطور طور سيناء الذي هو موضع التجلي والكلام.
والكتاب المسطور ما كلم الله به موسى، فصار منقوشاً في ورق قلبه، أقسم بالطور وبقلبه وبما
فيه مما سمع من كلامه. ﴿وَكُتِبَ مُسْطُورًا﴾: أيضاً ما كتبه بيده على ألواح موسى.

﴿وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ﴾: أيضاً قلبه كان معموراً بنور مشاهدته؛ ولذلك خاطب الله موسى بقوله: فرغ
بيئاً لي أسكن، فلما سكن في بيت قلبه عمره بنور قربه. ﴿وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ﴾: كناية عن ذاته
القديم الذي امتنع بعزته عن تناول الحدثنان، ألا ترى كيفما بلغ أمانى موسى، فقال: ﴿تُبْتُ
إِلَيْكَ﴾ بعد قوله: ﴿أَيْنِي﴾. ﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾: صدر موسى الذي هو مملوء من نيران شوقه
وجزئه، حين لم يدرك حقائق جلال الألوهية الذي استحال وجود الحدث عن إدراكه بوصف
الإحاطة والحقيقة، وأيضاً عم في هذه الأقسام جميع العارفين والصديقين، الطور أرواحهم،
والكتاب المسطور إلهامهم، والرق المنشور عقولهم، والبيت المعمور قلوبهم، والسقف المرفوع

بمقتضى الجود.

﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ﴾ يا أكمل الرسل لعصاة عباده ﴿لَوَاقِعَ﴾ [الطور: 7] نازل لهم في يوم الجزاء. ﴿مَّا لَهُ مِنْ دَافِعٍ﴾ [الطور: 8] لأن من قدر على أمثال هذه المقدورات، واتصف بهذه الأسماء والصفات بالأصالة والاستحقاق، لا يعارض حكمه ولا يدفع قضاؤه.

اذكر يا أكمل الرسل للمكذبين المنكرين للحشر والنشر كيف حالهم ﴿يَوْمَ تَمُورُ﴾ تتحرك وتضطرب ﴿السَّمَاءُ مَوْرًا﴾ [الطور: 9] اضطرابًا غريبًا وتحركًا لا على وجه المعتاد إلى حيث طويت ﴿كَطَيَّ السَّجِلَ لِلْكِتَابِ﴾ [الأنبياء: 104].

﴿وَتَسِيرُ الْجِبَالُ﴾ الرواسي الرواسخ ﴿سَيْرًا﴾ [الطور: 10] فتصير الأرض ﴿قَاعًا صَفْصَفًا﴾ لا ترى فيها عوجًا ولا أمتًا [طه: 106-107].

﴿فَوَيْلٌ﴾ عظيم وعذاب أليم ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ واقع ﴿لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ [الطور: 11] المرففين المصيرين.

﴿الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ﴾ في الأباطيل الزائغة ﴿يُلْعَبُونَ﴾ [الطور: 12] بآيات الله الدالة على وحدة ذاته وكمال أسمائه وصفاته، وكذا يلحقهم أيضًا ويل عظيم. ﴿يَوْمَ يُدْعَوْنَ﴾ يطرحون ويدفعون ﴿إِلَى نَارٍ جَهَنَّمَ دُعًا﴾ [الطور: 13] طرحًا على وجه العنف، مشدودين بالسلاسل والأغلال.

فيقال لهم حينئذ تفضيخًا وتوبيخًا: ﴿هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾⁽¹⁾ [الطور: 14].

أسرارهم، والبحر المسجور صدورهم، أقسم بأرواحهم؛ لأنها مواضع تجليه، وأقسم بما خاطبهم من الوحي والإلهام، وأقسم بعقولهم؛ إذ هي ألواح علومه الغيبية، وأقسم بقلوبهم؛ إذ هي مساكن المعارف ومساقط أنوار الكواشف، وأقسم بأسرارهم؛ إذ هي تصعد إلى مصاعد الملكوت ومعارج الجبروت، وأقسم بصدورهم؛ إذ هي مملوءة من سناء العرفان وضياء الإلهام وأنوار الإسلام.

(1) قال في عين الحياة: أي: تكذبون اللطائف المرسله إليكم الداعية لكم إلى الحق، فهذه نار التي

[14] وتنكرون الآيات والنذر الواردة في شأنها، وتنسبونها إلى السحر والكهانة، وغير ذلك من الخرافات والجزافات.

﴿أَفَسِحْرُ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ (١٥) أَصْلُوهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْرُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٦) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ (١٧) فَكِهِينَ بِمَا ءَاتَاهُمُ رَبُّهُمْ وَوَقَّتْهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (١٨) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٩) مُتَكِينِينَ عَلَى مُرُورٍ مَصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ (٢٠) وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ (٢١) وَأَمَدَدْنَاهُمْ بِفِكَهَةٍ وَلَحْرٍ مَيَّاشٍ هُونَ (٢٢) يَنْتَرِعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْسٍ (٢٣) وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ (٢٤) وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٥) قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ (٢٦) فَمَنْ أَلَّاهُ عَلَيْنَا وَوَقَّاتَنَا عَذَابَ السَّعِيرِ (٢٧) إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ (٢٨) فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ (٢٩) أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَدْ رَضُ بِهِ رَبِّبَ الْمُنُونِ (٣٠) قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُرِصِينَ (٣١) ﴿[الطور: 15-31].﴾

وأنتم أيها المنهمكون في الطغيان وأنواع الكفران في سالف الزمان، كنتم نسبتم الوحي والإلهام إلى السحر والأوهام تأملوا الآن: ﴿أَفَسِحْرُ هَذَا﴾ الذي أنتم تطرحون فيها، وتعذبون بها كما زعمتم فيما مضى ﴿أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ [الطور: 15] ولا تشعرون بها، كما كنتم لا تشعرون بالآيات الواردة في شأنها حينئذ.

وبالجملة: ﴿أَضْلَوْهَا﴾ وادخلوا فيها، وبعد دخولكم ﴿فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا﴾

كانت فيكم، وأنتم أشعلتموها في وجودكم، وأوقدتموها بنيران الحسد والحقد والكبر والغضب والبغض، وجمعتم لها حطب الحطام الدنيوي من الداراهم والدنانير والأموال والأملات والمواشي، فصار المجموع حطمتكم مما تكوي بها جباهكم وجنوبكم.

وعلى أي وجه تصيروا وتكونوا، لا مخلص لكم عنها، ولا مخرج لكم منها، بل ﴿مَوَاءَ غَلَيْكُمْ﴾ الصبر، وعدمه في عدم النفع والدفع ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُتِبَ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: 16] أي: ما تجزون إلا بما كسبتم لأنفسكم، وأعددتكم لأجلها، فيلحقكم الآن وبال ما اقترفتكم فيما مضى حتمًا على مقتضى العدل الإلهي، فلا ينفعكم الصبر والاضطراب.

ثم قال سبحانه على مقتضى سنته المستمرة من تعقيب الوعيد بالوعد: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ﴾ المتحفظين نفوسهم عن محارم الله، المتحرزين عن إنكار آيات الله الواردة في الوعد والوعيد، متلذذون ﴿فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ﴾ [الطور: 17] أية جنات وأي نعيم: رياض الرضا ونعيم التسليم.

﴿فَاكِهِينَ﴾ متنعمين مسرورين فيها، مطمئنين راضين ﴿بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ﴾ بمقتضى فضله وسعة جوده ولطفه ﴿وَرَوْ﴾ بما ﴿وَقَاهُمْ﴾ وحفظهم ﴿رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ [الطور: 18] أي: أهوالهم وأفزاعها.

فيقال لهم فيها على سبيل التبشير والتفريح: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ من الرزق الصوري والمعنوي ﴿هَنِيئًا﴾ بلا تنقيص وتكليف ﴿بِمَا كُتِبَ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: 19] أي: بسبب صالحات أعمالكم وحسنات أفعالكم.

﴿مُتَكِينِينَ عَلَى سُورٍ﴾ معدة لهم ﴿مُضْفُوفَةً﴾ منضودة مرتبة وفق أعمالهم وأحوالهم ومقاماتهم.

﴿وَرَوْ﴾ بعدما تمكنوا على السرر مسرورين ﴿وَزُوجْنَاهُمْ﴾ وقرانهم استئناسًا منا إياهم ﴿بِخُورٍ عَيْنٍ﴾ [الطور: 20] مصورة من المعارف والحقائق المنكشفة لهم، المشهودة بعيون بصائرهم.

﴿وَرَوْ﴾ قرانهم أيضًا مع إخوانهم ورفقائهم من الموحدين ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله، وانكشفوا بتوحيده ﴿وَاتَّبَعْتَهُمْ﴾ ولحققتهم معهم ﴿ذُرِّيَّتُهُمْ﴾ أي: جميع ما انشعب، وتفرع منهم من أولادهم وأعمالهم الصادرة عنهم حال كونهم متصفين ﴿بِإِيمَانٍ﴾ يقين علمي وتصديق قلبي قبل وصولهم إلى اليقين العيني والحقي، بل ﴿الْحَقُّنَا بِهِمْ﴾ أيضًا ﴿ذُرِّيَّتُهُمْ﴾ أي: مشاهداتهم، ومكاشفاتهم الواردة عليهم حسب مقاماتهم وحالاتهم بعد

اتصافهم باليقين العيني والحقي.

﴿و﴾ بالجملة: ﴿مَا أَلْتَنَاهُمْ﴾ ونقصنا عليهم ﴿مَنْ عَمَلِهِم﴾ الناشئ منهم في طريق الهداية والرشاد ﴿مَنْ شِئٍ﴾ نزر يسير، بل وفينا ووفرنا عليهم جزاء الكل مع مزيد عليها تفضلاً منا وإحساناً؛ إذ ﴿كُلُّ امْرِئٍ﴾ ذي هوية شخصية مجبولة لحكمة المعرفة، ومصلحة التوحيد ﴿بِمَا كَسَبَ﴾ من الأسباب ﴿زَهِيْنٌ﴾ [الطور: 21] مرهون مقرون لا يفصل عنها.

بل ﴿وَأَمْدَدْنَاهُمْ﴾ تفضلاً وامتناناً منا إياهم، وتكريماً لهم ﴿بِفَاكِهَةٍ﴾ من المعارف والحقائق الواردة المتجددة آناً فآناً، حسب الشئون الإلهية وتجلياته الجمالية والجلالية ﴿وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ [الطور: 22] أي: يتقوت ويقوى به أشباحهم وأرواحهم.

﴿يَتَنَازَعُونَ﴾ ويتجادبون ﴿فِيهَا كَأْسًا﴾ من رحيق التحقيق، مع أنه ﴿لَا لَغْوٌ فِيهَا﴾ من فضول الكلام ﴿وَلَا تَأْتِيْمٌ﴾ [الطور: 23] من قبح الأفعال المستلزمة للآثام كما هو عادة الشاربين في الدنيا.

﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾ بكؤوس التحقيق ورحيق اليقين ﴿غِلْمَانٌ لَهُمْ﴾ مصورة من قواهم المدركة المملوكة لهم، المسخرة لنفوسهم المطمئنة، الراضية بمقتضيات القضاء الإلهي ﴿كَأَنَّهُمْ﴾ من غاية الصفاء عن كدر الهواء ورعونات الرياء ﴿لَوْ لَوْ مَكْنُونٌ﴾ [الطور: 24] مصون محفوظ في أصداف أشباحهم عن التلطح بقاذورات الدنيا الدنية.

﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ بطريق المسرة والانبساط ﴿يَتَسَاءَلُونَ﴾ [الطور: 25] عن أعمالهم وأحوالهم ومواجيدهم ومقاماتهم.

﴿قَالُوا﴾ أي: بعضهم في جواب بعض على وجه المذاكرة والمواساة: ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ﴾ أي: قبل انكشافنا بسرائر التوحيد ﴿فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ [الطور: 26] خائفين عن بطشه وسخطه وسطوة سلطنة قهره وجلاله، راجين من سعة رحمته وموائد جوده وكرمه.

﴿فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ وهدانا إلى طريق التوحيد، ووفقنا للعروج إلى معارج العناية

والتحقيق ﴿وَوَقَّانَا﴾ بلطفه ﴿عَذَابَ السُّمُومِ﴾⁽¹⁾ [الطور: 27] أي: من عذاب النار المحرق النافذ في عموم المساقاة مثل السموم.

﴿إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ﴾ في دار الدنيا قبل حلول الساعة وقيام القيامة ﴿نَدْعُوهُ﴾ سبحانه، ونسأل منه الحفظ والوقاية من عذابه ونكاله في هذا اليوم الموعود، وكيف لا نسأل منه؟! إنه سبحانه ﴿هُوَ الْبَرُّ﴾ المحسن المخصوص المنحصر على الإحسان والإنعام ﴿الرَّحِيمُ﴾ [الطور: 28] كثير الرحمة والامتنان على السائلين المؤمنين المستحقين، فاستجاب سبحانه بلطفه سؤالنا، وأنجح آمالنا بمقتضى سعة جوده ورحمته.

وبعدما سمعت يا أكمل الرسل ما سمعت من فضل الله، ولطفه، وسعة رحمته، وجوده مع أوليائه ﴿فَذَكِّرْ﴾ واثبت على العظة والتذكير لعموم عباد الله، ولا تبالي بقولهم الباطل في حقك ﴿فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ﴾ التي هي الآيات المنزلة إليك، الملهمة من ربك ﴿بِكَاهِنٍ﴾ مبتدع مفتر مجترئ على الإخبار عن المغيبات بلا وحي من قبل الحق وإلهام من جانبه ﴿وَلَا مَجْثُونٍ﴾ [الطور: 29] مختل العقل، مخبط الرأي كما يزعم في شأنك المسرفون المفترون. ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ﴾ فصيح بليغ بلغ على حد من البلاغة، عجز عن معارضته أقرانه من البلغاء، فنحن ﴿نَتَرَبَّصُّ﴾ وننتظر ﴿بِهِ رَبِّبَ الْمُتُونِ﴾ [الطور: 30] أي: من الأيام وكثر الأعوام إلى أن يموت، فنخلص من فتنه وشرته.

﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل: ﴿تَرَبَّصُوا﴾ وانتظروا لمقتي وموتي ﴿فَإِنِّي﴾ أيضًا ﴿مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ﴾ [الطور: 31] المنتظرين لمقتكم وهلاككم، والأمر بيد الله، والحكم مفوض إلى مشيئته، موكل إلى إرادته، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد.

أهم يكابرون في هذه الأحكام المتناقضة مجادلة ومراءاة وينسبونك مرة إلى

(1) قال في عين الحياة: يعني من الله علينا بالتوفيق في دار الكسب للإشفاق على الأهل والتوخي عن متاع الزور وادخار هذه النعمة في دار الجزاء، بأعمالنا الصالحة التي عملناها بتوفيقه، ووقانا أيضًا من عذاب السموم، الذي هو نتيجة ربح الهوى ونار الشهوة بمنه وتوفيقه، الذي أعطانا له لتسكين ربح الهوى وإخماد نار الشهوة في الدنيا.

الكهانة المتضمنة لكمال الفطانة، ومرة إلى الجنون المنبئ عن نهاية البلادة، وتارة إلى الشعر المستلزم للوزن والقافية، مع أن ما جئت به من الكلام عارٍ عن الوزن، خالٍ عن القافية مطلقاً.

﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَخْلَعُوا بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ (٣٢) ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٣٣) ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ (٣٤) ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ (٣٥) ﴿أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ﴾ (٣٦) ﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَيْكَ أَمْ هُمُ الْمُصِيطِرُونَ﴾ (٣٧) ﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ (٣٨) ﴿أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ﴾ (٣٩) ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ﴾ (٤٠) ﴿أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ (٤١) ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾ (٤٢) ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (٤٣) ﴿وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ﴾ (٤٤) ﴿فَذَرَهُمْ حَتَّى يَلْقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾ (٤٥) ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ (٤٦) ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٤٧) ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ (٤٨) ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَرَ

النُّجُومِ﴾ (٤٩) [الطور: 32-49].

﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَخْلَعُوا﴾ السخيفة المستمدة من أوهامهم الضعيفة ﴿بِهَذَا﴾ القول الباطل الزاهق الزائل ﴿أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الطور: 32] باغون متناهون في العتو والعداء، صدر عنهم أمثال هذا، بلا تأمل وتدبر على مقتضى عتوهم وثروتهم وكبرهم وخيالاتهم.

﴿أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُهُ﴾ واختلقه من تلقاء نفسه، ونسبه إلى الوحي والإلهام تغيراً وترويحاً ﴿بَلْ﴾ معظم أمرهم وقصارى رأيهم أنهم ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الطور: 33] به وبك، فيتفوهون بأمثال هذه المطاعن والقوادح من شدة شكيمتهم، وغلظ غيظهم وضعفيتهم معك يا أكمل الرسل.

وبعدما بالغوا في القدح والطعن، وبلغوا غاية الإنكار والإصرار، قل لهم يا أكمل الرسل على سبيل التعجيز والتبكيث: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ﴾ أولئك المسرفون المفرطون ﴿إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ [الطور: 34] في زعمهم ومفترياتهم مع أنهم لم يأتوا بمثله، ولا يتأتى منهم الإتيان أيضاً، وإن يتظاهروا ويتعاونوا بجميع ما في الأرض؛ إذ هو خارج عن طور البشر ومشاعره.

أبصرون على إنكار الخالق مع أنهم مخلوقون ﴿أَمْ﴾ اعتقدوا أنهم ﴿خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ﴾ وبلا فاعل موجد ﴿أَمْ﴾ اعتقدوا نفوسهم أنهم ﴿هُمْ الْخَالِقُونَ﴾ [الطور: 35] المستقلون على إيجاد هياكلهم بلا مؤثر خارجي هو الله، أبصرون حيثند خالقيتهم لأنفسهم فقط؟!.

﴿أَمْ﴾ اعتقدوا أنهم ﴿خُلِقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: العلويات والسفليات والممترجات؟! وبالجملة: لا ينكرون حدوث الأشياء، واستنادها المحدث المؤثر ﴿بَلْ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الطور: 36] ولا يتصفون باليقين في إثبات الموجد القديم وتوحيده.

أهم يشتون مرتبة النبوة من تلقاء أنفسهم، ويختارون لها من يريدون ﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَيْكَ أَمْ هُمْ الْمُسْتَظَرُّونَ﴾ [الطور: 37] الغالبون المقتدرون على عموم مقاصدهم ومطالبهم، فيفعلون جميع ما ياملون ويشاءون، بالإرادة والاختيار؟!.

﴿أَمْ﴾ ادعوا علم الغيب بالاستماع من الملا الأعلى؟! إذ ﴿لَهُمْ سُلْطَانٌ﴾ مرقاة يصعدون بها إلى مكان من السماء ﴿يَسْتَمِعُونَ فِيهِ﴾ من الملائكة ما يظهرون من تكذيب الرسول، وقدح القرآن ﴿فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ [الطور: 38] أي: بحجة واضحة ومعجزة ساطعة، كما أتى بها الرسول ﷺ.

أنتم العقلاء المتصفون بكمال الرشd والرزانة أيها المسرفون المفرطون ﴿أَمْ﴾ سفهاء منحطون عن زمرة العقلاء مع أن دعواكم بأن ﴿لَهُ﴾ سبحانه ﴿الْبَنَاتُ وَلَكُمْ﴾ [الطور: 39] تدل على سفاهتكم وانحطاطكم عن مقتضى العقل؟! إذ إثبات الولد مطلقاً للواحد الأحد الصمد، المنزه عن الأهل والولد بعيد بمراحل عن مقتضى

العقل، فكيف إثبات أخس الأولاد له سبحانه، تعالى عن ذلك علواً كبيراً⁽¹⁾.
 فثبت أن أولئك الحمقى سفهاء ساقطون عن رتبة العقلاء وأهل العبرة، فلا يسمع منهم مطلق الدعوى، سيما الأمور المتعلقة بالمعارف الإلهية.
 فكيف إنكارهم بك يا أكمل الرسل هذا، أينكرون رسالتك يا أكمل الرسل، ويظنون لحقوق الضرر إياهم منك ﴿أَمْ﴾ أیظنون إنك بسبب تبليغك إياهم ﴿تَسْأَلُهُمْ أَجْزًا﴾ جعلاً عظيماً ﴿فَهُمْ﴾ حيثذ ﴿مِنْ مَغْرَمٍ﴾ والتزام غرامة عظيمة ﴿مُثْقَلُونَ﴾ [الطور: 40] متحملون الثقل، لذلك شق عليهم الأمر إلى حيث أنكروا لك، وانصرفوا عن تصديقك.

وبالجملة: أينكرون رسالتك بمقتضى قرائحهم، ومن تلقاء أنفسهم ﴿أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ﴾ أي: لوح القضاء المثبت فيها جميع الأشياء ﴿فَهُمْ يَكُتُبُونَ﴾ [الطور: 41] المغيبات منها؟

﴿أَمْ يُرِيدُونَ﴾ ويقصدون ﴿كَيْدًا﴾ لرسول الله ﷺ في دار الندوة ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ مكروا عليه ﴿هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾ [الطور: 42] المقصرون على كيدهم، لا يتعدى عنهم وباله.

أينكرون توحيد الحق مكابرة ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ﴾ يعبدونه كعبادته، ويطيعونه على نحو إطاعته، ويستعينون منه في الخطوب والملمات، وبالجملة: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ﴾ وتعالى ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الطور: 43] لهم من أدون مخلوقاته.

﴿وَ﴾ بعدما ألحقوا، واقترحوا بقولهم: فأسقط علينا كسفاً من السماء ﴿وَلِنْ يَرَوْا كِسْفًا﴾ قطعاً ﴿مِنْ السَّمَاءِ سَاقِطًا﴾ عليهم وبمقتضى اقتراحهم ﴿يَقُولُوا﴾ من شدة

(1) قال في عين الحياة: يعني: تقول القوى الروحية الأنسية بالهوى المدنية بالنفس أن القوى الفاعلة منهم والقوى القابلة من اللطائف، لا يعرفون أن جميع القوى من اللطيفة الفائضية من الحق صلت، ووصلت إلى كل ذرة من ذرات الموجودات وقت مد بحرهما في عالم المتفرقة، ثم جمعتها عند الحرز في عالم الجمع، فالقوى التي أنتم تجدون في نفوسكم هي القوى المودعة فيكم وقت المد الذي أنتم بها قائمون باقون.

عنادهم، وفرط إنكارهم: هذا ﴿سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ [الطور: 44] تراكم بعضه على بعض فيسقط.

وبالجملة: ﴿فَذَرَهُمْ﴾ يا أكمل الرسل، واتركهم على ما هم عليه من العدوان والطغيان ﴿حَتَّى يَلَاقُوا﴾ ويصلوا ﴿يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾ [الطور: 45] يموتون، ويهلكون بالمرة، وهو عند النفخة الأولى، ثم يحشرون ويعذبون.

﴿يَوْمٌ﴾ أي: يومئذ ﴿لَا يُغْنِي﴾ ولا يدفع ﴿عَنْهُمْ كَيْدَهُمْ﴾ الذي اتوا به في دار الندوة والابتلاء ﴿شَيْئًا﴾ من الدفع والإغناء في رد عذاب الله ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [الطور: 46] ويمنعون حيثئذ من بطشه وعذابه.

وهم مع ذلك لا يمهلون إلى العذاب الآجل، بل يعذبون في العاجل والبرزخ أيضًا، كما قال سبحانه: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ﴾ العذاب الآخروي الموعود لهم، وهو وقوعهم في نيران الإمكان بأنواع الخيبة والخسران، وتقيدهم بسلاسل الآمال وأغلال الأمانى ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الطور: 47] ولا يفهمون ألمها، مع أنها من أشد العذاب إيلافاً، وأصعب الوبال والنكال انتقاماً، أعاذنا الله وعموم عباده منها.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿اضْبِرْ﴾ يا أكمل الرسل ﴿لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ بآمالهم إلى قيام الساعة، وإبقائك فيما بينهم بأنواع التعب والعناء، ولا تستعجل لمقتهم وهلاكهم، ولا تخف من مكرهم معك وغدرهم عليك ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾⁽¹⁾ وكنف حفظنا وحوزة

(1) أي: بأعيننا ترانا. قال سهل: ما نظهره عليك من فعل وقدره تتولى جملتك بالرعاية والكلاءة بالرضا والمحبة والحراسة من الأعداء وقال ابن عطاء: فإنك بأعيننا أي: مغمور في حفظنا، وغريق في فضلنا، ومستور بحفظنا، ومن اختص بالله كان في حفظه، ومن كان في حفظه كان في مشاهدته، ومن كان في مشاهدته استقام معه ووصل إليه، ومن وصل إليه انقطع عما سواه، ومن انقطع عما سواه عاش معه عيش الربانيين. وقال الحسين: اصبر، فإن صبرك بتوفيقنا وبشهود عيوننا؛ فلذلك حصلت العيون منك عيوناً؛ إذ أنت الناظر إلينا بنا، ولم تنظر إلينا بما لنا وعنا، فتكون بذلك محجوباً عن واجبنا. وقال جعفر: عند هذا الخطاب سهل عليه معالجة الصبر واحتمال مؤنه، وكذلك كل حال يرد على العبد في حال المشاهدة.

حراستنا وحضانتنا، نكفيك ونكف عنك مؤنة شرورهم، ولا تلتفت إليهم، ولا تبال بمكرهم وكيدهم، ولا تشتغل عنا بهم وبمخاصمتهم ﴿وَسَبِّحْ﴾ أي: نزه ربك عن أن يعجز عن أخذهم وانتقامهم أو عن إنجاز ما وعد لك من عذابهم ملتبسا ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ في جميع حالاتك وأوقاتك سيما ﴿حِينَ تَقُومُ﴾ [الطور: 48] من منامك.

﴿وَمِنَ اللَّيْلِ﴾ حين تستريح فيه للنوم ﴿فَسَبِّحْهُ﴾ لتكون على ذكر من ربك حين رقودك، وغفلتك عن حواسك؛ ليكون ذكرك حينئذ توصية منك بمتخيلتك وإرشادًا لها وتعليمًا إياها ﴿وَسَبِّحْهُ﴾ أيضًا ﴿إِذْ بَارَ النُّجُومُ﴾ [الطور: 49] وقت دبور النجم، وظهور ضياء الشمس، فإن كلا الوقتين وقت فراغ البال عن مطلق التشتت والأشغال العائقة عن التوجه، جعلنا الله ممن خفف أثقاله وقلل آماله بمنه وجوده.

خاتمة السورة

عليك أيها المحمدي المتوجه نحو المقام المحمود الذي هو مرتبة الكشف والشهود - هداك الله إلى سنوء السيل، ووقاك عن مطلق التغير والتبديل - أن تخلي خلدك عن الركون إلى ما سوى الحق، والالتفات إلى عموم ما يشغلك عن التوجه إليه، والتحنن نحوه.

ولك الاشتغال بالتسبيح والتقديس في جميع أوقاتك، وحالاتك سيما في أثناء صلواتك في خلال خلواتك، وإياك إياك الميل إلى مزخرفات الدنيا ولذاتها وشهواتها، والاختلاط مع أبنائها المنغمسين بقاذوراتها، فإن التلطح بمزخرفات الدنيا يكلُّ الأبصار ويعمي القلوب التي في الصدور.

خفف عنا بلطفك ثقل الأوزار، وارزقنا بفضلك عيشة الأبرار، واصرف عنا بكرمك شر الأشرار.

سورة النجم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فاتحة سورة النجم

لا يخفى على المحققين المتحققين بمقام الكشف والشهود، المنجذبين نحو الحق بسرائرهم تلعثم وتلوين، أن من تمكن في مرتبة المعرفة، وتقرر في مقر التوحيد وصفا سره عن مكدرات التخمين والتقليد، صار فائيا في الله ببقائه، متكلما بكلامه، متخلقا بأخلاقه، متصفا بأوصافه سبحانه، حسب ما يسر الله له ويفيض عليه ويظهرها منه.

ومن كان شأنه هذا وأمره هكذا، كان صادقا صدوقا، هاديا مهديا، مترصدا في طريق الحق، مترقبا للوحي والإلهام دائما، ومستنشقا من نسمات نفسات الرحمن، متعرضا لنفحات الروح والرياحان من رياض الجنان، متشوقا إلى لقاء الحنان المنان، منسلخا عن لوازم الناسوت، منجذبا نحو فضاء اللاهوت، فجرى عليه عموم ما جرى على وفق التسليم والرضا.

لذلك أخبر سبحانه عن استغراق حبيبه ﷺ، وانجذابه بالمرة إلى مبدئه، واتصاله بعالم اللاهوت بعد كمال انخلاءه عن كسوة الناسوت، وأقسم سبحانه بما أقسم تأييدا لأمره وتعظيما لشأنه، فقال بعدما نيمن باسمه العلي الأعلى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ المتجلى بأسمائه الحسنی وصفاته العليا على حبيبه ﷺ ﴿الرَّحْمَنِ﴾ لعموم عبادته بإظهار مرتبته ﷺ فيما بينهم ﴿الرَّحِيمِ﴾ لخواصهم، المهتدين بهدائته وإرشاده، يوصلهم إلى مرتبة حق اليقين.

﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا

رَحْمَةٌ يُوحَىٰ ۝٤ مَلَكُهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ۝٧ ثُمَّ نَافَثَتَا فَوَدَىٰ ۝٨

٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ٩ فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى ١٠ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى ١١
 أَفَتَمْنُونَهُ عَلَى مَا يَرَى ١٢ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى ١٣ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى ١٤ عِنْدَ هَاجَةِ الْمَآوَى ١٥
 إِذِ يَنْشَقُّ السِّدْرَةُ مَا يَشْفَى ١٦ مَازَاغَ الْبَصَرِ وَمَا طَفَى ١٧ لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى ١٨
 أَفَرَأَيْتُمُ اللَّتَّ وَالْعُزَّى ١٩ وَمَنُوءَ الثَّالِثَةَ الْآخِرَى ٢٠ أَلَكُمُ الذِّكْرُ وَلَهُ الْأُنثَى ٢١ تِلْكَ إِذَا قِسْمَةٌ
 ضِيزَى ٢٢ إِنْ هِيَ إِلَّا أَعْمَاءٌ سَمِيَّتُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاءُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا
 الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى ٢٣ أَمْ لِلإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى ٢٤ فَلِلَّهِ
 الْآخِرَةُ وَالْأُولَى ٢٥ وَكَرَّمَنَّ مَلَكٌ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُلْغِي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ
 يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى ٢٦ [النجم: 1-26].

﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى﴾^(١) [النجم: 1] أي: وحق النجوم الثواقل الهاوية، النازلة بقلوب أرباب الإرادة من عالم اللاهوت؛ ليهتدوا بها في ظلمات التعينات إلى فضاء التوحيد وشمس الوحدة الذاتية الحقيقية.

﴿مَا ضَلَّ﴾ أي: ما انحرف وعدل ﴿صَاحِبُكُمْ﴾ الرسول المؤيد من عند الله،

(١) أقسم الله بالنجم، وذلك النجم إلهام قلوب الملهمين حين يسقط من صحائف الغيوب إلى معادن القلوب، وأيضاً أي: بأنوار تجلي جماله وجلاله إذا وقع على أرواح العاشقين، وأيضاً بالحن بلابل علومه اللدنية التي تترنم بحقائق ما كنز الحق في كنوز القدم إذا جلست على أغصان ورد بساتين أسرار العارفين، فتكلموا، وأخبروا بها من مكنون غرائب علوم الصفات والذات، وأيضاً أي: بواردات الجذبية التي تبدو بأنوارها من الغيوب لفهوم المحبين، وتسقط على أسرار الواصلين، وتزعجها إلى مشاهدة رب العالمين حقائقها المواجهية والحالات والكشف والمشاهدات وأيضاً أي: بالأرواح العاشقة الشائقة إذا صعدت إلى ملكوت الغيب، وتسقط إلى بحر جبروت الرب، وتحمل مياه حياة القدم من بحر البقاء، وتأتي سكرى إلى معادن الأشباح، وتضوع نفحاتها في بساتين العقول ورياض القلوب، وأيضاً بما نبت في بساتين قلوب الأولياء من عجائب أصناف أزهار الحكم والمعارف والعلوم والفهوم، أي: بهذه المقسمات الشريفة والنبيرات الواضحة ما ضل حبيبي عني لمحة وما احتجب بشيء دوني لحظة، وما اعرج عن طريق استقامته قط.

المستوي على صراط العدالة الإلهية عن طريق التوحيد والتحقيق ﴿وَمَا غَوَى﴾ [النجم: 2] أي: ما ضلّ وانصرف في سلوك سبيل الحق نحو الباطل الزاهق الزائغ.

﴿وَمَا يَنْطِقُ﴾ ويتكلم بالقرآن المعجز ﴿عَنِ الْهَوَى﴾ [النجم: 3] الناشئة من ظلمات الطبيعة والهيولي.

﴿إِنْ هُوَ﴾ أي: ما القرآن الذي ينزل إليه ﷺ ويتكلم هو به ﴿إِلَّا وَخْيَ يُوحَى﴾ [النجم: 4] إليه من عند ربه، بلا تصنع له فيه، وتكلف من جانبه.

بل ﴿عَلَّمَهُ﴾ عناية عليه وتكريماً، وتأيداً بشانه وتعظيماً ﴿شَدِيدُ الْقُوَى﴾ [النجم: 5] الذي لا حول ولا قوة في الوجود إلا منه وبه وله؛ إذ لا موجود سواه.

هو سبحانه ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ قوة وقدرة ذاتية محيطه لعموم ما ظهر وبطن من المظاهر، وبعد تعليم الحق إياه ﷺ وتقويته وتأيده ﴿فَأَمْتَوَى﴾ [النجم: 6] تمكن واعتدل ﷺ على صراط العدالة، وتمكن على مرتبة الخلافة والنيابة.

﴿وَهُوَ﴾ حيثُ من كمال التربية والتأيد تمكن ﴿بِالْأَفْقِ الْأَعْلَى﴾⁽¹⁾ [النجم: 7] الذي هو أفق عالم اللاهوت، ومطلع شمس الذات من مشرق عالم العمى، الذي هو ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾ [النور: 35].

﴿ثُمَّ دَنَا﴾ وتقرب إلى ربه ﴿فَتَدَلَّى﴾ [النجم: 8] وتعلق به سبحانه نوع تعلق ولحوق إلى حيث ﴿فَكَانَ﴾ قرب ما بينهما ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ﴾ أي: مقدار قوسي الوجوب

(1) قال في «عين الحياة»: يعني: محمد كان بالأفق الأعلى حين ذي قوة استواء جبرائيل والأفق الأعلى كان لمحمد ولروحانيته؛ لأن أفقه كان أعلى الأفق، ولكل لطيفة أفق إلى ما فوقه وأفق إلى ما تحته، فلمحمد أفقان:

أفق الفوق إلى الحق: وهو الأفق المبين. وأفق التحت إلى الخلق، والأفق الأعلى؛ أي: أفقه أعلى الأفق ومتهى وصول اللطائف إليه، فذلك للطيفتك الخفية أفقان فاطلب أفقها، واجتهد أن تأخذ من الحق في الأفق المبين؛ يعني: بلا واسطة ولا تقنع بالستور؛ لئلا تكون ممن أكل من تحته، وكن عالي الهمة لتأكل من الفوق والتحت ومن جميع الجهات، ثم لا تقنع بهذا حتى تصل إلى مقام تأكل منه، ولا يمكن لأحد أن يأكل من ذاته إلا بعد وصوله إلى الذات الواحدة وهلاكه فيها، وبيان سر الهلاك في الذات يقرع باب الطلع، وأما مأمور شدة فاعبر واعتبر.

والإمكان، الحافظين لمرتبتى الألوهية والعبودية ﴿أَوْ أَدْنَى﴾⁽¹⁾ [النجم: 9] وأقرب منهما لفناء حصّة الناسوت مطلقًا في حصّة اللاهوت.

وبعد ما صار ﷺ ما صار وقرب إلى حيث قرب ﴿فَأَوْخَى﴾ وألهم سبحانه ﴿إِلَى عَبْدِهِ﴾ الذي هو سبحانه أقرب إليه من نفسه ﴿مَا أَوْخَى﴾ [النجم: 10] من المعارف والحقائق، والمكاشفات والمشاهدات الفائضة عليه من لدنه سبحانه، الخارجة عن طور ناسوته وبشريته، فرأى ﷺ ما رأى، وانكشف بما انكشف.

وبالجملة: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ﴾ أي: فؤاده ﷺ الذي هو من منتهيات عالم اللاهوت، المتمكن في قلوب ذوي العناية، وأولي الألباب على سبيل الوديعة من قبل الحق ﴿مَا رَأَى﴾ [النجم: 11] وشهد حين وصوله ولحقه بالأفق الأعلى.

﴿أ﴾ تنكرون انكشافه وشهوده ﷺ أيها المحجوبون المحرومون ﴿فَتَمَارُونَهُ﴾ وتجادلون معه على سبيل المراء والمكابرة ﴿عَلَى مَا يَرَى﴾ [النجم: 12] من الذوقيات

(1) قال البقلي: أي: بين وبينه قوس الحدوثية وقوس الأفعالية، فبقي بين القوسين عن إدراك العين بالحقيقة بالعين والقلب، وأيضًا ظن أنه وصل؛ إذ لا فصل هناك ولا وصل ولا قرب ولا بعد، فإن ساحة الكبرياء منزّهة عن هذه العلل، فبين له الحق أن بينه وبين الحق قوسين: قوس الأزل، وقوس الأبد، ومن يصل إلى من بعد منه من الأزل إلى الأبد أي: الحدث بعيد مني بقدر الأزل والأبد؛ إذ لا قدر في الأزل والأبد، وكيف يصل إلى من تنزيهه أبعد بالأزل والأبد من ذاته وصفاته، فإذا كان كذلك استحال قرب الحدث من ذاته وصفاته من حيث المسافة، وأيضًا رمى الحق سهم الدنو من قوس الأزل، ورمى سهم التدلي من قوس الأبد من كناية الذات والصفات إلى قلب حبيبه ﷺ، فجرحه بسهم المحبة وسهم المعرفة، فكان في تلك الليلة مطروحًا في ميدان الأزل، مجروحًا في ميدان الأبد. قال جعفر: انقطعت الكيفية عن الدنو، ألا ترى أن الله حجب جبريل من دنوه ودنو ربه منه. وقال القاسم: وقعت المواصله فأشرف، والإشراف هو المشاهدة، وقاب قوسين موضع الإشكال، إشكال ليتبين العارف ويهلك الجاحد. وقال الواسطي: من توهم أنه بنفسه دنا جعل ثم مسافة، إنما التدلي أنه كلما قرب من نفسه بعده من المعرفة؛ إذ لا دنو للحق ولا بعد، فكلما دنا بنفسه من الحق تدلى بعدًا، فانقلب في الحقيقة خاسيًا وهو حسير؛ إذ لا سبيل إلى مطالعة الحقيقة.

وأما الإخبار عن الفضل أنه أخذه من إياه وأشهدته إياه فكان في الحقيقة ذا نفسه مشاهدًا ذاته، وفي الأخبار أن محمدًا ﷺ شهدته. وقال جعفر: أدناه منه حتى كان منه كقاب قوسين، والدنو من الله لا حد له، والدنو من العبد بالحدود.

والوجدانيات التي تأبى عنها عقولكم، وتعمي أبصاركم، ولا يمكن إلقاؤها وكشفها لكم.

وكيف تستبعدون وتنكرون له ﷻ أمثال هذا ﴿وَ﴾ الله ﴿لَقَدْ رَأَاهُ﴾ ما رآه من الشهودات التي تدهش منها عقول العقلاء، وتتحير أوهامهم وخيالاتهم ﴿نَزَّلَهُ أُخْرَى﴾^(١) [النجم: 13] مرة أخرى قبل عروجه ووصوله إلى الأفق الأعلى، والمقام الأدنى الذي هو اليقين الحقيقي، وذلك ﴿عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُتَهَى﴾ [النجم: 14] التي ينتهي إليها ودونها اليقين العلمي والعيني.

إذ ﴿عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى﴾ [النجم: 15] التي يأوي إليها أرباب العناية شوقاً إلى لقاء الله، وهو موعد الرؤيا والعيان، ومقام التوحيد والعرفان.

﴿إِذْ يَفْشَى السِّدْرَةُ﴾ المعهودة؛ أي: يغطي الموعد الموعود، ويحيط بها ﴿مَا يَفْشَى﴾ [النجم: 16] من التجليات الإلهية المتشعبة حسب الشئون المتجددة، المحيرة لعيون النواظر من أرباب الولاء، الوالهين بمطالعة وجه الله الكريم.

(١) قال البقلي: ما الرؤية الثانية أقل كشفاً من الرؤية الأولى، وما الرؤية الأولى بأكشف من الرؤية الثانية أين أنت؟ لو كنت أهلاً لقلت لك أنه عليه الصلاة والسلام رأى ربه في لحافه بعد أن رجع من الحضرة أيضاً في تلك الساعة، وما غاب قلبه من تلك الرؤية لمحقة، وما ذكر سبحانه بيان أن ما رأى في الأول في الإمكان، وما رأى عند سدرة المتهى كان واحداً لأن ظهوره هناك ظهور القدم والجلال، وليس ظهوره يتعلق بالمكان ولا بالزمان؛ إذ القدم منزلة عن المكان والجهات، كان العبد في مكان والرب فيما لا مكان، وهذا غاية كمال تنزيهه وعظيم لطفه؛ إذ يتجلى من نفسه لقلب عبده، وهو في لا مكان والعبد في مكان، والعقل هاهنا مضمحل، والعلم متلاش، والأفهام عاجزة، والأوهام متحيرة، والقلوب والهة، والأرواح حائرة، والأسرار فانية، وفي هذه الآية بيان كمال شرف حبيب عليه الصلاة والسلام؛ إذ رآه نزله أخرى عند سدرة المتهى، فظن عليه الصلاة والسلام أن ما رآه في الأول لا يكون في الكون لكمال علمه بتنزيه الحق، فلما رآه ثانياً علم أنه لا يحجبه شيء من الحدثان، وعادة الكبرياء إذا زارهم أحد يأتون معه إلى باب الدار إذا كان كريماً، فهذا من الله سبحانه إظهار كمال حبه لحبيه ﷺ، وحقيقة الإشارة أنه سبحانه أراد أن يعرف حبيب مقام الالتباس، فليس الأمر، وظهر المكر، وبان الحق من شجرة سدرة المتهى كما بان من شجرة العتاب لموسى؛ ليعرفه حبيب عليه الصلاة والسلام بكمال المعرفة؛ إذ ليس بعارف من لم يعرف حبيب في لباس مختلفة، وبيان ذلك.

وبالجملة: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ﴾ أي: ما مال وانحرف بصر رسول الله ﷺ عند تعاقب التجليات الإلهية، وترادف شئونه الغيبية، وتطوراته الجمالية والجلالية حسب أسمائه وصفاته العلية، عن وحدة ذاته، وما يشغله شيء منه عنه سبحانه ﴿وَمَا طَغَى﴾ [النجم: 17] خرج نفسه ﷺ عند رؤية ما رأى من المعجائب والغرائب عن ربة الرقية ﷺ، وعروة العبودية، بل التزم حيثذ بقيام ما لزم من آداب العبودية ولوازم الإطاعة والانقياد أكثر مما التزمها قبل انكشافه.

والله ﴿لَقَدْ رَأَى﴾ ﷺ في ليلة الإسراء ﴿مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾⁽¹⁾ [النجم: 18] أي: الآيات الكبرى التي هي آيات ربه الذي رياه على رؤية آياته الكبرى، ما لا يراه أحد من المكاشفين، لا ملك مقرب، ولا نبي مرسل من بني نوعه.

﴿أ﴾ تنكرون أيها الجاحدون وحدة الحق عز شأنه وجل برهانه، وانكشاف حبيبه ﷺ بوحدته وبلوازم ألوهيته وربوبيته، ورسالته من عنده سبحانه على عموم بريته وكافة خليقته؛ ليرشدكم إلى الإيمان به، ويهديهم إلى توحيده ﴿فَرَأَيْتُمْ﴾ أثبتتم وأخذتم الأصنام شركاء له، مشاركين معه في ألوهيته وربوبيته؛ يعني: الأولى ﴿اللَّاتُ وَ﴾ الثانية ﴿الْعُزَّى﴾ [النجم: 19] ﴿وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى﴾ [النجم: 20] مع أنها جمادات لا شعور لها ولا يصدر شيء منها.

وأعظم من ذلك أنكم أثبتهم له سبحانه الأولاد بل أخسها وأدونها، ﴿الْكُفُّمُ الذَّكْرُ﴾ الأشرف الأكرم أيها الحمقى ﴿وَلَهُ﴾ سبحانه مع كمال تنزهه عن نقيصه، اتخاذ الوالد المترتب على القوة الشهوية ﴿الْأُنْثَى﴾ [النجم: 21] المرذولة المستهجنة.

والله ﴿تِلْكَ﴾ القسمة التي جثتم بها مع استحالتها في حقه سبحانه ﴿إِذَا قِسْمَةٌ

(1) يعني ما يبدي من صفاته من آياته وآها، ولم يذهب بذلك عن مشهوده، ولم يفارق مجاورة معبوده، وما زاده إلا محبة وشوقاً وقوة، أعطاه الله قوة احتمال التجلي والأنوار العظيمة، وكان ذلك تفضيلاً له على غيره من الأنبياء؛ ألا ترى أن موسى صعد عند التجلي، ففي الضعف جابه النبي ﷺ في مشاهدته كفاحاً ببصر قلبه، فثبت لقوة حاله وعلو مقامه ودرجته. تفسير التستري (2/

ضِيْرَى ﴿النجم: 22﴾ أي: لو فرض في شأنه سبحانه هذه، لكانت قسمتكم قسمة عوجاء جائرة مائلة عن العدالة؛ إذ أنتم أيها الحمقى تستنكفون عن الأنثى، وتثبتونها لله المنزه عن الأهل والولد، المقدس عن مطلق أمارات الحدوث وعلامات النقصان.

وبالجملة: ﴿إِنْ هِيَ﴾ أي: ما آلهتكم التي أنتم أثبتموها، واعتقدتم شركتها مع الله ﴿إِلَّا أَسْمَاءُ﴾ لا مسميات لها أصلاً بل ﴿سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ﴾ تبعاً ﴿وَأَبَاؤُكُمْ﴾ أصالة من تلقاء أنفسكم؛ إذ ﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ برهان واضح، وحجة قاطعة بل ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ﴾ أي: ما يتبع أسلافكم الحمقى ﴿إِلَّا الظَّنَّ﴾ والخيال الناشئ من أوهامهم وأحلامهم السخيفة أمثالكم أيها الجاهلون ﴿وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ﴾ أي: ما تهويه وتشتهيه نفوسهم ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ﴾ ونزل عليهم حيثذا أيضاً على السنة رسلهم ﴿مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى﴾ [النجم: 23] الموصل إلى مرتبة التوحيد، فتركوها ظلمًا وعدوانًا، ولم يتبعوها أمثالكم أيها الحمقى.

أتطمعون الشفاعة من تلك الآلهة الهلكى، وتأملون معاونتهم ومظاهرتهم إياكم أيها الحمقى؟ ﴿أَمْ﴾ تعتقدون أن يحصل ﴿لِلْإِنْسَانِ﴾ جميع ﴿مَا تَمَنَّى﴾ [النجم: 24] وتأمل من اللذات والشهوات.

بل ﴿فَلِلَّهِ﴾ وفي قبضة قدرته وتحت تصرفه ﴿الْآخِرَةُ وَالْأُولَى﴾ [النجم: 25] أي: ما جرى في النشأة الأولى والآخرى من الكرامات، يمنُّ بها على من يشاء، ويصرفها عن من يشاء إرادة واختيارًا، لا يحكم عليه ولا ينازع في سلطانه، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد.

ثم قال سبحانه تسجيلاً على غاية غباوتهم، ونهاية بلادتهم وحقاقتهم في اتخاذهم الأصنام آلهة، واعتقادهم شفعاء: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ﴾ أي: كثير من الملائكة المقبولين عند الله، المهيمين بمطالعة وجهه الكريم، ومع ذلك القرب والشرف ﴿لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا﴾ من الإغناء ﴿إِلَّا مَنْ بَعْدَ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ﴾ لهم ليشفعوا عنده سبحانه ﴿لِمَنْ يَشَاءُ﴾ سبحانه خلاصهم من عباده ﴿وَيُفَرِّضِي﴾ [النجم: 26] بشفاعة الشفعاء عندهم لاستخلاصهم بإذن منه سبحانه.

وهؤلاء الحمقى يدعون الشفاعة لأولئك الهلكى، ويعتقدونها آلهة مشاركين مع الله في الألوهية والربوبية ظلمًا وعدوانًا، بلا حجة وبرهان، ومن غاية عدوانهم وطغيانهم: يهينون الملائكة المكرمين المقربين، ويستحقرونهم حيث ينسبونهم إلى الأنوثة المستلزمة لغاية النقصان.

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنثَىٰ ۚ وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ۚ﴾ (٢٨) فَأَعْرِضْ عَنْ مَن تَوَلَّىٰ عَنْ ذِكْرِنَا وَلَوْ يُرِيدُ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۚ ﴿٢٩﴾ ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّٰ عَنْ سَبِيلِهِ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَن اهْتَدَىٰ ۚ ﴿٣٠﴾ وَلَوْ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَيَجْعِلَ الَّذِينَ أَسْتَعَا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْعِلَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحَقِّ ۚ ﴿٣١﴾ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ إِلَّا اللَّغَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجْنَةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوْا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن اتَّقَىٰ ۚ ﴿٣٢﴾ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّىٰ ۚ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْتَدَىٰ ۚ ﴿٣٤﴾ أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰ ۚ ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يُبَيِّنْ بَآءًا فِي مِصْحَفٍ مُّوَسَىٰ ۚ ﴿٣٦﴾ وَلِإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ۚ ﴿٣٧﴾ أَلَمْ تَرَ وَازِدًا وَذُرِّيًّا ۚ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ۚ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ۚ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوَّلَىٰ ۚ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ ۚ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ۚ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتٌ وَأَحْيَا ۚ ﴿٤٤﴾ ﴿النجم: 27-44﴾.

وبالجملة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ﴾ كل واحد منهم ظلمًا وزورًا ﴿تَسْمِيَةَ الْأُنثَىٰ﴾ [النجم: 27] أي: يسمونهم بنات الله، ظلمًا على الله، بإثبات الولد له وعليهم نقص الأنوثة إياهم.

﴿وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ﴾ أي: بقولهم هذا ﴿مِنْ عِلْمٍ﴾ لا يقين ولا ظن، ولا سند من عقل ونقل، بل ﴿إِن يَتَّبِعُونَ﴾ أي: ما يتبعون في قولهم هذا ﴿إِلَّا الظَّنَّ﴾ والتخمين الناشئ من تقليد آبائهم، المتسبين إلى الجهل والعناد ﴿وَإِنَّ الظَّنَّ﴾ المستند

إلى الجهل والتقليد ﴿لَا يُغْنِي﴾ ويفيد ﴿مِنَ الْحَقِّ﴾ الحقيق بالاتباع ﴿شَيْئًا﴾⁽¹⁾ [النجم: 28] من الإغناء والإفادة.

وبعدما سمعت حالهم وقولهم: ﴿فَأَعْرِضْ﴾ يا أكمل الرسل وانصرف ﴿عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا﴾ الصارف له عن أمثال هذه الهذيان الباطلة، ولا تبال بشأنه، ولا تبالغ في دعوته من غاية إعراضه وانصرافه ﴿وَلَمْ يُرِدْ﴾ من السعادات المنتظرة، والكرامات الموعودة للإنسان ﴿إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [النجم: 29] ولذاتها وشهواتها، ولم يهتم إلا بشأنها، واقتصر على مزخرفاتها مع كمال غفلة، وذهول تام عن الكرامات الروحانية، والذات الأخروية.

﴿ذَلِكَ﴾ الذي سمعت يا أكمل الرسل من ميلهم إلى الدنيا ﴿مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾ اللدني الفائض لهم من حضرة العلم الإلهي، فعليك يا أكمل الرسل أن تعرض عنهم وعن دعوتهم وإرشادهم، بعدما أمرت به حسب العقل الفطري الموهوب لهم من المبدأ الفياض، وبالغت في تبليغ المأمور.

وبالجملة: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ الذي رباك بكمال كرامته، واصطفاك لرسالته ونيابته ﴿هُوَ أَغْلَمُ﴾ بعلمه الحضوري ﴿بِمَنْ ضَلَّ﴾ وانحرف ﴿عَنْ سَبِيلِهِ﴾ من عباده، ومال عن جادة توحيده ﴿وَهُوَ أَغْلَمُ﴾ أيضًا ﴿بِمَنْ اهْتَدَى﴾ [النجم: 30] منهم بهدایتك وإرشادك.

(1) قال في عين الحياة: يعني: لا يصل الظن إلى حد يحكم عليه بخفية الشيء الظنون؛ لأن فوق الظن العلم، وفوق العلم الصحيح السماعي علم اليقين المكاشفي، وفوق علم اليقين المكاشفي عين اليقين وهو العلم المشاهدي، وفوق عين اليقين المشاهدي حق اليقين مما يتعلق بالوصول، وفوق حقيقة حق اليقين مما يتعلق بالذوق، ومثاله في عالم الشهادة علمك بأن هذه الشجرة تحمل رمانًا فيه حياة مثل العسل، ولكل حبة نبت خاص وطعم حلو كأنه سكر معقود وشراب مروق، والشجرة كانت شجرة رمان، فاعتقادك بما يخرج عن هذه كما سمعت عن الدهقان؛ هو اعتقاد صحيح علمي، فإذا أخضرت الشجرة وأزهرت فشاهدتها زاد علمك السماعي وتبدل بعلم اليقين، وإذا انتشرت الزهرات خرج منها درج الرمان، وشاهدته تبدل علمك اليقين الكشفي بعين اليقين، كمال حده واقتطفته وشقيقته وشاهدت حباته، والبيوت التي وصفها الدهقان لكل حبة صار عين اليقين، فإذا أكلته وذقته ووصل إلى حلقك حلاوته، واختلط بوجودك شرابه، وصار هو أنت ولطيفتك المدركة هو، فصار حق اليقين في هذا المقام حقيقة حق اليقين.

﴿وَكَيْفَ لَا يَعْلَمُ سُبْحَانَهُ الْمَضِلِّينَ وَالْمَهْتَدِينَ مِنْ عِبَادِهِ﴾ إِذْ ﴿اللَّهُ﴾ مُلْكًا وَتَصَرُّفًا، وَإِحَاطَةً وَشُمُولًا مَظَاهِرُ ﴿مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ وَمَا بَيْنَهُمَا مِنَ الْكَوَاتِنِ وَالْفَوَاسِدِ ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا﴾ بِأَعْمَالِهِمْ وَأَقْوَالِهِمْ ﴿بِمَا عَمِلُوا﴾ أَي: بِمَقْتَضَى عَمَلِهِمْ عَلَى مَقْتَضَى عَدْلِهِ سُبْحَانَهُ، بِلَا زِيَادَةٍ وَلَا نَقْصَانٍ ﴿وَلِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾ أَيْضًا كَذَلِكَ ﴿بِالْحُسْنَى﴾ [النجم: 31] أَي: أَزِيدُ مِمَّا اسْتَحَقُّوا بِصَوَالِحِ أَعْمَالِهِمْ وَحَسَنَاتِ أَخْلَاقِهِمْ، تَفْضُلًا عَلَيْهِمْ وَامْتِنَانًا.

وَالْمُحْسِنُونَ هُمْ: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ﴾ أَي: يَحْتَرِزُونَ عَنِ الْآثَامِ الْكَبِيرَةِ، الْمُسْتَجْلِبَةِ لَغَضَبِ اللَّهِ، الْمُسْتَتَبِعَةِ لِعَذَابِهِ وَنِكَالِهِ فِي النَّشْأَةِ الْآخَرَى، الْمُسْتَلْزِمَةِ لِلْحُدُودِ وَالْكَفَارَاتِ بِحَسَبِ الشَّرْعِ الشَّرِيفِ ﴿وَالْفَوَاحِشِ﴾ أَي: يَحْفَظُونَ نَفُوسَهُمْ أَيْضًا عَنِ الْفَوَاحِشِ الْمُسْقِطَةِ لِلْمَرْوَعَاتِ الْجَالِبَةِ لِأَنْوَاعِ النِّكَبَاتِ، وَالْوَعِيدَاتِ الْهَائِلَةِ الْإِلَهِيَةِ الْمَقْتَضِيَةِ لِلْخُلُودِ فِي دَرَكَاتِ النَّيْرَانِ ﴿إِلَّا اللَّئِمَ﴾ الطَّارِئِ عَلَيْهِمْ مِنْ صِفَاثِرِ الذُّنُوبِ هَفْوَةٍ، فَجَبْرُوهَ بِالتَّوْبَةِ دَفْعَةً، فَإِنَّهُ مَعْفُوٌّ عَنْ مَجْتَنِبِي الْكَبَائِرِ وَالْفَوَاحِشِ، قَبْلَ التَّوْبَةِ أَيْضًا.

وَكَيْفَ لَا يَغْفِرُ سُبْحَانَهُ لِأَصْحَابِ اللَّئِمِ ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ يَا أَكْمَلَ الرُّسُلِ ﴿وَأَمِيعَ الْمَغْفِرَةِ﴾ سَرِيعَ الْعَفْوِ، شَامِلَ الرَّحْمَةِ ﴿هُوَ﴾ سُبْحَانَهُ ﴿أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ مِنْكُمْ، وَبِعَمُومِ أَحْوَالِكُمْ وَأَطْوَارِكُمْ أَيُّهَا الْمَجْبُولُونَ عَلَى فِطْرَةِ التَّكْلِيفِ، وَكَيْفَ لَا يَعْلَمُ سُبْحَانَهُ أَحْوَالَكُمْ ﴿إِذْ أَنْشَأَكُمْ﴾ وَأَظْهَرَكُمْ ﴿مِنْ الْأَرْضِ﴾ بِمَقْتَضَى سَعَةِ عِلْمِهِ وَجُودِهِ ﴿وَلِإِذْ أَنْتُمْ حِثَّةٌ﴾ لَا شُعُورَ لَكُمْ مَحْبُوسُونَ ﴿فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ يَعْلَمُ سُبْحَانَهُ مِنْكُمْ جَمِيعَ أَحْوَالِكُمْ، وَأَطْوَارِكُمْ وَعَمُومَ حَوَائِجِكُمُ الْمَاضِيَةِ وَالْآتِيَةِ، وَبِالْجُمْلَةِ: ﴿فَلَا تَزْكُوا﴾ وَلَا تَتَزَهَّوْا وَتَطْهَرُوا ﴿أَنْفُسَكُمْ﴾ إِذْ لَا عِلْمَ لَكُمْ بِتَفَاصِيلِ أَحْوَالِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ مُطْلَقًا، بَلْ ﴿هُوَ﴾ سُبْحَانَهُ ﴿أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ [النجم: 32] وَحَفِظَ نَفْسَهُ عَنْ مَسَاخَطِهِ سُبْحَانَهُ، وَاحْتَرَزَ عَنْ مَنِهَاتِهِ.

ثُمَّ قَالَ سُبْحَانَهُ عِبْرَةً عَلَى الْمُسْتَبْصِرِينَ وَتَوْبِيخًا عَلَى الْمُسْتَكْبِرِينَ: ﴿أَفَرَأَيْتَ﴾ أَيُّهَا الْمَعْتَبِرُ الرَّائِي الطَّاعِي ﴿الَّذِي تَوَلَّى﴾ [النجم: 33] وَأَعْرَضَ عَنِ اتِّبَاعِ الْحَقِّ، وَأَصْرَ عَلَى الْبَاطِلِ عِنَادًا وَمُكَابَرَةً، بَعْدَمَا وَعَدَ الْحَقُّ التَّصَدُّقَ مِنْ مَالِهِ كَفَّارَةً لَذُنُوبِهِ، ﴿وَأَعْطَى

قَلِيلًا ﴿٣٤﴾ من سمعة ورياء ﴿وَأَنكَدَى﴾ [النجم: 34] وقطع عطاء الباقي بعد ذلك، فما وفى ووفر جميع ما وعد، ثم ارتد - العياذ بالله - وندم عما تصدق قبل، فأصر على ما كان من الكفر والجحود، ومع ذلك يزعم أنه قد برئ من الذنوب بتصدقه.

نزلت في الوليد بن المغيرة كان يتبع رسول الله ﷺ فعيّره بعض المشركين، وقال: تركت دين الأشياخ، وضللتهم، فقال: أخشى عذاب الله، فضمن أن يتحمل عنه العذاب، إن أعطى بعض ماله من المشروط، ولم يتم ومع ذلك يزعم البراءة عن الذنوب لذلك، ثم بخل بالباقي، وبعدما أعطى بعض المشروط، ارتد - العياذ بالله - عن الدين ومتابعة الرسول الأمين.

غيره سبحانه بقوله: ﴿أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهَوْا يَرَى﴾ [النجم: 35] بأن التصديق وتحمل الغير وتضمنه يدفع عنه العذاب.

﴿أَمْ لَمْ يَكُنْ﴾ ولم يخبر ﴿بِمَا فِي صُحُفٍ مُّوسَى﴾ [النجم: 36] وهي ألواح التوراة المنصوصة فيها بخلاف ذلك.

﴿وَلَمْ يَنْبَأْ أَيْضًا بِمَا فِي صُحُفٍ﴾ الذي يدعي متابعته والتدين بدينه، مع أن إبراهيم ﴿الَّذِي وَفَى﴾⁽¹⁾ [النجم: 37] ووفر وأتم بجميع ما التزمه وأمر به، وبالف في وفاء ما عاهد والتزم طلبًا لمرضاة ربه، وهو يدعي متابعته، ولم يوف بما التزم من العهود.

وكيف يحمل الغير عنه وزره أو يسقطه الصدقة، مع أن مضمون ما في عموم كلتا الصحفين هو هذا ﴿أَلَا تَرَوْا﴾ أي: أنه لا تحمل ﴿وَأَزْرًا﴾ أي: نفس آثمة ﴿وَيُذْرَ أُخْرَى﴾ [النجم: 38] أي: ذنبها، ولا يؤخذ هي عليها، بل كل نفس من النفوس الخيرة

(1) إشارة إلى أن في جيلة الإنسان معرفة لله مبركوزة وذلك لأن الله تعالى ذرا ذريات بني آدم من ظهورهم وأشهدهم على أنفسهم بخطاب (أأست بركم) فاستمعهم خطابه وعرفهم ربوبته وفقهم لإجابته حتى قالوا بلى فصار ذلك الإقرار بذر ثمرة إقرارهم بخالق الله تعالى في هذا العالم لكن الله تعالى لعزته لا يهتدي إلى سرادقات عزته إلا من أحزه الله تعالى بجنابات عنايته وهو العليم الذي يعلم حيث يجعل رسالاته. تفسير حقي (145/13).

والشريرة، رهينة بما كسبت، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر.

﴿وَ﴾ كذا منصوح في الصحفيين أن ﴿لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ﴾ المجبول على فطرة العرفان؛ أي: لكل واحد من أشخاصه ﴿إِلَّا مَا سَعَى﴾ [النجم: 39] واقترب لنفسه وأعد لمعاشه ومعاده.

﴿وَ﴾ كذا ثبت فيهما ﴿أَنْ سَعَيْه﴾ أي: سعي كل واحد من أفراد الإنسان خيرًا كان أو شرًا ﴿سَوْفَ يُرَى﴾ [النجم: 40] في النشأة الأخرى، مصورة بالصورة الحسنة والقييحة من الدرجات العلية الجنانية، أو الدركات الهوية النيرانية.

﴿ثُمَّ﴾ بعدما حوسب عليه عموم مساعيه أعماله ﴿يُجْزَأُ الْجَزَاءَ الْآوْفَى﴾ [النجم: 41] أي: يوفر عليه من الجزاء على مقتضى سعيه في أعمالها، خيرًا كان أو شرًا.

﴿وَ﴾ أيضًا مثبتًا فيهما ﴿أَنْ إِلَى رَبِّكَ الْمُنتَهَى﴾ [النجم: 42] أي: منتهى الكل إلى الله، كما أن مبدأه منه؛ إذ ليس وراءه مرمى ومنتهى.

﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ﴾ من أضحك ﴿وَأَبْكَى﴾⁽¹⁾ [النجم: 43] من أبكى.

﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾ [النجم: 44] إذ لا قادر على الإماتة والإحياء غيره سبحانه.

﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزُّوجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى﴾ ١٥ ﴿مِنْ نُطْفَةٍ إِفَّا تَمَقَّقَ﴾ ١٦ ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ النُّشْأَةَ الْآخِرَى﴾ ١٧
﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى﴾ ١٨ ﴿وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى﴾ ١٩ ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى﴾ ٢٠ ﴿وَتَمُورًا قَا أَمِنَى﴾ ٢١

(1) وصف نفسه تعالى بأنه أضحك وأبكى بطلوع صبح جماله العاشقين، وأبكى بظهور شمس ذاته العارفين، يكون عليه منه بفقدان الكل؛ لأنهم يعرفونه بامتناعه عن إدراكهم وعن تقصيرهم أيضًا في طلب معرفتهم بربهم وقلة معرفتهم بوجود ربهم، وذلك عند كشف المعاينة، أضحك المستأنسين بنرجس مودته وباسمين قرته وطيب شمال جماله، وأبكى المشتاقين بظهور عظمتهم وجلاله، وأمات العارفين بنعت الفناء في سطوات ديموميته وظهور صدمات أنوار ذاته، وأحى العاشقين بكشف صفاته، فالأولون فنوا فيه، والآخرين بقوا به، وأيضًا أمات المريدين بالحجاب، وأحى المحيين بكشف النقاب.

﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُم أَظْلَمَ وَأَطْعَى ﴿٥٢﴾ وَالْمُؤَنَفَكَةَ أَهْوَى ﴿٥٣﴾ فَخَسَّنَا مَا خَشَى ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى ﴿٥٥﴾ هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النَّذْرِ الْأُولَى ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ الْأَافِقَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنْتُمْ سَكَدُونَ ﴿٦١﴾ فَاتَّبِعُوا اللَّهَ وَاعْبُدُوا ﴿٦٢﴾ ﴿النجم: 45-62﴾.

﴿وَأَنَّهُ﴾ من كمال قدرته ووفور حكمته ﴿خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى﴾ [النجم: 45] من صنف ونوع وجنس، وقدر وجود الزوجين ﴿مِنْ نُّطْفَةٍ﴾ مهينة حاصلة منهما ﴿إِذَا تُغْنَى﴾ [النجم: 46] أي: تصب وتراق في الرحم على وجه الدفق، أو تقدر وتخلق منها.

﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ النُّشْأَةَ الْآخَرَى﴾ [النجم: 47] أي: عليه سبحانه إعادة الأموات أحياء في النشأة الأخرى، كما أن عليه الإبداء في النشأة الأولى.

﴿وَأَنَّهُ﴾ سبحانه ﴿هُوَ﴾ بذاته لا بالوسائل والوسائط؛ إذ الكل راجع إليه ﴿أَغْنَى﴾ من أغنى بإعطاء الأموال له ﴿وَأَقْنَى﴾ [النجم: 48] من أقنى بإلهام القنية والادخار.

وإنما فعل معهم ما فعل من الإغماء والإقناء ليذكروا له، ولم يعبدوا غيره، ومع ذلك أشركوا له، فعبدوا الشُّعْرَى، ﴿وَو﴾ لا شك أنه سبحانه ﴿هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى﴾ [النجم: 49] وهي كواكب قد عبدها بعض الصابئين، منهم أبو كبشة، أحد أجداد الرسول ﷺ لذلك يكنى بكنيته.

﴿وَأَنَّهُ﴾ سبحانه ﴿أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى﴾ [النجم: 50] لشركهم بالله، وصفهم بالأولى؛ لأنهم أول قوم أهلكهم الله بعد نوح، ﴿وَو﴾ أنه سبحانه أهلك ﴿ثَمُودَ فَمَا أَبْقَى﴾ [النجم: 51] أحدا من كلا الفريقين.

﴿وَو﴾ أهلك أيضا بمقتضى قدرته الكاملة ﴿قَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ﴾ أي: قبل إهلاك عاد وثمود ﴿إِنَّهُمْ﴾ أي: قوم نوح ﴿كَانُوا هُم أَظْلَمَ وَأَطْعَى﴾ أي: أظلم الناس على أهل الله، وأطغاهم عن طريق الهداية والرشاد.

﴿وَهُوَ أَنَّهُ سَبَّحَانَهُ أَهْلَكَ﴾ ﴿الْمُؤْتَفِكَةَ﴾ أَي: أَهْلَ الْقُرَى الْمُنْقَلِبَةِ، وَهِيَ قَوْمُ لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى حَيْثُ ﴿أَهْوَى﴾ [النجم: 53] أَي: أَسْقَطَ عَلَيْهِمْ دَوْرَهُمْ وَأَمَاكِنَهُمْ، بَعْدَمَا رَفَعَهَا نَحْوَ السَّمَاءِ، وَقَلَبَهَا عَلَيْهِمْ، فَجَعَلَ عَلَيْهَا سَافِلَهَا، ﴿فَغَشَّاهَا﴾ حَيْثُذُ ﴿مَا غَشَّى﴾ [النجم: 54] مِنْ أَمْطَارِ الْحَجَارَةِ، وَأَنْوَاعِ الْمَصِيبَاتِ وَالْعَاهَاتِ، وَالنَّكَبَاتِ.

وَبِالْجُمْلَةِ: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ﴾ وَأَصْنَافِ نِعَمَائِهِ الْمُتَوَالِيَةِ الْمُرَادِفَةِ مِنْ انتِقَامِ الْأَعْدَاءِ وَإِنْعَامِ الْأَوْلِيَاءِ ﴿تَتَمَارَى﴾ [النجم: 55] وَتَتَدَافَعُ عَلَى وَجْهِ الْجِدَالِ وَالْمِرَاءِ، أَيُّهَا الْمَحْجُوبُ الْجَاوِدُ لَوْحِدَةِ الْحَقِّ وَاسْتِقْلَالِهِ فِي عُمُومِ تَصَرُّفَاتِهِ الْجَارِيَةِ فِي مَلَكِهِ وَمُلْكُوتهِ، بِكَمَالِ الْإِرَادَةِ وَالِاخْتِيَارِ.

وَبِالْجُمْلَةِ: اْعْلَمُوا أَيُّهَا الْمَجْبُولُونَ عَلَى فِطْرَةِ التَّكْلِيفِ الْمُثْمَرِ لِلْمَعْرِفَةِ وَالتَّوْحِيدِ أَنَّ ﴿هَذَا﴾ أَي: رَسُولَكُمْ الَّذِي أَرْسَلَ إِلَيْكُمْ مِنْ لَدُنَّا؛ لِيُرْشِدَكُمْ إِلَى تَوْحِيدِ الذَّاتِ، مُؤَيِّدًا بِالْكِتَابِ الْمُبِينِ لِمَقْدِمَاتِ التَّوْحِيدِ، مُشْتَمِلًا عَلَى الْأَوَامِرِ الْمُؤَدِّيَةِ إِلَيْهِ وَالنَّوَاهِي الْعَائِلَةِ عَنْهُ، وَالْعِبَرِ وَالتَّذَكِيرَاتِ الْمَصْصِيَةِ لِنَفُوسِكُمْ عَنِ الرُّكُونِ إِلَى مَا يَنَافِيهِ مِنَ الْمَزْخَرَفَاتِ الدُّنْيَا الْجَالِبَةِ لِأَنْوَاعِ اللَّذَاتِ، وَالشَّهَوَاتِ الْجِسْمَانِيَةِ الْمُورِوثَةِ لَكُمْ مِنْ شَيَاطِينِ نَفُوسِكُمْ، وَقَوَائِمِ الْبَهِيمِيَةِ الظُّلْمَانِيَةِ الْمُتَفَرِّعَةِ عَلَى الطَّبِيعَةِ، وَالْهَيُولِيَّتِي هِيَ مِنْ نَتَائِجِ التَّعِينَاتِ الْعَدَمِيَةِ النَّاسُوتِيَةِ الْمَانِعَةِ مِنَ الْوُصُولِ لَصَفَاءِ عَالَمِ الْإِلَهِيَّاتِ ﴿نَذِيرٌ﴾ لَكُمْ أَكْمَلُ ﴿مَنْ النَّذِيرِ الْأَوَّلَى﴾ [النجم: 56] إِذْ هُمْ مُنْذَرُونَ عَنِ الشَّوَاغِلِ الْمُنَافِيَةِ؛ لِتَوْحِيدِ الصِّفَاتِ وَالْأَفْعَالِ، وَنَذِيرُكُمْ هَذَا ﷻ يَنْذِرُكُمْ عَنْ مَوَانِعِ تَوْحِيدِ الذَّاتِ.

وَاعْلَمُوا أَنَّهُ بَعْدَ بَعَثِهِ ﷺ: ﴿أَزِفَتِ الْأَزِفَةُ﴾⁽¹⁾ [النجم: 57] أَي: دَنَتْ الْقِيَامَةُ وَاقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ، ﴿لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ [النجم: 58] أَي: نَفْسٌ قَادِرَةٌ عَلَى كَشْفِهَا وَتَعْيِينِهَا، وَوَقْتُ وَقُوعِهَا وَقِيَامِهَا؛ إِذْ هِيَ مِنْ جُمْلَةِ الْمَغْيِبَاتِ الَّتِي اسْتَأْثَرَ اللَّهُ بِهَا،

(1) أَي: قَرِيبَتْ سَاعَةُ الْفَتْحِ حِينَ تَوَجَّهْتَ وَانْقَطَعَتْ عَنْكَ الْعَلَاقُ، وَوَجَدْتَ مَنْ يُدْخِلُكَ بَحْرَ الْحَقَائِقِ، لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ، لَا يَكْشِفُ لَكَ هَذِهِ الْحَقَائِقَ إِلَّا الَّذِي مِنْ عَالَمِكَ بِصَحْبَةٍ مَنْ يَدُلُّكَ عَلَيْهِ. الْبَحْرُ الْمَزِيدُ (186/6).

ولم يطلع أحدًا عليها.

ثم ويخ سبحانه على المنكرين ليوم القيامة المستكبرين عن قبولها فقال: ﴿أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ﴾ الصحيح، والحق الصريح الذي هو القرآن المعجز ﴿تَعْجَبُونَ﴾ [النجم: 59] تعنتًا وإنكارًا. ﴿وَتَضْحَكُونَ﴾ منه استهزاء ومراء ﴿وَلَا تَبْكُونَ﴾ [النجم: 60] بما فيه من الوعيدات الهائلة، تلهفًا وتأسفًا على ما فرطتم لأنفسكم وأفرطتم عليها.

﴿وَأَنْتُمْ﴾ أيها الحمقى الجاهلون ﴿سَامِدُونَ﴾ [النجم: 61] لاهون ساهون، مستكبرون على ما فيه من الأوامر والنواهي والوعد والوعيد، مكابرون عليها عتوا وعنادًا.

وإن أردتم التلافي والتدارك ﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ﴾ وتذللوا له حق تذلله، وعظموه حق تعظيمه وتكريمه ﴿وَاعْبُدُوا﴾ [النجم: 62] له حق عبادته كي تصلوا إلى زلال معرفته وتوحيده.

جعلنا الله من زمرة عباده العابدين المتذللين الخاضعين الخاشعين بيمينه وجوده.

خاتمة السورة

عليك أيها المريد القاصد لسلوك طريق التوحيد - عصمك الله عن آفات التخمين والتقليد، وأعانك على التوكل والتجريد - أن تلتزم على المجاهدة، والانكسار والتذلل، والافتقار بدوام العزلة والفرار عن أصحاب النخوة والاستكبار، صارفًا عنان عزمك لإسقاط عموم الإضافات والاعتبار، طالبًا الانخلاع عن ملابس الحياة المستعار، ملازمًا لسبيل الفناء المثمر للبقاء الأبدي والحياة الأزلية السرمدية حتى تتخلص من أودية الضلال، وتصل إلى فضاء الوصال.

سورة القمر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فاتحة سورة القمر

لا يخفى على من ترقى من حضيض الإمكان، ووصل إلى ذروة وجوب الوجود، وتمكن بمقام الكشف والشهود، مجرداً عن جميع القيود المنافية لصرافة الوحدة الذاتية أن ظهور عموم الخوارق من المعجزات والكرامات، وأنواع الإرهاصات الصادرة من النفوس القدسية الواصلة إلى المبدأ الحقيقي، الفانية فيه، المضمحلة دونه، إنما هو بمقتضى الشئون الإلهية المترتبة على الأسماء والصفات الذاتية الإلهية.

ولا شك أن أفضل أرباب الوصول، وأكملهم إنما هو نبينا المتحقق بمرتبة الخلقة والخلافة - صلوات الله عليه وسلامه - ولهذا صدر بشارته ﷺ ما صدر من المعجزات، سيما انشقاق القمر ليلة البدر بعد اقتراح المنكرين عليه بالآيات، وصار انشقاقه هذا أمانة من اقتراب الساعة الموعودة، كما أخبر سبحانه عنه بعدما تيمن باسمه العظيم، فقال: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ المتجلى بالقدرة الكاملة على عموم مقدوراته ﴿الرَّحْمَنِ﴾ بجميع مخلوقاته في النشأة الأولى بإفاضة الوجود عليهم بمقتضى الجود ﴿الرَّحِيمِ﴾ لنوع الإنسان، ينقذهم من منام الغفلة، ويوصلهم إلى مقام الوحدة، ويطلعهم على قيام الساعة والطامة الكبرى التي انقهرت دونها نفوس الأغيار والسوي مطلقاً.

﴿أَفَرَأَيْتَ السَّاعَةَ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ۝١ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَعِجِرٌ ۝٢ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَعِجِرٌ ۝٣ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝٤ حِكْمَةٌ بَلِغَةٌ فَمَا تُغْنِ الْذُّرُ ۝٥ فَقَوْلَ عَنْهُمْ يَوْمَ يَذْعُ الذَّلْعُ إِلَى ثَوْبِهِمْ يُنَكِّرُ ۝٦ خُشْعًا أَبْصَرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۝٧ مُّهْطِعِينَ إِلَى الذَّلْعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَرِيرٌ ۝٨ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمٌ نُوحٍ فكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ۝٩ فَدَعَا رَبُّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْتَصِرْ ۝١٠﴾ [القمر: 1-10].

﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ﴾ ودنت القيامة الموعودة قيامها، ومن علاماتها: انشقاق القمر ﴿وَ﴾ قد ﴿انْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ [القمر: 1] بإشارة الحضرة الختمية المحمدية ﷺ، هذا وتواتر وقوعه.

﴿وَ﴾ المنكرون المصرون على الإنكار والتكذيب، المقيدون بعقال العقل الفضولي، المغلولون بأغلال الأحلام المشوبة بالخيالات والأوهام ﴿وَإِنْ يَرَوْا آيَةً﴾ معaine دالة على كمال قدرة الصانع الحكيم، والقادر العليم، يُغْرِضُوا عنها؛ لعدم مطابقتها بعباداتهم، ومقتضيات أوهامهم وخیالاتهم ﴿وَيَقُولُوا﴾ من شدة إنكارهم وعنادهم: هذا الذي صدر منه على خلاف العادة ﴿سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ [القمر: 2] في الزمان، وقوعه لا مختلق منه فقط.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿كَذَّبُوا﴾ الآية الخارقة للعادة ﴿وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ المعتادة الفاسدة، وآراءهم الباطلة الكاسدة ﴿وَ﴾ هكذا ﴿كُلُّ أَمْرٍ﴾ رسخ، تمكن في نفوسهم، سواء كان خيراً أو شراً، طاعة أو معصية، ولاية أو عداوة ﴿مُنتَقِرٌ﴾ [القمر: 3] ثابت في مكانه بعدما تقرر وتمرن، لا يتعداه أصلاً.

﴿وَ﴾ من نهاية تمكّنهم ورسوخهم في الكفر والعناد، وتمرنهم على الغي والفساد، لَقَدْ جَاءَهُمْ فِي الْقُرْآنِ الْمُرْشِدُ لَهُمْ إِلَى الْهُدَايَةِ وَالْعُرْفَانِ ﴿مِنَ الْأَنْبَاءِ﴾ والأخبار الجارية على القرون الماضية، المصرة على العتو والعناد أمثالهم ﴿مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾ [القمر: 4] أي: وعيدات هائلة موجبة للانزجار الكامل، والارتداع المبالغ لأصحاب الغيرة والاستبصار.

إذ هي كلها ﴿حِكْمَةٌ بِاللِّغَةِ﴾ نهايتها في الإحكام والإتقان، ومع ذلك ﴿فَمَا تُغْنِ التَّذَرُّ﴾ [القمر: 5] وما تفيدهم إنذاراتهم أصلاً؛ إذ هم مجبولون على الغواية المتناهية، أمثال هؤلاء الغاوين المصرين على العتو والعناد معك، وبالجملة: ﴿فَقُولْ﴾ يا أكمل الرسل، وأعرض ﴿عَنْهُمْ﴾ وعن دعوتهم وإرشادهم، وانتظر ﴿يَوْمَ يَدْعُ﴾ وينادي ﴿الدَّاعِ﴾ المنادي هو إسرافيل - ودعاؤه كناية عن نفخه في الصور للبعث أو الحشر ﴿إِلَى شَيْءٍ نُّكْرٍ﴾ [القمر: 6] فظيع فجع، تنكره النفوس؛ إذ لم يعهد مثله، وهو هول يوم القيامة المعدة للحساب والجزاء.

وبعدما سمعوا النداء الهائل، والصداء المهول ﴿خُشَعًا أَبْصَارُهُمْ﴾ أي: شاخصة ذليلة، كالتائه الهائب الهائل ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ﴾ أي: قبورهم التي هم مدفونون

فيها في عالم البرزخ، ويتحركون على الأرض ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ [القمر: 7] في الكثرة والانتشار إلى الأماكن.

فيتوجهون ﴿مُهْطِعِينَ﴾ مسرعين ﴿إِلَى الدَّاعِ﴾ المنادي، مادين أعناقهم نحوه، ومن شدة خوفهم وهولهم، ليعلموا لما يدعوهم، ومن شدة تلك الساعة، ونهاية أهوالها وفضاعتها ﴿يَقُولُ الْكَافِرُونَ﴾ في نجواهم، وهواجس نفوسهم: ﴿هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾⁽¹⁾ [القمر: 8] صعب في غاية الصعوبة والفضاعة.

ثم قال سبحانه تسليّةً لحبيبه ﷺ حين كذبه قومه، حاكياً إياه ﷺ عن أحوال الماضين تسليّةً وإزالةً لحزنه: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ﴾ أي: قبل قومك ﴿قَوْمُ نُوحٍ﴾ أي: لا تحزن يا أكمل الرسل من تكذيب هؤلاء المكذبين بك، ولا تغتم من أذياتهم؛ إذ ما هي بيدع منهم بالنسبة إليك، بل تذكر تكذيب قوم نوح ﴿فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا﴾ أي: كيف كذبوا أخاك نوحاً ﴿وَقَالُوا﴾ له حين دعوتهم إلى الإيمان: هو ﴿مَجْنُونٌ﴾ مخبط، مختل العقل والرأي ﴿وَازْدَجَرَ﴾⁽²⁾ [القمر: 9] وزجر؛ لأجل دعوته وتبليغه إياهم إلى حيث لطمه

(1) قال في عين الحياة: صعب شديد، لا قدرة لنا على دفع الداعي المسلطة علينا، ولا يسمع منا عذر ولا تنفعنا شفاعاة، والله ما ذلك اليوم إلا يوم عسر عيوس، فالسعيد من أيقظ بهذه المواعظ وأقبل على الحق وأدبر عن الباطل، وترك الهوى واشتغل بعبادة المولى، وعلم أن الخروج من الدنيا والدخول في العقبى حتى كتبه الله على اللطيفة الإنسانية وتنعمها وتاملها أبد الآباد، سبب كسب البدن المكتب الباقي في هذا البدن المجمعول الفاني من جواهر المفردات السفلية، ولطائف المفردات العلوية الحقيقة فيها وقت الإيجاد صدق لا شك فيه، كما أن الفرخ المستكن في البيضة إذا تمت مودته الفرخية كيف يُقَشَّر قشر البيضة، والمجمعول بتربية دجاجة الروح الإنسانية يطير في هوى الهوية، ويسرح في رياض الجنة القلبية، ويأكل من ثمار معرفة الربوبية، ويشرب من شراب الألوهية، وكل هذا يحصل للسالك في الدنيا بالموت الاختياري.

(2) قال في عين الحياة: يعني: ازدجر بين عشيرته القريبة؛ وهي القوى النفسية، فصار مجنوناً، وشاهدت هذا الحال في بداية أمري؛ إذ نسبني إلى الجنون والدي وعمي وجميع أقربائي وأحبائي، فلما اشتغلت بالذكر الخفي القوي ظهرت لي في الليلة الأولى شرارات نيران منورة من صدري حتى لحقت بالسما، فلما فتحت العين وأبصرتهما معاينة قلت في نفسي: إن الذين يقولونه في حقي صدق، ما هذه المعاينة للشرارات في ظلمة الليل في جوف البيت المظلم إلا من فساد جذب في الدماغ؟ والقوى المكذبة النفسية يخوفون ويمنعونني عن الذكر، والقوى الشيطانية يشككونني في مشاهدة الآية البينة وقلبي كان غير ملتفت إلى أقوالهم، مشتغلاً بالذكر حتى طلع القبح، فلما خرجت من البيت ودخلت المسجد لصلاة الجماعة ظهر فوق سجادتي

وعن يميني، وعن قبلي كواكب درية لا تحصي، فخفت عنها في الظاهر وأنست بها في الباطن، والقوى المشككة الشيطانية والقوى المكذبة النفسية أيضًا يشوشونني ويأمرونني بترك الذكر، وأنا روعان من ألسن الناس أن أقفوه بما أشهده وأعايته، وهذه المشاهدة حصلت لي أول ليلة اشتغالي بالذكر الخفي القوي، على وفق مذهب مشايخنا - قدم الله أرواحهم - وكنت قبل هذه الليلة مشتغلًا بكثرة الأوراد الماثورة، والأذكار اللسانية من أنواع التسيحات والتهليلات، والتكبيرات والتحميدات، والصلاة والسلام، وكثرة الركعات والسجودات في الصلاة، وبالمجاهدات والرياضات، على وفق ما يعجبني مما حكى من المشايخ المتقدمة، ففي هذه الآية أخذت هذا الذكر القوي الخفي بشرط النفي والإثبات من أخ لي في الدين - رحمة الله - وكان من مريدي شيخنا - أطال الله بقاءه - فلما اشتغلت بالذكر ظهرت لي هذه الحالات، وما قلت له معه لخوفي عما يقولون، فلما ظننت الإشراق وظهرت لي الكواكب الدرية، بحيث لا يحصى عددها ولا يوصف ضياؤها، قلت مع أخي شرف الدين هذه الأقوال، فاستبشر وتبسم وقال: الحمد لله الذي هداك إلى هذه المشاهدة الغيبية والآيات الأنفسية، وأنا قد سلكتنا سنة واحدة في حرم بيت الله الحرام، فبعد ذلك حصلت لنا هذه الشرارات على جبل عرفات، فأحسن الله إليك ووقفك لمشاهدة هذه الآيات في مدة قريبة، فالواجب عليك القيام بشكر الحق، والقيام بشكره هو أن تعتزل الناس وتشتغل بهذا الذكر على هذه الشريطة، فيفتح عليك باب القلب إن شاء الله تعالى، فاسترحت من القوى المكذبة والمتشككة، واشتغلت بعد ذلك بالذكر، واخترت العزلة والخلوة مستتين متابعتين حتى جلت بعد هذه المدة في خلق الأربعين الموسوية، وفتح الله بلفظ على قلبي ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وسلكت الطريق على الترتيب من العبور على قوى القلبية على وفق دعوة اللطيفة الأدمية، ثم على القوى النفسية على وقف دعوة اللطيفة النوحية، ثم على القوى القلبية على وفق اللطيفة الإبراهيمية، ثم على القوى السرية على وفق دعوة اللطيفة الموسوية، ثم على القوى الروحية على وفق دعوة اللطيفة الداودية، ثم على القوى الخفية على وفق دعوة اللطيفة العيسوية، ثم على القوة الخفية المودعة في جميع القوى على وفق دعوة اللطيفة الخفية، وهي الدعوة المحمدية، دعا الناس بها ﷺ وسمعت من جميع القوى من التكذيب والتشكيك في أمر اللطائف وإنكارهم دعوتهم وكفرهم بربهم ما لا يمكن كتابة عشر عشره في المجلدات، ومقصودي من كتابة هذه الحالة الواحدة التي تظهر في البداية للسالك، هو أن يعلم الرجل المطالع هذا الكتاب المسمى بنجم القرآن، وهو المزيل للتفسير النجمي الذي كتبه الموفق نجم الدين داية الأسدي الرازي - شكر الله سعيه - من أول القرآن إلى سورة النجم، فلما وصل إلى سورة النجم قال: يكون عجب أن يأذن الله لي في الشروع في النجم وإتمامه، فإذا وصل إلى النجم وشرع ومرض وعرح بنجمه المنير من أرض البشرية إلى سماء الربوبية وألهمنا الله تعالى إتمام تفسيره، والتفسير المكتب بخطه الشريف تسع مجلدات، وهذا المزيل مجلد واحد، ليكون معشرة كاملة خفية، ما أشار إليه النبي ﷺ بقوله: «إن للقرآن ظهراً وبعثاً...»، ويؤمن ببطنه كما آمن بظهره، ولا يشك فيما أشرنا إلى

كُلُّ مَنْ يَصِلُ إِلَيْهِ، وَرَمَاهُ بِالْحِجَارَةِ كُلِّ مَنْ يَمُرُّ عَلَيْهِ، فَصَبَرَ عَلَى أَذَاهُمْ، وَبَالَغَ فِي دَعْوَتِهِ إِيَّاهُمْ.

وبعدما بلغت الأذية غايتها ﴿فَدَعَا رَبُّهُ﴾ دعاء مؤمل ضريع فجيع: ﴿أَنِّي﴾ أي: بأنني - على قراءة الفتح - أو قال: إني بالكسر ﴿مَغْلُوبٌ﴾ غلبني قومي، ولم يقبلوا مني دعوتي وهدايتي ﴿فَاتَّصِرْ﴾ [القمر: 10] علي يا ربي، وانتقم لي منهم، وما دعا عليهم إلا بعد يأسه عن إيمانهم.

رُوي أنه يدعو كل واحد منهم جمعًا وفرادي، فيضربونه ويخنقونه حتى خر مغشيًا عليه، ثم لما أفاق قال: «اللهم اهد قومي، فإنهم لا يعلمون»⁽¹⁾.

﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ۝١١ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِّرَ ۝١٢ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ۝١٣ فَجَرَى بِأَعْيُنِنَا جَزَاءُ لِمَنْ كَانَ كُفِرَ ۝١٤ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ۝١٥ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ ۝١٦ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ۝١٧ كَذَّبَتْ ثَوْدَةَ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ ۝١٨ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ ۝١٩ تَنَزَّعُ النَّاسُ كَانْتِهِمْ أَصْحَابُ نُحُلٍ مُتَفَعِّرٍ ۝٢٠ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ ۝٢١ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ۝٢٢ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ۝٢٣ فَقَالُوا ابْشِرْنَا وَحِدًا فَتَّبِعْنَاهُ إِنَّا إِذَا لَفِيَ ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ۝٢٤ أَلَمْ يَلْقَ الْذِّكْرُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌّ ۝٢٥ سَيَعْمُونَ غَدًا مِنَ الْكَذَّابِ الْأَشِرِّ ۝٢٦ إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فَمَنَّةً لَهُمْ فَارْتَفَبَهُمْ وَاصْطَبِرْ ۝٢٧﴾ [القمر: 11-27].

وبعدما قنط، وبلغ الزجر غايته تضرع نحونا، مشتكيًا من قومه ﴿فَفَتَحْنَا﴾

تكذيب القوى للآيات الأنفسية وإنكارهم اللطائف المرسلات وآياتهم الخفية؛ لئلا يشقي عند مطالعة هذا الكتاب بإنكاره الآيات البينات التي شاهدها كاتبها مرارًا، غير معدودة من بداية اشتغاله بالسلوك إلى هذا الوقت الذي ألهم كتابة هذه الآيات ومقدار زمان اشتغاله بالذكر، هذا الذي وصفته لك، فقس بواقعي الآيات عليها؛ لأن الخير يفتنه القليل من الكثير، ولا يزيد للبليد إظهار الآيات إلا الإنكار بالتقليد.

(1) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (2/164، رقم 1447) وقال: مرسل.

لانتقامهم وهلاكهم ﴿أَبْوَابُ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ﴾ [القمر: 11] منصب، كأنه يجري من جانب السماء.

﴿وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا﴾ أي: فجّرنا عيون الأرض، وصيرناها كأنها عيوناً كلها ﴿فَالْتَقَى الْمَاءُ﴾ الحاصل من كلا الجانبين، وبلغا ﴿عَلَى أَمْرٍ﴾ حال واحد ﴿قَدْ قَدِرَ﴾ [القمر: 12] أي: قدره الله في حضرة علمه وقضائه؛ لإهلاك أولئك الطغاة البغاة.

﴿و﴾ بعدما طغى الماء، وطاف حول الأرض ﴿حَمَلْنَا﴾ أي: نوحاً ومن تبعه ﴿عَلَى﴾ سفينة ﴿ذَاتِ الْوُحُوحِ﴾ أخشاب عراض ﴿وَدُسِّرَ﴾ [القمر: 13] مسامير طوال ﴿تَجْرِي﴾ السفينة ﴿بِأَغْيِنَّاتٍ﴾ وكنف حفظنا وحضانتنا.

ولما فعلنا مع نوح وقومه ما فعلنا؛ ليكون ﴿جَزَاءً﴾ حسناً له ولمن آمن به، وسيئاً ﴿لِمَنْ كَانَ كُفِرَ﴾ [القمر: 14] بنعمة هدايته وإرشاده، ولم يؤمن بدينه، ولم يصدق في تبليغه.

﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا﴾ أي: السفينة والفعلة التي فعلناها مع المكذبين لرسلائنا، المجترئين علينا بالإنكار والكفران ﴿آيَةً﴾ دالة على قدرتنا على أنواع الإنعام والانتقام ﴿فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ﴾ [القمر: 15] يتذكر بها، ويعتبر منها.

وبالجملة: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي﴾ للمنكرين المصيرين على الإنكار والتكذيب ﴿وَنُذِرٍ﴾ [القمر: 16] أي: إنذاري وتخويفي على من يعتبر منهم، ومما جرى عليهم من العقوبات.

﴿وَلَقَدْ يَسْرْنَا الْقُرْآنَ﴾ وسهلناه ﴿لِلذِّكْرِ﴾ أي: لأنواع التذكيرات والمواعظ، والعبر والأمثال ﴿فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ﴾ [القمر: 17] يتعظ به، ويتذكر مما فيه ويعتبر.

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ﴾ كذلك هوذا ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي﴾ إياهم ﴿وَنُذِرٍ﴾ [القمر: 18] وإنذاري لمن بعدهم بما جرى عليهم.

﴿إِنَّا﴾ بمقتضى عظيم قهرنا وجلالنا ﴿أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ﴾ حين أردنا انتقامهم وإهلاكهم ﴿رِيحًا صَرْصَرًا﴾ بارداً، شديد الجري والصوت ﴿فِي يَوْمٍ نَخِيسُ﴾⁽¹⁾ شوم

(1) قال في عين الحياة: منقطع من مكانه ساقط أرض البشرية لميلانه إلى الهوى، وإشارته إلى النخل في هذا المقام كانت لحكمه؛ وهي أن النخل أفق النباتات القريبة إلى حد الحيوان، واعلم أن الأيام سبعة، فبإزاء كل مفردة سفلية وعلوية، فالسبت يوم التراب، والأحد يوم الماء، والإثنين

منحوس ﴿مُنْتَمِرٌ﴾ [القمر: 19] شؤمه ونحوسه عليهم إلى أن يستأصلوا بالمرّة.
ومن شدة جريها وحركتها ﴿تَنْزَعُ﴾ وتقلع ﴿النَّاسَ﴾ عن أماكنهم، مع أنهم دخلوا في الحفر، وتشبثوا بالأثقال ﴿كَأَنَّهُمْ أَغْجَازُ نَخْلٍ﴾ أي: أصول نخل ﴿مُنْقَعِرٍ﴾ [القمر: 20] منقلب عن مغارسه، ساقط على الأرض، موتى بلا روح.

﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي﴾ إياهم ﴿وَنُذِرِ﴾ [القمر: 21] أي: بمن بعدهم.
﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا﴾ أي: سهلنا وأنزلنا ﴿الْقُرْآنَ﴾ المعجز ﴿لِلذِّكْرِ﴾ والاعتاظ ﴿فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ﴾ [القمر: 22] متذكر، يتعظ به.

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ﴾ [القمر: 23] أي: الإنذارات الصادرة من لسان صالح عليه السلام بمقتضى الوحي والإلهام الإلهي ﴿فَقَالُوا﴾ في تعليل تكذيبهم على الرسول: ﴿أَبَشْرًا﴾ ناشئاً ﴿مِثْلَنَا﴾ أي: من جنسنا ﴿وَإِحْدًا﴾ منفردًا، لا تبع له ولا رهط ﴿تَتَّبِعُهُ﴾ نؤمن به ونقاد له، مع أنه لا مزية له علينا، لا بالحسب ولا بالنسب، والله ﴿إِنَّا﴾ إن فعلنا هكذا ﴿إِذَا لَفِيَ ضَلَالٍ﴾ عظيم، وغواية بعيدة عن مقتضى العقل والدراية ﴿وَسُغِرِ﴾ [القمر: 24] أي: كنا في جنون عظيم بمتابعة هذا المرذول المفضول.

ثم استفهموا على شدة سبيل الإنكار والاستهزاء، والاستبعاد والمرء: ﴿أَوُلْقِي

يوم الهواء، والثلاثاء يوم النار، والأربعاء يوم النور، والخميس يوم الحياة، والجمعة يوم الوجود، وبياضية جوهرية صور هذه المفردات يومها، وسوادية مادية قابلية هذه المفردات إليها، وكشف سر أيامها ولياليها بتعلق بحد القرآن، واعلم لطيفة أخرى في خصوصية كل يوم من الأيام بلطيفة من اللطائف السبع، فالسبت مختص باللطيفة القالية الأدمية، والأحد مختص باللطيفة النفسية النوحية، والإثنين مختص باللطيفة القلبية الإبراهيمية، والثلاثاء مختص باللطيفة السرية الموسوية، والأربعاء مختص باللطيفة الروحية الداودية، والخميس مختص باللطيفة الخفية العيسوية، والجمعة مختص باللطيفة الخفية المحمدية؛ ولأجل هذا استوى الرحمن على عرش الجمعة، واستوت الأيام الستة على عرش الجمعة، كما أشار إلى هذا السر في كلامه المنجيد، حيث قال: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الأعراف: 54]، واعلم أن عرش حكمته القالب الشهادي، وعرش قدرته اللطيفة القالية، وعرش إرادته اللطيفة النفسية، وعرش علمه اللطيفة القلبية، وعرش كلامه اللطيفة السرية، وعرش بصره اللطيفة الروحية، وعرش علمه اللطيفة الخفية، وعرش حياته اللطيفة الخفية التي كانت اللطائف بها قائمة.

الذِّكْرُ ﴿الوحي والكتاب من السماء﴾ ﴿عَلَيْهِ مِنْ بَيِّنَاتٍ﴾ من كمال رذالته ورداءته، والحال أن فينا من هو أحق به، وأولى منه، وبالجمله: ما هو بمقتضى حلمه إلا مجنون مخبط، مختل العقل والرأي ﴿بَلْ هُوَ كَذَابٌ﴾ متبالغ في الكذب والافتراء، غايته ﴿أَشْرُ﴾ [القمر: 25] بطر، متناه في الشرارة، يريد بافتراءه واختلافه هذا أن يتكبر علينا، ويتفوق بنا، مع كمال تناهيه في الرثاثة والرذالة، وبالجمله: ما هو إلا من كمال بطره وشرارته.

وهم يقولون في حقه ما يقولون من أمثال هذه الهذيان والمفتريات الباطلة، إلا أنهم ﴿سَيُغْلَمُونَ غَدًا﴾ حين نزول العذاب العاجل والأجل ﴿مِنَ الْكَذَابِ الْأَشْرِ﴾ [القمر: 26] البطر المباهي ببطره، حيث أعرض عن الحق، وأصر على الباطل اغترارًا، أصالح هو أم من كذبه، وأنكر عليه قوله ١٩

ثم قال سبحانه لنبيه صالح ^{عليه السلام} بعدما بالغوا في العتو والعناد، واقترحوا منه بإخراج الناقة من الصخرة تهكمًا وتعجيزًا: ﴿إِنَّا﴾ بمقتضى كمال قدرتنا وقوتنا ﴿مُرْسِلُوا النَّاقَةَ﴾ ومخرجوها من الصخرة، وباعثوها ﴿فِشْنَةً﴾ عظيمة، واختبارًا ﴿لَهُمْ﴾ وأوصاهم في شأنها ما لأوصاهم ﴿فَارْتَقِبْهُمْ﴾ يا صالح، وانتظر ماذا يفعلون بها ﴿وَاضْطَبِّزْ﴾ [القمر: 27] على أذياتهم.

﴿وَنَبِّئُهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ﴾ ٢٨ ﴿فَاتَّوَا صَاحِبَهُمْ فَطَعْنُوهُ فَقَرَعَ﴾ ٢٩ ﴿فَكَفَّ كَانَ عَذَابٍ وَنُذْرٍ﴾ ٣٠ ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيرِ الْحُمْطِ﴾ ٣١ ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ ٣٢ ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذْرِ﴾ ٣٣ ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا عَالِ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ﴾ ٣٤ ﴿نِعْمَةٌ مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ تَجْرِي مِنْ شَكْرٍ﴾ ٣٥ ﴿وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذْرِ﴾ ٣٦ ﴿وَلَقَدْ رَاودُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابٍ وَنُذْرٍ﴾ ٣٧ ﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقَرٌّ﴾ ٣٨ ﴿فَذُوقُوا عَذَابٍ وَنُذْرٍ﴾ ٣٩ ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ ٤٠ ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ نَذْرٌ أَلَمُ فَذُوقُوا الْعَذَابَ فَخَذَّاهُمْ فَأَنجَيْنَاهُمْ أَتَى الْأَمْرَ الْأَكْبَرُ﴾ ٤١ ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَلَنَنْتَقِمَنَّ مِنْهُمْ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ ٤٢ ﴿أَكْفَلُكُمْ خَيْرًا مِنْ أَوْلَئِكَ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾ ٤٣ ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ﴾ ٤٤ [القمر: 28-44].

﴿وَنَبِّئُهُمْ﴾ أخبرهم وأعلمهم بوحي منا ﴿أَنَّ الْمَاءَ﴾ الذي به معاشهم ومعاش مواشيهم ﴿قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ﴾ أي: مقسومة بين الناقة وبينهم، ومواشيهم لها يوم، ولهم يوم

﴿كُلُّ شَرِبٍ مُّخْتَصَرٍ﴾ [القمر: 28] أي: كل صاحب شرب، يحضر الماء في يومه، ولا يحضره غيره فيه.

ثم لما صاروا على هذه القسمة زمانًا، اضطروا وتضجروا ﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ﴾ قدار بن سالف، فتشاوروا معه في أمر الناقة، واضطرارهم ومواسيهم في هذه القسمة ﴿فَتَعَاطَى﴾ وأخذ سيقه قدار مغاضبًا، وكان من أجراهم على الخطوب، وأشجعهم على الوقائع ﴿فَعَقَرَ﴾ [القمر: 29] أي: قدار، الناقة.

ولم يبال بالقسمة الإلهية ﴿فَكَيْفَ كَانَ﴾ يعني: انظر كيف وقع ﴿عَذَابِي﴾ عليهم ﴿وَوَلَّيْتُ لِحَقِّ النَّذْرِ﴾ [القمر: 30] إياهم، بعدما عقروا الناقة.

وبالجملة: ﴿إِنَّا﴾ بمقتضى قهرنا وغضبنا ﴿أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ هائلة مهولة ﴿فَكَانُوا﴾ إثر سماع تلك الصيحة الهائلة ﴿كَهَشِيمِ الْمُخْتَطِرِ﴾ [القمر: 31] أي: مثل الأشجار اليابسة البالية في حظائر الأموات، تتناثر أجسامهم كالتراب.

﴿وَوَلَّيْتُ بِالْجُمْلَةِ﴾ ﴿لَقَدْ يَشْرِنَا الْقُرْآنُ﴾ المشتمل على أنواع الرشد والهداية ﴿لِلذِّكْرِ﴾ والعظة ﴿فَهَلْ مِنْ مُّذَكِّرٍ﴾ [القمر: 32] يتذكر ويهتدي بهدايته وتذكيره.

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ﴾ أيضًا أمثال أولئك المذكورين ﴿بِالنَّذْرِ﴾ [القمر: 33] أي: الإنذارات الواردة عليهم بلسان نبيهم لوط ^(١).

وبعد إصرارهم على تكذيبه وإنكاره ﴿إِنَّا﴾ من شدة قهرنا وغضبنا ﴿أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ﴾ من جانب السماء ﴿حَاصِبًا﴾ ريحًا شديدًا صرصرًا عظيمة، ترميهم بالحصباء؛ أي: الأحجار الصغار إلى أن هلكوا بالمرّة ﴿إِلَّا آلَ لُوطٍ﴾ هو لوط ^(٢) وبناته ﴿نَجَّيْنَاهُمْ﴾ من هذه الواقعة الهائلة، والكرب العظيم ﴿بِسَحْرِ﴾ [القمر: 34] وقت الصبح.

وإنما نجيناهم ﴿نِعْمَةً﴾ واصله ﴿مَنْ عِنْدَنَا﴾ إياهم، ورحمة شاملة من لدنا عليهم؛ بسبب إيمانهم وعرفانهم ﴿كَذَلِكَ﴾ أي: مثلما فعلنا مع آل لوط ﴿نَجْزِي﴾ بمقتضى جودنا عموم ﴿مَنْ شَكَرَ﴾ [القمر: 35] لنعمنا، ولم يكفر بموائد كرمنا.

﴿وَوَلَّيْتُ لِقَدْ أَنْذَرْتَهُمْ﴾ لوط ^(٣) بوحي منا إياه ﴿بَطُشْتَانَا﴾ ^(٤) وأخذنا إياهم؛

(1) قال علاء الدولة: البطشة ثلاث بطشات، مثل الطامة، والنار كبرى ووسطى وصغرى، فالبطشة

بسبب فعلتهم القبيحة، وديدنتهم الشنيعة ﴿فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ﴾ [القمر: 36] أي: كذبوه على إنذاراته ووعداته مرأً ومجادلة، واستهزاء معه وبعموم ما أوحينا إليه من الوعيدات والإنذارات.

﴿وَ﴾ من شدة مرأئهم معه، واجترأهم ﴿لَقَدْ رَاَوْدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ﴾ وترددوا حول بيته، وقصدوا فجور أضيافه، ويمموا على تفضيحهم ﴿فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ﴾ ومسحنا، وصيرناها مستوية مع وجوههم، فصاروا ممسوحى العيون.

رُوي أنهم لما دخلوا عنوة في داره، صفقهم جبريل صفقة، فأعماهم دفعة ﴿فَذُوقُوا﴾ أي: فقلنا لهم حيثئذ: ذوقوا ﴿عَذَابِي وَنُذْرِي﴾ [القمر: 37] المنذر به على لسان نبينا لوط عليه السلام.

﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ﴾ ولحق بهم ﴿بُكْرَةً﴾ قريبة من الصبح ﴿عَذَابٌ مُسْتَقَرٌّ﴾ [القمر: 38] مستمر عليهم إلى أن يستأصلهم ويسلمهم إلى النار.

﴿فَذُوقُوا عَذَابِي﴾ أي: قلنا لهم حيثئذ: ذوقوا عذابي أيها المفسدون المسرفون ﴿وَ﴾ ذوقوا ﴿نُذْرِي﴾ [القمر: 39] أي: أيها المنكرون المكذبون.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿لَقَدْ يَسْرْنَا الْقُرْآنَ﴾ المبين أنواع الوعيدان الهائلة، الجارية على أصحاب السرف والعناد ﴿لِلذِّكْرِ﴾ أي: للعبرة والعظة ﴿فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ﴾ [القمر: 40] معتبر متعظ متيقظ، يعتبر من وعيدات القرآن وإنذاراته، وما ذكر فيه من الحكايات.

ثم قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذْرُ﴾ [القمر: 41] أي: الإنذارات الواردة منا على كليما موسى المؤيد من لدنا بالمعجزات الباهرة، والآيات الظاهرة.

وبالجملة: ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ المنزل من عندنا كلها بعد اقتراحهم بها، وإلحاحهم عليها، ونسبوها إلى السحر والشعبذة، وأنواع الخرافات الباطلة، البعيدة عن شأنها

الكبرى، والطامة الكبرى، والنار الكبرى، إذا أخذت المرء فلا يمكن الخلاص منها، وأما الوسطى فيمكن بالشفاعة وبعض الأعمال الصالحة وإن كانت مغلوبة، وأما الصغرى فإذا ظهرت للسالك يزيد إيقانه ويظهر له نشاطاً في سلوك الطريقة، وتحرضه على التوجه الكلي إلى الله يشرف بالتجليات بعد هذه الحالات، والله بطشة خفية في كل لمحة، وطامة جليلة في كل بطشة، ونار مضيئة مشرقة في كل طامة، وساعة وقائمة في كل نار، وواقعة خافضة في كل ساعة لا يشاهدها إلا الأقطاب الأربعة، وهم: العالم العلوي والسفلي.

﴿كُلَّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ﴾ وانتقمنا عنهم بعدما بالغوا في العتو والعناد ﴿أَخَذَ عَزِيزٌ﴾ غالب لا يغالب مطلقا ﴿مُقْتَدِرٌ﴾ [القمر: 42] كامل في القدرة، بحيث لا يعجز عن مقدور قط، واستأصلناهم إلى حيث لم يبق منهم أحد على وجه الأرض.

ثم خاطب سبحانه كفار مكة على سبيل التوبيخ والتهديد، فقال: ﴿أَكْفَارُكُمْ﴾ يا معشر العرب ﴿خَيْرٌ﴾ وأفضل مطلقا ﴿مِّنْ أَوْلَائِكُمْ﴾ الكفار المعدودين المذكورين وجاهة وثروة، مالا ومظاهرة، مكنة ومكانة، ثم إنكم لستم أمثالهم، وهم من شدة قوتهم وشوكتهم، ما نجوا من عذاب الله، أتنجون أنتم ﴿أَمْ﴾ نزل ﴿لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾ [القمر: 43] السماوية والكتب الإلهية، إن من كفر منكم، وخرج عن مقتضى الحدود الإلهية، فهو ناج من عذاب الله، بريء عن انتقامه!

﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ من كمال حماقتهم، وركاكة رأيهم: ﴿نَحْنُ جَمِيعٌ مُّتَّصِرُونَ﴾ [القمر: 44] أي: نحن جماعة مجتمعون متفقون، أمرنا واحد، رأينا متفق، ننصر ونتنصر بعضنا ببعض، بحيث لا يغالب ولا نرام أصلاً.

﴿سَيَهْزِمُ الْجَمْعُ وَيُؤَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ ٤٥ ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذَىٰ وَآمُرُ﴾ ٤٦ ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾ ٤٧ ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾ ٤٨ ﴿إِنَّا كُلُّ شَيْءٍ خَلَقْتُهُ بِقَدْرِ﴾ ٤٩ ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَجِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ ٥٠ ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مَّذْكَرٍ﴾ ٥١ ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ﴾ ٥٢ ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌّ﴾ ٥٣ ﴿إِنَّ الْإِنْفِينَ فِي جَنَّتٍ وَنَهْرٍ﴾ ٥٤ ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ ٥٥ [القمر: 45-55].

ومن كمال بطرهم وغرورهم يقولون هذا، ولم يعلموا أنه ﴿سَيَهْزِمُ الْجَمْعُ﴾ أي: يفرق جنس الجموع على وجه الهزيمة ﴿وَيُؤَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ [القمر: 45] أي: ينصرف كل منهم عن عدوه مستدبراً إياه في الدنيا.

﴿بَلِ السَّاعَةُ﴾ الموعودة ﴿مَوْعِدُهُمْ﴾ العظيم؛ لتعذيبهم وتفضيحهم الحقيقي الأصلي، المعنوي والصوري، وما عرض عليهم في الدنيا، فمن مقدمات ما سيلحقهم من العقبي ﴿وَرٍ﴾ بالجملة: ﴿السَّاعَةُ﴾ والعذاب الموعود فيها، والساعة ﴿أَذَى﴾ أشد وأفظع، ودواهيها لا دواء لها، ولا نجاة منها ﴿وَأَمُرُ﴾ [القمر: 46] مذاقاً من عذاب الدنيا، بل بأضعافه وآلافه.

وبالجملة: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ﴾ المتصفين بالجرائم المستلزمة للخروج عن الحدود الإلهية، وعن مقتضى الأوامر والنواهي المنزلة من عنده ﴿فِي ضَلَالٍ﴾ عن الحق وأهله في العاجل ﴿وَسُغْرٍ﴾ [القمر: 47] نيران مسعرة لهم، معدة لهم في الآجل.

اذكر لهم يا أكمل الرسل ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ﴾ ويجرون ﴿فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ﴾ صاغرين مهانين، فيقال لهم حيثئذ: ﴿ذُوقُوا﴾ أيها المسرفون المفسدون ﴿مَسْ سَقَرٍ﴾ [القمر: 48] أي: مساس جهنم، وشدة حرها وحرقتها، بدل ما يتنعمون في دار الدنيا بلذاتها الشهية، وشهواتها البهية البهيمية.

وكيف لا ندخل المجرمين في دار القطيعة، ولا نسحبهم نحوها مهانين، فإنهم قد خرجوا عن مقتضى تدابيرنا وأوضاعنا الناشئة منا على مقتضى الحكمة المتقنة البالغة المعتدلة؟ ﴿إِنَّا﴾ بمقتضى كمال علمنا، وشمول قدرتنا وإرادتنا المقتضية للحكم والمصالح، خلقنا وأظهرنا ﴿كُلَّ شَيْءٍ خَلْقْنَاهُ﴾ وأظهرناه من كتم العدو مقرونًا ﴿بِقَدَرٍ﴾ [القمر: 49] أي: بمقدار نقدره في حضرة علمنا، ولوح قضائنا، وترتب على المقدار المقدر وجود المقدور المخلوق، فنظهره على وفقه.

﴿وَرَبِّ﴾ تستبعدوا من حيطة حضرة علمنا، وقدرتنا الكاملة، تفاصيل عموم المظاهر والمخلوقات، وترتب وجوداتها على مقاديرها المقدرة لها في لوح قضائنا؛ إذ ﴿مَا أَمَرْنَا﴾ وحكمنا الصادر المبرم منا في السرعة والمضاء، بالنسبة إلى عموم الكوائن والفواسد الواقعة في عموم الأزمنة والآناء، بل بالنسبة إلى جميع الخواطر والخواطف الواردة على القلوب، وإلى جميع الاختلافات الواقعة في حركات العروق الضواريب في هياكل الهويات، بل بالنسبة إلى ما في الاستعدادات والقابليات ﴿إِلَّا﴾ فعلة ﴿وَاحِدَةٍ﴾ بلا ترتب وتراخ، وتوقف ومهلة ﴿كَلَّمَاحٍ بِالنَّصْرِ﴾ [القمر: 50] أي: كنظرة سريعة بالطرف، هيئات هيئات، والله ما هذا التمثيل لسرعة نفوذ القضاء الإلهي إلا بحسب أحلام الأنام، وبمقتضى أفهامهم وأوهامهم السخيفة، وإلا فلا يكتفه سرعة قضائه أصلاً، حتى يمثل ويشبه.

ثم قال سبحانه على سبيل الوعيد والتهديد: وكيف لا تخافون أيها المسرفون المفرطون عن شدة بطشنا وانتقامنا ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا﴾ واستأصلنا ﴿أَشْيَاعَكُمْ﴾ أشباهكم وأمثالكم في الكفر والعناد، وأنواع الفسوق والفساد، بأصناف العقوبات والبليات الهائلة ﴿فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ﴾ [القمر: 51] متذكر، يتعظ بإهلاكهم وهلاكهم، وبما جرى

عليهم من الشدائد؟

﴿و﴾ كما عذبناهم بجرائمهم وآثامهم في النشأة الأولى كذلك، بل بأضعافها وآلافها، نعذبهم في النشأة الأخرى أيضاً بها؛ إذ ﴿كُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ﴾ فيما مضى، وصدر عنهم في النشأة الأولى محفوظ مثبت ﴿فِي الزُّبُرِ﴾ [القمر: 52] أي: في مكاتب الحفظة المراقبين عليهم في عموم أحوالهم وأطوارهم.

﴿و﴾ كيف لا يحفظ؛ إذ ﴿كُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ﴾ وقليل وكثير على التفصيل ﴿مُسْتَظَرٌّ﴾ [القمر: 53] مسطور على التفصيل في اللوح المحفوظ أولاً، وفي صحائف أعمالهم ثانياً، وبالجمل: لا يعزب عن حيطه علمه شيء من أعمالهم وأقوالهم، وأطوارهم وأحوالهم مطلقاً. ثم عقب سبحانه وعيد المجرمين بوعد المؤمنين، فقال: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ﴾ المتحفظين نفوسهم عن المحرمات والمنهيات، متنعمون ﴿فِي جَنَّاتٍ﴾ متزهات العلم والعين والحق ﴿وَنَهْرٍ﴾ [القمر: 54] جداول جاريات، منشآت من بحر الحياة الدنية المتجددة حسب تجددات دار التجليات الإلهية، متمكنون ﴿فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ﴾ هو مقام التسليم والرضا بمقتضيات القضاء ﴿عِنْدَ مَلِكٍ﴾ يملكهم ويتكفل بأمورهم، وجميع حوائجهم ﴿مُقْتَدِرٍ﴾⁽¹⁾ [القمر: 55] على تدابيرها بمقتضى

(1) قال علاء الدولة: يعني: موضع الحكمة عند القدرة وفيه أسرار رحمته، أشرح لك نبذة نستفيد منها ما يهز به عطف إرادتك لطلب، اعلم أن مفاتيح الغيب، ومقعد الصدق، وأم الكتاب عنده في عالم الجبروت، وهي مظاهر جبروتية لصفات لاهوتية؛ وهي: الحياة، والسمع، والبصر، والكلام، والعلم، والقدرة، والإرادة، والحكمة، وجواهر الملائكة الأربع، والعناصر الأربعة في الملكوت، مظاهر لمظاهر الصفات الجبروتية، وقال الإنسان المنفوخ فيه الروح مظهر لمظاهر الصفات الملكوتية؛ التي هي مظهر لمظاهر الصفات الجبروتية؛ التي مظاهر الصفات اللاهوتية، وقال الإنسان ناسوتي، وبه يتم أمر الحكمة وهو أنت، فانظر إلى نفسك لترى آيات أفعال الحق، وادخل في نفسك تشاهد آيات صفات الحق، وأصقل مرآة نفسك لتشرف بمشاهدة جمال الحق، وارحم لنفسك بنفسك في نفسك ولا تضع قدمك خارجاً من حرم نفسك؛ لأنها بيت الحرام وكعبة الأمان ودار السلام، وفيها الجنة والرضوان والروح والريحان؛ لثلاث تفضل في بادية الجريان بالخيبة والخسران، فالعالم بأسره ملكه وملكوته، وغيبته وشهادته، وأنفسه وآفاقه إنسان صغير، والإنسان عالم كبير، فالويل لمن ترك الكبير للصغير، وحقير من يقنع بالقليل من الكثير، اللهم ارفع همتنا بطلب الملك القدير، ووفقنا لمتابعة حبيبك المنير، البشير النذير للخير والشر به ﷺ، وعلى آله وصحبه أجمعين، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

الحكمة المتقنة.

جعلنا الله من زمرة المتقين، المتمكنين في مقعد الصدق عند المليك المقتدر،
العليم الحكيم.

خاتمة السورة

عليك أيها المرید القاصد للتمكن في مقعد الصدق، والمتحقق في مرتبة اليقين
الحقي - وفقك الله الوصول إلى غاية مقصدك ومرامك - أن تنقي نفسك عن مطلق
المحظورات والمنهيات، المنافية لسلوك طريق الحق والتوحيد من الرياء والرعونات،
المنتشئة من ظلمات الطبيعة والهيولي المتفرعة على التعينات العدمية، المستلزمة
للكثرة الوهمية المنافية لصرافة الوحدة الذاتية الإلهية، وتلازم العزلة والفرار عن الدنيا
الدنيئة وأمانيتها مطلقاً، وتقنع منها بضرورياتها المقومة لهيكل هويتك الظاهرة لمصلحة
المعرفة والتوحيد، حتى يتيسر لك الوقوف بين يدي ملك مقتدر، موحد في الوجود
والقيومية.

ثبتنا بلطفك على نهج اليقين والتمكين، وجنبنا بجودك عن أمارات التخمين
والتلوين، يا ذا القوة المتين.

سورة الرحمن

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فاتحة سورة الرحمن

لا يخفى على من تحقق بفسحة قلب الإنسان المصور على وسعة عرش الرحمن أن حكمة خلق الإنسان على فطرة المعرفة والإيمان، وتعلم القرآن عليه، إنما هو للتيان والبرهان على ثبوت خلافته ونيابته للحق، وتنبيهه برفعة درجة علو شأنه ومكانته بين عموم الأكوان الكائنات.

لذلك قال سبحانه في مقام الإنعام والامتنان عليه تنبيهاً له وتعليماً بعدما تيمن باسمه الأعز الأعلى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ الذي ظهر على قلب الإنسان؛ لينكشف له ذاته سبحانه، وكمال أسمائه وصفاته ﴿الرَّحْمَنُ﴾ عليه بترجمان اللسان والبيان المعرب عما في قلبه؛ ليرشد غيره بما هو عنده، ويسترشد منه ﴿الرَّحِيمُ﴾ المنزل عليه القرآن المبين له طريق توحيد الحق وعرفانه.

﴿الرَّحْمَنُ ۝١ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝٢ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ۝٣ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ۝٤ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝٥ وَالتَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝٦ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ۝٩ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَارِ ۝١٠ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ ۝١١ وَلِلْحَبِّ ذُو الْعَصْفِ ۝١٢ وَالرَّيْحَانُ ۝١٣ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٤ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ ۝١٥ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ۝١٦ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٧﴾ [الرحمن: 1-16].

﴿الرَّحْمَنُ﴾ [الرحمن: 1] أي: الذات المحيطة بعموم الأعيان بالرحمة العامة الواسعة، ويمقتضى سعة رحمته، ووفور لطفه ورافته.

﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ [الرحمن: 2] لنوع الإنسان، ونزل على خاصة خلقه، ليكون

مبيناً لهم سبيل الكشف والعيان، ونهج التوحيد والعرفان.

مع أنه لما ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ﴾ [الرحمن: 3] سبحانه؛ لأجل هذا الشأن البديع البرهان، ولهذه الحكمة والمصلحة أيضاً بعينه.

﴿عَلَّمَ الْبَيَانَ﴾ [الرحمن: 4] أي: التنطق والتكلم بلغات شتى، وعبارات لا تُحصى؛ ليستفيد من منظومات الألفاظ ما هو معناها، ويتفطن منها إلى ما هو مغزاها ومرماها، وغاية قصواها، ألا وهي المعارف والحقائق، والحكم والأسرار الإلهية المودعة المكنونة في مطاوي حروف المصاحف، والكلمات الحاصلة من مقاطع الأصوات المتكونة من لوازم الحياة الحقيقية المترتبة على النفسات الرحمانية، والنفثات اللاهوتية الثابتة للوجود المطلق حسب تجليات الذات الإلهية، وعلى مقتضى الأسماء والصفات الذاتية الكامنة فيها، المتجلية عليها بمقتضى الشئون والكمالات الغير المتكررة إلى ما لا يتناهى أزلاً وأبداً؛ ليظهر للإنسان سر الظهور والبطون، والغيب والشهادة الواردة على الوحدة الذاتية الإلهية.

ولهذه المصلحة أيضاً ظهر في العلويات ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾⁽¹⁾ [الرحمن: 5] أي: يعجريان ويدوران بحساب مقدر من عنده سبحانه، معلوم في حضرة علمه؛ ليكونا دليلين شاهدين على ظهور مرتبتي النبوة والولاية المقتبسة من مشكاة النبوة، المتفرعة على العدالة الذاتية الإلهية.

﴿وَ﴾ أيضاً أظهر في السفليات لتلك المصلحة العلية ﴿النَّجْمُ﴾ أي: النبات الذي لا ساق له ﴿وَالشَّجَرُ﴾ وهو الذي له ساق ﴿يَسْجُدَانِ﴾ [الرحمن: 6] يخضعان ويتذللان له سبحانه دائماً من كمال الإطاعة والانقياد.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿السَّمَاءُ﴾ أي: عالم الأسباب والأقدار ﴿رَفَعَهَا﴾ في أعلى

(1) قال علاء الدولة: يعني: شمس النبوة وقمر الولاية على فلك وجود الإنسان، يدور بالحساب في الدائرة الأزلية والأبدية على قطب نقطة نون الرحمن، ولا يكشف هذا السر حتى يفهم قوسيته صورة في البياض والسواد، وإيصال دائرة الأزل إلى الأبد عند نزعة بواسطة وتروا، والولاية القائمة بألف الاسم الأعظم، وسر سين السهم الأسمى الذي لأجله ظهر قوس النون، ووتر الواو، وألف الاسم؛ وهو آخر حروف القوس وبه تتصل دائرة الأزل بالأبد، وبه يتم التدبير وحكمه الرجوع وحصول الصيد المقصود من إيجاد وجود كل موجود، والشروع في تحقيقه يلزم الشروع في بيان حد القرآن مما لست مأذوناً في إفشائه.

المكان والمكانة ﴿وَوَضَعَ﴾ فيها ﴿الْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: 7] المعتدل المنبئ عن القسطاس المستقيم الإلهي الواقع بين الأسماء والصفات الذاتية، وعين المقادير والآجال المقدرة لجربها، ورتبها على دورها وانقلاباتها الواقعة فيها على وفق الحكمة المترتبة على العدالة الإلهية.

وإنما رتبها على مقتضى الحكمة والعدالة ﴿أَلَّا تَطْغَوْا﴾ أي: لئلا تعتدوا وتتجاوزوا أيها المجبولون لمصلحة التكليف والعرفان، على مقتضى الوحي الإلهي المترتب على الحكمة البالغة المتقنة في الأرض ﴿فِي الْمِيزَانِ﴾ [الرحمن: 8] الموضوع بمقتضاها، ألا وهي الشرع الشريف.

﴿وَوَ﴾ بعدما سمعتم حال العلويات والسفليات، وما فيهما من الموازين المعتدلة الموضوع بالوضع الإلهي ﴿أَقِيمُوا﴾ أيها المكلفون فيما بينكم ﴿الْوِزْنَ﴾ واعتدلوه ﴿بِالْقِسْطِ﴾ والإنصاف ﴿وَلَا تُخْسِرُوا﴾ ولا تنقصوا ﴿الْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: 9] إذ هو موضوع على العدل السوي.

﴿وَوَ﴾ اعلموا أن ﴿الْأَرْضَ﴾ إنما ﴿وَضَعَهَا﴾ ومهدا سبحانه ﴿لِلْأَنَامِ﴾ [الرحمن: 10] ليعتدلوا عليها، ويستقيموا عموم أخلاقهم وأطوارهم فيها، حتى يستعدوا لأن يفيض عليهم طلائع سلطان الكشف والشهود، فيفوزوا بمقر التوحيد، ويتمكنوا في مقعد الصدق والتفريد.

لذلك أعد لهم سبحانه تفضلاً عليهم وتكريماً: ﴿فِيهَا فَاكِهَةٌ﴾ كثيرة يتفكهون بها، من أنواع الفواكه تقويماً لأمزجتهم، وتقوية لها ﴿وَوَ﴾ لا سيما ﴿النَّخْلُ﴾ التي هي ﴿ذَاتُ الْأَكْمَامِ﴾ [الرحمن: 11] والأوعية المشتملة على التفكه والتقوت لسائر الأغراض الحاصلة منها.

﴿وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ﴾ «والحب» أي: وكذا أعد لهم فيها جنس الحبوب التي يتقوت بها نوع الإنسان منها «ذو العصف»: ذا العصف؛ أي: التين والقشور؛ إذ هو محفوظ فيها، مربى معها إلى أن يستوي وينضج، فيتقوت بحبه الإنسان، وبعصفه المواشي ﴿وَوَ﴾ كذا ظهر لهم فيها بمقتضى جوده ﴿الرِّيحَانُ﴾ [الرحمن: 12] أي: جنس الرياحين المشمومة المقوية لدماغ الإنسان، المصفية له عن الروائح الخبيثة، والنفحات الكريهة.

ثم لما أعد سبحانه نبذاً من نعمه الشاملة على عموم الأنام، خاطب المكلفين

منهم على سبيل الامتنان، وهم الثقلان المجبولان على فطرة التوحيد، واستعداد الإيمان والعرفان، فقال: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا﴾ ونعماء موجدكما ومربيكما ﴿تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: 13] أيها المغموران في نعمه، المستغرقان في بحار جوده وكرمه.

وكيف يسع لكما الكفران لنعم الله، والطغيان عليه سبحانه، مع أنه ﴿وَخَلَقَ الْإِنْسَانَ﴾ المصور بصورة الرحمن، وقد خلقه ﴿مِنْ صَلْصَالٍ﴾ أي: طين يابس له صلصلة وصوت ﴿كَالْفَخَّارِ﴾ [الرحمن: 14] أي: الخزف المتخذ من التراب، الموقد بالنار، ومع دناءة منشئه ومادته، رفعه إلى حيث جعله خليفة للحق، نابتا عنه، ومرآة مجلوة قابلة لفيضان كمالات أسمائه وصفاته.

﴿وَخَلَقَ الْجَانَّ﴾ أي: الجن، وقدر وجودهم ﴿مِنْ مَّارِجٍ﴾ من دخان صاف حاصل ﴿مِنْ نَّارٍ﴾ [الرحمن: 15] موقدة ملتهبة مشتعلة على وجه الحركة والاضطراب، ومع رداءة مادتها وكثافتها، جعله شبيها بالملا الأعلى، متصفا بها في كمال اللطافة والصفاء إلى حيث لا يرى أشباحهم كالملائكة.

وإذ كان شأن الحق معكما هكذا ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: 16] وتكران أيها الثقلان.

﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾ (١٧) ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (١٨) ﴿مَرْجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾ (١٩) ﴿يَنْتَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ﴾ (٢٠) ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (٢١) ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَاتُ﴾ (٢٢) ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (٢٣) ﴿وَلَهُ الْبُورِ الْمُسْتَسْقَاتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾ (٢٤) ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (٢٥) ﴿كُلٌّ مِنْ عَالِيهَا قَانٍ﴾ (٢٦) ﴿وَبَيْنَ يَدَيْهِ رَبِّكَ ذُورُ اللَّيْلِ وَالْإِكْرَامِ﴾ (٢٧) ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (٢٨) ﴿يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ (٢٩) ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (٣٠) ﴿سَنَفِخُ لَكُمْ فِيهِ السَّيْلَانَ﴾ (٣١) ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (٣٢) ﴿يَنْفَعُ الْبَشَرَ وَالْإِنْسَانَ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفَعُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفَعُوا لَا تَنْفَعُوكُمْ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ (٣٣) ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (٣٤) ﴿يُرْسِلُ عَلَيْكُمْ شَوَاطِدَ مِنْ نَارٍ وَخُمُوشًا فَلَا تُنصِرُونَ﴾ (٣٥) ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (٣٦) ﴿إِذَا أَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾ (٣٧) ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (٣٨) ﴿فَيَوْمَذِي نُسْأَلُ عَنْ

ذِيْهِمْ إِيْمَانٌ وَلَآجَنَانٌ ﴿٣٦﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٧﴾ [الرحمن: 17-40].

وكيف يليق بشأنه سبحانه الإنكار والتكذيب، مع أنه سبحانه ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ﴾ أي: مشرقَي الظهور والبروز من عالم العماء واللاهوت إلى فضاء الأوصاف والأسماء المسمى: بالغيب والأعيان الثابتة، ثم منها إلى عالم الشهادة في السير الهابط ﴿وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾ [الرحمن: 17] أي: مغربي الخفاء والبطون عن عالم الناسوت إلى برزخ الأعيان الثابتة، ثم عنها إلى عالم اللاهوت في السير الصاعد؛ إذ يتوالد دائماً على شمس الحقيقية الحقية الذاتية، باعتبار تجلياتها حسب أسمائها وصفاتها، شروق وأفول، وطروق طلوع وغروب؟

وبالجملة: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: 18] أيها المظهران الكاملان المجبولان على فطرة الشعور والعرفان.

ومن أنى يتأتى التكذيب في شأنه سبحانه؛ إذ هو بمقتضى قدرته ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ﴾ أي: أرسل وأطلق بحر الوجود والعدم إلى حيث ﴿يَلْتَقِيَانِ﴾ [الرحمن: 19] أي: يتمازجان ويختلطان، بحيث لا يتمايزان عند المحجوب الفاقد عن الكشف والشهود؟

ويبقى ﴿بَيْنَهُمَا﴾ عناية منه سبحانه ﴿بَرْزَخُ﴾ هو الإنسان الكامل المنكشف بكيفية انبساط بحر الوجود العذب على بحر العدم الفالح، وامتداده عليه وانطباق سطوحهما، بحيث لا يتمايزان عند المحجوب الفاقد عين العبرة، وبصر البصيرة، وجعل سبحانه برزخ الإنسان الكامل على مقتضى الحكمة المعتدلة، بحيث ﴿لَا يَبْغِيَانِ﴾ [الرحمن: 20] أي: لا يبغى ويغلب كل من يجري الوجود والعدم على صاحبه في مرتبته ونشأته، حتى يطل حكمة الظهور والبطون، والجلاء والخفاء، والإلوهية والعبودية، وسائر المتقابلات المترتبة على الشئون الإلهية المتفرعة على الأسماء الذاتية.

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: 21] أيها المكلفان الاعتباران.

وكيف لا تعبران، ولا تشكران نعمه، مع أنه ﴿يَخْرُجُ﴾ حسب عنايته الأزلية ﴿مِنْهُمَا﴾ أي: من البحرين المذكورين ﴿اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: 22] أي: يخرج لكما أيها الثقلان المجبولان على فطرة الإيمان، من امتزاج البحرين المذكورين، لآلئ المعارف والحقائق، ومرجان الشهود والإيقان؟

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: 23] أيها الممنونان المغموران، المستغرقان في موائد كرمه.

﴿وَلَهُ﴾ سبحانه تفضلاً على عباده، وامتناناً لهم ﴿الْجَوَارِ﴾ أي: سفن الملل والأديان المنزلة من عنده سبحانه على عموم الرسل والأنبياء؛ ليرشدوا بها أممهم إلى طريق التوحيد والعرفان ﴿الْمُنْشَأَتِ﴾ المصنوعات المستحدثات ﴿فِي الْبَحْرِ﴾ أي: بحر الوجود ﴿كَالْأَغْلَامِ﴾ [الرحمن: 24] أي: كالرواسي العظام التي يعلم ويشار بها للتائهين في ببداء الوجود، الضالين في صحراء الجحود، إلى جادة اليقين والعيان.

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: 25] أيها المكلفان.

وبالجملة: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا﴾ أي: على أرض القوابل والهيولى من التعينات المستتعبة لأنواع الإضافات، الحاصلة من تموجات بحر الوجود وتجلياته بمقتضى الكرم والجود، إنما هو ﴿فَإِنْ﴾ [الرحمن: 26] لا وجود، ولا تحقق لها في ذواتها أصلاً، سوى أنها انبسط عليها أظلال الأسماء والصفات الإلهية.

﴿وَوُ﴾ بعد فناء نقوش الأمواج والأظلال بأسرها ﴿وَيَتَّقَى وَجْهَ رَبِّكَ﴾ يا أكمل الرسل بمقتضى صرافة وحدته، مستغنياً في ذاته عن عموم مظاهره ومخلوقاته؛ إذ هو سبحانه ﴿ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾⁽¹⁾ [الرحمن: 27] لا يشارك في وجوده، ولا ينازع في سلطانه، فمآل الكل إليه، كما أن مبدأه منه، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد.

وإذ كان شأنه سبحانه هذا ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: 28] أيها الأظلال الهلكى.

وبالجملة: ﴿يَسْأَلُهُ﴾ ويستمد منه في كل زمان وآن، ويستظل تحت ظل جود وجوده كل ﴿مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ من فواعل المظاهر وقوابلها؛ إذ ﴿كُلُّ يَوْمٍ﴾

(1) قال علاء الدولة: يعني: صاحب تجلي الجمال والجلال؛ يعني: بتجلي الجلال الصوب الكثيفة، ويبقى بتجلي الجمال المعاني المكتسبة اللطيفة من الصورة الكثيفة، والفرق بين الهلاك والفناء بين فناء نور القمر عند حجاب الأرض له عن أخذ النور من الشمس وهلاك أنوار الكواكب عند طلوع الشمس، وأبين لك فرق أظهر من هذا في صورة النبات، إذا وضعت في قدح فيه ماء يفني تركيب الصورة النباتية القائمة ثلاثة قوائم، ويهلك معنى حلاوة في الماء؛ لغلبة الماء عليه، وفي الهلاك والفناء أسرار سوى هذا يتعلق بعضها بحد القرآن وبعضها بمطلع القرآن.

وَأَن ﴿هُوَ﴾ سبحانه ﴿فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: 29] لا يسبقه شأن، ولا يلحقه شأن مثله، فكل من المظاهر الإلهية في كل آن وطرفة في خلق صورة، ولبس أخرى حسب شئون الحق، وسرعة نفوذ قضائه.

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: 30] أيها المجبولان على فطرة الدراية والشعور.

ثم لما عدَّ سبحانه على عموم المكلفين نبذاً من نعمه العظام، على سبيل التنبيه والامتنان، أراد أن يشير إليه، ويبينه عليهم بالقيام على أداء حقوقها، ومواظبة شكرها؛ لئلا يغفلوا من الله، ولا يستحيوا عند الحساب في يوم الحشر والجزاء، فقال: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ﴾ نتجرد ونخلو لحسابكم، وتنقيد أعمالكم وجزائكم على مقتضاها ﴿أَيُّهَا الثَّقَلَانِ﴾ المثقلان بشكر نعمنا، وأداء حقوق كرمنا، ومتى سألناكما عن أعمالكما.

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: 32] وتكران، مع أنا ما خفي علينا شيء من أعمالكم مطلقاً، لا من كفرانكم وعصيانكم، ولا من شكركم وإيمانكم.

ثم قال سبحانه منادياً لهم على وجه التوعيد والتوبيخ والتهديد: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾ المجبولين على فطرة التكليف بمقتضى الحكمة البالغة، عليكم أن تنقادوا وتطيعوا بعموم ما كلفتم به، المثمر لحكمة المعرفة واليقين، إلا ﴿إِنِ اسْتَفْطَيْتُمُ﴾ وقدرتهم ﴿أَن تَنْفُذُوا﴾ وتخرجوا فارين عن مقتضيات قهرنا وغضبنا ﴿مِّنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: من جهة العلويات والسفليات ﴿فَإَنْفُذُوا﴾ واخرجوا، مع أنكم ﴿لَا تَنْفُذُونَ﴾ ولا تقدرُونَ على الخروج ﴿إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ [الرحمن: 33] أي: بقدرة واقتدار موهوبة لكم من قبل ربكم؛ إذ لا يصدر منكم مطلق الأفعال والحركات إلا بإقداره وتمكينه سبحانه.

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: 34].

وكيف تنفذون وتفرون من حيلة قدرته وجلاله؛ إذ ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا﴾ في النشأة الأخرى جزاء لأعمالكما ﴿شَوَاطِئُ﴾ لهب مشتعل ﴿مِّنْ نَّارٍ﴾ موقدة مسعرة ﴿وَنُحَاسٍ﴾ أي: دخان مظلم حاصل منها، وبالجمل: ﴿فَلَا تَنْصِرَانِ﴾ [الرحمن: 35] ولا تمتنعان عنهما، ولا تدفعانهما بحولكما إلا بعناية ناشئة من الله، وفضل يدرّكم من لدنه⁽¹⁾.

(1) قال علاء الدولة: يعني: يرسل عليكما أيتها القوتان شواط من نار علوية، وهو لهب النار الأخضر

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: 36] وعليكم أن تشكروا آلاء الله، وتواظبوا على أداء حقوق نعمائه قبل حلول يوم الجزاء وبعده يوم الحشر. ﴿فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ﴾ واندكت الأرض من خشية الله، ورهبة ﴿فَكَانَتْ﴾ السماء من كمال غضب الله ﴿وَرُزْدَةً﴾ حمراء مذابة ﴿كَالْدِهَانِ﴾ [الرحمن: 37] أي: تذوب كالدهن المذاب من شدة الخشية الإلهية، فلا يمكنكم حيثذ التدارك والتلافي. ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: 38] حيث يخبركم بالتهيئة والتدارك قبل حلول الساعة.

بل ﴿فَيَوْمَئِذٍ﴾ أي: حين انشقاق السماء ﴿لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌ﴾ [الرحمن: 39] أي: لا يسأل حيثذ لا عن ذنب الإنس ولا على عن ذنب الجان، ولا يلتفت إلى أعمالهما وأفعالهما، بل يبعثون من قبورهم، ويساقون نحو المحشر حيارى تائهين للحساب والجزاء، فاعتنى سبحانه بشأنكم، ونبهكم على إعداد الزاد قبل يوم المعاد.

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: 40] وكيف لا تعنادون، ولا تتزودون ليومكم هذا؟

﴿يَعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسْمِهِمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَصِي وَالْأَقْدَامِ﴾ ⑪ ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ⑫

واستعداد النحاسية من العناصر السفلية، فلا يمتنعان صاحبهما عن العذاب إن يشأ عذابهما. وفي هذا أسرار رحمة أشير إلى بعضها لك يظن له الخير، اعلم أن الله تعالى خلق قلب إنسان مستعداً مثل النحاس المستعد للتربية والتصعيد إلى حد يطرح عليه الكيمياء ويقلبه عيناً روحانياً، وخلق فيه من نار القوة الفاعلية قوة إذا زكى النحاس من الظلمة المنطبعة فيه من أركان الأرضيات، وطهر النار من لهب الهوى، وقيل صاحب التزكية والتطهير كثير الإيمان وطرح على نحاس القلب واشتغل فيه النار المطهرة عن لهب الهوى، فجعل قلبية الظلماني نورانياً، وبصير نحاسية الجسماني عيناً باقياً روحانياً، وإن لم ترك النحاس من ظلمات الطبيعة ولم تظهر النار نورانياً من لهب الهوى، تذيب النار التي هي ذات لهب هوالية نحاس استعداد القوة المكبرة الجسمانية في جحيم قلبه التي عمرها في دار الكسب، وتغلبه أبد الآباد تارة بالإذابة والإحراق في جحيم اغتراره بنور النار، وتارة بإدخاله النحاس المذاب في زمهرير إنكاره، ليحمد ويصلح للإذابة تارة أخرى في دار القرار، لإعراضه عن طاعة الملك الواحد القهار.

هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ فِيهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ۚ ﴿٤٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾ وَلَمَن خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَاطِنُهَا مِن إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَصِيرَاتُ الْغُرُفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَانَتْهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّاتٍ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَامَتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ [الرحمن: 41-65].

إِذْ ﴿يُعْرِفُ﴾ وَيَعْلَمُ يَوْمَئِذٍ ﴿الْمُجْرِمُونَ﴾ الْمَهْمَلُونَ لِأَمْرِ الزَادِ، الْمُتَصِفُونَ بِالْجَرَائِمِ الْمُسْتَلْزِمَةِ لِلْإِنْتِقَامِ ﴿بِسَيِّئَاتِهِمْ﴾ إِذْ يَظْهَرُ حَيْثُذُ آثَارِ الْكَآبَةِ وَالْحُزْنِ عَلَى وَجُوهِهِمْ ﴿فَيُؤْخَذُ﴾ بَعْدَ الْخُطَابِ وَالْحِسَابِ ﴿بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ﴾ [الرحمن: 41] أَي: يَشُدُّ أَعْنَاقَهُمْ مَعَ أَرْجُلِهِمْ بِالسَّلَاسِلِ، ثُمَّ يَطْرَحُونَ فِي النَّارِ بِأَنْوَاعِ الْهَوَانِ وَالصَّغَارِ، فَيُخَبِّرُكُمْ رَبُّكُمْ بِالْخُلَاصِ عَنْهَا قَبْلَ حُلُولِ أَوَانِهَا، ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: 42].

فَيَقَالُ لَهُمْ حِينَ إِقْدَامِهِمْ إِلَيْهَا مُشْدُودِينَ مَهَانِينَ، زَجْرًا لَهُمْ وَتَوْبِيخًا: ﴿هَذِهِ﴾ النَّارُ الَّتِي تَصِلُونَ فِيهَا ﴿جَهَنَّمُ﴾ الْمَوْعُودَةُ الْمَعْدَةُ ﴿الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ [الرحمن: 43] وَقَدْ إِخْبَارُ اللَّهِ إِيَّاهُمْ عَلَى السَّنَةِ رَسَلَهُ وَكُتِبَهُ.

فَالآنَ ﴿يَطُوفُونَ﴾ وَيَتَرَدَّدُونَ ﴿بَيْنَهَا﴾ أَي: بَيْنَ النَّارِ ﴿وَبَيْنَ حَمِيمٍ﴾ مَاءٌ حَارٌّ ﴿أَنْ﴾ [الرحمن: 44] مُتَنَاءٌ فِي الْحَرَارَةِ إِلَى حَيْثُ يَغْلِبُ إِحْرَاقُهُ وَحَرَارَتُهُ عَلَى النَّارِ الْمُسْعِرَةِ، فَأَرَادَ سُبْحَانَهُ إِنْقَازَكُمْ مِنْهَا بِإِرْسَالِ الرُّسُلِ وَإِنْزَالِ الْكُتُبِ.

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: 45] أَيُّهَا الْمَجْبُولَانِ عَلَى الْكُفْرَانِ وَالنَّسْيَانِ.

ثُمَّ قَالَ سُبْحَانَهُ عَلَى مُقْتَضَى سُنَّتِهِ الْمُسْتَمِرَّةِ فِي كِتَابِهِ مِنْ تَعْقِيبِ الْوَعِيدِ بِالْوَعْدِ:

﴿وَلَمَنْ خَافَ﴾ من كلا الفريقين؛ أي: من مكلفي الجن والإنس في النشأة الأولى ﴿مَقَامَ رَبِّهِ﴾ أي: خاف عن قيامه بين يدي ربه في النشأة الأخرى للعرض والجزاء، واشتغل في هذه النشأة إعداد ذلك اليوم، وتهيئة أسبابه من اكتساب الحسنات وترك السيئات من الأخلاق والاعتقادات، وصوالح العبادات والطاعات المقبولة يومئذ عند الله على مقتضى ما أمرهم الحق، ونهاهم عنه بإرسال الرسل وإنزال الكتب ﴿جَنَّاتٍ﴾ [الرحمن: 46] معدتان لكل خائف عند ربه جنة جسمانية، يتلذذ فيها بدل ما ترك من اللذات الدنيوية وشهواتها الفانية اتقاء عن الله، وجنة روحانية عناية من الله وفضلاً من «ما لا عين رأت ولا أذن سمعت... الحديث»⁽¹⁾.

وبالجملة: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: 47] أيها المكلفان!

والجنتان المذكورتان ﴿ذَوَاتَا أَفْنَانٍ﴾ [الرحمن: 48] أنواع وأصناف من الأشجار المثمرة بالأثمار البهية والفواكه الشهية، وأنواع من المعارف والحقائق المثمرة للحالات العلية والمقامات السنية، ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: 49].

﴿فِيهِمَا﴾ أي: في تلك الجنتين ﴿غَيَّاتٍ﴾ متشستان من بحر الحياة الإلهي، المتفرعتان على أسمائه وأوصافه الجمالية والجلالية ﴿تَجْرِيَانِ﴾ [الرحمن: 50] بين يدي الخائف الملتجئ إلى الله على مقتضى التجليات الحية، ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: 51].

﴿فِيهِمَا﴾ أي: في تلك الجنتين ﴿مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ رَّوْجَانٍ﴾ [الرحمن: 52] صنفان من المعارف والحقائق على مقتضى تربية العيان المذكورتان، ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: 53] أيها المسخران تحت لطفه وقهره وجلاله وجماله.

ثم إنهم يتنعمون بما ذكر من النعم العظام حال كونهم ﴿مُتَكَبِّرِينَ﴾ متمكنين راسخين ﴿عَلَى فُرُشٍ﴾ من الاعتقادات الراسخة ﴿بَطَائِنُهَا﴾ أي: وجوها التي تلي قلوبهم وأرواحهم ﴿مِنْ إِنْشِرَاقِ﴾ وهو الغيظ الصلب من الديباج، بحيث لا تخلل فيه.

(1) رواه الطبراني (122/6، رقم 5706)، وابن أبي شيبة (30/7، رقم 33973)، وأحمد (334/5)، رقم 22877، ومسلم (2175/4، رقم 2825)، والحاكم (448/2، رقم 3549)، وقال: صحيح الإسناد.

ولا فرج، ألا وهو المثال لليقين الحقي الذي لا يطرأ عليه التردد والتذبذب مطلقاً.
﴿و﴾ بالجملة: ﴿جَنَى الْجَنَّتَيْنِ﴾ أي: التلذذ والتنعم بشمارهما ﴿دَانِ﴾ [الرحمن: 54] قريب؛ إذ لا ترقب ولا انتظار في اليقين الحقي، بل أقرب إلى العارف منه بعدما وصل إليه، ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: 55].

﴿فِيهِنَّ﴾ أي: في الجنان المعدة لأرباب العناية والامتنان، مخدرات المعارف والحقائق الواردة على قلوبهم حسب استعداداتهم المتفاوتة ﴿قَاصِرَاتُ الطُّرْفِ﴾ أي: كل منهن منحصرة الطرف، مقصورة النظر على كل من هي ترد عليه؛ بحيث لا تتعدى إلى غيره؛ لاختلاف قابلياتهم حسب الفطرة الأصلية بمقتضى اختلاف تجليات الحق وشئونه بحيث ﴿لَمْ يَطْمِئْنُوا﴾ ولم يتلذذ معهم ﴿إِنْسَ قَبْلَهُمْ﴾ ولا بعدهم ﴿وَلَا جَانُ﴾⁽¹⁾ [الرحمن: 56] كذلك؛ إذ مراتب الشهود على مقتضى تجليات الوجود وتطوراته، فكما لا تكرر ولا اتحاد بين اثنين في التجليات الإلهية، كذلك في مراتب أرباب الشهود القابلة لها، المستعدة إياها، ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: 57].

﴿كَأَنَّهُنَّ﴾ من كمال الصفاء الشفاء والجلاء ﴿الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: 58] المسرتان لأرباب النظر والعيان، ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: 59].
وبالجملة: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ﴾ في الأعمال والأخلاق، وعموم الشيم والأحوال ﴿إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ [الرحمن: 60] من الله، والرضوان منه سبحانه على سبيل التفضل والامتنان، ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: 61].

(1) قال في التأويلات: يعني: هل جزاء من يقول: لا إله إلا الله من صدق القلب إلى الجنة المضافة إلى الرب، والجنان التي فيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين هي صور الأعمال الحسنة، فاجتهدوا في تطهير مجاري ذكركم الكريم، وفي نفي الخواطر عند اشتغالكم بالذكر لتدخلوا جناتكم، وتجالسوا رضوانكم، وتشاهدوا رحمانكم، وتعرفوا إنسانكم، وتطلعوا على سر ما قال نبيكم ﷺ: «أن الله تعالى خلق الإنسان على صورة الرحمن»، ومن قرأ سورة الرحمن وعرفها حق المعرفة أطلع على كمال معرفة ﷻ، وإشاراته اللطيفة المدرجة في كلماته الشريفة، وعلم أنه صدوق فيما قال: «أوتيت بجوامع الكلام» اللهم ثبتنا على متابعتة، وعرفنا إشاراته، ولا تحرمنا من بركاته، ووقفنا للصلاة عليه، وأشركنا في تحياته وصلاته بحقه ﷻ، وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم يفرق بين المسيء والمحسن، يسوق المسيء على جهنم بسوط سيئاته، ويسوق المحسن إلى الجنة بسوط حسناته.

وهاتان الجنتان المذكورتان مع ما فيهما من المقامات العلية والدرجات السنية للخائفين من الله، ومن سطوة قهره وجلاله في عموم أحوالهم وأطوارهم، المفوضين المتوكلين عليه سبحانه عموم أمورهم في مطلق شئونهم وتقليداتهم، الراجين منه رضاه عنهم بمقتضى لطفه وجماله ﴿وَمِنْ دُونِهِمَا﴾ أي: من دون الجنتين المذكورتين، وأدون منهما وأنزل رتبة ﴿جَنَّاتٍ﴾ [الرحمن: 62] أخريان أيضًا للابرار المحسنين بالأخلاق والعمال المتشبهين بأذيال الأماني والآمال حيث الحوائج والأغراض، ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: 63].

فهاتان الجنتان، وإن لم تكونا كتلك الجنتين المذكورتين في الأثمار والأشجار والمعارف والأسرار، إلا أنهما ﴿مُذَاهِمَتَانِ﴾ [الرحمن: 64] خضراوان نضارتان بمياه الأعمال الصالحة، والأخلاق الحميدة الصادرة من الأبرار الأخيار، المتمسكين بشعائر الشرع ومعالم الدين المستبين، ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: 65].

﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾ ٦٦ ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ٦٧ ﴿فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ ٦٨ ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ٦٩ ﴿فِيهِنَّ خَيْرٌ مِّنْ حِسَانٍ﴾ ٧٠ ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ٧١ ﴿حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْبُيُوتِ﴾ ٧٢ ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ٧٣ ﴿لَمْ يَطْمِئِنَّ إِلَهُنَّ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَا جُنَّ﴾ ٧٤ ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ٧٥ ﴿مُتَكَبِّرِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضِرَ وَعَبَقَرِي حِسَانٍ﴾ ٧٦ ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ٧٧ ﴿تَبَرَّكْتَ ذِي الْمَلَكُوتِ وَالْإِكْرَامِ﴾ ٧٨ [الرحمن: 66-78].

﴿فِيهِمَا﴾ أي: في جنتي الأبرار ﴿عَيْنَانِ﴾ متشتتان من الاعتقاد الصادق، والإيمان الكامل ﴿نَضَّاخَتَانِ﴾ [الرحمن: 66] فوارتان، متهيتان إلى بحر الحكمة المتقنة الإلهية، ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: 67].

﴿فِيهِمَا﴾ أيضًا ﴿فَاكِهَةٌ﴾ يتفكه بها أهلها ﴿وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ [الرحمن: 68] عطفهما على الفاكهة عطف الخاص على العام للاعتناء والاهتمام، ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: 69].

﴿فِيهِنَّ﴾ أي: في جنات هؤلاء الأبرار أيضًا ﴿خَيْرَاتٌ﴾ أزواج مصورة من مشوبات الأعمال والطاعات ﴿حِسَانٌ﴾ [الرحمن: 70] لا قبح معهن بوجه من الوجوه، ﴿فَبِأَيِّ

آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿الرحمن: 71﴾.

ومثوبات أعمال الأبرار وأخلاقهم، وما يترتب عليها، وإن لم تكن في الصفاء واللطافة كمخدرات الخائفين إلا أنهم ﴿خُورٌ﴾ حسنة الوجوه ﴿مُقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ﴾ [الرحمن: 72] أي: مقصور كل منهن على من أتى بالأعمال الصالحة والأخلاق المرضية، لا يتعدى إلى الغير؛ إذ كل نفس رهينة ما كسبت خيراً كان أو شراً.

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: 73] أيها المكلفان الممنونان، وهؤلاء أيضاً ﴿لَمْ يَطْمِئْهُمْ نَارُ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾ [الرحمن: 74] إذ كل منهن، إنما هي مقصورة على أعمال كل منهم بلا شركة.

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: 75] أيها الاعتباران المستبصران.

ثم إنهم أيضاً يتنعمون بما ذكر لهم من النعم ﴿مُتَكَيِّئِينَ﴾ متقررين ﴿عَلَى زَفْرٍ﴾ وسائل وبسط ﴿خُضْرٍ﴾ مخضرة بماء إيمانهم الخالص، واعتقادهم الحق ﴿وَعَنْقَرِي﴾ عجيب معجب، يتعجبون من ترتبها على أعمالهم وحسناتهم ﴿حَسَانٍ﴾ [الرحمن: 76] لا يتبعها قبح وخذلان، ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: 77].

فعليك يا أكمل الرسل ألا تستبعد عن الله القادر، المقتدر على وجوه الإنعام والانتقام أمثال هذه الكرامات العلية على أرباب العناية والغفران، وتلك الدركات الهوية على أصحاب الغفلة والكفران.

إذ ﴿تَبَارَكَ﴾ أي: جلّ وتعظم وتعالى ﴿أَسْمُ رَبِّكَ﴾ أي: عموم أسماء مربيك الذي رباك يا أكمل الرسل محيطاً لعموم المراتب والمقامات عن أن ينتهي أو يتصف بالانتهاء والانقضاء، أو يغتر ويضعف دون مقدور، بل لا نهاية لأسمائه الفعالة ومقتضياتها ﴿ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: 78] أي: ذي العظمة والكبرياء، الغالب على عموم الانتقام، وذو الجمال القادر المقتدر على وجوه الإكرام والإنعام.

خاتمة السورة

عليك أيها العارف المتحقق بعظمة الحق وجلاله، المتعطر بزالال وصاله ألا تعزم في مطلق أحوالك إلى الكذب والإنكار بالنسبة إلى الله، ولا تنسب الحوادث الجارية في عموم الأقطار والأطوار إلا إلى الملك الجبار العزيز الغفار، ذي العظمة

وكمال الاقتدار لأصناف الإنعام والإفضال، وأنواع العذاب والنكال.

فلك أن تلتزم على شكر نعمه، وأداء حقوق كرمه في عموم الأحوال، وإياك إياك الغفلة عن الله، والاشتغال إلى ما سواه.

وكن في عموم أوقاتك وحالاتك بين يدي الله بين الخوف والرجاء، ولا تيأس من روح الله، أنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الخاسرون.

جعلنا الله من زمرة الخائفين من بطشه، الراجين من عفوه بمئه ويجوده.

سورة الواقعة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فاتحة سورة الواقعة

لا يخفى على أرباب التحقيق والوصول إلى المبدأ الحقيقي من المنكشفين بوحدة الحق الحقيقي بالحقية والتحقيق أن مراتب عموم العباد في الرجوع نحو المبدأ والمعاد على أنحاء مختلفة وطرق شتى لا تخلو عن ثلاثة:

* بعضهم محجوبون بالحجب الظلمانية الإمكانية المعبرة عنها، وإن كانوا بالدنيا مغمورون مستغرقون بلذاتها وشهواتها، محرومون عن لذة الوصول والحضور مطلقاً، وهم أصحاب الشمال والشأمة الأزلية الأبدية.

* وبعضهم محجوبون بالحجب النورانية المسماة بالآخرة، وما فيها من أنواع النعم وأصناف الكرم من اللذات الروحانية والجسمانية الموعودة لهم فيها تفضلاً وتكريماً، وهم أصحاب اليمين ذو اليمن والبركة والكرامة السرمدية والسعادة الأزلية الأبدية.

* وبعضهم منجذبون عن الحق بالكلية، منخلعون عن جلباب هوياتهم الناسوتية مطلقاً، فانون في الهوية الحقية اللاهوتية، باقون ببقائه، مستغرقون بمطالعة لقائه، وهم الشطار السابقون إلى الله، السائرون نحوه، المنخلعون عن جلباب ناسوتهم بالمرّة بلا التفات منهم أصلاً باللذات الدنيوية ولا بالأخروية .

والى هذه الفرق الثلاث أشار سبحانه في هذه السورة، وأخبر بها حبيبه ﷺ؛ ليكون على ذكر منهم، ويبلغها على من تبعه من أهل المعرفة والإيمان إرشاداً لهم وتنبيهاً.

ثم لما كان امتياز هذه الفرق إنما هو في يوم القيامة والطامة الكبرى، أشار سبحانه أولاً إلى تحقق وقوعها بعدما تيمن باسمه الكريم:

﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ القادر المقتدر على إبداء عموم ما بدأ في النشأة الأولى ﴿الرَّحْمَنُ﴾ بإظهاره من كتم العدم فيها برش أنواره، ومد أظلاله ﴿الرَّحِيمُ﴾ بإعادته

في النشأة الأخرى بقبض أظلال أسمائه وصفاته نحو ذاته.

﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۝١ لَيْسَ لَوْعِظِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢ خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ ۝٣ إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا ۝٤ وَسُتِّ الْجِبَالُ بَسًا ۝٥ فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا ۝٦ وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ۝٧ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ۝٨ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمِ ۝٩ وَالسَّيِّقُونَ السَّيِّقُونَ ۝١٠ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ۝١١ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ۝١٢ ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ ۝١٣ وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ ۝١٤ عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ ۝١٥ مُتَكِبِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ ۝١٦ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ ۝١٧﴾ [الواقعة: 1-17].

اذكر يا أكمل الرسل للمعتبرين من المكلفين وقت: ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ [الواقعة: 1] العظمى الموعودة، وحديث الطامة الكبرى المعهودة من لدنه سبحانه، مع أنه ﴿لَيْسَ لَوْعِظِهَا﴾ حين وقوعها نفس ﴿كَاذِبَةٌ﴾^(١) [الواقعة: 2] تكذبها، كما تكذب بها الآن.

وليس أيضًا لوقوعها حين وقوعها نفس ﴿خَافِضَةٌ﴾ تخفضها بالتردد فيها ولا نفس ﴿رَافِعَةٌ﴾ [الواقعة: 3] ترفعهم بالجزم بها، بل وقعت حين وقعت حتمًا بلا ريب.

(١) قال في التأويلات: بل هي صادقة؛ لأن الشيطان يفر من ظل الواقعة، ولا تقدر النفس أن تشكل صاحب الواقعة أصلاً؛ لأنها أظهر من أن يمكن للنفس والشيطان أن يلبسا حالها على السالك، وعندني أنها حالة حقيقة؛ وهي النقطة الحقيقية، والذي تشاهده في عالم الشهادة بالنسبة إليها حالة النوم، وفي الحقيقة كل ما يشاهده في العالم الخيالي لا حقيقة له؛ ولأجل هذا قال النبي ﷺ: «الناس نيام، فإذا ماتوا انتبهوا»، فكن أيها النائم في نومك على حذر من حقائق الحيات والعقارب المنبسة بصور أفلاكك لكن تنبه فتشكر الله على أنك خلصت من النوم، ولا تتنعم بصورها المزينة المزخرفة الدنيوية، لكن تنبه بحزنك الانتباه لما رأيت الصور المزينة المنبسة في النوم، ولا بد من الانتباه من مشاهدة حقائق الصور المكتسبة بالأخلاق والصفات، فاجتهد في أن تجد بصرك وتكشف غطائك في اليوم لتشاهد حقائق الصور؛ لثلاث تلتفت إلى الصور المزخرفة، وتشاهد وراء الصور حقائق المعاني العقرية والنارية، والحطمة في صورة مزينة بالشهوات؛ ليتيقن بها أطفال الطبيعة وجهال قوى القالية والنفسية، ويعاين في الصور الهائلة المزخرفة الدنيوية حقائق الحورية والخلدية والنعيم الباقية، لكن يتنبه بشكر الله على خلاصك من الصور الهائلة، ووصولك إلى حقائقها وتنعمك بها أبد الأبد؛ ولأجل هذا قال النبي ﷺ: «إن الجنة حفت بالمكاره، والنار حفت بالشهوات».

وتردد، وبلا خفض أحد ورفع آخر.

اذكر يا أكمل الرسل لمن أنكر وقوعها، وتردد فيها نبذا من أماراتها وأشراتها
وقت: ﴿إِذَا رُجَّتِ﴾ وحركت ﴿الْأَرْضُ رَجًا﴾ [الواقعة: 4] تحريكًا شديدًا عنيفًا بحيث
انهدمت ما عليها من الأبنية المحكمة والبقاع المشيدة.

﴿وَيُسَّتِ الْجِبَالُ﴾ أي: تشتت وتفتت أجزاءها ﴿بَسًا﴾ [الواقعة: 5] تفتتًا تامًا
وتشتتًا كاملاً بحيث اضمحلّت أجزاءها، وتلاشت وصارت كالسويق الملتوت.

وبالجملة: ﴿فَكَانَتْ﴾ الجبال التي عليها ﴿هَبَاءً﴾ هشيماً غباراً ﴿مُتْبَثًّا﴾ [الواقعة:
6] متثرًا منتشرًا متفرقًا، بحيث تلاشت هويات ما عليها مطلقًا.

﴿وَكُتِّمَ﴾ حيثئذ أيها المكلفون المعتبرون ﴿أَزْوَاجًا﴾ وأصنافاً ﴿ثَلَاثَةً﴾ [الواقعة:
7] حسب معاشكم في النشأة الأولى.

﴿فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ أي: الثمن والكرامة من الأخيار الأبرار المحسنين بصوالح
الأعمال والأحوال ومحامد الأخلاق والأطوار ﴿مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ [الواقعة: 8] أي:
ما أعظم شأنهم وإكرامهم، وأحسن حالهم بيمينهم وسعادتهم الشاملة لهم حسب
اتصافهم بصالحات الأعمال، وبالاعتقادات الصحيحة والأخلاق المرضية.

﴿وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾ والشمال؛ أي: ملازمو الشامة والملامة، وأنواع الندامة
والخذلان، من المفسدين المسرفين، المصيرين على أنواع الكفر والفسوق وأصناف
العصيان والآثام من مفسد العقائد، ومقابع الشيم والأخلاق ﴿مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾
[الواقعة: 9] أي: ما أقبح حالهم وأشد عذابهم، ونكالهم وشامتهم وشقاوتهم المستمرة
عليهم بشؤم مكاسبهم ومفاسدهم.

﴿وَالسَّابِقُونَ﴾ المبادرون نحو الحق من طريق الفناء، الباذلون مهجهم في سبيله
إلى الدرجات الإرادية شوقاً إلى لقائه هم ﴿السَّابِقُونَ﴾ [الواقعة: 10] المقصرون على
النسق والحضور مع الله بلا توجه منهم إلى لوازم هوياتهم الباطلة وهياكلهم العاطلة.

﴿أُولَئِكَ﴾ المقبولون هم ﴿الْمُقَرَّبُونَ﴾ [الواقعة: 11] عند الله المتنعمون ﴿فِي
جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ [الواقعة: 12] أي: متزهات الوحدة الذاتية التي هي اليقين العلمي
والعيني والحقي.

وهؤلاء المقربون الواصلون إلى مقر الوحدة متفاوتون في القلة والكثرة،

والدرجات العلية والمقدمات السنية بالنسبة إلى مسالكهم ومعارجهم لذلك ﴿ثَلَاثَةٌ﴾ أي: جماعة عظيمة ﴿مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾ [الواقعة: 13] أي: من الأمم السالفة، وهم الأبرار الذين تقربوا نحو الحق بتوحيد الصفات والأفعال.

﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ﴾ [الواقعة: 14] أي: جمع قليل بالنسبة إلى الأولين من أمة محمد ﷺ، وهم الذين وصلوا بل اتصلوا إلى الله سبحانه من طريق توحيد الذات، المسقط لعموم الإضافات والكثرات، وهؤلاء أعزك، وأقل وجودًا بالنسبة؛ أي: الأمم السالفة، لذلك وصفوا بالقلة، وبالجمله: كلهم على تفاوت طبقاتهم في منزلات الوحدة متعمون متمكنون: ﴿عَلَى سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ﴾ [الواقعة: 15] منسوجة مشبكة حسب درجاتهم العلية ومقاماتهم السنية.

﴿مُتَكَبِّرِينَ عَلَيْهَا﴾ أعلى تلك السرر ﴿مُتَقَابِلِينَ﴾ [الواقعة: 16] مع عموم كمالاتهم ومقاماتهم وحالاتهم بلا ترقب منهم وانتظار لهم، ومع ذلك ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾ للمؤانسة ﴿وَلَذَانِ﴾ صباح ملاح مصورون من حسنات أعمالهم وأخلاقهم ﴿مُخَلَّدُونَ﴾ [الواقعة: 17] دائمون مستمرين على تلك الصور الصبيحة المليحة، لا يتغيرون، ولا يتحولون منها أصلاً كتغير ملاح الدنيا.

﴿يَا كُتَّابَ وَابَارِيقَ وَكُلِّ مِّن مَّعِينٍ﴾ ١٨ لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْفَوْنَ ١٩ وَفَكَهَفَ مِمَّا يَخْتَفُونَ ٢٠ وَلَحِيرَ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَبُونَ ٢١ وَخُورُ عَيْنٍ ٢٢ كَأَمْثَلِ الذُّرَى الْمَكُونِ ٢٣ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ٢٤ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْهِمًا ٢٥ إِلَّا قِيلًا مَلَكًا مَلَكًا ٢٦ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ٢٧ فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ٢٨ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ٢٩ وَظِلِّ مَمْدُودٍ ٣٠ وَمَلَوَّ مَسْكُودٍ ٣١ وَفَكَهَفَ كَثِيرٌ ٣٢ لَا مَقْطُوعَ وَلَا مَمْنُوعَ ٣٣ وَفَرَشَ مَرْفُوعَ ٣٤ إِنَّا أَنشَأْنَهُمْ إِنشَاءً ٣٥ جَعَلْنَهُمْ أَتَكَارًا ٣٦ عُرَا أَتْرَابًا ٣٧ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ ٣٨ ثَلَاثَةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ٣٩ وَثَلَاثَةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ٤٠ وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ٤١ فِي مَمْنُونٍ وَحَمِيمٍ ٤٢ وَظِلِّ مِّنْ يَحْشُرُ ٤٣ لَا بَارِدٌ وَلَا كَرِيمٌ ٤٤ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ ٤٥ وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى لَعْنَةِ الْعَلِيمِ ٤٦ وَكَانُوا يَقُولُونَ ٤٧ إِنَّا لَنَرَاهُمْ فِي عِلِّيِّينَ ٤٨ أَوَلَمْ يَأْتُوا الْآوَّلِينَ ٤٩ قُلْ لَّيْسَ

الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿١٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٠﴾ [الواقعة: 18-50].

﴿بِأَنْوَابٍ﴾ يعني: يطوفون عليهم بكؤوس، وهي التي لا عرى لها ﴿وَأَبَارِيقَ﴾ وهي التي لها عرى مملوء من الماء القراح، المثمر للعلوم الدنية لشاربيها ﴿وَكَأْسٍ مِّنْ مَّعِينٍ﴾ [الواقعة: 18] أي: من رحيق التحقيق واليقين الذي ﴿لَا يُضَدُّعُونَ عَنْهَا﴾ ولا يشوشون في تحصيلها كالعلوم المكتسبة ﴿وَلَا يُثْرِفُونَ﴾ [الواقعة: 19] ولا يسكرون منها، إلى حيث ينقطع تلذذهم بها من غاية سكرهم.

﴿وَفَاكِهَةٍ﴾ كثيرة ﴿مِّمَّا يَتَخَيَّزُونَ﴾ [الواقعة: 20] أي: يختارون وينتخبون لأنفسهم من أنواع المعارف والحقائق والأحوال والمقامات التي تتلذذ بها أرواحهم من آثار الأسماء والصفات الإلهية.

﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ﴾ يتقوت به أشباحهم ﴿مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ [الواقعة: 21].

﴿وَوَ﴾ لهم أيضاً للخدمة والمؤانسة ﴿خُورٍ عَيْنٍ﴾ [الواقعة: 22] مصورة من اعتقاداتهم الصحيحة الراسخة.

﴿كَأَمْثَالِ اللَّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ﴾ [الواقعة: 23] المصون في أصداف أشباحهم.

وإنما يعطون فيها ما يعطون ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الواقعة: 24] من العمال الصالحة والأخلاق المرضية.

ومن كمال تنعمهم فيها وأمنهم وترفهم ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا﴾ باطلاً من الكلام بلا طائل ﴿وَلَا تَأْثِيمًا﴾ [الواقعة: 25] على سبيل الإلزام والإفحام.

﴿إِلَّا قِيلًا﴾ وقولاً من كل جانب ﴿سَلَامًا سَلَامًا﴾ [الواقعة: 26] على وجه الترحيب والإكرام، هذا للمقربين السابقين.

﴿وَوَ﴾ أما ﴿أَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾ ما أصحاب اليمين [الواقعة: 27] أي أصحاب اليمن والكرامة وأنواع التعظيم والتكريم.

فهم أيضاً متنعمون ﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ﴾ [الواقعة: 28] أي: نبق لا شوك له؛ لخلوص أعمالهم وحسناتهم عن شوك المن والأذى، والسمعة والرياء.

﴿وَطَلْحٍ مَُّنْضُودٍ﴾ [الواقعة: 29] أي: شجر موز منضد موفور الثمر، مرتب من أسفله إلى أعلاه؛ لإيفائهم وتوفيرهم في كسب الحسنات وفعل الخيرات.

﴿وَوَظِلَّ مَّنْذُودٍ﴾ [الواقعة: 30] إلهي لا يتقلص ولا يتفاوت؛ لدوامهم على مواظبة الطاعات، وملازمة العبادات.

﴿وَمَاءٍ مِّنْكَوْبٍ﴾ [الواقعة: 31] مصبوب لهم أين شاءوا، وكيف شاءوا، بلا تعب وترقب؛ لأنهم صاروا في إتيان الأعمال كذلك؛ طلباً لمرضاته.

﴿وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ﴾ [الواقعة: 32] مما يتفكه بها أرواحهم وأشباحهم ﴿لَّا مَقْطُوعَةٍ﴾ منتهية كفواكه الدنيا.

﴿وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ [الواقعة: 33] لتساوي نسبتها إلى الكل بلا تفاوت وتمايز؛ لإتيانهم بصوالح الأعمال والأخلاق على الدوام، بلا قطع ومنع.

﴿وَفُزْشٍ مَّرْفُوعَةٍ﴾ [الواقعة: 34] ممهدة منضدة بعضها فوق بعض؛ لرسوخهم وتمكنهم على الأحكام الإلهية المرتفعة بحسب الحكم والأسرار المودعة فيها.

ثم قال سبحانه على سبيل الامتتان: ﴿إِنَّا﴾ من مقام عظم جودنا إليهم ﴿أَنشَأْنَاهُنَّ﴾ أي: أنشأنا لهم أزواجهن اللاتي كن في حجورهم في النشأة الأولى من صالحات النسوان والأعمال والأخلاق ﴿إِنشَاءً﴾ [الواقعة: 35] بديعاً عجيباً.

﴿فَجَعَلْنَاهُنَّ﴾ فيها ﴿أَبْكَارًا﴾ [الواقعة: 36] بحيث لم يمسهن بشر، ولم يتصف بهن أحد.

﴿عُزْبًا﴾ متحنات لأزواجهن ﴿أَثْرَابًا﴾ [الواقعة: 37] مساويات السن مع أزواجهن في كمال سن الشباب.

كل ذلك ﴿لأَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ [الواقعة: 38] من الأبرار المحسنين بالأعمال والأخلاق، المخلصين فيها.

ومن هؤلاء في الجنات: ﴿ثَلَاثَةٌ﴾ جماعة عظيمة ﴿مِّنَ الْأَوَّلِينَ﴾ [الواقعة: 39] أي: الأمم الماضين.

﴿وَتِلْكَ﴾ عظيمة أيضاً ﴿مِّنَ الْآخِرِينَ﴾ [الواقعة: 40] أي: من أمة سيد المرسلين؛ إذ طرق الأعمال والأخلاق مشتركة بين الأولين والآخرين، بخلاف طرق الأحوال والمواجيد والمشارب والأذواق.

﴿وَأَمَّا﴾ ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ﴾ والشامة المتصفون بالشقاوة الأزلية، المنهمكون بالقاذورات الإمكانية ﴿مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ﴾ [الواقعة: 41] وما حالهم القبيحة القضيحة

هم مخلدون ﴿فِي سُمُومٍ﴾ نار حارة مسعرة في غاية الحرقه والحرارة، بحيث تنفذ في مسامات أشباحهم كالريح السموم؛ لنفوذ لوازم الإمكان النافذة من مسامات أصحاب الغفلة والضلال، المنهمكين في اللذات والشهوات البهيمية الموهمة الموقعة لأنواع الفتن والطغيان ﴿وَحَمِيمٍ﴾ [الواقعة: 42] أي: ماء متناه في الحرارة بحيث يقطع أمعاءهم، لو شربوا منه شربة بدل ما تلذذوا في النشأة الأولى بمقتضيات الأمانى النفسانية والآمال الهيولانية الحاصلة من الجهل المفرط بسرائر التوحيد واليقين في النشأة الأولى.

﴿وَوَظِلٍّ مِّنْ يَحْمُومٍ﴾ [الواقعة: 43] حاصل من دخان أسود صاعد من نار الجحيم.

﴿لَّا بَارِدٍ﴾ كسائر الأظلال ﴿وَلَا كَرِيمٍ﴾ [الواقعة: 44] نافع أمثالها. وبالجملة: ﴿إِنَّهُمْ﴾ من شدة سكرتهم وغفلتهم ﴿كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ﴾ في النشأة الأولى ﴿مُتْرَفِينَ﴾ [الواقعة: 45] منهمكين في الضلال والشهوات. ﴿وَكَانُوا﴾ حينئذ ﴿يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: 46] والذنب الكبير الذي هو الشرك بالله والإنكار لتوحيده.

﴿وَهُ﴾ من شدة إنكارهم بمقتضيات الوحي الإلهي المتعلق بقيام الساعة ووقوع الطامة الكبرى ﴿كَانُوا يَقُولُونَ﴾ فيما بينهم على وجه الاستبعاد والاستنكار: ﴿أَيْنَذَا مِثْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا﴾ بالية ﴿أَيْنَا﴾ بعد ذلك ﴿لَمَنْبُغُوثُونَ﴾ [الواقعة: 47] مخرجون من قبورنا أحياء كما كنا.

﴿أَوْ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ﴾ [الواقعة: 48] الأقدمون يخرجون من قبورهم، مع أن بعثهم وإخراجهم أشد استحالة وامتناعاً من بعثنا!

كلا وحاشا! إذ لم يعهد فيما مضى من الأزمنة أمثال هذا، بل ما هي إلا زيغ زائل، وزور باطل.

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل بعدما بالغوا في الإنكار والعناد: ﴿إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ﴾ [الواقعة: 49] أي: الأسلاف والأخلاف ﴿لَمَجْمُوعُونَ﴾ مجتمعون بكمال قدرة الله وحكمته ﴿إِلَى مِيقَاتٍ يَوْمَ مَعْلُومٍ﴾ [الواقعة: 50] أي: إلى وقت معين، ويوم موعود معهود، عينه الله سبحانه في حضرة علمه ولوح قضائه، لا بد وأن يقع في ذلك الوقت

ألبته، بلا خلف.

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَتَيْتُمُ الضَّالِّينَ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٥١﴾ لَا يَكُونُ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زُقُومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَا لَوْ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَرِبُوا مِنْهُ مِنْ لَحْمِهِ ﴿٥٤﴾ فَشَرِبُوا شُرْبَ الْحِمِيمِ ﴿٥٥﴾ هَذَا نُزْلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ ﴿٥٦﴾ نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَى أَنْ يُبَدَّلَ امْتِلَاكُمْ وَتُنْشَأَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطًا مِمَّا فَطَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُعْرِضُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مُحَرِّضُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ﴿٧١﴾ أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذَكُّرًا وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ﴿فَلَا أَقْسَمُ بِمَوْقِعِ النُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾ [الواقعة: 51 - 76].

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ﴾ بعد اجتماعكم وحشركم ﴿أَتَيْتُمُ الضَّالِّينَ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [الواقعة: 51]

المصرون على التكذيب والإنكار.

﴿لَا يَكُونُ﴾ من شدة جوعكم في جهنم البعد والخذلان بعد خلودكم فيها ﴿مِنْ شَجَرٍ مِنْ زُقُومٍ﴾ [الواقعة: 52] أي: شجر مسمى بهذا الاسم، فيكون لفظة «من» الثانية للبيان، والأولى للابتداء.

﴿فَمَا لَوْ مِنْهَا الْبُطُونَ﴾ أي: من تلك الشجرة ﴿الْبُطُونَ﴾ [الواقعة: 53] أي: بطونكم،

مع أنه لا يدفع الجوع بل يزيده، وبعد أكلكم منها ملء بطونكم.

﴿فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ﴾ أي: على الزقوم ﴿مِنْ الْحَمِيمِ﴾ [الواقعة: 54] لشدة الحرارة

وغلبة العطش، وبالجمل: ﴿فَشَارِبُونَ﴾ من الحميم ﴿شُرْبَ الْهِيمِ﴾ [الواقعة: 55] مثل

شرب الإبل، الذي له داء الهيام، وهو مرض في الإبل شبيه باستسقاء الإنسان.

﴿هَذَا﴾ الذي سمعت أيها الفطن المعتبر ﴿نُزْلُهُمْ﴾ المعدة لهم حين نزولهم في

جهنم ﴿يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الواقعة: 56] والجزاء.

وإذا كان نزلهم فيها هذا، فما ظنك بعذابهم فيها، وزجرهم بعد حساب أعمالهم.
ثم خاطبهم سبحانه إظهارًا للاستيلاء التام والبسطة الغالبة الكاملة توبيخًا لهم
وتقريعًا فقال: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ﴾ وأظهرناكم من كتم العدم بمقتضى حولنا وقوتنا
﴿فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾ [الواقعة: 57] بقدرتنا على الإعادة والبعث أيها الجاهلون
المكابرون.

﴿أَفَرَأَيْتُمْ﴾ أخبروني أيها المنكرون للبعث والجزاء أن ﴿مَّا تُمْنُونَ﴾ [الواقعة: 58]
وتصبون في الأرحام من النطف؟.

﴿أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ﴾ وتجعلونه بشرًا سويًا صالحًا لأنواع العلوم والإدراكات الكلية
والجزئية ﴿أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ﴾ [الواقعة: 59] المقصودون على الخلق والتسوية؟!
ومع شهود هذه المقدورات العجيبة البديعة، كيف تنكرون قدرتنا على البعث
والحشر.

مع أنا ﴿نَحْنُ﴾ بمقتضى علمنا وقدرتنا ﴿قَدْزَنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ﴾ والأجل بأن عينًا
لموت كل أحد منكم وقتًا معينًا، وأجلًا معهودًا، بحيث لا يسع لكم وقت حلوله لا
التقديم منه، ولا التأخير ﴿و﴾ مع ذلك ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُسْبِقِينَ﴾⁽¹⁾ [الواقعة: 60] مغلوبين
من أحد منكم أصلاً، بأن يغلب علينا أحد بتقديم الأجل المعين المقدر من عندنا، أو
تأخير.

وإذا قدرنا على تقدير الأجل للموت على الوجه المذكور قدرنا أيضًا ﴿عَلَى أَنْ
تُبَدَّلَ﴾ ونحى ﴿أَمْثَالَكُمْ﴾ أي: أسلافكم الذين ماتوا وانقرضوا أحياء أمثالكُم من
العدم؛ يعني: كما قدرنا على إنشاءكم من العدم إنشاءً إبداعيًا قدرنا أيضًا على إحياء
أسلافكم من القبور بعدما ماتوا على سبيل إعادة، بل إعادة أهون من الإبداع ﴿و﴾
بالجملة: قدرنا على أن ﴿نُنشِئَكُمْ﴾ بعد موتكم في ﴿فِي مَّا لَا تَعْلَمُونَ﴾⁽²⁾ [الواقعة:

(1) قال في التأويلات: يعني: موت الجهل في بداية الأمر؛ ليكسب القوة الفاعلة العلوية من القوى
القابلة السفلية استعدادًا؛ فإما كاملاً لتستعمله في التزود لدار المعاد، ويجعل له مطية ليركبها يوم
الرجوع إلى رب الأرباب، وبعبارة أخرى؛ يعني: نحن قدرنا الموت اللطيفة الحاصلة مني الإرادة
بأنها تبلغ مبلغ الرجال، أو تموت صبية.

(2) قال في التأويلات: من تبديل قواكم، وصفاتكم الحاصلة من تلك القوى، كما يشاهد الرجل أنه
يتورط في أمر الدنيا تورطًا عظيمًا، بحيث لا يذكر الله تعالى طرفه عين مشتغلًا بهواه مقلًا على

[61] أي: في نشأة وعالم، لا يحيطون به علمًا، ولا تفهمونه لخروجه عن طور عقولكم ومقتضاه.

﴿وَكَيْفَ يَتَأْتَى لَكُمْ إِنكَارُ الْإِعَادَةِ مَعَ أَنْكُمْ﴾ [لَقَدْ عَلِمْتُمْ] ﴿جَزَمْتُمْ وَأَيَقَنْتُمْ﴾ [النَّشْأَةُ الْأُولَى] ﴿أَي: قدرنا على الخلق والإيجاد فيها﴾ [فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ] [الواقعة: 62] منها قدرتنا على الإعادة في النشأة الأخرى، مع أن من قدر على الإبداء قدر على الإعادة بالطريق الأولى.

﴿أَفَرَأَيْتُمْ﴾ أخبروني أيها المسرفون المفرطون أن ﴿مَّا تَخْرُثُونَ﴾ [الواقعة: 63] أي: تبتذرون وتطرحون حبة في التراب.

﴿أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهَا﴾ وتنبثونه ﴿أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾ [الواقعة: 64] المقصودون على الإنبات بالاستقلال والاختيار بلا مشاركة ومظاهرة.

مع أنا ﴿لَوْ نَشَاءُ﴾ ونختار عدم إنباتها ونمائها ﴿لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا﴾ أي: الزرع الثابت حطامًا يابسًا، هباء هسيمًا ﴿فَقُلْتُمْ تَفْكُهُونَ﴾⁽¹⁾ [الواقعة: 65] أي: صرتم حيثنذ تتعجبون وتتأسفون من يبسها وضياعها، وليس لكم سوى الحسرة والأسف شيء، بل تقولون حيثنذ من شدة التضجر والتحزن.

﴿إِنَّا لَمُفْرِمُونَ﴾ [الواقعة: 66] ملزمون بتضييع البذور وإهلاك النفقة.

﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ [الواقعة: 67] حرماننا عن بذورنا وأعمالنا وريعنا بالكلية.

﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ﴾ العذب القراح الفرات السائغ ﴿الَّذِي تَشْرَبُونَ﴾ [الواقعة: 68] وتستروحون نفوسكم به، وتبردون أكبادكم منه؟

شهواته مربيًا قوى سبعة وبهيمية، فيبدل الله قواه وصفاته بحيث لا يفتر عن ذكر الله ساعة، ولا يشتغل بالدنيا ولو يضربونها ضربًا شديدًا، ويترك هواه ويقبل على مولاه ويعرض عن شهواته، ويستمر في مجاهداته ورياضاته، أليس هذه نشأة معينة وتبديلًا مبيّنًا ظاهرًا؟ فمالكم أيها العمي لا تؤمنون بخالقكم، ومنشاكم وباعثكم من قبول أقوالكم.

(1) قال في التأويلات: أي: تتعجبون مما تنبت من بذوركم لا حب فيه، وهذا يكون من شوم الغفلة عن الإخلاص في الثبة وقت العمل، فاحذروا أيها السالكون من الأذكار المصحوبة للغفلة والأعمال الغير الخالصة؛ لئلا تكون أعمالكم وأذكاركم حطمتكم في دار الجزاء - نعوذ بالله من تلك الحالة - بل نحن محرومون من كسبنا وزرعنا.

﴿أَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ﴾ أي: السحاب الهامر الهاطل ﴿أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ﴾ [الواقعة: 69] بكمال قوتنا وقدرتنا.

مع أنا ﴿لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ﴾ أي: صيرناه ويدلناه ﴿أَجَاجًا﴾ مرًا مالمحا ﴿فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ [الواقعة: 70] وهلا تواظبون على أداء حقوق أمثال هذه النعم العظام أيها المنجبولون على الكفران والنسيان.

﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ﴾ [الواقعة: 71] تقدحون ﴿أَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا﴾ أي: الشجرة التي يتخذ منها الزناد ﴿أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ﴾ [الواقعة: 72] المستقلون بإنشائها. ﴿نَحْنُ﴾ اليوم ﴿جَعَلْنَاهَا﴾ أي: النار ﴿تَذْكِرَةً﴾ وتبصرة لأمر البعث والنشر وأنموذجًا من نار القطيعة الجهنمية وعظة للمتقين منها؛ ليتزودوا بالتقوى، ويتخلصوا من نيران الهوى ودركات اللظى ﴿وَوَجَعَلْنَاهَا أَيْضًا مَتَاعًا﴾ منفعة عظيمة ﴿لِلْمُحْشَرِينَ﴾⁽¹⁾ [الواقعة: 73] المنزلين في القفراء والبيداء جائعين، خالية بطونهم عن الطعام، فيطبخون بها، ويشبعون فيها.

وبالجملة: ﴿فَسَبِّحْ﴾ يا أكمل أرسل ﴿بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: 74] الذي هو أعز وأجل من أن يطرأ عليه شيء من النقائص، أو يحوم حول حماه قدسه شائبة العجز والقصور، وإذا كان شأن الحق هذا ﴿فَلَا﴾ حاجة إلى القسم لإثبات عظيمته سبحانه وجلالة قدره وقدرته، بل ﴿أَقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾ [الواقعة: 75] أي: بموارد وقوع نجوم القرآن، ونزولها في قلوب الكمل من أرباب العزائم والعرفان. ﴿وَلَإِنَّهُ﴾ أي: القسم بالقرآن وموارده ﴿لَقَسَمٌ لِّئَوْ تَعْلَمُونَ﴾ وتعرفون قدره ﴿عَظِيمٌ﴾ [الواقعة: 76] شأنه عال خطره رفيع قدره.

(1) قال في التأويلات: يعني: استعدادًا للمسافرين الذين دخلوا دار القرية؛ ليتاجروا برأس مالهم ويربحوا أضعاف ما في أيديهم، لكن يأخذ صاحب المال منهم ماله، فيبقى لهم ما اكتسبوا برأس مالهم وتنعموا بمكاسبهم إذا رجعوا إلى مواطنهم الأصلية، فمن خسر برأس ماله فقد أورد من زبد ذكره الدنيوي نار الشهوة؛ التي هي تذكرة للنار الكبرى، التي هي الموقدة في صدور أهل الهوى، وإذا رجع إلى وطنه يأخذ صاحب المال رأس ماله ويبقى معه مكتسباته، وتكون مكتسباته حطمه تتصرف فيها النار الموقدة المطلعة على الأفئدة، ويحرق الحطمة ويشتمل النار الكبرى من إحراق الحطمة، وتعذب صاحبها في دار الجزاء أبد الأباد بالنار الموقدة، وحطمته المجتمعة في دار الكسب نعوذ بالله منه.

وكيف لا يكون القرآن عظيم الشأن رفيع القدر والمكان ١٢

﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُذْهِبُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ تَنْظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا بُدُّ مِنْ أَنْ تَنْزِلَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنَزَلَ مِنْ جَحِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةٌ مِنْ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾﴾ [الواقعة: 77-96].

﴿و﴾ إنه ﴿لَقُرْآنٌ﴾ موضح مبين لطريق الإيمان والعرفان ﴿كَرِيمٌ﴾ [الواقعة: 77] كثير الخير والنفع لحامله، وممثلي ما فيه من الأوامر والنواهي، مصون مثبت ﴿فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ﴾ [الواقعة: 78] محفوظ مستور عن نظر المحجوبين، إلا وهو حضرة العلم المحيط الإلهي، ولوح قضائه.

لذلك ﴿لَا يَمَسُّهُ﴾ ولا يتصف بمقتضاه ﴿إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة: 79] عن أوساخ التقليدات والتخمينات، وأكدار الأوهام والخيالات العائقة عن الوصول إلى صفاء مشرب التوحيد، المسقط لعموم الإضافات.

وكيف يمسّه غير أهل الكشف والطهارة الحقيقية؟ مع أنه ﴿تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الواقعة: 80] ^(١) الذي هو في ذاته مقدس عن شوائب النقص وسماته مطلقاً ﴿أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ﴾ العظيم الشأن، المنبئ عن محض الحكمة والإيقان ﴿أَنْتُمْ مُذْهِبُونَ﴾ [الواقعة: 81] متهاونون متساهلون أيها المسرفون المفرطون؟.

(١) قال في التاويلات: يعني: ينزل من عند رب العالمين نزول الفعل الصادر عن الصفة الفاعلية لظهور الأثر لا من قبيل نزول الشيء من الأعلى إلى الأسفل، تعالت حضرة الملك المتعال من أن ينزل منها شيء أو يصعد إليها شيء، كتزول الجسمانيات وصعودها، وكشف هذا السر يشلق بحد القرآن.

﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ﴾ حظكم ونصيبكم من هدايته وإرشاده ﴿أَنْتُمْ تُكْذِبُونَ﴾ [الواقعة: 82] جهلاً وعناداً، أتسرفون وتفرطون في الاجتراء على الله وتكذيب كلامه ورسوله المرسل من عنده أيها المفسدون المفرطون ١٩

﴿فَلَوْلَا﴾ تتذكرون، وهلا تتعظون به، أما تخافون وقت ﴿إِذَا بَلَغَتِ﴾ النفس ﴿الْحُلُقُومَ﴾ [الواقعة: 83] أي: لكل منكم بأمر الله.

﴿وَالْحَالِ أَنَّهُ﴾ أيها الحاضرون حول المحتضر ﴿حَيْثُ تَنْظُرُونَ﴾ [الواقعة: 84] له، ولا تعلمون لحاله، ولا تفهمون ما جرى عليه من سكرات الموت وأفزاعه وأهواله .

﴿وَنَحْنُ﴾ حيثُ ﴿أَقْرَبُ إِلَيْهِ﴾ أي: إلى المحتضر ﴿مِنْكُمْ﴾ وأعلم بحاله وشغله، لا قرب الحلول فيه، ولا الاتحاد معه، بل قرب ذي الظل إلى الظل، وذي الصورة إلى الصورة المنعكس والمرآة ﴿وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ [الواقعة: 85] وتدركون قريباً لا إليه ولا إليكم، أيها المحجوبون المحرومون، ولا تدركون أيضاً ما يجري عليه من الأهوال.

﴿فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ [الواقعة: 86] أي: مضطرين مملوكين مجبورين ﴿تَرْجِفُونَهَا﴾ أي: فهلا ترجعون النفس المخرجة البالغة إلى الحلقوم إلى محلها ولا تمنعونها عن الخروج ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾⁽¹⁾ [الواقعة: 87] في دعوى الاستيلاء

(1) قال في التاويلات: بأنكم قادرون غير عاجزين، مالكون غير مملوكين، فإذا أعلمتم عجزكم فاعلموا أن الله الذي خلقكم بقدرته وأحياكم بإرادته وأماتكم بحكمته، قادر على أن يبعثكم من قبر قالبكم بعد موتكم، محط للسالك أن يتعين في حالة القبض، أن الله هو القابض لا يقدر على ترديد حياة البسط إذا نزعها الله عنه وتفوض أمره إلى مالكة الذي في قبضته متردد، كما يقول النبي ﷺ: «قلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء، فإن شاء أماته بالقبض، وإن شاء أحياه بالبسط، وإن شاء أماته بالنكرة، وإن شاء أحياه بالمعرفة»، بترك اختيار نفسه إلى مسلكه ليوصله إلى مرتبة، بترك اختياره للحق ويكون كال ميت بين يدي الغسال في الحضرة يمشون على وجه الأرض مقصورين، كما قال ﷺ: «من أراد أن ينظر إلى رجل من أهل الآخرة يمشي على وجه الأرض، فلينظر إلى هذا»، وأشار إلى أبي بكر ؓ، لأنه شاهد في هذا اليوم أن الأمر لله، كما يشاهد الآخرون في الآخرة، ويقولون: ﴿وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ [الانفطار: 19]، ولو لم يترك السالك اختياره بالتفويض لجميع أموره إليه لم يصل إلى مطلوبه البتة.

والاستقلال وعدم المبالاة بالصانع القديم الحكيم العليم، فهلا تدفعون الأرواح إلى الأبدان بعد بلوغها الحلقوم؟ ﴿فَأَمَّا﴾ بعد خروج الروح من البدن ﴿إِنْ كَانَ﴾ المتوفى ﴿مِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ [الواقعة: 88] السابقين من الفرق المشار إليها في أول السورة.

﴿فَرَوْحٌ﴾ أي: موته له راحة ورحمة، وإيصال له إلى عالم اللاهوت، وإزاحة زحمة عنه، عارضة عليه، متعلقة إياه من كسوة الناسوت ﴿وَرَيْحَانٌ﴾ يشمه من فوائح الرحمن ﴿وَجَنَّةٌ نَّعِيمٌ﴾ [الواقعة: 89] دائم التنعم والترفة في المقام المحمود والحوض المورود في جوار الخلاق الودود.

﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ﴾ المتوفى ﴿مِنَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ [الواقعة: 90] أي: من الأبرار الموصوفين باليمن والكرامة الموروثة له من الأعمال الصالحة والأخلاق المرضية. ﴿فَسَلَامٌ لَّكَ﴾ يا ذا اليمن والكرامة ﴿مِنْ﴾ قبل ﴿أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ [الواقعة: 91] أمثالك، ترحيباً لك وتكريماً.

﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ﴾ المتوفى من أصحاب الشمال والشامة الأزلية والشقاق الجبلية ﴿مِنَ الْمُكَذِّبِينَ﴾ يوم الدين ﴿الضَّالِّينَ﴾ [الواقعة: 92] المنحرفين عن منهج الاستقامة، الموصلة إلى دار المقامة والكرامة.

﴿فَنَزُلُ﴾ فله نزل ﴿مِنْ حَمِيمٍ﴾ [الواقعة: 93] بدل ما لا يتعطش في النشأة الأولى إلى زلال برد اليقين، ولا يشرب رشحة وجرعة من رحيق المعرفة والتوحيد. ﴿وَتَضْلِيَةٌ جَّحِيمٍ﴾ [الواقعة: 94] أي: إدخال نار عظيمة، بدل ما يتلذذ بالشهوات وبالميل إلى المحرمات والمكروهات، وبالجملية: ﴿إِنْ هَذَا﴾ الذي ذكر في حق هؤلاء الفرق الثلاث ﴿لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ﴾⁽¹⁾ [الواقعة: 95] بالنسبة إلى أرباب الكشف والشهود،

(1) قال في التاويلات: يعني: إن هذا البيان لهو الحق؛ لأنه كلام الحق وبيانه عن عالم اليقين، وإما تخرب قواك بثلاثة أضراب، وجزاءهم بما كسبوا في دار الكسب من الأعمال الصالحة والفاصلة المدخرة لهم في دار الجزاء، فاعلم أن للطائفت المرسل والمرسلات الحقوقية المسكنة في جميع القوى العلوية والسفلية؛ هم المقربون السابقون، والقوى المؤمنة باللطائف المرسل من القوى القلبية والنفسية، والقلبية والسرية، والروحية والخفية والحقية؛ هي من أصحاب اليمن السالمين من العقاب يوم المآب، المتعممين بأعمالهم الصالحة الباقية لهم في دار الثواب، والقوى الكافرة القلبية والمشركة النفسية والمناققة والقلبية والجاحلة السرية والمستكبرة الروحية والضالة الخفية ممن لم يؤمنوا باللطيفة الخفية؛ هي من أصحاب المشامة المشثومين المكذبون الضالون،

المطلعين بمراتب الوجود باليقين العلمي والعيني والحقي.

﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾⁽¹⁾ [الواقعة: 96] أي: نزه يا أكمل أرباب الشهود

والحضور ذات ربك عن شوب الريب والتخمين، بذكر اسمه العظيم، المستجمع لعموم أسمائه الحسنی وصفاته العليا، فإنك على الحق اليقين في مطلق أسمائه وصفاته.

جعلنا الله ممن اتصف بحق اليقين، وخلص! عن أمارات الريب والتخمين، بمنه

فأبشر أيها المحمدي إنك لست من أصحاب المشامة إن كنت دخلت في دار التصديق وهو شهادتك بأن «لا إله إلا الله وإن محمداً رسول الله» ومن وفق لهذه الشهادة من إخلاص وتصديق يكون من أصحاب اليمين ويكون رفيقه التوفيق، ولا يمكن للشيطان أن يقطع عليه الطريق، وإلى هذا أشار النبي الصادق الصدوق: «من قال لا إله إلا الله مخلصاً دخل الجنة»، وهذا الشريف يصل إلى أمة الحبيب الشريف صاحب الخلق اللطيف، والخلق الظريف، والقلب النظيف - عليه أفضل التحية والسلام - لشرفه فطوى لمن تبعه في الشريعة، وطوى ثم طوى لمن تبعه في الشريعة والطريقة، وطوى ثم طوى لمن تبعه في الشريعة ووصل إلى عالم اليقين بصورة الذكر، ثم تبعه في الطريقة ووصل إلى عين اليقين؛ يعني: الذكر، ثم تبعه في الحقيقة ووصل إلى حق اليقين بحقيقة الذكر، ثم نزه مجاري ذكر الخفي عن صورة الذكر ومعناه وحقيقته؛ ليستحق أن يجري عليه الذكر الخفي ويكون محلاً للقسم.

(1) قال في التأويلات: يعني: نزه باسم ربك العظيم مجاري الذكر الخفي عن صورة الذكر الموصل إلى علم اليقين؛ ومعنى: الذكر الموصل إلى عين اليقين وحقيقة الذكر الموصل إلى الحق اليقين؛ ليستحق أن يجري عليه الذكر الخفي الموصل للذاكر إلى حقيقة حق اليقين؛ ليصير الذاكر مذكوراً ويصل القاصد إلى المقصود، ويكون الشاهد هو المشهود، وسر هذه اللطيفة في حد القرآن فاقصر على رمز رمز به إليه واجتهد في الذكر الصوري برعاية شرائطه، وهو أن يذكر الله بالقوة الخفية بالشرط والإثبات؛ ليصل إلى الذكر المعنوي، ثم اجتهد في الذكر المعنوي برعاية المتحد في الذكر مع الذاكر؛ لتصل إلى الذكر الحقيقي، ثم اجتهد في الذكر الحقيقي بنفي قوة ذاكرتك وإثبات القوة المذكورية؛ لتصل إلى الذكر الخفي، فإذا وصلت إليه وقت ما في ذاتك بذاتك لذاتك، وصرت ملكاً حياً باقياً، ويكون عنوان منشور ملكيتك في دار البقاء من الملك الحي الذي لا يموت إلى الملك الحي الذي لا يموت، فاجتهد في ألا تفوت هذه المرتبة في الحال ولا تغرنك الآمال الصادقة لك عن الاجتهاد بالإرجاء بأنك تصل إليها في المال؛ لأن ترك النقد بالوعد للوصول إلى الفقد المتروك لا يكون إلا في قلة العقل وهي من أقبح الخصال.

اللهم ارزقنا الوصال في الحال وأذقنا بكأس مشاهدة الجمال زلال رحيق الجلال بحق صاحب الكمال ﷺ وعلى آله وصحبه خير صحب وآل التابعين لهم بإحسان من أهل اللطف والنوال.

خاتمة السورة

عليك أيها السالك القاصد لا تكشاف مراتب الوجود بطريق الكشف والشهود والاطلاع على ما فيها من الكفر والجحود والانحراف عن الطريق المعهود الذي نزل بتبيينه الكتب والرسل أن تتأمل في عموم أوقاتك وحالاتك في هذه السورة العظيمة الشأن، وتعرض على نفسك دائمًا أحوال الفرق الثلاث المذكورة فيها، وتذكرها عليك، حتى يظهر لك أنك مع من أنت من هؤلاء الفرق؟.

من السابقين المقربين المقبولين؟.

أم من أصحاب اليمين الموفقين المحسنين؟.

أم من المكذبين الضالين المعذبين؟.

وبالجملة: ﴿وَاجْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: 99].

سورة الحديد

فاتحة سورة الحديد

لا يخفى على من تحقق بوحدة الحق، وانكشف بفضاء صمديته وسعة مملكته، واستيلاء سلطته العالية أن عموم ما ظهر وبطن غيبًا وشهادةً إنما هي من شئونه الذاتية، وتجلياته الجمالية والجلالية المترتبة على أسمائه وصفاته الذاتية والفعلية؛ لذلك نطق بوحده السنة عموم مظاهره ومصنوعاته، ونزهته عما لا يليق بشأنه، كما أخبر سبحانه عن تسييحهم تنبيهاً وإرشاداً لعباده، وحثاً لهم إلى التوجه والرجوع نحوه، فقال بعدما تيمن باسمه الأعلى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ الذي ظهر على ما ظهر وبطن بمقتضى التجلي الحبي ﴿الرَّحْمَنُ﴾ عليها؛ لسعة رحمته ووفور جوده وإحسانه ﴿الرَّحِيمُ﴾ لخواص عباده، يوصلهم إلى فضاء توحيده.

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (١) ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٢) ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (٣) ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (٤) [الحديد: 1-4].

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾ الواحد الأحد الصمد، المستقل بالبقاء والقيومية، المتفرد بالتحقق والثبوت على وجه الديمومية، الحي الحقيق بالالوهية والربوبية، مظاهر ﴿مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ من الكوائن العلوية والسفلية، الغيبية والشهادية، ونزهه عن مطلق النقائص المنافية لصرافة وحدته الذاتية بعدما اعترفت السنة استعدادات الكل بربوبيته طوعاً، واشتغلوا بلوازم عبوديته رغبةً ﴿وَهُوَ﴾ كيف لا يسبحونه ولا يعظمونه، والحال أنه ﴿هُوَ الْعَزِيزُ﴾ الغالب المقتدر على وجوه الإنعام والانتقام ﴿الْحَكِيمُ﴾ [الحديد: 1] المتقن في إيجادها وإظهارها على وفق الإرادة والاختيار؟

﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: مؤثرات الأسماء والصفات العلوية، المعبرة

بالأعيان الثابتة ومتأثرات القوابل السفلية، واستعدادات الطبائع والهيولى المنفعلة منها؛ إذ هو سبحانه باستقلاله وتوحيده ﴿يُخَيِّي وَيُمِيتُ﴾ أي: يتصرف فيها بالإحياء والإماتة، والخلع واللبس حسب إرادته ومشيتته بالاختيار، وبالجمله: ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ دخل في حيطه حضرة علمه، ولوح قضائه ﴿قَدِيرٌ﴾ [الحديد: 2] بالقدرة التامة الكاملة، مع أنه لا يعزب عن حيطه علمه الحضوري ذرة مما لمع عليه برق وجوده الوجداني الفردي.

وكيف لا يقدر سبحانه على التصرف بالاستقلال والاختيار في ملكه وملكوته؛ إذ ﴿هُوَ الْأَوَّلُ﴾ الأزلي سرمدي السابق في الوجود ﴿وَالْآخِرُ﴾ الأبدي الدائم، المستمر فيه بمقتضى الجود حق ﴿وَالظَّاهِرُ﴾ المتحقق في العيان ﴿وَالْبَاطِنُ﴾ الممكنون في عموم الأكوان، فانظر أيها المعتبر الناظر، هل بقي لغيره وجود ولسواه عين وشهود؟ ﴿وَهُوَ﴾ بالجمله: ﴿هُوَ﴾ بذاته ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ﴾ ظهر من امتداد أظلاله وانعكاس أشعة نور وجوده ﴿عَلِيمٌ﴾⁽¹⁾ [الحديد: 3] بذاته وحضوره، غير مغيب عنه مطلقاً.

(1) قال الشيخ البيطار: قال أبو يزيد البسطامي: حفظ كرامات الأولياء على اختلافها تكون من أربعة أسماء: ﴿الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ [الحديد: 3] وكل فريق له اسم منها، فمن فنى عنها بعد ملاستها فهو الكامل التام، فأصحاب اسمه الظاهر يلاحظون عجائب قدرته، وأصحاب اسمه الباطن يلاحظون ما يجري في الأسرار والسرائر، وأصحاب اسمه الأول يلاحظون بما سبق، وأصحاب اسمه الآخر متربصون بما يستقبلهم، فكل يكشف على قدر طاقته إلا من تولى الحق تعالى تديره. انتهى كلامه، واعلم - رحمك الله - أن هذه الأسماء الأربعة هي الأب العلوي للعالم والأم السفلية، فالاسم الأول كالعقل الأول، والاسم الآخر كالنفس المنفعلة عن العقل انفعال الآخر عن الأول، كما انفعلت حواء عن آدم، ثم توجه الأول إلى الآخر توجهًا باطنًا يسمى بالنكاح المعنوي، ويسمى بالنكاح الإلهي بين الأسماء الإلهية، فكان الاسم الباطن محل الحمل، وهو الكثر المخفي في ظهر الاسم الأول، فاستقر في الاسم الآخر بطونًا كباطن رحم الأنثى، فظهر العالم بحكم الاسم الظاهر، فهو المولود، فلهذا السر ما صدر كل أمر في العالم إلا عن تثليث، ألا ترى أن محبته تعالى أن يعرف اقتضت محبة ومحبوبة، وهكذا كل أمر في الوجود، ولذا قالوا: إن ظهور العالم عن الاسم الفرد وأول الأفراد الثلاثة فكانت البسملة فاتحة الفاتحة وإنما كان هذا النكاح إلهيًا لرس «فأحييت أن أعرف»، فتوجه توجهًا نفسيًا من نفسه لنفسه في نفسه، فظهر العالم على صورته، فكان هو المظهر اسم فاعل، والظاهر والمعروف العارف، وهذا التوجه مقتبس الحضرة عن الزمان «كان الله ولا شيء معه» وهو الآن على ما عليه كان» ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَلَّيْ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: 6]، فهو عليم بنفسه لأنه العليم

ومن كمال علمه وإرادته، ووفور حكمته وقدرته ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ﴾ وقدر ظهور ﴿السَّمَوَاتِ﴾ المتطابقة المتعلقة ﴿وَالْأَرْضِ﴾ المفترشة الممهدة ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ حسب الأقطار والجهات الست ﴿ثُمَّ﴾ بعدما كمل الكل ﴿اِشْتَوَى﴾ وتمكن ﴿عَلَى الْعَرْشِ﴾ أي: على عروش مطلق المظاهر بالاستيلاء التام، والاستقلال الكامل، بحيث ﴿يَعْلَمُ مَا يَلْجُ﴾ ويدخل ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ من الحبات أو في أراضي الاستعدادات من بذور المعارف والحقائق ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ من أنواع النباتات أو المكاشفات والمشاهدات المترتبة على بذور المعارف، والأعمال الصالحات ﴿وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي: عالم الأسباب من الأمطار، أو من سماء الأسماء من مياه العلوم اللدنية والإدراكات المحيية لأراضي الاستعدادات ﴿وَمَا يَخْرُجُ فِيهَا﴾ من الأبخرة والأدخنة، أو الكلمات الطيبة الصاعدة الجالبة لفيضان اليقين والعرفان من المبدأ الفياض.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿هُوَ﴾ سبحانه بذاته ﴿مَعَكُمْ﴾ أيها المظاهر ﴿أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ لا معية ذاتية ولا زمانية، ولا بطريق المقارنة والمخالطة، ولا بطريق الحلول والاتحاد، بل بطريق الظهور والظلية، والحضور ورش النور ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿اللَّهُ﴾ المحيط بكم، المظهر لأشباحكم بمد ظله عليكم ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من مطلق الأعمال ﴿بَصِيرٌ﴾ [الحديد: 4] فيجازيكم عليها على مقتضى بصارته وعلمه في يوم الجزاء.

﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ﴾

والعلم والمعلوم ﴿تَعْلَى اللَّهُ عَمَّا يُفْرَسُونَ﴾ [النمل: 63]، ومن سر الثلاث صدر قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ [الطلاق: 12]، فالسمااء أب كجبريل، والأرض أم كمریم، والإمداد السماوي للأرض بمنزلة النفخ الجبريلي في مریم عليها السلام، والأمر المتنزل بينهما كالمولود وهو عيسى عليه السلام، فلو فسرهما ابن عباس وتكلم على سر الثلاث فلو ربما يُنسب إليه ما نسب لأصحاب الإنجيل، ولولا أن أخي في الله أحمد بن بكري الفواخيري - فتح الله عليه - سألني عن سبب قول ابن عباس عليه السلام في حق هذه الآية: لو فسرناها لقلتم: إني كافر أو لرجتموني، ما كشفت هذا السر، وهذا السر من حكم الأسماء الإلهية، ونكاحها المعنوي المقدس لا من حكم الذات، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً، فالذات لها صورة الإخلاص، يعني: إن الأحدية له تعالى خالصة من شرك السوى، فله الأمر من قبل ومن بعد، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

فِي آيِلٍ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٦﴾ ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ءَانْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُتَخَلِّفِينَ فِيهِ
فَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا
بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ هُوَ الَّذِي يُزِيلُ عَلَى عَبْدِهِ مَائِدَاتٍ يَبْتَغِي لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ
الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٩﴾ [الحديد: 5 - 9].

إذ ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ إيجادًا وخلقًا أولاً، وإعداداً ثانياً، وإعادة ثالثاً
﴿و﴾ بعد الإعادة ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ لا إلى غيره من الوسائل والأسباب العادية ﴿تَزْجَعُ
الْأُمُورُ﴾^(١) [الحديد: 5] أي: رجوع مطلق الأمور إليه سبحانه في المعاد والمآل، كما
أن ظهوره منه في المبدأ والمنشأ؛ إذ منه الابتداء وإليه الانتهاء.

ومن تصرفاته المتقنة في ملكه على وفق حكمته أنه ﴿يُولِجُ﴾ ويدخل ﴿اللَّيْلَ﴾
أي: بعض أجزائه ﴿فِي النَّهَارِ﴾ في فصل الربيع والصيف ﴿وَيُولِجُ النَّهَارَ﴾ أي: بعض
أجزائه ﴿فِي اللَّيْلِ﴾ في فصل الخريف والشتاء؛ مصلحةً لمعاش عموم الحيوانات،
ومحافظةً لها من كآبة طرفي الإفراط والتفريط ﴿و﴾ بالجملة: ﴿هُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ
الصُّدُورِ﴾ [الحديد: 6] أي: بمكنونات ضمائركم، ومقتضيات استعداداتكم.

وبعد ما علم واطلع سبحانه منكم ومن استعداداتكم وقابلياتكم ﴿مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ
عِلْمٌ﴾ [النور: 15]، ﴿ءَامِنُوا﴾ أي: انقادوا وأطيعوا ﴿بِاللَّهِ﴾ المطلع على عموم
مصالحكم ﴿وَرَسُولِهِ﴾ النائب عنه، المبعوث من لدنه؛ لإرشادكم وتكميلكم ﴿وَأَنفِقُوا﴾
بمقتضى الأمر الإلهي المنبئ عن محض الحكمة والمصلحة ﴿مِمَّا جَعَلَكُمْ مُتَخَلِّفِينَ
فِيهِ﴾ أي: من أموالكم التي استخلفكم الله عليها؛ إذ هي كلها لله حقيقة، لا لكم كما
زعمتم.

فعلیکم أن تمثّلوا بأوامر الله سبحانه بالإنفاق والإيثار الذي يزكي أنفسكم من
الميل إلى مزخرفات الدنيا، العائقة عن الوصول إلى جنة المأوى التي هي مقام التسليم
والرضا ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ﴾ وأكدوا إيمانهم بالإخلاص في عموم الأعمال والأفعال

(١) قال السمناني: الروحانية بعد التزول إلى الأرض وجذب اللطائف الأُميرية المستكنة في الأرض،
وعروجه سماء الروحانية ليكتسب المعارف العلوية بالاستعداد الحاصل من جذب اللطائف
الأرضية، ويرجع إلى حضرة ربه مع حصول المعارف التفصيلية من العلوية والسفلية والصفاتية.

والأخلاق ﴿وَأَنْفَقُوا﴾ بلا شوب المن والأذى، وشين السمعة والرياء ﴿لَهُمْ﴾ بسبب إيمانهم وإنفاقهم على وجه الإخلاص ﴿أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الحديد: 7] لا أجر أكبر منه وأعلى.

ثم قال على طريق الحث والإلزام المشعر بالوعيد: ﴿وَمَا لَكُمْ﴾ أي: أي شيء عرض لكم، وطراً عليكم ﴿لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ الواحد الأحد الصمد، المستحق للإطاعة والإيمان ﴿وَلَا سِيماً﴾ (الرُّسُولُ) المبلغ الكامل في الهداية والتكميل ﴿يَدْعُوكُمْ﴾ بمقتضى الوحي الإلهي المنزل من عنده ﴿لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ﴾ مع تأييده بالمعجزات الساطعة، والحجج القاطعة الدالة على صدقه في دعوته للإيمان، ورسالته إلى كافة الأنام ﴿وَالْحَالُ أَنَّهُ﴾ (قَدْ أَخَذَ) الله العليم العلام باستعداداتكم ﴿مِيثَاقَكُمْ﴾ وعهدكم بالإيمان والعرفان في مبدأ فطرتكم، ومنشأ جبلتكم، مع أنه جبلكم حين قدر خلقكم، وأنشأ فطرتكم على جبلة التوحيد والإيمان، فماذا يمنعكم عنه ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الحديد: 8] بسبب وموجب، فهذا موجب لا مزيد عليه؟

إذ ﴿هُوَ﴾ سبحانه الحكيم العليم ﴿الَّذِي يُنَزِّلُ﴾ من مقام فضله وجوده ﴿عَلَى عَبْدِهِ﴾ محمد ﷺ ﴿آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ مبینات واضحات ﴿لِيُخْرِجَكُم﴾ الله ورسوله ﴿مِنَ الظُّلُمَاتِ﴾ المتراكمة المتكاثفة من لوازم الطبيعة، ولواحق الحصول ﴿إِلَى النُّورِ﴾ أي: نور الوجود البحت، الخالص عن مطلق القيود ﴿وَلَا يَعْلَمُهَا إِلَّا الْمَكْلُفُونَ﴾ (إِنَّ اللَّهَ بِكُمْ) بإرادة إخراجكم من ظلمات الجهل إلى نور اليقين ﴿لَرَّءَوْفٌ﴾ مشفق عطوف ﴿رَحِيمٌ﴾ [الحديد: 9] متناه في الرحمة.

﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلَ أَوْلِيَّكَ أَكْثَرُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَتْلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْمُسْتَقِينَ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝١٠﴾ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَعَوْلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ۝١١﴾ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَانُكُمْ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۝١٢﴾ [الحديد: 10 - 12].

﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا﴾ أي: أي شيء يمنعكم عن الإنفاق ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ تقرباً إليه، وطلباً لمرضاته، وامثالاً لأوامره ﴿وَاللَّهُ﴾ الغني بذاته، المستغني عن مطلق مظاهره

ومصنوعاته ﴿مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾⁽¹⁾ أي: العلويات والسفليات والممترجات وهو في ذاته غني عن إنفاقكم وبذلكم، إلا أنه ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ﴾ أي: أنفق قبل فتح مكة ممثلاً لأمر الله، مجهداً في تقوية دين الإسلام وترويجه وظهوره على الأديان الباطلة، وتكثير أهل الحق وتغليبه ﴿وَمَنْ﴾ مع إنفاقه على المقاتلين في سبيل الله؛ لإعلاء كلمة توحيدِهِ ﴿قَاتِلْ﴾ أيضاً بنفسه، وسعى يبذل المال والروح في طريق الحق وترويجه ﴿أُولَئِكَ﴾ السعداء المنفقون المقاتلون لهم ﴿أَعْظَمُ دَرَجَةً﴾ وأكرم مشوبة ومقاماً عند الله ﴿مَنْ﴾ المؤمنين ﴿الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ﴾ أي: بعد فتح مكة وغلبة المسلمين، وظهور دين الإسلام ﴿وَقَاتَلُوا﴾ بعده مع كثرة المقاتلين.

﴿وَمَنْ﴾ بالجملة: ﴿كُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى﴾ أي: وعد الله كلًّا من المسلمين المبادرين، أو المبطلين الوعد الحسن، والدرجة العليا، والمثوبة العظمى حسب مساعيهم واجتهادهم في تقوية الشرع، وترويج الدين القويم ﴿وَمَنْ﴾ بالجملة: ﴿اللَّهُ﴾ المطلع بسرائر عبادِهِ ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي: بعموم أعمالكم وأحوالكم خالصها ومشوبها، ضالحها وفاسدها ﴿خَيْرٌ﴾ [الحديد: 10] بصير لا يعزب عن حضرته شيء منها، يجازيكم على مقتضى خبرته.

ثم قال سبحانه على سبيل الحث والترغيب: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ﴾ وينفق في سبيله من أكرم أمواله ﴿قَرْضًا حَسَنًا﴾ بلا شوب المن والأذى، وشين السمعة والرياء طلباً لمرضاته سبحانه ﴿فِيضَاعَةً لَهُ﴾ أي: يضاعف له إخلافه وإعواضه في الدنيا كرامةً عليه، وفضلاً ﴿وَمَنْ﴾ مع ذلك ﴿لَهُ﴾ في الآخرة ﴿أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ [الحديد: 11] وفوز عظيم لا فوز أعظم منه وأكرم، وهو التحقيق بمقام الرضا والتسليم، والاستغراق بمطالعة وجه الله الكريم.

اذكر يا أكرم الرسل على سبيل التبشير ﴿يَوْمَ تَرَى﴾ أيها المعبر الرائي

(1) قال علاء الدولة: أي: تعلمون أن لله ميراث السماوات الروحانية والأرض البشرية، يتحلون باستعدادكم الذي هو أعطاكم من القوى العلوية والسفلية، ولا تنفقون في طاعة من يرث الاستعدادات بعد إفناءكم وتفديكم بترككم المكدر، وإن تنفقوا يرث هو أيضاً استعداداتكم العلوية ويدخلكم في جنات تركاتكم المطهرة المزكاة عن الكدورات بالنفقة، فيما يغركم إلى خالق الأرض ووارث التركات والمعدب لتارك التركات المزكاة بنعيم الجنان الموصل له إلى أعلى الدرجات.

﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾ الموحدين الموقنين، المخلصين ﴿وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ أيضا كذلك ﴿يَسْعَى﴾ نورُهُم أي: نور يقينهم وعرفانهم ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: أمامهم وقدامهم ﴿وَيَأْتِيَانِهِمْ﴾ إذ إتيان الكرامة إنما هو من هاتين الجهتين، فيقول لهم حيثُ من يتلقاهم من الملائكة: ﴿بُشْرَاكُمْ الْيَوْمَ﴾ دخول ﴿جَنَّاتٍ﴾ متزهات العلم والعين والحق ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي: أنهار المعارف والحقائق لا بحسب وقت دون وقت، بل ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ دائمين ﴿ذَلِكَ﴾ أي: الخلود في الجنة الموعودة ﴿هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [الحديد: 12] لا فوز أعظم منه عند المكاشفين.

﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتِسِمْ مِنْ تُورِكُمْ فَبَلَّ أَرْجَعُوا وَرَاءَكُمْ فَاتَّسَبَا نُوْرًا فُضِرَ بَيْنَهُمْ سُورُ الْبَابِ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴿١٤﴾ فَأَيُّ يَوْمٍ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوِيَّتُكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾ [الحديد: 13 - 15].

ثم عقب سبحانه وعد المؤمنين بوعيد المنافقين فقال أيضا على وجه التذكير: ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ﴾ المبطلون المستمرون على النفاق مع أهل الحق ﴿وَالْمُنَافِقَاتُ﴾ أيضا كذلك ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ حين يرونهم ﴿يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَيَأْتِيَانِهِمْ﴾ [الحديد: 12]: ﴿انظُرُونَا﴾ أيها السعداء المحقون، والتفتوا نحونا ﴿نَقْتَسِمْ مِنْ تُورِكُمْ﴾ إذ نحن في ظلمة شديدة ﴿قِيلَ﴾ لهم حيثُ من قبل الحق على سبيل التوبيخ والتقريع: ﴿ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ﴾ أي: إلى دار الاعتبار والاختبار ﴿فَاتَّسَبَا نُورًا﴾ واقتبسوا من مشكاة النبوة والولاية بامثال الأوامر والنواهي الموردة من عنده سبحانه على رسله، وبالحكم والأسرار الصادرة من السنة أولى العزائم الصحيحة، المنجذين نحو الحق من طريق الفناء فيه بالموت الإرادي، واعلموا أن اقترافه واقتباسه إنما هو في دار العبرة والغرور، لا في دار الحضور والسرور.

وبعد ما جرى ما جرى ﴿فُضِرَ﴾ وحيل حيثُ ﴿بَيْنَهُمْ﴾ أي: بين المؤمنين والمنافقين ﴿بِسُورٍ﴾ حائط حائل ﴿لَهُ﴾ أي: للسور ﴿بَابٌ﴾ مفتوح يدخل منه المؤمنون ﴿بَاطِنُهُ﴾ أي: باطن الباب ﴿فِيهِ الرَّحْمَةُ﴾ النازلة من قبل الحق بمقتضى اسم الرحمن

على أهل الإيمان والعرفان ﴿وَوَظَاهِرُهُ﴾ أي: ظاهر الباب ﴿مِنْ قَبْلِهِ﴾ سبحانه بمقتضى اسمه المنتقم ﴿الْعَذَابُ﴾ [الحديد: 13] النازل على أهل النفاق والظفيان.

﴿يُنَادُونَهُمْ﴾ أي: المنافقون المؤمنون حين ستروا عن أعينهم، ويقوا في الظلمة والعذاب محرومين قائلين متضرعين: ﴿أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ﴾ أيها الرفقاء في دار الدنيا مسلمين منقادين لأحكام الإسلام، ممثلين لأوامر الكلام ونواهيه أمثالكم ﴿قَالُوا﴾ أي: المؤمنون في جوابهم من وراء الحائل: ﴿بَلَى﴾ أنتم معنا ظاهراً ﴿وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ بالنفاق والشقاق حسب باطنكم ﴿وَو﴾ مع ذلك ﴿تَرْتَضُونَ﴾ وانتظرتهم بالمؤمنين المقت والدوائر ﴿وَوَازَيْتُمْ﴾ ترددتم وشككتهم في حقبة الدين القويم، وظهوره على الأديان كلها ﴿وَو﴾ بالجملة: ﴿غَرَّكُمْ الْأَمَانِيُّ﴾ والأهوية الفاسدة، والآراء الباطلة مدى العمر، فانتظرتهم بالمؤمنين ﴿رَبِّ الْمَثُونِ﴾ [الطور: 30]، وكتمت على أمانيتكم هذه وتطيراتكم ﴿حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ الذي هو الموت، فتمت منافقين مخادعين ﴿وَو﴾ بالجملة: ﴿غَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ [الحديد: 14] الذي هو شياطين أمارتكم وأمانيتكم، وتسويلات نفوسكم وقواكم.

وبعد ما وقع ﴿فَالْيَوْمَ﴾ الذي تبلى السرائر فيه ﴿لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ﴾ أيها المنافقون المخادعون ﴿فِدْيَةٌ﴾ تفدون بها؛ لتخليصكم من العذاب لا منكم أيها المنافقون ﴿وَلَا مِنْ﴾ إخوانكم ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾⁽¹⁾ مجاهرين مصرين على ما هم عليه بلا مبالاة إلى الدين والدعوة، وبالجملة: ﴿مَا أَرَاكُمْ﴾ أي: محل رجوعكم وقراركم اليوم جميعاً أي: ﴿النَّارِ﴾ المعدة المسعرة لكم أيها المنافقون بالكفر، والمجاهرون به ﴿هِيَ مَوْلَاكُمْ﴾ أي: النار أولى بكم، وأليق بحالكم ﴿وَو﴾ بالجملة: ﴿يُفْسِدُ الْمَعِيزُ﴾ [الحديد: 15] والمرجع النار المعدة للكفار الأشرار.

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَلَمْ تَأْتِهِمُ الْأَمْدُ فَخَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكِبَرَتْهُمْ قَسَمَاتُ ۖ أَفَلَمْ يَرَوْا أَنَّ

(1) قال السمناني: لأن الأمر بيد غيركم، والآلات والأدوات بها يمكن الكسب متزعة عنكم، وهي كانت عادية عنكم والعادية مردودة لا محالة، وما كسبتم بتلك الآلات لأنفسكم قالوا: ما لكم بتضييع الأوقات ونزع الآلات والأدوات، ثم ويل بعد ويل بكسب الشقاوة الأبدية بتلك الاستعدادات.

اللَّهُ يَخِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّ الْمُصْذِقِينَ
وَالْمُصْذِقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يَضَعُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا
بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالشَّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا
وَكَذَّبُوا آيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٩﴾ [الحديد: 16 - 19].

ثم قال سبحانه على سبيل الحث والترغيب، والتمنن والتشويق: ﴿أَلَمْ يَأْنِ﴾ أي: لم يقرب الوقت، ولم يحضر الأوان ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ بوحدة الحق، وبكلمات أسمائه وصفاته ﴿أَنْ تَخْشَعَ﴾ وتخضع وتلين وترق ﴿قُلُوبُهُمْ﴾ التي هي وعاء الإيمان والعرفان ﴿لِلذِّكْرِ﴾ المستجمع لعموم الأسماء والصفات، المسقط لجميع الإضافات ﴿وَمَا نَزَّلَ﴾ سبحانه في كتابه المبين لطريق توحيده ﴿مِنَ الْحَقِّ﴾ الحقيق بالامثال والاتباع من الأوامر والنواهي الموردة فيه، المتعلقة لتهديب الظاهر والباطن، والرموز والإشارات المصفية للسر عن التفات إلى ما سوى الحق.

﴿وَلَا يَكُونُوا﴾ - التفسير جرى على رواية رويس - ﴿وَلَا تَكُونُوا﴾ أيها المؤمنون في الإعراض عن كتاب الله، والانصراف عما فيه من الحكم والمصالح ﴿كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ﴾ وهم اليهود والنصارى ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ﴾ أي: مضى الزمان بينهم وبين أنبيائهم ﴿فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ عن الإيمان، مع أن الكتب بين أظهرهم ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد: 16] خارجون عن دينهم، تاركون ما في كتابهم من الأحكام من فرط قساوتهم وغفلتهم، فلکم ألا تكونوا أمثالهم مع نبيكم ودينكم وكتابكم.

﴿اعْلَمُوا﴾ أيها المؤمنون الموحدون ﴿أَنَّ اللَّهَ﴾ المطلع على قابليات عباده واستعداداتهم الفطرية ﴿يُخَيِّ الْأَرْضَ﴾ أي: أراضى استعداداتكم بماء المعارف والحقائق، والمكاشفات والمشاهدات ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ بالجهل والغفلة الناشئة من ظلمات الطبيعة والهيولى، وبالجملية: ﴿قَدْ بَيَّنَّا﴾ وأوضحنا ﴿لَكُمْ الْآيَاتِ﴾ الدالة على هدايتكم وتكميلكم في القرآن العظيم ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الحديد: 17] رجاء أن تتأملوا فيها، وتتعظوا بها، وتفهموا إشاراتها، وتعتبروا منها، وتتفطنوا بما فيها من السرائر المرموزة والحكم المكنونة.

ومن علامات تعقلكم واتعاظكم: الصدق بمزخرفات الدنيا، والتقرب بها نحو

المولى ﴿إِنَّ الْمُصْذِقِينَ﴾ أي: المتصدقين ﴿وَالْمُصْذِقَاتِ﴾ أي: المتصدقات ﴿و﴾ هم الذين ﴿أَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ خالصًا عن شوب المن والأذى، طالبًا لمرضاته سبحانه ﴿يُضَاعَفُ لَهُمْ﴾ صدقاتهم في النشأة الأولى ﴿وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ [الحديد: 18] في النشأة الأخرى.

﴿و﴾ بالجملة: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ وأخلصوا في إيمانهم، وأكدوه بصوالح أعمالهم وإحسانهم ﴿أُولَئِكَ﴾ السعداء المقبولون ﴿هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ المتبالغون في الصدق، المقصرون على الإخلاص، المتمكنون في منهج حق اليقين ﴿وَالشَّهَدَاءُ﴾ الكاشفون المشاهدون، الحاضرون ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ المستغرقون بمطالعة لقائه ﴿لَهُمْ﴾ في النشأة الأخرى ﴿أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ الموعود لهم من قبل الحق على وجه لا مزيد عليه ﴿و﴾ المسرفون المفرطون ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بوحدة ذاتنا ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ الدالة على استقلالنا في تصرفاتنا عتوا وعنادا ﴿أُولَئِكَ﴾ الأشقياء المردودون هم ﴿أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [الحديد: 19] أي: ملازموها وملاصقوها، لا نجاة لهم منها.

﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاهُهُ ثُمَّ يَهيجُ فَتَرَبُّهُ مُضْفَرًا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْمُرُورِ ﴿٢٠﴾ مَا يَبْقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢١﴾﴾ [الحديد: 20، 21].

﴿اعْلَمُوا﴾ أيها المكلفون المعتبرون ﴿أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ أي: ما الحياة المستعارة الدنيوية، وما حاصلها وجل متاعها إلا ﴿لَعِبٌ﴾ مزخرف باطل في نفسها، يلعب بها أهل الغفلة والحجاب، ويتعبون بها أنفسهم بلا طائل ﴿وَلَهُمْ﴾ يلبيهم عما يهمهم ويعينهم من الحياة الأزلية الأبدية ولوازمها ﴿وَزِينَةٌ﴾ زينتها لهم شياطين قواهم وأمانيتهم من المطاعم الشهية، والملابس البهية، واللذات الوهمية، والشهوات البهيمية ﴿وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ﴾ بالمال والجاه والثروة، والسيادة بالأنساب والأحساب ﴿وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ بالمظاهرة والمعاونة، وتكثير العدد والعدد الغدد، والعقارات والتجارات، والمواشي والزراعات إلى غير ذلك من المزخرفات الفانية التي لا قرار لها

ولا مدار، بل مثلها ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ﴾ نزل وأنبت نباتًا ﴿أَغْجَبَ الْكُفَّارَ﴾ أي: الزَّراع ﴿تَبَاثُةً﴾ من كثرة ونضارته وكثافته ﴿ثُمَّ يَهْبِجُ﴾ يجف ويبيس بآفة وعاهة ﴿فَتَرَاهُ مُضْفَرًا﴾ بعدما كان مخضرًا في كمال البهجة والنضارة ﴿ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا﴾ هشيما تذروه الرياح حيث شاءت بلا فائدة ولا عائدة.

﴿وَ﴾ مع هذه الخسارة والحرمان في النشأة الأولى لأهل الغفلة والخذلان يكون لهم ﴿فِي الْآخِرَةِ﴾ المعدة للجزاء ﴿عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ لاشتغالهم بالدنيا وما فيها ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿مَغْفِرَةٌ﴾ ستّر ومحو لذنوب أصحاب المعاملات، ناشئة ﴿مِّنَ اللَّهِ﴾ الغفور الرحيم بمقتضى لطفه، وسعة رحمته وجوده ﴿وَرِضْوَانٌ﴾ منه سبحانه لأرباب القلوب والمكاشفات خير من الدنيا وما فيها بأضعافها وآلافها عند من تحقق تربية الإنسان، وسعة قلبه المصور على صور عرش الرحمن ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿مَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ عند الأحرار البالغين بدرجة الاعتبار والاستبصار ﴿إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾⁽¹⁾ [الحديد: 20] ومخائل الخديعة والزور، ومن اغتر بها ولعب بما فيها فقد استحق الويل والثبور، وحرم عليه الحضور والسرور.

ومتى سمعتم أيها المؤمنون المعتبرون حال الدنيا ومآلها، وحال العقبى وما يترتب عليها ﴿مَنَابِقُوا﴾ سارعوا، وبادروا بوفور الرغبة والرضا ﴿إِلَى﴾ تحصيل أسباب ﴿مَغْفِرَةٍ﴾ مرجوة ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ الذي رباكم على فطرة الهداية والتوحيد ﴿وَ﴾ وسائل دخول ﴿جَنَّةٍ﴾ وسيدة فسيحة ﴿عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ بحسب متفاهم العرف، وإلا فلا يكاد سعة الجنة وعرش الرحمن قلب الإنسان الكامل، كما يشهد به قلب العارف المحقق، المتحقق بمقام القلب الذي هو وعاء الحق، المنزه عن مطلق المقادير والتقادير ﴿أَعِدْتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ على وجه الإخلاص، وأكدوا إيمانهم وإخلاصهم بالرضا والتسليم بعموم ما جرى عليهم من القضاء، وفوضوا أمورهم كلها إلى المولى حتى صار علمهم منتهيا إلى العين، وعينهم إلى الحق.

﴿ذَلِكَ﴾ التحقق والانتهاه ﴿فَفَضَّلَ اللَّهُ﴾ بلا سبق شيء يوجبه ويجلبه، وعبودية

(1) قال في «عين الحياة»: يعني: حياة الدنيا مدرجة في إناء الماضي والمستقبل مثل: متاع الذي يبقى على حواشي الإناء بعد أكل صاحبه وإضافته إلى الغرور، إشارة إلى سرعة نفاذها لا يتوقف نفس إلا وقد يخرج، فالنفس الذي يخرج ولا يرجع؛ فهو ميت، والنفس الداخل لو لم يخرج؛ فهو ميت فليس له حظ في الحياة إلا القليل الذي يصحب النفس الداخل والخارج.

يستحقه، بل ﴿يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾ عنايةً منه سبحانه، وإحساناً ناشئاً عن محض الإرادة والاختيار، كيف ﴿وَاللَّهُ﴾ الغني في ذاته، المستغني مطلقاً عن عبادة مظاهره وأظلاله ﴿ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد: 21] ⁽¹⁾ والكرم العميم، يمن على من يشاء من عباده بمقتضى سعة رحمته وجوده حسب علمه المحيط باستعداداتهم وقابلياتهم.

﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ (٢٢) لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (٢٣) الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٢٤) لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (٢٥) [الحديد: 22-25].

إذ ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُّصِيبَةٍ﴾ أي: ما حدث من حادثة مفرحة أو موحشة، كائنة ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ أي: في أقطار الآفاق من الخصب والرخاء، والزلزلة والوباء إلى غير ذلك من المفرحات والموحشات الحادثة في الأنحاء والأرجاء ﴿وَلَا﴾ كائنة ﴿فِي أَنْفُسِكُمْ﴾ من العوارض المسرة، والشهوات الملذة، أو من الأمراض والملهمات المؤلمة ﴿إِلَّا﴾ ثبت حدوثها في ساعة كذا، في آن كذا، على وجه كذا ﴿فِي كِتَابٍ﴾ أي: في حضرة العلم الإلهي ولوح قضائه على اختلاف العبارات ﴿مَنْ قَبْلَ أَنْ نَبْرَأَهَا﴾ نخلقها ونظهرها؛ أي: ثبت حدوث الحادثة في وقتها في كتابنا قبل أن تخلق الحادثة بزمان لا يعلم أحد مقداره إلا نحن، ولا تستبعدوا من قدرتنا أمثال هذا ﴿إِنَّ ذَلِكَ﴾ الثبت والتقدير السابق، وإن كان عندكم عسير ﴿عَلَى اللَّهِ﴾ القادر المقتدر، الغالب على عموم المقدورات ﴿يَسِيرٌ﴾ [الحديد: 22] سهل في جانب قدرته وإرادته.

(1) يقول القشيري في تفسيره: وفي ذلك ردٌ على من يقول: «إن الجنة مُسْتَحَقَّةٌ على الطاعات، ويجب على الله إيصال العبيد إليها»؛ لأن الفضل لا يكون واجباً. ويقال: لما سمعت أسرار المؤمنين هذا الخطاب ابتدأت الأرواح مُقْتَضِيَةَ المسارعة من الجوارح، وصارت الجوارح مستجيبةً للمطالبة، مُسْتَبِشِرَةً برعاية حقوق الله؛ لأنها علمت أن هذا الاستدعاء من جانب الحق سبحانه. تفسير القشيري (391/7).

والسر في ثبوتها قبل خلقها: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا﴾ ولا تحزنوا أيها المجبولون على فطرة الكفران ﴿عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ من اللذات والشهوات المرغوبة ﴿وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ منها؛ ليكون فرحكم سبباً لكبركم وخيلائكم على ضعفاء الأنام، وفقراء الإسلام ﴿وَالْجُمْلَةُ:﴾ ﴿اللَّهُ﴾ المطلع على ما في استعدادات عباده من النخوة والاستكبار ﴿لَا يُحِبُّ كُلُّ مُخْتَالٍ﴾ ذو كبر وخيلاء منهم ﴿فَخُورٍ﴾ [الحديد: 23] مفاخر مباه؛ بسبب المال والجاه والثروة، والسيادة على أقرانه وأبناء زمانه.

وإذا كان الأمر كذلك فلا تسندوا الأمور إلى أنفسكم، بل فوضوا أموركم كلها إلى الله، وأسندوها إليه سبحانه بالأصالة، فلا تفرحوا ولا تحزنوا، بل افنوا في الله وابقوا؛ لتمكنوا ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: 55].

والمختالون المفتخرون هم ﴿الَّذِينَ يَتَخَلَّوْنَ﴾ ويمسكون أنفسهم عن التصديق والإنفاق، ويجمعون من حطام الدنيا مقدار ما يفتخرون بها، ويتفوقون على أقرانهم بسببها ﴿وَمِنْ غَايَةِ بَخْلِهِمْ وَإِمْسَاكِهِمْ:﴾ ﴿يَأْمُرُونَ النَّاسَ﴾ أيضاً ﴿بِالْبُخْلِ﴾ لئلا يلحق العار عليهم خاصة؛ وليعرضوا ويصرفوا ضعفاء الأنام عن امتثال أمر الله بالإنفاق؛ حتى لا ينالوا بالمشوبة العظمى، والكرامة الكبرى في النشأة الأخرى من عنده سبحانه ﴿وَمِنْ الْجُمْلَةِ:﴾ ﴿مَنْ يَتَوَلَّ﴾ ويعرض عن الله، ولم يشكر لنعمه، ولم يواظب على أداء حقوق كرمه فلا يضره سبحانه، ولا ينقص من علو شأنه وسمو برهانه ﴿فَإِنَّ اللَّهَ﴾ المتعزز برداء العظمة والكبرياء ﴿هُوَ الْغَنِيُّ﴾ بذاته عن إطاعة عباده، وإنفاقهم وشكرهم وكفرانهم ﴿الْحَمِيدُ﴾ [الحديد: 24] حسب أسمائه وصفاته الذاتية بلا افتقار له إلى محامد مظاهره ومصنوعاته.

ثم قال سبحانه على سبيل الامتنان لعموم عباده، وإرشاداً لهم إلى سبل السلامة والسلام، وحثاً لهم إلى الطاعات والعبادات: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ من مقام عظيم جودنا ﴿رُسُلَنَا﴾ المبعوثين إلى هداية العباد وإرشادهم إلى سبيل الرشاد، وأيدناهم ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ المعجزات الواضحات ﴿وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ﴾ المشتمل على الآيات الدالة على وحدة ذاتنا، وكمالات أسمائنا وصفاتنا ﴿وَوَ﴾ أنزلنا معهم ﴿الْمِيزَانَ﴾ الموضوع؛ للقسط والعدالة، كل ذلك ﴿لِيَقُومَ النَّاسُ﴾ المجبولون على الغفلة والنسيان ﴿بِالْقِسْطِ﴾⁽¹⁾ والعدل فيصIRON مستقيمين على صراط الله الأعدل الأقوم الذي هو

(1) يقول حقي في تفسيره (147/15): أي ليتعاملوا بينهم بالعدل إيفاء واستيفاء ولا يظلم أحد أحداً في ذلك، وإنزاله إنزال أسبابه والأمر بإعداده وإلا فالميزان من مصنوعات البشر وليس بمنزل من

الشرع القويم، والدين المستقيم المنزل على الرسول المبعوث بالخلق العظيم ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ﴾ لزعج المنحرف العنيد؛ إذ ﴿فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ للمائلين عن جادة الشريعة، والمتمردين عن الدين القويم.

﴿وَ﴾ إن كان أيضًا فيه ﴿مَنَافِعُ﴾ كثيرة ﴿لِلنَّاسِ﴾ لتوقف عموم الحرف والصنائع عليه ﴿وَ﴾ إنما أرسل سبحانه من أرسل، وأنزل معه ما أنزل ﴿لِيُعْلَمَ اللَّهُ﴾ أي: يظهر ويميز من عباده ﴿مَنْ يَنْصُرُهُ﴾ سبحانه ﴿وَ﴾ ينصر ﴿رُسُلَهُ﴾ المرسلين من لدنه؛ أي: من ينصر دينه المنزل على كل واحد من رسله المبعوثين من عنده؛ لإظهاره وترويجه ﴿بِالْغَيْبِ﴾ أي: قبل قيام الساعة وانكشاف السرائر؛ وما ذلك الإرسال والإنزال منه سبحانه إلا لابتلاء العباد واختبارهم، وإلا فهو منزله في ذاته عن إعانتهم ونصرهم ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ القادر المقتدر على أنواع الإنعام والانتقام ﴿قَوِيٌّ﴾ على إهلاك من أراد إهلاكه ﴿عَزِيزٌ﴾ [الحديد: 25] غالب على عموم مقدوراته بلا مظاهرة ومعاونة.

وإنما أمر سبحانه عباده بالجهاد؛ لينالوا بامثاله أعظم المثوبات.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٦﴾ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا

السما (روي) أن جبريل عليه السلام نزل بالميزان نفسه فدفعه إلى نوح عليه السلام وقال: مر قومك يزنوا به، وقال الإمام الغزالي رحمه الله أن الميزان المقرون بالكتاب هو ميزان البر والشعير والذهب والفضة أم تتوهم أنه هو الطيار والقيان ما أبعد هذا الحسبان وأعظم هذا البهتان فاتق الله ولا تتعسف في التأويل واعلم يقينا أن هذا الميزان هو ميزان معرفة الله ومعرفة ملائكته كتبه ورسله وملكه وملكوته ليتعلم كيفية الوزن به من أنبيائه كما تعلموا من ملائكته فالله هو المعلم الأول والثاني جبرائيل والثالث الرسول والخلق كلهم يتعلمون من الرسول ما لهم طريق في المعرفة سواء والكل عبارته بلا تغيير وليت شعري ما دليله على ما ذهب إليه من العدول عن الظاهر كذا في بحر العلوم - يقول الفقير: لعل دليله قوله تعالى: (شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط) أي حاكما بالعدل أو مقيما للعدل في جميع أموره، فإذا كان الله قائما بالعدل في جميع الأمور كان الواجب على العباد أن يقوموا به أيضا ولن يقوموا به حقيقة إلا بعد العلم الشامل والمعرفة الكاملة وهي معرفة الله فهي الميزان الكلي وما عداه من جميع الأمور مبني عليه وموزون به.

كُتِبَتْهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٧﴾ [الحديد: 26 - 27].

ثم قال سبحانه على سبيل التخصيص بعد التعميم؛ للاعتناء والاهتمام بشأن المذكورين: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾ إلى قومه حين فشا الجدل والمراء بينهم، وشاع انحرافهم عن المنهج القويم ﴿وَإِبْرَاهِيمَ﴾ حين ظهر الشرك وعبادة الأوثان والأصنام بين قومه ﴿وَوَ﴾ من كمال تعظيمنا وتكريمنا إياهما: ﴿جَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ أبدا ﴿فَمِنْهُمْ﴾ أي: بعض قليل من ذريتهما ﴿مُتَّبِعِدٌ﴾ بعض ﴿كَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد: 26] خارجون عن جادة العدالة والقسط الإلهي.

﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا﴾ وعقبنا ﴿عَلَى آثَارِهِمْ﴾ أي: بعد انقراضهم ﴿بِرُسُلِنَا﴾ وأيدناهم بالكتب والصحف وأنواع الآيات والمعجزات ﴿وَوَ﴾ بعدما انقضوا أيضا ﴿قَفَّيْنَا﴾ الكل ﴿بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ﴾ وأيدناه بروح القدس ﴿وَوَ﴾ من كمال صفوته، ونجابه عرقه وطيته: ﴿جَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ﴾ وآمنوا له، وتدينوا بدينه ﴿رَأْفَةً﴾ عطفًا ولينًا إلى حيث يعفون عن القاتل، ولا يضربون الشاتم والضارب ﴿وَرَحْمَةً﴾ يترحمون بها عموم عباد الله.

﴿وَوَ﴾ من شدة محبتهم ومودتهم بالنسبة إلى الله ابتدعوا ﴿رَهْبَانِيَّةً﴾ يبالغون بها في العبادات إلى حيث لا يطعمون، ولا يشربون أيامًا، ولا ينكحون قط، ولا يختلطون مع الناس، بل يوطنون نفوسهم في شعب الجبال والكهوف، وإنما ﴿ابْتَدَعُوهَا﴾ من تلقاء أنفسهم بلا رخصة منا إياهم؛ إذ ﴿مَا كُتِبَ لَهَا﴾ أي: الرهبانية، وما فرضناها وقدرناها ﴿عَلَيْهِمْ﴾ في دينهم وكتابهم، بل ما اختاروها ﴿إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ﴾ وطلبًا لمرضاته، ومع ذلك ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ أي: ما وافقت رهبانيتهم بدينهم وكتابهم؛ إذ كفروا بمحمد ﷺ، وهو من أعظم معتقدات دينهم وكتابهم فتركوه، وأنكروا عليه جهلاً وعنادًا ﴿فَآتَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بمحمد ﷺ ﴿مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ﴾ أي: أجر إيمانهم وأعمالهم بأضعاف ما استحقوا بأعمالهم ﴿وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾⁽¹⁾ [الحديد: 27]

(1) بترك رعايتهم ما ابتدعوها من الرهبانية؛ ابتغاء لوجهه، فحفظ السالك من هذه الآيات واجب على نفسه، ويرعى حق الرعاية كل شيء أوجب على نفسه في البداية من المجاهدات أو العبادات النافلة، ولا يرخص لنفسه أن يترك شيئًا مما باشرته في بداية أمره وعنفوان حاله وشرح إراداته؛

خارجون عن مقتضى دينهم وكتابهم بإنكار محمد ﷺ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٨﴾ إِنَّمَا يَعْلَمُ أَهْلُ الْكِتَابِ إِلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾ [الحديد: 28. 29].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله على مقتضى دين الرسل الماضين - صلوات الرحمن عليهم وسلامه - المبعوثين؛ لتبيين طريق توحيد الصفات والأفعال ﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾ واحذروا عن بطشه بمخالفة أمره ﴿وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ﴾ المرسل من عنده بطريق التوحيد الذاتي ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ﴾ نصيين ﴿مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ سبحانه، نصيباً عظيماً لإيمانكم بمحمد ﷺ، ونصيباً آخر لإيمانكم لمن قبله من الرسل ﴿وَيَجْعَلْ لَكُمْ﴾ سبحانه ببركة إيمانكم بمحمد ﷺ ﴿نُورًا﴾ مقتبساً من مشكاة النبوة والرسالة، المخصوص بالحضرة الختمية المحمدية ﴿تَمْشُونَ بِهِ﴾ بذلك النور إلى المحشر ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ سبحانه ببركته ذنوبكم ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(١) [الحديد: 28] لذنوب عباده، يرحمهم ويقبل منهم توبتهم إن

ليكون من المحفوظين. [عين الحياة].

(١) قال النيسابوري في تفسيره (205/1): عن أبي موسى الأشعري مرفوعاً «ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين: رجل من أهل الكتاب آمن ببعسى ثم آمن بمحمد ﷺ، فله أجران، ورجل أذب أمته فأحسن تأديبها وعلمها فأحسن تعليمها ثم أعتقها وتزوجها فله أجران، ورجل أطاع الله وأطاع سيده فله أجران» فإن قيل: لو كان الأمر كما قلتم، فكيف يجوز من جماعتهم جحدته ﷺ؟ قلنا: إما لأن هذا العلم به ﷺ كان حاصلاً عند العلماء بكتبهم ولم يكن لهم عدد كثير فجاز منهم كتمانهم ﷺ، وإما لأن ذلك النص كان نصاً خفياً لعدم تعيين الزمان والمكان بحيث يعرفه كل أحد، فجاز وقوع الشكوك والشبهات فيه. جاء في الفصل التاسع من السفر الأول من التوراة: أن هاجر لما غضبت عليها سارة تراءى لها ملك الله تعالى قال لها: يا هاجر أين تريدان؟ قالت: أهرب من سيدتي سارة. فقال: ارجعي إلى سيدتك وانخفضي لها فإن الله سيكثر زرعك وذريتك، وستحبلين وتلدان ابناً تسميه إسماعيل، من أجل أن الله سمع خشوعك، وهو يكون عيناً بين الناس وتكون يده فوق الجميع، ويد بجميع مبسوطة إليه بالخضوع. فقيل: هذا الكلام خرج مخرج البشارة لأنهم كانوا قبل الإسلام محصورين في البادية لا يتجاسرون على الدخول في

أخلصوا فيها.

وإنما يفعل بهم سبحانه ما يفعل من الكرامات المتضاعفة ﴿لَئَلَّا يَعْلَمَ﴾ أي: ليعلم يقيناً ﴿أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ﴾ ولا يستطيعون ﴿عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ وثوابه، بأن يجلبوه بإيمانهم وأعمالهم لو لم يرد سبحانه إتيانه إياهم تفضلاً وإحساناً ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ أَيُّضًا يَقِينًا﴾ ﴿أَنَّ الْفَضْلَ﴾ المطلق والإنعام والإحسان الكامل ﴿بِيَدِ اللَّهِ﴾ وفي قبضة قدرته، وتحت حكمه وحكمته ﴿يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ من عباده إرادة واختياراً ﴿وَاللَّهُ﴾ المتعزز برداء العظمة والكبرياء ﴿ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد: 29] والطول العميم، والكرم الجسيم على أرباب العناية من عباده.

جعلنا الله ممن تفضل علينا بمقتضى كرمه وجوده.

خاتمة السورة

عليك أيها المحمدي المترقب للفضل الإلهي وسعة لطفه وجوده أن تلازم على أداء ما افترض عليك من الطاعات والعبادات، وتداوم على الاتصاف بالآداب السنية والأخلاق المرضية المقتبسة من كتاب الله المنزل من عنده؛ لإرشاد منهج الرشاد وعموم السعادات، ومن سنن سيد السادات، وسند أرباب الولاية والكرامات، وتقتفي بآثار السلف المجتازين في مضمار المعارف والمكاشفات والمشاهدات، وإياك إياك الالتفات إلى مزخرفات الدنيا وما فيها من اللذات والشهوات العائقة عن التوجه إلى المولى والوصول إلى سدره المنتهى ﴿وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ [الحديد: 29].

أوائل العراق وأوائل الشام إلا على أتم خوف، فلما جاء الإسلام استولوا على الخافقين بالإسلام ومازجوا الأمم ووطنوا بلادهم ومازجتهم الأمم وحجوا بيتهن ودخلوا باديتهن بسبب مجاورة الكعبة.

سورة المجادلة

فاتحة سورة المجادلة

لا يخفى على الموحدين المتحققين به مقام الرضا والتسليم أن كل من توكل على الله، وفوض الأمور كلها إليه، ورجع في عموم الخطوب والملمات نحوه سبحانه متضرعاً إليه، خاضعاً خاشعاً، متذللاً سائلاً منه سبحانه مطلوبه، داعياً إليه لأجله أن يجيب له، ويصبيه إلى مطلوبه إن كان سؤاله منبعثاً عن محض العزيمة وخلص النية؛ إذ السؤال والدعاء على هذا المنوال إنما هو من أمارات الإجابة وإنجاح المأمور؛ إذ جريان الحوادث كلها بتوفيق الله وتيسيره، وصدور السؤال عن كمال الحضور إنما هو من علامات القبول، كما صدر مثل هذا عن المرأة المجادلة مع رسول الله ﷺ حين بسطت شكواها إلى الله متضرعة راجية للإنجاح منه سبحانه، ومن غاية إخلاصها وخضوعها: أجاب الله دعاءها، فأوحى سبحانه إلى حبيبه ﷺ في شأنها ما أوحى بعدما تيمن باسمه الأعلى فقال: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ المتجلى بكلماته على قلوب المخلصين ﴿الرَّحْمَنِ﴾ عليهم، يوفقهم على الإخلاص في مطلق العزائم المهمة لهم، المتعلقة بدينهم ﴿الرَّحِيمِ﴾ لهم، يوصلهم إلى ما وفقهم عليه.

﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بَصِيرٌ ۝١﴾ الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِمَّنِ اسَاءَ بِهِمْ مَا هُمْ بِأُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا آلِي اللَّهِ وَلَدَنَّهُمْ وَلِأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ۝٢﴾ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّ ذَلِكَ تُوعَطُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝٣﴾ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّ فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ [المجادلة: 1 - 4].

﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ﴾ السَّمْعُ الْمَجِيبُ لِمُنَاجَاةِ خُلَصِّ عِبَادِهِ، الْعَلِيمُ بِحَاجَاتِهِمْ ﴿قَوْلَ
الَّتِي﴾ أَيْ ادْعَاءِ الْمَرْأَةِ الَّتِي ﴿تُجَادِلُكَ﴾ يَا أَكْمَلَ الرُّسُلِ ﴿فِي﴾ حَقِّ ﴿زَوْجِهَا﴾ ⁽¹⁾ حِينَ
وَقَعَ بَيْنَهُمَا الظَّهَارُ.

رَوَى أَنَّ خَوْلَةَ بِنْتَ ثَعْلَبَةَ ظَاهِرَ عَنْهَا أَوْسُ بْنُ الصَّامِتِ، وَكَانَ الظَّهَارُ وَالْإِيلَاءُ
حِينَئِذٍ مِنْ عِدَادِ الطَّلَاقِ، فَاسْتَفْتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «حَرَمْتُ عَلَيْهِ» ⁽²⁾
فَكَرَّرَهَا، فَأَجَابَ ﷺ كَذَلِكَ ﴿وَوَ﴾ بَعْدَمَا أَيْسَتْ أَخَذَتْ ﴿تُشْتَكِي إِلَيَّ﴾ مَتَضَرِّعَةً
خَاشِعَةً فَجِيعَةً؛ إِذْ لَهَا أَوْلَادٌ صَغَارٌ، وَلَا مَتَعِدٌ لَهُمْ سِوَاهَا، فَقَالَتْ مُنَاجِيَةً إِلَى اللَّهِ
مُشْتَكِيَةً: اللَّهُمَّ إِنِّي أَشْكُو إِلَيْكَ، وَأَتَضَرَّعُ نَحْوَكَ، فَأَنْزِلْ عَلَيَّ نَبِيَّكَ مَا يُولِّفُ بَيْنِي وَبَيْنَ
زَوْجِي، وَتَرْحَمَ عَلَيَّ أَوْلَادِي الْمَعْصُومِينَ، وَهِيَ عَلَى هَذَا فَأَوْحَى سُبْحَانَهُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ
ﷺ: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ...﴾، ﴿وَاللَّهُ﴾ عَلَى مَا جَرَى بَيْنَكُمَا ﴿يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا﴾ وَتَرَاوُجَكُمَا
فِي الْكَلَامِ، وَكَيْفَ لَا ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ الْعَلِيمَ بِالسَّرَائِرِ وَالْخَفَايَا ﴿سَمِيعٌ﴾ لِأَقْوَالِ عِبَادِهِ
﴿بَصِيرٌ﴾ [الْمُجَادَلَةُ: 1] بِأَحْوَالِهِمْ وَنِيَاتِهِمْ؟

ثُمَّ يَبَيِّنُ سُبْحَانَهُ حُكْمَ الظَّهَارِ فَقَالَ: ﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُم مِّن نِّسَائِهِمْ﴾ وَالظَّهَارُ
هُوَ أَنْ يَقُولَ الرَّجُلُ لَامْرَأَتِهِ عِنْدَ الْخُصُومَةِ: أَنْتَ عَلَيَّ كَظَهَرِ أُمِّي؛ أَيْ: شَبِهَا.

(1) يَقُولُ ابْنُ عَجْبِيَّةٍ فِي الْبَحْرِ الْمَدِيدِ (6 / 261): هِيَ خَوْلَةُ، (فِي زَوْجِهَا) أَوْسُ،

الْكَلَامُ فِي شَأْنِهِ، وَفِيمَا صَدَرَ مِنْهُ فِي حَقِّهَا مِنَ الظَّهَارِ، أَوْ تَسْأَلُكَ وَتَسْتَفْتِيكَ. وَقَالَ

سَمْعٌ أَيْ: عَلِمَ وَأَجَابَ قَوْلَهَا، أَيْ: ادْعَاهَا. وَفِي «قَدْ» هُنَا مَعْنَى التَّوَقُّعِ؛

اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْمَرْأَةُ كَانَا يَتَوَقَّعَانِ أَنْ يُنْزَلَ اللَّهُ فِي مُجَادَلَتِهِمَا مَا يَفْرُجُ

الْفَخْرَ: هَذِهِ الْوَاقِعَةُ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ مَنْ انْقَطَعَ رِجَاؤُهُ مِنَ الْخَلْقِ، وَلَمْ

يُخَالِقْ، كَفَاءَ اللَّهِ ذَلِكَ الْمُهِمُّ. وَقَالَ الْقَشِيرِيُّ: لَمَّا صَدَقَتْ فِي

كُشْفِ مَقَرِّهَا مِنْ خَيْرِ اللَّهِ، أَنْزَلَ اللَّهُ فِي شَأْنِهَا: (قَدْ سَمِعَ اللَّهُ).

وَالْحُجَّةُ لِلْمُؤْمِنِينَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ فِي قَضِيَةِ الظَّهَارِ، لِيَعْلَمَ

بِالْطَّائِلَةِ الْمَكْرُورَةِ بِإِثْرِ الشُّكْوَى، قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ

عَنْهَا: «قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الرُّوحِ، الَّتِي تُجَادِلُ

حَدِيثُهَا وَإِنَّهَا تَحْتَ الدُّنَا وَتَتَابِعُ الْهَوَى

الَّتِي فِي الْغَلَبَةِ الْمَاضِيَةِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَ

عَبْدَتِهِ وَتَحَاوُرَ الْغَالِبَةِ الْمَاضِيَةِ، حَتَّى

يُخَالِقَ الْغَالِبَةَ بِإِثْرِ الشُّكْوَى (17/2).

المحرمة عليه، فكانت هي أيضًا محرمة على زوجها في عادة الجاهلية؛ لأن الحرمة سرت إليها بمجرد التشبيه، فصارت بمنزلة الأم، رد الله عليهم أمرهم هذا بقوله: ﴿مَنْ أُمَّهَاتِهِمْ﴾ بمجرد هذا القول الباطل ﴿إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ أي: ما أمهاتهم ﴿إِلَّا اللَّاتِي الرِّضَاعُ﴾، وأزواج النبي ﷺ اللاتي من أمهات المؤمنين ﴿وَأِنَّهُنَّ﴾ من شدة إفراطهم وطغيانهم ﴿لَيَقُولُنَّ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ﴾ مردودًا في الشرع ﴿وَزُورًا﴾ باطلاً منحرفًا عن الحق في نفسه؛ إذ لا يشبه الزوجة بالأم ﴿وَإِنَّ اللَّهَ﴾ المطلع لضمائر عباده ونياتهم ﴿لَعَفْوٌ﴾ لفرطات القائلين ﴿عَفْوٌ﴾ [المجادلة: 2] لذنوبهم لو تابوا واستغفروا.

﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ﴾ للتلافي والتدارك مناقضين ﴿لِمَا قَالُوا﴾ نادمين عنه، مسترجعين ﴿فَتُخْرِجُ رَقَبَةً﴾ أي: يلزمهم في الشرع تحرير رقبة في كل مرة؛ ليكون كفارة قولهم المنكر الباطل ﴿مَنْ قَبْلَ أَنْ يَتَمَاشَا﴾ أي: يستمتعا ويجتمعوا أي: المظاهر والمظاهر عنها ﴿ذَلِكَ﴾ أي: إلزام الكفارة عليكم ﴿ثَوَعُظُونَ﴾ به وترتدعون عنه خوفًا من الغرامة؛ إذ ليس هو من شيم أهل الإيمان، بل من ديدنة اهلية الأولى ﴿وَاللَّهُ﴾ المراقب على عموم أحوالكم وأعمالكم ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [دلة: 3] أي: بجميع أعمالكم ونياتكم فيها.

ن، ثم يجذو ولم يقدر على تحرير الرقبة ﴿فَصِيَامَ شَهْرَيْنِ﴾ أي: كفارة شهرين ﴿مُتَتَابِعَيْنِ﴾ متصلين، متوالي الأيام، فإن فصل وأقطر يوما التابع والتوالي؛ لتزجر نفسه وترتدع عنه، ولا يفعله قط، ولا يتكلم ضًا ﴿مَنْ قَبْلَ أَنْ يَتَمَاشَا﴾ ويتجامعا ﴿فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ﴾ ولم يقدر أو شبق مفروط ﴿فَإِطْعَامَ سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾ يعطى كل مسكين مدا

م الصوم والإطعام عند فقدان التجريد المذكور ﴿وَالَّذِينَ﴾

أصول أحكام الشرع والأوامر والنواهي والآداب الخيرية

وم العادات الجاهلية يتكلم في جاهليتهم والآداب

أكورة ﴿مُعَذِّبٌ﴾ المصطفى لأحوالكم والآداب

على أنفسكم ﴿تَعْلَمُونَ﴾ أي: تعلمون

﴿الْبَاطِلُ﴾ الباطل والآداب

﴿السَّكَانَةُ﴾ السكينة والآداب

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ يَنْتَبِهُ
 وَالْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ
 وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ
 شَيْءٍ إِلَّا هُوَ رَاسِخٌ فِيهِ وَلَا خُمُوسَةٌ إِلَّا هُوَ رَاسِخٌ فِيهِمْ وَلَا آدَنُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ
 أَيْنَ مَا كَانُوا أَنْتُمْ يَنْبِئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَهَوُا عَنِ النَّجْوَى
 ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نَهَوْا عَنْهُ وَيَتَنَبَّجُونَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا
 لَمْ يَحْيِكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصَلُّونَهَا فَيَنْسُوا
 الصَّيْرُ ﴿٨﴾﴾ [المجادلة: 5 - 8].

ثم قال سبحانه على سبيل الوعيد والتهديد: ﴿إِنَّ﴾ المسرفين المفرطين ﴿الَّذِينَ﴾
 يُحَادُّونَ ﴿ويعادون﴾ ﴿اللَّهُ وَرَسُولَهُ﴾ أي: يضعون حدودًا مخالفة لحدود الله ورسوله،
 ويختارونها مرأى ومجادلة، ومعاداة مع الله ورسوله ﴿كُبِتُوا﴾ أي: أكب وأحاط عليهم
 العذاب النازل من الله فهلكوا ﴿كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ من كفار الأمم الماضية
 ﴿و﴾ كيف لا نهلكهم ولا نستأصلهم؛ إذ ﴿قَدْ أَنْزَلْنَا﴾ لإصلاح أحوالهم وأخلاقهم،
 وعموم أطوارهم ﴿آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ واضحات مشتملات على حكم ومصالح لا تخفى
 فأبوا عنها، ولم يقبلوها، بل كذبوها وأنكروا عليها، وعلى من أنزلت عليه عتوا وعنادا؟
 ﴿و﴾ بالجملة: ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾ المستكبرين بما عندهم من الثروة والرئاسة ﴿عَذَابٌ﴾
 مُهِينٌ ﴿[المجادلة: 5]﴾ ⁽¹⁾ بحيث يبدل عزهم ذلاً، ونخوتهم لعنة وطرذاً.

(1) قال حفي في تفسيره (15 / 169): أي يعادونهما ويشاقونهما وكذا أولياء الله فان من عادى أولياء
 الله فقد عادى الله وذلك لان كلا من المتعادين كما انه يكون في عدوة وشق غيره عدوه الآخر
 وشقه كذلك يكون في حد غير حد الآخر غير أن لورود المحادة في أثناء ذكر-حدود الله دون
 المعادة والعشاقة من حسن الموقع ما لا غاية وراءه، وقال بعضهم: المحادة مفاعلة من لفظ
 الحديد والمراد المقابلة بالحديد سواء كان في ذلك حديد حقيقة أو كان ذلك منازعة شديدة
 شبيهة بالخصومة بالحديد وقال بعضهم في معنى الآية (يعادون) أي يضعون أو يختارون حدوداً
 غير حدودهما ففيه وعيد عظيم للملوك والأمراء السوء الذين وضعوا أمورا خلاف ما حده
 الشرع وسموها القانون ونحوه.

اذكر لهم يا أكمل الرسل ﴿يَوْمَ يَتَعَثُّهُمْ اللَّهُ﴾ من قبورهم ﴿جَمِيعًا﴾ بحيث لا يشذ أحد منهم ﴿فَيُنَبِّئُهُمْ﴾ ويخبرهم ﴿بِمَا عَمِلُوا﴾ أي: بجميع أعمالهم تفضيحا وتشهيرا لهم على رؤوس الأشهاد، بحيث ﴿أَخْصَاَهُ اللَّهُ﴾ وفصله عليهم على وجه لا يغيب عن حيلة علمه وإحصائه سبحانه من عملهم ﴿وَوَ﴾ هم قد ﴿نَسُوا﴾ لكثرتهم أو تهاونهم عليه ﴿وَوَ﴾ كيف لا يحصي سبحانه عليهم أعمالهم؛ إذ ﴿اللَّهُ﴾ بمقتضى الوهيته، وحيلة ظهوره ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ من مظاهره ﴿شَهِيدٌ﴾ [المجادلة: 6] حاضر غير مغيب ١٩

﴿أَ﴾ تستبعد شهادته سبحانه، وحضوره عند عموم مظاهره ومصنوعاته ﴿لَمْ تَرَ﴾ أيها المعتبر الرائي، ولم تعلم ﴿أَنَّ اللَّهَ﴾ المحيط بالكل بالالوهية والظهور ﴿يَعْلَمُ﴾ بعلمه الحضورى عموم ﴿وَمَا فِي السَّمَوَاتِ﴾ أي: الكائنات العلوية ﴿وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: الكائنات السفلية كلياتها وجزئياتها، محسوساتها ومعقولاتها، بحيث ﴿وَمَا يَكُونُ﴾ ويقع ﴿مِنْ نُّجْوَى﴾ وسر معهود بين ﴿ثَلَاثَةٍ﴾ يسرون بها ويضمرونها في نفوسهم ﴿إِلَّا هُوَ﴾ سبحانه ﴿زَابِعُهُمْ﴾ بل هو أعلم منهم بنجواهم، وأعرف بما في ضمائرهم منهم، بل هو العالم حقيقة ﴿وَلَا خَفِيَّةٌ﴾ أي: وكذا لا يقع نجوى بين خمسة مكنونة في ضمائرهم، مصونة عن غيرهم ﴿إِلَّا هُوَ﴾ سبحانه ﴿مَبْدِئُهُمْ﴾ بل علمه بها أتم وأكمل من علمهم.

﴿وَوَ﴾ بالجملة: ﴿لَا﴾ يقع ﴿أَذْنَى مِنْ ذَلِكَ﴾ الجمع ﴿وَلَا أَكْثَرَ﴾ منه ﴿إِلَّا هُوَ﴾ سبحانه ﴿مَعَهُمْ﴾ بل العالم العارف هو سبحانه بذاته ووحدته، إلا أنه ظهر في أشباحهم، وهو يأتيهم لا على سبيل المقارنة الذاتية والزمانية، ولا على سبيل الحلول والاتحاد، بل على طريق معية الظل مع ذي الظل، ومعية الأمواج مع الماء، والصور مع ذي الصورة، ولا يقيد أيضا معيته بالمكان، بل ﴿أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ كان معهم؛ لاستواء عموم الأمكنة دونه سبحانه، وتترزه عن المكان مطلقا.

وبالجملة: يعلم سبحانه منهم جميع ما ضلر عنهم، لكن لم يطلعهم بعلمه إياهم؛ لثلا يبطل حكمة التكليف الواقعة منه سبحانه بالنسبة إلى عموم عباده ﴿ثُمَّ﴾ بعد انقضاء أوان التكليف، وانقراض نشأة الاختبار ﴿يُنَبِّئُهُمْ﴾ سبحانه ﴿بِمَا عَمِلُوا﴾ أي: يخبرهم بجميع أعمالهم ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ المعدة؛ لتنفيذ الأعمال وترتب الجزاء، الموعودة عليها تفضيحا لهم، وتقريرا لما يستحق ويليق بهم من العذاب والتكال؛ لثلا يكون لهم على الله حجة، ولا ينسبوه إلى الظلم؛ إذ الإنسان جبل أكثر شيء جدلا،

وبالجملة: ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المطلع على عموم ما كان ويكون، غيباً وشهادةً، ظاهراً وباطناً ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ﴾ لمع عليه برق الوجود ﴿عَلَيْكُمْ﴾ [المجادلة: 7] ⁽¹⁾ بعلمه الحضورى، لا يعزب عن حيطة علمه شيء.

ثم قال سبحانه على سبيل التوبيخ والتقريع للمنافقين: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أيها الرائي ﴿إِلَى﴾ المنافقين ﴿الَّذِينَ نُهُوا﴾ ومنعوا ﴿عَنِ النَّجْوَى﴾ والتغامز فيما بينهم بالعيون والحواجب، حين جلسوا في مجلس رسول الله ﷺ مع المؤمنين فمنعهم ﷺ عن ذلك ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ إصراراً ومكابرة ﴿وَهُمْ حِينًا يَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ﴾ الموجب للحد الشرعي، أو ظهروا به وأفشوه ﴿وَالْعُدْوَانَ﴾ عن الأوضاع الشرعية ﴿وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ﴾ وتكذيبه، والإعراض عنه وعن دينه مهما أمكن لهم.

﴿وَ﴾ بالجملة: هم من جملة شكيمتهم وغيظهم: ﴿إِذَا جَاءُوكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿حَيَّوكَ﴾ على وجه النفاق ﴿بِمَا لَمْ يُحْيِكَ بِهِ اللَّهُ﴾ فيقولون: السام عليك، أو انعم صباحاً، مع أن الله سبحانه يقول: ﴿وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾ [النمل: 59]، ﴿وَ﴾ بعدما حيوك على مقتضى أهويتهم، وقصدوا مقتك في تحيتهم ﴿يَقُولُونَ﴾ حينئذ ﴿فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ ونجواهم: ﴿لَوْلَا﴾ أي: هلاً ﴿يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ لو كان محمد نبياً؟! فظهر من عدم تعذيب الله إيانا أنه ليس بنبي، قيل لهم حينئذ من قبل الحق: ﴿حَسْبُكُمْ جَهَنَّمُ﴾ عذاباً ﴿يُضَلُّونَهَا﴾ ويدخلونها ﴿فَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [المجادلة: 8] ⁽²⁾ مصيرهم جهنم.

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَنَجَّيْتُمْ فَلَا تَتَنَجَّوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَتَنَجَّوْا

(1) النجوى من تزيين الشيطان ليحزن الذين آمنوا . وإذا كانت المشاهدة غالبية، والقلوب حاضرة، والتوكل صحيحاً، والنظر من موضعه صائباً فلا تأثير لمثل هذه الحالات، وإنما هذا للضعفاء، تفسير القشيري (7/ 399).

(2) قال ابن عجيبة في البحر المديد (6 / 268): ألم تر إلى الذين نهوا عن الوقوع في أهل الخصوصية، والتناجي بما يسوؤهم ثم يعودون لما نهوا عنه، ويتناجون بالإثم والعدوان، وما فيه فساد البين وتشتيت القلوب، ومعصية الرسول بمخالفة سته، وإذا جاءوك أيها العارف، الخليفة للرسول، حيوك بما لم يحيك به الله، أي: خاطبوك بما لم يأمر الله أن تُخاطب به من التعظيم، ويقولون في أنفسهم، لولا يُعَذِّبُنَا اللهُ بن فعل من تصغيرهم، حسبهم نار القطيعة والبعد، مُخْلِذُونَ فيها، فبئس المصير .

بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُخْشَرُونَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُبَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُرُوا فَانْشُرُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَجَّيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةٌ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقْتُمْ فَإِذْ لَّمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾ [المجادلة: 9-13].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ عليكم ﴿إِذَا تَنَاجَيْتُمْ﴾ فيما بينكم ﴿فَلَا تَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ﴾ مثل مناجاة أولئك الأسياء المردودين، بل ﴿وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ﴾ الموجب لأنواع الخيرات، الجالب لأكرم المثوبات ﴿وَالْتَّقَوِ﴾ عن محارم الله، ولا سيما عن عصيان الرسول المستلزم لأنواع الحرمان والخسران ﴿وَو﴾ بالجملة: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾ المنتقم الغيور ﴿الَّذِي إِلَيْهِ تُخْشَرُونَ﴾ [المجادلة: 9] وترجعون في يوم البعث والجزاء.

﴿إِنَّمَا النَّجْوَى﴾ والإسرار بالإثم والعدوان، ومعصية الرسول إنما نشأ ﴿مِنَ الشَّيْطَانِ﴾ المضل المغوي، إنما يحملهم عليها ﴿لِيَحْزُنَ﴾ نجواهم بهذه الأوزار ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ويتغمموا بها ﴿وَو﴾ الحال أنه ﴿لَيْسَ﴾ الشيطان، وما يلقيهم من التناجي بالسوء ﴿بِضَارِّهِمْ﴾ أي: المؤمنين ﴿شَيْئًا﴾ من الضر ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ ومقتضى مشيئته ﴿وَو﴾ بالجملة: ﴿عَلَى اللَّهِ﴾ المراقب لعموم أحوال عباده ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المجادلة: 10] وأنه سبحانه يكفي لهم مؤنة شرور أعدائهم، ونجواهم بالسوء والعدوان.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ مقتضى أخلاقكم الحسنة، الموروثة لكم عن إيمانكم وعرفانكم: ﴿إِذَا قِيلَ لَكُمْ﴾ وقت تضيقكم وتحسبكم: ﴿تَفَسَّحُوا﴾ وتوسعوا ﴿فِي الْمَجَالِسِ﴾ أي: مطلق المجالس والمحافل ﴿فَافْسَحُوا﴾ ووسعوا مبادرين بلا مطل وتحرج وتضجر ﴿يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ﴾ ويوسع عليكم في عموم ما تريدون الوسعة فيه، بل ﴿وَإِذَا قِيلَ لَكُمْ﴾: ﴿انْشُرُوا﴾ وانهضوا، واخرجوا من المضائق والمجالس ﴿فَانْشُرُوا﴾ طائعين راغبين، مريدين الثواب من الله بتوسيعكم على إخوانكم، ولا تتوهموا الإذلال

بالنشوز، بل ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ﴾ القادر المقتدر على وجه الإنعام ﴿الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ﴾ ونشزوا عن المضائق؛ لمصلحة إخوانه طوعاً درجات من القرب والمكانة؛ إذ المؤمن العارف المتمكن في مرتبة اليقين الحقي لا يتفاوت عنده المدح والذم، والإعزاز والإذلال، والمضرة والمسرة، والمنح والمحن مطلقاً.

﴿و﴾ بالجملة: ﴿الَّذِينَ أَوْثَرُوا الْعِلْمَ﴾ من حضرة العلم الإلهي ﴿دَرَجَاتٍ﴾ لا يكتنه وصفها ولا حصرها ﴿و﴾ بالجملة: ﴿اللَّهُ﴾ المطلع بضمائركم ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من الاستكبار والاستكراه، وتوهم الإذلال والاستنكاف عن الامتثال ﴿خَيْرٌ﴾ [المجادلة: 11] يجازيكم على مقتضى خبرته.

ثم أشار سبحانه إلى تعظيم رسوله ﷺ، وتأديب من تبعه من المؤمنين المسترشدين منه فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ مقتضى إيمانكم بالله، وتصديقكم برسوله: إنكم ﴿إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ﴾ وأردتم المناجاة معه، والاستفادة منه ﷺ ﴿فَقَدِمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ﴾ أي: قدام مناجاتكم، وعرض حاجاتكم إليه ﴿صَدَقَةٌ﴾ تصدقاً لفقراء الله ﴿ذَلِكَ﴾ أي: التصديق لمحبة رسول الله ﷺ ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ في أولاكم وأخراكم ﴿وَأَطِيعُوا﴾ لنفوسكم من الميل إلى زخارف الدنيا ﴿فَإِنْ لَّمْ تَجِدُوا﴾ ما تنفقون ﴿فَإِنَّ اللَّهَ﴾ المطلع على نياتكم ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المجادلة: 12] على من فقد وجه الصدقة.

ثم قال سبحانه على سبيل الرخصة: ﴿أَاسْفَقْتُمْ﴾ وخفتم الفقر والفاقة من ﴿أَنْ تَقْدِمُوا﴾ وتصدقوا ﴿بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ﴾ أي: قدام مناجاتكم مع رسول الله ﷺ ﴿صَدَقَاتٍ﴾ أي: لكل نجوى صدقات ولو كلمة طيبة منبثة عن كمال المحبة والوداد ﴿فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا﴾ ولم تصدقوا؛ بسبب الإشفاق عن الفقر ﴿وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ أي: قبل منكم توبتكم إن صدرت عنكم على وجه الندم والإخلاص عن جريمة الإشفاق والتحسر على ما فوتتم، وبالجملة: عفا الله عنكم، وتجاوز عن جريمتكم ﴿فَأَقِمُْوا الصَّلَاةَ﴾ المؤقتة المكتوبة ﴿وَأَتُوا الزَّكَاةَ﴾ المفروضة المقدرة ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ في عموم الأوامر والنواهي على وجه الإخلاص ﴿وَاللَّهُ﴾ المطلع على ضمائركم ونياتكم ﴿خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المجادلة: 13] أي: بعموم أعمالكم وإخلاصكم فيها.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قَالُوا اقْرَأْ مَا خِصَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَاءً مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [١٤] أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً

فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿١٦﴾ لَنْ تَغْنَى عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ [المجادلة: 14، 17].

ثم أشار سبحانه إلى تفضيح المبالغين، وتوبيخهم فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أيها المعتبر الرائي ﴿إِلَى﴾ المنافقين ﴿الَّذِينَ تَوَلَّوْا﴾ أي: والوا وتحابوا ﴿قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ يعني: اليهود، واختاروا موالاتهم، وصاحبوا معهم في خلواتهم، واغتابوا المؤمنين عندهم، مع أنهم ﴿مَّا هُمْ﴾ أي: المنافقون ﴿مِنْكُمْ﴾ أيها المؤمنون حقيقة، وإن كانوا منكم ظاهرًا ﴿وَلَا مِنْهُمْ﴾ أي: من اليهود ظاهرًا، وإن كانوا منهم حقيقة ﴿وَلَوْ﴾ من شدة شقاقهم ونفاقهم: ﴿يَخْلِفُونَ﴾ بالله ﴿عَلَى الْكَذِبِ﴾ صريحًا، وهو دعوى الإسلام والإخاء مع المؤمنين ﴿وَلَوْ﴾ الحال أنه ﴿هُمْ يَغْلِبُونَ﴾ [المجادلة: 14] كذب أنفسهم، ويزورون بحلفهم على المؤمنين تغرييرًا، مع أنه لا نفع لحلفهم عند الله، ولا يدفع شيئًا من عذابه.

إذ ﴿أَعَدَّ اللَّهُ﴾ المراقب على عموم أحوالهم ﴿لَهُمْ﴾ أي: للمنافقين الحالفين على الكذب ﴿عَذَابًا شَدِيدًا﴾ أشد من عذاب اليهود المجاهرين بالكفر بلا زور وتزوير، وبالجمله: ﴿إِنَّهُمْ﴾ أهل النفاق من خبث طبيعتهم، وشدة شكيمنتهم ﴿سَاءَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المجادلة: 15] من التمرن على النفاق، والإصرار بموالاته أهل الشرك والشقاق.

قيل: نزلت في عبد الله بن نبتل المنافق؛ إذ كان رسول الله ﷺ جالسًا في حجرة من حجراته فقال لجلسائه: «يدخل عليكم الآن رجل قلبه قلب جبار، ينظر بعين شيطان» فدخل عبد الله بن نبتل، وكان أزرق، فقال ﷺ: «علام تشتمني أنت وأصحابك؟»⁽¹⁾، فحلف بالله ما فعل، ثم جاء أصحابه فحلفوا جميعًا على الكذب، وبالجمله: ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ﴾ الكاذبة ﴿جُنَّةً﴾⁽²⁾ وقاية لدمائهم وأموالهم ﴿فَصَدُّوا﴾ ومنعوا المؤمنين؛ بسبب حلفهم الكاذب ﴿عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الذي هو غزوه وقتلهم في

(1) رواه البخاري في «تفسيره» (61/1).

(2) يقول القشيري في تفسيره (401/7): مَنْ اسْتَرَجَنَ طَاعَتَهُ لَتُسَلِّمَ لَهُ دُنْيَاهُ فَإِنَّ سَهَامَ التَّقْدِيرِ مِنْ وِرَاءِهِ تَكْشِفُهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُ... فَلَا دِيْنَهُ يَبْقَى، وَلَا دُنْيَاهُ تُسَلِّمُ.

النشأة الأولى ﴿فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [المجادلة: 16] في النشأة الأخرى؛ لاستهانتهم بالله بالحلف الكاذب، ولا يدفع عنهم الإهانة والعذاب يومئذ أصلاً.

إذ ﴿لَنْ تُغْنِيَ﴾ وتدفع يومئذ ﴿عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنْ﴾ عذاب ﴿اللَّهِ شَيْئاً﴾ بل ﴿أُولَئِكَ﴾ الأشقياء البعداء عن منهج الحق ﴿أَصْحَابُ النَّارِ﴾ أي: ملازموها وملاصقوها؛ إذ ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [المجادلة: 17] مخلدون، لا يرجى نجاتهم منها أصلاً.

﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكَ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَوْفِ الْأَيْمَنِ هُمْ الْكَافِرُونَ﴾ (١٨) ﴿أَسْتَحْوِذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (١٩) ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ﴾ (٢٠) ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (٢١) ﴿لَا يَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنَّا وَيَدْخُلُهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (٢٢) [المجادلة: 18 - 22].

اذكر لهم يا أكمل الرسل على سبيل التوبيخ والتقريع ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ﴾ القادر المقتدر على الإحياء والإماتة في الإبداء والإعادة ﴿جَمِيعاً﴾ مجتمعين، فيعاتبهم بما صدر عنهم، مثلما عاتبهم رسول الله ﷺ ﴿فَيَحْلِفُونَ لَهُ﴾ أي: لله حيثذ على أنهم مسلمون مؤمنون ﴿كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾ الآن أيها المؤمنون ﴿وَيَحْسَبُونَ﴾ حيثذ أيضاً ﴿أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ نفع ودفع حاصل من حلفهم الكاذب، فيخيلون أنهم يروجون بالحلف الكاذب ما يدعون من الكذب على الله، كما يروجون عليكم اليوم، ولم يعلموا أن الناقد حيثذ بصير، والترويح إليه عسير.

﴿أَلَا﴾ تنبهوا أيها المؤمنون المخلصون ﴿إِنَّهُمْ﴾ أي: المنافقين ﴿هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المجادلة: 18] المقصرون على الكذب والزور، والتليس والغرور.

إِذْ «اسْتَخَوْذَ» أَي: غلب واستولى «عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ»^(١) المضل المغوي «فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ» المنقذ عن الضلال، المرشد إلى الهداية، وبالجملته: «أُولَئِكَ» الأشقياء المطرودون «حِزْبُ الشَّيْطَانِ» أَي: جنوده وأتباعه «أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ» [المجادلة: 19] المقصرون على الخسران المؤبد، والحصمان المخلد عن ربح المعرفة واليقين؟

أعاذنا الله وعموم عباده من متابعة الشيطان المضل المغوي.

ثُمَّ قَالَ سُبْحَانَهُ: «إِنَّ» المفسدين المسرفين «الَّذِينَ يُخَادُونَ» ويعادون «اللَّهَ وَرَسُولَهُ» ويتجاوزون عن الحدود الموضوعة في الشرع بالوضع الإلهي المنزل على رسوله بالوحي والإلهام «أُولَئِكَ» البعداء المجاوزون المعادون، المعدودون «فِي» زمرة «الْأَذْلِينَ» [المجادلة: 20] أَي: من جملة من أذله الله، وختم على قلبه، وجعل على بصره غشاوة، ولهم عذاب أليم.

وكيف لا يعد المتجاوزين من الأذلين؛ إذ «كَتَبَ اللَّهُ» العليم الحكيم، وأثبت في لوح قضائه بقوله: «لَا غَلْبَ» ألبته «أَنَا وَ» عموم «رُسُلِي» المرسلين من عندي بالحجج القاطعة، والبراهين الساطعة على عموم المظاهر والمخلوقات، وكيف لا يغلب سبحانه على مظاهره «إِنَّ اللَّهَ» المتردي برداء العظمة والكبرياء «قَوِيٌّ» في ذاته، لا حول ولا قوة إلا بالله «عَزِيزٌ» [المجادلة: 21] مقتدر غالب، يغلب مطلقاً في عموم مراداته ومقدوراته؟

ثُمَّ قَالَ سُبْحَانَهُ عَلَى سَبِيلِ الْعِظَةِ وَالتَّذْكِيرِ بَعْمومِ الْمُؤْمِنِينَ: «لَا تَجِدُ قَوْمًا

(١) قال البقلي: إذ رأى الشيطان أن يثبت في سبعة أرض النفس الأثارة حنظل الشهوة يثبت إليها، ويغريها إلى إنقاذ مرادها، فتكون النفس مركبة، فيهجم على بلد القلب ويغريه، بأن يَدْخُلَ فيه ظلمات الطبيعة وظلمات الشيطان، ولا يرى عن القلب مسلك الذكر وصفاته، فلما احتجب عن الذكر صار وطن إبليس وجنوده، غلب الملعون عليه، وهما يكون بإرادة الله سبحانه، وسببه اشتراء غرور الملعون وتزيتته، بأن يلبس أمر الدين بأمر الدنيا، ويغويه من طريق العلم، فإذا لم يعرف دقائقه صار فريسة الشيطان، قال شاه الكرمانى: علامة استحواذ الشيطان على العبد أن يشغله بعمارة ظاهره من المأكَل والملابس، ويشغل قلبه عن التفكير في آلاء الله ونعمه عليه، والقيام بشكره، ويشغل لسانه عن ذكر ربه بالكذب والغيبة والبهتان، ويشغل قلبه عن التفكير والمراقبة بتدبير الدنيا وجمعها، ويمنعه أكل الحلال ويرزقه الحرام.

يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴿الْمَعْدَ لِلْحِسَابِ وَالْجِزَاءِ﴾ ﴿يُؤَادُّونَ﴾ أي: لا تجدهم أن يوادوا ويحاببوا ﴿مَنْ خَادَّ اللَّهَ﴾ وعاداه ﴿وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا﴾ أي: الحادون العادون المعاندون ﴿آبَاءَهُمْ﴾ أي: آباء المؤمنين ﴿أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ وأقرباءهم، وذووا أرحامهم ﴿أُولَئِكَ﴾ المقبولون الممتنعون عن ودادة أعداء الله وأعداء رسوله ﷺ طلبًا لمرضات الله ومرضاة رسوله ﷺ ﴿كَتَبَ﴾ أي: أثبت ومكن سبحانه ﴿فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ﴾ وجعله راسخًا فيها.

﴿وَوَ﴾ لذلك ﴿أَيَّدَهُمْ بِزُوجٍ﴾ فائض ﴿مِّنْهُ﴾ ⁽¹⁾ محيي لهم أبد الآباد؛ إذ من يحيى بالإيمان والعرفان فقد دامت حياته، ولم يمت أبدًا ﴿وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ﴾ مترهات العلم والعين والحق ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي: أنهار المعارف والحقائق المترشحة من بحر الحياة الأزلي الأبدى الذي هو الوجود المطلق الإلهي ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ لا يتحولون عنها أصلاً؛ إذ ﴿رَضِيَ اللَّهُ﴾ المتجلي عليهم بالرضا ﴿عَنْهُمْ وَرَضُوا﴾ أيضًا ﴿عَنْهُ﴾ سبحانه بالتفويض والتسليم إليه ﴿أُولَئِكَ﴾ السعداء المقبولون عند الله ﴿حِزْبُ اللَّهِ﴾ وحوامل آثار أوصافه وأسمائه الذاتية، وقوابل عموم كلياته وشئونه وتطوراته ﴿أَلَّا﴾ أي: تنبهوا أيها الأظلال المستظلون بظلاله الممدودة من أزل الذات إلى أبد الأسماء والصفات ﴿إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: 22] ⁽²⁾ الفائزون من لدنه بالفوز

(1) هو الصدق في الطلب وحسن الإرادة المنتجة من بذل يحبهم ويحبونه وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء وإلا فمن خصوصية طبيعة الإنسان أن يمرق من الدين كما يمرق السهم من الرمية وإن كانوا يصلون ويصومون ويزعمون أنهم مسلمون؛ ولكن بالتقليد لا بالتحقيق، اللهم إلا من شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه انتهى. تفسير حقي (263/14).

(2) حزب الله أهل معرفته ومحبته وأهل توحيده الفائزون بنصرة الله من مهالك القربان ومصارع الامتحانات، وجدوا الله بالله، إذا ظهر واحد منهم ينهزم المبطلون وينكسر المغالطون؛ لأن الله ألبس على وجوههم نور هيئته، وأعلى لهم أعلام عظمتهم، يفر منهم الأساد، وتخضع عندهم الشامخات، كلاهم بحسن رعايتهم، ونورهم بسنا قربهم، ورفع لهم أذكارهم في العالمين، وعظم أقدارهم، وكنم أسرارهم، قال الحسين: حزب الله الذين إذا نطقوا بهروا، وإن سكنا فظهروا، وإن غابوا حضروا، وإن ناموا سهروا، وإن كملوا فكمّلوا، وإن نجت عنهم علل التخليط فظهروا، أولئك حزب الله إلى آخره، قال أبو سعيد الخراساني: حزب الله قوم علام البهاء والبهجة، فنعّموا، ولم يحتملوا الأذى، وصاروا في حرزه وحماه، فغلب نورهم الأنوار أجمع، وغلب مقامهم المقامات أجمع وهمومهم الهمم أجمع، فكانوا في عين الجمع مع الحق أبدًا، وقال ابن عطاء: إن لله عبادًا اتصاليهم به دائم، وأعينهم به فريرة أبدًا لا حياة لهم إلا به؛ لاتصال قلوبهم به والنظر

العظيم، والفضل الجسيم، والكرم العميم.

خاتمة السورة

عليك أيها الطالب المترقب للفلاح، والفوز بالنجاح أن تتمكن في مقام التسليم والرضا بعموم ما جرى عليك من القضاء، وتلازم على آداب الخدمة بين يدي الله في عموم أوقاتك وحالاتك، فاغزاً همك وسرك عن مطلق الوسوس والأشغال العائقة عن التوجه نحو المولى، وتواظب على الطاعات والعبادات في خلال الخلوات؛ لتكون مصونة عن السمعة والرياء، والميل إلى العجب والهوى، وإياك إياك أن تتلطف بقاذورات الدنيا ومزخرفاتها الملهية عن اللذات الأخروية، المستتعبة للسلاسل والأغلال الإمكانية، المبعدة عن الوصول إلى فضاء الوجوب وصفاء الوحدة الذاتية التي عبر بها عن النعيم الموعود، والحوض المورود، والمقام المحمود. جعلنا الله ممن وصل إليه، وتمكن دونه بمئه وجوده.

إليهم بصفاء اليقين، فحياتهم موصولة لا موت لهم أبداً، ولا صبر لهم عنه لا تقدر أرواحهم، فعلقها عنده، فثم ماواها قد غشى قلوبهم من النور ما أضاءت به، فأشرقوا ونما زيادتها على الجوارح، وصاروا في حرزه وحماه أولئك حزب الله إلخ، قال رويم: صفتهم أنهم اطمأنوا إلى الله، وهم أولياء الله وخاصته، وأمان بلاده فأعين قلوبهم ناظرة إلى ربهم، وآذان قلوبهم سامعة منه، وهم الذين اصطفاهم الله واختارهم وهداهم إلى نفسه، وسترهم عن خلقه أولئك حزب الله إلخ. [عرائس البيان].

سورة الحشر

فاتحة سورة الحشر

لا يخفى على من تحقق بنحيطه الحق وشموله على عموم ما ظهر وبطن في الآفاق والآنفس علماً وعيًّا، غيًّا وشهادةً، دنيا وعقبى أن عموم المظاهر والمجالي متوجهة إلى المبدأ الحقيقي، منجذبة نحوه طوعًا، عابدة له رغبةً، ساجدة إياه على وجه الخضوع والخشوع والانكسار التام، والتذلل المفرط، منزهة مسبحة له عن شوب النقص، وسمت الحدوث والزوال.

كما أخبر سبحانه حبيبه ﷺ تنبيهًا له، وتأيدًا لأمره؛ ليكون هو ومن تبعه من المؤمنين الموحدين على ذكر من ربهم الذي رباهم على الدراية والشعور بمطلق المراتب الواقعة في الوجود الإلهي، ومظاهر وحدته الذاتية المتجلية حسب الشئون والتطورات الغير المتناهية، المترتبة على الأسماء والصفات الذاتية الغير المحصورة، فقال بعدما تيمن باسمه الأعلى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ الذي ظهر على عموم ما ظهر وبطن بالحكمة المتقنة العلية ﴿الرَّحْمَنُ﴾ بجميع مظاهره بإفاضة الجود المتجلية على الصور البديعة ﴿الرَّحِيمُ﴾ لهم بالإعادة والإرجاع إلى الفطرة الأصلية والمبدأ الحقيقي.

﴿سَبِّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (١) ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَلْتَهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ﴾ (٢) ﴿وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ﴾ (٣) ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِ اللَّهَ﴾ (٤) ﴿فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (٥) [الحشر: ١ - ٤].

﴿سَبِّحَ لِلَّهِ﴾ ونزّهه تنزيهًا لا ثقلًا بجنابه سبحانه مظاهر ﴿مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي

الأرض ﴿﴾ كيف لا ﴿هُوَ الْعَزِيزُ﴾ بذاته، المتعزز برداء العظمة والكبرياء ﴿الْحَكِيمُ﴾⁽¹⁾
[الحشر: 1] المتقن المدبر لمصالح عباده كيف شاء؟

وبالجملة: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ﴾ بمقتضى عزته وحكمته المسرفين ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾
بالله وبرسوله، وهو إجلاء بني النضير، مع أنهم ﴿مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ﴾
المألوفة، وأوطانهم المأنوسة زجراً عليهم، وتذليلاً لهم واقعاً إياهم ﴿لِلأَوَّلِ الْحَشْرِ﴾
أي: في أول حشرهم، وإجلالهم الواقع عليهم بظهور الإسلام؛ إذ أجلى رسول الله ﷺ
بني النضير أولاً من المدينة إلى الشام، ثم أجلى بقية الكفرة عمره ﷺ في خلافته، انظروا
كيف أخرجهم سبحانه بكمال قدرته وعزته، مع أنكم ﴿مَا فَتَنْتُمْ﴾ أيها المؤمنون من
﴿أَنْ يَخْرُجُوا﴾ لشدتهم وشوكتهم، واستحكام أماكنهم وقلاعهم ﴿وَ﴾ هم أيضاً ﴿ظَنُّوا﴾
أنهم ﴿مَنْعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ﴾ أي: ظنهم لأنفسهم أن حصونهم تمنعهم ﴿مِنْ﴾ بأس ﴿الله﴾
المنتقم الغيور وبطشه وإن اشتد، لكن لم ينفعهم الحصون والقلاع حين نزول العذاب،
بل ﴿فَأَنَآهُمُ اللهُ﴾ أي: القهر الهائل من لدنه ﴿مِنْ حَيْثُ لَمْ يَخْتَسِبُوا﴾ أي: من صوب
وجهة لم يتوقعوا.

﴿وَ﴾ ذلك أنه ﴿قَدَفَ﴾ وألقى سبحانه ﴿فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾ الشديد، والخوف
العظيم من غير قتال، وبسبب ذلك الرعب الهائل أخذوا ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ﴾
ضناً بها على المسلمين، وإخراج ما فيها من الأمتعة ﴿وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ أيضاً، فإنهم
أيضاً كانوا يخرّبون بيوتهم إذلالاً لهم، وتوسيقاً لمضمار الحرب والقتال، وبالجملة:
﴿فَاغْتَبَرُوا يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الحشر: 2] واتعظوا بما جرى على هؤلاء الغواة الطغاة،
يثقون بحصونهم ويشيدونها؛ ليتحصنوا بها من بأس الله، ثم لما اضطروا أخذوا يخرّبون
بأيديهم ما يعتمدون عليه، ويستحفظون به؛ وذلك من كمال قدرة الله ومثانة حكمته.

(1) قال في عين الحياة: بعزته حذف القوة الحافظة والذاكرة والمتفكرة والمتخلية وأخواتها في
سماوات الدماغ لثلا يصل إليها أبخرة المعدة وقاذوراتها ويحكمه أودع القوى الجارية والعارية
والهاضمة والدافعة، وأخواتها من أرض البدن ليريتها ويدفع منها ما يضرها ويجذب إليها ما
ينفعها؛ ليصل كل جزء إلى كلها، ويلحق كل فرع بأصلها في السفل والترقي وكشف هذا السر
من حد القرآن.

﴿وَوَيْلٌ لِلْجُمَلَةِ: ﴿لَوْ لَا أَن كَتَبَ اللَّهُ﴾ المصلح لأمر دنياهم، ولم يفترض ﴿عَلَيْهِمُ الْجَلَاءُ﴾ ولم يخرجهم من أوطانهم ﴿لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا﴾ بالقتل والأسر، وأنواع الإذلال والصغار، كما جرى على الكفرة المتمكنين في أماكنهم بعدهم ﴿وَوَيْلٌ﴾ مع ذلك الإصلاح والكرامة لهم في الدنيا ﴿لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ﴾ [الحشر: 3] بواسطة إصرارهم على الكفر، وإنكارهم على الإسلام.

﴿ذَلِكَ﴾ الإذلال والصغار لهم في الدنيا والآخرة ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ أي: بسبب أنهم ﴿شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ بمخالفة أمرهما، والخروج عن حكمهما ﴿وَمَنْ يُشَاقِ اللَّهَ﴾ يعاقبه ألبتة ﴿فَإِنَّ اللَّهَ﴾ المنتقم الغيور ﴿شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الحشر: 4] صعب الانتقام، أليم العذاب على عصاة عباده إرادة واختياراً.

ثم لما توجه رسول الله ﷺ إلى بني النضير حين نقضوا العهد الذي عهدوا مع الله ورسوله، تحصنوا بحصونهم وامتنعوا عن الإسلام، فأمر رسول الله ﷺ بقطع نخلمهم وحرقت بساتينهم، قالوا: يا محمد كنت تنهى عن الفساد في الأرض، فما بال قطع النخل وحرقتها؟!.

﴿مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْتَةٍ أَوْ نَرَكْتُمْ هَا فَاقِمْهُ عَلَىٰ أُسُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْرِجَ الْفَاسِقِينَ﴾
 ﴿وَمَا آفَاءَ اللَّهِ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾
 ﴿وَالرَّسُولُ وَلِئِىَ الْقُرَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَى لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا إِلَيْكُمُ الرُّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾
 [الحشر: 5 - 7].

فسمع المؤمنون منهم ذلك، وأوجسوا في نفوسهم الكراهة، وعدم اللياقة، فنزلت: ﴿مَا قَطَعْتُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿مِنْ لَيْتَةٍ﴾⁽¹⁾ أي: من بعض نخلة من النخلات

(1) كل نوع من النخل ما عدا العجوة والبرزني.

﴿أَوْ تَرَكْتُمُوهَا﴾ بلا قطع شيء منها ﴿قَائِمَةً عَلَى أَصُولِهَا﴾ على ما كانت ﴿فَبِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي: القطع والترك كلاهما بأمر الله وحكمه ﴿وَوَ﴾ إنما أمركم بالقطع والحرق ﴿لِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الحشر: 5] ⁽¹⁾ أي: يردبهم ويذلهم بما غاظهم، ويضيق صدرهم.

﴿وَوَ﴾ اعلّموا أيها المؤمنون أن ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ﴾ أي: ردّ الله وأعطاه ﴿عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ﴾ أي: من يهود بني النضير من الأموال والعقار فهو لرسول الله خاضعة خالصة، له أن يفعل به حيث شاء بلا حق لكم فيها، ليس مثل سائر الغنائم ﴿فَمَا أَوْجَفْتُمْ وَأُجْرِيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ أي: على تحصيله ﴿مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ نجائب الإبل؛ إذ هم مشوا إلى بني النضير رجالاً لا فرساناً، وكانت المسافة ميلين من المدينة، ومع ذلك لا يقاتلون معهم مقاتلتكم مع سائر الكفرة ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ﴾ المتقم الغيور ﴿يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾ من المستوجبين للطرد والمقت بلا وسائل القتال والحراب، بل يقذف الرعب، وإلقاء الخوف في قلوبهم وغير ذلك من الأمور الخارقة للعادة، الموجبة للهزيمة، لا عن شيء ﴿وَاللَّهُ﴾ القادر المقتدر ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ موجب لقهر أعدائه، ونصر أوليائه ﴿قَدِيرٌ﴾ [الحشر: 6] سواء وافق العادة أو لا.

وبالجملة: ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ﴾ أموال ﴿أَهْلِ الْقُرَى﴾ الهالكة بالغلبة والاستيلاء بلا مقاتلة وحراب ﴿فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ سهم ﴿وَلِلَّذِي الْقُرَى﴾ من بني هاشم وبني المطلب سهم ﴿وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ سهام، وإنما قسم سبحانه مال الفيء بنفسه ﴿كَيْ لَا يَكُونَ﴾ الفيء الذي حقه أن يصل إلى الفقراء ﴿ذُولَةً﴾ متداولة

(1) قال القشيري (7 / 405): لما أمر رسول الله ﷺ بقطع بعض نخيل بني النضير قالت اليهود: ما فائدة هذا؟ فبقي المسلمون عن الجواب، فأنزل الله تعالى هذه الآية ليوضح أن ذلك بإذن الله ... فانقطع الكلام . وفي هذا دليل على أن الشريعة غير مغللة، وأن الأمر الشرعي إذا جاء بطلّ التعليل، وسكتت الألسنة عن المطالبة بـ «لِمَ؟» وخطور الاعتراض أو الاستعجاب خروج عن حدّ العرفان . والشيوخ . قالوا: من قال لأستاذه وشيخه: «لِمَ؟» لا يفلح . وكلّ مريد يكون لامثال هذه الخواطر في قلبه جَوْلَان لا يجيء منه شيء . ومن لم يتجرّد قلبه من طلب التعليل، ولم يباشِر حُسْنَ الرضا بكلّ ما يجري واستحسان ما يبدو من الغيب ليبرّه وقلبه - فليس من الله في شيء .

﴿بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ﴾ ورؤسائكم، كما هو عادة الجاهلية الأولى. ﴿و﴾ بعدما قسم سبحانه في كتابه ﴿مَا آتَاكُمْ﴾ وأعطاكم ﴿الرَّسُولُ﴾ المستخلف منه سبحانه ﴿فَخُذُوهُ﴾ بلا مرء ومجادلة معه ﴿وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ﴾ بإذن الله ﴿فَانْتَهُوا﴾ أيضاً عنه بلا مكابرة وإصرار ﴿و﴾ بالجملة: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾ عن مخالفة أمره، وأمر رسوله النائب عنه، واحذروا عن بطشه وانتقامه ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ القادر على وجوه الانتقام ﴿شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الحشر: 7] على من خرج من ربة عبوديته، ومقتضى ألوهيته.

﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ (٨) ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (٩) ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (١٠) [الحشر: 8 - 10].

ثم بين سبحانه مصارف الفيء بعد إخراج سهم الله ورسوله، وقدم منهم فقراء المهاجرين اهتماماً بشأنهم فقال: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ﴾ أي: أخرجهم المشركون، ونهبوا أموالهم، وسبوا أولادهم، والحال أنهم في مصائبهم هذه ﴿يَبْتَغُونَ﴾ ويطلبون ﴿فَضْلًا﴾ تفضلاً وإحساناً ﴿مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾ منه سبحانه؛ لكمال تمكنهم ورسوخهم في مقام الرضا والتسليم ﴿و﴾ مع ذلك ﴿يَنْصُرُونَ اللَّهَ﴾ بترويج دينه، وإعلاء كلمة توحيده ﴿وَرَسُولَهُ﴾ بالمعاونة والمظاهرة، وبذل المال والنفس في تقويته ونصره ﴿أُولَئِكَ﴾ السعداء المقبولون، الباذلون مهجهم في طريق الحق، وتقوية دينه القويم وصراطه المستقيم، ونصرة رسوله الكريم ﴿هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحشر: 8] المقصرون على الصدق والإخلاص ظاهراً وباطناً.

﴿و﴾ بعد أولئك الفقراء الأنصار، وهم ﴿الَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ﴾ أي:

توطنوا وتمكنوا في المدينة، ورسخوا على الإيمان والإسلام بالعزيمة الصادقة الخالصة ﴿مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي: قبل هجرة المهاجرين إليها، ومع رسوخهم وتمكنهم في الإيمان ﴿يُحِبُّونَ﴾ محبة خالصة ﴿مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ من المؤمنين ﴿وَو﴾ من كمال محبتهم وإخلاصهم بإخوانهم المهاجرين: ﴿لَا يَجِدُونَ فِي ضُدُورِهِمْ﴾ ووجدانهم ﴿حَاجَةً﴾ باعثة لهم إلى أن يحسدوا ﴿مِمَّا أُوتُوا﴾ وأعطوا؛ أي: المهاجرين من سهام الفتي، وسائر الغنائم والصدقات؛ وذلك من غاية محبتهم ومودتهم بالنسبة إليهم، بل ﴿وَيُؤْثِرُونَ﴾ أي: يختارون ويقدمون المهاجرين ﴿عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ حتى إن من كان له امرأتان نزل عن واحدة وزوجها على أحدهم.

وبالجملة: يؤثرونهم ويختارونهم؛ أي: المهاجرين على أنفسهم في آخر ما أثروا لنفوسهم ﴿وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ ⁽¹⁾ أي: حاجة شديدة بليغة، ومحبة بالنسبة إلى ذلك الشيء، وما هو إلا من فرط محبتهم وإخلاصهم بالنسبة إلى إخوانهم المهاجرين ﴿وَو﴾ بالجملة: ﴿مَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ﴾ ويخالفها حتى يمنعها عن مقتضاها طلباً لمرضاة الله، ورعاية لجانب أخيه المسلم ﴿فَأُولَئِكَ﴾ السعداء المحافظون على آداب الأخوة والمرؤة ﴿هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: 9] المقصرون على الفوز العظيم من عنده سبحانه عاجلاً وآجلاً، في العاجل بالذكر الجميل، وفي الآجل بالجزاء الجزيل.

﴿وَو﴾ بعد فقراء الأنصار للفقراء التابعين، وهم ﴿الَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَغْدِهِمْ﴾ مهاجرين من بقعة الإمكان نحو فضاء الوجوب، مقتفين أثر أولئك الكرام، مريدين لهم بإحسان، مذكرين لهم بغفران، حيث ﴿يَقُولُونَ﴾ في مناجاتهم مع ربهم في خلواتهم، وأعقاب صلواتهم: ﴿رَبَّنَا﴾ يا من ربنا على فطرة الإسلام ﴿اغْفِرْ لَنَا﴾ ذنوبنا التي

(1) تقول العرب: فلان مخصوص إذا كان فقيراً، فيؤثرون رضا الله على هواهم، والإيثار شاهد الحب. وقد حكى عن وهيب بن الورد أنه قال: يقول الله: «أوعزتي وعظمتي وجلالي، ما من عبد أثر هواي على هواه إلا قللت همومه وجمعت عليه ضيعته، ونزعت الفقر من قلبه، وجعلت الغنى بين عينيه، واتجرت له من وراء كل تاجر، وعزتي وجلالي، ما من عبد أثر هواه على هواي إلا كثرت همومه، وفرقت عليه ضيعته، ونزعت الغنى من قلبه، وجعلت الفقر بين عينيه، ثم لا أبالي في أي واد هلك». تفسير التستري (2/136).

صدرت عنا ﴿وَلَا إِخْوَانَنَا﴾ في الدين، وهم ﴿الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ وسلوك طريق
العرفان ﴿وَوَ﴾ بالجملة: ﴿لَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا﴾ يا مولانا ﴿غِلًّا﴾ حقدا وحسدا ﴿لِلَّذِينَ
آمَنُوا﴾ مطلقا، لا للسابقين ولا لللاحقين ﴿رَبَّنَا﴾ يا من ربانا على الإخلاص والتوفيق
تقبل منا مناجاتنا، واقض لنا حاجاتنا ﴿إِنَّكَ رءُوفٌ﴾ عطوف على عموم عبادك، سيما
المخلصين منهم ﴿رَحِيمٌ﴾ [الحشر: 10] تقبل توبتهم، وتغفر زلتهم إن استغفروا نحوك
نادمين عما صدر عنهم.

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ
أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ
لَكَاذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ
الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَنْصُرُونَ ﴿١٢﴾ لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا
يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يَقْتُلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى مُعَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَزَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ
شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [الحشر:
11 - 14].

ثم قال سبحانه على سبيل التوبيخ والتفريع: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أيها الرائي ﴿إِلَى الَّذِينَ
نَافَقُوا﴾ مع المؤمنين حيث ﴿يَقُولُونَ﴾ في خلواتهم ﴿لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ
الْكِتَابِ﴾ وكان بينهم صداقة الشرك وأخوة الكفر، وموالاتة البغض مع المؤمنين: لا
تصالحوا مع هؤلاء المدعين؛ يعنون: المؤمنين، وأنا معكم، والله ﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ﴾ من
دياركم عنوة ﴿لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ﴾ البته ﴿وَلَا نُطِيعُ﴾ ونتبع ﴿فِيكُمْ﴾ أي: في قتالكم
وحربكم ﴿أَحَدًا أَبَدًا﴾ من هؤلاء الأعداء ﴿وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ﴾ ونعاوننكم البته
بلا خلف منا ﴿وَاللَّهُ﴾ المطلع على عموم أفعالهم ونياتهم فيها ﴿يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾
[الحشر: 11] في قولهم وعهدهم هذا مع إخوانهم.

حيث قال سبحانه: ﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ﴾ البته ﴿وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا

يَنْصُرُونَهُمْ ﴿جَزَاءً﴾ وَقَدْ وَقَعَ ذَلِكَ، فَإِنْ أَبِي وَأَصْحَابِهِ عَاهَدُوا مَعَ بَنِي النَّضِيرِ عَلَى هَذَا، ثُمَّ أَخْلَفُوهُمْ، وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ، وَهَؤُلَاءِ لَمْ يَخْرُجُوا ﴿وَلَيْتَن نُّصَرِّوهُمْ﴾ بِالْفَرَضِ وَالتَّقْدِيرِ، وَيُقَاتِلُوا مَعَكُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ مِنْ جَانِبِ عَدُوِّكُمْ، وَاللَّهُ ﴿لَيَوَلِّيَنَّ الْأَذْبَارَ﴾ وَقَدْ كَرَّمَهُمْ عَلَيْهِمْ ﴿ثُمَّ لَا يَنْصُرُونَ﴾ [الحشر: 12] بَعْدَ ذَلِكَ؛ لَشِدَّةِ خَوْفِكُمْ وَرَعْبِكُمْ فِي قُلُوبِهِمْ.

وبالجملة: ﴿لَا تَنْتُمْ﴾ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ ﴿أَشَدُّ رَهْبَةً﴾ مَرَهُوبِيَّةً وَمَرَعُوبِيَّةً رَاسِخَةً ﴿فِي صُدُورِهِمْ﴾ مَتَمَكِّنَةً فِي نَفْسِهِمْ مِنْ قَبْلِكُمْ، وَالْحَالُ أَنَّ تِلْكَ الرَّهْبَةَ الشَّدِيدَةَ الْحَاصِلَةَ مِنْكُمْ إِيَّاهُمْ نَاشِئَةٌ ﴿مِنْ اللَّهِ﴾ إِذْ هُوَ سَبَّحَانَهُ قَذَفَهَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ جَانِبِكُمْ، وَأَقْدَرَكُمْ عَلَيْهَا ﴿ذَلِكَ﴾ أَيُّ: عَدَمِ تَفْطِنِهِمْ بِمَنْشَأِهَا ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [الحشر: 13] وَلَا يَعْلَمُونَ عَظَمَةَ اللَّهِ، وَحَقَّ قُدْرَهُ حَتَّى يَخْشَوْا مِنْهُ حَقَّ خَشْيَتِهِ.

وبالجملة: لَا تَبَالُوا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ بِوَدَادَةِ الْمُنَافِقِينَ مَعَ الْيَهُودِ، وَاتِّفَاقِهِمْ مَعَهُمْ؛ إِذْ ﴿لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا﴾ مُجْتَمِعِينَ مُتَّفَقِينَ ﴿إِلَّا فِي قَرْيٍ مُخَصَّنَةٍ﴾ مُحَصَّوْرَةٍ، مَسُورَةٍ بِالْأَرْبَابِ وَالْخَنَادِقِ ﴿أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ﴾ يَسْتَحْصِنُونَ بِهَا؛ وَذَلِكَ مِنْ فُرْطِ رَعْبِهِمْ، وَشِدَّةِ رَهْبَتِهِمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَإِلَّا ﴿بِأَنَّهُمْ يَتَنَبَّهُونَ شَدِيدًا﴾ أَيُّ: حِينَ حَارَبَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، أَوْ مَعَ غَيْرِ الْمُؤْمِنِينَ، قَتَالَهُمْ شَدِيدًا وَحَرَابَهُمْ عَظِيمًا، وَإِذَا حَارَبُوا مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿تَخْشِبُهُمْ جَمِيعًا﴾ مُجْتَمِعِينَ ظَاهِرًا فِي بَادِيِ النَّظَرِ ﴿وَلَكِنْ قُلُوبُهُمْ شَتَّى﴾ ⁽¹⁾ مُتَفَرِّقَةٌ مُخْتَلِفَةٌ حَقِيقَةً؛ لِإِفْتِرَاقِ عَقَائِدِهِمْ، وَاخْتِلَافِ مَقَاصِدِهِمْ ﴿ذَلِكَ﴾ الْإِفْتِرَاقُ وَالْإِخْتِلَافُ ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [الحشر: 14] وَلَا يَفْهَمُونَ مَا هُوَ صَلَاحُهُمْ فِي الدَّارَيْنِ، وَفَلَاحُهُمْ فِي النَّشَاتَيْنِ.

﴿كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاتُ أَوْبَالٍ أَمْ هُمْ وَلَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ

(1) وصف الله قلوب المخالفين بالتشتت والتفرق في نياتهم وقصودهم وأرائهم، بأنهم لا يرشدون طرق المآب إلى الله، ولا يتوافقون بقلوبهم، وإن توافقوا بأبدانهم، وتلك التفرقة من عينهم عن رؤية محل الصواب. قال سهل: أهل الحق مجتمعين أبدًا موافقين، وإن تفرقوا بالأبدان، وتباينوا بالظواهر، وأهل الباطل متفرقين أبدًا، وإن اجتمعوا بالأبدان، ووافقوا في الظواهر. [العرائس].

قَالَ لِلْإِنْسَانِ أَكْفَرُ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَاقِبَتُهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿١٧﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنفَقُوا اللَّهَ وَلَسْتَ تَتَنظَّرُ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٩﴾ لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾ [الحشر: 15 - 20].

﴿كَمَثَلِ الَّذِينَ﴾ أي: مثلهم كمثل اليهود الذين مضوا ﴿مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا﴾ بزمانهم ﴿ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾ في الدنيا من أنواع الهوان والخسار ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الحشر: 15] في الآخرة التي هي دار البوار.

بل مثلهم ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ﴾ أي: مثل المنافقين في إغراء اليهود على قتال المؤمنين كمثل الشيطان وقت ﴿إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ﴾ أي: كل فرد وفرد من أفراد الكفرة: ﴿اكْفُرْ﴾ حتى أعينك على عموم مقاصدك ومرامك ﴿فَلَمَّا كَفَرَ﴾ الإنسان - العياذ بالله - بتغريره ﴿قَالَ﴾ له الشيطان بعدما كفر: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ﴾ لا أعينك على شيء؛ لأنك كفرت بالله، وصرت عدوا لله ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ﴾ القادر القاهر الغيور أن ينتقم عني بسبب معاونتك ومظاهرتك؛ لكونه ﴿رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الحشر: 16] فلا يجري التصرف في ملكه بلا إذن منه سبحانه.

وبعدما كفر الإنسان بتغريير الشيطان وتليسه ﴿فَكَانَ عَاقِبَتُهُمَا﴾ أي: عاقبة الشيطان والإنسان الذي كفر بتغريره ﴿أَنَّهُمَا فِي النَّارِ﴾ تابعا ومتبوعا، لا زمانا دون زمان، بل وقعا ﴿فَالَّذِينَ فِيهَا﴾ مستمرين أبدا ﴿وَذَلِكَ﴾ الخلود في النار ﴿جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ [الحشر: 17] الخارجين عن ربة الرقية الإلهية، وعروة عبوديته بتليبس الشيطان وتغريره.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ مقتضى إيمانكم: التقوى عن محارم الله، والاجتناب عن منهياته ﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾ واحذروا عن بطشه وانتقامه ﴿وَلَسْتَ تَتَنظَّرُ نَفْسٌ﴾ أي: كل واحد من

النفوس المجبولة على نظرة الدراية والشعور على وجه العبرة والاستبصار ﴿مَا قَدَّمْتُ لِعِدَّتِ﴾ وما ادخرت ليوم القيامة، وتزودت للنشأة الأخرى بعدما كلفت بأنواع التكليف، وأمرت لإعداد زاد المعاد على وجه المبالغة، وكمال الإرشاد ﴿وَوَيْلٌ لِلْجُمَلَةِ﴾ بالجملة: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾ المنتقم الغيور، واحذروا عن مخالفة أمره ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المطلع على ما في ضمائر عباده ﴿خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الحشر: 18] من خير وشر، ونفع وضر، يجازيكم على مقتضى خبرته.

﴿وَوَيْلٌ لِلْجُمَلَةِ﴾ ﴿لَا تَكُونُوا﴾ أيها المؤمنون ﴿كَالَّذِينَ﴾ أي: كالغافلين الذين ﴿نَسُوا اللَّهَ﴾ أي: ذكره المستلزم للإيمان، المستلزم للمحبة والعرفان ﴿فَأَنسَاهُمْ﴾ سبحانه ﴿أَنفُسَهُمْ﴾ أي: معرفتها المستلزمة لمعرفة الحق، وبالجملة: ﴿أُولَئِكَ﴾ البعداء عن ساحة عز الحضور ﴿هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [الحشر: 19] المقصرون على الخروج عن مقتضى الحدود الإلهية ولوازم العبودية، الجاهلون بقدر الألوهية مطلقاً.

واعلموا أيها المكلفون أنه ﴿لَا يَشْتَرِي أَصْحَابُ النَّارِ﴾ منكم وملازموها، وهم الذين اقترفوا طول عمرهم من سيئات الأعمال، وذمائم الأخلاق والأوصاف ما يستحقون دخول النار ﴿وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ وهم الذين اتصفوا بمحاسن الأعمال والأحوال، ومحامد الأخلاق والأطوار المنتجة لهم أنواع المعارف والحقائق، والمكاشفات والمشاهدات الفائضة عليهم حسب استنساقيهم من نسائم عالم اللاهوت، واسترواحهم من فواتح حضرة الرحمت، وبالجملة: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [الحشر: 20] المفلحون المقصرون في الدرجات العلية، والمقامات السنية مما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْنَهُ خَرُوعًا مُّتَصِّدِقًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نُضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٦﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَالشَّهَادَةُ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿١٧﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْمُزِيرُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾

هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ
الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾ [الحشر: 21 - 24].

ثم ويُبَيِّنُ سبحانه نوع الإنسان المجبول على فطرة الإيمان والعرفان، وقرعهم بغفلتهم عن القرآن المرشد لهم إلى طريق التوحيد والإيقان بقوله: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ الْمُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ أَيُّهَا التَّائِهُونَ فِي تِه الغفلة والنسيان﴾ ﴿عَلَى جَبَلٍ﴾ من الجبال العظام، والله ﴿لَرَأَيْتَهُ﴾ أيها المعتبر الرائي؛ أي: الجبل ﴿خَاشِعًا﴾ خاضعًا ﴿مُتَّصِدًا﴾ متشققًا ﴿مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ القادر الغيور؛ يعني: من تأثير الوعيدات الهائلة، والإنذارات الشديدة الواقعة فيه على أهل التكليف، مع عدم قابليته على التأثر، وأنتم أيها الهلكى الحمقى، الهالكون التائِهون في تِه الجهل والضلال، مع كمال قابليتكم واستعدادكم لا تتأثرون من وعيداته البليغة، وإنذاراته الشديدة.

ثم قال سبحانه: ﴿وَتِلْكَ الْأَفْئَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾ الناسين مرتبة العبودية؛ من كمال البطر ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: 21] ويتفطنون منها إلى فطرتهم الأصلية المعجولة على التذلل والخشوع، والانكسار والخضوع، فيشتغلون بما جُبلوا لأجله من الإتيان بالطاعات، وأنواع العبادات اللائقة لمرتبة الألوهية والربوبية.

وكيف لا تتذللون له سبحانه أيها الحمقى الهالكون، مع أنه سبحانه ﴿هُوَ اللَّهُ﴾ أي: الموجود الحق الحقيق ﴿الَّذِي لَا إِلَهَ﴾ ولا موجود في الوجود ﴿إِلَّا هُوَ﴾ الواحد الأحد الصمد، المستقل بالألوهية والربوبية ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ على التفصيل الواقع في الواقع، بحيث لا يعزب عن حيطه علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، ومع ذلك ﴿هُوَ الرَّحْمَنُ﴾ على عموم الأكوان بإفاضة الوجود عليهم وتربيتهم، وتدير مصالحهم في النشأة الأولى ﴿الرَّحِيمُ﴾ [الحشر: 22] لهم، يوصلهم إلى فضاء

وحدته، وسعة جنته ورحمته في النشأة الأخرى ١٩

وبالجملة: ﴿هُوَ اللَّهُ﴾ المتوحد بالألوهية والربوبية، المتوحد بالقيومية، المتفرد بالديومية ﴿الَّذِي لَا إِلَهَ﴾ يُعْبَدُ بِالْحَقِّ، ويُرجع إليه في الخطوب ﴿إِلَّا هُوَ﴾ باستقلاله وصمديته في ذاته، وقيوميته في ملكه وملكوته بحسب مقتضيات أسمائه الحسنى،

وصفاته العليا؛ إذ هو ﴿الْمَلِكُ﴾ المتفرد بالحكم والاستيلاء التام، والسلطنة الغالبة ﴿الْقُدُّوسُ﴾ البالغ في النزاهة إلى أقصى الغاية والنهاية ﴿السَّلَامُ﴾ السالم عن مطلق النقائص، ولوازم الاستكمال، ولواحق الإمكان ﴿الْمُؤْمِنُ﴾ ذو الأمن والأمان على عموم الأعيان والأكوان ﴿الْمُهَيْمِنُ﴾⁽¹⁾ المراقب المحافظ على مقتضيات استعدادات عموم الأنام بكمال العدل والإحسان ﴿الْعَزِيزُ﴾ الغالب على عموم مراداته ومقدوراته بالفضل والامتنان ﴿الْجَبَّارُ﴾ على عموم من خرج عن رتبة عبوديته بالإنكار والظفیان ﴿الْمُتَكَبِّرُ﴾⁽²⁾ المتعالي عن كل أمر يشينه من العجز والنقصان، وبالجمله: ﴿سُبْحَانَ

(1) قال سيدي ابن برجان الإشبيلي في «شرح الأسماء الحسنى»: «فخاصة اسم المهيمن الحق - والله أعلم - المبالغة والعلو على كل اسم تسمى به العباد معاني مجاز حقيقة أسمائه الملا فهو المهيمن عليه، أي: هو القلبي عليه والرفيق والشهيد والحفيظ والأمين بمعنى أنه واهبه له ومتممه وممسكه له، وهو القلبي عليه، أي أن له حقيقته، وكل منسجم به سواء له منه مجازة، وهو تعالى المتصف به، وله تمامه الأقصى وكماله الأربع دون غاية ولا نهاية، هو المؤمن المهيمن على كل مؤمن، وهو الكريم والرحيم المهيمن على كل كريم، والرحيم المهيمن على كل رحيم، والحليم المهيمن على كل حلیم، والبر والصادق هكذا في سائر الأسماء والصفات، هذا في حق المهيمن الحق عز جلاله، وأما حقيقته في العبد فهي الخيرة والهيوم على ما تقدم من ذكر معنى ذلك في الحروف المنتظمة في بنائه، فالأوهام هامت، أي: تثيرت في مهيمنته، أي: في حقيقة أسمائه وصفاته وكنه مزيد حقيقته على مجاز أسماء عباده، وهامت الأبواب إلى معرفة رفعة درجاته في فضائل نعوت جلاله، أي: عطشت هيوماً فهي مهيومة وهيمنة، وهو المهيمن لها، وهي هامت تهيم هيوماً وهيماً، وهو المهيمن عليها، من هامت تهيم فهي هيمنة، خفيت النون في الفعل وظهرت في الاسم.

(2) قال سيدي ابن برجان الإشبيلي في «شرح الأسماء الحسنى»: وأرى - والله أعلم - أن معنى القدس جامع لمعاني الطهارة والطيب والزكاة والعدل والحمد كله والتنزيه عن الطبع والظلم والمعائب مما لا يليق به سبحانه وتعالى، وإن الفرق بينه وبين اسم السبوح أن معنى السبوح تنزيه لوجوده القلبي عن المثل والنظير والكف، ويحمده عن حوادث المخلوقين ونقائص المحدثين، فأية التسبيح الأول التوبة المفروضة والطهارة، وآية التسبيح الثاني الحمد كالصلاة والأعمال التي يصعد بها عاملها في درجات الشكر، والسبوح اسم للمسبح بهذه السبحات كلها غل، ومبالغة في المراد المقصود بالتسبيح، ثم اسم القدوس عبارة عن هذا كله مع اقترانه بالملك وتوابعه، وأنه لا يجوز في تدبيره الظلم ولا في قضائه الحيف، ولذلك - وهو أعلم - أتبع الاسمين قوله: ﴿السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ﴾ [الحشر: 23]، يقال: سبحت الله وسبحت لله وقدست الله، أي: وصفته بالقدس والطهارة والطيب، وقدست لله بمعنى

الله أي: تنزه وتعالى ذاته وشأنه ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الحشر: 23] ويشبتون له المشركون المفرطون علواً كبيراً.

كيف يشركون معه غيره أولئك المسرفون، مع أنه سبحانه ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ﴾ المقصور المنحصر، المستقل على خلق الأشياء وتقديرها، وإيجادها وإظهارها من كتم العدم بمقتضى حكمته بالإرادة والاختيار ﴿الْبَارِئُ﴾ الموجد لها بمقتضى اسمه الرحمن بلا تفاوت ونقصان ﴿الْمُصَوِّرُ﴾ لصور الأشياء وهياكلها وأشكالها على أبلغ نظام وأعجب شأن، ولا يشغله شأن عن شأن، وبالجمل: ﴿لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾⁽¹⁾ التي لا تعد ولا تحصى، يتجلى على مقتضاها في كل آن في شأن؛ لذلك ﴿يُسَبِّحُ لَهُ﴾ مظاهر ﴿مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وينزهه على الدوام عن كل ما لا يليق بشأنه! ﴿وَهُوَ﴾

قدست لله عبادته، قالت الملائكة عليهم السلام: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: 30] أي: عبادك، وقال عز من قائل: ﴿يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ﴾ [الجمعة: 1]، وقد يعبر بالتقديس عن الصلاة، ثم عن سواها من الأعمال من ذلك قولهم: إن أرضاً لا تقديس صاحبها، إنما يقديس الإنسان عمله، وهذان اسمان جمعا ذكر المحامد كلها، والله أعلم، فقول القائل: سبح قدوس رب الملائكة والروح شبيهة بقوله ﷻ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: 2].

(1) قال سيدي ابن برجان الإشبيلي في «شرح الأسماء الحسنى»: فخاصة اسم المهيمن الحق ﷻ - والله أعلم - المبالغة والعلو على كل اسم تسمى به العباد معاني مجاز حقيقة أسمائه العلا فهو المهيمن عليه، أي: هو العلي عليه والرقيب والشهيد والحفيظ والأمين بمعنى أنه واهبه له وتممه وممسكه له، وهو العلي عليه، أي أن له حقيقة، وكل متسم به سواء له منه مجازة، وهو تعالى المتصف به، وله تمامه الأقصى وكماله الأرفع دون غاية ولا نهاية.

هو المؤمن المهيمن على كل مؤمن، وهو الكريم والرحيم المهيمن على كل كريم، والرحيم المهيمن على كل رحيم، والحليم المهيمن على كل حليم، والبر والصادق هكذا في سائر الأسماء والصفات، هذا في حق المهيمن الحق عز جلاله، وأما حقيقة في العبد فهي الحيرة والهيوم على ما تقدم من ذكر معنى ذلك في الحروف المنتظمة في بنائه، فالأوهام هامت، أي: تحيرت في مهيمنيته، أي: في حقيقة أسمائه وصفاته وكنهه مزيد حقيقتها على مجاز أسمائه عبادته، وهامت الأبواب إلى معرفة رفعة درجاته في فضائل نعوت جلاله، أي: عطشت هيوماً فهي مهيومة وهيمنة، وهو ﷻ المهيمن لها، وهي هامت تهيم هيوماً وهيماً، وهو المهيمن عليها، من هامت تهيم فهي هيمنة، خفيت النون في الفعل وظهرت في الاسم.

بالجملة: ﴿هُوَ الْعَزِيزُ﴾ الغالب القادر على عموم ما أحاط به علمه ﴿الْحَكِيمُ﴾ [الحشر: 24] المدبر المتقن على مقتضى علمه وإرادته بلا مدافعة أحد ومظاهرتة.

جعلنا الله ممن تحقق بوحدة ذاته، وانكشف بكمالات أسمائه وصفاته.

خاتمة السورة

عليك أيها السالك المتحقق بمقر التوحيد، المنكشف بوحدة الذات وكمالات الأسماء والصفات الذاتية الإلهية - مكنك الله في مقر عزك بلا تذبذب وتلوين - أن تطالع آثار أسمائه الحسنی، وصفاته العليا على صفحات الكائنات الغيبية والشهادية، وتعتبر منها حسب استعدادك، وقدر قابليتك المودعة فيك من قبل الحق.

وإياك إياك أن تنحرف عن جادة العدالة الشرعية التي هي منتخبة عن العدالة الإلهية الواقعة بين مقتضيات أسمائه الذاتية، وصفاته العلوية، فلك أن تطابق عموم أعمالك وأخلاقك وأطوارك عليها، بحيث لا تهمل شيئاً من دقائقها؛ إذ بقدر إهمالك من حدودها أخطت عن درجة التوحيد، ومرتبة أهل الوحدة الذاتية؛ إذ الشريعة إنما هي الوقاية الموضوعة بالوضع الإلهي بين الأنام؛ ليوفقهم الحق بها إلى دار السلام التي هي مقعد صدق الرضا والتسليم الذي هو أعلى مقامات العارفين، وأقصى حالات الموحدين المكاشفين.

هدانا الله وعموم عباده إلى سواء السبيل، وأعاذنا الله وإياهم عن الانحراف والتحويل بلطفه الجميل، وكرمه الجزيل.

سورة الممتحنة

فاتحة سورة الممتحنة

لا يخفى على من تمكن بمقام التوحيد، وانكشف بسرائر الوحدة الذاتية مقدار ما يسر الله له ووفقه عليه فضلاً منه سبحانه، وعناية أن من تقرر في مقر عز الوحدة لا بد أن يجتنب عن أصحاب الغفلة والكثرات المترددين في أودية الضلالات بأنواع الحيرة والحسرات، ويعيشون في بقعة الإمكان بأنواع الخيبة والخذلان، فلا بد لأرباب الرسوخ والتمكن من الموحدين المخلصين ألا يصاحبوا معهم، ولا يوالوهم موالاتهم مع الموحدين، ولا يلتفتوا إليهم، وإلى عموم أطوارهم وأحوالهم.

إن عدو البليد إلى الجليد سريعة، ولوازم الإمكان مشتركة، وغواشي البشرية سارية، وطلسمات الطبيعة البهيمية سارقة؛ لذلك أوصى سبحانه خلص عباده المؤمنين الموحدين بما أوصى، ونهاهم عما نهاهم من محبة الأعداء وموالاتهم في السراء والضراء، فقال منادياً لهم بعد التيمن باسمه الأعلى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ المصلح لأحوال عباده في كل حال ﴿الرَّحْمَنُ﴾ عليهم، يحفظهم من سوء الأخلاق والأعمال ﴿الرَّحِيمُ﴾ لهم، يوقظهم عن منام الغفلة، ويوصلهم إلى فضاء الوصال.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ①﴾ إِنْ يَتَقَفَّوْكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتُهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا أَنْ يَكْفُرُوا ②﴾ لَنْ تَنْفَعَكُم أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ③﴾ [الممتحنة: 1 - 3].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ مقتضى اتصافكم بالإيمان بالله وبوحدة ذاته، وكمالات أسمائه وصفاته: أَنْ ﴿لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي﴾ وهم الذين خرجوا من عروة عبوديتي بإثبات الوجود لغيري ﴿وَعَدُوَّكُمْ﴾ إذ عداوتهم إياي مستلزمة لعداوتهم إياكم أيضاً؛ إذ صديق

العدو كعدو الصديق ﴿أَوْلِيَاءُ﴾ أحياء، توالون معهم كأرباب المحبة والولاء، وتظهرون محبتهم ومودتهم إلى حيث ﴿تُلْقُونَ﴾ ترسلون ﴿إِلَيْهِمْ﴾ رسالة مشعرة ﴿بِالْمَوَدَّةِ﴾ الخالصة، المنبثة عن إفراط المحبة والإخاء ﴿وَ﴾ الحال أنهم ﴿قَدْ كَفَرُوا﴾ وأعرضوا ﴿بِمَا جَاءَكُمْ﴾ أي: بعموم ما نزل على رسولكم ﴿مِّنَ الْحَقِّ﴾ الحقيق بالإطاعة والاتباع، وبالغوا في الإعراض والإنكار إلى حيث ﴿يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ﴾ أصالة ﴿وَأَيَّاكُمْ﴾ تبعاً بواسطة ﴿أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ الذي رباكم على فطرة التوحيد والإيمان، وقبول دين الإسلام من النبي المبعوث إلى كافة الأنام؛ ليرشدهم إلى دار السلام.

وبالجملة: ﴿إِنْ كُنْتُمْ﴾ أيها المؤمنون الموحدون ﴿خَرَجْتُمْ﴾ عن أوطانكم، وبقاع إمكانكم ﴿جِهَادًا﴾ أي: لأجل الجهاد والقتال ﴿فِي سَبِيلِي﴾ أي: سبيل توحيدني، وترويج ديني، وإعلاء كلمة توحيدني ﴿وَأَيْتَاءَ مَرْضَاتِي﴾ في أمثال أمري، وإطاعة حكمي فلزمكم ترك موالات أعدائي والمؤاخاة معهم، مع أنكم أنتم ﴿تَسِرُونَ﴾ وتخفون ﴿إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ﴾⁽¹⁾ ظناً منكم أنني لا أطلع على ما في سرائركم وضمائركم من محبة

(1) قال في «عين الحياة»: يعني: يا أيها القوى المؤمنة لا تتخذوا القوة الكافرة القالية والمشرقة المناققة النفسية، وإن كانت عشائركم أولياء؛ لأنهم يريدون أن تشتغلوا بالشهوات العاجلة ليمتنعوا بحفظهم من اشتغالكم بالشهوات العاجلة، ويعذبكم ربكم في الآخرة، ولا تلقوا لهم من أسرار الوارد، وأخبار اللطيفة الخفية بمودة أصلية كانت بينكم وبينهم؛ لأن السالك يريد أن يعارضهم ويدخلهم في ميدان الخلوة، ويجاهدهم ولو ألقت القوة المؤمنة إلى القوة الكافرة خير إدخالهم في الخلوة أبوا واعتدوا وجعلوا بمكرهم مكراً ويكيدون كيذا ليضروا اللطيفة الخفية إلى حد شاهدنا أنها تمرض الوجود وتظهر الآلام الشديدة والأوجاع المؤلمة في وجود السالك، لتلا يدخل في الخلود ولا يشتغل بالعزلة، فإن كان السالك صادقاً لا يضره كيدهم، بل يحرضه ويبالغ في المجاهدة مع وجود الآلام والأوجاع، وهذا الابتلاء يتقن كثيراً عند غيبة السالك عن حضرة مسلكه إنني أردت في بداية أمري أن أدخل الخلوة في أربعين [موسوية] فقطنت القوى القالية والنفسية الكافرة المشرقة لأخيارهم القوى المؤمنة اللائمة فأمرضوني، وكان لي أخ في الدين من سلاك الطريقة رحمه الله قال لي: أترك الخلق في العشر الأول وداو نفسك حتى تصح، ثم أدخل في الخلوة على سنة المصطفى ﷺ وتمم ثلاثين يوماً، فأطعت أمره فلما دخل ليلة أول أربعين وهبوا لي مشروباً سهلاً لأشرب صبيحة تلك الليلة، فجاء الخادم، وقال: إن أحداً من المفضين جاء مسافراً من جانب خراسان، ويستأذن أن يدخل عليك، ويزمزم لكم فقلت: اللذونا فدخل وقعد وزمزم، وقال في أول اشتغاله بالزمزمة: هذه الفارسية المهيبة، وهي شعر، فقلب علي الوقت لأنني سمعت هذا الكلام من الحق زرفت ورقصت، وهيج في باطني أشواقاً

الأعداء ومودتهم ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿أَنَا أَعْلَمُ﴾ منكم ﴿بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ﴾ أي: بجميع ما تسرون وما تعلنون ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿مَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ﴾ أي: الاتخاذ المذكور ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [الممتحنة: 1] أي: انحرف عن جادة العدالة الإلهية، ومال عن الصراط المستقيم الموصل إلى مقصد التوحيد.

واعلموا أيها المؤمنون أنكم، وإن بالغم في إظهار المحبة والمودة بالنسبة إليهم، وهم بمكان من العداوة وشدة الخصومة إلى حيث ﴿إِنْ يَتَّقُواكُمْ﴾ ويظفروا منكم بالفرض والتقدير ﴿يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً﴾ ألبتة، بل يظهروا العداوة ﴿وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَهُمْ بِالسُّوءِ﴾ بالقتل والأسر وقطع العضو، والشتم المفرط، وأنواع الوقاحة، بل ﴿وَوَدُّوا﴾ وتمنوا في أنفسهم دائماً ﴿لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ [الممتحنة: 2] وترتدون عن دينكم، وتلتحقون بكفرهم.

فعليكم ألا تبالوا بأقاربكم وأرحامكم من الكفرة، ولا تلتفتوا نحوهم؛ إذ ﴿لَنْ تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ﴾ قراباتكم ﴿وَلَا أَوْلَادُكُمْ﴾ الذين أنتم توالون المشركين لأجلهم ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ المعدة؛ لتنقيذ الأعمال الصادرة عن كل نفس؛ إذ الله ﴿يَفْصِلُ﴾ ويفرق ﴿بَيْنَكُمْ﴾ يومئذ، فيجازي كلًا منكم حسب ما كسبوا خيرًا كان أو شرًا ﴿وَاللَّهُ﴾ المطلع على عموم أفعال عباده ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من الحسنات والسيئات ﴿بَصِيرٌ﴾ [الممتحنة: 3] يجازيكم عليه بمقتضى بصارته وخبرته.

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَا تُشْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ

عظيمة، فلما فرغت من السماع دخلت الخلوة، وجلست وما ضرني المرض، وفتح الله علي في تلك الخلوة فتوحات عظيمة لا حرمنا الله من أمثالها، فالمقصود من إيراد هذه الحكاية أن يعرف السالك كيد القوى ومكرها، ولا يلتفت إليها، ولو تمرض يقول لها: الدخول في الخلوة وقت المرض، وكثرة الطاعة في هذه الحالة أجود والمرض مبشر رسول الموت، فينبغي أن تدخل الخلوة، وتشتغل بذكر الحق لتموت فيها مستريحًا، فإذا رأت القوة الكافرة وصدق السالك خافت من صدقه وهربت عنه.

الْمَصِيرُ ﴿٥﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاعْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْغَنِيُّ ﴿٦﴾ [الممتحنة: 4 - 6].

ولا تستنكفوا عن حكم الله إياكم بقطع أرحامكم الكفرة، وأقاربكم المشركين؛ إذ ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ رَّسُولٌ﴾ وقدوة ﴿حَسَنَةٌ﴾ صالحة لاثقة يؤتسى ويتقتدى بها، وكانت تلك القدوة نازلة ﴿فِي﴾ شأن ﴿إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ المؤمنين له، المسترشدين من المتدينين بدينه، وقد كانوا يقولون بمقتضى تلك الأسوة الحسنة وقت ﴿إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ﴾ الذين هم أقاربهم وأرحامهم الكفرة وعبداء الأوثان: ﴿إِنَّا﴾ بعدما كوشفنا بوحدة الحق ﴿بِرَأْيِهِ﴾ برينون ﴿مِنْكُمْ﴾ لانهماكهم في الشرك أيضا ﴿وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ من الأصنام والأوثان الباطلة العاطلة، وبالجمل: ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ﴾ وبدينكم الباطل، ومعبوداتكم العاطلة الباطلة.

﴿وَعَدُ اللَّهِ﴾ بعد اليوم ﴿بَدَأَ﴾ ظهر ﴿بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا﴾ لا نصالح ولا نواسي معكم أصلاً ﴿حَتَّى تُوْمِنُوا بِاللَّهِ وَخَدَّهٖ﴾ وتبرؤوا عن معبوداتكم الباطلة مثلنا، فعليكم أيها المؤمنون اليوم أن تأتسوا وتقتدوا لجميع ما قال إبراهيم عليه السلام ومن تبعه لقومهم فيما مضى ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ﴾ الكافر: ﴿لَا تَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ من الله يا أبي، وبالجمل: اقتدوا أيها المؤمنون بجميع أطوار إبراهيم عليه السلام وأقواله سوى هذا القول لأبيه معتذراً منه بقوله: ﴿وَمَا أَمْلِكُ لَكَ﴾ أي: ما أقدر وأدفع منك ﴿مِنْ﴾ غضب ﴿اللَّهِ﴾ المنتقم الغيور ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ نزل عليك بمقتضى قهره وسخطه سبحانه سوى الاستغفار والشفاعة إن قبل الملك الغفار مني هذا، وذلك قبل ورود النهي ﷺ عن ودادة أهل الكفر، أو صدر عنه هذا الموعود وعداها إياه.

وبعدما أمرتم أيها المؤمنون بحبة الله ومحبة رسوله والذين آمنوا معه، وتدينوا بدينه، ونهيتهم عن مودة الأعداء وموالاتهم، ومواساة أخلاقهم وأطوارهم، قولوا مسترجعين إلى الله، مناجين معه: ﴿رَبَّنَا﴾ يا من ربانا على فطرة التوحيد والإسلام ﴿عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا﴾ في كل الأمور بلا رؤية الوسائل في البين ثقة واعتماداً عليك ﴿وَالْإِنِّكَ أَتْبَنَّا﴾ عدنا ورجعنا في الخطوب وعموم الملمات، لا إلى غيرك من الأسباب العادية ﴿وَعَدُ اللَّهِ﴾ بالجمل: ﴿إِنِّكَ الْمَصِيرُ﴾ [الممتحنة: 4] كما أن مصدره منك؛ إذ لا موجود سواك، ولا مقصد ولا مقصود غيرك.

وبعدما وطنتنا في مقر توحيدك يا ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بأن تسلطهم علينا فيفتنوا بنا، ويصيبونا بعذاب لا طاقة لنا بحمله ﴿وَاعْفُزْ لَنَا رَبَّنَا﴾ ما فرطنا بمقتضى بشرتنا ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ﴾ الغالب المقتدر على وجوه الإنعام والانتقام ﴿الْحَكِيمُ﴾ [الممتحنة: 5] المتقن في تدبير مصالح العباد، وما جرى عليهم في المعاش والمعاد.

ثم بالغ سبحانه في التأسى والافتداء بملة إبراهيم عليه السلام وقدوته فقال مؤكداً بالقسم: والله ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿فِيهِمْ﴾ أي: في إبراهيم والذين معه ﴿أَنْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ جربة صالحة يؤتسى ويقتدى ﴿لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ﴾ أي: التحقق برضاه، والتسليم بقضاه ﴿وَوَجَّهَ﴾ يرجو ﴿الْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ ليتحقق عند مولاه بما وعد له وهياه ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ﴾ ويعرض عن الله، ولم يؤمن بالوقوف بين يدي الله فلن يضر الله شيئاً ﴿فَإِنَّ اللَّهَ﴾ المتعزز برداء العظمة والكبرياء ﴿هُوَ الْغَنِيُّ﴾ المستغني بذاته، لا احتياج له إلى رجاء الراجين ومناجاتهم معه، ورفع حاجاتهم إياه ﴿الْحَمِيدُ﴾ [الممتحنة: 6] حسب أسمائه وصفاته بلا افتقار له إلى حمد الحامدين، وشكر الشاكرين.

﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا كَحَدِيثِمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةٌ وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٧)
لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الدِّينِ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِينِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٨) إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الدِّينِ قَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِينِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ
إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَقُولُوا مَن يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنْ قَوْلِهِمْ قَاتِلُوا الَّذِينَ كَفَرُوا (٩) [الممتحنة: 7 - 9].

ثم لما ورد النهي الإلهي على وجه المبالغة والتأكيد عن موالاته ذوي الأرحام والأقارب من الكفرة تبرأ المؤمنون من أقاربهم وعشائرتهم المشركين، وعادوا معهم، إلا أنهم أضمرُوا في نفوسهم حزناً وغمّاً، فوعد الله سبحانه لهم إيمان أقاربهم تسليّة لهم، وإزالة لحزنهم، فقال: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿وَبَيْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا كَحَدِيثِمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةٌ﴾ (١) ومحبة خالصة جامعة بينكم وبينهم، ألا وهي الإسلام المسقط

(١) هذه إشارة إلى الفرق في مجاهدة النفس، ربما تظمن وتعين الروح والعقل والقلب في معرفة الله وطاعته، قال ابن عطاء: لا تبغضوا عبادي كل البغض، فإني قادرٌ على أن أنقلكم من البغض إلى المحبة، كنقلي من الحياة إلى الممات، ومن الموت إلى النشور، قال عليه السلام: «أحبّ حبيبك هوناً ما

لجميع الآثام ﴿وَاللَّهُ﴾ المطلع على ما في ضمائر عبادہ ﴿قَدِيرٌ﴾ على ذلك الجمع المستلزم للمودة ﴿وَاللَّهُ﴾ القادر المقتدر على جمعكم ﴿غَفُورٌ﴾ لفرطاتكم التي صدرت منكم ﴿رَّحِيمٌ﴾ [الممتحنة: 7] يرحمكم بمقتضى سعة رحمته وجوده.

ثم لما تحرّج المؤمنون من عدم موالاتهم مع أقربائهم الكفرة، وذوي أرحامهم المشركين إلى حيث قدمت قتيلة بنت عبد العزى مشركة على ابنتها أسماء بنت أبي بكر بهدايا فلم تأذن لها بالدخول، ولم تقبل هديتها، فنزلت: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ﴾ الحكيم العليم ﴿عَنِ﴾ المشركين ﴿الَّذِينَ لَمْ يِقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ﴾ ولم ينهكم ﴿أَنْ تَبْرُوهُمْ﴾ ولا تحسنوا إليهم؛ إذ لا سبب للنهي عن ودادة هؤلاء ﴿وَلَكُمْ﴾ عليكم أن ﴿تَقْسِطُوا﴾ وتفيضوا ﴿إِلَيْهِمْ﴾ بالقسط الإلهي على مقتضى الوصلة الموضوعية بينكم بالوضع الإلهي ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: 8] المعتدلين في عموم الأحوال، سيما على ذوي القربى.

بل ﴿إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ﴾ العليم الحكيم ﴿عَنِ﴾ موالاته أقربائكم ﴿الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ﴾ يعني: مكة - شرفها الله - ﴿وَالَّذِينَ ظَاهَرُوا﴾ أعانوا ونصروا ﴿عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ﴾ وإن لم يباشروا بجوارحهم، لكن أعانوا على المباشرين المخرجين بالقول والمال، وإيقاع الفتنة؛ لذلك نهاكم سبحانه ﴿أَنْ تَوَلَّوْهُمْ﴾ وتختلطوا معهم، وتوالوهم؛ أي: المجرمين والمعاونين ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ﴾ منكم بعد ورود النهي ﴿فَأُولَٰئِكَ﴾ الموالون ﴿هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الممتحنة: 9] الخارجون عن مقتضى النهي الوارد من قبل الحق فيستحقون العذاب الاليم؛ بسبب خروجهم عن مقتضى النهي الإلهي.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مَهْجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ﴾ اللَّهُ أَكْبَرُ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴿فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاتُوهُنَّ مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْنَهُنَّ الْأَرْبَعُ وَلَا تُنْسِكُوا إِلَيْهِنَّ الْكُفَّارَ وَتَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا﴾ ﴿لَكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَتَنَزَّلُ فِيكُمْ﴾ ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ ﴿١٠﴾ ﴿لَئِنْ فَاتَكُمْ نَفْسٌ مِنْ أَرْوَاحِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ﴾

فَصَاقِبَةٌ فَتَاتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا وَأَنْفَقُوا اللَّهُ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾
[الممتحنة: 10 - 11].

ثم قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ﴾ المذعنات للإيمان حال كونهن ﴿مُهَاجِرَاتٍ﴾ من قبل الكفار ﴿فَأَمْتَحِنُوهُنَّ﴾ واختبروهن، وانظروا إليهن بنور الله المقتبس من مشكاة الإيمان، متفرسين هل تجدوهن مواطئة قلوبهن بألستهن، مع أنه ﴿اللَّهُ﴾ المطلع على ما في قلوبهن ﴿أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ﴾ وبعدها تفرستم في شأنهن ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ﴾ وظننتموهن ﴿مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ﴾ ولا تردوهن ﴿إِلَى الْكُفَّارِ﴾ حتى لا يصرن مرتدات، وبالجمله: بعد ظهور الإيمان منهن ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ﴾ أي: للأزواج الكفار ﴿وَلَا هُمْ﴾ أي: الأزواج ﴿يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ لاختلافهما في الدين.

﴿و﴾ بعدما حفظتموهن وحكمتموهن بالإيمان، إن جاء أزواجهن في طلبهن ﴿أَتَوْهُنَّ مَا أَنْفَقُوا﴾ أي: مهورهن ﴿و﴾ بعدما آتيتم وأعطيتم مهورهن لأزواجهن ﴿لَا جُنَاحَ﴾ أي: لا ضيق ولا حرج ﴿عَلَيْكُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ﴾ مهورهن مرة أخرى مثل مهور سائر المؤمنات، ولا تحسبوا عليهن ما أعطيتم لأزواجهن من المهور.

﴿و﴾ بعدما ثبت أنه لا رخصة لكم في دينكم أن تردوا المؤمنات المهاجرات إلى الكفار ﴿لَا تُفْسِكُوا﴾ أي: لا تبقوا أيضًا أزواجكم أيها المؤمنون ﴿بِإِعْصَمِ الْكَوَافِرِ﴾ أي: لا تقيموا بعقود أزواجكم الكافرات الملحقات إلى الكفار، بل خلوا سبلهن ﴿وَأَسْأَلُوا﴾ منهن ﴿مَا أَنْفَقْتُمْ﴾ لهن من المهور بعدما لحقن بالكفار ﴿وَلَيْسَ أَسْأَلُوا﴾ أي: الكفار أيضًا منكم ﴿مَا أَنْفَقُوا﴾ من المهور لأزواجهم المؤمنات المهاجرات، الملحقات بكم ﴿ذَلِكَ﴾ أي: جميع ما ذكر في الآية ﴿حُكْمُ اللَّهِ﴾ المدبر لمصالحكم ﴿يُحْكُمُ﴾ به ﴿بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الممتحنة: 10] يحكم بما يقتضيه علمه وحكمته.

﴿وَإِنْ فَاتَكُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿شَيْءٌ مِّنْ﴾ مهور ﴿أَزْوَاجِكُمْ﴾ بعدما لحقن ﴿إِلَى الْكُفَّارِ﴾ ولم يؤدوا جميع مهورهن إليكم ﴿فَعَاقِبْتُمْ﴾ بعد ذلك، وغلبتم على الكفار المتمردين على أداء مهوركهم، وأخذتم الغنائم منهم ﴿فَاتَّوَا﴾ وأعطوا أيها المؤمنون قبل القسمة ﴿الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ﴾ إلى الكفار ﴿مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا﴾ في مهور أزواجهم

الكافرات الملحقات ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾⁽¹⁾ [الممتحنة: 11] ولا تضيعوا حق أخيكم المؤمنين.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يَبَايِعُكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكَنَّ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَرْزُقْنَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَتَّبِعِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾⁽¹²⁾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَسُؤُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَبُغِ الْكَافِرُ مِنَ الْكَافَرِ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾⁽¹³⁾ [الممتحنة: 12 - 13].

ثم قال سبحانه منادياً لنبيه على سبيل الإرشاد والتعليم: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يَبَايِعُكَ﴾ ويقبلن منك مطلق الحقوق والحدود المعتبرة في الشرع، سيما ﴿عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ﴾ الواحد الأحد الصمد، المنزه عن الشريك والولد ﴿شَيْئًا﴾ من الإشراك ﴿وَلَا يَرْزُقْنَ﴾ من حرز إنسان ماله ﴿وَلَا يَرْزُقْنَ﴾ سواء كن محصنات أو غير محصنات ﴿وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ﴾ كإسقاط جنين، وواد البنات وغيرها ﴿وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾ يعني: لا تأتي المرأة بشيء فاحش إلى حيث تقذف بولدها بأنه ليس من زوجها؛ بسبب ذلك الشيء الذي صدر عنها، يبهت الناس بسببه، ووقعوا في الافتراء لأجله ﴿و﴾ بالجملة: يبايعنك على أن ﴿لَا يَتَّبِعِينَكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿فِي مَعْرُوفٍ﴾ مستحسن عقلاً وشرعاً تأمرهن بها أصلاً حالهن، وإذا بايعن معك على ترك الخصائل المذمومة ﴿فَبَايِعْهُنَّ﴾ أيضاً ﴿وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهُ﴾ بما صدر منهن قبل البيعة ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المطلع على ما في نياتهن من الإخلاص ﴿غَفُورٌ﴾ يغفرهن بعدما أخلصن ﴿رَحِيمٌ﴾ [الممتحنة: 12] يقبل توبتهن.

ثم لما واصل بعض فقراء المسلمين اليهود؛ ليصيبوا من ثمارهم نزلت: ﴿يَا أَيُّهَا

(1) قال السمناني: يعني: اتقوا الله من أن يبقى معكم من الأخلاق الردية التي حصلت للقوة القابلة من القوى الكافرة والمشركة أو تبقى مع القوة القابلة المرتدة من الأخلاق الشريفة التي حصلت لها من القوى الفاعلة المومنة لئلا يكون لهم ملك الأخلاق استعداداً للإغواء ولأجل هذا السر من المشايخ بأن لا يؤذن لسالك خرج من حباله شيخه أن يدخل في دائرة الصوفية لأنه سارق بسرق المعارف والوقائع ويدعوا الخلق إلى نفسه بتلك الاستعدادات.

الَّذِينَ آمَنُوا ﴿مَقْتَضَىٰ إِيْمَانِكُمْ: تَرْكُ مَوَاصِلَةِ الْيَهُودِ وَمَصَاحِبَتِهِمْ﴾ ﴿لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ يَعْنِي: عَامَّةُ الْمُشْرِكِينَ؛ لِأَنَّهُمْ ﴿قَدْ يَسُوءُوا﴾ وَقَنَطُوا ﴿مِنْ الْآخِرَةِ﴾ لِذَلِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَا وَبِمَا فِيهَا مِنَ الْمَوَاعِيدِ وَالْوَعِيدَاتِ الْهَائِلَةِ ﴿كَمَّا يَسُّ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾ [الممتحنة: 13] يَعْنِي: مِثْلُ يَأْسِهِمْ مِنَ الْبَعْثِ وَحُشْرِ أَصْحَابِ الْقُبُورِ، وَإِخْرَاجِهِمْ مِنْهَا أَحْيَاءَ، وَوَقُوفِهِمْ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ، فَعَلَيْكُمْ أَلَّا تَصَاحِبُوا مَعَهُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ مُصَدِّقِينَ بِهَا.

جعلنا الله من المصدقين بيوم الدين، وبعموم ما فيه من المؤمنين الموقنين.

خاتمة السورة

عليك أيها الموحّد المحمدي - مكنك الله في مقر عز التوحيد واليقين، وجنبك عن طريان التردد والتلوين - ألا تصاحب أهل الغفلة وأصحاب الجهالات، المنهمكين في بحار الأوهام والخيالات الموروثة لهم من مقتضيات الإمكان المستلزم لأنواع الخذلان والهوان، فلك أن تلازم زاوية الخمول بالعفاف قانعاً من الدنيا بالكفاف، مجتنباً عن مخائل أصحاب الجزاف، متوكلاً على الصمد المعين، متوجّهاً نحوه في كل تحريك وتسكين، راضياً بما جرى عليك من القضاء، مطمئناً بما وصل إليك من العطاء، شاكراً لنعم الله في السراء والضراء، مقتصدًا بين الخوف والرجاء، مفوضاً عموم أمورك إلى المولى، متعطشاً في جميع أحوالك إلى شرف اللقاء، وما هي إلا جنة المأوى، وسدرة المنتهى.

رزقنا الله وعموم عباده الوصول إليها، والتحقق دونها بمِنِّه وجوده.

سورة الصف

فاتحة سورة الصف

لا يخفى على من تحقق بمرتبة اليقين الحقي، وتمكن عليها بعد ترقيه عن اليقين العلمي والعيني وخلص عن مطلق التلوين والتخمين، وغاص في لجة بحر الوجود متصفاً بأنواع الكشف والشهود، واستغرق في الحوض المورود، ووصل إلى المقام المحمود أن ما صدر عن أمثال هؤلاء الواصلين من الأعمال والأقوال، وعموم المقامات والأحوال إنما هو على مقتضى الاعتدال، مائلاً عن كلا طرفي الإفراط والتفريط؛ إذ الواصلون إنما هم المتخلقون بأخلاق الله، المتصفون بأوصافه المعتدلة وأسمائه الغير المتبدلة، والمؤمنون المخلصون لا بد وأن يكون عموم مقاصدهم متجهة إلى الوصول بالوحدة، والتحقق بالتخلق بعموم الأوصاف الذاتية الإلهية، بل توجه جميع المظاهر إنما هو على هذا المطلب الأعلى، والمقصد الأقصى؛ لذلك أخبر سبحانه حبيبه ﷺ بتوجه عموم مظاهره نحوه.

ثم نادى المؤمنين بما نادى إرشاداً لهم، وإصلاحاً لحالهم فقال بعد التيمن باسمه العزيز: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ الذي تجلى على ما تجلى بمقتضى العدالة ﴿الرَّحْمَنُ﴾ عليهم بوضع الميزان الموصل لهم إلى طريق الجنان ﴿الرَّحِيمُ﴾ لهم، يوصلهم إلى فضاء الوجوب بعد انخلاعهم عن لوازم الإمكان.

﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ① يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ② كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ③ إِنَّا اللَّهُ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُتِنَ مَرْصُومٍ ④ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَنْقُومُ لِمَ تَوَدُّونَنِي وَقَدْ تَعَلَّمْتُمْ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ⑤ ﴿[الصف: 1 - 5].

﴿سَبِّحْ لِلَّهِ﴾ ونزهه بكمال التقديس والتزيه جميع ﴿مَا﴾ ظهر ﴿فِي السَّمَوَاتِ﴾ أي: العلويات ﴿وَمَا﴾ ظهر ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ أي: السفليات ﴿وَكَيْفَ لَا يَتَوَجَّهَ نَحْوَهُ عَمُومَ الْمَوْجُودَاتِ؛ إِذْ ﴿هُوَ الْعَزِيزُ﴾ الْغَالِبُ عَلَى مَطْلَقِ الْمَقْدُورَاتِ وَالْمَرَادَاتِ ﴿الْحَكِيمُ﴾ [الصف: 1] الْمَتَّقْنَ فِي جَمِيعِ التَّدْبِيرَاتِ وَالتَّقْدِيرَاتِ؟!

ثُمَّ لَمَّا عَاهَدَ الْمُسْلِمُونَ مَعَ اللَّهِ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَقَالُوا: لَوْ عَلِمْنَا أَحَبَّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ لَبَذَلْنَا فِيهِ أَمْوَالَنَا وَأَنْفُسَنَا، فَنَزَلَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ﴾ [الصف: 4]، فَوَلَّوْا يَوْمَ أَحَدٍ مِنْهُمِينَ، وَلَمْ يُوْفُوا بِعَهْدِهِمْ، فَنَزَلَتْ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ مَقْتَضَى إِيْمَانِكُمْ: الْوَفَاءُ بِالْعَهْدِ ﴿لِمَ تَقُولُونَ﴾ وَقَتِ الْمَعَاهِدَةِ وَالْمِيثَاقِ مَعَ اللَّهِ ﴿مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: 2] وَلَا تُوْفُونَ وَقَتِ الْوَفَاءِ.

وَاعْلَمُوا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ أَنَّهُ ﴿كَبِيرُ مَقْتًا﴾ وَعَظَمَ جَرِيمَةً وَذَنْبًا ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ الْمُنْتَقَمِ الْغِيُورِ ﴿أَنْ تَقُولُوا﴾ وَتَعَاهَدُوا مَعَهُ سُبْحَانَهُ ﴿مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: 3] وَقَتِ الْوَفَاءِ، وَلَا تَنْجُزُوا الْمَعْهُودَ الْمَوْعُودَ.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ﴾ لَتَرْوِجَ دِينَهُ، وَإِعْلَاءَ كَلِمَةِ تَوْحِيدِهِ ﴿صَفًّا﴾ مَصْطَفِينَ مَظَاهِرِينَ، مُتَعَاوِنِينَ ﴿كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوعٌ﴾⁽¹⁾ [الصف: 4] مُنْضَدَّ مُحْكَمٍ، مُضْمَمٌ بَعْضُهَا مَعَ بَعْضٍ بِحَيْثُ لَا فَرْجَ فِيهَا وَلَا شَقُوقَ.

ثُمَّ اْعْلَمُوا أَنَّ عَدَمَ وَفَائِكُمْ بِالْعَهْدِ لَا يَنْقُصُ شَيْئًا مِنْ عَظَمَتِهِ، كَمَا أَنَّ وَفَاءَكُمْ لَا تَزِيدُ فِيهَا، لَكِنْ نَقْضُكُمْ الْمِيثَاقَ يُوْذِي النَّبِيَّ، وَإِيْدَاءُ النَّبِيِّ مُسْتَلْزِمٌ لِإِيْدَاءِ اللَّهِ وَبِغْضِهِ، وَإِرَادَتُهُ الْمَقْتُ وَالْغَضَبُ عَلَى الْمُؤْذِيِ ﴿وَوَ﴾ اذْكُرْ يَا أَكْمَلَ الرُّسُلِ لِلْمُنَاقِضِينَ قِصَّةَ تَأْذِيِ أَخِيكَ مُوسَى الْكَلِيمِ - صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ - مِنْ قَوْمِهِ وَقَتِ ﴿إِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ﴾ حِينَ

(1) قَالَ عِلَاءُ الدَّوْلَةِ: يَعْنِي: اتَّقُوا اللَّهَ مِنْ أَنْ يَبْقَى مَعَكُمْ مِنَ الْأَخْلَاقِ الرَّدِيَّةِ الَّتِي حَصَلَتْ لِلْقُوَّةِ الْقَابِلَةِ مِنَ الْقَوِيِّ الْكَافِرَةِ وَالْمَشْرُكَةِ أَوْ تَبْقَى مَعَ الْقُوَّةِ الْقَابِلَةِ الْمُرْتَدَّةِ مِنَ الْأَخْلَاقِ الشَّرِيفَةِ الَّتِي حَصَلَتْ لَهَا مِنَ الْقَوِيِّ الْفَاعِلَةِ الْمُؤْمِنَةِ لَثَلَا يَكُونُ لَهُمْ مِلْكُ الْأَخْلَاقِ اسْتِعْدَادًا لِلْإِغْوَاءِ وَلِأَجْلِ هَذَا السَّرِّ مِنَ الْمَشَايِخِ بَانَ لَا يُؤْذَنُ لِسَالِكٍ خَرَجَ مِنْ حِبَالِهِ شَيْخُهُ أَنْ يَدْخُلَ فِي دَائِرَةِ الصُّوفِيَّةِ لِأَنَّهُ سَارِقٌ بِسَرِّ الْمَعَارِفِ وَالْوَقَائِعِ وَيَدْعُوا الْخَلْقَ إِلَى نَفْسِهِ بِتِلْكَ الاسْتِعْدَادَاتِ.

رموه بالبغية، وعيروه بالأدرة: ﴿يَا قَوْم﴾ ناداهم وأضافهم إلى نفسه على مقتضى ملاينة أرباب الرسالة مع أممهم؛ ليتزجروا عن سوء الأدب ﴿لِمَ تُؤْذُونَنِي﴾ بأمثال هذه المفتريات الباطلة البعيدة بمراحل عن الصدق ﴿وَ﴾ الحال أنكم ﴿قَدْ تَغْلُمُونَ﴾ يقينا بما جئت لكم من المعجزات الساطعة، الدالة على صدقي في دعواي ﴿أَتَنِي رَسُولُ اللَّهِ﴾ المرسل من عنده بمقتضى وحيه ﴿إِلَيْكُمْ﴾ لإرشادكم إلى سبيل الهداية الموصلة إلى معرفة الحق وتوحيده، ومقتضى علمكم: ألا تؤذوني، فلم تؤذوني؟⁽¹⁾

﴿فَلَمَّا زَاغُوا﴾ ومالوا عن الحق، وانحرفوا عن مقتضى الفطرة الأصلية الإلهية ﴿أَزَاغَ اللَّهُ﴾ المقلب للقلوب ﴿قُلُوبَهُمْ﴾ وصرفها عن قبول الحق والميل إليه فضلوا عن سواء السبيل، واستحقوا الويل العظيم، والعذاب الأليم ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿اللَّهُ﴾ العليم الحكيم ﴿لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الصف: 5] ⁽¹⁾ الخارجين عن مقتضى الفطرة الأصلية التي هي الهداية الموصلة إلى معرفة الحق وتوحيده.

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَتَّبِعُوا أَمْرَهُ بِإِذْنِ رَسُولِ اللَّهِ﴾ إِنْكَرُ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولِي يَأْتِي مِنْ بَعْدِي أُمَّتُهُ أَخَذْتُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٧﴾ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾ [الصف: 6 - 9].

﴿وَ﴾ اذكر لهم يا أكمل الرسل أيضا وقت ﴿إِذْ قَالَ﴾ أخوك ﴿عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾

(1) قال الورتجبي: وصف قوما لهم استعداد الطاعة والمعرفة، وأراهم سبيل الرشاد، وخلق في نفوسهم حظوظ الهوى، فتركوا الحق، واتبعوا هواهم، فطمس الله أعين قلوبهم عن مشاهدة الغيب، وهذه فتنة أهلكت أكثر القاصدين في أوائل قصدهم، قال جعفر: لما تركوا أوامر الخدمة نزع من قلوبهم نور الإيمان، وجعل الشيطان إليهم طريقا، فأزاعهم عن طريق الحق، وأدخلهم في مسالك الباطل، وقال الواسطي: لما زاغوا عن القرية في العلم أزاع الله قلوبهم في الخلقة، قال الأستاذ: لما زاغوا عن العبادة أزاع الله قلوبهم عن الإرادة.

منادياً لقومه ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ أرسلني؛ لإرشادكم إلى طريق الحق وصراط توحيده؛ لأكون ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ﴾ المنزلة من عنده سبحانه؛ لضبط ظواهر الأحكام والأخلاق المستتعبة لتهديب الباطن عن مطلق الزيف والضللال، المنافية لصفاء مشرب التوحيد ﴿وَمُبَشِّرًا﴾ أيضاً، أبشركم ﴿بِرَسُولٍ﴾ كامل في الرسالة، متمم لمكارم الأخلاق ﴿يَأْتِي مِنْ بَعْدِي﴾ مظهر لتوحيد الذات، خاتم لأمر الرسالة والتشريع ﴿اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ سُمِّيَ بِهِ ﷺ؛ لكون حمده أتم وأشمل من حمد سائر الأنبياء والرسل؛ إذ محامدهم لله إنما هو بمقتضى توحيد الصفات والأفعال، وحمده ﷺ بحسب توحيد الذات المستوعب لتوحيد الأفعال والصفات.

وبعدما أظهر عيسى - صلوات الله عليه - دعوته طالبوه بالبينة الدالة على صدقه ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾⁽¹⁾ الواضحات، والمعجزات الساطعات التي هي أكثر من معجزات موسى، وبعدما رأوا منه ما رأوا من الخوارق التي ما ظهر مثلها من الأنبياء بادروا إلى تكذيبه مكابرةً وعناداً، حيث ﴿قَالُوا هَذَا أَيُّ عِيسَى الَّذِي﴾، أو ما جاء به من المعجزات ﴿سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [الصف: 6] ظاهر كونه سحراً، أو كماله في السحر إلى حيث كأنه تجسم منه، وليس تكذيبهم إياه - صلوات الله عليه - بعد وضوح البرهان، ونسبته إلى شيء لا يليق بشأنه إلا خروج عن مقتضى الحدود الإلهية الموضوعة؛ لأداء حقوق العبودية.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ وأشد خروجاً عن مقتضى الحدود الإلهية ﴿مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ﴾ الحكيم المتقن في أفعاله ﴿الْكُذْبَ﴾ ونسب ما أنزله سبحانه من المعجزات الدالة على صدق رسوله المزيد من عنده بالنفس القدسية، المبعوث إلى الناس؛ ليرشدهم إلى

(1) لما أراد الله سبحانه أن يظهر لعرائس مملكته، ولخاصة أوليائه من قدسية نور سره الأول، وإنسان عينهم الكامل المكمل، وهو النبي المصطفى الطاهر الأجل، سماه في أهل السماوات باسمه (أحمد)، إظهاراً لمنزله عند ربه، وعلو رفعة عند خالقه فكانه يقول لأهل حضرته: لئن ظفرتم بالغنم في تنزيهي وتقديسي وذكرى، فلقد زاد على حمدكم حبيبي أحمد الذي بالغ في حمدي وشكري، وفوض أمره لأمرى، فهو أفضل من خلقت ومننت عليه بجميع محامدي، وأعظم من رزقته وصيرته إكسیر محامدي.

طريق توحيده ﴿وَهُوَ﴾ الحال أنه ﴿هُوَ﴾ أي: المفترى الظالم ﴿يُذْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ﴾ المتقدس عن جميع الآثام لو قَبْلَهُ وصدقَه، وامثل بما فيه من الأوامر والنواهي، وهو من غاية عتوه وعناده في موضع الإجابة والقبول يرده ويكذبه، وينسب معجزات الداعي إلى السحر والشعبذة مرءً وافتراءً ﴿وَهُوَ﴾ بالجملة: ﴿اللَّهُ﴾ المطلع على ما في استعدادات عباده ﴿لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الصف: 7] الخارجين عن مقتضى الفطرة الأصلية الإلهية التي فطر الناس عليها، ذلك الدين القيم، ولكن أكثر الناس لا يعلمون؛ لذلك يخرجون.

وليس غرضهم من هذا الافتراء والتكذيب بعد وضوح ظهور الحجج الواضحة، والبراهين الساطعة إلا أنهم ﴿يُرِيدُونَ﴾ بفتنتهم هذه ﴿لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ﴾ الواحد الأحد الصمد، المتشعشع من مطالع عموم الكائنات، ومشارك جميع الذرات، ألا وهو دين الإسلام المنزل على خير الأنام؛ لتبيين توحيد الذات ﴿بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ أي: بمجرد قولهم الباطل، الزاهق الزائل بلا مستند عقلي أو نقلي، فكيف عن كسفي وشهودي ﴿وَاللَّهُ﴾ المتعزز برداء العظمة والكبرياء ﴿مُتِمُّ نُورِهِ﴾ مبالغ في إشاعته وإشراقه غايتها ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [الصف: 8] ظهوره وشيوعه إرغاماً لهم وإذلاً لآلئهِ

وكيف لا يتم سبحانه شيوع نور وحدته الذاتية ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ﴾ محمداً ﷺ ولمصلحة هذا التتميم والتكميل، وأيده ﴿بِالْهُدَى﴾ والقرآن العظيم ﴿وَدِينِ الْحَقِّ﴾ والملة الحنيفية السمحة البيضاء المورودة له من جده إبراهيم ﴿لِيُظْهِرَهُ﴾ ويغلبه؛ أي: الدين القويم، المبين لصراط الحق وطريق توحيده الذاتي ﴿عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ أي: على عموم الملل والأديان الواردة؛ لبيان توحيد الصفات والأفعال ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾⁽¹⁾

(1) قال السمناني: يعني: هو الذي خلقكم وهداكم إلى السلوك بأمر اللطائف المرسل إليكم يرسل رسوله الكريم، وهو اللطيفة الخفية الداعية إلى الحق المعلمة أمر التقويم والتصديق والتوجيه للمرأة التي هي منظورة الحق على وجه يمكن إكمال المرأة به، ويجعلها مستحقة لأن ينظر إليها الله تعالى بنظر جلاله وجماله ويشاهد فيها ذاته وصفاته وأفعاله وآثاره على وجه التفضيل؛ ولهذا السر أظهر هذا الدين على الأديان كلها، وسنحت الشرائع بشريعتها الزهري، ولو كره المشركون الذين أشركوا بالله بإثباتهم اللطائف بالنبوة والقوى القابلة والفاعلة بالشركاء الله تعالى، عما يقول

[الصف: 9] ظهور توحيد الحق؛ لما فيه من قطع عرق الشرك جلياً كان أو خفياً؟!

ثم قال سبحانه بعدما أشار إلى ظهور دين الإسلام، وإعلاء كلمة التوحيد حقاً على المؤمنين، وترغيباً لهم إلى ترويج الدين القويم الذي هو الصراط المستقيم، الموصل إلى مرتبة حق اليقين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ [الصف: 10] كأنه قيل: ما التجارة المنقذة المنجية؟.

قال سبحانه: ﴿تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ لترويج دينه، وإعلاء كلمة توحيده ﴿بِأَمْوَالِكُمْ﴾ ببذلها في الخطوب ﴿وَأَنْفُسِكُمْ﴾ بالاقتران على الحروب ﴿ذَلِكَ﴾ الذي ذكر من الإيمان والجهاد ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ ونفعه عائد إليكم ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الصف: 11] ما هو أصح لكم، وأنفع في نشأتكم الأولى والأخرى.

وإن تؤمنوا بالله، وتصدقوا رسوله، وتجاهدوا في سبيله ﴿يَغْفِرَ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ التي أتيتم بها قبل ذلك ﴿وَ﴾ بعدما تغفر ذنوبكم ﴿يُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ﴾ متزهات العلم والعين والحق ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي: أنهار المعارف والحقائق المترشحة من بحر الحياة التي هي حضرة العلم الإلهي ﴿وَمَسَاكِينُ طَيِّبَةٍ﴾ من الحالات والمقامات السنية، والدرجات العلية ﴿فِي جَنَّاتٍ عَذْنٍ﴾ التي هي المعرفة واليقين مصونة عن شوب الشرك، وريب الحساب والتخمين ﴿ذَلِكَ﴾ الستر والإدخال هو ﴿الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [الصف: 12] والفضل الكريم على أرباب المعرفة واليقين من الله العزيز العليم.

﴿وَ﴾ لكم أيها المعتبرون المجاهدون عنده سبحانه نعمة ﴿أُخْرَى﴾ من النعم التي ﴿تُجِبُّونَهَا﴾ وهي ﴿نَضْرٌ﴾ نازل ﴿مِنْ اللَّهِ﴾ العزيز الحكيم عليكم، إلى حيث يغلبكم على عموم أعدائكم ﴿وَفُتِحَ قَرِيبٌ﴾ في العاجل ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿بَشِيرٌ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصف: 13]

المشركون والكافرون علواً كبيراً: هو الله الواحد الأحد الصمد لم تتخذ صاحبة ولا ولداً خلق القوى القابلة بنظر ربوبيته، وخلق القوى الفاعلة بنظر ألوهية وأزوج بينهما بحكمته، وأخرج من بينهما ذريته ليكونوا مظاهر لطفه وقهره، وهو الغالب على أمره يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد في ملكوته.

[13] المجاهدين يا أكمل الرسل بأنواع البشارات الدنيوية والأخروية.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ
لِلْحَوَارِيِّينَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ
فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴿١٤﴾﴾ [الصف: 14].

ثم قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ مقتضى إيمانكم: نصره دين الله، وتقوية
رسوله ﴿كُونُوا﴾ بأموالكم وأنفسكم ﴿أَنْصَارَ اللَّهِ﴾ وأنصار رسوله، وقولوا في مقابلة
نبيكم ما قال الحواريون في مقابلة عيسى عليه السلام: ﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ﴾
مختبراً إخلاصهم ومحبتهم، ونهاية مرتبتهم في اليقين، ودرجتهم في أعلى عليين: ﴿مَنْ
أَنْصَارِي﴾ وأعواني في توجهي ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ وانتشار توحيده بين أظلال المستمدين من
أظلال أوصافه وأسمائه؟.

وبعد ما سمعوا منه ما سمعوا ﴿قَالَ الْحَوَارِيُّونَ﴾ من كمال انكشافهم بالله
وتوحيده، وتحقيقهم في مقام الشهود، وتمكنهم فيه: ﴿نَحْنُ﴾ القانون في الله، الباقيون
ببقائه، المستغرقون بمطالعة لقائه ﴿أَنْصَارُ اللَّهِ﴾ وأحباؤه؛ إذ لا مرجع لنا سواه، ولا
مقصد إلا إياه.

والحواريون هم أول من آمن بعيسى عليه السلام من الحور، وهو البياض، وهم اثنا
عشر، سُموا به؛ لصفاء عقائدهم عن التردد والتلوين، وبعد ما أظهر عيسى عليه السلام دعوته
بين الأنعام ﴿فَآمَنَتْ﴾ به عليه السلام ﴿طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَكَفَرَتْ﴾ به عليه السلام ﴿طَائِفَةٌ﴾ أخرى
منهم، وبعد وقوع الخلاف والاختلاف ﴿فَأَيَّدْنَا﴾ وغلبنا الطائفة ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ منهم
﴿عَلَى عَدُوِّهِمْ﴾ يعني: الطائفة الذين كفروا به عليه السلام ﴿فَأَصْبَحُوا﴾ وصاروا؛ أي:
المؤمنون ﴿ظَاهِرِينَ﴾⁽¹⁾ [الصف: 14] غالبين على الكفرة بالحراب والحجة، ألا إن

(1) قال في «عين الحياة»: يعني: إذا شرفوا بالتجلي الجمالي صاروا غالبين على من كفر من أمة
مؤمنة باللطيفة السرية كافرة باللطيفة الخفية، فهكذا أيتها القوى المؤمنة باللطيفة الخفية إن كنتم
تؤمنون باللطيفة الخفية تردكم بتجليات الجمال، بحيث تصبحون ظاهرون غالبين على عدوكم

﴿حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [المائدة: 56]؟

جعلنا الله وعموم عباده من محبيهم، ومقتفي أثرهم بميته وجوده.

خاتمة السورة

عليك أيها الموحد المحمدي، المنجذب نحو الحق، المنخرط في سلوك أرباب التوحيد الملقبين بأنصار الله، المهاجرين عن كورة بقعة الناسوت نحو مدينة الوحدة اللاهوتية، وسواد أعظم الفقر - أعانك الله إلى أن تصل أقصى مرامك، وأعلى مقامك من المعرفة والتوحيد - أن تجمع همك، وتشمر ذيلك لسلوك سبيل الفناء من طريق الموت الإرادي المثمر للفناء المطلق عن الفناء أيضًا؛ لتفوز بالبقاء الأزلي السرمدي، ألا وهي طريقة الحضرة الختمية المحمدية، المبعوث إلى كافة البرية؛ لبيان طريق التوحيد الذاتي، المسقط لجميع الكثرات؟!

فلك أن تصفي شرك وضميرك عن نقوش مطلق المعتقدات، وصور عموم الرسوم والعادات المنافية لصرافة الوحدة الذاتية، وتقتفي أثر نبيك ﷺ أمثال الحواريين أثر نبيهم بلا شوب وريب؛ لينكشف لك طريق المعرفة واليقين بعد توفيق الله، وجذب من جانبه، وطول خدمته الشريفة النبوية، والنواميس المصطفوية، وإياك إياك الالتفات إلى الدنيا وما فيها؛ ليتمكن لك التصفية والتخلية التي هي مقدمة الكشف والشهود. هداانا الله إلى سبيل توحيده بفضله وطوله.

سورة الجمعة

فاتحة سورة الجمعة

لا يخفى على من انكشف له سرائر مرتبتي النبوة والولاية، المتشعبتين عن حضرة العلم الإلهي ولوح قضائه المشتمل على ما كان ويكون وقلم تقديره، المصوّر لنفوس الأظلال والسوى الظاهرة على مرآة العدم حسب الإرادة الكاملة، والحكمة الباهرة الإلهية المقتضية لها أن ظهور هاتين المرتبتين إنما هو بالوهب الإلهي، بلا جريان الاكتساب بالآلات والأسباب على مقتضى جزي العادة في العلوم الرسمية الحاصلة باستعمال القوى المدركة الإنسانية.

لذلك أخبر سبحانه عن كمال قدرته على بعث الرسول الأمي الأكمل من جميع الرسل على الأميين، بلا وسائط الإماء والإنشاء، وختم بيعته ﷺ أمر الإرشاد والتكميل الذي هو المقصود الأصلي من مرتبة الرسالة والنبوة، فقال سبحانه بعدما تبه على أهل التوحيد برجوع عموم الكائنات نحوه سبحانه بكمال التوحيد والتسبيح، والتقديس عما لا يليق بشأنه بعد التيمن: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ الذي أظهر جميع الأشياء بكمال قدرته من كتم العدم، بلا سبق مادة ومدة ﴿الرَّحْمَنُ﴾ على عموم الأكوان ببعث الرسل من نوع الإنسان المصوّر بصورة الرحمن ﴿الرَّحِيمُ﴾ لهم، يهديهم إلى روض الجنان، ويشوقهم بلقاء الجنان.

﴿يَسْبَحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ ① هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ② وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ③ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاقُّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ④ مَثَلُ الَّذِينَ خُمِلُوا الثَّورَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِمَثَلِ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ

⑤ ﴿[الجمعة: 1 - 5].

لذلك ﴿يُسَبِّحُ﴾⁽¹⁾ ويقدس ﴿الله﴾ الواحد الأحد، المنزه عن مطلق التحديد مظاهر
﴿مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ تسييحًا وتقديسًا، مقرونًا بكمال التذلل والخضوع
إلى ﴿الْمَلِكِ﴾ المتسلط بالاستيلاء التام، والسلطنة القاهرة الغالبة على مملكة الوجود
﴿الْقُدُّوسِ﴾ المنزه الطاهر ذاته عن سمة الحدوث، ووصمة الإمكان ﴿الْعَزِيزِ﴾ الغالب
على عموم المقدورات بكمال الاستيلاء والاستقلال ﴿الْحَكِيمِ﴾ [الجمعة: 1] المتقن
في مطلق التدابير الجارية في عالم التصاوير بلا فتور وقصور.

﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ﴾ بمقتضى كمال قدرته وحكمته ﴿فِي الْأَمْتِينَ﴾ المنسلخين عن
مطلق الإملاء والإنشاء المشعر بالتدبير والتفكر بمقتضى العقل الفطري الموهب لهم
من حضرة العليم الحكيم ﴿رَسُولًا﴾ أميًا أمثالهم، ناشئًا ﴿مِنْهُمْ﴾ وأيده بروح القدس
بعدما أصفاه من دنس الجهل، واصطفاه من بين الملل، وفضله على جميع أرباب
النحل، وجعله في كمال المعارف والحقائق الإلهية، بحيث ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ﴾ عموم
﴿آيَاتِهِ﴾ الدالة على وحدة ذاته، وعلى كمال أسمائه وصفاته ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ عن مطلق

(1) قال في «عين الحياة»: اعلم أن التسبيح لا يصدق من أحد من رؤية وجوده، فينبغي المسيح أن
يعرف الله بصفة الملكية والقدوسية والعززية والحكيمية، ومعرفة صفة ملكه لا يصدق ما دام
يلتجئ إلى أحد غيره، ويرى الملك لغيره متصرفًا، ولا ياتمر بأمره، ولا ينتهي من نهيه، ويشغل
بنهر طبعه، ومعرفة صفة قدسه لا يحصل إلا بعد علمه بأن كل ما يخطر بباله وحسه وذكره، فإله
خالق ذلك الخواطر وكل ما رأى من صور صفاته في الغيب والشهادة يتيقن بالله مصورها،
ومعرفة صفة عززية منوطة بأنه يعرف أنه غالب على أمره، خلق الشيطان لعزته، وخلق النفس
قرينة لغيرته على أن يعرفه غيره، ومعرفة حكيمية متعلقة بمعرفة النقطة المتقنة الواهية صور
الأشياء بعد ظهور الصفات الثلاثة: العلمية والإرادية والقدرية؛ ليعلم حقيقة ظهور القالب
الإنساني على شكل قامة الألف، ويعلم قواها السوداء، وقواها البيضاء، وكيفية تداخل الحروف
بعضها في البعض، وأخذ النقاط البيانية حظوظها من النقاط السوداء، وأخذ النقاط
السوداء حقوقها من النقاط البيضاء؛ ليظهر عليه حكمة صدور هذا الفعل من ذات سبب
صفاته الملكية والقدسية والعززية والحكيمية، وإن الملك اسم للسر الذي أودعه الله في النقطة
العلمية، والقدوس اسم للذي أودعه الله في النقطة الإرادية، والعزيز اسم للسر الذي أودعه الله
في النقطة القدسية، ويطلع على ينبوع الحياة في النقطة العلمية، وعلى نهر السمع في النقطة
الإرادية، وعلى بحر البصر في النقطة القدسية، وعلى مد الكلام وجوزه في النقطة المتقنة
الحكيمية ليجتني من شجرة روحانيته المغروسة في أرض بشريته إثمار الكلمات الطيبات في
بستان بلدته الطيبة، ويضعها على طبق اللطائف ويتحف بها على يدي اللطيفة الأنانية إلى حضرة
ربه الغيور، والمبالغة في هذا التقرير في هذه الآية فرعت باب مطلع القرآن.

النقائص والآثام المذافية لدين الإسلام، المبين للتوحيد الذاتي.

﴿و﴾ بالجملة: ﴿يُعَلِّمُهُم﴾ بمقتضى الوحي الإلهي ﴿الكِتَاب﴾ أي: القرآن الجامع لما في الكتب السالفة من الحكم والأحكام على أبلغ بيان، وأبدع نظام ﴿وَالْحِكْمَةِ﴾ أي: الأحكام الشرعية المنزلة من عند العليم الحكيم العلام ﴿وَلَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ﴾ أي: وإنهم كانوا قبل بعثته ﷺ ﴿لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الجمعة: 2] وغواية ظاهرة؛ لأنهم كانوا على فترة من الرسل.

﴿و﴾ لم يختص بعثته ﷺ بالأميين من الأعراب الموجودين عند بعثته ﷺ بل يعم ﴿آخَرِينَ مِنْهُمْ﴾ أي: من عموم المكلفين ﴿لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾ أي: حين يتبعوا بالأولين إلى يوم القيامة؛ إذ ختم بعثته ﷺ أمر البعثة، وكمل عند ظهوره ﷺ ببيان الدين القويم الذي هو صراط التوحيد الذاتي ﴿وَهُوَ﴾ سبحانه ﴿الْعَزِيزُ﴾ الغالب على عموم التقادير ﴿الْحَكِيمُ﴾⁽¹⁾ [الجمعة: 3] المطلق في جميع الأفعال والتدابير.

﴿ذَلِكَ﴾ أي: التوحيد الذاتي الذي ظهر به ﷺ رحمةً للعالمين ﴿فَضْلُ اللَّهِ﴾ العزيز الحكيم ﴿يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ من عباده بلا سبق الوسائل والأسباب العادية ﴿وَاللَّهُ﴾ المتعزز برداء العظمة والكبرياء ﴿ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الجمعة: 4] الذي لا يكتنه وصف فضله وطوله أصلاً.

ثم قال سبحانه تعريضاً على الكفرة المنكرين لنبوة محمد ﷺ، مع أنه قد ورد في كتبهم المنزلة عليهم بعثته وحليته ﷺ، وهم مؤمنون بها، مصدقون بجميع ما فيها سوى بعثته ﷺ، وما جاء فيها من أوصافه ﷺ الدالة على علو شأنه، ورفعة قدره ومكانه، وبالجملة: ﴿مَثَلُ﴾ القوم ﴿الَّذِينَ خُفِّلُوا التَّوْرَةَ﴾ أي: علموها وكلفوا بما فيها من الأوامر والنواهي، ومطلق الأحكام ﴿ثُمَّ لَمْ يَخِيلُوهَا﴾ ولم يتفَعُوا، ولم يصدقوا بما

(1) قال علاء الدولة: بقدرته أرسل اللطيفة الخفية إلى الأميين من القوى الحقوقية الأمية الأصلية؛ ليعلمهم الكتاب والحكم بعد أن غابوا عن الحضرة من وقت التخмир، وصاروا ضالين في أودية البشرية، وبدأ الشكوك والظنون مشتغلين بعمارة وكر قلوبهم وتربية بيضتهم غافلين عن ذكر الله بالحكمة البالغة؛ ليثم الوكر ويتج البيضة الفرخ، ولولا غفلتهم عن الذكر ما اشتغلوا بعمارة الوكر وتربية البيضة، والمراد من إيجاد الذكر والأنثى والعلو والسفل، وعمارة الوكر وتربية البيضة هو: الفرخ الذي يحصل فيه؛ فيطير في سواء المحبة، ويأخذ طيور المعرفة ليشرح السلطان في طيرانه، وعلمه بكيفية الأخذ ورجوعه إلى يد السلطان.

فيها، سيما نعوت الحضرة الختمية المحمدية ﷺ، مثلهم في حمل التوراة عليهم، وتكليفاً لهم ﴿كَمَثَلِ الْخِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ كتباً من العلم يحمل عليه، ويتعب بثقلها، ولا يتفجع بها ﴿بَشْسٍ﴾ المثل ﴿مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ الدالة على عظمة ذاته، ومثانة حكمه وحكمته في عموم مأموراته ومنهياته ﴿وَوَ﴾ بالجملة: ﴿اللَّهُ﴾ العليم الحكيم، المتقن في أفعاله ﴿لَا يَهْدِي﴾ إلى توحيدهِ ﴿الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الجمعة: 5] الخارجين عن مقتضى عبوديته بمتابعة شياطين أماراتهم بسوء.

﴿قُلْ يَأَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ٦ ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ ٧ ﴿قُلْ إِنْ الْمَوْتُ الَّذِي تَفْرُونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلْقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلِّيِّهِ وَالشَّهَادَةُ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ٨ ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ٩ ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ١٠ ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهِوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ ١١ ﴿[الجمعة: 6 - 11].

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل على سبيل التبكيث والإلزام نيابةً عنا لليهود الذين يدعون محبة الله وولايته بقولهم: نحن أولياء الله وأحباؤه منادياً لهم، متهمينهم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا﴾ وتهودوا ﴿إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ﴾ المقرب لكم إلى الله؛ إذ الانتقال من دار الغرور إلى دار السرور تقربكم إلى الرحيم الغفور ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الجمعة: 6] في دعوى المحبة والولاء، فتمنوه.

﴿وَوَ﴾ الله يا أكمل الرسل ﴿لَا يَتَمَنَّوْنَ﴾ أي: لا يتمنى أحد منهم الموت أصلاً ﴿أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: بسبب ما قدموا، واقترفوا بأنفسهم من الكفر والعصيان، وأنواع الفسوق والطغيان ﴿وَوَ﴾ بالجملة: ﴿اللَّهُ﴾ المطلع بعموم ما في استعدادات عباده ﴿عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [الجمعة: 7] وبما في ضمائرهم من المحبة والقساوة، يجازيهم على مقتضى علمه.

﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل بعدما أغرضوا عن تمني الموت وابتغائه طلباً لمرضاة

الله، وشوقاً إليه أيضاً على وجه الشكيت والإلزام: ﴿إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ﴾
وتخافون أن تمنوه بلسانكم مخافة أنه لا يلحقكم، بل تفرون عن مجرد التلفظ به،
فكيف عن لحوقه ﴿فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ﴾ ملاصقكم، ولاحق بكم حتماً؛ إذ كل نفس ذائقة
كأس الموت، وكل حي لا بد وأن يموت سوى الحي الذي لا يموت، ولا يفوت
﴿ثُمَّ﴾ بعدما تموتون ﴿تُرْذَوْنَ﴾ وتُحْشَرُونَ نحو المحشر، وتعرضون ﴿إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ﴾
وَالشَّهَادَةِ بعلمه الحضورى ﴿فَيُنَبِّئُكُمْ﴾ ويخبركم حيثنذ ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجمعة: 8]
من خير وشر، فيجازيكم عليهما.

ثم لما تهاون المسلمون في أمر الجمعة، وتكاسلوا في الاجتماع قبل الصلاة، بل
انفضوا وصرفوا عن الجامع حين خطب رسول الله ﷺ، حين سمعوا صداء الملاهي
المعهودة لمجبيء العير على ما هو عادتهم دائماً، عاتبهم الله سبحانه، وأنزل عليهم
الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ مقتضى إيمانكم: المبادرة إلى مطلق الطاعات، سيما ﴿إِذَا
تُودِيَ﴾ وأذن ﴿لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ﴾ أي: في يوم الجمعة، وهو الأذان المعهود
قبيل الجمعة ﴿فَاسْعَوْا﴾ مسرعين محيين ﴿إِلَى﴾ سماع ﴿ذِكْرِ اللَّهِ﴾ في الخطبة
والتذكيرات الواردة فيها ﴿وَذَرُوا﴾ وتركوا ﴿الْبَيْعَ﴾ بعد سماع الأذان ﴿ذَلِكَ﴾ أي:
ترك البيع والانصراف نحو المسجد ﴿خَيْرٌ لَكُمْ﴾ وانفع في عقابكم ﴿إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾
[الجمعة: 9] ⁽¹⁾ صلاحكم وإفسادكم في أولاكم وأخراكم.

﴿فَإِذَا قُضِيَتِ﴾ وأديت ﴿الصَّلَاةُ﴾ المكتوبة لكم يوم الجمعة مع الإمام
﴿فَانْتَشِرُوا فِي﴾ أقطار ﴿الْأَرْضِ وَابْتَغُوا﴾ واطلبوا حوائجكم ﴿مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ وإحسانه،
وسعة جوده وإنعامه ﴿وَذَكِّرُوا اللَّهَ﴾ بالجملة: ﴿أَذْكُرُوا اللَّهَ﴾ المنعم المفضل عليكم ﴿كَثِيرًا﴾ في
عموم أحوالكم وأعمالكم، ولا تحضروا ولا تقصروا ذكره في الصلوات المفروضة
فقط، بل اشتغلوا بذكره في عموم الأوقات والحالات، بالقلب واللسان، وسائر

(1) قال الشيخ روزبهان: لما جرى حديث البيع والتجارة دعاهم إلى ذكره بنعت السرعة والاستباق،
والإدعاء الكل في الأزل إلى نفسه، فإن الذكر عند المذكور حجاب، والسعي إلى الذكر مقام
المريدين، والمحقق في المعرفة غلب عليه ذكر الله إياه بنعت تجلي نفسه لقلبه، قال النصر
آبادي: العوام في قضاء الحوائج في الجمعيات، والخواص في السعي إلى ذكره لاستغنائهم
بالغنى لم يبق لهم حاجة لعلمهم بالمقادير قد جرت، فلا زيادة فيها ولا نقصان، لكنهم يسعون
إلى ذكره سعي مشتاق إلى مذكوره، يطلب منه محل قرينة إليه والدنو منه.

الجوارح والأركان؛ إذ ما من شيء إلا يسبح بحمده، ولكن لا يفقهون تسبيحهم إلا قليلاً، وواظبوا عليه ﴿لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ﴾ [الجمعة: 10] وتفوزون بخير الدارين.

﴿و﴾ هم من غاية حرصهم على مقتضيات القوى البهيمية بعدما كانوا في الجامع عند سماع الخطبة ﴿إِذَا رَأَوْا﴾ وسمعوا ﴿تَجَارَةً﴾ حاضرة تدير الناس حولها ﴿أَوْ لَهْوًا﴾ طلباً مخبراً لهم على مجيء العير ﴿انْفَضُّوا إِلَيْهَا﴾ أي: مالوا وتحركوا نحوها مسرعين، فخرجوا من الجامع سوى اثني عشر من الرجال والنساء ﴿وَتَرَكُوكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿فَائِمًا﴾ على المنبر، وما هي إلا ثلثة ظهرت في الدين المستبين، موجبة مقتضية للتهاون بأحكام الشرع المتين، حدثت فيما بينهم.

﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل إزاحة لها، وإزالة لما يتفرع عليها: ﴿مَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ من المثوبات الآخروية الموجبة للدرجات العلية، والمقامات السنية ﴿خَيْرٌ﴾ لكم وأصلح بحالكم، وأعظم نفعاً، وأبقى فائدة ﴿مَنْ اللَّهْوِ وَمِنَ التَّجَارَةِ﴾ إذ لا نفع لها عند أهل الحق وإن فرض، فهو متناه زائل عن قريب، بخلاف الكرامة الآخروية فإنها تدوم أبداً ﴿و﴾ إن عللوا انفضاضهم بتحصيل الرزق الصوري قل لهم يا أكمل الرسل: ﴿اللَّهُ﴾ المظهر لكم من كتم العدم، المدبر المربي لأشباحكم بما ليس في وسعكم ﴿خَيْرٌ الزَّاقِينَ﴾⁽¹⁾ [الجمعة: 11] يرزقكم من حيث لا تحتسبون إن توكلتم عليه مخلصين، وفوضتم أموركم إليه سبحانه واثقين بكرمه العميم، وجوده العظيم.

خاتمة السورة

عليك أيها الموحد الخائض لجج بحر الوجود، المتحقق بمقام الكشف والشهود - مكنك الله في مقر عز الوحدة، وجنبك عن الزيغ والضلال - أن تتوكل على الله، وتتخذة وكيلاً، وتفوض أمورك كلها إليه، وتجعله كفيلاً، فعليك ألا تشتغل عن الله في

(1) قال السمناني: يرزق القوى القلبية والنفسية والقلبية والسرية والروحانية والخفية والحقية بالوسائط والأسباب، ويرزقهم أيضاً غير الوسائط والأسباب من عنده بلطفه وكرمه ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، فالواجب على السالك أن يعتبر بهذه السورة، ولا يلتفت عند ورود الوارد ونزور الواقعة بالأعمال البدنية ولا بالسمع الصورية البتة حتى يسكن سلطان الوارد ويقضي بالواقعة وطرد من السالك، ثم يرجع إلى عالم الكسب وذكر اللسان ولا يترك العقل والذكر بعد انقضاء مدة الوارد والواقعة، ولو يترك لترك وصار متروكاً نعوذ بالله منه.

آن وشأن، ولا تغفل عنه في حين من الأحيان، سيما في أمر الرزق الصوري الضروري،
المقدر عند الله المدبر الحكيم لكل من دخل في حيلة الوجود، وظهر على صورة
الموجود، فإنه يصل على من يصل حسب إرادة الله ومشيته.

وياك إياك أن تطلبه بالتجارة والسؤال، بل لك أن تستعمل آلاتك الموهوبة لك
من عند العليم الحكيم إلى ما جلبت لأجله؛ لتكون من زمرة الشاكرين المتوكلين.

وبالجملة: الرزق على الله، ولا تكن من القانطين، واعبد ربك، واشكر على آلائه
ونعمائه ﴿حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: 99].

ربنا اجعلنا بلطفك من زمرة الشاكرين، آمين.

سورة المنافقون

فاتحة سورة المنافقون

لا يخفى على من وصل إلى مرتبة حق اليقين، وتمكن في مقعد الصدق مع الموقنين أن الكذب والافتراء والمراء، والجدال الواقع بين أصحاب الضلال والآراء في عالم الكون والفساد دائماً هو من عدم الوصول إلى كعبة الوجود، وقبله الواجد والموجود، ومن عدم التحقق بمقام الرضاء والتسليم الحاصل من كمال المعرفة واليقين، وإلا فلا يقع ويصدر من الموقنين الواصلين أمثال هذه الجرائم المنبئة عن النفاق والشقاق المستلزم للجهل والغفلة عن الله الظاهر، المتجلي في الأنفس والآفاق بالاستقلال والاستحقاق.

ولهذا أخبر سبحانه حبيبه ﷺ بما أخبر من إخبار أهل النفاق، ونبه عليه ما نبه من ضلالهم، فقال بعد التيمن: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ الذي أحاط علمه بما لا يتناهى من المعلومات ﴿الرَّحْمَنُ﴾ على عموم عبادته بأمر المعروف، ونهي المنكرات ﴿الرَّحِيمُ﴾ لهم، يهديهم إلى سبيل السلامة، وطريق النجاة.

﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴿١﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَدَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرهُمْ قَالَهُمُ اللَّهُ أَنَّهُ يُفَكَّرُونَ ﴿٤﴾﴾ [المنافقون: 1 - 4].

﴿إِذَا جَاءَكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿الْمُنَافِقُونَ﴾ على سبيل الملاينة والخداع تغريزاً لك ولمن تبعك من المؤمنين ﴿قَالُوا﴾ مبالغين في إظهار الإيمان، مؤكدين: ﴿نَشْهَدُ﴾ أي: نقر ونعترف عن صميم الفؤاد ﴿إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ﴾ أرسلك الحق على الحق بالحق ﴿و﴾ بعدما أكدوا شهادتهم تأكيداً على تأكيد بالغوا أيضاً في التأكيد؛ لتكميل التقرير والتتوير، حيث قالوا: ﴿اللَّهُ﴾ المطلع على السرائر والخفايا ﴿يَعْلَمُ﴾ ويشهد ﴿إِنَّكَ﴾

لَرْسُولُهُمْ ﴿ هُمْ وَإِنْ بَالِغُوا فِي شَهَادَتِهِمُ الْكَاذِبَةَ عَلَى سَبِيلِ التَّزْوِيرِ وَالتَّلْيِيسِ ﴾ وَاللَّهُ الْمَطْلَعُ عَلَى مَا فِي ضَمَائِرِهِمْ مِنَ النِّفَاقِ وَالشَّقَاقِ ﴿ يَشْهَدُ ﴾ حَتَّمَا ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ ﴾ الْمَصْرِيْنَ عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْكُفْرِ وَالْإِنْكَارِ ﴿ لَكَاذِبُونَ ﴾ [المنافقون: 1] فِي شَهَادَتِهِمُ الْمَزُورَةَ، الصَّادِرَةَ مِنْهُمْ عَلَى وَجْهِ الْمِبَالِغَةِ وَالتَّكْيِيدِ .

وبالجملة: ﴿ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ ﴾ المغلظة الحاصلة من شهادتهم المؤكدة بها ﴿ جُنَّةً ﴾ جعلوها وقاية لأموالهم وأنفسهم ﴿ فَصَّدُّوا ﴾ وصرفوا غزاة المسلمين؛ بسبب ذلك الحلف الكاذب ﴿ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ الذي هو قتالهم وأسرهم ونهبهم، وبالجملة: ﴿ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾⁽¹⁾ [المنافقون: 2] من الصد والنفاق، والإصرار

(1) قال في «عين الحياة»: شهد الله على رسالة الرسول أولاً ثم يشهد على كذب المنافقين فيما يظهرون؛ لأن الله مطلع على ضمائرهم على أنهم أضمرُوا خلاف ما أظهروا، فأخبر النبي ﷺ لكلا يغتر بشهادتهم وإيمانهم، فكذلك أيتها اللطيفة المرسله ينبغي ألا يغتر بالقوى المنافقة؛ لأنهم إذا علموا منك الصدق في المجاهدة، وثبات القدم في ترك الهوى، وجاءوك ونافقوك وداهنوك والتمسوا منك أن تلقنهم الذكر، ويأخذوا منك تلقين الذكر، وكل ذلك لشعورهم بصدقك في المجاهدة لكي توافقهم وتواسيهم بأن النفس قد صارت مؤمنة، فالواجب عليك إعطاء حقها؛ لأن الله تعالى بين للسالك ثلاث مقامات في قوله: ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ يُؤْذِنُ اللَّهُ ﴾ [فاطر: 32] فالسالك المبتدئ ينبغي أن يكون ظالماً لنفسه يأخذ منها حقها وحظها إلا مقدار ما يبقى رفقها، ويتقوى به على الطاعة وإلى هذه النفس أشار النبي ﷺ حيث قال: «أعدى أعدائك عدوك نفسك التي بين جنبيك» والمقتصد هو السالك المتوسط ينبغي أن يقصد في المجاهدة ويرفق بالنفس؛ لأنها صارت في هذه المرتبة مركب للسالك وأشار إلى هذه النفس النبي ﷺ حيث قال: «نفسك مطيتك، فأرفق بها»، والسابق هو السالك المتهي يجب عليه أن يعطي حق النفس؛ لأن النبي ﷺ جعلها صاحبة للحق حيث قال: إن لنفسك عليك حقاً، فإيا أيتها اللطيفة تيقني أن النفس جبلت على النفاق فما دام فيها عرق من القوى السفلية الغير المستخلصة من رذائل الأخلاق باقياً، فاحذري منها، ولا تغتري بها، وكذلك كلما وصل إليها شرب من عالم الطبيعة جدد نشاطها إلى الرجوع إلى طبيعتها، وهي كمثل القصب المقطوع إذا وجد الماء يخرج أحسن مما كان قبل القطع وقلعه لا يمكن إلا بالموت الكبير إلا خيراً، ولأجل هذا السر أمر الله نبيه في كلامه بالعبادة حتى الموت بقوله: ﴿ وَاصْبِرْ لِرَأْسِ تِكِ الْيَقِينِ ﴾ [الحجر: 99] يعني: الموت الأخير الاضطراري لا الموت الاختياري، ولكن يكسر قوتها بالموت الاختياري بحيث يسكن سلطانها، ودخلت تحت أمر اللطيفة المرسله، فكوني على حذر منها متى دامت متصرفة في أرض البشرية، ولا تغتروا بإيمانهم لأنهم اتخذوا جنة وموتاً وصدوا وأعرضوا عن سبيل الحق بالأعمال السيئة والأخلاق الرديئة.

على الشقاق:

﴿ذَلِكَ﴾ أي: اجتراءهم على تلك الشهادة على وجه المراء والنفاق، وإصرارهم على الكفر والشقاق ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ أي: بسبب أنهم ﴿آمَنُوا﴾ أولاً بالله وبرسوله، وأقروا بالاستهم ما ليس في قلوبهم على وجه النفاق صوناً لأموالهم وأنفسهم ﴿ثُمَّ كَفَرُوا﴾ بعدما آمنوا عن مكر المؤمنين ﴿فَطَبَعَ﴾ الكفر حيثذ ﴿عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ ورسخ فيها واستحكم، وبعد الطبع والتمرن ﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون: 3] ولا يفهمون حقيقة الإيمان ولذته وصحبته، ولا باطلية الكفر وفساده.

﴿وَ﴾ بالجملة: هم من غاية غفلتهم عن الله، ونهاية عرائهم وخلوهم عن نور الإيمان ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ﴾ يا أكمل الرسل ﴿تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾ أي: سمتها وضخامتها ﴿وَإِنْ يَقُولُوا﴾ أيضاً كلاماً ﴿تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ﴾ لفصاحتهم وحلاوة نظمهم، إلا أنهم لخلوهم عن العلم اللدني، والرشد المعنوي، والصفاء الفطري الذاتي الذي هو نفوذ أرباب المحبة والولاء ﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ﴾ يابسة فانية، فاقدة للقابلية الفطرية ﴿مُسْنَدَةٌ﴾ على جدار الجهل والبلادة، ومع ذلك ﴿يَخْسَبُونَ﴾ يظنون ويتربصون من شدة شكيمتهم وغيظهم مع المؤمنين ﴿كُلُّ صَنِيعَةٍ﴾ واقعة ﴿عَلَيْهِمْ﴾ مسموعة لهم ﴿هُمُ الْعَدُوُّ﴾ يصبح عليهم؛ ليهلكهم.

وبعدما صار بغضهم مع المؤمنين، ومخافتهم من العدو بهذه الحيثية ﴿فَاخْذَرْهُمْ﴾ يا أكمل الرسل، واترك مصاحبتهم، واحترز من غيلتهم وطفيانهم؛ إذ الخائف ربما يصول بلا سبب وداع عليهم، وقل في شأنهم: ﴿قَاتِلْهُمْ اللَّهُ﴾ المنتقم الغيور ﴿أَنْى يُؤْفَكُونَ﴾ [المنافقون: 4] وكيف يصرفون وينحرفون عن الحق الصريح إلى الباطل الغير الصحيح، مع أنه لا ضرورة تلجئهم إليه؟

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَعَالُوا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّاْ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ۝ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ۝ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا وَلَهُ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُتَّقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ۝﴾ [المنافقون: 5 - 7].

﴿وَ﴾ من شدة بغضهم وضغيتهم مع المؤمنين المخلصين ﴿إِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾

إمحاذاً للنصح: ﴿تَعَالَوْا﴾ هلموا أيها المسرفون المفرطون مجلس رسول الله ﷺ ﴿يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ﴾ ﷺ، ويطلب مغفرتكم من العفو الغفور ﴿لَوْزَا رُءُوسَهُمْ﴾ وعطفوا أعناقهم عن القبول معتذرين بأعذار كاذبة مخافة وصونا ﴿وَرَأَيْتَهُمْ﴾ حيث في وجوههم التي هي عنوان بواطنهم آثار الكفر والعناد؛ إذ هم ﴿يَصُدُّونَ﴾ ويعرضون معتذرين عن المؤمنين ﴿وَهُمْ﴾ في أنفسهم ﴿مُتَكَبِّرُونَ﴾ [المنافقون: 5] عن القبول والاعتذار.

وبالجملة: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ﴾ يا أكمل الرسل ﴿أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ﴾ من الله المنتقم الغيور ﴿أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ العليم الحكيم، المتقن في عموم الأفعال أبداً ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المطلع على ما في استعدادات عباده ﴿لَا يَهْدِي﴾ ويرشد إلى جادة توحيده ﴿الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [المنافقون: 6] منهم، الخارجين عن مقتضى الحدود الإسلامية.

وكيف يهديهم ويغفر لهم سبحانه، مع أنهم ﴿هُمْ﴾ المسرفون المفسدون ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ﴾ للأنصار؛ من نهاية عداوتهم وبغضهم مع الرسول والمؤمنين: ﴿لَا تُفْقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ﴾ يعنون: فقراء المهاجرين ﴿حَتَّى يَنْفَضُوا﴾ ويتشروا بعدما اضطروا من حوله ﴿وَهُمْ﴾ لم يعلموا هؤلاء الغفلة الضالون، والجهلة الهالكون في تيه الجهل والعناد أن ﴿اللَّهُ﴾ وفي قبضة قدرته، وتحت ضبطه وملكيته ﴿خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: الكنوز المكنونة المطلوبة في ضمن العلويات، والمدفونة في السفليات ﴿وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ المصيرين على الكفر والعناد ﴿لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون: 7] (1) كمال قدرة الله، وسعة خزائن كرمه وجوده ١٩

﴿يَقُولُونَ لَيْنَ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَا الْأَعْرَابُ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْمِرَّةُ وَلِرَسُولِهِ، وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ٥ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ ٦ ﴿وَأَنْفِقُوا مِنْ مَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا الَّذِي نَعْتَذِرُ إِلَيْكَ لَاجِلَ قَرِينٍ﴾

(1) كل ما عند العبد من مال فهو خزانة الحق عنده والعبد خازنه فمهما تعدى خزانة مولاه بغير إجازة استحق السياسة بقطع آلة التعدي إلى خيانة خزانته وهي اليد المتعدية.

فَأَصْدَقَ وَأَكْنَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ

﴿١١﴾ [المنافقون: 8 - 11].

ومن نهاية غفلتهم عن الله، وعداوتهم مع المؤمنين: ﴿يَقُولُونَ﴾ على سبيل التهور والتهديد: ﴿لَئِنْ رَجَعْنَا﴾ عن سفرنا هذا ﴿إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ﴾ يريدون أنفسهم ﴿مِنْهَا﴾ أي: من المدينة ﴿الْأَذَلُّ﴾ يريدون المؤمنين، وذلك أن أعرابيا من المهاجرين نازع أنصاريا في بعض الغزوات على ماء فضرب الأعرابي رأسه بخشبة، فشكا إلى ابن أبي ومثته، فقالوا: لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا، وإذا ﴿رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾ [المنافقون: 8]، ﴿وَلَمْ يَعْلَمُوا أُولَئِكَ الْغَوَاةُ الضَّالُّونَ فِي تِهَ الْعَتْرِ وَالْعِنَادِ أَنَّهُ﴾ [الله العِزَّة] أي: القوة والغلبة أصالة ﴿وَلِرَسُولِهِ﴾ تبعا ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ بمتابعة الرسول ﴿وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: 8] عزة الله وعزة أهل الله؛ لفرط جهلهم وغرورهم بأموالهم وأولادهم؛ لذلك يحصرون العزة والقوة بأنفسهم.

ثم قال سبحانه تسليّة للمؤمنين مشتملة على نوع من التعريض، والحث والترغيب: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ مقتضى إيمانكم: ألا تلتفتوا لعزة الدنيا، ولا تغتروا بكثرة الأموال والأولاد فيها؛ حتى ﴿لَا تُلْهِكُمْ﴾ ولا تشغلکم ﴿أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾⁽¹⁾ وعن التوجه نحوه، والركون إليه في مطلق الأحوال ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ﴾ والتفت إلى مزخرفات الدنيا، وشغل بها عن الله ﴿فَأُولَئِكَ﴾ البعداء المشغولون بالخسيس الأدنى عن الشريف الأعلى ﴿هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [المنافقون: 9] المقصرون على الخسران الكلي؛ لاستبدالهم الباقي بالفاني، والزاهق الزائل بالقهار القديم.

(1) قال البقلي: بيان أن من لم يبلغ درجة التمكين في المعرفة، لا يجوز له الدخول في الدنيا من الأهل والمال، فإنها شواغل قلوب الذاكرين عن ذكر الله، ومن كان مستقيما في المعرفة وقرب المذكور فذكره قائم بذكر الله إياه. وذلك حظه بأن جعله محفوظا من الخطرات المذمومة، والشاغل الممحجة، والضعفاء لا يخرجون من بحر هموم الدنيا، فإذا باشرت قلوبهم الحفظ والشهوات لا يكون ذكركم صافيا عن كدوريات الخطرات.

قال سهل: لا تشغلکم أموالکم وأولادکم عن أداء الفرائض في أول مواقيتها؛ فإن من شغله عن ذكر الله وخدمته عرض من عروض الدنيا فهو من الخاسرين.

﴿وَعَلَّمَ مَالُ الْأَمْوَالِ إِلَى مَا يُتَفَرَّعُ عَلَيْهَا مِنَ الْحَرَمَانِ وَالْخُسْرَانِ﴾
 ﴿أَنْفَقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ وسقنا نحوكم من أموال الدنيا ﴿مَنْ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ أَخَذَكُمْ
 الْمَوْتُ﴾ يعني: أنفقوا قبل حلول الأجل، وظهور أمارات الموت، وعلامات الفزع
 ﴿فَيَقُولُ﴾ المحتضر منكم حيثئذ متحسراً: ﴿رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي﴾ أي: هلا أمهلتنى يا رب
 ﴿إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ وأمد غير بعيد ﴿فَأَصْدُقْ﴾ وأتصدق من مالي هذا على الوجه
 المأمور طلباً لمرضاتك ﴿وَعَلَّمَ مَالُ الْأَمْوَالِ إِلَى مَا يُتَفَرَّعُ عَلَيْهَا مِنَ الْحَرَمَانِ وَالْخُسْرَانِ﴾
 المنفقين، الممثلين لأمرك، المقبولين عندك.

﴿وَعَلَّمَ مَالُ الْأَمْوَالِ إِلَى مَا يُتَفَرَّعُ عَلَيْهَا مِنَ الْحَرَمَانِ وَالْخُسْرَانِ﴾
 جاء أجلها ﴿وَحُلَّ مَا قَدَّرَ لَهَا؛ لَرْدِ الْأَمَانَةِ فِيهِ مِنَ الزَّمَانِ وَالْآنِ، وَكَذَا لَنْ يَقْدِمَهَا عَلَيْهِ
 أَصْلًا، فَعَلَيْكُمْ التَّدَارُكُ وَالتَّلَافِي قَبْلَ حُلُولِ الْأَجَلِ﴾ ﴿وَعَلَّمَ مَالُ الْأَمْوَالِ إِلَى مَا يُتَفَرَّعُ عَلَيْهَا مِنَ الْحَرَمَانِ وَالْخُسْرَانِ﴾
 عليكم في عموم أحوالكم ﴿خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المنافقون: 11] في أيام حياتكم من
 خير وشر، فيجازيكم على مقتضى خبرته بلا فوت شيء من عملكم خيراً كان أو شراً.

خاتمة السورة

عليك أيها المحمدي المنكشف برجوع العكوس والأظلال إلى ما منه بدت
 وظهرت، ألا وهي شمس الوحدة الذاتية أن تعرف أن إظهار المعارف المظاهر، ويسط
 الظل عليها، وامتداده إياها إنما هو بغتة بلا سبق مادة ومدة، وآلة ومقدمة، كذلك
 القبض والإخفاء إنما يكون كذلك، فلك أن تكون في مدة ظهورك على ذكر من ربك،
 بحيث لا يشغلك عنه شيء ساعة، ولا تغفل عنه وعن التوجه نحوه لحظة وطرفة، فإنك
 ما تدري متى يحل الأجل؟ فإذا حل لا يمكنك التدارك والتلافي.

جعلنا الله من زمرة المستيقظين في عموم الأحوال.

سورة التغابن

فاتحة سورة التغابن

لا يخفى على من تحقق بحیطة الحق، وشمول أسمائه وصفاته على عموم المظاهر والمجالي أن رجوع عموم الكوائن والفواسد الغير المحصورة في فضاء الإمكان، وتوجه الكل إليه سبحانه طوعاً وربة؛ إذ ما من موجود إلا وله حب ذاتي، وميل جبلي إلى دوام نشأته التي هو عليها بمقتضى هويته، ولا شك أن له نحواً من الشعور بحدوثه ومسبوقيته بالعدم، فثبت أن له شعوراً بفاعله المظهر لهويته، فبمقتضى حبه لنشأته يكون له رجوع إلى مبدئه، يستمد منه ويحمد له.

كما أخبر سبحانه لحبيه ﷺ بعدما تيمن: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ الذي تجلى فيما تجلى بمقتضى سعة رحمته وجوده ﴿الرَّحْمَنُ﴾ على عموم المظاهر والأكوان بالإمداد عليها في كل آن وشأن ﴿الرَّحِيمُ﴾ علم نوع الإنسان، حيث أطلعه على سرائر توحيده، وصوره بصورته.

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝١﴾
هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَنُكِرْتُمْ كَافِرًا ۖ وَمِنْكُمْ مُّؤْمِنٌ ۖ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٢﴾ خَلَقَ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ۝٣﴾ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا
تُسْرُونَ وَمَا تَعْلَمُونَ ۖ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِلَايَاتِ الصُّدُورِ ۝٤﴾ الْقُرْآنُ نَزَّلُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَنَادُوا ثَوَالِ
أَمْهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٥﴾ [التغابن: 1 - 5].

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ﴾ ويقدر ذاته عن مطلق النقائص على وجه الإطلاق بعدما لم يبلغ كنه أسمائه وصفاته حتى يعد، ويحصى ببيان مظاهر ﴿مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ من ذرائر عموم الأكوان، وكيف لا يقدره جميع الأعيان؛ إذ ﴿لَهُ الْمُلْكُ﴾ على سبيل التخصيص، لا مالك له سواه، ولا مستولي عليه إلا هو ﴿وَهُوَ﴾ كذا ﴿لَهُ

الْحَمْدُ عَلَى سبِيلِ الْحَصْرِ وَالِاخْتِصَاصِ؛ إِذْ لَا مُسْتَحَقَّ لِلْحَمْدِ بِالِاسْتِحْقَاقِ إِلَّا هُوَ، وَلَا مُفِضٌ لِلنِّعَمِ عَلَى الْآفَاقِ غَيْرُهُ، وَلَا مُقَدِّرٌ لِلْأَرْزَاقِ إِلَّا هُوَ ﴿وَهُوَ﴾ بِالْجُمْلَةِ: ﴿هُوَ﴾ بِذَاتِهِ ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ دَخَلَ فِي حَيْطَةِ وَجُودِهِ ﴿قَدِيرٌ﴾ [التغابن: 1] لَا يَنْتَهِي قُدْرَتُهُ بِمُقَدَّرٍ دُونَ مُقَدَّرٍ.

وَكَيْفَ لَا يَكُونُ سُبْحَانَهُ قَدِيرًا لِعُمُومِ الْمُقَدَّرَاتِ، مَعَ أَنَّهُ ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ وَأَظْهَرَكُمْ، وَقَدَّرَ خَلْقَكُمْ مِنْ كِتْمِ الْعَدَمِ عَلَى سَبِيلِ الْإِبْدَاعِ بِمَا سَبَقَ مَادَّةُ وَمُدَّةُ، وَفَضْلُكُمْ بَعْدَمَا أَظْهَرَكُمْ ﴿فَمِنْكُمْ كَافِرٌ﴾ سَاطِرٌ لِلْحَقِّ، مُوَفَّقٌ عَلَيْهِ، مُحَجَّبٌ بِغُيُومِ هَوِيَّاتِهِ الْبَاطِلَةِ الْإِمْكَانِيَّةِ عَنْ شَمْسِ الْحَقِيقَةِ الْحَقِيَّةِ ﴿وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ﴾ مُوَفَّقٌ عَلَى الْإِيمَانِ، مُجْبُولٌ عَلَى فِطْرَةِ التَّوْحِيدِ وَالْعِرْفَانِ، مُبَشِّرٌ لَهَا؛ لِذَلِكَ يَصِيرُ إِيْمَانُهُ عِيَانًا، وَعِيَانُهُ حَقًّا وَبَيَانًا ﴿وَهُوَ﴾ بِالْجُمْلَةِ: ﴿اللَّهُ﴾ الْمُطَّلَعُ عَلَى عُمُومِ مَا فِي اسْتِعْدَادَاتِ عِبَادِهِ ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ مِنْ عُمُومِ الْأَعْمَالِ فِي جَمِيعِ الشُّعُونَ وَالْأَحْوَالِ ﴿بَصِيرٌ﴾ [التغابن: 2] فَيَعَامِلُ مَعَكُمْ بِمَا يَنْسَبُ أَعْمَالُكُمْ.

وَاعْلَمُوا أَيُّهَا الْمَكْلُفُونَ ﴿خَلَقَ﴾ سُبْحَانَهُ، وَأَظْهَرَ بِكَمَالِ قُدْرَتِهِ ﴿السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِالْحَقِّ﴾⁽¹⁾ أَيُّ: مَظَاهِرُ مَا فِي الْعُلُويَّاتِ وَالسُّفْلِيَّاتِ مُلْتَبَسَةٌ بِالْحِكْمَةِ الْمُتَقَنَّةِ، الْبَالِغَةِ فِي الْإِحْكَامِ وَالِإِتْقَانِ حَذًّا لَا يَبْلُغُ كُنْهَ أَحْلَامِ الْأَنَامِ، وَبَعْدَمَا رَتَبَهَا بِحِكْمَتِهِ عَلَى هَذَا النِّظَامِ الْأَبْلَغِ الْأَبْدَعِ انْتَخَبَ مِنْ مَجْمُوعِ الْكَائِنَاتِ مَا هُوَ زَيْدَتُهُ وَخِلَاصَتُهُ ﴿وَصُورَكُمْ﴾ أَيُّهَا الْمَجْبُولُونَ عَلَى فِطْرَةِ التَّوْحِيدِ وَالتَّحْقِيقِ مِنْهَا ﴿فَأَخْسَنَ صُورَكُمْ﴾ إِذْ خَلَقَكُمْ عَلَى صُورَتِهِ قَابِلًا لِمُخْلَافَتِهِ، لَائِقًا لِلتَّخَلُّقِ بِأَخْلَاقِهِ، وَالِاتِّصَافِ بِصِفْوَةِ أَوْصَافِهِ، وَجَعَلَ فِطْرَتَكُمْ غَايَةً وَعِلَّةَ غَايَةٍ مُرْتَبَةً عَلَى عُمُومِ مَظَاهِرِهِ وَمُصْنُوعَاتِهِ ﴿وَهُوَ﴾ كَيْفَ لَا

(1) قَالَ السَّمْنَانِيُّ: يَعْنِي: خَلَقَ سَمَآوَاتِ رُوحَانِيَّتِكَ اللَّطِيفَةَ، وَأَرْضِ بَشَرِيَّتِكَ الْكَثِيفَةَ، مِنْ لَطْفِهِ وَقَهْرِهِ بِالْحَقِّ؛ لِيُظْهِرَ مِنْهَا لَطِيفَةً مُسْتَحَقَّةً لِمَظْهَرِيَّةِ ذَاتِهِ، وَالْمُفْرَدَاتِ مَا كَانَتْ مُسْتَحَقَّةً لِمَظْهَرِيَّةِ ذَاتِهِ؛ لِأَنَّ الْمُفْرَدَاتِ مَظَاهِرُ لَطَاقَاتِ أَعْمَالِهِ، وَالْمُرْكِبَاتِ السُّفْلِيَّةِ مِثْلُ الْمَعَادِنِ وَالنَّبَاتِ وَالْحَيَوَانِ مَا كَانَتْ مُسْتَحَقَّةً لِمَظْهَرِيَّةِ ذَاتِهِ أَيْضًا؛ لِعَدَمِ اللَّطَائِفِ الْعُلُويَّةِ فِيهَا، وَالْمُرْكِبَاتِ الْعُلُويَّةِ قُوَى فَاعِلَاتِ، وَاللَّطَائِفِ السُّفْلِيَّةِ قُوَى قَابِلَاتِ؛ فَلِأَجْلِ هَذَا جُمِعَتْ فِي نَشْأَةِ الْإِنْسَانِ صَارَتْ مَظَاهِرُ لِدَاتِهِ، كَمَا أَشَارَ إِلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ حَيْثُ قَالَ: «خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ عَلَى صُورَتِي»، وَلِهَذَا السَّرُّ قَبْلَ حَمْلِ الْأَمَانَةِ.

يصوركم بصورته، ولا يحسن صوركم؛ إذ ﴿إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [التغابن: 3] أي: مصير الكل نحوه، ومرجعه لديه، ومبدؤه منه، ومعاده إليه؟!

﴿يَعْلَمُ﴾ بعلمه الحضورى جميع ﴿مَا فِي السَّمَوَاتِ﴾ أي: عالم الأسماء والصفات من الكمالات الثلاثة للظهور والبروز ﴿وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: عموم ما في استعدادات قوالب الطبائع والأركان من الماديات والمجريات ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُسْرُونَ﴾ أيها المكلفون ﴿وَمَا تُغْلِثُونَ وَ﴾ بالجملة: ﴿اللَّهُ﴾ المحيط بالكل بمقتضى تجليه وظهوره عليه ﴿عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [التغابن: 4] إذ لا يخفى عليه خافية، ولا يعزب عن حيطه علمه ذرة.

ثم قال سبحانه توبيخاً على من خرج عن رتبة عبوديته: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ﴾ أيها المكلفون المنكرون بظهور الحق وثبوتة، وتحققه في الأنفس والآفاق بالاستقلال والاستحقاق ﴿نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ﴾ كقوم نوح وهود وصالح - عليهم السلام - ﴿فَدَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾ أي: كيف ذاقوا ضرر كفرهم وشركهم من العذاب النازل عليهم في النشأة الأولى بعدما أصرّوا على ما هم عليه، ولم يهتدوا بإرشاد الأنبياء والرسل ﴿وَلَهُمْ﴾ في النشأة الأخرى ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التغابن: 5] لا عذاب أشد من ذلك، وهو حرمانهم عن ساحة عز القبول الإلهي.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْيِيهِمْ رُسُلَهُمْ بِالْيَتَى فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَمِيدٌ ①﴾ زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قلاً بل ورى لشعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسيراً ② فآمنوا بالله ورسوله. والنور الذى أنزلنا والله بما تعملون خبير ③ يوم يجمعكم إلى يوم الجمع ذلك يوم التغابن ومن يؤمن بالله وعمل صالحاً يكفر عنه سيئاته ويدخله جنّات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أهدأ ذلك الفوز العظيم ④﴾ [التغابن: 6 - 9].

﴿ذَلِكَ﴾ الويل والويل عليهم في النشأة الأولى والأخرى ﴿بِأَنَّهُ﴾ أي: بسبب أن النشأة الأولى والأمر فيما بينهم هكذا ﴿كَانَتْ تَأْيِيهِمْ رُسُلُهُمْ﴾ من عند الله مؤيدين

﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ الواضحات، والمعجزات الباهرات ﴿فَقَالُوا﴾ بعدما عجزوا عن معارضة معجزاتهم الساطعة، وحججهم القاطعة على سبيل التعجب والإنكار: ﴿أَبَشِّرْ﴾ مثلنا ﴿يَهْدُونَنَا؟﴾! كلا وحاشا أن يكون البشر هادين للبشر، وبالجمله: ﴿فَكْفَرُوا﴾ بالرسل والمرسل، والمرسل به جميعاً ﴿وَتَوَلَّوْا﴾ عن التدبر والتفكر في الحجج والبيانات ﴿وَاسْتَغْنَى اللَّهُ﴾ عن كل شيء فضلاً عن هدايتهم وطاعتهم ﴿وَاللَّهُ﴾ المتعزز برداء العظمة والكبرياء ﴿غَنِيٌّ﴾ في ذاته عن مطلق مظاهره ومصنوعاته، فكيف عن إيمانهم وعبادتهم؟! ﴿خَمِيدٌ﴾ [التغابن: 6] حسب أوصافه وأسمائه، مستغن عن حمد الحامدين.

ومن كمال جهلهم بالله، وإصرارهم على إنكار قدرة الله على عموم المقدورات: ﴿زَعَمَ﴾ بل ادعى العلم المسرفون المعاندون ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله، وأنكروا قدرته على البعث والنشور ﴿أَنْ لَّنْ يَبْعَثُوا﴾ من قبورهم، ولن يُحشروا إلى المحشر؛ للحساب والجزاء، وأصروا على هذا الزعم الفاسد، والجهل الظاهر، واعتقدوه حقاً، وخيلوه صدقاً مكابرةً وعناداً.

﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل بعدما بالغوا في إنكار البعث: ﴿بَلَى﴾ تبعثون أيها المنكرون الجاحدون ﴿وَوَ﴾ حق ﴿رَبِّي﴾ الذي رباني قابلاً لوحيه وإلهامه، ومهبطاً لعموم أحكامه المنزلة من عنده ﴿لَتَبْعَثُنَّ﴾ ألبتة ﴿ثُمَّ﴾ بعد البعث والحشر ﴿لَتَبْعَثُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْنَ﴾ أي: جميع ما اقترفتن في النشأة الأولى، ولتحاسبن عليها، وتجازن بمقتضاه، بحيث لا يشذ شيء منها ﴿وَذَلِكَ﴾ التفصيل والإحصاء ﴿عَلَى اللَّهِ﴾ العليم البصير ﴿يَسِيرٌ﴾ [التغابن: 7] وإن كان عندكم مشكل عسير.

وبعدما سمعتم من كمال قدرة الله، وإحاطة علمه وخبرته ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ المستخلف منه ﴿وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا﴾ معه تأييداً له، وتبييناً لدينه؛ يعني: القرآن الفارق بين الحق والباطل ﴿وَاللَّهُ﴾ المطلع على ما في استعداداتكم ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ بمقتضى القرآن، وتمثلون بأوامره ونواهيه، وبما تذبون عنه وتعرضون منكرين لما فيه من الأوامر والنواهي، والعبر والأحكام، والمعارف والحقائق، والرموز والإشارات ﴿خَبِيرٌ﴾ [التغابن: 8] يجازيكم على مقتضى خبرته.

اذكروا أيها المكلفون ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ﴾ الله ﴿لِيَوْمِ الْجَمْعِ﴾ والحشر؛ لأجل الحساب والجزاء؛ إذ يجتمع فيه الملائكة والثقلان ﴿ذَلِكَ﴾ اليوم ﴿يَوْمَ التَّغَابُنِ﴾ أي: يوم ظهور التغابن والغرور الواقع في نشأة الاختبار والابتلاء ﴿وَوَ﴾ بالجملة: ﴿مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ ويقر بوحديته سبحانه ﴿وَيَعْمَلْ﴾ عملاً ﴿صَالِحًا﴾ ليزيد به الإيمان؛ حتى يصير علمه عياناً، وعيانه حقاً وبياناً ﴿يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ﴾ ويمحوها عن صحيفة أعماله ﴿وَيُدْخِلْهُ﴾ بمقتضى فضله ولطفه ﴿جَنَّاتٍ﴾ منزهات العلم والعين والحق ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ المملوءة بمياه المعارف والحقائق المترشحة عن بحر الحياة الأزلي الأبدى، لا يتحولون من التلذذ بها والتحقق دونها، بل يصيرون ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ﴾ التفكير والإدخال لأرباب العناية والإفضال ﴿الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التغابن: 9] ⁽¹⁾ واللفظ الجسيم، وبالجملة: لا فوز أعظم منه وأكمل.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ۝١٠﴾ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ، وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ

(1) الغبن كل الغبن ألا يعرف مكان خطابه والطاقة التي ظهرت له في الدنيا والآخرة بلباس الفهريات ومكان الامتحان، وربما زاده الحق في أوحش مقام وهو مشغول الرسم، ولم يعرف شرف حاله، فكان مشغولاً عنه برسم الاعتذار والعبودية، فبا رُبَّ صفاء في الكدورة، وبا رُبَّ مكاشفة في المعصية، اكنم يا أخي غيب الحق بستر غيره حتى لا يكون السر ظاهراً لأهل الرسوم، فيسقطون من إيمانهم، يقع الغبن يوم التغابن لمن كان مشغولاً بالجزاء والعطاء ورؤية الأعواض ورؤية المعصية والطاعة، ومن كان شاهد الحق خرج من وصف الغبن؛ إذ الغبن من أوصاف من كان غائباً عن مشاهدته، فإذا استغرق في بحار جماله وجلاله لا يبقى عليه فرح الغبن، ولا حزن الفوت، إذ الكل غابن له، وسقط عند ذكر ما مضى وما يستقبل، ولي لسان آخر في التوحيد أن الكل يقع في الغبن، إذا عاينوا الحق بوصفه وهم وجدوه أعظم وأجل مما وجدوا منه في مكاشفتهم في الدنيا، فيكونون مبهورين متحيرين مغبونين؛ حيث لم يعرفوه حق معرفته، ولم يعبدوه حق عبادته، ولا يعرفون أبداً حقيقة المعرفة، وأي غبن أعظم من هذا؛ إذ يرونه ولا يصلون إلى وجوده بالحقيقة، قال ابن عطاء: «تغابن» أهل الحق على مقادير الضياء عند الرؤية والتجلي، و«التغابن» في رؤية القلب الأعظم وأجل من رؤية الغبن؛ لأن رؤية الغبن تذهل عن التأمل وهو مقصر عما أطلق لغيره عندها يظهر لكل أحد، ومن ظهر له الحق بحقه أخرسه من جميع نطقه من منازكه أو منازعته.

عَلَيْكُمْ ﴿١١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٢﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾ [التغابن: 10 - 13].

ثم قال سبحانه على مقتضى سنته المستمرة تعقيب الوعد بالوعيد: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ الدالة على وحدة ذاتنا، وكمالات أسمائنا وصفاتنا ﴿أُولَئِكَ﴾ الأشقياء المردودون ﴿أَصْحَابُ النَّارِ﴾ وملازموها ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ لا نجاة لهم منها ﴿وَبَشِّرِ الْمَصِيرُ﴾ [التغابن: 10] مصير أهل النار، أعاذنا الله وعموم عباده منها.

ثم قال سبحانه على سبيل التقرير والتثبيت لإرباب المعرفة والإيقان على جادة التفويض والتكلان: ﴿مَا أَصَابَ﴾ على من أصاب وما أصاب ﴿مِنْ مُّصِيبَةٍ﴾ أي: حادثة مفرحة أو مؤلمة ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ وبمقتضى إرادته وتقديره ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ﴾ ويفوض أمره إليه، ويأخذه وكيلاً، ويجعله حسيباً وكفيلأً ﴿يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ وينور خلدته، ويبصره على أمارات التوحيد وعلامات اليقين ﴿وَاللَّهُ﴾ المطلع على عموم ما غاب، وشهد ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ﴾ دخل في حيلة قدرته ﴿عَلَيْكُمْ﴾ [التغابن: 11] بعلمه الحضورى بحيث لا يعزب عنه شيء مطلقاً.

﴿وَاللَّهُ﴾ بالجملة: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ المبلغ لكم طريق الهداية والرشاد، المبين لكم سبيل السلام والسلامة والنجاة في يوم المعاد ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ وأعرضتم عن دعوته بعد تبليغه وإرشاده فلا بأس عليه ﴿فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا﴾ بمقتضى وحيها وأمرنا ﴿الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [التغابن: 12] الظاهر الواضح.

وبعد تبليغه على وجهه لم يبق عليه شيء، وعلينا حسابكم وعذابكم.

وكيف يتأتى منكم الإعراض أيها المعرضون المبطلون، مع أنه ﴿اللَّهُ﴾ الواحد الأحد، المستقل بالالوهية والربوبية ﴿لَا إِلَهَ﴾ أي: موجود في الوجود ﴿إِلَّا هُوَ﴾ بتوحيده واستقلاله ﴿وَعَلَى اللَّهِ﴾ لا على غيره من الوسائل والأسباب العادية ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [التغابن: 13] في عموم حوائجهم ومهماتهم.

﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْدَانِكُمْ عَذَابٌ لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾

وَأَن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ
وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ فَأَنقَرُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا
لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقْ شَحَنَفٍ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا
يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ
﴿١٨﴾ [التغابن: 14 - 18].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وأيقنوا وحدة الحق واستقلاله في الوجود ﴿إِنَّ مِنْ
أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ﴾ يشغلونكم عن طاعة الله، وعن التوجه نحوه، والتوكل
عليه بالتقريع والتشنيع، ويردونكم في أمر المعاش وتحصيله إلى المعاطب والمهالك؛
حتى تسألوا من كل غني غبي، وشحيح دني، فتسترزقون منهم، وترزقون لهم، ولا
تثقون بالله، ولا تعتمدون عليه في كفالاته وترزيقه فتزل ثقتكم عن خالقكم ورازقكم،
وتزل قدمكم عن الثبت في صراط التوكل والتفويض.

وبالجملة: ﴿فَاخْذَرُوهُمْ﴾ أي: عن الأولاد والأزواج، ولا تأمنوا من مكرهم
وغيابهم ﴿وَأَن تَعْفُوا﴾ عن جرائمهم وتشنيعاتهم، وتوصلوهم إلى ما أملوا وترقبوا
منكم ﴿وَتَصْفَحُوا﴾ أي: تعرضوا عن إعراضهم، وعدم الالتفات إلى حالهم ﴿وَتَغْفِرُوا﴾
أي: تمحوا وتستروا ما صدر عنهم من التشنيع والتقريع، فتشتغلوا إلى إنجاح أغراضهم
وإيجاد أمانهم بعدما وفقكم الحق عليها ﴿فَإِنَّ اللَّهَ﴾ المطلع على ما في ضمائرهم من
مراعاة جانب الأولاد والأزواج ﴿غَفُورٌ﴾ لذنوبكم التي صدرت عنكم في أمر المعاش
إن كانت برخصة شرعية ﴿رَّحِيمٌ﴾ [التغابن: 14] يرحمكم ويمحو زلتكم إن كان
سعيكم؛ لتحصيل مقدار الكفاف والكفاية والقناعة، لا للفضول منها.

وبالجملة: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ عظيمة، واختبار شديد لكم، فعليكم
ألا تغتروا بهما فإنهما من شباك الشياطين وحبالهم، يريدون أن يصدوكم عن سبيل الله
بتزيينهما إليكم، وتحبييهما في قلوبكم؛ لتشتغلوا بهما عن الله فتحطوا عن زمرة
المخلصين ﴿وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [التغابن: 15] للمخلصين المجتنبين عن الالتفات

إلى الغير مطلقاً.

وبالجملة: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ واجعلوه وقاية لنفوسكم من تغرير الشيطان وفتته ﴿وَاسْمَعُوا﴾ قول الله بسمع الرضا والقبول ﴿وَاطِيعُوا﴾ أمره ونهيه، ولا تخرجوا عن مقتضى حكمه وأحكامه مطلقاً ﴿وَأَنْفِقُوا﴾ مما رزقكم الله، واستخلفكم عليه امتثالاً لأمره، وطلباً لمرضاته، وافعلوا جميع ما أمركم الحق، سيما الإيثار والإنفاق؛ ليكون امتثالكم وإنفاقكم ﴿خَيْرًا لَّأَنْفُسِكُمْ﴾ في أولاكم، وذخراً لكم في أخراكم، ومن معظم فوائد الإنفاق: صون النفس عن الشح المطاع ﴿وَمَنْ يُوقْ شَحْ نَفْسِهِ﴾ بالبذل والإنفاق ﴿فَأُولَئِكَ﴾ السعداء المتصفون بالكرم والسخاء ﴿هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [التغابن: 16] الفائزون من الله بالمشوبة العظمى، والدرجة العليا.

وبالجملة: ﴿إِنْ تَقْرَضُوا اللَّهَ﴾ المنعم المتفضل أيها المتفقون المحسنون ﴿قَرْضًا حَسَنًا﴾ مقرونًا بالإخلاص والرضا، ومصونًا عن وصمة المن والأذى ﴿يُضَاعِفْهُ لَكُمْ﴾ إحسانكم أضاعفاً كثيرة ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ ذنوبكم، وإن عظمت وكثرت ﴿وَهُ﴾ بالجملة: ﴿اللَّهُ﴾ المطلع على إخلاص عباده في أعمالهم ونياتهم فيها ﴿شُكُورٌ﴾ يحسن المحسن جزاء إحسانه أضاعفاً مضاعفة، ويزيد عليها تفضلاً وامتثاناً ﴿خَلِيمٌ﴾ [التغابن: 17] لا يعاجل بعقوبة المسيء رجاء أن يعود ويتوب، ويعتذر لما يصدر عنه من الذنوب.

وكيف لا وهو ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ يعلم بعلمه الحضورى منهم عموم ما في استعداداتهم وقابلياتهم من الإخلاص والإنفاق وغيرهما ﴿الْعَزِيزُ﴾ الغالب القادر على وجوه الإنعام والانتقام ﴿الْحَكِيمُ﴾⁽¹⁾ [التغابن: 18] المتقن في عموم الأفعال

(1) قال في عين الحياة: يعني: يعلم ما في القوى الغيبية من الأوصاف الجيدة والرديئة، وما على الجوارح من الأعمال الفاسدة والصالحة، غالب على أمره أن شاء يعاقب بها وإن شاء يغفر عنها، حكيم بالعفو والعقوبة، إن يغفر فحكيمته، وإن يعذب فبحكيمته، فحظ السالك من تفسير بطن هذه الآيات أن لا ييخل عن المرید بأموال الظاهر والمعارف الباطنة بقدر استحقاق المریدین واحتیاجهم إليها، وحظ السالك أن يعطي لكل ذي حق من قواها حقها على وفق أمر المولى من الحقوق العلوية والحظوظ السفلية. اللهم اجعلنا من أهل السخاوة والجود لوجهك الكريم بحق محمد ﷺ وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً.

والجزاء المترتب على الأعمال؟!

خاتمة السورة

عليك أيها الموحد المتحقق بمقام الفناء في الله، المستخلف منه سبحانه في عموم الأفعال والآثار، الصادر منك صورة أن تمثل بمطلق الأوامر والنواهي الواردة عليك من عند ربك بمقتضى التكاليف المنبئة عن محض الحكمة المتقنة الإلهية، الجارية على وفق المصلحة المصلحة لأمر العباد في معاشهم ومعادهم، وتواظب على أداء الفرائض والواجبات الموجبة للعبودية بكمال التسليم والرضاء، وتلازم على الإتيان بالنوافل والمندوبات المقربة إلى الله، المستلزمة لمزيد الفضل والعطاء، فلك التبذل والإخلاص المقارن بالخضوع والخشوع، والتذلل التام، والانكسار المفرط في عموم ما جئت به من الطاعات والعبادات.

فاعلم أن الناقد بصير، وحبائل الشيطان في حوالبك كثير، فلا تغفل عن غوائله، فإن إضلاله إياك سهل يسير، واتكل على الله في عموم أوقاتك، واستعذ به سبحانه من غوائله، فإنه سميع بصير.

ربنا عليك توكلنا، وإليك أنبنا، وإليك المصير.

سورة الطلاق

فاتحة سورة الطلاق

لا يخفى على من تمكن في مقام العبودية، وتقرر في محل التكليف الإلهية من المنكشفين بسرائر الأحكام الحقيقية الحقية أن سر الزواج والازدواج الواقع في عالم الكون والفساد، المنبئ عن المناسبات المعنوية، والارتباطات الحية الغيبية المترتبة على كمال الاعتدال والاتلاف بين الأسماء والأوصاف الذاتية الإلهية، الباعثة على الظهور والبروز في فضاء الكمال، إنما هو بمقتضى التجليات والشئون الإلهية، وتطوراته المتوافقة والمتخالفة حسب القبض والبسط، والجمال والجلال الظاهرة آثارها في الأزمان والأدوار بمقتضى الإرادة والاختيار، الصادر من الملك الجبار.

ومن جملة الآثار الواقعة في الأقطار: أمر النكاح والطلاق، المرتبين على المناسبة والمخالفة المتفرعة على القبض والبسط المتفرع على الجمال والجلال؛ لذلك تبه سبحانه عبادته، وبين لهم أحكام النكاح والطلاق، ووضع لهما حدودًا وقواعد مضبوطة؛ حتى لا يتجاوزا عن الاعتدال والقسط الإلهي المتفرع على الحكم البالغة المتقنة.

فقال بعدما تيمن باسمه الأعلى منادياً لحبيبه ﷺ؛ إذ هو ﷺ لائق بالخطاب الإلهي في أمثال هذه الأحكام: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ الذي أحكم مطلق الأحكام الشرعية على مقتضى الحكمة والعدالة ﴿الرَّحْمَنِ﴾ لعموم عبادته بوضع الحدود الشرعية بينهم ﴿الرَّحِيمِ﴾ لخواصهم، ينهم على سرائر تكاليفه، وحكم حدوده المتفرعة على حكمته البالغة، ومصلحته الكاملة.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا

﴿١﴾ فَإِذَا بَلَغَ الْأَجَلُ مَا مَسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَى عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكَ كُم يُوعِظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَلِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾ [الطلاق: 1 - 3].

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ المبعوث إلى كافة البرايا؛ لترشدهم وتصلح أحوالهم، فلزم عليك وعليهم أصلاً وفرعاً ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾ وقصدتم دفع رابطة العلاقة الشرعية بالفرقة الشرعية أيضاً ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ﴾ وادفعوا عنهن قيد الألفة المقتضية للزوجية ﴿لِعَدَّتِهِنَّ﴾^(١) أي: في إتيانها ووقتها الذي هو مدة الطهر قبل وقوع الوقائع فيها ﴿وَأَخْضُوا الْعِدَّةَ﴾ الكاملة أي: الأطهار الثلاثة مع المطلقات الثلاثة؛ حتى تقع كل طلاق في طهر ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ﴾ المنتقم الغيور الذي رباكم على مقتضى العدالة، فعليكم ألا تتجاوزوا عنها، فلا تزيدوا على عدتهن بالمراجعة عليهن، ثم تطلقوهن.

فعليكم أن ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ﴾ بالتعدي بعد وقوع الطلاق ﴿مِنْ بُيُوتِهِنَّ﴾ أي: مساكنكم التي كن فيها قبل الفرقة؛ حتى تنقضي عدتهن فيها ﴿وَلَا يَخْرُجْنَ﴾ أيضاً بأنفسهن بعد الفرقة من مساكنهن بلا رضا منكم أيها المطلِّقون، بل لا بدَّ لهن أن يعتددن فيها ﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيَّنَةٍ﴾ أي: زناً يشهد له شهود على الوجه المعتبر في الشرع، فحينئذ يخرجن؛ لإجراء الحد عليهن، فيصبح هذا الاستثناء من كلا الحكمين السابقين.

﴿وَتِلْكَ﴾ الحدود المذكورة ﴿حُدُودُ اللَّهِ﴾ العليم الحكيم، الصادرة عنه بمقتضى الحكمة البالغة المقتضية للعدالة الكاملة ﴿وَمَن يَتَعَدَّ﴾ ويتجاوز ﴿حُدُودَ اللَّهِ﴾ المنتقم

(١) قال الشيرازي: خُصَّ حبيبهُ بالخطاب، وُجِّعَ الكل في مضمونه؛ لأن السيد إذا خاطب مخاطب الكل، فبان شرفه على الجمهور؛ إذ جُمِعَ الجمع في اسمه، وفيه إشارة للاتحاد، ومراد الحق سبحانه في تأديب العباد بتطبيق نسايتهم في زمان الطهر أداء وفاء الصحبة، ومراعاة ما مضى من زمانى الوصلة والاهتمام بالفرقة.

الغيور ﴿فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ بالعرض على عذاب الله عاجلاً وآجلاً، إنه ﴿لَا تَذَرِي﴾ وتعلم نفس المطلِّق، المجاوز عن الحد الشرعي بالتطويل في العدة، والتهاون على المرأة أو نفس المرأة المطلقة بإتيان الفاحشة في أوان العدة وغيرها ﴿لَعَلَّ اللَّهَ﴾ المقتدر ﴿يُخْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ﴾ التفريق والبيونة ﴿أَمْراً﴾ [الطلاق: 1] بأن جعل للمطلق بدل تلك الزوجة المطلقة زوجة سليطة مسلطة عليه، أو جعل للمطلقة زوجاً أشد إيلاماً منه.

وبالجملة: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ﴾ أي: المطلقات ﴿أَجَلَهُنَّ﴾ أي: شارفن على انقضاء عدتهن ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ﴾ وراجعوا إليهن ﴿بِمَفْرُوفٍ﴾ مستحسن عقلاً وشرعاً ومروءةً، نادمين على ما صدر عنكم من الطلاق، محسنين إليهن، معطين لهن من الأمتعة جبراً لما كسرتن ﴿أَوْ فَارِقُوهُنَّ﴾ بعدما لم يبق بينكم وبينهن رابطة المحبة، وعلاقة الألفة ﴿بِمَفْرُوفٍ﴾ مستحسن مرضي لدى الشارع، مقبول عند عموم أرباب المروءات، بلا شرر ولا ضرار، وبلا أخذ شيء مما يتعلق بهن من الأمتعة المنسوبة إليهن عرفاً، بل أعطوهن شيئاً آخر معتداً به؛ ليعترفن بشنائكم وشكركم، ويدعون لكم بدل ما يدعون عليكم.

﴿وَأَشْهِدُوا﴾ أيها المؤمنون عند اختيار الرجعة والفرقة ﴿ذَوِي عَدْلٍ مِّنْكُمْ﴾ قطعاً لعرق الخصومة والنزاع، وبعداً عن التهمة ﴿وَأَقِيمُوا﴾ أيها الشهود ﴿الشَّهَادَةَ﴾ الموكولة لكم ﴿إِلَهِ﴾ طلباً لمرضاته سبحانه، وحافظوا عليها؛ كي تؤدوها لدى الحاجة ﴿ذَلِكَ﴾ الذي سمعتم من محافظة الحدود، وإقامة الشهود؛ لحفظ الحقوق والعهود من جملة المواعظ والتذكيرات التي وضعها الحق بمقتضى حكمته بين عباده؛ ليحافظوا بها آداب العبودية.

إنما ﴿يُوعِظُ﴾ ويتذكر ﴿بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ ويوقن بوحدة ذاته، ويصدق برسله المبعوثين من عنده، المؤيدين من لدنه ﴿وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ المعد؛ لتقيد الأعمال، وترتب الجزاء عليها، فإن غير هؤلاء السعداء الأمناء هم التائبون في تيه الضلال بأنواع الوزر والوبال، لا تتعظون بها وبأمثالها ﴿وَرَوْ﴾ بالجملة: ﴿مَن يَتَّقِ اللَّهَ﴾ ويتحفظ نفسه عن قهره وغضبه، ويحافظ على رعاية حدوده الموضوعة من لدنه؛ لحفظ حقوق عباده، سيما حقوق الزوجية والاتلاف من كلا الطرفين، ويتوكل عليه في عموم أحواله،

ويفوض أموره كلها إليه ﴿يَجْعَلُ لَهُ﴾ سبحانه ﴿مَخْرَجًا﴾ [الطلاق: 2] عن مضيق
الإمكان المورث لأنواع الخذلان والخسران.

﴿وَيَرْزُقُهُ﴾ ويسوق إليه جميع حوائجه المحتاجة إليه في معاش عياله ﴿مِنْ حَيْثُ
لَا يَحْتَسِبُ﴾ أي: من مكان لا يترقبه، ولا ينتظره ﴿وَوَ﴾ كيف لا ﴿مَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾
مخلصاً له، مفوضاً أمره إليه ﴿فَهُوَ حَسْبُهُ﴾⁽¹⁾ وكافيه، يكفيه جميع المؤنة المحتاجة إليه
في النشأة الأولى والأخرى؟! وكيف لا ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ القادر المقتدر على عموم المقادير
﴿بَالِغُ أَمْرِهِ﴾ بعدما فوض إليه سبحانه بالإخلاص والتسليم إلى حد قدر الله له في
حضرة علمه، ولوح قضائه؛ إذ ﴿قَدْ جَعَلَ اللَّهُ﴾ القدير الحكيم ﴿لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ من الأشياء
الظاهرة حسب أطلال الأسماء والصفات الإلهية ﴿قَدْرًا﴾ [الطلاق: 3] أي: مقداراً معيناً
من الكمال في عموم أفعاله وأحواله على مقتضى الاستعدادات الفطرية، والقابلية
الجبلية؟!

﴿وَالَّتِي يَبْتَغِي مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ أَرْبَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَالَّتِي لَمْ
يَحِضْ وَأُولَئِكَ الْأَحْمَالُ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ۝
ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْنَا وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَكْفِرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا ۝
أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ
حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ وَلَا تَنْضَرُوهُنَّ لِيُضْيِقُوا عَلَيْكُمْ وَإِنْ كُنَّ أُولَئِكَ حَمْلًا فَقَاتِلُوهُنَّ عَلَىٰ
يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَاتُّوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأَنْتُمْ عَلَيْكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعَاَسَرْتُمَ فَتَرْضِعْ لَهُ
أُخْرَىٰ ۝
لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا ءَاتَاهُ اللَّهُ لَا يَكْلِفُ اللَّهُ
نَفْسًا إِلَّا مَاءً ءَاتَاهَا سَيِّجًا ۝
لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا ءَاتَاهُ اللَّهُ لَا يَكْلِفُ اللَّهُ
نَفْسًا إِلَّا مَاءً ءَاتَاهَا سَيِّجًا ۝

[الطلاق: 4 - 7].

(1) هذه الآية الشريفة جامعة لأنواع التوكل، وأضاف الحاجات؛ فإن اسم الله تعالى جامع لمراتب
الأسماء التي لا يتجاوزها حاجات الناس مع اختلاف مراتبهم، وتفاوت طبقاتهم، فمن ذكر كان
أو أنثى، عبداً كان أو سيّداً يتوكل على الله الرزاق في أمر الرزق؛ فهو حسبه فيه.

هذه المذكورات من الحدود والآداب في طلاق ذوات الأقران من المعتدات ﴿وَاللَّائِي يَشْنُ﴾ وقنطن ﴿مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَائِكُمْ﴾ لكبرهن ﴿إِنْ ارْتَبْتُمْ﴾ أي: جهلتم وشككتكم في تعيين عدتهن ﴿فَعِدَّتُهُنَّ﴾ بعدما طلقتموهن ﴿ثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ﴾ أي: مضيتها.

رُوي أنه لما نزلت: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ [البقرة: 228] قيل: فما عدة النساء اللاتي يشن؟ فنزلت: ﴿و﴾ كذا أيضا مضي ثلاثة أشهر عدة النساء ﴿وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ﴾ بعد؛ لصغر سنهن أو مرض ﴿وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ﴾ من المطلقات ﴿أَجَلُهُنَّ﴾ ومنتهى عدتهن: ﴿أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ سواء كان الوضع بعد الفرقة بزمان كثير أو قليل.

وهذا الحكم متناول للمطلقة، والمتوفي عنها زوجها، وإنما لم يعين لأولات الأحمال حد معين من أقراء وشهود؛ لأن المقصود الأصلي من إلزام العدة: حفظ الماء، واستبراء الرحم؛ لئلا ينجر إلى خلط النسب، وبالوضع يحصل المقصود على الوجه الأتم؛ ولهذا لم يحدّ لهن سوى الوضع ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ﴾ ويحفظ نفسه من سخطه، وطلق امرأته على الوجه المسنون، ولم يركن إلى الطلاق البدعي أصلاً ﴿يَجْعَلْ لَهُ﴾ سبحانه ﴿مِنْ أَمْرِهِ﴾ الذي هو فراق زوجته ﴿يُسْرًا﴾ [الطلاق: 4] يسهل إليه التزويج الآخر، ويحسنها له، ويحبّلها له.

﴿ذَلِكَ﴾ المذكور من الأحكام ﴿أَمَرَ اللَّهُ﴾ العليم الحكيم ﴿أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ﴾ أيها المكلفون؛ ليصلح مفاسدكم المتعلقة بحكم الطلاق ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ﴾ المتقّم الغيور، ولم يتجاوز عن مقتضى أمره المبرم، وحكمه المحكم ﴿يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ﴾ بتغليب حسناته عليها ﴿وَيُعْظِمَ لَهُ أَجْرًا﴾⁽¹⁾ [الطلاق: 5] بتضعيف حسناته أضعافاً كثيرة.

(1) قال علاء الدولة: بأن الله يبدل - بلطفه - سيئاتهم حسنات، وهذا مما شاهدنا في أثناء السلوك دائماً يذنب السالك ويخاف من ذلك الذنب يسد عليه باب المكاشفات والمشاهدات؛ فربما يفتح عليه أبواب المكاشفات والمشاهدات أكثر مما كان قبل حدوث ذلك الذنب، ويتفق هذا لصديق إذا اعتري عليه عجب من كثرة مجاهدته وصفاء أعماله؛ فأجرى عليه ذلك الذنب ليذهب بعجبه، ويظهر فيه الإقلام، والمسكنة، والعجز، والاضطرار، وتعيير نفسه والنظر إليها

﴿أَسْكِنُوهُنَّ﴾ أي: المطلقات ﴿مِنْ حَيْثُ مَكَتُمْ﴾ أيها المطلقون ﴿مِنْ وَجْدِكُمْ﴾ أي: من وسعكم، ومقتضى طاقتكم من ملك، وإجارة وإعارة ﴿وَلَا تُضَارُّوهُنَّ﴾ في السكنى ﴿لِتَضَيَّقُوا عَلَيْهِنَّ﴾ حتى يضطرن إلى الخروج ﴿وَإِنْ كُنَّ﴾ أي: المطلقات ﴿أُولَاتِ حَمْلٍ﴾ منكم أيها المطلقون ﴿فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ فيخرجن من العدة، وهذا الحكم؛ أي: الإنفاق على المعتدة مخصوص بأولات الأحمال من المعتدات؛ إذ الإنفاق حقيقة إنما هي لأولات الأولاد دون غيرهن من المعتدات؛ إذ لا سبب توجبها.

وإذا وضعن ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ﴾ أولادكم بعد رفع رابطة النكاح ﴿فَأَتَوْهُنَّ أَجُورَهُنَّ﴾ على الإرضاع، مثل مائر المرضعات الأجنبية، ولا تعللوا بكونهن أمهات للرضيع ﴿وَأَتِمُّوْا بَيْنَكُمْ﴾ أي: ليأمر بعضكم بعضاً أيها المؤمنون في إرضاع المطلقة ولدها من المطلق ﴿بِمَغْرُوفٍ﴾ مستحسن، مقبول شرعاً من إعطاء الأجرة الكاملة، والزيادة عليها مراعاة للمروءة ﴿وَإِنْ تَعَاَسَزْتُمْ﴾ وتضايقتم في الأجرة عليها ﴿فَسْتَرْضِعْ لَهُ أُخْرَى﴾ [الطلاق: 6] غيرها، إلا أن المروءة تأبى عن أن تعرض الأم من إرضاع ولدها؛ إذ هي أولى به من غيرها.

﴿لِيَنْفِقَ﴾ على المعتدة الحاملة ﴿ذُو سَعَةٍ﴾ ويسر ﴿مِنْ صَعْتِهِ﴾ ومقدار وسعه وطاقته على مقتضى نفقتها قبل الفرقة ﴿وَمَنْ قُدِرَ﴾ وضيق ﴿عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيَنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ﴾ من الرزق بلا جبر وتحميل، إنه ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ﴾ المنعم الحكيم ﴿نَفْسًا إِلَّا﴾ مقدار ﴿مِمَّا آتَاهَا﴾ وساق لها من الرزق الصوري؛ إذ ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ﴾ المنعم المفضل ﴿بَعْدَ غُرْ﴾ دنيوي ﴿يُسْرًا﴾ [الطلاق: 7] حقيقياً أخروياً، فاليسر في الآخرة أولى من الدنيا وما فيها.

بعين الحقارة، وكل هذا بقبول الحضرة الإلهية؛ فإذا خاف على ذنبه وآيس من نفسه وعمله يبدل الله سيئاته حسنات، ويفتح عليه أبواب المكاشفات والمشاهدات والواقعات مما يتعجب السالك من تلك الفتوحات.

﴿وَكَايْنٍ مِّن قَرْيَةٍ عَثَتْ عَنِ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسِبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَبْنَاهَا عَذَابًا لِّكْرًا ۝٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ۝٩ ﴿١٠﴾ أَعِدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ۝١١ ﴿١٢﴾ زَسُورًا يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُمِيزَاتٍ لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُمْ رِزْقًا ۝١١ ﴿١٢﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَنْزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِنَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿١٢﴾ ﴿الطلاق: 8 - 12﴾.

ثم قال سبحانه على وجه الوعيد للموسرين: ﴿وَكَايْنٍ مِّن قَرْيَةٍ﴾ أي: كثيرًا من أهل قرية ﴿عَثَتْ﴾ أعرضت واستكبرت ﴿عَنِ أَمْرِ رَبِّهَا وَ﴾ متابعة ﴿رُسُلِهِ﴾ المرسلين من عنده إياها اتكالا على ما عندهم من المال والثروة، والتفاخر على الأقران، والتفوق عليهم بأنواع النخوة والعدوان ﴿فَحَاسِبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا﴾ أي: عن القليل والكثير، والنقير والقطمير ﴿و﴾ بعدما حاسبناها كذلك ﴿عَذَبْنَاهَا عَذَابًا نُّكْرًا﴾ [الطلاق: 8] منكرًا فجيعة فظيعة والمراد: حساب النشأة الأخرى وعذابها، عبر بالماضي؛ لتحقيق وقوعها.

﴿فَذَاقَتْ﴾ حيث ﴿وَبَالَ أَمْرِهَا﴾ أي: إعراضها عن الله وأهله ذوقًا محيطًا بها، بحيث لا يخلو من العذاب شيء من أعضائها وأجزائها ﴿و﴾ بالجملة: ﴿كَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا﴾ الذي كان عليه في النشأة الأولى ﴿خُسْرًا﴾ [الطلاق: 9] في النشأة الأخرى، وأي خسر لا خسر أشد منه وأكبر، وهو حرمانهم عن عز القبول الإلهي، وانحطاطهم عن رتبة الخلافة والنيابة.

وبالجملة: ﴿أَعِدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ في العاجل والآجل ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ واعتبروا مما جرى على أولئك الغواة الطغاة، الهالكين في تيه العتو والعناد من وخامة عاقبتهم، ورداءة خاتمتهم، واعلموا أيها المعتبرون ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بوحدة

الحق وبتصديق رسله ﴿قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ المدير لمصالحكم ﴿إِلَيْكُمْ ذِكْرًا﴾ [الطلاق: 10]
 ناشئاً منكم، مذكراً لكم أصل مبدئكم ومنشئكم، وكذا مرجعكم ومعادكم.
 ولهذا جعله سبحانه ﴿رَسُولًا﴾ مرسلًا من عنده إليكم؛ لإرشادكم وتكميلكم
 ﴿يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ﴾ الدالة على وحدة ذاته، وكمال أسمائه وصفاته ﴿مُبَيِّنَاتٍ﴾
 مشروحات موضحات كل ذلك ﴿لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله على وجه الإخلاص
 ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ المؤكدة لإيمانهم ﴿مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ أي: الظلمات
 الحاصلة من تراكم الكثرات، وتتابع الإضافات الناشئة من الأوهام والخيالات الباطلة
 إلى نور الوجود الذي هو الوحدة الذاتية المسقطة لعموم الإضافات مطلقاً.

﴿و﴾ بالجملة: ﴿مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ ويوقن بوحدته ﴿وَيَعْمَلْ صَالِحًا﴾ طلباً
 لمرضاته ﴿يُدْخِلْهُ﴾ سبحانه بمقتضى فضله ولطفه ﴿جَنَّاتٍ﴾ منتزهات العلم والعين
 والحق ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ المترشحة دائماً من البحر المحيط الذي هو حضرة
 العلم الإلهي، ولوح قضائه المشتمل على عموم الكوائن والفواصد الجارية في فضاء
 الوجود مطلقاً ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ لا يتحولون منها أصلاً، وبالجملة: ﴿قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ
 رِزْقًا﴾ [الطلاق: 11] صورياً ومعنوياً.

وكيف لا يحسن رزقه سبحانه، مع أنه ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ﴾ أي: أظهر وقدر
 بمقتضى قدرته الكاملة ﴿مَنْبِغَ سَمَوَاتٍ﴾ علويات مطبقات على عدد الأوصاف السبعة
 الذاتية الإلهية، وجعلها مسكنًا للمجردات من الملائكة والأرواح ﴿و﴾ قدر ﴿مِنَ
 الْأَرْضِ﴾ السفلى؛ أي: عالم العناصر أيضاً ﴿مِثْلَهُنَّ﴾ مطبقات بعضها فوق بعض: طبقة
 الأثير الصرف، وطبقة الأثير الممتزجة، وطبقة الزمهرير من الهواء، وطبقة الهواء
 الصرف، وطبقة الماء الصرف، وطبقة الطين المركب من الماء والتراب، وطبقة التراب
 الصرف، على عدد القوى السبع الإنسانية الفائضة على أعضائه السبعة، وهي: الدماغ،
 والكبد، والعين، والأذن، والأنف، واللسان وجميع البشرة من الصانع الحكيم؟

ولأنما رتبها سبحانه وطبقها عليها؛ حتى ﴿يَنْزِلَ الْأَمْرُ﴾ الإلهي ﴿بَيْنَهُنَّ﴾ يعني:
 تصير السفليات قوابل الآثار العلويات، يقبلن منها ما يفيض عليهن من الكمالات
 المترتبة على الأسماء والصفات الذاتية الإلهية، كل ذلك ﴿لِتَعْلَمُوا﴾ أيها المجبولون

على فطرة العلم والمعرفة ﴿أَنَّ اللَّهَ﴾ المستقل بالالوهية والربوبية ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ دخل في حيلة الوجود، ولمع عليه برق الشهود ﴿قَدِيرٌ﴾ لا ينتهي قدرته عند مقدور ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أيضًا ﴿أَنَّ اللَّهَ﴾ المتصف بالقدرة الكاملة ﴿قَدْ أَخَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ﴾ دخل في حيلة قدرته ﴿عِلْمًا﴾⁽¹⁾ [الطلاق: 12] إذ لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، وهو السميع العليم.

خاتمة السورة

عليك أيها السالك المتحقق بمقام القلب وسعته، وقابليته لتزول سلطان الوحدة الذاتية الإلهية مع بُعد غورها، ورفع طورها عن أحلام الأنام مطلقًا أن الله المتجلي على كل جلي وخفي قدير على مقدورات لا تنهاى، ومرادات لا تُعد ولا تُحصى بمقتضى حيلة علمه بمعلومات لا غاية يحدّها، ولا نهاية يحيطها.

فله سبحانه الإعادة والإبداء، والإماتة والإحياء، وله التصرف في ملكه كيف يشاء حسب اقتضاء الأوصاف والأسماء، لا إله إلا هو، له الأسماء الحسنى، وله الحمد في الآخرة والأولى.

(1) قال في «عين الحياة»: يعني: ليعلموا أن علم الله محيط بالأرضيات والسماويات، يعلم استعداد كل لطيفة أرضية خلقية، ولطيفة سماوية أمرية، ويستعملها على قدر استعدادها، وهو غالب على أمره، حاكم في ملكه، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، اللهم لا تكلنا إلى أنفسنا ولا تجعلنا مقيدين بقيد الطبيعة، مفلولين في أسر الهوى، وثبتنا على متابعة المصطفى ﷺ وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الجزاء.

سورة التحريم

فاتحة سورة التحريم

لا يخفى على من رسخ على جادة التوحيد، وتمكن في مقعد الصدق بلا تلوين وترديد أن أرباب المحبة والإرادة الكاملة من المنقطعين عن الناسوت رأساً، المنجذبين نحو فضاء اللاهوت مطلقاً، لم يبق لهم إرادة وكراهة، وصدقة وعداوة بالنسبة إلى كل أحد من بني نوعهم وغيرهم، بل هم مستغرقون بالله، فارغوا البال من غيره، لا يشوشهم اللذة والألم، ولا يزعجهم الرضا والغضب.

لذلك خاطب سبحانه حبيبه ﷺ على وجه العتاب وناداه؛ ليرشده إلى منهج الصواب فقال متيمناً: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ الذي دبر مصالح عباده على الوجه الأبلغ الأحكم ﴿الرَّحْمَنِ﴾ عليهم، حيث لا يكلفهم بما ليس في وسعهم ﴿الرَّحِيمِ﴾ لهم، ينبههم عن زلاتهم بعدما صدرت عنهم، ويعلمهم التدارك والتلافي بالتوبة.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١) قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٢) وَإِذْ أَمَرْنَا النَّبِيَّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَأَ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضُهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ (٣) إِنْ تَوْبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ (٤) عَنِ رَبِّهِ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكَ مِمَّا كُنْتُمْ مُؤْمِنَاتٍ فَمِنْ تَحْتِ تَبَيَّنَتْ عَيْدَتِ سَيِّعَتٍ ثِيَابٌ وَأَنْكَارٌ (٥) ﴿التحريم: 1 - 5﴾.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ المؤيد بالوحي والإلهام من عند العليم العلام، القدوس السلام مقتضى نبوتك وتأيدك: ألا تخالف حكم الله، ولا تبادر إلى الخروج عما قضى الله ﴿لِمَ تُحَرِّمُ﴾ وتمنع عن نفسك من عندك بلا ورود نهي من قِبَلِ الحق ﴿مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ وأباحه عليك بمقتضى حكمته وعدالته ﴿تَبْتَغِي﴾ بتحريم الحلال على نفسك ﴿مَرْضَاتِ أَزْوَاجِكَ﴾ وتترك رضا الله بمخالفة حكمه؟ فارتدع عن فعلك هذا، واستغفر الله لزلتك

﴿وَاللَّهُ﴾ المطلع على نيتك وإخلاصك ﴿غَفُورٌ﴾ يعفو عنك ما صدر منك ﴿رُحِيمٌ﴾^(١)

(١) قد انعقد إجماع الأمة من متكلمين وفقهاء ومحدثين وغيرهم علمائها وعامتها على عصمته - صلى الله تعالى عليه وسلم وعلى آله - من الكبائر واللمم قبل البعثة وبعدها، وكذا سائر حضرات الأنبياء والرسل - عليهم من ربهم الذي اجتباهم وقدمهم علينا الصلاة والسلام - ولكن طالما تجد من لم يوفق من المفسرين يقف ما ليس له به علم من التسلق والتطلع على مقامات الأنبياء والرسل - عليهم ممن اجتباهم الصلاة والسلام - ونحن لا ذوق لنا في مقامتهم حتى نعرف استغفارهم مما، وذنوبهم ما هو، وبكائهم مم، ولم يكلفنا الحق جل شأنه ذلك حتى لا نسيء الأدب معهم - عليهم من ربهم الصلاة والسلام - فنسقط من عين الله جملة واحدة، وإن كنا على عبادة الثقيلين، ويكفي المريب - إذ نحن لم نقدر الله قدره ونعبده حق عبادته ونتقه حق تقاته - وجدان السلامة، فضلاً على أن المنسوب لهم في القرآن مما هو عند القاصرين ظاهره النقصان، له معان كثيرة ذكرها علماء الأمة الفقهاء عن الله في شرعه، وبينوها بما يناسب مقام النبوة وجلالة قدره، وانظر ذلك في كتب الحديث والشمال وغيرها، وانظر على منيل المثال كتاب الإمام المجدد الختم الأحمد سيدي محمد بن جبل السنة الإمام عبد الكبير الكتاني - قدس الله سرهما - : "الكشف والتبيان عما خفي عن الأعيان في سر آية: ﴿مَا كُنْتُ تَذَرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾" [ط. دار الكتب العلمية]، وما نقل من كتاب: (تطهير القلب والفؤاد من سوء الظن بالله وبالعباد) - والمؤلف بقصد الدفاع عن عباد الله المخلصين حضرات الأنبياء والرسل عليهم السلام - لشيخ الإسلام وإمام الفريقين، شارح ومدون الأخلاق المحمدية بما لم يسبق إليه الإمام عبد الوهاب الشعراني - تعلم أننا خير أمة أخرجت للناس نأمرهم بالتزام الأدب مع حضرات الأنبياء والرسل - عليهم ممن اصطفاهم الصلاة والسلام - وننهاهم عن المنكر من افتياتهم على اختيار وتقديم ربهم من شاء من خلاصة عبادته، وأن للفقه عن الله في كتابه والفهم فيه بحوراً لا تدرك، وكذا أن للمفسرين من عورات الجهل ما لا بد أن يفشى ولا يطوى، حتى لا تهلك العامة بتقليدهم في سوء أدبهم. ويا ليت علمي أين الناس اليوم من علوم هؤلاء الأئمة - أمثال الشيخ الكتاني والشعراني قدس سره - واستنباطاتهم من الكتاب والسنة، وهذا ضرب مثل واطلب هذا النوع من العلم تجده الباز الأشهب والطرارز المذهب، والتاج المكلل والعقد المجمل للمكتبة الإسلامية المحمدية. وإذا كان أهل البيت - عليهم السلام - يشار إليهم بالعصمة أو الحفظ الإلهي - على الخلاف بيننا أهل السنة والشيعة - من الوقوع في المعصية، فإننا معاشر أهل السنة نقول بالحفظ الإلهي، بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾، وإرادة الله لا تتخلف ولا حاكم عليها حتى يردها، فلا يصل إليهم الذنب الذي هو الرجس في عرف الشرع، فكيف بمن قال الله فيهم لعدوه: ﴿إِنْ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾، واللمة من الشيطان تكون؛ فكيف يجوز أن يوصف مولانا وسيدنا محمد من لم يخلق الله خلقاً أعز عليه منه - كما عند ابن عساكر - بأنه صاحب لمة ١١٩ سبحانك هذا بهتان عظيم. ولا بضرنا كون قائل ذلك منسوباً لأي الفرق الإسلامية؛ فإن الله

[التحريم: 1] يرحمك ويقبل توبتك.

رُوي أن رسول الله ﷺ خلا بأَمته مارية في يوم حفصة، فاطلعت حفصة على ذلك فعاتبته، فقال ﷺ: حرمت مارية على نفسي لأجلك، لا تقولي لأحد من أزواجي، واستكتمني عنهن هذا التحريم، وأيضاً الخلافة بعدي لأبي بكر وبعده لعمر، ولا تفش لأحد قط، فأخبرت حفصة عائشة بكل الخبرين؛ لكونهما متصادقتين، فأخبرت عائشة رسول الله ﷺ بها، فغضب ﷺ وطلق حفصة طلاقاً رجعيًا، وعزل نساءه تسعًا وعشرين يومًا؛ لأجل هذه الواقعة، فأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾.

ثم لما نهى سبحانه نبيه ﷺ على وجه المبالغة والتأكيد، أراد سبحانه أن يبين كفارة اليمين الواقعة من المؤمنين فقال: ﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ﴾ وشرع ﴿لَكُمْ﴾ على سبيل الوجوب ﴿تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ﴾ أي: بتحليل أيمانكم وتكفيركم عنها ﴿وَاللَّهُ﴾ المصلح لأحوالكم ﴿مَوْلَاكُمْ﴾ ومولي أموركم ﴿وَهُوَ الْعَلِيمُ﴾ لعموم مصالحكم ومفاسدكم ﴿الْحَكِيمُ﴾ [التحريم: 2] في ضبطها وإصلاحها.

تعبدنا بإتباع كلامه وكلام المعصوم ﷺ وإجماع الأمة بعلمائها العارفين المؤيدين في كشفهم، فالواجب علينا شرعًا الذب عن حرمة المسلم إذا انتهكت حتى يذب الله عنا - كما في الحديث - والتي هي أعظم من حرمة الكعبة كمل في الحديث أيضًا فكيف بحرمة الصديقين؟ فكيف بحرمة الصحب الكرام والآل رضوان الله عليهم؟! فكيف بحرمة خلاصة النوع الإنساني الأنبياء؟! فكيف بحرمة الرسل منهم، فكيف بحرمة أول العزم منهم، فكيف بحرمة أكرم الأولين والآخرين على الله نبينا وشفيعنا ﷺ! فأحرى وأحرى، من نرجوا بالتمسك بجناحه - المقبول المأذون عند ربه - أن نكون في مستقر رحمة الله مع المنعم عليهم، وقد ذكر العلامة الألوسي في تفسيره الآية ما نصه: وإنما عاتبه الله تعالى عليه رفقاء به، وتنويعاً بقدره، وإجلالاً لمنصبه عليه الصلاة والسلام أن يراعي مرضاة أزواجه بما يشق عليه، جرياً على ما ألف من لطف الله تعالى به.

وقال العلامة المفسر الفخر الرازي في تفسيره الآية: نقول: المراد من هذا التحريم: هو الامتناع عن الانتفاع بالأزواج، لا اعتقاد كونه حراماً بعدما أحل الله تعالى؛ فالنبي ﷺ امتنع عن الانتفاع معها مع اعتقاده كونه حلالاً، ومن اعتقد أن هذا التحريم هو تحريم ما أحله الله تعالى بعينه فقد كفر؛ فكيف يضاف إلى الرسول ﷺ مثل هذا؟! اهـ فانظر إلى هذا الكلام المنور المؤيد وغيره من أجوبة المفسرين عن الآية وغيرها، وراجع ذلك مبسوطاً في كتب التوحيد عامه وخاصه، وقس على ما ذكرنا - من التعليق في هذا الموضع - بما لم ينبه عليه، والله يتولانا وإياك بما تولى به عباده الصالحين بحق مولانا المعصوم الأمين ﷺ والله أعلى وأعلم.

﴿وَ﴾ اذكر ﴿إِذْ أَمَرُ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ﴾ يعني: حفصة ﴿حَدِيثًا﴾ وهو حديث مارية، وحديث خلافة أبي بكر وعمر - رضي الله عنهما - بعده ﷺ ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ﴾ وأخبرت حفصة ﴿بِهِ﴾ عائشة ﴿وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ﴾ وأطلع سبحانه نبيه ﷺ ﴿عَلَيْهِ﴾ أي: على إنشاء حفصة الحديث المعهود الذي أوصاها بالإسرار، فغضب ﷺ على حفصة؛ لذلك ﴿عُرِفَ بَغْضُهُ﴾ أي: بعض الحديث، وهو حديث تحريم مارية، وطلقها طلاقاً رجعيّاً انتقاماً عنها ﴿وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضِ﴾ وهو قصة الخلافة ولم يعرفها؛ لثلا يقع الفتنة بين المسلمين، ومع ذلك قد وقعت، وبعدما أطلع الله نبيه على إنشاء حفصة الحديث معاتباً عليها ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ بِهَا بِهٖ قَالَتْ﴾ حفصة ظناً منها أنها صدرت هذا من عائشة: ﴿مَنْ أَنبَأَكَ﴾ وأعلمك ﴿هَذَا قَالَ﴾ ﷺ في جوابها: ﴿تَبَيَّنَ الْعَلِيمُ﴾ بالسرائر والخفايا ﴿الْخَبِيرُ﴾ [التحريم: 3] بما يجري في الضمائر والنيات.

ثم قال سبحانه من قَبْلَ نبيه ﷺ على وجه الخطاب المنبئ عن العتاب: ﴿إِنْ تَوْنَا إِلَى اللَّهِ﴾ أنت وعائشة عما صدر عنكما توبة صادرة عن محض الندم والإخلاص، منبئة عن كمال الموافقة والاختصاص مع الرسول ﷺ فقد جبرتما ما كسرتما، وإلا ﴿فَقَدْ صَغَتْ﴾ زاغت ومالت ﴿قُلُوبُكُمَا﴾ عن موافقة الرسول ومخالصته، فجئتما بما يكرهه ﷺ وبكراحتكما ما يحبه ﷺ ﴿وَإِنْ تَظَاهَرَا﴾ وتعاوننا ﴿عَلَيْهِ﴾ أي: على ما أنتما عليه من مخالفة الرسول فلن تضرا له ﷺ شيئاً من الضرر، وكيف يلحقه ﷺ ضرر منكما ﴿فَإِنَّ اللَّهَ﴾ المراقب لعموم أحواله ﴿هُوَ﴾ سبحانه ﴿مَوْلَاةُ﴾ ناصره ومعينه، ومولي عموم أموره ﴿وَجَبْرِيْلُ﴾ رئيس الكروبيين قرينه وملازمه ﴿وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أتباعه وأعوانه ﴿وَالْمَلَائِكَةُ﴾ أي: عموم الملائكة ﴿بِتَدْ ذَلِكِ﴾ أي: بعد نصر أولئك المظاهرين ﴿ظَهِيْرُ﴾ [التحريم: 4] له سبحانه على سبيل التعريض لعموم أزواجه ﷺ ١٢

﴿عَسَىٰ رَبُّهُ﴾ الذي رباه على الكرامة الأصلية، والنجاة الجبلية ﴿إِنْ طَلَّقَكُنْ﴾ جميعاً ﴿أَنْ يُبَدِّلَهُ﴾ بمقتضى قدرته وإرادته ﴿أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنْكَ﴾ صورة وسيرة، أخلاقاً وأعمالاً ﴿مُسْلِمَاتٍ﴾ في الاعتقاد، مسلمات عن العيوب ﴿مُؤْمِنَاتٍ﴾ بوحدة الحق، مصدقات لعموم ما نزل من عنده ﴿قَائِمَاتٍ﴾ راسخات على الطاعات، مواظبات على عموم الخيرات، خاضعات خاشعات لله في عموم الأوقات ﴿تَائِبَاتٍ﴾ عن عموم المنكرات والمحظورات ﴿عَابِدَاتٍ﴾ على وجه التذلل والخضوع، وكمال الانكسار والخشوع ﴿سَائِغَاتٍ﴾ صائمات أو مهاجرات ﴿نِيَّاتٍ وَأَبْكَارًا﴾ [التحريم: 5] يعني:

سواء كن ثياباً أو أبكاراً.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَوًّا أَنفُسُكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْزِدُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تَجْزُونَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧﴾﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تَوْبًا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَنِ رَبِّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتِمِّمْ لَنَا نُورَنَا وَاعْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾﴾ يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ جَهْدِ الْكَفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَيَسَّ الْمَصِيرُ ﴿٩﴾﴾ [التحريم: 6 - 9].

ثم أوصى سبحانه لعموم المؤمنين ما يصلح لهم، ويليق بحالهم فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ عليكم حفظ النفس عن مطلق المهالك الدينية ﴿قُوا أَنفُسَكُمْ﴾ عن ارتكاب المعاصي، والالتفات نحو المنكرات، والتوجه نحو المحظورات ﴿وَأَهْلِيكُمْ﴾ أي: من في حفظكم وحضانتكم من أزواجكم وأولادكم عن الوقوع في المهالك والفتن، وأنواع الآثام الموجبة للخذلان والحرمان، وبالجمله: اتقوا ﴿نَارًا﴾^(١) وأي نار، نارا ﴿وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ أي: ما يتقد به النار أجسام الأنام والحجارة؛ وذلك من شدة حرارتها وإحراقها، بخلاف سائر النيران فإن وقودها الحطب.

ومع ذلك يوكل ﴿عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ﴾ يوقدونها، وهم الزبانية، صفتهم: إنهم ﴿غِلَظٌ﴾ في أقوالهم وهياكلهم، لا يتأتى منهم الملاينة والملاطفة أصلاً ﴿شِدَادٌ﴾ في البطش وعموم التعذيب ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ﴾ ولا يتجاوزون عن أمره سبحانه في عموم أوامره، بل يعضونها على الوجه المأمور بلا فوت شيء منها بعذر وشفاعة، أو شفقة أو

(١) أي: قدسوا أنفسكم وأهاليكم من محبة الدنيا والاشتغال بها، وأقبلوا على الله ببذل المهج، وانصحو أهاليكم؛ كي يكونوا صالحين بمتابعتكم، فإذا رغبتهم في الدنيا فهم يشتغلون بها، فإن زلة الإمام زلة المأمومين. قال سهل: أي: بطاعة الله، وإتياع السنن. وقال ابن عطاء: بقبول نصيح الناصحين، قال الوراق: علّموهم الفرائض والسنن؛ لتقدوهم بها من النار. وقال أبو عثمان: في طلب الحلال لأنفسكم ولأهاليكم. [المرائس].

مروءة، بل يفعلون ﴿مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: 6] على وجهه خوفاً من غيرته سبحانه وغضبه.

وبعد ما نادى سبحانه عموم المؤمنين بما نادى، نادى أيضاً عموم الكافرين على مقتضى المقابلة، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله، وكذبوا رسله المبعوثين إليكم؛ ليرشدوكم إلى سبيل الهداية والسلامة، فأنكرتم بهم وبجميع ما جاءوا به بلا تأمل وتوقف، عليكم أن ﴿لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ﴾ بأن أعمالكم دون عذابكم وأنقص منه، بل ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ﴾ من العذاب على مقتضى ﴿مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التحريم: 7] من الكفر والإنكار.

ثم قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بوحدة الحق من شأن إيمانكم تطهير قلوبكم عن مطلق المعاصي والآثام المنافية لصرافة وحدة الذات، ولا ييسر لكم هذا إلا بالتوبة والرجوع على وجه الندم والإخلاص ﴿تَوْبُوا﴾ أيها المخلصون المبتلون بفتنة الذنوب ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ الملك القدوس، المتزه ساحة عز حضوره عن سمة الحدوث والإمكان مطلقاً ﴿تَوْبَةً نُّصُوْحًا﴾ خالصة لوجه الله، قاعة لعرق الالتفات إلى غير الله، نادمة على الذنوب الصادرة عنكم فيما مضى، مجتنبية عن التي سيأتي، مصفية للنفس عن مطلق الكدورات المتعلقة بالغير، محلبة لها بالتقوى عن مطلق الرذائل العائقة عن التوجه الخالص نحو المولى.

﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ﴾ بعدما تبتم ورجعتم نحوه بكمال التبتل والإخلاص ﴿أَن يَكْفِرَ عَنْكُمْ صِغَاتِكُمْ﴾ ويعفو عنكم، ولم ينتقم منكم ﴿وَيَدْخِلَكُمْ﴾ تفضلاً عليكم، وإحساناً ﴿جَنَّاتٍ﴾ متزهات العلم والدين والحق ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أنهار المعارف والحقائق المتجددة، الجارية من أزل الذات إلى أبد الأسماء والصفات.

وكيف لا يكفر، ولا يدخل سبحانه خلص عباده في جنة وحدته ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِي﴾ ولا يُردي ﴿اللَّهُ﴾ المنعم المفضل على خلص عباده، سيما ﴿النَّبِيِّ﴾ المؤيد من عنده بأنواع الكرامة والتعظيم ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ واهتدوا بهدائته، مع أن شأنهم هكذا ﴿تُورِثُهُمْ﴾ الذي اقتبسوه من مشكاة النبوة المصطفوية ﴿يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَيَأْمُرُهُمْ﴾ أي: محيطاً بهم، محفوقاً عليهم وقت عبورهم من الصراط ١٩

ثم لما تفاوتت أنوارهم بحسب الجلاء والخفاء المترتب على أعمالهم واستعداداتهم الفطرية ﴿يَقُولُونَ﴾ مناجين: ﴿رَبَّنَا﴾ يا من ربانا على الهداية والرشاد

﴿أَتَجْمِ لَنَا نُورَنَا﴾ تفضلاً علينا، ومزيد إحسان بنا ﴿وَاغْفِرْ لَنَا﴾ ذنوبنا؛ أي: استر أنانيتنا عن عيوب بصائرنا ﴿إِنَّكَ﴾ بمقتضى جودك ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ يدخل في حيلة علمك وإرادتك ﴿قَدِيرٌ﴾ [التحريم: 8].

ثم قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ المبعوث؛ لإعلاء كلمة التوحيد ﴿جَاهِدِ الْكُفَّارَ﴾ الذين ستروا بغيوم هوياتهم الباطلة شمس الحق، وأنكروا وجودها عناداً ومكابرة، وقاتل معهم بلا مبالاة بشوكتهم، وكثرة عددهم وعددهم، هم ﴿وَالْمُنَافِقِينَ﴾ أيضاً، مع أنك مؤيد من لدنا بالحجج القاطعة، والبيّنات الساطعة ﴿وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ بالأقوال والأفعال، ولا تكن معهم بعد اليوم، مثل ملايتك معهم قبله، بل اشدّد عليهم، فإن الله معينك وناصرك، وهم سيغلبون عن قريب في الدنيا ﴿وَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ فِي الْآخِرَةِ﴾ مَأْوَاهُمْ ﴿الْمَعْدَةُ﴾ لهم ﴿جَهَنَّمُ﴾ البعد والحرمان، وسعير الطرد والخذلان ﴿وَيُشْسِ الْمَصِيرُ﴾ [التحريم: 9] مصيرهم و مرجعهم جهنم.

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ ۝١٠﴾ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ۝١١﴾ وَمَرِيَمَ أَهْنَتْ عَمْرًا إِلَىٰ أَحْصَنْتَ فَرجَهَا فَنفخنا فيه مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقْتَ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكَثِيرٍ ۝ وَكَانَتْ مِنَ الْقَتِيلِينَ ۝١٢﴾ [التحريم: 10 - 12].

وبالجملة: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ﴾ العليم الحكيم ﴿مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ﴾ وشبه حال الكفرة بحالهما في عدم دفع صحبتهم مع المؤمنين، ومحبتهم معهم شيئاً من عذاب الله؛ إذ ﴿كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا﴾ وهم نوح و لوط - عليهما السلام - ﴿صَالِحَيْنِ﴾ لقبولنا، مصلحين لأعمالهما وأخلاقهما، وعموم أطوارها ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ أي: تلكما المرأتان بالنفاق ﴿فَلَمْ يُغْنِيَا﴾ ولم يدفعا؛ أي: العبدان ﴿عَنْهُمَا﴾ أي: عن تلك المرأتين ﴿مِنْ﴾ عذاب ﴿اللَّهِ﴾ المنتقم الغيور ﴿شَيْئًا﴾ من الإغناء، بل ﴿وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ﴾ المعدة للكفار والعصاة ﴿مَعَ﴾ سائر ﴿الدَّٰخِلِينَ﴾ [التحريم: 10] فيها بلا مبالاة إلى زوجيهما.

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ﴾ أيضًا ﴿مَثَلًا﴾ آخر ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةً فِرْعَوْنَ﴾ شبه حال المؤمنين في وصلة الكافرين بحال امرأة فرعون مع فرعون، وعدم تضرر إيمانها منه، بل تأكد إيمانها بصحبة زوجها فرعون - لعنه الله - اذكر ﴿إِذْ قَالَتْ﴾ امرأة فرعون بعدما انكشفت بسرائر التوحيد، مناجية إلى ربها: ﴿رَبِّ﴾ يا من رباني بأنواع الكرامة، ووفقني على توحيدك ﴿إِنِّي لِي عِنْدَكَ يَتِيمًا فِي الْجَنَّةِ﴾ وذلك لما آمنت حين غلب موسى على السحرة فأمنوا له بعدما غلبوا، فقتلهم فرعون، وأمر بزجرها، وأوتدها بالأوتاد الأربعة في حر الشمس؛ حتى ترجع عن الإيمان ولم ترجع، ثم أمر اللعين أن يوضع فوقها صخرة عظيمة، فقالت حينئذ مناجية مع ربها من كمال تحنتها وانكشافها: ﴿رَبِّ إِنِّي لِي عِنْدَكَ يَتِيمًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ﴾ الخبيث ﴿وَعَمَلِهِ﴾ السيئ ﴿وُ﴾ بالجملة: ﴿نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [التحريم: 11] الخارجين عن ربة عبوديتك بإيمانهم بهذا اللعين الطاغى، واعتقادهم بالوهيته وربوبيته، فماتت قبل وضع الصخرة.

﴿وُ﴾ ضرب الله مثلًا أيضًا للذين آمنوا: ﴿مَرْيَمَ ابْنَةَ عِمْرَانَ الَّتِي﴾ من كمال نجابتها وكرامتها، وطهارة ذيلها وعصمتها: ﴿أَخْصَتْنَا فَرْجَهَا﴾ من مخالطة الرجال، وبالغت في التحصن والتحفظ إلى حيث رضي الله عنها وكرمها، وأعطاه ما أعطى من الإرهاصات والكرامات التي خلت عنها سائر نساء الدنيا، وبعدها كرمناها كذلك ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ﴾ أي: في جوفها من جيب درعها ﴿مِنْ رُوحِنَا﴾⁽¹⁾ الذي كنا نفخنا منه في قالب آدم الصفي، ومن تلك النفخة حبلت بعيسى عليه السلام ولهذا صار عيسى في الصفوة كآدم، وظهرت منه معجزات ما ظهرت من نبي قط.

﴿وُ﴾ بالجملة: ﴿صَدَقَتْ﴾ مريم ﴿بِكَلِمَاتٍ رَبِّهَا﴾ أي: بعموم كلمات مربيها التي من جملتها: خلق عيسى عليه السلام من ذلك النفخ ﴿وُ﴾ بجميع ﴿كُتُبِهِ﴾ المنزل من عنده على عموم رسله ﴿وُ﴾ من كمال مجاهدتها في طريق الحق، وإخلاصها في الطاعات

(1) قال المحقق البقلي: ظهر فيه نور الفعل؛ ثم ظهر في نور الفعل نور الصفة، وظهر في نور الصفة نور الذات، وكان بنور الذات والصفات حيا موصوفا بصفاته، ناظرا إلى مشاهدة ذاته، لم تنقطع عنه أنوار الذات والصفات والفعل أبدا، وهذه خاصية لمن له أثر من روحه، قال بعضهم: نفخ من نوره في روح عبده؛ ليحيى بتلك الروح، ويطلب النور، ولا يغفل عن طلب المنور، فيعيش في الدنيا حميدا، ويُبعث في الآخرة شهيدا، فلما وجدت روح روح الله صدقت بظهوره في العالم، وشبه قلوب العالمين بأنها تكون مرآة الحق للمخلق.

والعبادات، واتكأها على الله في مطلق الملمات، وكمال تفويضها عليه سبحانه وتسليمًا إليه: ﴿كَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾⁽¹⁾ [التحريم: 12] أي: من عداد الكمّل من أرباب القنوت،

(1) قال علاء الدولة: وهذا إشارة شريفة في حق المجذوبين يعني: ذكر بصفة الرجال وأدخلهم في القانتين منهم، يعني: من أحصن فرج قابليته من المريدين وإن لم يصل إلى مرشد ويصدق الوارد وما يجد في صحف القلب والسر والروح، ويتوجه إلى الله توجّهًا كل لما يمكن له الوصول إلى مرتبة الولاية؛ ولكن على سبيل الندرة، والنادر لا حكم له، وحظ السالك من هذه السورة وتفسير بطنها: أن يحترز في أن يحرم ما أحل الله على نفسه بجهله عنده مبادئ المكاشفات والمشاهدات، وقلما السالك إذا ابتلاه الله بالغيبة عن خدمة شيخه في بداية أمره كما كان حال هذا المسكين أن يتخلص من هذه الورطة، وسبيله إذا عرف اللطيفة حق المعرفة أو عرفه شيخه يتوب على الله من ذلك الفعل، ويأكل ما قد حرمه الله في البداية على نفسه قدر ما يرفع عنه اسم التحريم، ويقتصر على ذلك، ويأكل لقمات متتابعة، وكل عمل حلال حرم على نفسه في البداية على نفسه [يعمله] بقدر ما يرفع اسم التحريم؛ فينبغي أن يشتغل به قدر ما خرج عن حد النهي الذي يقول في كتابه الكريم بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَلُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [المائدة: 87]، واقتصروا على عمل واحد في كل سنة، أو لقمة واحدة في كل وقت حضرت لموافقة أخ من الإخوان، إذا علم إن لم يواكله ينكسر قلبه ويحزن عليه صاحبه يوافق ويواكله، ولا يسرف في أكلها، ولا يأكلها إذا كان خاليًا إلا لقمة واحدة؛ لأنه قال الله تعالى: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلالًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ﴾ [آل عمران: 93]، وهذه الآية تدل على أن السالك إذا حرم شيئًا على نفسه في بداية أمره لله جهلاً بالطريق فلا يجوز الاشتغال به بعد ورود الوارد عليه ومعرفة الطريق؛ ولكن نسخ حكمه حكم هذه السورة المنزلة على اللطيفة الخفية التي هي خاتم اللطائف، ودينها ناسخ الأديان، وحظ آخر للسالك من تفسير بطن هذه السورة: أن يتيقن بأن لكل قوة من قواها القابلة والفاعلة عذاب مختص بها لا ينفعها صلاح القوة الفاعلة، ولو فسدت الفاعلة لا ينفعها صلاح القوة القابلة، ولا يضر فساد القوة الفاعلة للقوة الصالحة القابلة وعلى العكس، وفي كشف هذا السر باب مفتوح إلى مطلع القرآن مما يجب إغلاقه فسدده ورجعت إلى ما يليق بأذان المستمعين وحوصلة المسترشدين، فاعلم أيها المسترشد إن السالك ربما يكون في ساعة واحدة في الجنة والجحيم وهذا مما شاهدناه مرارًا في أنفسنا، وأنفس السالكين الذين سلكوا هذا الطريق بحضرتنا، وأمرنا بأن لطيفة منك ولها صورة معينة تعرفها أنها صورتك متعمة في أعلى عليين، وفي هذه الحالة أيضًا ترى لطيفة منك على صورتك - غير هذه اللطيفة المنعمة وأنت تشاهدها وتعرفها أنها صورتك - معذبة في أسفل سافلين، وأنت الشاهد بصورتي لطيفتك، وتتعجب من هذه الحالة المتضادة وتتألم بألم الصورة المتألمة، وتتعمق بتعمق الصورة المتعمقة، وربما يكون أربع صور، وربما يكون سبع صور، وربما أن يكون ترى العالم مملوءًا من صورك، كل صورة في عمل خاص، وربما يكون أن تشاهد جميع الصور يتحركون

المنجذبين إلى حضرة الرحموت بكمال الخضوع والخشوع.

وفي هذا التمثيلين تعريض لأزواج النبي ﷺ، وحث لهن إلى حسن المعاشرة ومراعاة الأدب معه ﷺ وكمال المصادقة، وتبعد لهن عن النفاق والمراء والمجادلة معه في أمر أباحه الله له بمقتضى حكمته، إنما ضربهما سبحانه؛ ليتزجرن بهما عما جئن به؛ لتكون عظة وتذكيرًا لسائر المؤمنين المتعظين.

جعلنا الله من زمرتهم وجملتهم.

خاتمة السورة

عليك أيها المحمدي المراقب لكلمات الحق النازلة من الغيب إلى الشهادة، المتفرعة على الأسماء والصفات الذاتية الإلهية أن تترصد في عموم أوقاتك إلى ما سيتجدد من عالم الخفاء والكمون إلى فضاء البروز والظهور، ثم منها إلى البطون بمقتضى النشأة الحية الإلهية، فلا بد لك أن تخلي همك وبالك عن مطلق الأشغال الشاغلة لك عن الالتفات والتوجه إلى الله، والتفرج بعجائب مصنوعات، وغرائب مخترعاته، وإياك إياك أن تغفل عنه ساعة، فإنها تورثك حسرة عظيمة طويلة، وخسرانًا عظيمًا إن كنت من جملة المستيقظين.

ربنا لا تزغ قلوبنا، وهب لنا من لدنك رحمة، إنك أنت الوهاب.

بحركتك، وينسطون بيسطك، ويتقبضون بقبضك، ويتكلمون بكلامك، وكل شيء يصدر منك يصدر منهم، مثل الصورة المنطبقة في المرأة من عكس صورتك، وسر هذا الصور المنطبقة في المرأة من عكس صورتك، وسر هذه الصور يتعلق أيضًا بحد القرآن.

سورة الملك

فاتحة سورة الملك

لا يخفى على من انكشف بوحدة الحق، وكثرة شئونه وتجلياته المترتبة على أسمائه وصفاته، الفاتحة للحصر والإحصاء أن سعة مملكة الحق، وملكه وملكوته إنما هي بمقتضى رقائق أسمائه وصفاته الغير المتناهية، الظاهرة على مرآة العدم، فيلوح فيها منها هياكل الأشباح التي لا غاية لها ولا نهاية يحيطها، بعضها مترتب على البعض، وبعضها مقابل للبعض، بعضها متصفة بالشهادة والجلاء، وبعضها بالغيب والخفاء.

وبالجملة: جميع ذرات الأكوان مربوطة بعضها ببعض برقائق المناسبات والارتباطات الواقعة في عالم الأسماء والصفات؛ لذلك أخبر سبحانه في كتابه عن عظمة ملكه، وكثرة خيراته واستقلاله في مطلق تصرفاته الواقعة في مظاهره ومصنوعاته، فقال بعد التيمن: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ الذي ظهر على ما ظهر وبطن بعموم أسمائه وصفاته التي لا تعد ولا تحصى ﴿الرَّحْمَنُ﴾ لعموم مظاهره بالرزق الأوفى ﴿الرَّحِيمُ﴾ لخواصهم، يوصلهم إلى جنة المأوى وسدرة المنتهى.

﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ① الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ② الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوتٍ فَإِنَّهُمْ بَالِغٌ أَلْبَصَرِ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ③ ثُمَّ أَرْجِعُ أَلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبُ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ④ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ⑤ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ يُوعَدُونَ ⑥ إِذَا الْقَوَايِمُ رَمِيَوا إِلَيْهَا فَهُمْ يَكْفُرُونَ ⑦ ﴿[الملك: 1 - 7].

﴿تَبَارَكَ﴾ تعظيم وتعالى من كثرة الخيرات والبركات المالك الكامل ﴿الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ وبقبضة قدرته جميع التدابير الجارية فيه على وجوه الصور والتقادير ﴿وَهُوَ﴾ كيف لا ﴿هُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ من متفرعات جود وجوده ﴿قَدِيرٌ﴾ [الملك: 1] بالقدرة الشاملة، والإرادة الكاملة ١٩

﴿الَّذِي خَلَقَ﴾ وقدر ﴿الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾ بمقتضى قهره ولطفه، وأدارهما بينكم أيها المكلفون ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾ ويختبركم ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ وأصوبه وأصلحه، وأخلصه ﴿وَلَمْ تَحْسِنُوا الْعَمَلُ﴾ ولم تصلحوه بعدما أمركم سبحانه بالإخلاص والإصلاح فقد ينتقم عنكم سبحانه بمقتضى غيرته؛ إذ ﴿هُوَ الْعَزِيزُ﴾ الغالب القادر على وجوه الانتقام لمن خرج عن ربة عبوديته ﴿الْفُؤُورُ﴾ [الملك: 2] المقتدر على وجوه الإنعام للمحسنين المخلصين.

وكيف لا، هو ﴿الَّذِي خَلَقَ﴾ أظهر وأوجد ﴿سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾ على عدد الصفات السبع الذاتية، وجعلها ﴿طَبَاقًا﴾ متطابقة بعضها فوق بعض، جوف بعض، وجعل تطبيقها ونظمها على وجه أحكم، ونظام أبلغ، حيث ﴿مَا تَرَى﴾ أيها الرائي ﴿فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ﴾ المستوي على عروش الأكوان ﴿مِنْ تَفَافُوتٍ﴾ ينبئ عن عدم رعاية الحكمة والمصلحة فيه، بل كلها على مقتضى الحكمة المتقنة البالغة؟¹ فإن شككت أيها المعتبر الرائي فيها؛ لقصور نظرك عن إحاطة ما فيها من الحكم والمصالح في بادئ الرأي ﴿فَازْجِعِ الْبَصَرَ﴾ وكزّر النظر، ثم انظر ﴿هَلْ تَرَى﴾ فيها ﴿مِنْ فُطُورٍ﴾ [الملك: 3] ⁽¹⁾ خلل وشقوق وقعت فيها، لا على مقتضى الحكمة والإحكام؟.

﴿ثُمَّ ازْجِعِ الْبَصَرَ﴾ إن شئت وشككت ﴿كَوْثَرَيْنِ﴾ مرتين أو مرارًا كثيرة إلى حيث ﴿يَنْقَلِبُ﴾ ويرجع ﴿إِلَيْكَ الْبَصَرُ﴾ أي: بصرك ﴿خَاصِمًا﴾ خائبًا بعيدًا عن المطلوب الذي هو رؤية الفطور والقصور ﴿وَهُوَ﴾ أي: نظرك حين رجوعه إليك ﴿خَسِيرٌ﴾ [الملك: 4] كليل كئيب من طول المعاودة، وكثرة المراجعة بلا فائدة تترتب عليها، وعائدة تفوز بها من إدراك الفطور والقصور.

﴿وَلَوْ كُنَّا فَتَاةً﴾ من كمال قدرتنا، ومثانة حكمتنا: ﴿لَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا﴾ أي: السماء المرئية من الدنيا ﴿بِمَصَابِيحٍ﴾ أي: بكواكب كثيرة مضيئة، منيرة في الليل كالسرج، هي سبب رؤيتها، وإلا فلا ترى الأفلاك ﴿وَلَوْ كُنَّا فَتَاةً﴾ من جملة اختباراتنا الواقعة بين عبادنا: إنا ﴿جَعَلْنَاهَا﴾ أي: تلك المصابيح ﴿رُجُومًا﴾ أي: سبب ظنون وجهالات ﴿لِلشَّيَاطِينِ﴾

(1) يقال: فطره فانفطر أي شقه فانشق والمعنى من شقوق وصدوع لامتناع خرقها والشماعها قاله القاشاني، ولو كان لها فروج لفاتت المنافع التي رتبت لها النجوم المفرقة في طبقاتها أو بعضها أو كمالها كما في المناسبات فإذا لم ير في السماء فطور وهي مخلوقة فالخالق أشد امتناعا من خواص الجسمانيات.

وهم المنجمون المرجفون الذين يرجمون بالغيب، مستمسكين بها وبحركاتها وأوضاعها ﴿و﴾ بعدما أضللناهم بها في الدنيا ﴿أَعْتَدْنَا لَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابَ السَّعِيرِ﴾ [الملك: 5] أي: النار المسعرة جزاء ما اجترءوا على الله بدعوى الإطلاع على المغيبات، مع أنه من الخصائص الإلهية، وما ذلك إلا من كفرهم بالله، واستقلاله في مطلق تصرفاته الواقعة في ملكه وملكوته.

﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ﴾ وادَّعُوا معه الشراكة في أخص أوصافه، وهو عالم الغيب ﴿عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾ البعد والخذلان، والطرْد والحِرمان ﴿و﴾ بالجملة: ﴿بُشْرُ الْمَصِيرِ﴾ [الملك: 6] مصير أهل الكفر.

وماواهم من شدة أهوال جهنم وأفزاعها: إنهم ﴿إِذَا أُلْقُوا فِيهَا﴾ أي: قصدتهم الزبانية؛ لإلقائهم بالعنف والزجر المفرط ﴿سَمِعُوا لَهَا﴾ أي: لجهنم ﴿شَهيقًا﴾ صوتًا هائلًا مهولًا، كصوت الحمار ﴿و﴾ الحال أنه ﴿هِيَ﴾ أي: جهنم حيثئذ ﴿تَفُورُ﴾ [الملك: 7] وتغلي غليان المرحل غيظًا وغضبًا لأعداء الله.

﴿تَكَادُ تَمَيِّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ ٨ ﴿قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ﴾ ٩ ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ ١٠ ﴿فَاعْرِضْ فَأْيُذِيهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ ١١ ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ ١٢ ﴿وَأَمِيرُوا قَوْلَكُمْ أَوَاجْهَرُوا بِمَعْنَى أَنَّهُ عَلَيْهِمْ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ ١٣ ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ ١٤ ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ ١٥ [الملك: 8 - 15].

ومن شدة غضبها وسخطها ﴿تَكَادُ﴾ وتقرب ﴿تَمَيِّزُ﴾ وتفترق أجزاءها ﴿مِنَ الْغَيْظِ﴾ المفرط ﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ﴾ أي: جماعة وفرقة من المتفقين المجتمعين على ديدنة قبيحة، وخصلة خارجة عن مقتضى الحدود الإلهية ﴿سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا﴾ سؤال توبيخ وتقريع: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ [الملك: 8] يخوفكم من هذا العذاب الهائل، مع أن سنة الله جرت على ألا يدخل عباده فيها إلا بعد الإنذار والتخويف.

﴿قَالُوا﴾ حيثئذ متحسرين: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ﴾ فأنذرنا عنها على أبلغ الوجوه ﴿فَكَذَّبْنَا﴾ النذير، وأفرطنا في تكذيبه إلى حيث نفينا الإنزال والإرسال مطلقًا، بل كفرنا

بالحق وبجميع ما جاء به النبي النذير من عنده، ونسبنا دعواه إلى السفه والضلال ﴿و﴾
بالجملة: ﴿قُلْنَا﴾ له حين دعوته وادعائه نزول الكتاب: ﴿مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ﴾
أي: ما أنتم أيها المدعون للرسالة ﴿إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ﴾⁽¹⁾ [الملك: 9] عظيم لا ضلال
أعظم من ضلالكم.

﴿و﴾ بعدما حكوا أولئك الضالون ما حكوا ﴿قَالُوا﴾ من غاية أسفهم وحسرتهم
على سبيل التمني: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ﴾ كلام الرسل المؤيدين بالمعجزات الظاهرة ﴿أَوْ
نَقُولُ﴾ نتأمل ونتفكر في حججهم الساطعة، ودلائلهم القاطعة ﴿مَا كُنَّا﴾ الآن ﴿فِي﴾
أضخاب السعير [الملك: 10] أي: في عذابهم ومن جملتهم.

وبالجملة: ﴿فَاغْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ﴾ وندموا، وما يتفهم الاعتراف والندم، لمضي
وقته، بل ﴿فَسُخِّقُوا﴾ طردًا وتبعيدًا عن ساحة عز القبول، وعن سعة رحمة الحق، وكشف
لطفه ومغفرته ﴿لَأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: 11] أي: لمطلق من دخل بشؤم كفره
وإنكاره فيها.

ثم أردف سبحانه حال الكفرة بحال المؤمنين تنشيطًا للسامع، وحثًا له على
التثبت في الإيمان فقال: ﴿إِنَّ﴾ المؤمنين ﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ﴾ ويخافون ﴿رَبَّهُمْ﴾ أي:
عذابه ﴿بِالْغَيْبِ﴾ أي: حال كونهم في النشأة الأولى غائبين عنه، غير معانين له ﴿لَهُمْ﴾
عند ربهم ﴿مَغْفِرَةٌ﴾ ستر ومحو لذنوبهم الصادرة عنهم بمقتضى بشرتهم جزاء إيمانهم
بالله، وخشيتهم عن عذابه ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الملك: 12] يصغر دونه الدنيا وما فيها تفضلاً
عليهم وامتناناً، ألا وهو رضا الله منهم ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: 72] من
الآخرة وما فيها، فكيف عن الدنيا؟

ثم لما قال بعض المشركين لبعضهم على سبيل التهكم: أسروا قولكم؛ كي لا
يسمعه رب محمد، نزل: ﴿وَأَسِرُوا قَوْلَكُمْ﴾ أيها المشركون ﴿أَوْ اجْهَرُوا بِهِ﴾ وهما
سيان بالنسبة إلى علمه المحيط، وكيف لا ﴿إِنَّهُ﴾ سبحانه ﴿عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾

(1) يعني: جاءت اللطيفة المنيرة وبلغت إلينا ولكن كذبنا لاتباع هوانا، وقُلْنَا: لا يمكن أن ينزل علينا
مثلنا، لستم إلا في ضلال كبير، لرجوعكم عن دين آبائكم ولو كان الله أراد أن ينزل علينا لأنزل
علينا ملائكة، أنتم تأكلون وتشربون وتمشون في الأسواق، وتحتاجون إلى البول والغائط وإلى
ما يحتاج البشر إليه. [عين الحياة].

[الملك: 13] أي: بما في الضمائر قبل أن يعبر به أو يقصد بتعبيره، بل هو عليم بما في استعداداتكم وقابلياتكم المكنونة في عالم الأسماء والصفات قبل ظهوركم في عالم الأشباح!؟

﴿أَلَا يَعْلَمُ﴾ العليم الحكيم ﴿مَنْ خَلَقَ﴾ وقدر بمقتضى علمه المحيط، وقدرته الشاملة، وإرادته الكاملة ﴿وَوَ﴾ كيف لا ﴿هُوَ اللَّطِيفُ﴾ الواصل آثار علمه إلى خفيات الأشياء وأسرارها ﴿الْخَبِيرُ﴾ [الملك: 14] ⁽¹⁾ المحيط خبرته لظواهر المظاهر وبواطنها.

وبالجملة: ﴿هُوَ﴾ سبحانه القادر المقتدر ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ﴾ أيها المكلفون بمقتضى سعة رحمته وجوده ﴿الْأَرْضَ ذُلُولًا﴾ لينة سهلة، قابلة للسلوك عليها ﴿فَأَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا﴾ جبالها أو جوانبها حيث شئتم ﴿وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ﴾ رغداً واسعاً متى أردتم، واشكروا المنعم المفضل، ولا تكفروا به وبنعمه ﴿وَوَ﴾ اعلموا أنه ﴿إِلَيْهِ﴾ لا إلى غيره من الوسائل والأسباب ﴿النُّشُورُ﴾ [الملك: 15] أي: نشور الكل ورجوعه؛ إذ لا مرجع لكم سواه، ولا معاد إلا إليه، فيسألکم عما أنعم عليكم ويحاسبکم عليه.

﴿أَمْ أَمِنْتُمْ مَّنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُخْصِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَعُورُ﴾ ^(١٦) أَمْ أَمِنْتُمْ مَّنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ^(١٧) وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ^(١٨) أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَفَائِدٌ وَيَقْبِضْنَ مَا يُتْمَسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ^(١٩) أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصَرُّكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ^(٢٠) [الملك: 16 - 20].

وكيف لا تشكرون نعمه، ولا تواظبون على أداء حقوق كرمه!؟ ﴿أَمْ أَمِنْتُمْ﴾ عذاب ﴿مَّنْ فِي السَّمَاءِ﴾ أي: من عذابه النازل من جانب السماء على من لم يشكر نعماءه المتوالية، وآلاءه المتتالية من ﴿أَنْ يُخْصِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ﴾ ويطويكم بها ويغيبك فيها،

(1) قال روزبهان: بقي مكنون علمه فيما جرى في الأزل عن الخليفة، وإن كان صديقاً، أو نبياً مرسلًا، أو ملكاً مقرباً، فيكون عنهم مستورا، كما كان في سر الأزل قبل الخلق، ولو أمنت النظر يا صاحبي في العلم، فإن حقيقة العلم منفية عن الخلق؛ إذ الخلق لا يعلم حقيقته، فإن حقيقة علم الأشياء لمنشئها لا غير، وذلك قوله تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾، أثبت العلم بالحقيقة لنفسه.

كما فعل بقارون ﴿فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ [الملك: 16].

﴿أَمْ أَمِثُّ﴾ عذاب ﴿مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُزِيلَ﴾ ويمطر ﴿عَلَيْكُمْ خَاصِبًا﴾ حصباء من قبل السماء فيهلككم بها، كما فعل بقوم لوط ^{عليه السلام} ﴿فَسْتَغْلَمُونَ﴾ حيثُ أيها المسرفون المفرطون في كفران النعم، ونسيان حقوق الكرم ﴿كَيْفَ نَذِيرِ﴾ [الملك: 17] وإنذاري عليكم.

وإن كذبوك يا أكمل الرسل، وبالغوا في تكذيبك وإنكارك لا تبال بهم وبتكذيبهم، وانتظر إلى ما سيؤول أمرهم إليه.

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ﴾ مضوا ﴿مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ من الكفرة المكذبين لرسولهم أمثالهم، مبالغين في تكذيبهم ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [الملك: 18] أي: إنكاري إياهم، وانتقامي منهم، فسيلحق أيضا لهؤلاء الضالين المكذبين لك بأضعاف ما لحقهم.

﴿أ﴾ ينكرون قدرتنا عن انتقامهم وإهلاكهم ﴿وَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَفَائِبَ﴾ باسطات أجنحتهن في الجو عند الطيران ﴿وَوَ﴾ بعدما أوردن السرعة ﴿يَقْبِضْنَ﴾ ويضممن أجنحتهن إلى جنوبهن؛ استظهارًا بها على سرعة الحركة، مع أن ميلهن بالطبع إلى السفلى بثقلهن ﴿مَا يُفْسِكُهُنَّ﴾ في الجو على خلاف الطبع ﴿إِلَّا الرُّخْمَنُ﴾ المستعان الشامل برحمته العامة على كل شيء دخل في حيطته قدرته، وعلمه وإرادته، وبالجملته: ﴿إِنَّهُ﴾ سبحانه ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ﴾ دخل في حيطته الوجود ﴿بَصِيرٌ﴾ [الملك: 19] يدبر أمره على وجه يليق به، وينبغي له بمقتضى سعة رحمته وجوده.

ثم قال سبحانه مستفهمًا إياهم على الإنكار والتفريع: ﴿أَمْثَنَ هَذَا﴾ الناصر الظهير ﴿الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ﴾ وعون لكم ﴿يَنْصُرُكُمْ﴾ ويعينكم حين بطش الله إياكم أيها المسرفون ﴿مَنْ دُونَ الرُّخْمَنِ﴾ المستوعب بالرحمة العامة على عموم الأكوان، مع أنه لا شيء في الوجود سواه، وبالجملته: ﴿إِنَّ الْكَافِرُونَ﴾ أي: ما هم ﴿إِلَّا فِي غُرُورٍ﴾ [الملك: 20] باطل وزور ظاهر بلا وثوق لهم، ولا اعتماد.

﴿أَمْثَنَ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ﴾ بل لجؤا في غرورهم ونفورهم ﴿أَمْثَنَ يَتَّبِعُكُمْ عَلَىٰ وَجْهِهِمْ أَهْدَىٰ أَمَّنْ يَتَّبِعُ سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا﴾

الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا أَعْلَمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾ [الملك: 21 - 26].

﴿أَمِنْ هَذَا﴾ الرازق المتكفل لأرزاقكم ﴿الَّذِي يَزُوقُكُمْ﴾ ويسوق إليكم ما يسد رمقكم ﴿إِنْ أَمْسَكَ﴾ سبحانه ﴿رِزْقَهُ﴾ يأمسك المطر، وسائر الأسباب والآلات التي تتوسلون بها إلى أرزاقكم، هل لكم متمسك تتمسكون به، وتثقون عليه سواء سبحانه أصلاً؟ كلا وحاشا، ليس لكم إلا هذا ﴿بَلْ لَّجُوا﴾ تمادوا وأصرروا على اللجاج، وصاروا دائماً ﴿فِي غَتَوٍ﴾ لدد وعناد ﴿وَنُفُورٍ﴾ [الملك: 21] عن الحق وقبوله تعنتاً واستكباراً.

ثم قال سبحانه مستفهماً على سبيل التوبيخ: ﴿أ﴾ يعتقدون الآثار الظاهرة في الأقطار من الوسائل والأسباب، ولم ينسبوها إلى المؤثر المسبب لها المختار، وسلكتهم في هذا الطريق بأنواع الإنكار والإصرار ﴿فَمَنْ﴾ أي: فهل من ﴿يَفْشِي﴾ ويمضي ﴿مُكِبًّا﴾ ساقطاً ﴿عَلَى وَجْهِهِ﴾ لوعرة طريقه، وظلمة سبيله ﴿أَهْدَى﴾ إلى مقصده، وأرشد إلى مطلوبه ﴿أَمِنْ يَفْشِي صَوِيًّا﴾ مستقيماً سالماً عن التزلزل والسقوط، راكباً ﴿عَلَى﴾ متن ﴿صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الملك: 22] وطريق واضح بلا عثر وقصور؟! مثل بهما سبحانه للمشرك المتشبث بالعقل، المنعزل عن الرشد والهداية، وللمؤمن المستمسك بالعروة الوثقى التي هي الشرع القويم الموصل إلى توحيد الحق.

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل لمن أنكر وحدة الحق، واستقلاله في مطلق التصرفات الواقعة في عالم الكون والفساد: ﴿هُوَ﴾ سبحانه القادر المقتدر ﴿الَّذِي أَنشَأَكُمْ﴾ وأظهركم من كتم العدم إنشاءً إبداعياً ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ﴾ لتسمعوا به المواعظ، والآثار والأخبار الصادرة عن أولي العزائم الصحيحة، المجتازين نحو فضاء اللاهوت بانخلاصهم عن كسوة الناسوت مطلقاً ﴿وَالْأَبْصَارَ﴾ لتنظروا بها في ملكوت السماوات والأرض فتعتبروا منها إلى مبدعها العليم الحكيم ﴿وَالْأَفْئِدَةَ﴾ لتفطنوا بها إلى عجائب حكمته، ويدائع قدرته؛ كي تنكشفوا بوحدته، وتشرفوا بوصلته، لكن ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الملك: 23] أي: الشاكرون الصارفون لهذه النعم العظام إلى ما خلقت لأجله، قليل في غاية القلة.

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل لمن أنكر قدرتنا على الحشر والنشر، والحساب والجزاء على جميع الأمور الواقعة في النشأة الأخرى ﴿هُوَ﴾ سبحانه العزيز الغالب، ذو القدرة

والاختيار ﴿الَّذِي ذَرَأَكُمْ﴾ أي: بشكم وبسطكم بمقتضى قدرته ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ التي هي محل الكون والفساد، وكلفكم على الإيمان والأعمال، واختبركم بالأوامر والنواهي ﴿وَمَا أَدْعَاكُمْ أَوْلاً بِامْتِدَادِ أَظْلَالِهِ، وَرَشَّ نُورُهُ عَلَى مِرَاةِ الْعَدَمِ، أَعَادَكُمْ أَيْضًا بِقَبْضِ أَظْلَالِهِ وَأَنْوَارِهِ إِلَى ذَاتِهِ، فَثَبَّتْ أَنْكُمْ﴾ [إِلَيْهِ تُخْشَرُونَ] [الملك: 24] للجزاء، فيجازيكم على مقتضى ما اقترفتُم من المأمورات الإلهية.

﴿وَيَقُولُونَ﴾ من كمال استبعادهم وإنكارهم: ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾ الموعود الذي وعدتم الجزاء والحساب، والثواب والعقاب فيه، أخبرونا عن وقوعه في أي زمان، وإن وقع؟ ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الملك: 25] يعنون: النبي والمؤمنين.

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل بعدما ألحوا عليك، والجنوك إلى التعيين: ﴿إِنَّمَا الْعِلْمُ﴾ المتعلق لتعيين وقته ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ لا يطلع عليه أحد من خلقه ﴿وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ﴾ بمقتضى الوحي الإلهي ﴿مُبِينٌ﴾ [الملك: 26] مظهر مبلغ ما يوحى إلي من عنده على وجهه، لا طريق لي بوقوع المعهود إلا الوحي، ولم يوح إلي تعيينه، فكيف أتكلم عنه؟ فعليكم ألا تستعجلوا وقوعه.

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيِّئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِمُتَدَعُونَ﴾ ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِ اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَنَّا بِهِ، وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَلَوٍّ مَبِينٍ﴾ [الملك: 27 - 30].

وبعدما تحقق وقوعه، وحل وقته ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ﴾ أي: العذاب الموعود في الآخرة ﴿زُلْفَةً﴾ قريباً منهم ﴿سَيِّئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: اسودت وقبحت من شدة الكآبة والحزن المفرط ﴿وَقِيلَ﴾ لهم حيثُ من قِبَلِ الْحَقِّ: ﴿هَذَا﴾ العذاب هو العذاب ﴿الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدْعُونَ﴾ ⁽¹⁾ [الملك: 27] تطلبون وتستعجلون وقوعه وراء واستهزاء على سبيل.

(1) قال السمتاني: أي: تتمنون أن يعجل فينبغي للسالك في هذا المقام ألا يدع النفس أن تشك في بواقى الآيات؛ لأنها ما دامت في قالب الكدورات تصل من عالم السفلى إليها دخان يصعد من الهوى على دماغها يحفظ عقله يشك، فإذا أراد السالك آية من آيات النفس مما لم يكن يراها قبل السلوك فيجب الإذعان لمسلكه واشتغاله برفع الحجاب؛ ليرى آيات ربه الكبرى وإن لم

التهمكم، فالآن يلحقكم ما تنكرون به فيما مضى.

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل لمشري مكة بعدما تطيروا بموتك، وموت من معك من المؤمنين؛ ليتخلصوا من شروركم: ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ أخبروني ﴿إِنْ أَهْلَكْنِي اللَّهُ﴾ العليم الحكيم بمقتضى قهره وجلاله ﴿وَأَهْلَكَ أَيْضًا﴾ من المؤمنين ﴿أَوْ رَحِمَنَا﴾ بأن آخر آجالنا بمقتضى لطفه وجماله، ونحن مؤمنون مخلصون له، مقرّون بأنه الفاعل على الإطلاق بالإرادة والاختيار، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد ﴿فَمَنْ يُجِزْ﴾ وينقذ ﴿الْكَافِرِينَ﴾ المنكرين على الله وإرادته، واختياره وألوهيته مطلقًا ﴿مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ [الملك: 28] نازل عليهم من لدنه سبحانه بشؤم ما اقترفوا من الكفر والعصيان، وأنواع الفسوق والطغيان؟!

﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل بعدما تمادى نزاعهم، وتطاول جدالهم، ولم تنفعهم الدعوة والتبليغ كلامًا خاليًا عن وصمة المجادلة والمراء، منبعثًا عن الحكمة والمصلحة: ﴿هُوَ الرَّحْمَنُ﴾ المستعان المستوي على عروش الأكوان بكمال الاستيلاء والاستحقاق ﴿أَمَّا بِهِ﴾ مخلصين مستوثقين بحبل كرمه ووجوده ﴿وَعَلَيْهِ﴾ لا على غيره من الوسائل والأسباب العادية ﴿تَوَكَّلْنَا﴾ وفوضنا أمورنا كلها بالعزيمة الخالصة الصادقة، وأخذناه وكيلاً، واعتقدناه حسيبًا وكفيلًا ﴿فَسْتَغْلَمُونَ مِنْهُ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الملك: 29] أنحن أم أنتم؟!

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل للمنكرين بوجود الصانع الحكيم على سبيل التبكيت والإلزام: ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ أخبروني أيها المسرفون المكابرون ﴿إِنْ أَضْبَحَ﴾ أي: ظل وصار ﴿مَأْوَكُمْ غَوْرًا﴾ غائرًا إلى حيث لا يصل إليه السجال والدلاء بحبال وحيل ﴿فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مُعِينٍ﴾ [الملك: 30] جارٍ هامرٍ، سهل المأخذ سوى الله رب العالمين؟.

فكيف تنكرون وجوده، مع أنكم مغمورون بسوايح نعمه، معترفون

يقدر على رفع الحجاب فينبغي أن يكون مؤمنًا ببواقي الآيات، مصدقًا بملكه قياسًا فيما يقول ويحكي عن الآيات الأنفسية الغيبية، وألا يشك البتة فيما يشاهد قرآنه وأصحاب مسلكه قياسًا؛ لأنني أيضًا سالك ولم أر ما يحكي نظره أي: لأن الاستعدادات متفاوتة في الكثافة واللطافة، والله يقبض ويبسط، ويغطي ويمنع كيف يشاء، لا راد لقضائه، ولا مانع لعطائه، ولا دافع لبلائه، وعلينا التسليم والتصديق وله الحكم على التحقيق وبيده التوفيق، وهو الرفيق في هذا الطريق.

خاتمة السورة

عليك أيها المحمدي المستمسك بعروة الشريعة المصطفوية التي لا عروة أوثق منها ولا جادة أقوم وأعدل أن تتشبث بها، وتعمل بمقتضاها، متوكلاً على الرحمن المستعان، مفوضاً أمورك كلها إليه على وجه الإيقان، معرضاً عن جنود أمارتك ومقتضياتها، مجاهدًا معها، مخلصاً إياها حتى تصير مطمئنة راضية بما جرى عليها من القضاء، صابرة على ما أصابها من البلوى إلى أن صارت فانية عن هوياتها الباطلة، باقية بهوية الحق وبقائه.

جعلنا الله ممن فني فيه، وبقي ببقائه بمنه وجوده.

سورة القلم

فاتحة سورة القلم

لا يخفى على من تحقق بحقيقة الحق، وشمول أوصافه الذاتية على عموم مظاهره ومصنوعاته أن قلم تقديره الذي هو أول مصنوع صدر منه سبحانه قادر غالب على تصورات لا تنهى، وتشكيلات لا غاية لها، فأثبت به سبحانه في لوح قضائه صدور عموم مظاهره ومصنوعاته ظاهراً وباطناً، غيباً وشهادةً، أزلاً وأبداً.

ومن كمال عظمته، ورفعة قدره: أقسم به سبحانه؛ لبراءة حبيبه ﷺ عما يتهمه الظالمون، ويقولون في حقه عناداً ومكابرةً أولئك المسرفون المفرطون، فقال بعد التيمن باسمه، مخاطباً لحبيبه ﷺ على طريق الرمز والإيحاء: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ المطلع على عموم ما في استعدادات عباده من الفضائل والكمالات ﴿الرَّحْمَنُ﴾ لهم، يهديهم إلى سبيل الخيرات ﴿الرَّحِيمُ﴾ لهم، يوصلهم إلى أعلى الدرجات، وأرفع المقامات.

﴿ت وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ ① مَا أَنتَ بِمَعْجُونٌ ② وَلَئِنْ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ③ وَلَئِنْ لَعَلَّ خُلُقِي عَظِيمٌ ④ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ⑤ بِأَيِّكُمْ الْمَقْتُولُ ⑥ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ⑦ فَلَا تُطِيعُ الْمُكَذِّبِينَ ⑧ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ⑨ وَلَا تُطِيعُ كُلَّ حَلَافٍ مَّهِينٍ ⑩ هَمَزَ مَشَاءً يَنْسِيمٍ ⑪ مَنَعَ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَشِيمٍ ⑫ عَثَلٍ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ ⑬ أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَنَبِينٍ ⑭ إِذَا تَتَلَّى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ⑮﴾ [القلم: 1 - 15]

﴿ن﴾ أيها النبي النائب عن الحق، الناظر بنور الله، النقي عن جميع الرذائل والآثام المنافية لمرتبة النبوة والولاية ﴿و﴾ حق ﴿القَلَمُ﴾ الأعلى ﴿و﴾ بحق ﴿مَا

يَسْطُرُونَ^(١) [القلم: 1] ويكتبون بها الملائكة الأعلى من الأسماء والصفات المأمورة بتصويرات الأشياء الكائنة في النشأة الأولى والأخرى حسب آثار الأوصاف والأسماء الإلهية التي لا تُعد ولا تُحصى.

﴿مَا أَنْتَ﴾ يا أكمل الرسل المبعوث إلى كافة البرايا ﴿بِنِعْمَةِ رَبِّكَ﴾ الذي ربّك على الهداية العامة، والولاية المطلقة، وأعطاك من الفضائل والكمالات المتعلقة لمرتبتك النبوة والولاية ﴿بِمَجْنُونٍ﴾ [القلم: 2] أي: ما أنت غافل عنها، ذاهل عن أداء حقها، جاهل بشكر نعمها ومولاها.

﴿وَإِنَّ لَكَ﴾ يا أكمل الرسل باحتمالك أعباء الرسالة والتبليغ، وتصبرك على أذيات أصحاب الزيغ والضلال ﴿لَأَجْزَا﴾ عظيمًا من عند الله ﴿غَيْرَ مَفْنُونٍ﴾ [القلم: 3] منقطع أبد الأبدين؛ إذ ما يترتب على مرتبتك الجامعة من الكرامات اللاتقة البديعة،

(١) قال روزبهان: ﴿تَ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ أي: «بنون» صفتي وقلم فعلي، «وما يسطرون» من أحرف مقاديري على ألواح أمري، وأيضًا «النون»: هو الذات، و«القلم»: الصفات، و«ما يسطرون»: من الأفعال على ألواح التقدير، وهي تستطرها بين الكاف والنون من العدم على ألواح الإرادة، وأيضًا «النون»: نور وجهه الذي يظهر يوم الشهود، وبه يسعى جميع العارفين والعاشقين إلى الأبد، وأيضًا: نور عنايته السابقة في الأزل في اصطفاية الأنبياء والأولياء، وأيضًا أي: بنيران قلوب المحبين، ونور فؤاد المشتاقين ونصرتي للأنبياء والمرسلين والأولياء والصدّيقين، وأيضًا أي: بنظري على قلوب أحبائي، ونظر أسرارهم إلى لقائي، وأيضًا أي: بنوادر أنوار صفاتي، وقلم أفعالي الذي يجري على ألواح أسرار العارفين، و«ما يسطرون»: الأرواح القدسية من مخاطباتي في أوراق أسرارها، وأيضًا أي: بالنون الذي جعلت في بطنها حجال معراج يونس، وأيضًا أي: نيرات ملكوتي ونادرات عجائب جبروتي، وأيضًا أي: بنور القرآن والعلم الذي كتبه في اللوح المحفوظ في أول الأول، وما يتسخون منه سفرتي وكرام بررتي، وأيضًا أي: ابتدائي في أول وليتي من القدم إلى العدم؛ لإسماع أسر الأرواح القدسية الملكوتية التي خرجت من العدم بكشف نور القدم، ونداء الأزل، وندائي للقلم حين قلت بعدما أوجدته اكتب ما هو كائن إلى الأبد، وبهذا القلم النوري، وما يسطرون أهل قربي من خطائي أي: بهذه الأقسام المباركة يا حبيبي يا قرة عيون العارفين، وبنون حاجيك، وقلم لسانك، ولوح وجهك، وما يسطرون كتبه أنوار تجلاتي من عجائب سنا كشف جمالي في جمالك لنظر هلال جلالك وجمالك.

لا انقطاع لها أصلاً.

﴿وَإِنَّكَ﴾ من كمال تخلقك بالأخلاق الإلهية، وتحققك بمقام الخلقة والخلافة
﴿لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: 4] لا خلق أعظم من خلقك؛ لحيازتك وجمعك خلق
الأولين والآخرين حسب جامعة مرتبتك.

وبالجملة: ﴿فَسْتَبْصِرُ﴾ يا أكمل الرسل ﴿وَتُبْصِرُونَ﴾ [القلم: 5] أولئك
المصرفون المفرطون بنسبتك إلى الجنون حين تبلى السرائر، وينكشف ما في الضمائر،
وينزل العذاب على أهله.

﴿بِأَيِّكُمْ الْمَفْتُونُ﴾ [القلم: 6] أي: أيكم يفتن بالجنون: المؤمنون المهتدون
بهدايتك، أو الكافرون الضالون بغوايتهم؟

وبالجملة: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ الذي ربك على الرشد والهداية ﴿هُوَ أَغْلَمُ﴾ بعلمه
الحضوري ﴿بِمَنْ ضَلَّ﴾ وانحرف ﴿عَنْ سَبِيلِهِ﴾ الموصل إلى توحيده ﴿وَهُوَ﴾ أيضاً
﴿أَغْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القلم: 7] المتمكنين منهم على جادة التوحيد، والصراط المستقيم
الموصل إلى جنة الرضا، وروضة التسليم.

وبعدما سمعت نبأ من شأنك في الشأنة الأخرى: ﴿فَلَا تُطِعْ﴾ أيها
النبي المجبول على الهداية والفلاح ﴿الْمُكَذِّبِينَ﴾ [القلم: 8] المجبولين على الغواية
والضلال؛ يعني: مشركي مكة؛ لأنهم كانوا يدعونه إلى دين آباءه فنهاء سبحانه أن
يطيعهم، ويقبل منهم دعوتهم.

فإنهم ﴿وَدُّوا﴾ وأحبوا ﴿لَوْ تَذَهِرُنَّ﴾ وتلائم معهم، وتوافقهم في دينهم
﴿فَيَذَهِبُونَ﴾ [القلم: 9] معك، ويلابنونك ويوافقون معك، ولا يطعنون بدينك.

﴿وُ﴾ بعدما صرت متخلقاً بالخلق العظيم، ومتصفاً بالأوصاف الحميدة الإلهية
﴿لَا تُطِيعُ﴾ آراء ذوي الأخلاق الذميمة، والأطوار القبيحة مطلقاً، سيما ﴿كُلَّ حَلْفٍ﴾
مبالغ بالحلف الكاذب؛ لترويج آراء ذوي الباطل الزاهق الزائل ﴿مُهِينٍ﴾ [القلم: 10]
مهان عند الناس؛ بسبب الكذب والحلف عليه.

﴿هَمَّازٍ﴾ عياب طغان يغتاب ويطنع بعض الناس عند بعضهم ﴿مُشَاءٍ﴾ يدور بين

الناس ﴿بَنِمِيمٍ﴾ [القلم: 11] أي: ينقل حديث بعض عن بعض؛ حتى يوقع بينهم الفتنة والبغضاء.

﴿مَنَاعٍ لِلْخَيْرِ﴾ شحيح بخيل لا ينفق من ماله على من يستحقه، ويمنع أيضا صاحبه وصديقه عن الإنفاق؛ لئلا يلحق العار عليه خاصة ﴿مُعْتَدٍ﴾ مجاوز الحد في أنواع الظلم، وأصناف الفسوق والعصيان ﴿أَثِيمٍ﴾ [القلم: 12] مبالغ في اقتراف الإثم والعدوان بلا مبالاة.

﴿عَثَلٍ﴾ غليظ الهيكل، قاس القلب، كره المنظر، عريض القفا، متناه في البلادة ﴿بَعْدَ ذَلِكَ﴾ الاتصاف بالأوصاف المذمومة المذكورة ﴿زَنِيمٍ﴾ [القلم: 13] دعي بين القوم، لا يكون له نسب معروف، ولا حسب مستحسن مقبول.

ومن كمال دناءته وخساسته ﴿أَن كَانَ﴾ أي: أنه كان ﴿ذَا مَالٍ﴾ عظيم ﴿وَيَنِينَ﴾ [القلم: 14] كثيرة مستحقة شكر المنعم المفضل، ولم يشكره.

بل يكفره؛ لأنه ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا﴾ الدالة على وحدة ذاتنا، وكمالات أسمائنا وصفاتنا ﴿قَالَ﴾ من كمال كفره وكفرانه، وبغيه وعدوانه: ما هذا إلا ﴿أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [القلم: 15] أي: الأكاذيب القديمة التي سطرها الأولون ودونها.

قيل: هذا هو الوليد بن المغيرة الذي جمع الله فيه هذه المثالب الذميمة.

﴿سَنَسِفُهُ عَلَىٰ الْحُزْمِ طُورٍ﴾ ١٦ إِنَّا بَلَوْتَهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْبَوْا لَبِئْسَ مَا مَكْرُومٍ ١٧ وَلَا يَسْتَنْوُونَ ١٨ طَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ١٩ فَاصْبَحَتْ أَتْرَابٌ ٢٠ فَتَنَادَوُا مُصْبِحِينَ ٢١ أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ٢٢ فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَخْفَتُونَ ٢٣ أَن لَّا يَدْخُلْنَا إِلَيْكُمْ غَدَ ٢٤ وَغَدَا عَلَىٰ حَرٍّ قَدِيمٍ ٢٥ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُونَ ٢٦ بَلْ غَنَوْا غَرُومًا ٢٧ [القلم: 16 - 27].

وبالجملة: لا تطعه يا أكمل الرسل، ولا تلتفت إلى ثروته وسيادته، فإننا بمقتضى قهرنا وجلالنا ﴿سَنَسِفُهُ﴾ ونُعْلِمُهُ بالكفي ﴿عَلَىٰ الْحُزْمِ طُورٍ﴾ [القلم: 16] أي: أنه، بحيث يعرف به في عرصات المحشر.

﴿إِنَّا﴾ بمقتضى قهرنا وانتقامنا من أهل مكة ﴿بَلَوْنَاهُمْ﴾ أصبناهم وابتليناهم بالقحط سبع سنين؛ لكفرانهم بنعمنا التي من معظمها: بعثة الرسول الذي هو أكمل الرسل منهم فكذبوه، وأنكروا دينه وكتابه، واستهزءوا به ﴿كَمَا بَلَوْنَا﴾ وأصبنا ﴿أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾ التي اسمها ضروان، كانت دون صنعاء بفرسخين لصالح، كان ينادي الفقراء وقت الصرام، فلما مات قال بنوه: إن فعلنا ما كان يفعل أبونا لضاق علينا، فإن المال قليل والعيال كثير، وكان مال أبينا كثيرًا وعياله قليلًا، فحلفوا ليصرمنها مصبحين خيفةً من المساكين، كما حكى عنهم سبحانه: ﴿إِذْ أَقْسَمُوا﴾ يعني: أولاد الصالح وورثته ﴿لَيَصْرِمُنَّهَا﴾ وليقطعنها ﴿مُصْبِحِينَ﴾ [القلم: 17] داخلين في الصباح.

﴿وَلَا يَسْتَشْنُونَ﴾ [القلم: 18] أي: لا يتكلمون بكلمة: إن شاء الله حين تقاولوا وتقاسموا.

ويعدا اتفاقوا على تحريم الفقراء، ولم يفوضوا أمرهم إلى مشيئة الله ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا﴾ أي: على الجنة ﴿طَائِفٌ﴾ بلاء مخصوص بها أحاط جميع جوانبها، لا لما في حوالها من البساتين الأخرى، ناشئة ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿وَهُمْ﴾ حيثُذ ﴿نَائِمُونَ﴾ [القلم: 19] في بيوتهم.

﴿فَأُضْهِتْ﴾ الجنة، وصارت ﴿كَالضَّرِيمِ﴾ [القلم: 20] أي: صارت كالتى ضرم ثمارها بحيث لم يبق فيها شيء، أو صارت كالليل في اسودادها وإحراقها، أو كالنهار من غاية يسه وجفافه.

﴿فَتَنَادَوْا﴾ أي: نادى بعضهم بعضًا حال كونهم ﴿مُصْبِحِينَ﴾ [القلم: 21] داخلين في الصباح المعهود للصرام.

﴿أَنِ اغْدُوا﴾ واخرجوا غدوة أيها الملاك ﴿عَلَىٰ خَزَائِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ﴾ [القلم: 22] قاصدين صرمها وقطعها.

﴿فَانطَلَقُوا﴾ بآجمعهم نحوها ﴿وَهُمْ﴾ حيثُذ ﴿يَخَافَتُونَ﴾ [القلم: 23] ويكتمون ذهابهم عن الناس، ويسرون كلامهم فيما بينهم.

مخافة ﴿أَنْ لَا يَدْخُلْنَهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ﴾ [القلم: 24].

﴿و﴾ بالجملة: ﴿عَدَّوْا عَلَى حَزْدٍ﴾ قصد تام، وسرعة كاملة ﴿قَادِرِينَ﴾ [القلم: 25] على القطع بلا مشارك ومعين.

﴿فَلَمَّا﴾ وصلوا إليها ﴿رَأَوْهَا﴾ كذلك ﴿قَالُوا﴾ في بادئ الرأي: ما هي جتنا هذه، بل ﴿إِنَّا لَصَالُونَ﴾ [القلم: 26] طريقها.

ثم لما تأملوا في أمارتها قالوا على سبيل الإضراب عن القول الأول من كمال الأسف والحسرة: ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ [القلم: 27] حرمانا عنها وعن خيراتها؛ لخساستنا وخبائة نفوسنا.

﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلْزَأْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾ (٢٨) ﴿قَالُوا سُبْحَنَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ (٢٩) ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَوْمُونَ﴾ (٣٠) ﴿قَالُوا بَلَّغْنَا إِنَّا كُنَّا طَائِفِينَ﴾ (٣١) ﴿عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبَدِّلَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ﴾ (٣٢) ﴿كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَالْعَذَابُ الْآخِرُ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (٣٣) ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّتِ النَّعِيمِ﴾ (٣٤) ﴿أَفَتَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾ (٣٥) ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ (٣٦) ﴿أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ﴾ (٣٧) ﴿إِنْ لَكُمْ فِيهِ لَا تَحْزَنُونَ﴾ (٣٨) ﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَلِغَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَأْتَحْكُمُونَ﴾ (٣٩) ﴿سَلَامٌ أَيْتُم بِذَلِكَ رَعِيمٌ﴾ (٤٠) ﴿أَمْ لَكُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ (٤١) ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى الشُّجُورِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ (٤٢) [القلم: 28 - 42].

وبعدما حرموا منها ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾ أعدلهم رأياً وعقلاً على سبيل التقرير والتشجيع لإخوانه: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ﴾ وقت مشورتكم على تحريم الفقراء، واتفاقكم على منعهم: ﴿لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾ [القلم: 28] أي: هلاً تذكرون الله بالخير، ولم لا تشكرون نعمه بالإنفاق على الفقراء؛ حتى يزيد عليكم نعمه، وقد قال هكذا حين عزموا أولاً على المنع، وشاوروا فيه.

وبعدما وقعوا في الشدة والبلاء اعترفوا بالظلم، حيث ﴿قَالُوا﴾ عن كمال الندامة

والإنابة: ﴿سُبْحَانَ رَبِّنَا﴾ ننزهك من أن ينازعك في ملكك وسلطانك، أو يخالف حكمك أو شأنك ﴿إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ [القلم: 29] خارجين عن أمرك بالإنفاق، معرضين أنفسنا على عذابك وانتقامك.

تب علينا بفضلك وكرمك ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الثَّوَابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: 128].

وبعد وقوع الواقعة ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتْلَاوُمُونَ﴾⁽¹⁾ [القلم: 30] يعني: يلوم بعضهم بعضاً، فإن منهم من أنكر، ومنهم من استصوب، ومنهم من أشار، ومنهم من سكت.

وبالجملة: ﴿قَالُوا﴾ أي: الكل متحسرين: ﴿يَا وَيْلَنَا﴾ وهلكتنا أدركنا ﴿إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ﴾ [القلم: 31] مجاوزين حدود الله، مستحقين للويل والشبور.

وبعدما أنابوا إلى الله، وتضرعوا نحوه على محض الندم والإخلاص قالوا على سبيل الطمع والرجاء: ﴿عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبَدِّلَنَا خَيْرًا مِنْهَا﴾ ببركة التوبة والرجوع بالإخلاص والاعتراف بالخطأ، والاستغفار بالندم، والانكسار التام، وقد روي أنهم أبدلوا خيراً منها ﴿إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ﴾ [القلم: 32] راجون منه العفو، طالبون الخير والمغفرة.

﴿كَذَلِكَ الْعَذَابُ﴾ لمن خرج عن مقتضى الحدود الإلهية في الدنيا ﴿وَاللَّهُ لَْعَذَابُ الْآخِرَةِ﴾ المعدة لأصحاب الغفلة عن الله ﴿أَكْبَرُ﴾ وأعظم بأضعافها وآلافها ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [القلم: 33] ويعتقدون وقوعها لا حترزوا عما يؤولهم إلى عذابها، ويوقعهم في وبالها ونكالها.

(1) يعني: القوى اللوامة بعد أن ترى آيات الرب نفسها، وهذا ينفع في أثناء السلوك إذا طلع السالك على ظلمة الغفلة عن ذكر ربه وتركه الاقتداء بمقتداه، فيتوب إلى الله ثم يستأنف العمل على وفق الاقتداء، ويترك الغفلة ويشغل بالذكر؛ ليزرع بعد ذلك على وفق أمر الدهقان الخبير، ويحصد - إن شاء الله تعالى - على وفق مراده عن قريب ذاته، لا ينفع بأن يفرغ عنه الآيات والأدوات، والبذر والأرض، ولا يزيد له من حسرته إلا العذاب الأليم المقيم، اللهم نبهنا من نومة الغافلين واجعلنا من الذاكرين. [عين الحياة].

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ﴾ المتحفظين نفوسهم عن غضب الله، المتحرزين عن الخروج عن مقتضى الحدود الإلهية ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ الذي وفقهم إلى صيانة النفس عن المعاصي والمنكرات حين وصولهم إلى كنف حفظه، وجوار قدسه ﴿جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ [القلم: 34] أي: روضة الرضا، وجنة التسليم، لهم فيها نعيم مقيم، خالدين فيها أبدًا، والله عنده أجر عظيم لمن وصل إليه وتحقق دونه.

ثم لما كان الكفرة يقولون: إن صح أننا نبعث كما يزعم محمد وأصحابه لم يفضلونا هناك أيضًا، بل نحن هناك أيضًا أحسن حالاً منهم كما في الدنيا، رد الله عليهم زعمهم هذا بقوله: ﴿أَفَنَجْعَلُ﴾ يعني: أيزعم الكفرة المفسدون المفرطون أننا نجعل ﴿الْمُسْلِمِينَ﴾ المتصفين بالإيمان والأعمال الصالحة، المنزهين عن مطلق العصيان ولوازمه ﴿كَالْمُجْرِمِينَ﴾ [القلم: 35] الموصوفين بأنواع الجرائم والآثام الخارجة عن مقتضى الأحكام الإلهية الجارية على مقتضى الحكمة والعدالة.

﴿مَا لَكُمْ﴾ أي: ما عرض عليكم، ولحق بكم أيها العقلاء حتى أخرجكم عن مقتضى العقل الفطري ﴿كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم: 36] وتدعون مساواة المسيء مع المحسن، فكيف يفضل به عند العليم الحكيم، المتقن في عموم الأفعال على مقتضى القسط والعدالة؟

أنحكمون هذا بمقتضى رأيكم الفاسد أيها الضالون؟ ﴿أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ﴾ نازل عليكم من السماء ﴿فِيهِ﴾ أي: في الكتاب ﴿تَذَرُسُونَ﴾ [القلم: 37] وتقرؤون هكذا؟ ﴿إِنَّ لَكُمْ فِيهِ﴾ أي: في الكتاب ﴿لَمَّا تَخْيِرُونَ﴾ [القلم: 38] أي: ما تختارون لأنفسكم وتشتهونه من خير ما تجدون فيه.

﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ﴾ عهود ومواثيق مؤكدة لازمة ﴿عَلَيْنَا بِالْقَةِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ مشتملة متضمنة لهذا ﴿إِنَّ لَكُمْ لَمَّا تَحْكُمُونَ﴾ [القلم: 39] به علينا من أن الخير والكرامة لكم عند الله أكثر مما لنا؟

﴿سَلُّهُمْ﴾ يا أكمل الرسل، وفتش عنهم على سبيل التبكيت والإلزام: ﴿أَتَهُمْ﴾ ﴿بِذَلِكَ﴾ الحكم ﴿زَعِيمٌ﴾ [القلم: 40] قائم يستدل عليه ويصححه، أهو؟ أي: الزعيم

المستدل واحد منهم ١٩

﴿أَمْ لَهُمْ﴾ في هذا الدعوى ﴿شُرَكَاءُ﴾ مشاركون في هذا القول والحكم، وهم يقلدونهم ١٩ فإن ادَّعُوا شركاء قل لهم نيابة عنَّا: ﴿فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ﴾ حتى يثبتوا الدعوة ويصححوها ﴿إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ [القلم: 41] في هذه الدعوة.

وبعدما بهتوا اذكر لهم يا أكمل الرسل ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ﴾ الأمور والخطوب ﴿عَنْ سَاقٍ﴾ أي: عن أصلها وحقيقتها، وتبلى السرائر برمتها، وارتفعت حجب الأغيار وسدل الاعتبار بأسرها، وبالجمله: لم يبق إلا الله الواحد القهار ﴿وَيُذْعَوْنَ﴾ حينئذ هؤلاء الأظلال الهالكون في تيه الحيرة والضلال ﴿إِلَى السُّجُودِ﴾ والتذلل على وجه الانكسار لدى الملك الجبار ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [القلم: 42] حينئذ؛ لمضي نشأة الاختيار، وأوان الاختبار.

﴿خَاشِعَةً أَبْصَرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَلَامُونَ﴾ ١٢ ﴿فَنَدَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ١٤ ﴿وَأَمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ ١٥ ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَّغْرَمٍ مُثْقَلُونَ﴾ ١٦ ﴿أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْسِبُونَ﴾ ١٧ ﴿فَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْأُخْتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ ١٨ ﴿لَوْلَا أَنْ نَدَارِكُهُ نَفْسَةً مِنْ رَبِّهِ لَكُنَّا بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ ١٩ ﴿فَاجْنِبْهُ رَبُّهُ فَلَجَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ ٢٠ ﴿وَلَنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَنْجُونٌ﴾ ٢١ ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ ٢٢ [القلم: 43 - 52].

بل صاروا ﴿خَاشِعَةً﴾ ذليلة حاسرة ﴿أَبْصَارُهُمْ﴾ هائمة عقولهم، وبالجمله: ﴿تَرْهَقُهُمْ﴾ وتلحقهم ﴿ذِلَّةٌ﴾ محيطه بجميع جوانبهم ﴿وَأَمْ﴾ كيف لا يكونون كذلك يومئذ؛ إذ هم ﴿قَدْ كَانُوا﴾ في نشأة الاختبار ﴿يُذْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ﴾ حينئذ ﴿وَهُمْ سَالِحُونَ﴾ [القلم: 43] متمكنون قادرون عليه، فلم يفعلوا عنادًا ومكابرة ١٩ فالآن قد انقضى وقت الاعتبار، فلا ينفعهم التذلل والانكسار سواء قدروا أو لم يقدرُوا.

وبعدما بالغ المنكرون المكذبون في قدح القرآن وطعنه، وأصروا على العناد

والاستكبار.

﴿فَذَرْنِي﴾ أي: خلني يا أكمل الرسل ﴿وَو﴾ وفوض علي أمر ﴿مَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ﴾ يعني: القرآن، ولا تُتعب نفسك في معارضتهم ومجادلهم، ولا تعجل في أخذهم وانتقامهم، فإني أنتقم منهم، وأكفيك مؤنة شرورهم، فاعلم أنا ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ﴾ أي: نذنيهم درجة درجة إلى سوء العذاب بأن نهملهم في الدنيا، وننعم عليهم، ونديم صحتهم ونوفر عليهم أسباب الشقاوة حتى صاروا مغمورين في الكفر والطغيان، منهمكين في الضلال والعصيان، ثم نبطشهم ﴿مَنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾⁽¹⁾ [القلم: 44] أي: من جهة وطريقة لا يفهمون أنه من جهته وطريقه مكرًا عليهم، وزجرًا لهم.

﴿وَو﴾ بالجملة: ﴿أَفَلَيْ لَهُمْ﴾ وأمهلهم كيدًا عليهم، وهم لا يشعرون ﴿إِنْ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [القلم: 45] محكم لا يفهمه أحد، ولا يدفعه شيء.

أينكرون إرشادك وتبليغك إياهم عنادًا ومكيدة^{١٩} ﴿أَمْ﴾ يظنون أنك ﴿تَسْأَلُهُمْ أَجْزَاءً﴾ جملاً على إرشادك وتكميلك إياهم^{١٩} ﴿فَهُمْ مِّنْ مَّغْرَمٍ﴾ أي: من أجل غرامة ﴿مُثْقَلُونَ﴾ [القلم: 46] بحملها فيعرضون عنك، ويكذبونك بسببها.

﴿أَمْ﴾ يدعون الاطلاع على المغيبات، ويزعمون أن ﴿عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ﴾ أي: لوح القضاء ﴿فَهُمْ يَكُتُبُونَ﴾ [القلم: 47] منه جميع ما يحكمون به من الإقرار والإنكار، وبه يستغنون عن تعليمك وإرشادك؛ لذلك يكذبونك وينكرون عليك^{١٩}

وهم وإن بالغوا في العناد والإنكار ﴿فَاضْبِرْ﴾ أنت يا أكمل الرسل ﴿لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ وهو تأخير نصرك عليهم، وإمهالهم زمانًا على حالهم، ولا تستعجل في مواخذتهم ﴿وَلَا تَكُنْ﴾ في الاستعجال ﴿كَصَاحِبِ الْخُوْتِ﴾ يعني: أخاك يونس بن متى

(1) قال علاء الدولة: أي: يمهلهم قليلاً في رزق مكاشفاتهم النفسية ليزدادوا في إنكار اللطيفة، ويفتروا ببعض الكرامات التي هي عين المكر مما يقدر العدو على إتيان مثلها مثل المرور على الماء، والطيران في الهواء، والإسراف على الخواطر حتى يظن أنه عند الله من المكرمين، وينكر المقتدى فيأخذهم بغتة، وينزع منهم الآيات والأدوات، ويكشف عليهم أحوال زرعهم وحرثهم فصاروا عارفين بالمقتدى متحزين على قوات الوقت وضبايع الاستعداد معلبين أبد الآباد.

الْقَلَمِ، فاستعجل العذاب لقومه، ثم لما ظهرت أماراته خرج من بينهم مغاضباً عليهم حتى اقتحم البحر ﴿فَسَاهَمَ﴾ [الصافات: 141] في السفينة ﴿فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾ * فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ [الصافات: 141-142]، اذكر ﴿إِذْ نَادَى﴾ ربه في بطن الحوت ﴿وَهُوَ﴾ حيثُ ﴿مَكْظُومٌ﴾ [القلم: 48] مملوء غضباً وغيظاً، مبتلى بالبلاء العظيم.

﴿لَوْلَا أَنْ تَدَارَكُهُ﴾ أدركته ﴿نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ يعني: لو لم يوفقه سبحانه على نعمة التوبة، والإنابة والرجوع إليه على وجه الإخلاص والندامة ﴿لَنُبَذَ﴾ وطرح ألبتة ﴿بِالْعَرَاءِ﴾ أي: الأرض الخالية عن الشجر ﴿وَهُوَ﴾ حيثُ ﴿مَذْمُومٌ﴾⁽¹⁾ [القلم: 49] ملیم مطرود من الرحمة والكرامة.

لكن أدركته العناية الإلهية، وانفتح له باب التوبة والاستغفار على وجه الندم والانكسار، فاستغفر ربه وتاب عليه، وأجاب له تفضلاً عليه وامتناناً ﴿فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ﴾ أيضاً لمصلحة النبوة فأرسله إلى قومه ﴿فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [القلم: 50] الكاملين في الصلاح، الفائزين بالعصمة والفلاح.

(1) يذم ويلام بنزوله ويانحطاطه من مرتبة النبوة والولاية، وهذا سالك دعا على أممه على سبيل الضجارة بالعجلة وقت عروجه على معارج قلبه، ثم أخذ منه آلات الترقى بدعائه على أممه وطرح في جوف حوت الصدر فبقي فيه بحيث لا تزيد مرتبته ولا يترقى من حاله، وهذه حسرة عظيمة للسالك ولو ألهم في قلب السالك أنك وصلت إلى مدرة المنتهى متتهيك وأعطيت درجات جميع المقربين وليس لك الترقى بعد هذه المرتبة ينبغي أن يعري نفسه بترع الآلات والأدوات عنها ووقوفها في مرتبتها؛ لأن المراتب الإنسانية والدرجات النفسانية غير متتالية إذا دخل السالك في عالم اللاهوت كل ساعة ونفس ولمحة لا يترقى فيها السالك من مقامه فهو مغبون كما قال ﷺ: «من استوى يوماً فهو مغبون كل الغبن»، من رضي بالدون وكل ما سوى الحق فهو دون، فاحذر عن الهمة الدنية وعلبك بالهمة العلية، كما قال سلطان العارفين طيفور البسطامي - قُلِّمَ سرّه - ليحي بن معاذ الرازي حين سأله عن فضلات وارده الذي ورد عليه ليلة من الليالي وجاءه يحي وأراه في تلك الحالة فقام وراءه من إقباله إلى السحر وهو على تلك الحالة فلما أفاق والتفت سلم يحيي عليه وقال: أفض ما أفاض الله عليك، فقال: لو أعطاك الله درجات جميع الأنبياء والأولياء لا تقنع بها ولا تسكت عن الطلب؛ لأن عنده أكثر منها لا يتناهى أبد الأبدين ودهر الداهرين. [عين الحياة].

﴿و﴾ من غلظ غيظهم معك يا أكمل الرسل، وشدة شكيمتهم وضميقتهم بالنسبة إليك ﴿إِنْ يَكَادُ﴾ أي: إنه يقرب ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله، وسترُوا محامد أخلاقك، ومحاسن شيمك ﴿لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ﴾ أي: حين سمعوا منك تلاوة القرآن المعجز، وتعجبوا من بدائع نظمهم، وغرائب أسلوبه، وكمال فصاحته وبلاغته، ومتانة تركيباته الفائقة على تراكيب عموم أرباب اللسن والفصاحة، وعجائب معانيه التي قرعت أسماعهم؛ لذلك حسدوك خفية، وقصدوا مقتك بإصابة العين ﴿و﴾ إن كانوا ﴿يَقُولُونَ﴾ عند الملا: ﴿إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾ [القلم: 51] يتكلم بكلام المجانين، ما هو من جنس كلام الناس تلييسًا على ضعفاء الأنام، وتغريزًا لهم؛ لئلا يتفطنوا على عظمة شأنك، ورفعة قدرك ومكانك.

وهم في خلواتهم على ظنة تامة، وحسد كامل مما صدر منك وظهر عليك من الخوارق ﴿و﴾ كيف يقولون لك: مجنون، وينسبون كلامك إلى الجنون، مع أنه ﴿مَا هُوَ﴾ أي: القرآن المعجز الذي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ [فصلت: 42]، ﴿إِلَّا ذِكْرٌ﴾ هداية ورشد وتبصرة كاملة، وتذكير شامل ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ [القلم: 52] أي: لعموم المكلفين ممن يوفقهم الحق إلى صراط مستقيم.

جعلنا الله ممن تذكر به، واتعظ بما فيه بمنه وجوده.

خاتمة السورة

عليك أيها المرید القاصد لسلوك طريق التوحيد - هداك الله إلى سواء السبيل - أن تتصبر على مشاق الطاعات، ومتاعب التكاليف الواقعة في سلوك طريق الفناء، سيما أذيات الزائفين الضالين، المائلين عن سبيل الرشاد، المنحرفين عن جادة العدالة الإلهية، فعليك ألا تلتفت نحوهم، ولا تبال بشأنهم، ولا تستعجل بانتقامهم، فإن الله يكفي عنك مؤنة شرورهم، فعليك الاصطبار والوقار، والأمر بيد الله الحكيم الجبار، القدير القهار، فسيستقم من أهل البغي والإنكار على أبلغ وجه وآكده.

سورة الحاقة

فاتحة سورة الحاقة

لا يخفى على من تمكن في مقر التوحيد، وانكشف بوقوع الطامة الكبرى التي اندكت دونها الأرض والسموات العلى، وفنيت عندها هياكل الأشباح، واضمحلت هويات الأشياء أن ظهور عموم المظاهر إنما هو بحسب الأسماء الإلهية، والصفات الذاتية التي امتد وانبسط على مرآة العدم، وانعكس منها ما انعكس من سراب العالم، فإذا قبض الحق ما أبدى انقهرت ماهيات الأشياء، وتلاشت هوياتها الباطلة، ولم يبق إلا الحق الحقيقي بالحقية، الوحيد بالقيومية، الفريد بالديمومية، بحيث لا يعرضه تغيير وزوال، ولا يعتريه تبدل وانتقال.

لذلك أخبر سبحانه حبيبه ﷺ عن وقوع الحاقة الحقيقية الحقية، وأبهمها عليه ﷺ تهويلاً وتفخيماً لشأنها، فقال بعد التيمن: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ الذي ظهر على عموم ما ظهر وبطن إظهاراً للقدرة الغالبة ﴿الرَّحْمَنِ﴾ عليه بامتداد أظلاله للظهور والبروز ﴿الرَّحِيمِ﴾ عليه، يقبضها إلى ذاته للخفاء والبطون.

﴿الْحَاقَّةُ ١﴾ مَا الْخَافَةُ ٢﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ ٣﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهُ إِذِ انبَعَثَ ٤﴾ فَفُتِنَ ٥﴾ فَأَخْلَسَ ٦﴾ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُخْلِسُوا بِطَغْوَاهُ ٧﴾ وَأَمَّا عَادُ فَأُخْلِسُوا بِطَغْوَاهُ ٨﴾ وَأَمَّا عَادُ فَأُخْلِسُوا بِطَغْوَاهُ ٩﴾ وَأَمَّا عَادُ فَأُخْلِسُوا بِطَغْوَاهُ ١٠﴾ وَأَمَّا عَادُ فَأُخْلِسُوا بِطَغْوَاهُ ١١﴾ وَأَمَّا عَادُ فَأُخْلِسُوا بِطَغْوَاهُ ١٢﴾ وَأَمَّا عَادُ فَأُخْلِسُوا بِطَغْوَاهُ ١٣﴾ وَأَمَّا عَادُ فَأُخْلِسُوا بِطَغْوَاهُ ١٤﴾ وَأَمَّا عَادُ فَأُخْلِسُوا بِطَغْوَاهُ ١٥﴾

﴿الْحَاقَّةُ﴾⁽¹⁾ [الحاقة: 1] أي: النشأة الأخرى التي ظهرت فيها حقبة الحق وثبوته، وتحقق دونها من على الحق، وفاز بجزائه، واستقر في دار السرور، ومن على الباطل ولحق العذاب المعد له، واستقر على الويل والشبور، ثم استفهم سبحانه عنها تهويلاً وتعظيماً فقال: ﴿مَا الْحَاقَّةُ﴾ [الحاقة: 2] التي انقهرت دونها أطلال الأغيار، وأشباح العكوس والسوى مطلقاً، وبروز الله الواحد القهار؟.

ثم زاد سبحانه على تهويلها بأن نفاها عن إحاطة علم حبيبه ﷺ الذي جاء من عنده رحمة للعالمين إياها، فقال: ﴿وَمَا أَذْرَاكَ﴾ أي: وأي شيء أعلمك وأفهمك يا أكمل الرسل ﴿مَا الْحَاقَّةُ﴾ [الحاقة: 3] التي طويت دونها نفوس الكثرات والإضافات مطلقاً، وفنيت عندها عكوس الأسماء والصفات رأساً؟ وبالجملية: انقهرت رسوم الناسوت، ولم يبق إلا الحي القيوم اللاهوت، ولا شك أنه متعال عن مطلق الإدراك والاطلاع المترتب على نشأة الناسوت.

قال سبحانه على سبيل التوبيخ والتقريع للمكذبين بها والمنكرين عليها: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ﴾ [الحاقة: 4] أي: بالحاقة التي يقرع الأسماع سماع أهوالها، ويدهش العقول ذكر أفزاعها.

﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ﴾ [الحاقة: 5] أي: بسبب طغيانهم بالكذب المتجاوز عن الحد، أهلكوا بصيحة هائلة مجاوزة عن حد الصباح. ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ﴾ باردة في غاية البرودة ﴿عَاتِيَةٍ﴾ [الحاقة: 6] شديدة العصف، بحيث لا يقدرّون على دفعها وردها أصلاً.

حين ﴿سَخَّرَهَا﴾ وسلطها ﴿عَلَيْهِمْ﴾ سبحانه بمقتضى قهره وانتقامه ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ متابعات مترادفات، قاطعات قالات ﴿فَتَرَى﴾ أيها المعتبر الرائي

(1) قال السمناني: يعني: حقت القيامة الواقعة في السر الذي فيه خوارق الأمور، وحقائقها أن يعتبر بها؛ يعني: مستحاقة الوجود عن الأباطيل، ومحاقة الوجود الحادّث بحيث لا يبقى إلا الوجود الحقيقي في الوجود المطلق، وفي أثر هذه القيامة قال أستاذ الطريقة الجنيد البغدادي قدّس سرّه: ليس في الوجود إلا الله الحاقة الأولى هي المستحاقة، والثاني نية هي المحاقة، والثالثة هي الحاقة التي تحقّ حقوقها وتظهر الحقائق المودعة في جميع القوى والمفردات واللطائف، ولم يطلع أحد عليها إلا بعد الوصول إليها، ومطالعته عياناً.

﴿الْقَوْمَ فِيهَا﴾ أي: في تلك الأيام والليالي ﴿صَزَعَى﴾ هلكى ﴿كَأَنَّهُمْ أَغْجَازُ نَحْلِ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة: 7] ساقطة عن أصولها، لا جوف لها.

﴿فَهَلْ تَرَى لَهُمْ﴾ أي: ما ترى لهم بعد تلك الأيام ﴿مَنْ بَاقِيَةٍ﴾ [الحاقة: 8] أي: لم يبق منهم نفس لها حياة بعد تلك الواقعة الهائلة.

﴿وَوَ﴾ بعد انقراض هؤلاء الغواة الطغاة، الهالكين في تيه الجهل والعناد ﴿جَاءَ فِرْعَوْنُ﴾ الطاغى المجاوز عن الحد والبغي والعدوان ﴿وَمَنْ قَبْلَهُ﴾ ويقدم عليه من الأمم الباغية، أو من معه من ملئه وأشرافه - على القراءتين - ﴿وَوَ﴾ جاء أيضا ﴿الْمُؤْتَفِكَاتُ﴾ هي قرى قوم لوط ~~الظلمات~~ والمراد: من فيها كلهم جاءوا ﴿بِالْخَاطِئَةِ﴾ [الحاقة: 9] المعهودة التي هي إنكارهم بيوم الحاقة الحققة على وجه المبالغة.

وبعدما جاء الرسل إليهم بالوحي ﴿فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ﴾ أي: عصى كل أمة برسولها المبعوث إليهم؛ ليهديهم إلى طريق الرشاد، فكذبوه واستهزءوا معه، وبالغوا في تكذيبه وعصيانه سبحانه ﴿فَأَخَذَهُمْ﴾ سبحانه ﴿أَخَذَهُ زَابِيَةً﴾ [الحاقة: 10] زائدة شديدة على مقتضى ما ازدادوا في العصيان والتكذيب.

اذكر يا أكمل الرسل شدة أخذنا إياهم ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ﴾ بعدما أمرناه بالطغيان في يوم الطوفان ﴿حَمَلْنَاكُمْ﴾ أي: آباءكم الذين آمنوا بنوح ~~عليه السلام~~، وأنتم في أصلابهم ﴿فِي الْجَارِيَةِ﴾ [الحاقة: 11] ⁽¹⁾ أي: السفينة التي صنعها نوح بتعليمنا إياه قبل الطوفان

(1) الإشارة فيه أنه لما أوجد الله الأرواح قبل الكون أتى بها شط قاموس كشف ذاته وصفاته، فشريت الأرواح زلال أنهار القرية، وشراب الوصلة، وسمعت خطاب الألوهية، وسكرت من حلاوة الجمال والجلال، وهاجت إلى لحجها، وكادت تستغرق وتغنى فيها حين علا عليها أمواج سطوات العزة، ولطمات العظمة حملها الله هناك بعض العناية لتجري بها من الأزال إلى الأباد، ومن الأباد إلى الأزال، فلما دار دور الدهر ~~للدهار~~ وجرى جري الفلك الدوار وخلق الكون جعل لها سفينة صورة آدم، وحمل بها الأرواح الغيبية الملكوتية، فتجري بها إلى معادنها الأولية، قال القاسم: الأجسام لم تكن، والأرواح لا تحمل الجاري، وإنما هو جريان الحق بشرط الاتسام إذا عاينت الروح هذه المقامات عرفت سره. قال الواسطي: أحد شقي آدم، وأخرج منه اللرية. قال: حملناكم بشواهدنا، وأجرينا لكم الأوقات على مقاديرنا. وقال الأستاذ: ذلك متبوع على خواص أوليائه أن يسلمهم في سفينة العافية، والكون يتلاطم أمواج بحار أشغالها على اختلاف أوصافها، وهم بوصف السلامة لا منازعة مع كل واحد، ولا محاسبة مع أحد، ولا توقع من أحد، سالمون من الناس، والناس منهم سالمون. [المرائس].

بمدة، وأغرقنا الكفرة بأجمعهم إلى حيث لم يبق على الأرض سوى أصحاب السفينة
أحد من البشر.

وإنما حملناكم عليها وأنجيناكم بها ﴿لِنَجْعَلَهَا﴾ أي: هذه الفعلة الجميلة التي
هي نجاة المؤمنين من الطوفان العظيم ﴿لَكُمْ﴾ أيها المستخلفون المكلفون ﴿تَذَكُّرَةً﴾
عظة وعبرة، وتبصرة دالة على كمال قدرة الصانع الحكيم، ومثانة حكمته ﴿وَتَعِيَهَا﴾
أي: تستحضر بها وتحفظها؛ أي: هذه التذكرة والتبصرة الكاملة ﴿أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ [الحاقة:
12] ⁽¹⁾ حافظة للعبير والتذاكير المورثة للقلوب الصافية الخائفة خيراً كثيراً، ونفعاً كبيراً.

وبعدما بالغ سبحانه في وصف القيامة، وشرح أهوالها وأحوالها، وذكر حال من
كذب بها، ومآل أمره، أراد أن يشرح ما ظهر فيها من الأمور الهائلة والوقائع العظيمة
عند قيامها، فقال: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ [الحاقة: 13] وهي النفخة
الأولى التي عندها خراب العالم.

﴿وَوَ﴾ بعد ظهور النفخة الأولى ﴿حُمِلَتْ﴾ ورفعت ﴿الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ﴾ من
أماكنها التي استقرتا عليها بأن أمر عليهما سبحانه بالتسير والاضطراب بمقتضى القدرة
الغالبية ﴿فَذُكَّتَا﴾ انكسرتا وانبطنتا، فصارتا ﴿ذَكَّةً وَاحِدَةً﴾ [الحاقة: 14] أي: قاعاً
صفصفاً، مساواة ملساء لا عوج لها ولا أمثا.

﴿فَيَوْمَئِذٍ﴾ أي: حين وقوع هذه الحالة الهائلة ﴿وَوَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ [الحاقة: 15]
وقامت القيامة الكبرى، والطامة العظمى.

﴿وَأَنشَقَّتِ السَّمَاءُ فِي يَوْمِذٍ وَاهِيَةٍ﴾ ١٦ ﴿وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ﴾
يَوْمِذٍ ثَمْنِيَّةٍ ١٧ ﴿يَوْمِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾ ١٨ ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوْرِكَ كِتَابُهُ يَمِينُهُ فَيَقُولُ﴾
هَآؤُمُ أَقْرَبُ وَكِتَابِي ١٩ ﴿إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَّةٍ﴾ ٢٠ ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ ٢١ ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ خَرُوجُهُمْ خَازِنٌ﴾
٢٢ ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾ ٢٣ ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا لَهَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ ٢٤ [الحاقة:
16 - 24].

﴿وَأَنشَقَّتِ السَّمَاءُ﴾ أي: انحلت الشامها وتضامها، وتضعضت بنيانها وأركانها

(1) أي حافظة لما جاء من عند الله. وقيل أذن سمعت وعقلت ما سمعت وقيل لتحفظها كل أذن
فتكون عظة وعبرة لمن يأتي بعد والمراد صاحب الإذن والمعنى ليعتبر ويعمل بالموعظة. تفسير
الخازن (6/ ص 153).

﴿فِي يَوْمٍ ذُو مَعَادٍ﴾ [الحاقة: 16] ضعيفة منهدمة، منحلة الأجزاء.

﴿وَالْمَلَكُ﴾ أي: جنس الملك ينزلون ﴿عَلَى أَرْجَائِهَا﴾ أقطارها وأنحائها بعدما كانوا في حافاتنا وحوافها ﴿وَوَ﴾ بعد تخريب السماوات وانهدامها ﴿يَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿فَوْقَهُمْ﴾ أي: فوق الملائكة النازلين على الأرجاء ﴿يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾⁽¹⁾ [الحاقة: 17] من الملائكة بعدما كانوا قبل ذلك أربعة؛ إذ حملة العرش في النشأة الأولى أربعة، وفي النشأة الأخرى ثمانية، كما أشار إليه ﷺ في الحديث، كأنه أشار بالأربعة إلى أمهات الصفات الإلهية التي هي: الحياة، والعلم، والقدرة، والإرادة، وبالثمانية إلى مجموع الصفات الذاتية.

وبالجملة: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ﴾ أيها الأظلال الهالكة على الله عرض العسكر على السلطان، بحيث ﴿لَا تَخْفَى﴾ وتستتر ﴿مِنْكُمْ﴾ في يوم العرض ﴿خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة: 18] سر مستور محجوب على الله؛ حتى يكون العرض للإطلاع، بل الكل في حضرة علمه حاضر غير مغيب ومخفي، وإنما تعرضون؛ ليظهر كمال القسط والعدالة الإلهية بالنسبة إلى عموم العباد حتى ظهر أن الحجة البالغة لله.

ثم فصل سبحانه أحوال العباد في الحساب والجزاء، وإتيان صحف أعمالهم؛ ليطالعوا فيها جميع ما اقترفوا في نشأة الاختبار، فقال: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ لمن حوله فرحاً مسروراً: ﴿هَآؤُمْ أَقْرَأُوا كِتَابِيَّةً﴾ [الحاقة: 19] أي: تعالوا اقرءوا كتابي.

﴿إِنِّي ظَنَنْتُ﴾ في النشأة الأولى ظناً متهاً إلى الجزم واليقين ﴿أَنِّي﴾ اليوم

(1) يعني: يحمل حقيقة العرش الروحاني حقائق الصفات الثمانية فوق القوى القلبية، والذي جاء في الحديث أنهم اليوم أربعة فإذا كان يوم القيامة أيدهم الله بأربعة أخرى، هي أربعة حروف سوادية التي الآن حافظة صورة عرش كلمة الله، فإذا جاءت القيامة أيدهم الله بأربعة حروف بياضية ليحفظ حقيقة عرش كلمة الله في تلك الساعة؛ ولهذا السر تبقى النفوس المتألمة والمتنعة في العقبي خالداً، وحقيقتها تتعلق بحد القرآن، فاختصرت على هذا الذي بينت لك مما لم يبينه قبلي أحد قط، واغتنم بهذا البيان، واشتغل بالسلوك في الطريقة المستقيمة المسلوكة بالأقدام الثابتة على الصراط المستقيم، وهو متابعة نبيه الكريم صاحب الخلق العظيم ﷺ وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان الثابتين على الدين القويم، وهم الذين جمعوا بين ظاهر القرآن وباطنه، وآمنوا بمحكمه ومتشابهه، ومما أولوه من عند أنفسهم برأيهم العليل وعلمهم القليل. [عين الحياة].

﴿مُلَاقٍ حِسَابِيَّةٍ﴾ [الحاقة: 20] على الوجه الأحسن، وبواسطة إيقاني وجزمي، كنت أخاف ألا يصدر مني شيء أعاقب بسببه.

﴿فَهُوَ﴾ حيثُ ﴿فِي عَيْشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ [الحاقة: 21] صاحبها عنها؛ لكونها صافية عن مطلق الكدورات.

﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ [الحاقة: 22] رفيعة مكانًا ومكانة.

﴿قُطُوفُهَا﴾ ثمارها ﴿ذَانِيَةٍ﴾ [الحاقة: 23] قريبة لمن ناولها، مهما أراد تناولها ناولها بلا مشقة وتعب.

ويقال لهم حيثُ: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ من ثمار الجنة ومائها ﴿هَنِيئًا﴾ سائغًا مريثًا، كل ذلك ﴿بِمَا أَسْلَفْتُمْ﴾ وقدمتم لأنفسكم من الأعمال الصالحة ﴿فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: 24] الماضية في نشأة الاختبار، فيصور لكم بهذه الصور البديعة في النشأة الأخرى.

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِي﴾ ٢٥ ﴿وَلَمْ أَذِرْ مَا حِسَابِي﴾ ٢٦ ﴿يَلَيْتَنِي كَانَتْ الْقَاضِيَةَ﴾ ٢٧ ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِي﴾ ٢٨ ﴿هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَّةٌ﴾ ٢٩ ﴿خَذُوهُ قُلُوبُهُ﴾ ٣٠ ﴿ثُمَّ لَنُحِجِمَنَّ﴾ ٣١ ﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ﴾ ٣٢ ﴿إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِآلِهِ الْعَظِيمِ﴾ ٣٣ ﴿وَلَا يَحْضُرُ عَلَىٰ طَعَامِ الْمُسْكِينِ﴾ ٣٤ ﴿فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هُنَا حَمِيمٌ﴾ ٣٥ ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِن غَنِينٍ﴾ ٣٦ ﴿لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ﴾ ٣٧ ﴿[الحاقة: 25 - 37].﴾

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ﴾ بعدما رأى تفصيل المعاصي والمقاييس الصادرة منه في نشأة الاعتبار، متمنيًا متحسرًا من كمال الضجرة والأسف المفرط: ﴿يَلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِي﴾ [الحاقة: 25] هذا.

﴿وَلَمْ أَذِرْ مَا حِسَابِي﴾ [الحاقة: 26] فيه.

﴿يَلَيْتَنِي كَانَتْ﴾ هذه الحالة الآتية علي ﴿الْقَاضِيَةَ﴾ [الحاقة: 27] الفارقة الفاصلة بيني وبين الحياة، بحيث لم أصر حيًا بعد هذه الحالة؛ حتى لا أفتضح على رؤوس الأشهاد.

ثم قال متأسفًا متحسرًا على ما مضى عليه: ﴿مَا أَغْنَىٰ﴾ ودفع ﴿غَنِيَّ﴾ العذاب

﴿مَالِيَةٍ﴾⁽¹⁾ [الحاقة: 28] أي: ما نُسب إلي من الأموال والأولاد والأتباع.

بل ﴿هَلَكٌ﴾ وضاع ﴿عَنِّي﴾ اليوم ﴿سُلْطَانِيَّةٌ﴾ [الحاقة: 29] أي: تسلطني على الناس، وتفوقي على الأقران.

وهو في أمثال هذه الهواجس على سبيل الحسرة والضجرة، قيل للموكلين من قِبَل الحق: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ﴾ [الحاقة: 30] بالأغلال الضيقة الثقيلة.

﴿ثُمَّ الْجَحِيمُ﴾ العظيم المعهود الذي يُعد لأصحاب الثروة من الكفرة ﴿صَلُّوهُ﴾ [الحاقة: 31] واطرحوه.

﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا﴾ قدرها طولاً: ﴿سَبْعُونَ ذِرَاعًا﴾ بذراع لا يعرف طولها إلا الله ﴿فَأَنسَلْكُوهُ﴾ [الحاقة: 32] وأدخلوه وألقوه بها، بحيث يصير محفوفاً بها، لا يقدر على الحركة أصلاً.

وكيف لا يُعذب كذلك ﴿إِنَّهُ﴾ من كمال نخوته وتجبره ﴿كَأَن لَّا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ﴾ [الحاقة: 33] المستحق للعبودية والإيمان عتوا وعناداً؟!

ولاشك أن من تعظم على الله العلي العظيم فقد استحق أعظم العذاب، واستوجب أشد النكال.

﴿وَهُ﴾ مع ذلك ﴿لَا يَخْضُ﴾ أي: لا يحب ولا يرضى ﴿عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ﴾ [الحاقة: 34] إن أطعمه أحد فضلاً أن يطعمه هو نفسه من ماله.

﴿فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا﴾ أي: في يوم العرض والجزاء ﴿حَمِيمٌ﴾ [الحاقة: 35] قريب من أقاربه يحميه ويشفع له، كما في الدنيا.

﴿وَلَا طَعَامٌ﴾ يأكله ويشبع منه ﴿إِلَّا مِنْ غِثْلَيْنِ﴾ [الحاقة: 36] أي: غُسالَة أهل النار، وما يسيل منهم من القيح والصديد.

(1) قال علاء الدولة: ما ينفعني الاستعداد الذي حصل في مملكة وجودي، وهذا عذاب يختص بالمجاهدين السالكين الذين سلكوا الطريق من غير إرشاد المرشدين المتصل إرشاده بالنبي الهادي عليه السلام، يعني: سلك الطريق برأيه وعقله وفكره وحديثه لا من إلهام رباني ووالد رحماني، يتمنى صاحبه أنه كان ميتاً في قلبه قبل اشتغاله بالسلوك ورفع بعض الحجب بكثرة مجاهدته، كما أن العوام مبعدين عن إدراك هذه الآلام مشتغلين بهوى أنفسهم لكثافة حجبتهم الظلمانية القلبية والنفسية.

وبالجملة: ﴿لَا يَأْكُلُهُ﴾ أي: الغسلين ﴿لَا الْخَاطِثُونَ﴾ [الحاقة: 37] أي: أصحاب الخطايا والعصيان العظام، والجرائم الكبيرة والآثام.

﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ﴾ (٢٨) ﴿وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾ (٢٩) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٣٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٣١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذْكُرُونَ ﴿٣٢﴾ نَزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ ﴿٣٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٣٥﴾ ثُمَّ لَقَطْنَا مِنْهُ الْوَيْنَ ﴿٣٦﴾ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِيزٍ ﴿٣٧﴾ وَإِنَّهُ لَتَذِكْرٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُّكَذِّبِينَ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٤٠﴾ وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ ﴿٤١﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٤٢﴾ [الحاقة: 38 - 52].

وبعد ما شرع سبحانه من أحوال يوم القيامة وأحوالها وأفزاعها، وما جرى فيها من الوعيدات الهائلة، والمصيبات الشديدة الشاملة، فرّع عليه قوله: ﴿فَلَا أُقْسِمُ﴾ أي: لا حاجة في إثبات ما ثبت، وتبيين ما بين بالقسم ﴿بِمَا تُبْصِرُونَ﴾ [الحاقة: 38] من المظاهر والمجالي.

﴿وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾ [الحاقة: 39] منها من المقسمات التي لم تُطلع أحدًا عليها، فعليكم أيها المكلفون أن تتوجهوا إلى القرآن المنزل عليكم على سبيل التبيان والبيان فتعتقدوا جميع ما فيه حقًا صدقًا، وتمثلوا بأوامره، وتجنبوا عن نواهيه.

﴿إِنَّهُ﴾ أي: القرآن ﴿لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [الحاقة: 40] نفسه، لا يتأتى منه المراء والافتراء على الله؛ إذ هو منزّه عن أمثال هذه الرذائل المنافية لمنصب الرسالة التي هي مرتبة الخلافة والنبابة عن المرسل الكريم.

﴿وَمَا هُوَ﴾ أي: القرآن ﴿بِقَوْلِ شَاعِرٍ﴾ كما يقوله في حقه بعض الكفرة الجاهلين بقدره وشأنه، لكن ﴿قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾ [الحاقة: 41] بصدقه وحقيقته؛ لفرط عنادكم واستنكاركم.

﴿وَلَا﴾ هو ﴿بِقَوْلِ كَاهِنٍ﴾ كما زعم بعضهم أن محمدًا ﷺ كاهن، لكن ﴿قَلِيلًا مَّا تَذْكُرُونَ﴾ (١) [الحاقة: 42] وتتعظون أن ما فيه ليس من جنس كلام الكهنة، لا لفظًا ولا

(١) يعني: القوي النفسية المعاندة لا تذكر أصلاً أن اللطيفة كانت معنا من قبل ورود الوارد، وما قالت معنا شيئاً من هذا وما أمرتنا لاتباع لها وقت الطفولية إلى وقت البلوغ، فالذي تقول في هذا

معنى؛ إذ ما في القرآن من السرائر والأحكام، مشعرة بالحكمة المتقنة الإلهية التي هي بمراحل عن أحلام الكهنة المنحرفين عن جادة التوحيد والإسلام.

بل هو ﴿تَنْزِيلٌ﴾ صادر ناشئ ﴿مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الحاقة: 43] لتربية الكل على مقتضى الحكمة؛ ليستعدوا إلى فيضان التوحيد واليقين.

﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ﴾ أي: اختلق وافترى ﴿عَلَيْنَا﴾ محمد ﴿بَغْضِ الْأَقَاوِيلِ﴾ [الحاقة: 44] من تلقاء نفسه بلا وحي منا.

﴿لَا أَخَذْنَا﴾ ألبته وانتقمنا ﴿مِّنْهُ بِالْيَمِينِ﴾ [الحاقة: 45] أي: بالقدرة الكاملة، كما نتقم من سائر العصاة والمفترين.

﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ﴾ زجراً عليه، وتعذيباً له ﴿الْوَتِينَ﴾ [الحاقة: 46] أي: نياط قلبه الذي منه عموم إدراكاته.

﴿فَمَا مِنْكُمْ﴾ أيها المكلفون ﴿مَنْ أَحَدٌ﴾ حيثُ ﴿عَنْهُ﴾ أي: عن أخذه وعذابه ﴿حَاجِزِينَ﴾ [الحاقة: 47] مانعين، يمنعونا عن بطشه وتعذيبه؛ يعني: إن محمداً ﷺ لا يفترى علينا شيئاً لأجلكم أيها الكافرون، وهو ﷺ يعلم منا أنه لو افترى علينا شيئاً من تلقاء نفسه، ونسبه إلينا ظلمًا وزورًا لعذبناه عذاباً شديداً، بحيث لا يقدر أحد أن يدفع عذابنا عنه.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿إِنَّهُ﴾ أي: القرآن ﴿لَتَذَكُّرَةٌ﴾ صادرة منا، متعلقة ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [الحاقة: 48] المتحفظين أنفسهم عن مقتضيات قهرنا وجلالنا.

﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ﴾ بمقتضى علمنا الحضورى ﴿أَنَّ مِنْكُمْ مُّكَذِّبِينَ﴾ [الحاقة: 49] أيها الكافرون المفترون، فنجازيكم على مقتضى تكذيبكم.

﴿وَإِنَّهُ﴾ أي: القرآن ﴿لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الحاقة: 50] في الدنيا والآخرة، يتحسرون في الدنيا من نزوله على المؤمنين وإن كانوا لا يظهرون، ويتحسرون أيضاً في الآخرة بترتب الثواب على من صدقه وآمن به، وهم حيثُ يتحسرون ويتندمون على عدم الإيمان والتصديق به.

﴿و﴾ بالجملة: ﴿إِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ﴾ [الحاقة: 51] بالنسبة إلى من وصل إلى مرتبة اليقين الحقي، مترقيًا من اليقين العلمي والعيني.

﴿فَسَبِّحْ﴾ يا أكمل الرسل من وصل بمرتبة حق اليقين ﴿بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾⁽¹⁾ [الحاقة: 52] الذي ربك على الخلق العظيم، وأوصلك إلى روضة الرضا وجنة التسليم بلطفه العميم.

خاتمة السورة

عليك أيها الموحد المحمدي، المتحقق بمرتبة حق اليقين - مكنك الله عليها بلا تذبذب وتلوين - أن تتأمل في مرموزات القرآن، وتتدبر في كشف السرائر المودعة فيه بقلب خالٍ عن مطلق الوساووس والأوهام، صافٍ عن الكدورات الحاصلة من تقليدات ذوي الأحلام الخائضين فيه بمقتضى الآراء والأفهام الركيكة بلا تأييد من جانب الحكيم العلام، فلك أن تتوجه إليه بقلب حاضر غائب فارغ عن عموم الأشغال، مائل عن مطلق الزيغ والضلال الواقع فيه من أصحاب الظواهر القانعين منه بالقليل والقال بحسب تفاهم عرفهم.

ولياك إياك أن تكتفي بمجرد منطوقات الألفاظ، وتقتصر عليها بلا خوض في تيار بحاره الزخارات التي هي مملوءة بدرر المعارف والحقائق الموصلة إلى مرتبة حق اليقين.

وإذا خضت وغصت فيه على الفرصة المذكورة، واستخرجت من درر فوائده بقدر حوصلتك واستعدادك، حق لك أن تقول حيثئذ: ﴿وَلَا إِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ﴾ [الحاقة: 51] وأن تكون مرجعًا للخطاب الإلهي بقوله: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ [الحاقة: 52].

(1) يعني: بعد وصولك إلى هذه الحالة فتزه باسم ربك العظيم، وهو الله مجازي ذكره الكريم، واشتغل بالذكر الخفي في هذا المقام بتزيهك مجازي الذكر، وتزيهك مجازي الذكر فقدان وجودك بوجدان وجودك الحق، لتصل إلى حقيقة حق اليقين إن شاء الله رب العالمين. [عين الحياة].

سورة المعارج

فاتحة سورة المعارج

لا يخفى على من انكشف له الحجب، وارتفع عن بصر بصيرته السدل والأغشية المانعة عن الاطلاع والشهود بوجه الحق الكريم أن المراقبي والمعارج من حضيض الإمكان الذي هو عبارة عن مضيق عالم الناسوت نحو ذروة الوجوب التي هو عبارة عن فضاء عالم اللاهوت أكثر من أن تُعدّ وتُحصى.

لكن المنجذبين نحو الحق من أرباب المحبة والولاء، وهم الذين شملت لهم العناية الأزلية، وأدركتهم الكرامة السرمدية، بحيث رفعت عنهم الأغشية والحجب الظلمانية، وطويت دونهم مطلق المسافات إلى أن صار سيرهم من عالم الناسوت نحو فضاء اللاهوت سيرًا كافيًا، وعروجهم نحوه عروجًا معنويًا، وتحقيقهم عنده إنما هو بالفناء والموت الإرادي عن لوازم الهوية الصورية، وبالانخلاع عن مقتضيات القوى البشرية.

فمن كان شأنه هكذا لا يكال معارج ترقيه بمكيال الزمان والآن، وما يتركب منهما ويتفرع عليهما من مطلق المقادير التي يقدر بها عموم التقادير.

أما المحجوبون المقيدون بسلاسل الزمان وأغلال المكان، المعذبون بنيران الإمكان ولوازم نشأة الناسوت فلا مخلص لهم عن مقتضيات الطبائع والأركان، ولوازم بقعة الإمكان، كما أخبر سبحانه حبيبه ﷺ، حيث قال بعد التيمن: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ الذي كشف ذاته على أرباب المحبة والولاء بعد رفع الحجب والغطاء ﴿الرَّحْمَنِ﴾ عليهم، يوفقهم بالصعود إلى عالم الأوصاف والأسماء ﴿الرَّحِيمِ﴾ لهم، يوصلهم إلى مرتبة البقاء بعد الفناء.

- ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝١ لِّلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ۝٢ مِّنْ آلِهِ ذِي الْمَعَارِجِ ۝٣ تَنزِيلُ الْمَلَكِ سَكَّةٌ ۝٤ وَالرُّوحُ إِتْرُوفٌ يَّوْمَ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ۝٥ فَاصْبِرْ صَبْرًا جَبِيلًا ۝٦ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ۝٧ وَنَرَاهُ قَرِيبًا ۝٨ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْهَيْلِ ۝٩ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ۝١٠ وَلَا يَنْتَلِ حِمِيمٌ حِمِيمًا ۝١١ يَصْرُوهُنَّ يَوْمَذِي الْمُنْجَرِمِ ۝١٢ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابٍ يَوْمَئِذٍ بِبَنِيهِ ۝١٣﴾

وَصَجَّيْتَهُ وَأَخِيهِ ⑫ وَفَصَّلْتَهُ إِلَى تَنْوِيدِ ⑬ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ ⑭ كَلَّا إِنَّا نَحْمِلُ ⑮
نَزَاعَةَ لَشَوَى ⑯ تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى ⑰ وَجَمَعَ فَأَوْعَى ⑱ [المعارج: 1 - 18].

﴿سَال سَائِل﴾ أي: جرى على سبيل السيل والطغيان وادي الإمكان مملوءاً
﴿بِعَذَابٍ﴾ أي: أنواع من العذاب الهائل ﴿وَأَقْبَعَ﴾ [المعارج: 1].

﴿لِلْكَافِرِينَ﴾ الساترين بطبائعهم الكثيفة، وهوياتهم الباطلة السخيفة شمس الحق
الظاهرة في الأنفس والآفاق بمقتضى الاستحقاق إلى حيث ﴿لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ﴾ [المعارج: 2]
يرده ويدفعه عنهم.

﴿مِنْ اللَّهِ﴾ أي: من قبله وجهته؛ لتعلق مشيئته ومضاء قضائه المبرم على وقوعه
لأعدائه، مع أنه سبحانه ﴿ذِي الْمَعَارِجِ﴾ [المعارج: 3] والدرجات العلية، والمقامات
السيئة من القرب والكرامات لأوليائه.

﴿تُغْرَجُ الْمَلَائِكَةُ﴾ أي: حوامل آثار الأسماء والصفات الإلهية من مجردات
العالم السفلي ﴿وَالرُّوحُ﴾ الفائض من لدنه سبحانه على هياكل الهويات من ماديات
عالم الطبيعة، والأركان القابلة لآثار العلويات من الأسماء والصفات المسماة بالأعيان
الثابتة ﴿إِلَيْهِ﴾ أي: إلى الذات البحت الخالص عن مطلق القيود والإضافات بعدما
جذبه الحق، وأدركته العناية الإلهية مترقياً من درجة إلى درجة ﴿فِي يَوْمٍ﴾ وشأن لا
كأيام الدنيا وشئونها، وإن قسته إلى أيام الدنيا، وأضفته إلى المسافة الدنيئة الدنيوية
﴿كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾⁽¹⁾ [المعارج: 4] من سني الدنيا، إلا أنهم يقطعونها
بعد ورود الجذبة الإلهية، كالبرق الخاطف في أقصر من لمحة وطرفة.

وبعدما انكشف لك الأمر ﴿فَاضْبِرْ﴾ يا أكمل الرسل على أذيات الأعداء
واستهزائهم ﴿صَبْرًا جَمِيلًا﴾ [المعارج: 5] لا يشوبه قلق واضطراب، وضجرة وسامة،

(1) قال البقلي: افهم أن للملائكة والروح مقامات معلومة في عالم الملكوت، فإذا عرجت الملائكة
من مسقط الأمر إلى مصعد المعلوم يكون بيوم كان مقداره عندنا خمسين ألف سنة، وهم
يعرجون بأقل ساعة، وليس للحق مكان ومنتهى، إن الخلق يعرجون بل إن ظهور عزته وجلاله
في كل ذرة عيان، فإذا رفعت القرب والبعد من حيث المسافة وأدرجت الأوهام لم يكن بين
الحق وبين الروح وصول الحق بأقل طريقة، فإن الوصول منه وهي قريب غير بعيد. قال سهل:
تخرج الملائكة بأعمال بني آدم إلى الله، والروح إليها ناظر في ذلك المشهد.

واستعجال للانتقام، وترقب بالعذاب على وجه التهتك، فإنه سيصيب لهم العذاب الموعود عن قريب.

﴿إِنَّهُمْ﴾ بمقتضى إنكارهم وإصرارهم ﴿يَزُودُهُ﴾ أي: نزول العذاب ﴿بَعِيدًا﴾ [المعارج: 6] في غاية البعد إلى حيث يعتقدونه محالاً خارجاً عن حد الإمكان.

﴿وَنَرَاهُ قَرِيبًا﴾ [المعارج: 7] من لمح البصر، بل هو أقرب منهم.

اذكر لهم يا أكمل الرسل كيف يعملون ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ﴾ من القهر الإلهي ﴿كَالْمُهْلِ﴾ [المعارج: 8] أي: كالفضة المذابة، يسيل من مكانها من غاية الخشية الإلهية.

وتكون الجبال الملونة بالألوان المختلفة بعدما شمله النظر القهري الإلهي ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ﴾ [المعارج: 9] أي: كالصوف المصبوغ المندوف تذروه الرياح حيث شاءت.

﴿وُ﴾ حيثُ ﴿لَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ [المعارج: 10] أي: لا يسأل قريب عن قريب، وصديق عن صديقه، بل يومئذ ﴿يَفْقُرُ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ﴾ [عبس: 34.35].

وبالجملة: لا يلتفت أحد إلى أحد من شدة هوله وشغله بحاله إلى حيث ﴿يَبْصُرُونَهُمْ﴾ وينبهون عليهم من حال أقاربهم؛ ليرقوا لهم، وهم لا يلتفتون إليهم ولا يرقون لهم، بل ﴿يُودُّ﴾ ويحب ﴿الْمُجْرِمُ﴾ حيثُ متمنياً ﴿لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابٍ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ﴾ [المعارج: 11] الذين هم أحب وأعز عليه من نفسه في دار الدنيا.

﴿وُ﴾ كيف لا يود أن يفتدي بأحب الناس إليه بعد بنيه ﴿صَاحِبِيهِ وَأَخِيهِ﴾ [المعارج: 12] ١٩

﴿وَفَصِيلَتِهِ﴾ أقاربه وعشائره ﴿الَّتِي﴾ تؤويه؛ أي: تضمه إلى نفسه وقت حلول الشدائد ونزول الملهمات، بل ﴿تُؤْوِيهِ﴾ [المعارج: 13].

﴿وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ يعني: بل يود ويرضى أن يفتدي عن نفسه جميع من في الأرض من الثقلين ﴿ثُمَّ يُنْجِيهِ﴾ [المعارج: 14] من عذاب ذلك اليوم الهائل.

﴿كَلَّا﴾ وحاشا أن ينقذ وينجي المجرم بأمثال هذه الافتداءات من عذاب الله، بل كل نفس رهينة بما كسبت ﴿إِنَّهَا﴾ أي: النار المسعرة التي اسمها ﴿لُظَى﴾ [المعارج: 15] أي: ذات لهب والتهاب تلتهب دائماً.

﴿نَزَاغَةً لِلشَّوَى﴾ [المعارج: 16] أي: تنزع من شدة التهابها الأطراف عن أماكنها، سيما جلدة الوجه والرأس.

وبالجملة: ﴿تَدْعُو﴾ وتجذب إلى نفسها ﴿مَنْ أَذْبَرَ﴾ عن الإيمان، ولم يقبل عن قبول الدعوى ﴿وَتَوَلَّى﴾ [المعارج: 17] أي: انصرف عن الطاعة وإطاعة الداعي.

﴿و﴾ مع ذلك ﴿جَمَعَ﴾ مالا عظيما من حطام الدنيا ﴿فَأَوْعَى﴾ [المعارج: 18] أي: فجعله في وعاء، وكنزه من غاية حرصه وأمله، ولم ينفق في سبيل الله؛ لعدم وثوقه بكرم الله.

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ ١٩ ﴿إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا﴾ ٢٠ ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ ٢١
إِلَّا الْمُصَلِّينَ ٢٢ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ٢٣ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ٢٤ لِّلسَّائِلِ
وَالْمَعْرُورِ ٢٥ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ يَوْمَ الدِّينِ ٢٦ وَالَّذِينَ هُمْ مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُّشْفِقُونَ ٢٧ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ
غَيْرُ مَأْمُونٍ ٢٨ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ٢٩ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَلَا تَمْنَحُ
مَلُومِينَ ٣٠ [المعارج: 19 - 30].

وبالجملة: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ﴾ المجبول على الكفران والسيان ﴿خُلِقَ هَلُوعًا﴾ [المعارج: 19] شديد الحرص، قليل الصبر، طويل الأمل.

بحيث ﴿إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ﴾ أي: الضر والسوء صار ﴿جَزُوعًا﴾ [المعارج: 20] يكثر الجزع، ويلج في كشف الأذى.

﴿وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ﴾ أي: الفرح والسرور، والسعة والحضور صار ﴿مَنُوعًا﴾ [المعارج: 21] يبالغ في البخل والإمساك.

وهؤلاء كلهم هلك في تيه الحرص والأمل، وقلّة التصبر على البلوى، وكمال التكبر عند السراء ﴿إِلَّا الْمُصَلِّينَ﴾ [المعارج: 22] المائلين المتوجهين إلى الله في عموم الأحوال بمقتضى الرضا والتسليم، قانعين بما وصل إليهم من الإحسان والتكريم، صابرين على ما أصابهم من العليم، متفقين في سبيل الله مما استخلفهم عليه من الرزق الصوري والمعنوي طلبا لمرضاة الله، وهربا عن مسأخطة.

﴿الَّذِينَ هُمْ﴾ من كمال تحنتهم وشوقهم إلى الله ﴿عَلَى صَلَاتِهِمْ﴾ وميلهم نحوه

﴿ذَائِمُونَ﴾ [المعارج: 23] ⁽¹⁾ ملازمون بحيث لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله.
 ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ﴾ المنسوبة إليهم، المسوقة لهم ﴿حَقٌّ مَّغْلُومٌ﴾ [المعارج: 24] كالزكاة والصدقات المؤقتة وغير المؤقتة.

﴿لِلسَّائِلِ﴾ الذي يسأل ويفشي فقره ﴿وَالْمَخْرُومِ﴾ [المعارج: 25] الذي لا يسأل ولا يفشي، بل من كمال صيانه وتحفظه واستغنائه يُحسب من الأغنياء من كمال التعفف لذلك يحرم.

﴿وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ﴾ ويعتقدون ﴿بِيَوْمِ الدِّينِ﴾ [المعارج: 26] ⁽²⁾ تصديقًا مقارنًا بصوالح الأعمال، ومحاسن الشيم والأخلاق.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ﴾ عاجلاً وآجلاً ﴿مُشْفِقُونَ﴾ [المعارج: 27] خائفون وجلون، وكيف لا يشفقون؟

﴿إِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾ [المعارج: 28] أي: من شأن المؤمن: ألا يأمن من عذاب الله وإن بالغ في طاعته وعبادته على وجه الإخلاص.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِغُرُوحِهِمْ حَافِظُونَ﴾ [المعارج: 29] لا يتجاوزون عن الحدود الإلهية.

﴿إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ من السراري ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ [المعارج: 30] عليهن، إلا أن المؤمن المخلص لو لم يبالغ في اتباع الشهوات المباحة

(1) اعلم أن دوام الصلاة لا يمكن بالصورة؛ بل بالمعنى؛ وذلك أن من سجد قلبه لله تعالى سجدة حقيقية، وخضع خضوعاً تاماً؛ فإن عبادته لله تعالى مستمرة سواء كان على اليقظة، أو على النوم؛ لأن النوم إنما يجري على صورته لا على قلبه، كما أشار إليه النبي ﷺ بقوله: «ينام عيناى ولا ينام قلبي»، فإذا كان قلب الرجل يقظاً، سرى ذلك في جميع أجزائه وقواه؛ فإن القلب أصل القوى والجسد، فإذا صلح؛ صلح القوى والجسد كلها، كما أنه إذا فسد؛ فسد القوى والجسد كلها.

(2) قال حقي في تفسيرة (120/6) أي: بأعمالهم حيث يتعبون أنفسهم في الطاعات البدنية والمالية طمعا في المثوبة الآخروية بحيث يستدل بذلك على تصديقهم بيوم الجزاء فمجرد التصديق بالجنان واللسان وإن كان ينجى من الخلود في النار لكن لا يؤدي إلى أن يكون صاحبه مستثنى من المطبوعين بالأحوال المذكورة قال القاشاني والذين يصدقون من أهل اليقين البرهاني أو الاعتقاد الإيماني بأحوال الآخرة والمعاد وهم أرباب القلوب المتوسطون.

أيضاً لكان له خيراً كثيراً، وأجرًا عظيمًا.

﴿فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٣٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَتِهِمْ قَائِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُولَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبْلَكَ مَهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ حِزِينَ ﴿٣٧﴾ أَبْطَعَ كُلُّ أَمْرٍ مِنْهُمْ أَنْ يَدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ فَلَا أَقِيمُ رَبِّمَا الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ إِنَّا لَقَائِدُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰ أَنْ تُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾ فَذَرُهُمْ يَخْرُضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يُخْرِجُونَ مِنَ الْأَجْنَادِ سِرَاجًا كَانَتْهُمْ إِلَىٰ نَصَبٍ يَوْفُونَ ﴿٤٣﴾ خَشِيعَةً أَبْصَرُهُمْ تَرَهِقُهُمْ ذَلَّةٌ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [المعارج: 31 - 44].

﴿فَمَنِ ابْتَغَىٰ﴾ وطلب ﴿وَرَاءَ ذَلِكَ﴾ الذي ذكر من السراري والأزواج ﴿فَأُولَٰئِكَ﴾ المسرفون المفرطون ﴿هُمُ الْعَادُونَ﴾ [المعارج: 31] المجاوزون عن مقتضى الحدود الموضوعه بحفظ العفة.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ﴾ التي ائتمنوا بها ﴿وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ [المعارج: 32] لحقوقها وحفظها على الوجه الأصلى الأحوط.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ﴾ المودعة عندهم في حقوق المسلمين ﴿قَائِمُونَ﴾ [المعارج: 33] حافظون، مستحضرون إلى وقت الأداء على وجهها.

﴿و﴾ بالجملة: المؤمنون المخلصون هم ﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ﴾ المكتوبة لهم في الأوقات المحفوظة المقدرة ﴿يُحَافِظُونَ﴾ [المعارج: 34] على وجهها مع كمال الخضوع والخشوع، ورعاية الشرائط والأركان والأبعاد، وسائر الآداب في المندوبات المتعلقة بالصلوات.

﴿أُولَٰئِكَ﴾ السعداء المتصفون بهذه الصفات الكاملة مقبولون عند الله، متنعمون ﴿فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ﴾ [المعارج: 35] فيها بأنواع الكرامات تفضلاً وإحساناً.

وبعد ما ظهر وميز حال المؤمنين وحال الكافرين عند الله في النشأة الأخرى ﴿فَقَالَ﴾ عرض ولحق ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بك ودينك وكتابك ﴿قِبْلَكَ﴾ حوالبك وجوانبك ﴿مَهْطِعِينَ﴾ [المعارج: 36] مترددين مسرعين.

﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِّينَ﴾ [المعارج: 37] متفرقين فرقاً شتى يترددون حولك فرقة بعد فرقة، ويسمعون منك كلامك.

﴿أَيُّطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ﴾ بالتردد حولك ﴿أَن يَدْخُلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ﴾ [المعارج: 38] بلا إيمان وتصديق وإطاعة مقارنة بالأعمال الصالحة؟!

﴿كَلَّا﴾ وحاشا! أي: يحصل لهم هذا بلا سبق الإيمان، وامتنال الأوامر والأحكام، وكيف يدخلون أولئك الخبيثون في منازل القدس بلا تصفية وتزكية بالإيمان، وتحلية بالأعمال؟! ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ﴾ وقدرنا وجودهم ﴿مِمَّا يَعْلَمُونَ﴾⁽¹⁾ [المعارج: 39] وهو النطفة القذرة الخبيثة التي لا نسبة لها بالمقام المقدس عن الرذائل والكدورات، المطهر من أوساخ الطبيعة وقيل الهيولى الحاصلة من ظلمة عالم الناسوت، فلم لم يطهروا نفوسهم بنور الإيمان اللاهوتي، ولم يتصفوا بالعرفان لم يصلوا إلى روضة الجنان، ولم يثابوا بنعيم الألوان.

﴿فَلَا أَقْسِمُ﴾ أي: لا حاجة لنا إلى القسم بإثبات كمال قدرتنا ﴿بِرَبِّ الْمَشَارِقِ﴾ أي: عموم الذرات التي أشرقت عليها شمس الذات باعتبار الظهور ﴿وَوَ﴾ لا برب ﴿الْمَغَارِبِ﴾ أي: جميع الذرات التي غربت فيها شمس الذات باعتبار الخفاء والبطون ﴿إِنَّا لَقَادِرُونَ﴾ [المعارج: 40] بالقدرة الغالبة الكاملة.

﴿عَلَى أَن تُبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ بأن نهلكهم ونستأصلهم بالمرة، ونأت بدلهم بخلق أفضل منهم وأصلح لإيمان وقبول دين الإسلام ﴿وَوَ﴾ بالجملة: ﴿مَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ [المعارج: 41] مغلوبين من أحد، إن أردنا هذا التبديل والتغيير، وتعلقت مشيئتنا به.

وبعدما سمعت يا أكمل الرسل كمال قدرتنا على إهلاكهم وتبديلهم ﴿فَلَذَرْهُمْ﴾ واتركهم وحالهم ﴿يَخْوَضُوا﴾ في الأباطيل الزائغة، والأراجيف الزاهقة ﴿وَيَلْعَبُوا﴾ بالآيات الواضحة، والبيئات اللائحة ﴿حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ﴾ [المعارج: 42] للحشر والنشر، وتنقيد الأعمال والحساب عليهم، والجزاء بمقتضاه.

(1) يعني: من نطفة ثم نربها طوراً فطوراً حتى صارت ذاكرة فينبغي ألا ينسى أزل حاله، ولا يغش بما فيه من نعيم مشاهدة الآيات الأثرية، لئلا يحرم عن مشاهدة الآيات العقلية، ولا يغتر بها أيضاً لئلا يحرم عن مشاهدة الصفات، ولا يقنع بها، لئلا يحرم عن المعارف الذاتية. [عين الحياة].

اذكر لهم يا أكمل الرسل على وجه التذكير والتهويل ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ﴾ أي: القبور بعد نفخ الصور، ويسرعون نحو الداع ﴿سِرَاعًا﴾ مسرعين ﴿كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ﴾ صنم ينصب؛ للزيارة والاستلام ﴿يُوفَضُّونَ﴾ [المعارج: 43] يسرعون؛ يعني: إسراعهم في تلك الحالة نحو الداعي يشبه إسراعهم نحو الصنم المنصوب للعبادات، ورفع الحاجات، كما هو عادتهم طول عمرهم في الدنيا.

فيكونون حينئذٍ ﴿خَاشِعَةً﴾ ذليلة خاسرة ﴿أَبْصَارُهُمْ﴾ بحيث لا يمكنهم أن ينظروا إليه؛ إذ ﴿تَرْهَقُهُمْ﴾ وتغشاهم ﴿ذِلَّةً﴾ عظيمة بدل ما يذلون داعي الله حين دعوته في الدنيا ﴿ذَلِكَ الْيَوْمُ﴾ العظيم الهائل هو اليوم ﴿الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾⁽¹⁾ [المعارج: 44] في نشأة الاختبار فلم يصدقوا، ولم يؤمنوا له إلى أن يعاينوه.

جعلنا الله من زمرة المصدقين بيوم الدين.

خاتمة السورة

عليك أيها الموحد المحمدي أن تعتقد، بل تعان وت شاهد إن كنت من أولي الأبصار، وذوي القدر والاعتبار أن النشأة الأخرى هي دار القرار والخلود، بل العالم

(1) فيا أيها السالك: اعتبر بهذه السورة، واحذر عن تكذيبك الوارد واليوم الموعود ولا تحسب أن الذي عانيت في نفسك هو اليوم الموعود؛ لئلا يكفر باليوم الموعود العاмер، وتيقن أن الذي وجدته في نفسك بالموت الاختياري فكذلك تجده في الموت الاضطراري، ومثل ذلك تجده في اليوم الموعود الكبير العظيم، وإن لم يؤمن بالقيامات الثلاث:

الصغرى: الحاصلة من الموت الاختياري كما قال ﷺ: «قبل أن تموتوا»، والوسطى: بالموت الاضطراري كما قال ﷺ: «من مات فقد قامت قيامته»، والقيامة الكبرى: وهي القيامة كما نطق به الكتاب والسنة؛ فأنت كافر لا ينفعك الإيمان بإحدى القيامات الثلاث، كما قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ يَنْفِضُ يَنْفِضُ وَيَنْكُفُّ يَنْفِضُ﴾ [النساء: 150]، وتيقن أن كل قيامة متأخرة أبين وأكبر من القيامة المقدمة، كما أن الذي يبصره عند طلوع الشمس فيزداد ظهوره إذا طلعت الشمس، والذي يبصره عند طلوع الشمس، فيزداد ظهوره عند استواء الشمس في يوم يصبح، فهكذا ينبغي أن يعلم القيامة الحاصلة بالموت الاختياري، أنها نموذج مما كان مودعاً في القيامة التي قامت بالموت الاضطراري، وما شاهدت في هذه القيامة هو أنموذج مما كانت مدخرة في القيامة الكبرى الأخيرة، وأنا مؤمن بحمد الله وحسن توفيقه بالقيامات الثلاث كما نطق به الكتاب والسنة اللهم ثبتني على الإيمان ووفقني لمتابعة حبيبك نبي آخر الزمان ﷺ وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان صغيراً وكبيراً. [عين الحياة].

الموجود هي.

والنشأة الأولى إنما هي أظلال لا وجود لها، وعكوس لا ثبوت لها، وإضافات لا حقيقة لها، وتعينات لا تحقق لها.

فعلبك ألا تستقر عليها إلا كالعابر، ولا تعيش فيها إلا كالمسافر، ما تدري يا أخي أن جميع ما عليها ظل زائل، وعموم لذاتها وشهواتها سراب بلا طائل؟!

إلام تشبث بها وبما فيها، وعلام تستلذ بمزخرفاتها وملاهيها؟! فإنك عن قريب ستموت، وما تدخر فيها سيضيع ويفوت، فلك أن تستعد لأخراك في أولاك، وتتزود لعقبك من دنياك.

وبالجملة: فلك أن تموت بالاختيار قبل هجوم الموت على وجه الاضطراب، فاعلم أن هذه الحياة الدنيا ما هي إلا متاع، وأن الآخرة هي دار القرار.

سورة نوح

فاتحة سورة نوح الطه

لا يخفى على من انكشف بسرائر ظهوره مرتبة النبوة والرسالة من أرباب الولاية المقتبس من مشكاة النبوة أن مقتضى النبوة والرسالة إنما هي الدعوة إلى دين الإسلام الموصل إلى دار السلام؛ للقرب والوصول إلى كنف جوار الله العليم العلام، فلا بد لمن تقلد بها بتكليف الحق إياه واختياره لها أن يبالي في تبليغها، ويجتهد في إظهارها، سيما بعد تأييد الحق وتقويته بالمعجزات القاطعة، والبراهين الساطعة، متحملاً على المتاعب والمشاق، وأنواع الأذيات الواقعة في إظهارها وترويجها.

كما أخبر سبحانه عن نبيه نوح عليه السلام مع قومه كيف تحمل عنهم وصبر إلى أن ظفر عليهم وانتصر، فقال سبحانه بعدما تيمن باسمه الكريم: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ الذي تجلى على أنبيائه ورسله بعموم أسمائه وصفاته؛ ليستخلفهم عن ذاته ﴿الرَّحْمَنُ﴾ على عموم مظاهره بإظهار مرتبة الخلافة والنيابة بينهم ﴿الرَّحِيمُ﴾ لهم، يوصلهم بإرشاد الأنبياء وإهدائهم إلى زلال توحيد.

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١﴾ قَالَ يَتَقَوَّمُوا
إِنِّي لَكَزِدِيرٌ مِّنْ ٢ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا ٣ يَتَقَرَّ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ
أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ٤ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ٥
فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَايَ إِلَّا فِرَارًا ٦ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أُصْغُرَ فِي مَا قَالُوا
وَأَسْتَفْسَحُوا يَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتَكْبَارًا ٧ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ٨ ثُمَّ إِنِّي أَهْلَيْتُ
لَهُمْ وَأَمْرًا ٩ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ١٠﴾ [نوح: ١ - ١٠].

﴿إِنَّا﴾ من مقام جودنا ﴿أَرْسَلْنَا﴾ أخاك يا أكمل الرسل ﴿نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ حين انصرفوا عن جادة العدالة والقسط الإلهي، ووصينا له ﴿أَنْ أَنْذِرَ﴾ أي: بأن خوف وحذر

﴿قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [نوح: 1] ⁽¹⁾ مؤلم في غاية الإيلام، وهو عذاب الطوفان بعد نزول الوحي عليه.

﴿قَالَ يَا قَوْمِ﴾ أضافهم إلى نفسه وناداهم؛ ليقبلوا إليه، ويهتدوا بهدأته وإرشاده ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ [نوح: 2] ظاهر الإنذار والتخويف بإذن العليم الحكيم، أرسلني ربي.

﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ الواحد الأحد الصمد، الحقيق بالألوهية والربوبية، القادر على أنواع الإنعام والانتقام ﴿وَأَتَّقُوهُ﴾ عن ارتكاب محارمه ومنهياته ﴿وَأَطِيعُوا﴾ [نوح: 3] فيما بلغت لكم من أوامر الله ونواهيه، وامثلوا بمقتضاها.

﴿يَغْفِرْ لَكُمْ﴾ سبحانه ﴿مَنْ ذُنُوبَكُمْ﴾ إن استغفرتم منه سبحانه، وتبتم إليه مخلصين نادمين ﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى﴾ أقصى ﴿أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ مقدر عنده سبحانه بشرط أن تتصفوا بالإيمان والعمل الصالح ﴿إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ﴾ المقدر لآجال عباده على مقتضى الحكمة المتقنة ﴿إِذَا جَاءَ﴾ على الوجه المقدر المقرر عنده ﴿لَا يُؤَخَّرُ﴾ عن وقته، ولا يقدم عليه ﴿لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [نوح: 4] وتعتقدون حكمة الحكيم، وكمال قدرته ومشيتته لعلمتم يقيناً أن الأجل المقدر لا يُبدل ولا يُغير.

وبعدما بالغ نوح ^(عليه السلام) في دعوتهم وإرشادهم فلم يهتدوا، بل ما زادوا إلا إصراراً وإصراراً، وعناداً واستكباراً ﴿قَالَ﴾ نوح مناجياً إلى ربه على وجه التضرع بعدما بالغوا في الإنكار والاستكبار: ﴿رَبِّ﴾ يا من رباني على الرشد والهداية ﴿إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي﴾ بمقتضى وحيك وإلهامك عليّ ﴿أَلَيْلًا وَنَهَارًا﴾ [نوح: 5] أي: دائماً بلا مظل وتسويف.

(1) أشار بنوح إلى الروح، وذلك من حيث المراتب الأربع التي حصلت للروح من حيث أولية، وآخرية، وظاهرية، وباطنية، فالروح نوح: أي سابق على قومه من القوى الروحانية، والأعضاء الجسمانية، وإذا الفاعل قبل القائل، وقد أرسله الله إلى قومه؛ فهو المؤثر فيه لا غيره تعالى؛ لأنه لا غير هنالك حتى يكون هو المباشر للإرسال، وكذا كل الإرسالات الواقعة في الدنيا؛ فإنها كلها مضافة إلى الله تعالى، فإن الإرسال إما من الشيخ المرشد؛ فذلك مضاف إلى الإلهام الإلهي، وإما من الجناب النبوي؛ فذلك مضاف إلى الوحي الرباني، والكل؛ لكن المظاهر متعددة بحسب المقامات والأطوار، وقد يترقى السالك في بعض المواطن إلى حيث يأخذ الإذن من الله تعالى بلا واسطة، وذلك لا يلزم منه ترك الوساطة، فإن ذلك بشفاعاة الوساطة، أو باستهلاك الكل في عين الجمع، وليس هناك إلا الله تعالى.

﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي﴾ ودعوتي إياهم ﴿إِلَّا فِرَارًا﴾ [نوح: 6] عن الإيمان والإطاعة، وإصراراً على الكفر والطغيان.

﴿وَإِنِّي﴾ صرت زماناً ﴿كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ﴾ على قصد أن يقبلوا دعوتي ﴿لِتُغْفِرَ لَهُمْ﴾ بمقتضى عفوك ورحمتك ذنوبهم وزلتهم ﴿جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ﴾ وقت دعوتي إياهم ﴿فِي آذَانِهِمْ﴾ أي: سدوا مسامعهم عن استماع الدعوة ﴿وَوَعَدُوا﴾ مع ذلك لا يقتصر عليه، بل ﴿اسْتَفْسَحُوا﴾ أي: غطوا ولفوا على رؤوسهم ﴿ثِيَابَهُمْ﴾ لتلا يروا صورتي، ولا يسمعوا قولي من شدة كراحتهم عن دعوتي، وشكيمتهم معي ﴿وَوَعَدُوا﴾ بالجملة: ﴿أَصْرُوا﴾ على ما هم عليه كانوا ﴿وَاسْتَكْبَرُوا﴾ علي ﴿اسْتِكْبَارًا﴾ [نوح: 7] ⁽¹⁾ عظيماً إلى حيث شتموني شتماً قبيحاً، وضربوني ضرباً مؤلماً فجيئاً.

﴿ثُمَّ﴾ بعدما جرى منهم ما جرى ﴿إِنِّي دَعَوْتُهُمْ﴾ بمقتضى أمرك وحكمك إياي يا رب ﴿جَهَارًا﴾ [نوح: 8] على رؤوس الملأ.

﴿ثُمَّ إِنِّي أَغْلَنْتُ لَهُمْ﴾ وصرحت بدعوتهم ﴿وَأَشْرَزْتُ لَهُمْ﴾ أيضاً في الخلوات ﴿إِسْرَارًا﴾ [نوح: 9] على سبيل الكناية والإشارة، وبالجملة: دعوتهم مرة بعد مرة، وكرة بعد كرة في المحافل والخلوات، وبالصرائح والكنايات.

﴿فَقُلْتُ﴾ لهم في دعوتي إياهم: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾ وتوبوا إليه ﴿إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾ [نوح: 10] يغفر لكم ذنوبكم، ويعفو عنكم زلاتكم.

وبعدما بالغوا في الإنكار والإصرار حبس الله عليهم القطر أربعين سنة، وأعقم أرحام نسائهم، فقال نوح: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾ [نوح: 10].

(1) قال ابن عجيبة في البحر المديد (6 / 419): الإشارة: ينبغي للداعي أن يكون على قدم أولى العزم، لا يمل من التذكير والدعاء إلى الله، ويكرر ذلك ليلاً ونهاراً ولو قيل بالرد والإنكار، فلأن يهدي الله به رجلاً واحداً خير له مما طلعت عليه الشمس. وقوله تعالى: (وَاصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا)، قال القشيري: ويقال: لَمَّا دام إصرارهم تَوَلَّدَ منه استكبارهم، قال تعالى: (فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ). وقال الورتجني: مَنْ أَصْرَ على المعصية أوردته التماذي على الضلالة، حتى يرى قبيح أفعاله مستحسناً، فإذا رآه مستحسناً يستكبر، ويعلو على أولياء الله، ولا يقبل بعد ذلك نصحتهم. قال سهل: الإصرار على الذنب يورث الاستكبار، والاستكبار يورث الجهل، والجهل يورث التخطي في الباطل، وذلك يورث قساوة القلب، وهي تورث النفاق، والنفاق يورث الكفر.

﴿يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا﴾ ١١ ﴿وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَنْبِيْنٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾ ١٢ ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ ١٣ ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ ١٤ ﴿الَّذِينَ تَرَوُا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا﴾ ١٥ ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا﴾ ١٦ ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ ١٧ ﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ ١٨ ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا﴾ ١٩ ﴿لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ ٢٠ ﴿[نوح: 11 - 20].

﴿يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا﴾ [نوح: 11] بعدما حبسها زمانًا.

﴿وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَنْبِيْنٍ﴾ بعدما منعها عنكم بكفركم وشرككم، وبعد استغفاركم أنزل عليكم مدرارًا ﴿و﴾ بعد إنزال المدرار ﴿يَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ﴾ بساتين متزهات ﴿وَيَجْعَلْ لَكُمْ﴾ في خلالها ﴿أَنْهَارًا﴾ [نوح: 12] جاريات.

﴿مَا لَكُمْ﴾ وأي شيء عرض عليكم أغفلكم عن الله حيث ﴿لَا تَرْجُونَ﴾ ولا تأملون ﴿لِلَّهِ﴾ المستحق لأنواع العبودية والتعظيم ﴿وَقَارًا﴾ [نوح: 13] توقيرًا وتبجيلًا لائقًا لجلاله وجماله، وحسن فعاله معكم؟

﴿و﴾ الحال أنه ﴿قَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ [نوح: 14] مختلفة ومتروية في الكمال حيث قدر وجودكم من جمادات العناصر، ثم ركبكم إلى أن صرتم من أغذية الإنسان، ثم صيركم أخلاطًا، ثم نطفًا، ثم علقًا، ثم مضغًا، ثم عظامًا ولحمًا، ثم أنشأكم خلقًا عجيبًا قابلاً للخلافة والنيابة، ثم بعد ذلك يوصلكم في النشأة الأخرى إلى ما يوصلكم. وبالجملة: فبأي آلاء ربكم تكذبون أيها المكذبون المنكرون، مع أنه وسع عليكم من زوائد النعم، وموائد الكرم والإفضال ما لا مزيد عليه من كمال قدرته، ومثانة حكمته؟

﴿أَلَمْ تَرَوْا﴾ أيها الرءاؤون المعتبرون ﴿كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ﴾ بقدرته الكاملة ﴿سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا﴾ [نوح: 15] طبقات بعضها في جوف بعض إلى حيث ينتهي الكل إلى كرة واحدة وقعت مظهرًا للوحدة الذاتية، وإن كان كل ذرة من ذرات الكائنات المستقلة في مظهرية الوحدة الذاتية؟

﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ﴾ أي: في السموات ﴿نُورًا﴾ مقتبسًا من شمس الذات ﴿وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا﴾ [نوح: 16] واضحًا، ودليلاً لائخًا على

شروق شمس الذات على مظاهر عموم الذرات المنعكسة منها.

﴿و﴾ بالجملة: ﴿الله﴾ المتعزز برداء العظمة والكبرياء ﴿أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾ اليابسة الميتة ﴿نَبَاتًا﴾ [نوح: 17] إنباتًا إبداعيًا؛ أي: أنواعًا وأصنافًا من النبات، ورباكم إلى أن صرتم حيوانًا، ثم إنسانًا، ثم كلفكم ما كلفكم من التكاليف الشاقة؛ لتعززوا بما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

﴿ثُمَّ﴾ بعد حلول أجلكم المقدر ﴿يُعِيدُكُمْ فِيهَا﴾ مقبورين ﴿و﴾ بعد ذلك ﴿يُخْرِجُكُمْ﴾ منها في المحشر ﴿إِخْرَاجًا﴾ [نوح: 18] إعادة في النشأة الأخرى؛ لتنفيد ما كلفكم عليه في النشأة الأولى، وترتب الجزاء عليه تميمًا للحكمة المتقنة البالغة، وتكميلًا لها.

﴿وَالله﴾ القادر المقتدر ﴿جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا﴾ [نوح: 19] ممهدة، تتقلبون عليها وتترددون.

﴿لِتَنْسَلِكُوا﴾ وتتخذوا ﴿مِنْهَا﴾ حيث شئتم ﴿سُبُلًا فِجَاجًا﴾ [نوح: 20] طرقًا واسعة متسعة، فباي آلاء ربكم ونعمائه تنكرون أيها الكافرون؟

﴿قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنِّي هُمْ عَصَوِي وَأَتَّبِعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ۝٢١ وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ۝٢٢ وَقَالُوا لَا تَنْدُبُنَا إِلَهَكَ وَالْهَكَرُ وَلَا تَنْدُبُنَا وَقَا وَلَا سُلَاطَا وَلَا يَنْفُوتَ وَيَعُوقُ وَشَرًّا ۝٢٣ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ۝٢٤ مِمَّا خَطَبْتَهُمْ أَغْرِقُوا فَأَنْجَلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا ۝٢٥ وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ۝٢٦ إِنَّكَ إِنْ تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَجْرًا كَفَّارًا ۝٢٧ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدِي وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ۝٢٨﴾ [نوح: 21 - 28].

وبالجملة: كلما بالغ نوح في دعوتهم بالغوا في الإصرار والعناد، وبعدما اضطر ﴿قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنِّي هُمْ عَصَوِي﴾ في جميع ما أمرتهم به، وانصرفوا عني وعن دعوتي، واستهزءوا معي ﴿وَأَتَّبِعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا﴾ [نوح: 21] أي: اتبعوا ساداتهم ورؤساءهم المعروفين، المشهورين بكثرة الأموال والأولاد الموجبة

للثروة والجاهة عند الناس، وإن كان أموالهم وأولادهم لم يزدهم إلا خسارًا وبوارًا في النشأة الآخرة.

﴿و﴾ بالجملة: ﴿مَكْرُوا﴾ لهم أولئك الماكرون ﴿مَكْرًا كَبَارًا﴾ [نوح: 22] بلغ غاية كبره، ونهاية شدته في التلبيس والتغريب.

وذلك احتيالهم على الناس إلى حيث لم يقبلوا دعوة نوح عليه السلام، مع كونه مؤيدًا بأنواع المعجزات، بل سفهوه، واستهزءوا متمسخرين مستهزئين ﴿وَقَالُوا﴾ لهم في نصيحهم وتذكيرهم: ﴿لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ﴾ أي: عبادتها، سيما بقول هذا السفیه المختبط، المختل الرأي والعقل ﴿وَلَا تَذَرُنَّ﴾ خصوصًا ﴿وَدَا وَلَا سَوَاعَا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: 23] فإنها غرائق عظام تُرتجى منها الشفاعة على عصاة العباد، فعليكم ألا تركوا عبادة آلِهتكم بقول هذا الطريد السفیه.

﴿و﴾ بالجملة: ﴿قَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا﴾ من الناس بتزويراتهم الباطلة، وتغريراتهم الكاملة الشاملة لأهل الخبرة والضلال ﴿و﴾ بالجملة: ﴿لَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ﴾ يا رب ﴿إِلَّا ضَلَالًا﴾ [نوح: 24] فوق ضلال، وإصرارًا غب إصرار.

ثم قال سبحانه بعدما بالغ نوح عليه السلام في التضرع والمناجاة: ﴿مِمَّا خَطَبَاتِهِمْ﴾ أي: من أجل وفور خطيئاتهم وكثرتها ﴿أَغْرَقُوا﴾ بالطوفان أولًا ﴿فَأَدْخَلُوا نَارًا﴾ نوعًا من عذاب النار عقيب عذاب الطوفان في البرزخ ﴿فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ﴾ حين طغيان الماء وطوافه عليهم ﴿مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ القادر المقتدر على دفع المضار ﴿أَنْصَارًا﴾⁽¹⁾ [نوح: 25]

(1) اعلم - رحمك الله - أن الله أدخل قوم نوح عليه السلام النار عقب غرقهم في الماء فانتقلوا من الغرق إلى الحرق، فطلبوا النصرة من آلِهتهم الذين قالوا في حقهم: ﴿لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًا وَلَا سَوَاعَا﴾ [نوح: 23]، فلم يجدوهم، وأضل الله أعمالهم عنهم كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَلُهُمْ﴾ [محمد: 1]، لأن الأعمال تطلب عاملها كما يطلب الابن أباه، وكما ضلت أعمالهم عنهم ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: 24]، على أولئك المعبودين من أنهم آلهة ﴿فَلَا يَجِدُوا لَهُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا﴾ [نوح: 25]، أي: لم يجدوا غير الله ناصرًا، فأخبر الله تعالى أن قوم نوح أدخلوا النار، ولا يدخلون النار إلا بعد بعثهم فقدّم الله بعثهم قبل خراب الدنيا، كما ورد في ذلك في حابسة الهرة فحقّ فيهم قوله ﷻ: «من مات فقد

شفعاء من الأصنام كما زعموا، فلم ينصرهم الله فهلكوا بالفرق.

﴿و﴾ بعدما آيس عن إيمان قومه، وقنط عن فلاحهم وصلاحهم أخذ في الدعاء عليهم، حيث ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ﴾ يا من رباني على فطرة الهداية والرشاد ﴿لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ﴾ التي إنما وضعت؛ للعبادة والطاعة ﴿مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ المصرين على الكفر والعناد والإلحاد عن السداد ﴿ذِيَّارًا﴾ [نوح: 26] أحدا يدور عليها.

﴿إِنَّكَ﴾ يا ذا الحكمة المتقنة البالغة ﴿إِنْ تَذَرُهُمْ﴾ على الأرض على ما كانوا ﴿يُضِلُّوا عِبَادَكَ﴾ المؤمنين بك، المصدقين بفردانيتك ووحدانيتك ﴿وَلَا يَلْدُوا﴾ ولا يتناسلوا ﴿إِلَّا فَاجِرًا﴾ خارجًا عن مقتضى الحدود الإلهية الموضوعة؛ لحفظ العدالة ﴿كَفَّارًا﴾ [نوح: 27] ستارًا للحق بترويج الباطل عليه، إنما دعا عليهم بهذا بعدما جربهم ألف سنة إلا خمسين سنة، فعرف منهم جميع خصائلهم المذمومة.

ثم ناجى ربه لنفسه ولوالديه، ولمن اهتدى بهدائته وإرشاده فقال: ﴿رَّبِّ﴾ يا من رباني بمقتضى كرمك وجودك لحكمة معرفتك وتوحيديك ﴿اغْفِرْ لِي﴾ بفضلِكَ وإحسانك ﴿وَلِوَالِدَيَّ﴾ - اسم أبيه: لمك بن متوشلخ، واسم أمه: شمعنا بنت أنوش - وكانا مؤمنين موحدين ﴿و﴾ اغفر أيضًا بفضلِكَ ﴿لِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي﴾ سفيتي وحرزي، أو ديني ومذهبي ﴿مُؤْمِنًا﴾ موقنًا بإرشادي وتكميلي ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ من الأمم السابقة واللاحقة إلى يوم القيامة ﴿وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ﴾ الخارجين عن عروة عبوديتك، وريقة رقيتك ﴿إِلَّا تَبَارًا﴾ [نوح: 28] إهلاكًا وخسارًا، عذابًا وبوارًا.

ونحن ندعو أيضًا على الكافرين المصرين بكفرهم وشركهم، الظاهرين على أهل التوحيد بأنواع الجدال والمرء بما دعا به نوح ~~عليه السلام~~، ونرجو أيضًا أن نكون من الناجين ببركة دعائه، ودعاء نبينا ﷺ.

خاتمة السورة

عليك أيها الموحّد المحمدي، الداخِل في سفينة الشريعة المصطفوية المنجية

قامت قيامته» فانتهم ساعتهم بغتة، فكان البحر مأواهم ظاهرًا والنار مأواهم باطنًا، شاهد ذلك قوله ﷺ: «القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار».

لنفسك عن طوفان القوى البشرية، وطغيان اللذة البهيمية المانعة عن التلذذ بالذات المعنوية الروحانية أن تتشبث بذيل همّة المرشد الكامل، المكمل الذي يرشدك إلى سرائر الشريعة وحكم الأحكام الموردة فيها، ومصالح الأوامر والنواهي بإرادة صادقة، وعزيمة خالصة عن شوب الرياء والرعونات العائقة عن الميل الفطري، والفطنة الجبلية التي جبل الناس عليها، إذا خلى طبعه بلا تصرف من شياطين الوهم والخيال، وجنود الأمانة على مقتضى القوى.

وفقنا الله لما يحب ويرضى، وجنبنا عن الميل إلى البدع والهوى.

سورة الجن

فاتحة سورة الجن

لا يخفى على من تحقق بمقام القلب وسعته، وكمال فسحته ووسعته أن مظاهر الحق وجنوده أكثر من أن يحيط به الآراء، أو يتفوه عنه السنة التعديد والإحصاء، أو يدرك نهايتها عقول العقلاء.

ومن جملتها: جنود الجن يختلط معهم ويصاحبهم من الإنس من كان بينه وبينهم مناسبة معنوية مخصوصة توجب اتلافهم واختلاطهم، وذلك من جملة المواهب والإعطاءات الإلهية لبعض النفوس القدسية الزكية عن رذائل الطبيعة.

ولاشك أن نبينا ﷺ مبعوث إليهم، مختلط معهم، مرشد لهم، هاد إياهم إلى طريق التوحيد، كما أوحى إليه سبحانه في هذه السورة متيماً: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ الذي تجلى فيما تجلى بمقتضى جوده ﴿الرَّحْمَنُ﴾ لعموم عباده بدعوتهم إلى الإيمان ﴿الرَّحِيمُ﴾ لخواصهم، يوصلهم إلى مرتبة اليقين والعرفان.

﴿قُلْ أَوْحَى إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَمْ نُشْرِكْ بِهِ شَيْئًا لَّحَدًا ۝٢ وَأَنَّهُ تَعَلَّى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ۝٣ وَأَنَّهُ كَانَ يَظُولُ سَفِيهًا عَلَى اللَّهِ سَطَطًا ۝٤ وَأَنَا ظَنَنَّا أَن لَّنْ نَقُولَ الْإِنسَ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۝٥ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَوْدُونَ رِجَالًا مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَن لَّنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا ۝٧﴾ [الجن: 1 - 7].

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل لمن أنكر رسالتك على الثقليين: ﴿أَوْحَى إِلَيَّ﴾ من قِبَل الحق ﴿أَنَّهُ اسْتَمَعَ﴾ عند قراءتك القرآن ﴿نَفَرٌ﴾ طائفة، وهو يطلق على ما بين الثلاثة إلى العشرة ﴿مِّنَ الْجِنِّ﴾ وهو جنس من جنود الحق ومظاهره، كجنس الملك، لا مناسبة بيننا وبينهم حتى ندركهم ونعرف حقيقتهم، وما لنا إلا الإيمان بوجودهم وبأمثالهم؛ إذ ما يعلم جنود الحق إلا هو، ولا يسع لنا الإنكار، سيما بعد ورود القرآن على وجودهم وتحققهم.

وبعدما سمعوا القرآن، ورجعوا إلى أصحابهم ﴿فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا﴾ من إنسان ﴿قُرْآنًا﴾ كتابًا ﴿عَجَبًا﴾ [الجن: 1] بديعًا نظمًا وأسلوبًا، غريبًا معنى ودلالة، حاويًا للمعارف والحقائق الإلهية، محتويًا على دقائق طريق التوحيد والعرفان، ما هو من جنس كلام البشر، بل هو خارج عن مداركهم، متعالٍ عن مشاعرهم.

﴿يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ﴾ والهداية الموصلة إلى مقصد الوحدة الذاتية ﴿فَأَمَّا بِهِ﴾ واهتدينا بهدائيه إلى توحيد الحق ﴿وَلَنْ نُشْرِكَ﴾ أبدًا ﴿بِرَبِّنَا﴾ الذي وفقنا على توحيده ﴿أَخَذًا﴾ [الجن: 2] من مظاهره ومصنوعاته؛ إذ المصنوع المربوب لا يصير شريكًا للرب الصانع القديم.

﴿و﴾ كيف يكون للرب الواحد الأحد الصمد شريكًا، مع ﴿أَنَّهُ تَعَالَى﴾ تبارك وتقدس ﴿جَدُّ رَبِّنَا﴾ أي: عظمته وكبرياؤه من أن يكون له شريك في ملكه وملكوته، مع أنه الصمد الذي ﴿مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ [الجن: 3] فكيف يتخذ شريكًا، مع أنه هو الواحد الأحد الصمد على الإطلاق، لم يكن له شريك في الملك ونظير في الوجود؟! فكبره تكبيرًا، ونزه ذاته عما يقول الظالمون علواً كبيرًا.

﴿و﴾ بعدما آمنا بوحدة الحق وعرفناه وحيدًا فريدًا بلا شبه ولا نظير، ولا وزير ولا مشير، عرفنا ﴿أَنَّهُ﴾ ما ﴿كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا﴾⁽¹⁾ إبليس المردود المطرود ﴿عَلَى اللَّهِ﴾ المقدس ذاته عن مطلق المماثلة والمشاكلة في الوجود القيومية، ومائر الصفات الذاتية المصححة للألوهية والربوبية قولاً ﴿شَطَطًا﴾ [الجن: 4] باطلاً بعيداً عن الحق بمراحل، مجاوزاً عن الحد في الإفراط، تعالى شأنه عما ينسب إليه المبطلون المفرطون.

﴿وَأَنَّا﴾ كنا قبل انكشافنا بوحدة الحق، وتحققنا بمرتبة الشهود ﴿ظَنَّنَا أَن﴾ أي: إنه ﴿لَنْ تَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ﴾ أي: جنس الإنس والجن المجبولين على فطرة العبودية والعرفان ﴿عَلَى اللَّهِ﴾ المعبود على الإطلاق ﴿كَذِبًا﴾ [الجن: 5] قولاً زوراً باطلاً على سبيل الافتراء والمراء؛ لذلك اتبعناهم فيما قالوا ظلمًا وعدوانًا، وبعدما ظهر الحق،

(1) السفه خفة العقل، والشطط مجاوزة الحد في الظلم وغيره ومنه أشط في السوم إذا أبعد فيه أي يقول قولاً هو في نفسه شطط، وصف بالمصدر للمبالغة، والسفيه إبليس أو غيره من مردة الجن الذين جاوزوا الحد في طرف النفي إلى أن أفضى إلى التعطيل، أو في طرف الإثبات إلى أن أدى إلى الشريك والصاحبة والولد.

وكوشفنا بحقيقة الأمر تبرأنا عنهم وعن أقوالهم، وتبنا إلى الله، والتجأنا بكنف حفظه وجواره.

أعاذنا الله بلطفه من زيغ الزائغين، وإضلال الضالين المضلين.

﴿و﴾ كنا قبل انكشافنا بوحدة الحق ﴿أَنَّهُ﴾ أي: الشأن ﴿كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ﴾ عند مرورهم بقفر، إذا أمسوا فيها كانوا يقولون: أعوذ بسيد هذا الوادي من سفهاء قومه، ومع استعاذتهم واستعانتهم ﴿فَزَادُوهُمْ﴾ أي: الجن والإنس ﴿رَهَقًا﴾ [الجن: 6] كبراً وعتواً، يختطفون عليهم ويخطبونهم.

﴿و﴾ ما ذلك الكبر والطغيان منهم بعدما استعاذوا إلا ﴿أَنَّهُمْ﴾ أي: الجن ﴿ظَنُّوا﴾ وزعموا ﴿كَمَا ظَنَنْتُمْ﴾ وزعتم أيها الناس الموسومون بالجهل والنسيان، والإنكار والطغيان ﴿أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ﴾ القادر المقتدر على الإعادة والإبداء ﴿أَخَذًا﴾ [الجن: 7] من الجن والإنس؛ حتى يستوفي عليه حسابه جزاءه؛ لذلك يجترئون ويزيدون في الإرهاب والطغيان، سيما الاستعاذة والإلجاء.

﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِثَتْ حَرَمًا شَدِيدًا وَشُهَبًا﴾ ٨ ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعَدًا لِّلِسْمَعِ فَمَنْ يَسْمَعُ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شُهَابًا رَّصَدًا﴾ ٩ ﴿وَأَنَّا لَا تَدْرِي أَشَرُّ أَرِيدَ يَمَنَ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ ١٠ ﴿وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدْدًا﴾ ١١ ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نَّقْجِرَ اللَّهُ فِي الْأَرْضِ وَلَكِن نُّعْجِزُهُ هَرَبًا﴾ ١٢ ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَوَّيْنَا الْهَدْيَءَ آمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾ ١٣ [الجن: 8 - 13].

﴿وَأَنَّا﴾ كنا قبل نزول القرآن ﴿لَمَسْنَا السَّمَاءَ﴾ أي: طلبنا البلوغ إليها، والصعود نحوها؛ لنسترق من أخبار الملائكة، ونخبر بها الكهنة، ونوقع الفتنة في العالم السفلي ﴿فَوَجَدْنَاهَا﴾ أي: السماء اليوم ﴿مُلِثَتْ﴾ وامتلات ﴿حَرَمًا﴾ أي: حراماً حافظين ﴿شَدِيدًا﴾ أقوياء على الحفظ والحراسة ﴿وَشُهَبًا﴾ [الجن: 8] جمع شهاب، وهو المضيء المتراكم من النار، نرجم بها ونطرد من حوالها.

﴿و﴾ بالجملة: ﴿أَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا﴾ أي: من السماء ﴿مَقَاعِدَ﴾ صالحة ﴿لِّلِسْمَعِ﴾ والاستماع ﴿فَمَنْ يَسْمَعُ الْآنَ﴾ بعد نزول القرآن في تلك المقاعد ﴿يَجِدْ لَهُ﴾ وعنده ﴿شُهَابًا رَّصَدًا﴾ [الجن: 9] راصداً قاصداً له، يرجمه ويمنعه من الاستماع.

﴿وَأَنَا﴾ اليوم ﴿لَا نَذِي﴾ ونعلم ﴿أَشْرُّ﴾ وفتنة ﴿أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: بالساكنين عليها بحراسة السماء، ومنع أخبارها عنهم ﴿أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾⁽¹⁾ [الجن: 10] يهديهم إلى التوكل والتسليم، وكمال تفويض أمورهم إلى العليم الحكيم، بحيث لا يحترزون عمًا جرى عليهم من قضائه بأخبار السماويين؟.

﴿وَأَنَا﴾ أي: نحن المخبورون ﴿مِنَّا الضَّالِّحُونَ﴾ الأبرار المؤمنون، الآمنون

(1) بحراسة السماء فحظك أيها السالك من هذه السورة أن يبقى وقت ورود الوارد؛ لئلا تسرق منه القوى النفسية، وتلبس فيها المعاني الخبيثة، ويلقي بها إليك بعد فتور الوارد ظن أنه الوارد بما فيه من معاني الوارد المسترقة، وتلتفت إليه ويسد عليك باب الوارد الأعلى بالتفاتك إلى معاني القوى النفسية، وأكثر من هلك من أهل السلوك من اليونانية والنصرانية الشكمانية بهذه المعاني الملتبسة بالوارد، لأنهم إذا اشتغلوا بالسلوك، اشتغلوا بربهم غير مشبين بعروة نبي من الأنبياء ليرشدكم في الغيب، ويطلعهم على الحق والباطل، ويهديهم إلى القوى المستخلصة، ويعرفهم خاصة القوى الملوثة؛ فإذا أصغوا وجودهم بالرياضة قويت القوى النفسية، وصعدت إلى سماء الصدر، واسترقت من المعارف الدانية، ونزلت إلى عالمها، وكملت مع صاحبها فظن صاحبها أنها وارد غيبي ترده من عالم الرب على قلبه واطمأن بها، واستدرج منها حتى صار إمامًا في ملة الشيطان راعيًا للأمم إليه، وهو خليفة خاص الشيطان والحكماء القديمة اليونانية والرهايين المرتاضة بالنصرانية وحكماء الهند الذين أنهم ظنوا الوصول إلى المأمون حين قالوا: إنا ناصر برخانًا، والبرخان بلغتهم: الواصل إلى الرحمن، وهم يقولون في أثناء السلوك، وفي الوصول بالاتحاد، وما جئنا معهم وألزمناهم بلطف الله وحسن توفيقه ومعونيته حتى أسلموا وآمنوا، ثم بعضهم ارتدوا وماتوا على الكفر بأنهم أقروا بأن الاتحاد باطل؛ فأما الأئمة المهدية الذين اعتصموا بحبل نبي من الأنبياء واشتغلوا بالسلوك، آمنوا من هذه الورطة الوعيرة بأن استحكمت عقدة إرادتهم، ذلك بولاية ذلك النبي حتى دخلت نوبة النبوة المحمدية الناسخة لجميع الأديان لكمال أدرج الله في نبوته، أغلق المسرفون باب سمعهم بالشهاب الثاقب من أوج ولاية رسالته؛ فمن دخل في زمرة متبعيه، واشتغل بالسلوك على وفق إشارته سلم من القوى الخبيثة النفسية وأمن من إلقائها، وينبغي للسالك ألا يغتر بأنه يقول على اللسان: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله، بأنه ممن يجوز له السلوك؛ لئلا يغتر بجبة الغرور في شبكة المغرور؛ لأن التشكيك أمر يختص بولاية الرسالة وينبغي أن يكون المسلك حيًا في عالم البشرية؛ ليهديك إلى الصراط المستقيم، ويقرئك الخواطر ومنشأها، والمسلك بعد النبي ﷺ هو إلى الذي كان وصاه بالأسرار، وعلمه كيفية الوصول إلى عالم الأنوار وأصله إلى حضرة الله الواحد القهار، وهو أرشد مريده ووصاه كما وصاه نبيه وعلمه وأوصله إلى الآن معنًا متصلًا؛ لتمكن الاستفادة من قلبه وقالبه صورة ومعنى، ويدفع عن نفسه كيد قطاع الطريق، ويسهل عليه العبور على مكانهم بقوته وهمته وذكره. [عين الحياة].

الأمينون لا يختلط بالأخبار المسموعة من الأكاذيب ﴿وَمِنَّا﴾ قوم ﴿ذُونَ ذَلِك﴾ لا أمانة لهم حتى يؤدوا الأخبار على وجهها، بل يوقعون الفتن والمحن بين الناس؛ إذ ﴿كُنَّا طَرَائِقُ﴾ أي: ذوي طرائق ومذاهب ﴿قَدَدًا﴾ [الجن: 11] متفرقة مختلفة؛ لذلك منعنا بأجمعنا عن استراق الأخبار السماوية، وانحصر الأمر بالوحي الإلهي؛ حتى لا يختل أمر النظام الموضوع على القسط والعدالة الإلهية.

﴿وَأَنَا﴾ بعدما كوشفنا بهداية القرآن، ورسالة محمد ﷺ تركنا ما كنا عليه من الضرر والإضرار لعباد الله؛ إذ ﴿ظَنَنَّا﴾ بل علمنا يقيناً ﴿أَن لَّنْ نُعْجِزَ اللَّهَ﴾ القادر المقتدر على أنواع الانتقام كائنين ﴿فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ﴾ أيضاً ﴿هَرَبْنَا﴾ [الجن: 12] منه سبحانه إلى السماء، أو إلى أي مكان شئنا.

﴿وَأَنَا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى﴾ أي: القرآن الموضح لطريق التوحيد ﴿آمَنَّا بِهِ﴾ واهتدينا بهدايته ﴿فَمَنْ يُؤْمِن بِرَبِّهِ﴾ ويوقن بوحدانيته ﴿فَلَا يَخَافُ﴾ أي: فهو لا يخاف ﴿بِخُسَا﴾ نقضاً في الجزاء والثواب ﴿وَلَا رَهَقًا﴾ [الجن: 13] ذلة تذله في الدارين؛ لأن من آمن اعتدل، ولم يبخس حق أحد، ولم يذله بظلم، فكذلك لا يبخس ولا يظلم.

﴿وَأَنَا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ۝ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ۝ وَأَلْوِ اسْتَقَمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَّاءً غَدَقًا ۝ لَتَفَتِنَهُمْ فِيهِ وَمَنْ يَعْزِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ۝ وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ۝ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِيَدَا ۝ قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا ۝ قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ۝ قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ۝﴾ [الجن: 14 - 22].

﴿وَأَنَا﴾ بعدما سمعنا الهدى والرشد ما كنا نؤمن ونهتدي جميعاً، بل ﴿مِنَّا الْمُسْلِمُونَ﴾ المنقادون لحكم الله، وأوامره ونواهيهِ الواردة في كتابه، المسلمون أمورهم كلها إليه سبحانه ﴿وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ﴾ الجاهلون المائلون عن الهداية، المنحرفون عن جادة العدالة الإلهية ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ﴾ منا، واعتدل وسلم ﴿فَأُولَئِكَ﴾ المسلمون المسلمون ﴿تَحَرَّوْا﴾ واجتهدوا ففازوا ﴿رَشَدًا﴾ [الجن: 14] يوقظهم عن سنة الغفلة، ويوصلهم إلى فضاء الوحدة.

﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ﴾ الجائرون الحاثرون في تيه الطغيان والكفران ﴿فَكَانُوا لِحَبَّتِهِمْ﴾ البعد والخذلان، وسعير الطرد والحرمان ﴿حَطَبًا﴾ [الجن: 15] توقد بهم النار، كما توقد بعصاة الإنس وطغاتهم.

ثم قال سبحانه: ﴿وَأَنْ﴾ أي: وأن الشأن والأمر أنه؛ أي: الجن والإنس المجبولين على فطرة التكليف ﴿لَوْ اسْتَقَامُوا﴾ واعتدلوا ﴿عَلَى الطَّرِيقَةِ﴾ أي: جادة المعرفة والتوحيد ﴿لَأَنْقَيْنَاهُمْ﴾ ⁽¹⁾ تطفأ لهم، وترحمًا عليهم ﴿مَاءً﴾ محييًا لأراضي أجسامهم الميتة بسموم الإمكان، ويحموم الأمانى الصاعدة من نيران الطبيعة ﴿غَدَقًا﴾ [الجن: 16] كثيرًا إلى حيث يجعل لهم روضة من رياض الجنان.

وإنما فعلنا معهم ذلك ﴿لِنَفْتِنَهُمْ﴾ ونختبرهم ﴿فِيهِ﴾ أي: في التنعم والترفيه، كيف يشكرون للنعم؟ وكيف يواظبون على أداء حقوق الكرم؟ ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ويزيد عليها ﴿وَمَنْ يُغْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ﴾ وينصرف عن طاعته وعبادته، ويكفر بنعمه، ولم يواظب بأداء حقوق كرمه ﴿يَسْلُكُهُ﴾ ويدخله ﴿عَذَابًا صَعَدًا﴾ [الجن: 17] يصعد عليه، ويعلو فوقه، وبالجملة: عذابًا شاقًا شديدًا، قاهرًا عليه عاليًا.

ثم قال سبحانه على سبيل التوجيه والتعليم لخلص عباده المؤمنين، والتوبيخ والتعريض للمشركين: ﴿وَوَعَلَّمُوا﴾ أعلموا أيها المكلفون من الثقلين ﴿أَنَّ الْمَسَاجِدَ﴾ المبنية؛ للميل والتقرب نحو الحق مختصة ﴿بِاللهِ﴾ خاصة خالصة ﴿فَلَا تَدْعُوا﴾ وتعبدوا فيها ﴿مَعَ اللهِ﴾ الواحد الأحد الصمد، المنزه عن الشريك والولد ﴿أَحَدًا﴾ [الجن: 18] عن مظاهره ومربوباته.

﴿وَوَعَلَّمُوا﴾ بعدما علمتم هذا بتعليم الله إياكم أعلموا ﴿أَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللهِ﴾ أي: النبي المؤيد من عنده سبحانه بأنواع العناية والكرامة المستلزمة لأنواع العبادة والإطاعة في

(1) الإسقاء والسقي بمعنى واحد، وقال الراغب: السقي والسقيا هو أن تعطيه ماء ليشرب والإسقاء أن تجعل له ذلك له حتى يتناوله كيف شاء كما يقال اسقيه نهرا فالإسقاء أبلغ، وغدق من باب علم إذا غزر وصف الماء به للمبالغة في غزارته كرجل عدل وتخصيص الماء الكثير بالذكر لأنه أصل السعة وإن كان أصل المعاش هو أصل الماء لا كثرته ولعزة وجوده بين العرب قال عمر رضي الله عنهما - أينما كان الماء كان العشب وأينما كان العشب كان الهال وأينما كان الهال كانت الفتنة والمعنى لأعطيناهم مالا كثيرا وعيشا رغدا ووسعنا على الرزق في الدنيا. تفسير حقي (16)

المسجد الحرام المعدّ لعبادة العليم العلّام، القدوس السلام ﴿يَدْعُوهُ﴾ ويعبدّه، ويتذلّل نحوه ﴿كَادُوا﴾ وقاربوا مشركي الجن والإنس ﴿يَكُونُونَ عَلَيْهِ﴾ ويزدحمون حوله متعجبين ﴿لَبَدًا﴾ [الجن: 19] متراكمين، كلبدة الأسد، وهو مستغرق في صلاته بلا التفات منه إليهم إلى أن أوحى إليه بما هم عليه من التعجب والتعجب من أمرهم.

ف قيل له من قبل الحق: ﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل للمزدحمين المتعجبين: ﴿إِنَّمَا أَدْعُو﴾ وأعبد ﴿رَبِّي﴾ الذي ربّاني على كمال المعرفة والإيقان، وأرسلني أن أدعو عموم المكلفين إلى توحيده ﴿وَلَا أُشْرِكُ بِهِ﴾ ومعه ﴿أَخَذًا﴾ [الجن: 20] من مظاهره ومصنوعاته.

فإن قالوا: هل لك أن تشاركنا معك في عبادتك وخضوعك؟ ﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل: ﴿إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ﴾ من تلقاء نفسي ﴿ضَرًا﴾ يضركم به ويعذبكم إن أردت إضراركم وتعذيبكم ﴿وَلَا رَشَدًا﴾ [الجن: 21] يرشدكم به ويهديكم إن أردت هدايتكم ورشادكم، بل لا أملك لنفسي ضرًا ولا نفعًا، فكيف لكم؟ بل ما ﴿أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾ [الأنعام: 50] والأمر بيد الله العليم الحكيم.

فإن قالوا: ما فائدة عبادتك وتخصيصها إياه؟ ﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل: لم لم أعبد ربي، ولم أخصه بالعبادة، مع ﴿إِنِّي﴾ أعلم منه سبحانه أنه ﴿لَنْ يُجِيرَنِي﴾ ويحفظني ويمنعني ﴿مِنْ﴾ عذاب ﴿اللَّهِ﴾ المتقم الغيور ﴿أَخَذَ﴾ من مظهره، لو أراد عذابي ﴿وَلَنْ أَجِدَ﴾ أبدًا ﴿مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ [الجن: 22] ملجأ وملاذًا ينقذني من بطشه وعذابه، لو جرى مشيئته سبحانه على تعذبي؟

وبالجملة: لا أملك لكم، ولا لنفسي ضرًا ولا نفعًا.

﴿إِلَّا بَلَاغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالَةً. وَمَن يَصِرْ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ، فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا

﴿٢٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَن أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾ قُلْ إِن أَدْرَأْتُ

أَقْرَبَ مَا تُوَعَدُونَ أَمِ الْجَعْلُ لِلَّهِ رَبِّي أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَلِيمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾

إِلَّا مَن أَرَادَ مِن رَّسُولِهِ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِيَحْكُمَ أَن قَدْ أُنَبِّئُوا

رِسَالَتِ رَبِّهِمْ وَأَلْهَمَ يَمَّا لَدَيْهِمْ وَأَخَصَّ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴿٢٨﴾﴾ [الجن: 23 - 28].

﴿إِلَّا بَلَاغًا﴾ وتبليغًا ﴿مِّنَ اللَّهِ﴾ ما أوحى إلي ﴿وَو﴾ سوى أدائه ﴿رِسَالَاتِهِ﴾ التي

أرسلني بها، وما لي سوى الإبلاغ والتبليغ ﴿و﴾ من جملة ما أوحى إلي: إنه ﴿مَنْ يَخْصِ اللَّهَ﴾ ويعرض عنه وعن عبادته من عباده ﴿و﴾ لم يصدق ﴿رَسُولُهُ﴾ المستخلف منه، القائم بأمره ﴿فَإِنْ لَهُ﴾ أي: حق وثبت له ﴿نَارَ جَهَنَّمَ﴾ في النشأة الأخرى، وبالجملة: صار العاصون المعرضون ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ [الجن: 23] لا نجاة لهم منها أصلاً.

وهم لا يزالون على عصيانهم بالله، مستظهرين بما معهم من الجاه والثروة، وكثرة الأموال والأولاد في نشأتهم الأولى ﴿حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ﴾ في النشأة الأخرى ﴿فَسَيَغْلُمُونَ﴾ حيثذ ﴿مَنْ أضعف ناصراً وأقل عدداً﴾ [الجن: 24] النبي وأتباعه، أم المشركون ومن معهم؟.

وبعدما سمع المشركون: ﴿إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ﴾ قالوا على سبيل الإنكار والاستبعاد: متى يكون؟ فقل من قبل الحق: ﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل: إنه كائن لا محالة، لكن وقته مفوض إلى علم الله ﴿إِنْ أَذْرِي﴾ أي: ما أعلم ﴿أَقْرِبَ مَا تُوعَدُونَ﴾ أي: وقوعه وقيامه ﴿أَمْ يَجْعَلُ لَهُ﴾ ولوقوعه ﴿رَبِّي أَمَدًا﴾ [الجن: 25] بعيداً، وأجلاً طويلاً؛ إذ هو من جملة الغيوب التي استأثر الله بها؟.

إذ هو ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ﴾ حسب حكيمته ﴿فَلَا يُظْهِرُ﴾ ولا يطلع ﴿عَلَى غَيْبِهِ﴾ المختص به ﴿أَخَذًا﴾ [الجن: 26] ⁽¹⁾ من خلقه.

﴿إِلَّا﴾ أي: يطلع من بعض غيوبه على ﴿مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ﴾ مأمون على غيبه، له قابلية الخلافة والنيابة عنه سبحانه ﴿فَإِنَّهُ﴾ يطلعه من غيبه على سبيل الوحي والإلهام حين ﴿يَسْأَلُكَ﴾ ويوكل سبحانه؛ لحفظه وحراسته ﴿مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ أي: بين يدي المرتضى ﴿وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾ [الجن: 27] حراماً من الملائكة يحرسونه من استراق الشياطين، واختطافهم وتخليطهم.

وانما فعل كذلك عند إطلاعه ووحيه إلى رسوله ﴿لِيُغْلَمَ﴾ الرسول الموحى إليه ﴿أَنْ﴾ أي: إنه ﴿قَدْ أَبْلَغُوا﴾ أي: حاملو الوحي مطلقاً ﴿رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ﴾ على وجهها

(1) قال ابن عجيبة في البحر المديد (2/ 180): عالم الغيب على التحقيق، فرياض الملكوت فائضة من بحر الجبروت، (كان الله ولا شيء معه، وهو الآن على ما عليه كان) ولا يعرف هذا ذوقاً إلا أهل العيان، الذين وحدوا الله في وجوده، وتخلصوا من الشرك جليه وخفيه.

مصونة محروسة عن اختطاف الشياطين، وتخليطاتهم المغيرة لها ﴿وَقَدْ سَبَّحَانَهُ قَدْ﴾ ﴿أَخَاطُ بِمَا لَدَيْنَهُمْ﴾ أي: لدى الرسل والملائكة جميعًا علمًا وحضورًا، بل ﴿وَقَدْ﴾ ﴿أَخْصَى كُلَّ شَيْءٍ﴾ دخل في حيلة الوجود ﴿عَدَدًا﴾ [الجن: 28] بحيث لا يعزب عن حيلة علمه وإحضائه شيء مما لمع عليه برق الوجود.

خاتمة السورة

عليك أيها المحقق المنكشف بإحاطة العلم الإلهي ولوح قضائه، وقلم تصويره وتخطيطه أن تعتقد وتدعن أن عموم ما جرى في ملكه وملكوته إنما هو بأمره ووحيه، ونفوذ قضائه ومضاء حكمه على حسب الحضور، بحيث يجتمع عند حضوره الأزل والأبد، والأولى والأخرى، والغيب والشهادة؛ إذ لا انقضاء دونه، ولا انصرام ولا تجدد لديه، ولا انخرام، بل الكل بالنسبة إلى قدرته وإرادته على سواء بلا تفاوت وتخالف. جعلنا الله من المنكشفين بحضور الحق وشهوده، مع كل شيء ودونه بميته وجوده.

سورة المزمل

فاتحة سورة المزمل

لا يخفى على ذوي الألباب والآداب المتحملين لأمانة التوحيد الإلهي أن من تمكن على تلك المرتبة لا بد ألا يشغله شيء سواها، ولا يلهيه أمل دونها، سيما المتحملين معه أعباء الرسالة والنبوة المشتملة على دعوة عموم المكلفين إلى سبيل التوحيد، وإرشادهم نحوه بالتصبر على أذياتهم، وتحمل المتاعب والمشاق في تبليغ الدعوة والتكميل.

فلا بد للنبي أن يبذل كمال وسعه وطاقته في إجراء الشرع، وإعلاء كلمة التوحيد وبلا تكاسل وتغافل عنه لمحة وطرفة.

كما نبه سبحانه على حبيبه ﷺ منادياً إياه على وجه الخطاب المنبئ عن العتاب بعد التبرك باسمه: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ المتجلى بعموم كمالاته على من اختاره لرسالته، واصطفاه لخلافته ﴿الرَّحْمَنُ﴾ لعموم عبادته بإرسال الرسل، ووضع الشرع والدين القويم فيما بينهم ﴿الرَّحِيمُ﴾ لخواصهم، يوصلهم إلى سرائر التكاليف الواقعة في طريق التوحيد واليقين.

﴿يَا أَيُّهَا الْمَزْمُلُ ① قُرْ أَلَيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ② نِصْفَهُ ③ أَوْ أَنْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ④ أَوْزِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ⑤ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ⑥ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأًا وَأَقْوَمُ قِيلًا ⑦ إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ⑧ وَادْكُرْ أَنَّمْ رَبِّكَ وَتَبْتَئِلُ إِلَيْهِ تَتَسَبَّلًا ⑨ رَبُّ لِلشَّرْقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ⑩ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَأَهْجِرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ⑪ وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ⑫ إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا ⑬ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ⑭﴾ [المزمل: 1 - 13].

﴿يَا أَيُّهَا الْمَزْمُلُ﴾ [المزمل: 1] المتغطي المتلفف بثوبه وقطيفته نائمًا، أو مرتدعًا عما دهشه بدء الوحي.

شان النبوة والرسالة ما هو هذا ﴿قُمِ اللَّيْلُ﴾ وداوم على التهجد فيه ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾

[المزمل: 2] منه؛ للاستراحة والنوم تقوية لمركب بدنك، وتنشيطاً له على العبادة.

يعني: ﴿نُصْفَهُ﴾ أي: نصف الليل ﴿أَوْ انْقُضَ مِنْهُ﴾ أي: من النصف ﴿قَلِيلاً﴾ [المزمل: 3] ليقرب الثلث.

﴿أَوْ زِدْ عَلَيْهِ﴾ أي: على النصف حتى يقرب الثلثين، وإنما خير بين هذه الثلاثة؛ لأنه فرض أولاً قيام الكل، ولما تخرجوا ومرضوا، وشق عليهم الأمر، رحم الله عليهم فخيرهم في هذه الأوقات بناء على تفاوت أمزجة الناس في عروض الكلال بالسهر، وبعد القيام تهجد ﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾ [الإسراء: 79]، ﴿وَرَتِّلْ﴾ في تهجدك ﴿الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾ [المزمل: 4] أي: بين حروفه، وقررها في مخارجها إلى حيث لا يشتبه على السامع العارف بأساليب الكلام ومنطوقات الألفاظ معانيها.

وبالجملة: اقرأها على تودة تامة، وطمانينة كاملة بعزيمة خالصة، وإرادة صادقة إلى حيث تتأثر من ألفاظ القرآن فطرتك وفطنتك التي هي خلاصة وجودك، وزبدة أركانك وطبيعتك؛ إذ بها توصلك ووصولك إلى مقصد التوحيد واليقين.

وبالجملة: ﴿إِنَّا﴾ من مقام عظيم جودنا ﴿سَنُلْقِيْكَ عَلَيْهِ﴾ يا أكمل الرسل ﴿قَوْلًا﴾ جزلاً سهلاً، خفيفاً على اللسان ألفاظه وكلماته ﴿ثَقِيلاً﴾⁽¹⁾ [المزمل: 5] عظيمًا على القلب رموزه وإشاراته، والاتصاف بما فيه، والامثال بمقتضيات أوامره ونواهيه، والاطلاع على سرائر الأحكام الموردة فيه، والإحاطة بقوادمه وخوافيه، وبالجملة: من تأمل فيه على وجه التدرب والتدبر فقد غرق في تيار بحاره الزخار.

وتخصيص الأمر بالليل وترتيل القرآن فيه ﴿إِنْ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ﴾ أي: القراءة التي تنشأ من النفس في جوف الليل حين خلو القلب عن جميع الأشغال والملاهي ﴿هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا﴾ تأثيراً ودفعاً في القلب، وتنبيهاً له، وإن كانت أثقل للنفس وأتعب للبدن

(1) يعني: ثقيلاً في العمل والوزن والقدر؛ أي: عمله ثقل على الأبدان، وثوابه في الميزان، وقدره عظيم عند الرحمن، والموارد ثقل إذا يرد على السالك في البداية كأن السماء وقعت عليه، ولا يحسب أن ثقل الوارد يوازي ثقل الرحي ولا عشر عشرة، روت عائشة رضي الله عنها «رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ينزل عليه في اليوم الثاني الشديد البرد فينقصم عنه وأن جبينه يتفصد عرقاً» وهو في القوة بمرتبة، قيل في حقه أن الله أعطاه أربعين ضعف قوة أعطاه الله لموسى بن عمران وهو أقوى الأنبياء. [عين الحياة].

﴿وَأَقُومُ قِيْلًا﴾ [المزمل: 6] أي: أعدل الأقوال بالنسبة إلى القلب وأرسخها فيه، وأقواها أثراً وانتباهاً بخلاف النهار.

﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ﴾ الذي هو وقت الأشغال والالتفات إلى المهمات، ومحل أنواع الملمات والواقعات؛ لذلك عرض لك فيه ﴿مَنْبَحًا طَوِيلًا﴾ [المزمل: 7] ⁽¹⁾ ثقلًا وتصرفًا طويلًا شاغلًا لأوقاتك، مشوشًا لحالاتك.

وبالجملة: الفراغ الذي يحصل بالليل لا يحصل في النهار، فعليك أن تجتهد في التهجد، وتقرأ القرآن فيه، سيما عند الفجر ﴿إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: 78].

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿أَذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ﴾ ودم على تسيحه وتقديسه دائمًا في أوقاتك وحالاتك، ولا تشغلنك عن ذكره مهماتك، بل ﴿وَتَبَتَّلْ﴾ أي: تجرد وانقطع عن عموم المهام ﴿إِلَيْهِ﴾ سبحانه ﴿تَبَتَّلًا﴾ [المزمل: 8] وتجريدًا كاملاً بحيث لا يخطر ببالك الالتفات بحالك، فكيف بحال غيرك؟

وكيف لا تنقطع إليه ولا تتجرد نحوه، مع أنه سبحانه ﴿رُبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ أي: جنس المشارق والمغارب التي هي ذرات الكائنات باعتبار ظهور شمس الذات منها، وشروقها عليها، وباعتبار بطونها وخفائها فيها؛ إذ ﴿لَا إِلَهَ﴾ أي: لا موجود في الوجود ﴿إِلَّا هُوَ﴾ ولا شيء سواه ﴿فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل: 9] سيما بعدما لم يوجد في الوجود غيره أصيلاً؟

﴿وَ﴾ بعدما اتخذه وكيلاً، وجعلته حسيًا وكفيلاً ﴿اضْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾ أي: المشركون المترفون من الخرافات والجزافات التي لا تليق بشأنك، إن شق عليك الصبر والتحمل ﴿وَاهْجُزْهُمْ﴾ اتركهم وانصرف عنهم ﴿هَاجِرًا جَمِيلًا﴾ [المزمل: 10] بشأماً بشاماً بلا التفات إلى هذياناتهم الباطلة، وبلا مبالاة بهم وبكلامهم، وتوكل على الله، وفوض أمر انتقامهم إليه، فإنه يكفيك مؤنة شرورهم واستهزائهم.

ثم قال سبحانه على سبيل التسلية لحبيه ﷺ: ﴿وَ﴾ بعدما بالغوا في قدحك

(1) أي: سبخاً في أعمالك، والسبح: الذهب والسرعة، ومنه السباحة في الماء، فالمعنى: مذهبك في النهار فيما يشغلك كثيرة، والليل أخلى لك. تفسير القشيري (494/7).

وطعنك يا أكمل الرسل ﴿ذُرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ﴾ يعني: دعني معهم، وفوض أمر انتقامهم إلي، فلاني أنتقم عنهم من قبلك، وأدفع أذاهم عنك، وأغلبك عليهم، وإن كانوا ﴿أُولِي النِّعْمَةِ﴾ وذوي الثروة والسيادة، وأصحاب التنعم والوجاهة - يريد صناديد قريش - ﴿وَلَا تَسْتَعْجِلْ فِي انتِقَامِهِمْ، بَلْ ﴿مَهْلُهُمْ﴾ إِمَهَالًا ﴿قَلِيلًا﴾﴾ [المزمل: 11] أو زمانًا قليلًا.

ولا تياس من مكرنا إياهم ﴿إِنَّ لَدَيْنَا﴾ معدًا لهم أنواعًا من العذاب ﴿أَنْكَالًا﴾ أثقالًا؛ لتأقلهم وعدم تحملهم وتصبرهم بمتاعب التكاليف الإلهية، ومشاق الطاعات والعبادات المأمورة لهم من قبله سبحانه ﴿وَجَحِيمًا﴾ [المزمل: 12] عظيمًا بدل ما يتلذذون بنيران الشهوات، ويظلمون الناس بأنواع الغضب والطغيان.

﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ﴾ ينشب في الحلق، و﴿لَا يَشْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ﴾ [الغاشية: 7]، بدل ما يأكلون من السحت والربا، وأموال اليتامى ظلمًا ﴿وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾ [المزمل: 13] ⁽¹⁾ لا عذاب أشد إيلامًا منه، وهو حرمانهم عن لقاء الله، وخذلانهم على ما فات عنهم من التحقق في كثف حفظه وجواره.

﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَغِيًّا مَهِيلًا﴾ ١٤ ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ رَسُولًا شَهِدًا عَلَيْكَ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾ ١٥ ﴿فَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَلَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ ١٦ ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾ ١٧ ﴿السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا﴾ ١٨ ﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ لِنَفْسِهِ مَسِيلًا﴾ ١٩ [المزمل: 14 - 19].

اذكر لهم يا أكمل الرسل، وإن لم يصدقوا ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ﴾ تضطرب وتزلزل ﴿الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ﴾ من شدة الحركة والاضطراب اندكت وتناثرت فصارت ﴿كَغِيًّا﴾ رملاً مجتمعاً ﴿مَهِيلًا﴾ [المزمل: 14] مشورًا، تذروه الرياح حيث شاء، كسائر الرمال الآن في البراري والبادي.

وكيف لا نأخذ المجرمين المشركين بظلمهم يومئذ، ولا نعذبهم بأنواع العذاب

(1) البحر المديد (6 / 442): وطعامًا ذَا غُصَّةٍ يغص الروح عن شراب الحمرة؛ لضيق مسلكه بوجود العوائق، وعذابًا أَلِيمًا: البعد والطرده عن باب حضرتنا وجناب كبرياتنا.

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ﴾ يا أهل مكة بعدما انحرقتم عن جادة العدالة على مقتضى سنتنا في الأمم السالفة ﴿رَسُولًا﴾ ناشئًا منكم؛ يعني: محمدًا ﷺ ﴿شَاهِدًا﴾ يشهد ﴿عَلَيْكُمْ﴾ يوم القيامة بالإجابة والامتثال بعدما أمرنا له، وأوحينا إليه أن يدعوكم إلى الإيمان، ويأمركم بالطاعات والإحسان ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ الطاغية الباغية ﴿رَسُولًا﴾ [المزمل: 15] يعني: موسى الكليم عليه السلام؛ ليدعوه إلى الإيمان، ويأمره بلوازمه.

وبعدما دعاه وأمره بما أمر به الحق ﴿فَعَصَى﴾ وتكبر ﴿فِرْعَوْنَ الرَّسُولَ﴾ وعتا عليه، واستكبر عن دعوته ﴿فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ [المزمل: 16] ثقیلاً شديداً إلى حيث أغرقناه وجنوده في اليم، وأورثنا أرضه ودياره وأمواله لبني إسرائيل.

هذا أخذنا إياهم في النشأة الأولى، وفي الأخرى بأضعافها وآلافها، فأنتم أيضاً يا أهل مكة مثل فرعون عصيتم رسولكم الذي أرسل إليكم؛ يعني: محمدًا ﷺ، فأنخذكم مثلما أخذنا فرعون، في الدنيا نجعلكم صاغرين مهانين، وفي الآخرة مسجونين بعذاب اليم، مخلدين في النار أبد الأبد.

ثم قال سبحانه على سبيل التوبيخ والتقريع تهويلاً عليهم، وتعريضاً: ﴿فَكَيفَ تَتَّقُونَ﴾ وتحفظون أنفسكم أيها المنهمكون في أنواع الغفلات والجهالات ﴿إِنْ كَفَرْتُمْ﴾ وبقيتم على الكفر، ومنتهم عليه، مع أنكم ستستقبلون وتقعون يوماً، وأيّ يوم ﴿يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾ [المزمل: 17] من غاية طوله، وشدة أهواله وأحزانه ١٩

هذا على وجه التمثيل والتشبيه بحسب متفاهم العرف، وإلا فلا يكتنه هول ذلك اليوم وشدته بالوصف والبيان.

ومن جملة ما يدل على شدة هوله: إنه ﴿السَّعَاءُ﴾ المشيدة المحكمة ﴿مُنْفِطِرٌ بِهِ﴾ أي: متشقة متضععة، منخرمة في ذلك اليوم بمقتضى قهر الله وجلاله، وكيف لا يكون كذلك بعدما وعد الله القادر المقتدر على عموم ما دخل في حيطه علمه وإرادته بوقوعه، ولا شك أنه ﴿كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا﴾ [المزمل: 18] دائماً، وأمره مقضياً أبداً، وحكمه مبرماً أزلاً، وقضاؤه نافذاً سرمداً ١٩

﴿إِنْ هَلِهُ﴾ الكلمات الدالة على إنجاز وعد الله ﴿تَذَكُّرَةً﴾ وعظة للمتعظين المتذكرين من أرباب العناية والتوفيق ﴿فَمَنْ شَاءَ﴾ أن يتعظ بها ﴿اتَّخَذْ﴾ وأخذ ﴿إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ [المزمل: 19] بعدما وفقه الحق، وأعان عليه بالخروج عن لوازم الإمكان، وهداه للخروج إلى معارج الوجود مترقياً من درجة إلى درجة، ومقام إلى مقام إلى أن

وصل إلى مبدأ طريق الفناء، ثم ترقى منه أيضاً من حالة إلى حالة إلى أن فني عن الفناء أيضاً، وبعد ذلك صار ما صار، وليس وراء الله مرمى ومتهى.

﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَن لَّنْ نَّحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكَ فَاقْرَأْ وَاصْبِرْ لِّمَا يَنْسِرُ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِيمٌ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَأْ وَاصْبِرْ لِّمَا يَنْسِرُ مِنْهُ وَاقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاقْرَأُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِن خَيْرٍ نَّحْدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ وَأَعْظَمَ لَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا لِلَّهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾ ﴾ [المزمل: 20].

وبعد ما أمر سبحانه حبيبہ ﷺ بقيام الليل على الوجه المذكور، وحثه عليه، ورغبه على وجه المبالغة والتأكيد بأن علله بعلمه سبحانه إياه على أي وجه، فقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿يَعْلَمُ﴾ بعلمه الحضورى ﴿أَنَّكَ تَقُومُ﴾ إلى التهجد ﴿أَدْنَىٰ﴾ وأقل ﴿مِن ثُلُثِي اللَّيْلِ﴾ وأعلى، وأكثر من نصفه تارة ﴿وَوَ﴾ تارة أخرى أدنى من ﴿نِصْفَهُ﴾ السياق يدل على أن التفسير جرى على قراءة ابن عامر ونافع وغيرهما: ﴿نِصْفِهِ وَ﴾ تارة أدنى من ﴿ثُلُثَهُ﴾ السياق يدل على أن التفسير جرى على قراءة ابن عامر ونافع وغيرهما: ﴿ثُلُثَهُ﴾ وأكثر من ربه، وهذا أدنى تاراتك، وأعلاها: ما هو أدنى من ثلثي الليل؛ إذ هي أقرب إلى قيام الكل الذي فرض أولاً، ثم الثانية، ثم الثالثة.

﴿وَطَائِفَةٌ﴾ أي: ويعلم سبحانه أيضاً قيام طائفة ﴿مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿الَّذِينَ﴾ يقومون ﴿مَعَكَ﴾ ويوافقون لك في تهجدك وقيامك؛ يعني: علمه سبحانه محيط بهذه الأوقات الثلاثة الواقعة منك ومنهم، بخلاف علمك فإنه؛ أي: علمك لا يقدر بتعيينها على وجهها ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿اللَّهُ﴾ العليم الحكيم الذي ﴿يُقَدِّرُ﴾ بمقتضى علمه وإرادته ﴿اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ على سبيل التجدد والتتابع، والاختلاف طويلاً وقصراً، وإيلاج بعض أجزاء كل منهما على الآخر، وإخراجهما منه، وضبط أجزائهما وساعاتهما وآثائهما، إنما هي بعلمه لا بعلم غيره من مظاهره ومصنوعاته، وهو سبحانه ﴿عَلِيمٌ﴾ منك ﴿أَنَّ﴾ أي: إنه ﴿لَن نَّحْصُوهُ﴾^(١) أي: ليس في وسعكم وطاقتكم تقدير الأوقات، وضبط

(١) حتى لن تطيقوه، لأن القوة البشرية لا تتحمل هذه المجاهدات التي كتم تشتغلون بها في البدايات، لأن المبتدئ الرحيل في الطريق ومباينه يظن أنه بالمعجلة وحمل الميثاق بقطعه وذلك

الأحيان والساعات، وإحصاء الآناء الواقعة في الليل والنهار، وقيامكم في كلها أو بعضها على وجه التعيين والتخصيص.

وبعدما ظهر عنده سبحانه عدم طاقتكم ووسعكم ﴿قَتَابَ﴾ أي: عاد ﴿عَلَيْكُمْ﴾ ورجع عما ألزمتكم، وأزال تعبكم بالرخصة في ترك القيام المقدر المعين على الوجوه المذكورة؛ إذ لا يسع لكم ضبطها، وبعدما رخصكم سبحانه، وخفف عنكم تفضلاً وامتناناً، قوموا في خلال الليل مقدار ما يسر الله لكم ووفقكم عليه ﴿فَاقْرَءُوا﴾ أي: صلوا التهجد بقراءة ﴿مَا تيسَّرَ﴾ لكم ﴿مِنَ الْقُرْآنِ﴾ المقرون بصلاتكم.

قيل: كان التهجد واجباً على التخيير المذكور، ثم رخص بترك التقدير والتعيين، ثم نسخ هذا أيضاً بالصلوات الخمس المقدرة في الأوقات الخمسة، وإنما نسخه سبحانه؛ إذ ﴿عَلِمَ﴾ بمقتضى حضرة علمه وحكمته ﴿أَنْ﴾ أي: إنه ﴿سَيَكُونُ﴾ بعضاً ﴿مِنْكُمْ مُرَضًى﴾ من السهر المفرط؛ إذ الأبدان متفاوتة في تحمل المشاق، سيما ترك النوم المعد؛ لاستراحة البدن في الليل ﴿وَوَ﴾ أيضاً ﴿آخِرُونَ﴾ منكم ﴿يَضْرِبُونَ﴾ ويسافرون ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ سفرًا مباحًا ﴿يَبْتَغُونَ﴾ ويطلبون بسفرهم ﴿مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ وسعة جوده وكرمه مزيد رزق، أو طلب علم، أو صلة رحم، أو زيارة صديق إلى غير ذلك من الأمفار المشروعة، فيتخرجون بقيام الليل والتهجد فيه ﴿وَوَآخِرُونَ﴾ أيضاً ﴿يَقَاتِلُونَ﴾ مع أعداء الله ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ترويحاً لدينه، وإعلاءً لكلمة توحيده، فإنهم لو تهجدوا لضعفوا ألبتة فشق عليهم أمر القتال.

وبعدما أزال عنكم سبحانه حرجكم وتعبكم بمقتضى حكمته المتقنة البالغة، فعليكم ألا تتركوا التهجد رأساً، ولا تنسوه جملة، بل قوموا في خلال الليل؛ للتهجد إن استطعتم ﴿فَاقْرَءُوا﴾ فيه ﴿مَا تيسَّرَ﴾ لكم ﴿مِنْهُ﴾ أي: من القرآن ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ المفروضة، وواظبوا على أدائها وقيامها حق المواظبة، وراعوا أركانها وأبعاضها وهيئاتها على وجوهها، وبالجملة: أدوها على وجه يرضى عنكم مولاكم، ولا تهاونوا عليها، ولا تقصروا فيها.

واعلموا أيها المؤمنون أن الفارق بين الإيمان والكفر، والهداية والضلال إنما هي

الصلاة التي هي أقوى أعمدة الدين وأقومها ﴿و﴾ أيضًا ﴿آتُوا الزَّكَاةَ﴾ المأمورة لكم على سبيل الوجوب؛ تزكيةً لأنفسكم عن الشح، وأموالكم عن الفضلات، وتمريضاً لأنفسكم على الإنفاق وفعل الخيرات ﴿و﴾ بعد أداء الواجب من الزكاة ﴿أَقْرِضُوا اللَّهَ﴾ القادر المقتدر على وجوه الإنعامات بإعطاء فواضل الصدقات، وأنواع الخيرات وبناء المساجد والرباطات، وغير ذلك مما يتعلق بمصالح المسلمين من المنافع الحاصلة بالمال ﴿قَرْضًا حَسَنًا﴾ بلا شوب المني والأذى، والسمعة والرياء، والعجب وأنواع الهوى.

﴿و﴾ اعلّموا أيها المؤمنون أن ﴿مَا تُقَدِّمُوا﴾ وتؤخروا ﴿لأنفسكم مِن خَيْرٍ﴾ موجب لأجر مستلزم لثواب، سواء كان مالياً أو بدنياً، قبل حلول الأجل وهجوم الموت ﴿تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ المفضل المنعم ﴿هُوَ خَيْرٌ وَأَعْظَمُ أَجْزًا﴾ وأكرم محلاً، وأعز درجة ومنزلاً من الذي يؤخرونه إلى الوصية حين حلول الأجل ﴿و﴾ إن جرى عليكم في سالف زمانكم ما جرى من ترك الاستغفار ﴿اسْتَغْفِرُوا اللَّهَ﴾ المفضل المكرم لما صدر عنكم، واشتغلوا لامثال أوامره في بقية أعماركم تلافياً لما مضى ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المطلع على إنباتكم ونياتكم فيها ﴿غَفُورٌ﴾ يغفر زلتكم الماضية أيضاً ﴿رَحِيمٌ﴾⁽¹⁾ [المزمل: 20] يقبل توبتكم اللاحقة لها بمئه وجوده.

خاتمة السورة

عليك أيها السالك لسلوك التوحيد، والقاصد نحو مقصد الفناء أن تبذل وسعك في طريق التوحيد ببدنك ومالك، وجميع أحوالك وأطوارك، وتجتهد في تصفية ظاهرِكَ وباطنك، وتخليّة قلبك عن الشواغل العائقة عن التوجه التام والالتفات الخالص. فلك أن تلازم العزلة، وتداوم الخلوة، وتواظب على الاتصاف بالأطوار والأخلاق الموروثة لك من النبي المختار، والمأثورة منه من الآثار، وامثال ما في كتاب الله من الأوامر والنواهي والأحكام الموردة فيه؛ لتصفية الخاطر عن الميل إلى ما

(1) يعني: يغفر لمن يتوب إليه بعد الاكتساب من المعاصي، ويرحم من تغلب عليه شهوته، وهو يريد أن يدفعها ولا يمكن له دفعها لغلبة قواها القلبية والنفسية، وضعف قوى قلبه ينصره بخواطر السكينة وملكية الرحمة ما لنا ذلة على صدره من عالم سبره ليخرج من ضيق المجاهدة مع الشهوة إلى متسع عالم الرحمة. [عين الحياة].

سوى الحق من الأغيار الساقطة عن درجة الاعتبار؛ لتكون من الأبرار الأخيار
الموسومين بأولي العبرة والأبصار، وتفوزوا بما فاز من الرموز والأسرار.

وإياك إياك ومصاحبة الأشرار المغترين بلذات الدنيا الغدارة، وشهوات الحياة
المستعارة المستلزمة لأنواع الخسار والبوار.

جعلنا الله الغفور الغفار من ذوي العبرة والاستبصار بفضله وطوله.

سورة المدثر

فاتحة سورة المدثر

لا يخفى على أرباب الكشف والشهود، المنخلعين عن جلباب عالم الناسوت، الرافلين بخلق عالم اللاهوت أن من خرج عن بقعة الإمكان مهاجرًا إلى الله بعدما جذبه العناية والتوفيق من جانبه سبحانه، فحين خروجه وتفرقه عن مألوفات عالم الطبيعة، وظهور طلائع سلطان الوحدة الذاتية، واستيلائه بنظر شهوده، طرأ عليه حالات عجيبة وصور بديعة إلى حيث أرعدته وأزعجته إلى الفرار نحو مألوفات الطبيعة، والنظر والتغطي بملابسها، فصار عليها إلى أن تمكن على فطرة الوحدة، وتمرن عليها بلا خوف ورعدة، إن أدركته العناية الإلهية، وشملته الجذبة الأحدية.

هكذا جرى على نبينا ﷺ في أوائل شهوده وانكشافه؛ إذ كان يومًا متوجهًا بحراء الفناء، منخلعًا عن لوازم عالم الناسوت بالمرة حتى ظهرت عليه أمارات عالم اللاهوت، فنودي حينئذ من قبل فناء الفناء نداءً عجيبًا، وصداءً غريبًا، بحيث لم يسمع مثله سمع سره ﷺ.

وكان ﷺ حينئذ في عالم التلون، فنظر بعين شهوده يمنة ويسرة فلم ير شيئًا، فنظر فوق ذلك العالم فرأى ما رأى، وانكشف بما انكشف، فرعب وارتعد، ورجع هاربًا مرعوبًا مفلوبًا، قلقًا حائرًا حتى وصل إلى خديجة الطبيعة، وتكلم معها بكلمة: دثريني بملابسك وجلبابك، فدثرته الطبيعة مرة أخرى، فأدركه الخطاب الإلهي، فأدبه وأخرجه من سجن الطبيعة، وملابس الهيولى بالكلية، حيث قال متيمنا: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ الذي رآه حبيبنا محمدًا ﷺ على فطرة المعرفة والتوحيد ﴿الرَّحْمَنِ﴾ عليه؛ إذ أخرجه عن مضيق الإمكان المستلزم لأنواع التخمين والتقليد ﴿الرَّحِيمِ﴾ عليه، يوصله إلى سماء التجريد، ويمكنه في فضاء التفريد.

﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبِّكَ فَكَذِبْ ۝٣ وَيَبْلُوكَ فَلْيَكْذِبْ ۝٤ وَالرَّجَزَ فَأَمْسِرْ ۝٥ وَلَا تَعْنُ تَسْكَرْ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ۝٧ فَإِذَا نُفِرَ فِي النَّفْرِ ۝٨ فَذَلِكَ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝٩ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ۝١٠ نَذَرِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَجِيدًا ۝١١ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّحْدُودًا ۝١٢ وَبَيْنَ شُهُودًا

﴿وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِينًا﴾ ١٤ ﴿ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ﴾ ١٥ ﴿كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عِينِدًا﴾ ١٦ ﴿مَا أَزْهَقُهُ مَصْعُودًا﴾ ١٧ ﴿إِنَّهُ فَعَّرَ وَقَدَّرَ﴾ ١٨ ﴿فَقِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ ١٩ ﴿ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ ٢٠ ﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾ ٢١ ﴿ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ﴾ ٢٢ ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ﴾ ٢٣ ﴿وَأَشْتَكَبَرَ﴾ ٢٤ ﴿فَقَالَ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُؤْتَرٌ﴾ ٢٥ ﴿[المدثر: 1 - 24].﴾

﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ [المدثر: 1] والمتدثر: المتغطي بملابس الطبيعة، وثياب الإمكان الموجبة لأنواع الخسران والحرمان.

﴿قُمْ﴾ من عالم الطبيعة، وأخرج عن مضيق بقعة الإمكان بعدما كشفت طلائع فضاء اللاهوت، وبعدها خلصت من سجن عالم الناسوت ﴿فَأَنْذِرْ﴾ [المدثر: 2] عموم بني نوعك؛ أي: المحبوسين في سجن الإمكان، المقيدون بسلاسل الزمان، وأغلال المكان عن دركات النيران، وأودية الضلالات والجهالات المترتبة على الأوهام والخيالات الباطلة الموجبة لأنواع الحرمان والخسران في النشأة الأولى والأخرى.

﴿وَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْمُلُونَ﴾ ٢٦ ﴿الَّذِينَ يَكْمُلُونَ﴾ الذي ربك على فطرة المعرفة والإيقان بأنواع التبجيل والتعظيم ﴿فَكَبِّرْ﴾ [المدثر: 3] ⁽¹⁾ ذاته تكبيراً كاملاً إلى حيث لا يخطر ببالك معه شيء؛ إذ هو المتعزز برداء العظمة والكبرياء، لا شيء سواه.

وبعدما انكشفت بوحدة ربك، وكبرته تكبيراً لائقاً بشأنه ﴿وَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْمُلُونَ﴾ التي هي ملابس بشريتك ﴿فَطَهِّرْ﴾ [المدثر: 4] عن أوساخ الإمكان، وقدر عالم الطبيعة والهيولي، فإن طهارتك عنها واجبة عليك في ميلك إلى مقصد الوحدة.

﴿وَالرُّجْزَ﴾ أي: الرجز العارض لبشريتك من التقليدات الموروثة، والتخمينات المستحدثة من الآراء الباطلة، والأهواء الفاسدة المكدرة لصفاء مشرب التوحيد واليقين من الأخلاق الرديئة، والملكات الغير مرضية من الشهوية والغضبية المترتبة على القوى

(1) قال الوردجي: يا أيها المدثر، أي: يا أيها الفريق في قلزوم القدم، قُمْ لدعوى محبتي، وأنذر أحبائي عن الاشتغال بغيري، وأظهر جواهر حقائق بحر غيبي للمقبلين إلينا. ثم قال على قوله: (وربك فكبر)، عن الحسين: عظم قدره عن احتياجه إليك في الدعوة إليه، فإن إجابة دعوتك ممن صبغت له الهداية مني. قال القشيري: كبر ربك عن احتياجه إلى تكبير أحد، فإن كبرياءه ذاتي له، قائم بنفسه، لا بغيره من المكبرين. والمتبادر أنه أمر الداعي بتعظيم الله وإجلاله دون غيره من سائر المنكرين، فلا تمنعه جلالة أحد من العظماء والمكبرين عن التصدي لإنذاره وتذكيره.

البهيمية إلى غير ذلك من القبايح الصورية والمعنوية.

﴿فَاهْجُزْ﴾ [المدثر: 5] أي: جانب وافترق؛ ليتمكنك التخلق بأخلاق الله، والاتصاف بأوصافه.

ومن جملة الأخلاق المذمومة، بل من معظمها: المنة على الله بالطاعة وفعل الخيرات، وعلى عباده بالتصدق والإنفاق عليهم.

﴿وَ﴾ إذا سمعت ﴿لَا تَمْنُنْ﴾ على الله مباهايًا بطاعتك، وعلى عباده تفوقًا عليهم ﴿تَشْتَكِرُ﴾ [المدثر: 6] وتستجلب نعم الله على نفسك وإحسانه عليك، وامتنانه لك بما لا مزيد عليه، أو المعنى: ﴿لَا تَمْنُنْ تَشْتَكِرُ﴾ أي: لا تعط أحدًا شيئًا على نية أن تستكثر وتتعرض منه بدله أكثر مما أعطيت، على مقتضى القراءتين.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿لِرَبِّكَ﴾ الذي ربك على الخلق العظيم ﴿فَاضْبِرْ﴾ [المدثر: 7] على مشاق التكاليف، ومتاعب الطاعات والعبادات، وعلى أذيات المشركين حين تبليغ الدعوة إياهم، وإيصال الوحي إليهم.

وبعدما سمعت يا أكمل الرسل من الوصايا ما سمعت، امثل بها واتصف بمقتضاها اتقاء عن يوم الجزاء.

﴿فَإِذَا نُقِرَ﴾ ونُفخ ﴿فِي الثَّاقُورِ﴾ [المدثر: 8] أي: الصور المصور؛ لتصويت الأموات؛ ليعثوا من قبورهم أحياء كما كانوا، ثم نُقِرَ ثانياً؛ ليحشروا إلى المحشر، ويحاسبوا بين يدي الله، ثم يجازوا على مقتضى ما يحاسب، إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر.

﴿فَذَلِكَ﴾ أي: وقت النقر الثاني للحشر والوقوف بين يدي الله ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يوم القيامة ﴿يَوْمَ غَسِيرَ﴾ [المدثر: 9].

﴿عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ إذ عسر عليهم حيثُذ الأمر، واشتد الهول، وتشتت أحوالهم واضطربت قلوبهم، وبالجملة: ﴿غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ [المدثر: 10] عليهم حسابهم؛ لذلك عسر عليهم.

وبعدما سمعت قيام يوم القيامة وتنقيد الأعمال فيها، والجزاء عليها، لا تستعجل يا أكمل الرسل الانتقام المشركين المفسدين، ولا تعجل عليهم، بل ﴿فَزِنِي﴾ يا أكمل الرسل ﴿وَمَنْ خَلَقْتُ﴾ أي: مع شخص خلقته ﴿وَحِيدًا﴾ [المدثر: 11] متفردًا من أهل

عصره، مفروزا منهم بكثرة الأموال والأولاد، والثروة والجاه، إلى حيث لُقب بين قومه بريحانة قريش؛ يعني: وليد بن المغيرة.

﴿وَجَعَلْتُ لَهُ﴾ توسيعاً عليه، وامتناناً له ﴿مَالاً مَّندُودًا﴾ [المدثر: 12] كثيراً

وافراً، متزايداً يوماً فيوماً بالتجارة والتاج والزراعة وغير ذلك.

﴿وَيَنْبَنَ شُهُودًا﴾ [المدثر: 13] حضوراً معه دائماً، لا ينفصلون عنه زماناً؛

لاستغنائهم عن التجارة والحراثة وسائر المصالح؛ لكثرة خدمهم وحشمهم، بحيث لا احتياج لهم من تهيئة أسبابهم إلى تردهم بأنفسهم؛ لذلك يحضرون معه في جميع المحافل والمجالس، والأندية تكميلاً لثروته ووجاهته.

﴿وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا﴾ [المدثر: 14] أي: بسطت له بسطاً واستيلاءً، يتحسر

ويتحسد بحاله جميع بطون العرب وأفخاذهم.

ومع تلك الوجاهة العظمى، والكرامة الكبرى الموهوبة له لم يشكر عليّ، ولم

يرجع إليّ قط ﴿ثُمَّ يَطْمَعُ﴾ ويرجو ﴿أَنْ أَزِيدَ﴾ [المدثر: 15] على ما آتته وأعطيته من النعم العظام، مع أنه مصر على الكفر والكفران، وأنواع الفسوق والعصيان.

﴿كَلَّا﴾ أي: كيف أزيد عليه، مع أن كفرانه وطغيانه يوجب ويقتضي زوال ما

أعطي به، وكيف لا يوجبهُ ﴿إِنَّهُ كَانَ لَا يَأْتِنَا﴾ الدالة على كمال عظمتنا، واقتدارنا على أنواع الإنعام والانتقام ﴿عَنِيْدًا﴾ [المدثر: 16] معانداً منكراً، وعناده أمانة زوال ماله وثروته وجاهه؟

وبالجملة: ﴿سَأَزِيْقُهُ﴾ أي: سأغشيه وأكلفه بالعنف في النشأة الأخرى

﴿صُّغُودًا﴾ [المدثر: 17] عقبة شاقة المصعد والمهوى، فأكلفه على الصعود والهبوط

دائماً، بحيث لا نجاة له منها، وعنه ﴿إِنَّهُ﴾: «الصعود جبل من نار يصعد فيه سبعين خريفاً، ثم يهوى فيه كذلك أبداً»⁽¹⁾، وهو مثل لما يلقي من الشدائد.

وكيف لا أكلفه بصعود الصعود وهبوطه ﴿إِنَّهُ﴾ من شدة شكيمته، وخبائة طيبته

(1) رواه أحمد (75/3، رقم 11730)، وهناد في «الزهد» (184/1، رقم 281)، وعبد بن حميد (ص

289، رقم 924)، والترمذي (703/4، رقم 2576) وقال: غريب، وأبو يعلى (523/2، رقم

1383)، والحاكم (551/2، رقم 3873). وقال: صحيح الإسناد.

﴿فَكَرَّ﴾ في آيات القرآن على وجه التدبر فلم يجد فيه طعنًا وقدحًا ﴿و﴾ بعدما لم يجد ما يصلح للطعن ﴿قَدَّرَ﴾⁽¹⁾ [المدثر: 18] في نفسه على مقتضى خباثته ما ينفق به، ويقول فيه على سبيل القدح ١٩

ثم قال سبحانه على سبيل التعجب من إفكه وتقديره: ﴿فَقُتِلَ﴾ أي: لعن وطُرد ﴿كَيْفَ قَدَّرَ﴾ [المدثر: 19] له قدحًا، مع أن القرآن منزّه عن القدح مطلقًا ١٩

﴿ثُمَّ قُتِلَ﴾ ذلك المعاند الطاغى ﴿كَيْفَ قَدَّرَ﴾ [المدثر: 20] ما هو بعيد عن شأن القرآن بمراحل ١٩ كرره سبحانه مبالغة في التعجب والاستبعاد.

﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾ [المدثر: 21] كرة بعد أولى، ومرة بعد أخرى في أمر القرآن ﴿ثُمَّ﴾ لما لم يجد فيه طعنًا، مع أنه من أرباب اللسن والفصاحة ﴿عَبَسَ﴾ أي: قطب وجهه وكلح، واستكره كراهة شديدة ﴿وَيَسَّرَ﴾ [المدثر: 22] اهتم وبالع في وجدان القدح اهتمامًا بليغًا فلم يجد، وأيس ملومًا مخذولًا.

﴿ثُمَّ﴾ بعدما دبر مرارًا فلم يجد ﴿أَذْبَرَ﴾ عن الإيمان بعدما أشرف على الإقبال بالإيمان والقبول ﴿و﴾ ما حمله على الإدبار إلى أنه ﴿امْتَكَبَرَ﴾ [المدثر: 23] واستحى عن اتباعه.

وبالجملة: ﴿فَقَالَ﴾ بعد اللتيا والتي: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ [المدثر: 24] أي: يروى ويتعلم.

﴿إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ ٢٥ ﴿مَأْصِيهِمْ سَفَرٌ﴾ ٢٦ ﴿وَمَا أُنْذِرُهُمْ سَفَرٌ﴾ ٢٧ ﴿لَا بَقِيَّةَ وَلَا نَذْرٌ﴾ ٢٨ ﴿لَوْلَا﴾ ٢٩ ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ ٣٠ ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا وَدَّعَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَفِيقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْفُلَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلَيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا يُغَلِّكُ جُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا يَهِدِي إِلَّا ذِكْرُنَا لِلْبَشَرِ﴾ ٣١ [المدثر: 25 - 31].

(1) قال علاء الدولة: يعني: القوى الكافرة إذا فكرت في حقيقة الوارد ما تنطق به اللطيفة المنيرة، وقدّر في نفسه أن يؤمن بما نطقت اللطيفة، هم فكرت في ترك اختيارها وتسليمها اللطيفة، وترك مشتبهاتها قدرت تقدير أسو وأنكرت الآية البينة.

﴿إِنْ هَذَا﴾ أي: ما هذا ﴿إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ [المدثر: 25] ما هو من الوحي وكلام الله، كما ادّعاه محمد ﷺ مفترياً على الله.

رُوي أنه مر الوليد بن المغيرة بالنبي ﷺ، وهو يقرأ: حم السجدة، فسمعه بسمع الرضا متدرباً بأسلوبه، ثم أتى قومه فقال: لقد سمعت من محمد أنفاً كلاماً ما هو من جنس كلام الإنس والجن، إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه يعلو ولا يُعلى عليه، ثم خرج.

فقالت قريش: والله، قد صبا الوليد، ولتصبون قريش كلهم، فقال ابن أخيه أبو جهل: أنا أكفيكموه، فجلس إلى جنبه حزيناً، فقال: ما لي أراك حزيناً يا ابن أخي؟ فقال: هذه قريش يجمعون لك نفقة، يعينونك على كبر سنك، يزعمون أنك زينت كلام محمد؛ لتنال من فضل طعامه.

فغضب الوليد فقال: لم تعلم قريش أنني أكثرهم مالاً وولداً، وهل يشبع محمد وأصحابه أن يكون لهم فضل؟! ثم قام مع أبي جهل حتى أتى قومه، فقال: تزعمون أن محمداً مجنون، فهل رأيتموه يتجنن قط؟ قالوا: اللهم لا، ثم قال: تزعمون أنه كاهن، فهل رأيتموه يتكهن قط؟ قالوا: لا، ثم قال: تزعمون أنه شاعر، فهل رأيتموه ينطق بالشعر قط؟ قالوا: اللهم لا، ثم قال: تزعمون أنه كذاب، فهل جربتم عليه شيئاً من الكذب؟ قالوا: اللهم لا.

ثم سكنت، قالت قريش: فما هو؟ فتكفر في نفسه، وقدر في نجواه، ثم قدر، فقال: ما هو إلا ساحر، أما رأيتموه يفرق بين المرء وأهله، وولده ومواليه، وما يقوله مفترياً إلى ربه سحر يؤثر؟.

فقال تعالى زجراً عليه، وجزاء له: ﴿سَأُضْلِيهِ﴾ وادخله ﴿سَقَر﴾ [المدثر: 26].
﴿وَمَا أَذْرَاكَ﴾ وأعلمك يا أكمل الرسل ﴿مَا سَقَر﴾ [المدثر: 27] وما شأنها؟
أبهما تفخيماً وتهويلاً.

وغاية ما يدرك من شأنها: إنها ﴿لَا تُبْقِي﴾ شيئاً يقع فيها، بل تهلكه ﴿وَر﴾ مع إهلاكه وإفناؤه ﴿لَا تَذَرُ﴾ [المدثر: 28] ولا تدع على هلاكه وفنائه، بل يوجد الله بكمال قدرته، ثم يهلكه، ثم يوجدته فتهلكه أبداً كذلك.

وأيضاً من شأنها: إنها ﴿لَوَاحِةٌ﴾ مسودة؛ من شدة إحراقها ﴿لِلْبَشَرِ﴾ [المدثر: 29] أي: البشرية التي هي عبارة عن ظاهر الجلد.

وأيضاً من شأنها: إنها ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾⁽¹⁾ [المدثر: 30] أي: تسعة عشر من الزبانية الموكلة عليه بإذن الله، وهي من الملائكة أو شبيهة بهم.

إنما اختص هذا العدد؛ لأن الأعمال الفاسدة، والأفعال القبيحة الموجبة للدخول في سقر إنما يكتسب بالقوى البهيمية، والقوى الطبيعية، أما القوى البهيمية فاثني عشر: الشهوية، والغضبية، والحواس الظاهرة والباطنة، وأما القوى الطبيعية فسبع: الجاذبة، والماسكة، والهاضمة، والدافعة، والغاذية، والنامية، والمولدة.

وبالجملة: يصور السقر من مقتضيات هذه القوى، ويوكل عليها من زواجر الزبانية على عدد مأخذها عدلاً منه سبحانه؛ لينزجر كل من القوى بزاجر يناسبها.

ولما نزلت قال أبو جهل لقريش: ثكلتكم أمهاتكم بخبر ابن أبي كبشة، إن خزنة النار تسعة عشر، وأنتم الدهم؛ أي: الشجعان، أتعجز كل عشر أن تبطش بواحد منهم؟¹⁹ وبعدهما قالوا ما قالوا على سبيل التهكم أنزل سبحانه: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ﴾ وخزنتها ﴿إِلَّا مَلَائِكَةً﴾ أقوياء، قوتهم لا تقاس بالقوى البشرية، بل لا يقاوم جميع من على الأرض بواحد من الملك في القوة والصولة ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ﴾ أي: عددهم المذكور ﴿إِلَّا فِتْنَةً﴾ اختباراً وابتلاءً؛ أي: سبب اختبار وافتتان لهم، يفتنون بهذا العدد، تارة يستقلون، وتارة يستبعدون ويتعجبون من مقاومة هؤلاء المعدودين بعموم العباد المستحقين لدخول السقر من الثقلين، وبالجملة: يستهزئون بهذا القول، ويضحكون منه، وإنما أنزلنا هذه الآية، وخصصنا هذا العدد وهؤلاء المعدودين ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ أي: ليكتسبوا اليقين، ويجزموا بنبوته محمد ﷺ وبصدق القرآن وحقيقته؛ لأن هذا ليس يبدع مثلاً في هذا الكتاب، بل أنزلنا كذلك في سائر كتبنا.

ولما وجدوه موافقاً لما في كتبهم تيقنوا بصدق القرآن ونبوته النبي ﷺ ﴿وَيُزَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا﴾ على إيمانهم؛ أي: يرسخ إيمانهم، ويتأكد بتصدق أهل الكتاب كتابهم ونبیهم ﴿و﴾ بعدما استيقنوا واستقاموا على اليقين، وتمكنوا فيه ﴿لَا يَزْنَابُ﴾

(1) قال السمناني: من القوى العنصرية إذا ضربت أربعة في أربعة يحصل ستة عشر، وخاصة المعدنية والنباتية والحيوانية على هذه الستة تسعة عشر من قواها، وخواصها في صورها هائلة موكلة ليشعلوا نيرانها ويعذبوا فيها أبد الأباد.

وَيْشْكُ ﴿الَّذِينَ أَوْثَرُوا كِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾⁽¹⁾ فِي حَقِّهِ هَذَا الْكِتَابَ وَهَذَا النَّبِيَّ الْمُؤَيَّدَ بِهِ ﴿وَلَيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ شَكَّ وَارْتِيَابَ فِي حَقِّهِ هَذَا الْكِتَابَ وَالنَّبِيَّ مِنْ أَهْلِ النِّفَاقِ.

﴿وَالْكَافِرُونَ﴾ الْجَاهِدُونَ الْجَازِمُونَ فِي التَّكْذِيبِ، الْمَجَاحِدُونَ بِالْإِنْكَارِ صَرِيحًا: ﴿مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا﴾ أَي: أَيِّ شَيْءٍ أَرَادَ بِهَذَا الْعَدَدِ الْمُسْتَعْرَبِ الْمُسْتَعْبَدِ، إِلَى حَيْثُ صَارَ فِي الِاسْتِعْرَابِ وَالِاسْتِعْبَادِ ﴿مَثَلًا﴾ سَائِرًا بَيْنَ النَّاسِ يَسْتَعْمَلُونَهُ وَيَتَدَاوَلُونَهُ، مُسْتَعْبِدِيهِ وَمُسْتَهْزِئِيهِ ﴿كَذَلِكَ﴾ أَي: مِثْلَمَا سَمِعْتَ يَا أَكْمَلُ الرُّسُلِ مِنْ اسْتِيقَانِ الْبَعْضِ، وَاسْتِنْكَارِ الْبَعْضِ الْآخَرِ بِهَذَا الْعَدَدِ الْمَذْكُورِ ﴿يُضِلُّ اللَّهُ﴾ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ بِمَقْتَضَى قَهْرِهِ وَجَلَالِهِ ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ إِضْلَالَهُ مِنْ عِبَادِهِ، وَأَرَادَ مَقْتَهُ وَضَلَالَهُ ﴿وَيَهْدِي﴾ بِمَقْتَضَى لَطْفِهِ وَجَمَالِهِ ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ إِذْ هُوَ فَاعِلٌ عَلَى الْإِطْلَاقِ بِالْإِرَادَةِ وَالِاخْتِيَارِ وَالِاسْتِحْقَاقِ.

﴿و﴾ بِالْجُمْلَةِ: ﴿مَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ﴾ يَا أَكْمَلُ الرُّسُلِ؛ أَي: مَظَاهِرَ لَطْفِهِ وَقَهْرِهِ، وَجَمَالِهِ وَجَلَالِهِ ﴿إِلَّا هُوَ﴾ إِذْ هُوَ الْمُسْتَقِلُّ بِالْإِحَاطَةِ وَالشُّمُولِ، لَا يَعْزُبُ عَنْهُ شَيْءٌ مِنَ الْأَصُولِ وَالْفُرُوعِ؛ إِذْ لَا سَبِيلَ لِلْعِبَادِ إِلَى إِحْصَاءِ أَوْصَافِهِ وَأَسْمَائِهِ الَّتِي تَتَرْتَّبُ عَلَيْهَا مَظَاهِرُهُ وَمُصْنُوعَاتُهُ، مَا لِلْعِبَادِ وَرَبِّ الْأَرْبَابِ ﴿و﴾ بِالْجُمْلَةِ: ﴿مَا هِيَ﴾ أَي: ذِكْرُ السَّقَرِ وَوَصْفُهَا، وَعِدَّةُ الْخِزْنَةِ عَلَيْهَا ﴿إِلَّا ذِكْرِي﴾ أَي: عِظَةٌ وَتَذَكُّرَةٌ نَازِلَةٌ مِنْ قِبَلِ الْحَقِّ ﴿الْبَشِيرِ﴾ [المدثر: 31] الْمَجْبُولِينَ عَلَى الْعِبْرَةِ وَالنَّظَرِ، الْمَكْلَفِينَ بِجَلْبِ النِّفْعِ وَدَفْعِ الضَّرِّ، وَبِالْحَذَرِ عَنْ مَقْتَضَى الْقَهْرِ وَالْجَلَالِ، وَالرُّكُونَ إِلَى مَقْتَضَى اللَّطْفِ وَالْجَمَالِ.

(1) البحر المديد (6 / 452): لَأَنَّ عِدَّتَهُمْ تِسْعَةٌ عَشَرَ فِي الْكِتَابَيْنِ فَإِذَا سَمِعُوا مِثْلَهَا فِي الْقُرْآنِ تَيَقَّنُوا أَنَّهُ مُنْزَلٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَهُوَ مُتَعَلِّقٌ بِالْجَعْلِ الْمَذْكُورِ، أَي: جَعَلْنَاهُمْ كَذَلِكَ لِيَكْتَسِبُوا الْيَقِينَ بِنُبُوَّتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَصِدْقِ الْقُرْآنِ، لِمُوَافَقَتِهِ لِمَا فِي كِتَابِهِمْ، (ويزداد الذين آمنوا) بِمُحَمَّدٍ ﷺ (إِيمَانًا) لِتَصْدِيقِهِمْ بِذَلِكَ، كَمَا صَدَّقُوا بِسَائِرِ مَا أَنْزَلَ، فَيَزِيدُونَ إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمُ الْحَاصِلِ، أَوْ: يَزِيدُ إِيمَانَهُمْ تَيَقُّنًا، لَمَّا رَأَوْا مِنْ تَسْلِيمِ أَهْلِ الْكِتَابِ وَتَصْدِيقِهِمْ، (وَلَا يَرْتَابُ الَّذِي أَوْثَرُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ)، تَأْكِيدٌ لِمَا قَبْلَهُ مِنَ الِاسْتِيقَانِ وَازْدِيَادِ الْإِيمَانِ، وَنَفْيٌ لِمَا قَدْ يَعْتَرِي الْمُسْتَيْقِنَ مِنْ شُبْهَةٍ مَا، وَإِنَّمَا لَمْ يَنْظَمْ الْمُؤْمِنِينَ فِي سَلَكِ أَهْلِ الْكِتَابِ فِي الِارْتِيَابِ، حَيْثُ لَمْ يَقُلْ: وَلَا يَرْتَابُوا؛ لِتَنْبِيهِهِ عَلَى تَبَايُنِ النَّفْيَيْنِ حَالًا، فَإِنَّ انْتِفَاءَ الِارْتِيَابِ عَنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، مِمَّا يَنَافِيهِ لِمَا فِيهِ مِنَ الْجُحُودِ، وَعَنِ الْمُؤْمِنِينَ لِمَا يَقْتَضِيهِ مِنَ الْإِيمَانِ، وَكَمْ بَيْنَهُمَا؟ وَالتَّعْيِيرُ عَنْهُمْ بِاسْمِ الْفَاعِلِ بَعْدَ ذِكْرِهِمُ بِالْمَوْصُولِ وَالصِّلَةُ الْفَعْلِيَّةُ الْمُنْبَثَةُ عَنِ الْحَدَثِ؛ لِلإِيْذَانِ بِشَبَاتِهِمْ عَلَى الْإِيمَانِ بَعْدَ ازْدِيَادِهِ وَرَسُوخِهِمْ فِي ذَلِكَ.

﴿كَلَّا وَالْقَمَرَ ۝٣٢﴾ وَاللَّيْلَ إِذَا أَذْبَرَ ۝٣٣ وَالصُّبْحَ إِذَا أَشْفَرَ ۝٣٤ إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ ۝٣٥ نَذِيرًا لِلْبَشَرِ ۝٣٦ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ۝٣٧ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ۝٣٨ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ۝٣٩ فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ ۝٤٠ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ۝٤١ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ ۝٤٢ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ۝٤٣ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ۝٤٤ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْفَاحِشِينَ ۝٤٥ وَكُنَّا نَكْذِبُ يَوْمَ الدِّينِ ۝٤٦ حَقَّ أَنْتَ الْيَقِينُ ۝٤٧﴾
[المدثر: 32 - 47].

﴿كَلَّا﴾ وحاشا أن يتذكر بها هؤلاء الحمقى، إلا من وفقه الحق، وأدركته العناية من جانبه ﴿و﴾ حق ﴿الْقَمَرِ﴾ [المدثر: 32] المنير.

﴿وَاللَّيْلِ﴾ المظلم، وكيفية تصاريف القمر المضيء في ظلمة الليل، وانمحاء نوره ﴿إِذَا أَذْبَرَ﴾ [المدثر: 33] أي: ولى وانصرف ذاهباً؛ يعني بالقمر: نور الإيمان المشرق في الليل الذي هو عبارة عن ظلمة عالم الكون والفساد المترتب على التعينات العدمية الحاصلة من انعكاس شمس الذات.

﴿وَالصُّبْحِ﴾ الذي هو ظهور نور الوجود، وطلوع شمس الذات الأحدية التي انمحت وفنيت ﴿إِذَا أَشْفَرَ﴾ [المدثر: 34] أي: أضاء وأشرق أظلال التعينات بالمرة، وانتشرت كواكب الهويات، وانطفأت شهب العكوس، واضمحلت مطلق الإضافات.

﴿إِنَّهَا﴾ أي: سقر الطرد والحرمان، وسعير الزجر والخذلان، والخزنة المعدودين الموكلين عليها بقدرة الله ﴿لِإِحْدَى الْكُبَرِ﴾ [المدثر: 35] أي: إحدى البلايا والمصيبات الكبار النازلة لأصحاب الضلال بمقتضى القهر الإلهي وجلاله.

وإنما أنزلنا في كتابه، وأخبرنا عنها؛ لتكون ﴿نَذِيرًا لِلْبَشَرِ﴾ [المدثر: 36] ينذرهم ويحذرهم عن حر سقر.

﴿لِمَنْ شَاءَ﴾ وأراد سبحانه ﴿مِنْكُمْ﴾ أيها المكلفون المجبولون على الهداية والضلال ﴿أَنْ يَتَقَدَّمَ﴾ بالإيمان والأعمال الصالحة، وفعل الخيرات، وترك المنكرات، فيهتدي بطريق النجاة منها ﴿أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ [المدثر: 37] بالكفر، وارتكاب المناهي والمنكرات، وفعل المحرمات، فوقع فيها وازدجر.

وبالجملة: ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ من النفوس الخيرة ﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾ واقترفت ﴿رَهِينَةٌ﴾

[المدثر: 38] مرهونة مرتهنة عند الله بكسبها، فكسبها إن كان لأجل الدنيا وما يترتب عليها من اللذات والشهوات البهيمية، والوهمية والخيالية من الجاه والثروة، والاستكبار والاستعظام بالأموال والأولاد، ترتب عليها أنواع العقوبات والمصيبات، وإن كان لأجل الآخرة من الإيمان والإسلام، وصوالح الأعمال، وارتكاب المتاعب والمشاق في طريق الحق وتوحيده، ترتب عليه أصناف المثوبات، وأنواع الكرامات والدرجات العلية، والمقامات السنية من اللذات الروحانية.

﴿لَا أَصْحَابَ الْيَمِينِ﴾ [المدثر: 39] وهم الطائرون إلى الله، السائرون نحوه؛ لإفناء هوياتهم في هوية الحق، المنخلعون عن لوازم عالم الناسوت بالمرة، المتخلعون بخلع عالم اللاهوت.

والمتمكنون ﴿فِي جَنَّاتٍ﴾ ومنتزهات موصوفة بما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ومن كمال تمكنهم وتقررهم في مقر الوحدة ﴿يَتَسَاءَلُونَ﴾ [المدثر: 40].

ويسألون ﴿عَنِ الْمُجْرِمِينَ﴾ [المدثر: 41].

على سبيل التعجب والاستبعاد: ﴿مَا سَلَكَكُمْ﴾ وأدخلكم ﴿فِي سَقَرٍ﴾ [المدثر: 42] الإمكان، وجحيم الطرد والخذلان؟

﴿قَالُوا﴾ أي: المجرمون في جوابهم متحسرين متأسفين: ﴿لَمْ نَكُ فِي دَارِ الْاِخْتِبَارِ وَنَشَأَ الْاِعْتَبَارِ﴾ [المدثر: 43] المتوجهين نحو الحق في الأوقات المكتوبة علينا.

﴿وَلَمْ نَكُ نَطْعِمُ الْمَشْكِينَ﴾ [المدثر: 44] على مقتضى الأمر الإلهي عطفًا ولطفًا.

﴿وَمَعَ الْخَافِضِينَ﴾ [المدثر: 45] الشارعين المزورين، المروجين عنادًا ومكابرة.

﴿وَمَعَ أَكْظَمَ مِنَ الْكُلِّ﴾ إنا ﴿كُنَّا﴾ من نهاية جهلنا وغفلتنا ﴿نُكَذِّبُ يَوْمَ الدِّينِ﴾ [المدثر: 46] أي: بوقوع الطامة الكبرى وقيام الساعة، مقتفين أثر الضالين المضلين، مستظهرين بالآلهة الباطلة، مغترين بشفاعتهم العاطلة لدى الحاجة، وبالجمله: كنا

مصرين على ما كنا عليه.

﴿حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ﴾ [المدثر: 47] وحل علينا الأجل، وظهرت مقدماته، وانقرضت نشأة الاختبار.

﴿فَمَا تَفْعَلُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ ٤٨ ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُّعْرِضِينَ﴾ ٤٩ ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ﴾ ٥٠ ﴿فَزَتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ﴾ ٥١ ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنشَرَةً﴾ ٥٢ ﴿كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ﴾ ٥٣ ﴿كَلَّا إِنَّهُ تَذَكُّرٌ﴾ ٥٤ ﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكَّرْهُ﴾ ٥٥ ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ الْقُرَى وَأَهْلُ الْغَفِرَةِ﴾ ٥٦ [المدثر: 48 - 56].

وبالجملة: ﴿فَمَا تَفْعَلُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ [المدثر: 48] حين أخذوا بظلمهم، لو شفعوا لهم جميعًا.

﴿فَمَا لَهُمْ﴾ واتي شيء عرض لهم ولحق بهم، مع أنهم مجبولون على فطرة التوحيد واليقين، حتى صاروا ﴿عَنِ التَّذْكَرَةِ﴾ التي هي آيات القرآن المبيّنة لسرائر التوحيد والعرفان ﴿مُعْرِضِينَ﴾ [المدثر: 49] منصرفين على سبيل الإنكار والاستكبار.

وبالجملة: ﴿كَأَنَّهُمْ﴾ في هذا الإعراض والنفرة المتفرعة لغاية السخافة، ونهاية البلادة ﴿حُمُرٌ﴾ هي مثل في البلادة المتناهية ﴿مُسْتَنْفِرَةٌ﴾ [المدثر: 50] من شدة رعبها وخوفها.

سيما حين ﴿فَزَتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ﴾ [المدثر: 51] أشد صائل عليها، شبه نفرتهم عن التذكر بآيات القرآن حسداً وحميةً جاهليةً بالحُمُر المستنفرة من الأسد، والجامع بينهما: البلادة المتناهية، بل هم أسوأ حالاً من الحُمُر؛ إذ الحُمُر فرت من العدو خوفاً من ضرره، وهؤلاء فروا من الحق المشفق، النافع لهم نفقاً صورياً ومعنوياً، وما حملهم وأوقعهم على فتنه الاستنفار والاستكاف إلا حميتهم وغيبتهم الجاهلية، بأن لم يؤمنوا بما نزل على غيرهم.

﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى﴾ له من قيل الحق ﴿صُحُفًا﴾ قراطيس مدونة

﴿مُنشَرَةٌ﴾⁽¹⁾ [المدثر: 52] تنشر وقت القراءة، ثم تطوى، كالصكوك والسجلات؛ لذلك قالوا للنبي ﷺ: لن تتبعك حتى تأتي كلاً منا بكتاب من السماء مكتوب فيها: من الله إلى فلان، أتبع محمدًا، فإنه نبي صادق.

ثم قال سبحانه: ﴿كَلَّا﴾ ردًا عليهم، وردعًا لهم عن الإعراض عن الإيمان والتذكر، لا عن امتناع المقترح، فإنه لا يستحيل على الله شيء، لو تعلق به مشيئتهم ﴿بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ﴾⁽²⁾ [المدثر: 53] ولم يؤمنوا لها؛ لذلك أعرضوا عن التذكرة.

﴿كَلَّا﴾ أي: كيف يتأتى لهم الإعراض عن التذكرة ﴿إِنَّهُ﴾ أي: القرآن ﴿تَذَكُّرَةٌ﴾ [المدثر: 54] وأي تذكرة وتبصرة؟!

﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكَّرْهُ﴾ [المدثر: 55] أي: أي شيء اتعظ وتذكر به فقد هدى واهتدى إلى الله.

﴿وَ﴾ غاية ما في الباب: إنه ﴿مَا يَذْكُرُونَ﴾ ويتذكرون به ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ تذكّرهم وهدايتهم؛ إذ أفعال العباد كلها مستندة إليه سبحانه، مخلوقة له، وكيف لا يفوض إلى مشيئته سبحانه عموم أمور العباد، مع أنه ﴿هُوَ﴾ بذاته، ومقتضى أسمائه وصفاته ﴿أَهْلُ التَّقْوَى﴾ وأحق من أن يتقى من انتقامه وقهره؛ إذ هو المقتدر على وجوه الانتقام ﴿وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾ [المدثر: 56] حقيق بأن يرجى منه العفو والغفران، سيما على المتقين المستغفرين؛ إذ هو المقتدر بالاستقلال على عموم الإنعام والانتقام والإكرام؟!

جعلنا الله من زمرة أهل التقوى والمغفرة بميّه وجوده.

خاتمة السورة

عليك أيها المرید المحقق، المتحقق بسر سريان الوحدة الذاتية في عموم

(1) يعني: القوى القلبية والنفسية يريدون أن يرد عليهم الوارد كما يرد على القلب ليؤمنوا، ولا يعلمون أن ليس لهم طاقة سماع ما في الوارد على لسان اللطيفة المنذرة، فكيف يطيقون حمل قوة الوارد؟. [عين الحياة].

(2) هو التمني أيضًا يلقي الشيطان فيهم ليزداد لهم إنكار الآخرة، لا يتمنون الوارد أن يرد عليهم ليؤمنوا، بل يكذبون الوارد ووجود الآخرة ولا يخافون منها [عين الحياة].

المظاهر، وباستقلال الوجود في عموم الآثار الظاهرة في الأنفس والآفاق أن تدعن وتعرف أن جميع الأفعال الجارية في عالم الغيب والشهادة إنما هي مستندة إليه سبحانه، صادرة عنه أصالةً وفق الإرادة والاختيار، وإنما أظهرها منبجانه في مظاهر أسمائه، وملابس صفاته إظهارًا لكمال قدرته، ومتانة حكيمته، وإحاطة علمه وإرادته، وعجائب صنعه وصنعتة.

فلك أن تعتقدها على الوجه المذكور، وتجزم بها علمًا إلى أن يصير علمك عينًا، وعينك حقًا، وليس وراء الله مرمى ومنتهى.

وفقنا بما أنت تحب منا وترضى يا مولانا.

سورة القيامة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فاتحة سورة القيامة

لا يخفى على من تحقق في مقر التوحيد، وتمكن في مقر التجريد والتفريد أن عموم المظاهر والمجالي منقهرة تحت سلطنة الوحدة الذاتية، فانية فيها، مضمحلة دونها، وأن التعينات المحسوسات والهويات المترتبة الغير الموجودة، إنما هي أظلال أسمائه وعكوس أوصافه الذاتية المتفرعة على شئونه وتطوراته القبضية والبسطية المترتبة على التجليات الجمالية والجلالية.

وبعدما انكشف الأمر على هذا المنوال ثبت أن الكل برزوا لله الواحد القهار، الكبير المتعال.

ثم لما أراد سبحانه أن يتبه عباده على ظهور هذه الحالة، وبروز هذه الواقعة الموعودة في النشأة الأخرى، أشار سبحانه إلى وقوعها وقيامها على وجه المبالغة والتأكيد من طريق مخصوص من طرائق التوكيد، وأردفها بالإشارة إلى النفس اللوامة المعينة على تصديقها، وتهيته ما يناسبها من الأخلاق والأعمال أيضاً على وجهها من المبالغة والتأكيد، فقال سبحانه بعد التيمن: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ الذي استغنى عن عموم مظاهره ومصنوعاته بمقتضى ذاته ﴿الرَّحْمَنِ﴾ عليها بإظهارها حسب آثار أسمائه وصفاته في النشأة الأولى ﴿الرَّحِيمِ﴾ عليها حسب انقهار الكل في وحدة ذاته، وإفنائها في هويته الذاتية في النشأة الأخرى.

﴿لَا أَقِيمُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ۝١ وَلَا أَقِيمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَامَةِ ۝٢﴾ أَيْحَسِبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يَجْمَعَ عِظَامَهُ ۝٣ بَلْ قَدِيرِينَ عَلَى أَنْ تُسَوَّى بَنَانُهُ ۝٤ بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ۝٥ يَسْتَلْ أَيَّانَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ۝٦ فَإِذَا يَرَى الْبَصُرُ ۝٧ وَخَسَفَ الْقَمَرُ ۝٨ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ۝٩ يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ إِنَّ الْمَفْزِعَ ۝١٠ كَلَّا لَا وَدَّ ۝١١ إِنْ رَأَى يَوْمَئِذٍ لِّلنَّاسِ ۝١٢ يَتَّبِعُوا الْإِنْسَانَ يَوْمَئِذٍ يَمَاقِدَمَ وَآخِرُ ۝١٣ بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ۝١٤ وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ ۝١٥﴾ [القيامة: 1-15].

﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [القيامة: 1] أي: بوقوع الطامة الكبرى وثبوتها وقيامها؛ إذ هي من غاية ظهورها وجلالتها غنية عن أن يؤكد أمر وقوعها وقيامها بالقسم عند العارف المحقق المتحقق بمقام التوحيد واليقين.

﴿وَلَا أُقْسِمُ﴾ أيضًا ﴿بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾⁽¹⁾ [القيامة: 2] أي: وكذا لا حاجة إلى القسم بظهور النفس اللوامة في عالم الكون والفساد؛ إذ كل نفس من النفوس الكائنة تعلم أن العالم ما هو إلا سراب باطل وعكس زائل عاطل، لا قرار له، ولا مدار لها فيه، وتلوم دائمًا نفسها عليها، إلا أنها لا تتنبه على سلطنة الوحدة، ولا تتفطن بسرابتها واستيلائها على عموم ما ظهر وبطن، وغاب وشهد، حتى تصير لؤامة، مطمئنة راضية، وراضية مرضية، ومرضيته فقيرة، وفقيرته فانية، وفانيته باقية، وليس وراء ذلك مرمى ومنتهى.

أدركنا بلطفك الخفي يا خفي الألفاف.

ثم التفت سبحانه نحو حقيقة الإنسان المجبول نحو فطرة العرفان حسب حصة لاهوته، ووبّخه بما ووبّخه تشنيعًا وتقريعًا، فقال: ﴿أَيَحْسَبُ﴾ ويظن ﴿الْإِنْسَانُ﴾ المجبول على الكفران والنسيان ﴿أَن لَّنْ نُجْمَعَ عِظَامُهُ﴾ [القيامة: 3] أي: إنا لا نقدر مع كمال قدرتنا على إيدائه وإبداعه على إعادته، وجمع عظامه مرة بعد أخرى في يوم البعث والجزاء!؟

﴿بَلَى﴾ أي: نحن نقدر على إعادته، وجمع عظامه؛ وتسوية جميع أعضائه على الوجه الذي كان، بل ﴿قَادِرِينَ عَلَى أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾ [القيامة: 4] أي: سلاميه على وجهها، خص بالذكر؛ لأن جميع أجزائها أصعب من سائر الجسد؛ لاشتغالها على دقائق العظام ورقائق العروق والأعصاب، والغضاريف والرباطات المعينة على القبض

(1) قال علاء الدولة: أي: أقسم بهما والسر الذي قرنهما أن كل من وصل إلى قيامته اليوم تصير نفسه الأمانة لؤامة، بحيث تلوم صاحبها في كل حركة ومكون يصدر منه على خلاف أمر الحق، ولا تحسب أن القيامة بعيدة عنك، بل لو كشف الغطاء غطاؤك لشاهدت القيامة أقرب إليك من شراك نعلك، ولؤامتها دالة على ظهور نور القيامة في باطنك، وهذه العلامة تنفع لصاحبها ما دامت معها آلات الكسب لتعتذر وتتوب إلى الله، فأما بعد نزع الآلة عنها لا تنفع ملامتها إلا ندامة وحسرة وعذابًا، والنفس المؤمنة اللوامة تلوم صاحبها في الدنيا، والنفس الكافرة اللوامة تلوم صاحبها في العقبى.

والبسط، والأخذ والبطش، ولصعوبة الاطلاع على أجزائها عجز الأطباء عن تشريحها؛ يعني: إنا نقدر على جمعها مع صعوبتها، فكيف نجمع غيرها؟^١

﴿بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ﴾ المركب من الجهل والنسيان بظنه وحسابه ﴿لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ﴾ [القيامة: 5] أي: يدوم ويمضي دائماً على الفجور والفسوق، والخروج عن مقتضى الحدود الإلهية فيما يستقبله من الزمان، كما كان عليها فيما مضى.

لذلك ﴿يَسْأَلُ﴾ سؤال إنكار واستبعاد: ﴿أَيَّانَ﴾ أي: متى يقوم، وأي آن يقع ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [القيامة: 6] التي تبلى السرائر، وتكشف الستائر فيها؟.

يُبين لي أيها المدعي وقت وقوعه؛ حتى أكف وأمنع نفسي عن الفجور، وأتوب عنها يقيناً وثقة، إنما قال ما قال على سبيل الاستهزاء والتهكم.

وكيف يستهزئ ويصر على الإنكار ذلك المستهزئ المسرف المصراً؟^٢ ﴿فَإِذَا بَرِقَ﴾ وتحير ﴿الْبَصَرُ﴾ [القيامة: 7] أي: حاسة عالم الناسوت وجاسوسه حين ظهرت طلائع عالم اللاهوت فزعاً وهولاً، ودهشاً مما يرى من العجائب والغرائب الموعودة التي كان ينكر ويكذب بها في دار الدنيا وبقعة الإمكان.

﴿وَمَعَ ذَلِكَ﴾ [القيامة: 8] أي: ذهب ضوء الوجود الإضافي المستعار، وانمحي نوره، وأشرف على الأفول في أفق العدم.

﴿وَمَعَ ذَلِكَ﴾ حيثئذ ﴿جُمِعَ الشَّمْسُ﴾ أي: ظهر نور الوجود المطلق المستغني عن عموم المظاهر والمجالي ﴿وَالْقَمَرُ﴾^(١) [القيامة: 9] أي: اندرج ضوء الوجود الإضافي المنعكس منها، واندمج فيها، ولم يبق له كون ولا لون، ولا بين ولا بون.

وبعد رجوع الكل إليها، وانطمامها فيها، وانقهارها دونها ﴿يَقُولُ الْإِنْسَانُ﴾ المنعزل عن اليقين والعرفان ﴿يَوْمَئِذٍ أَيُّنَ الْمَفْرُ﴾ [القيامة: 10] والملجأ؛ حتى أفر إليه، وألجأ نحوه؟.

(1) قال علاء الدولة: أي: جمع شمس روحه وقمر قلبه في عالم نفسه؛ ليرى بضوء شمس روحه أن هؤلاء أعد الله تعالى للقوى العلوية المستكبرة الروحانية التابعة للهوى القوى السفلية على وفق هواها، وهذا الحال مما يشاهد الأغلال والإنكار التي كسبتها القوى السفلية على وفق هواها، وهذا الحال مما يشاهد السالك في أثناء سلوكه، فينبغي أن يتيقن بأنه من علامات القيامة التي قامت بالموت الاختياري.

﴿كَلَّا﴾ وحاشا أن يكون له حيثُذ ملجأ ومقر في الوجود حتى يطلبه؛ إذ ﴿لَا وَزَرَ﴾ [القيامة: 11] أي: لا حصن ولا ملجأ، ولا حرز ولا مخلص له يومئذ، بل في عموم الأوقات والأزمان عند العارف غير الحق؛ إذ لا شيء في الوجود سواه. فثبت أنه ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ يا أكمل الرسل، وإلى كنف حفظه وجواره ﴿يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ﴾ [القيامة: 12] أي: لا مقر حيثُذ لعموم العباد إلا عنده سبحانه، ولا مرجع لهم سواه.

وبعد رجوع الكل إليه سبحانه، وحضوره دونه ﴿يُنَبِّأُ﴾ ويخبر ﴿الْإِنْسَانَ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ﴾ من الأعمال الصالحة، وأتى بها ﴿وَرَفَعَهَا﴾ بما ﴿أَخَّرَهَا﴾ [القيامة: 13] منها، ولم يأت بها وتركها، بل أتى بأضدادها على التفصيل بلا فوت شيء منها.

﴿بَلْ﴾ لا حاجة حيثُذ إلى الإنبياء والإخبار بما صدر عنه؛ إذ ﴿الْإِنْسَانَ﴾ له حيثُذ ﴿عَلَىٰ نَفْسِهِ﴾ وبما صدر عنه من الأعمال الصالحة والطالحة ﴿بَصِيرَةً﴾ [القيامة: 14] كاملة وبينة، واضحة موضحة؛ إذ يشهد له وعليه حيثُذ جوارحه وآلاته التي اقترفت بها ما اقترفت من الحسنات والسيئات.

بحيث ﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ﴾ [القيامة: 15] أي: جميع ما يعتذر به من الأعذار الكاذبة، لم يسمع مع حضور الشهود والعدول التي هي أعضاؤه وجوارحه، بل يعامل معه بمقتضى ما يحاسب عليه، إن خيرا فخير وإن شرا فشر.

﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ ١٦ ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ ١٧ ﴿فَإِذَا قَرَأَهُ فَالْعَيْنُ تَرَاهُ﴾ ١٨ ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا مِثْقَالَ نَسْفَةٍ﴾ ١٩ ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ﴾ ٢٠ ﴿وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ﴾ ٢١ ﴿وَيَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْكَ كَلِمَةٌ وَلَا يَصْلَحُ لَكَ حِجَابٌ﴾ ٢٢ ﴿إِلَّا رِيحٌ مَّاظِرَةٌ﴾ ٢٣ ﴿وَيَوْمَ لَا يُجْزَىٰ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ ٢٤ [القيامة: 16-25].

ثم لما استعجل رسول الله ﷺ، وبادر بالتقاط الوحي من فم جبريل عليه السلام، إلى حيث سبق عليه بالتلفظ خوفاً من أن ينفلت منه شيء، نهى سبحانه حبيبته ﷺ عن ذلك تأديبا وإرشادا فقال: ﴿لَا تُحَرِّكْ﴾ يا أكمل الرسل ﴿بِهِ﴾ أي: بالقرآن ﴿لِسَانَكَ﴾ حين التقاطك من حامل الوحي؛ يعني: جبريل عليه السلام، قبل أن يتم وحيه وإلقاؤه لك ﴿لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ [القيامة: 16] أي: لتأخذه على عجلة خوفاً من إفلاته عنك.

لا تخف ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ﴾ في خاطرك وضميرك ﴿و﴾ أيضاً علينا بعد جمعنا ﴿قُرْآنَهُ﴾ [القيامة: 17] وقراءته على لسانك على وجهه بلا فوت شيء منه، لا تتعب نفسك بالعجلة، ولا تستعجل بالالتفاظ قبل الالتمام.

وبعد ما سمعت ما سمعت يا أكمل الرسل فأجر عليه، واذكر ﴿فَإِذَا قُرْآنُهُ﴾ أي: القرآن حين الوحي بلسان جبريل عليك ﴿فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ [القيامة: 18] أي: تذكر وتتبع قراءته.

﴿ثُمَّ﴾ تتبع تلاوته وتكرر حتى ينتقش في صحيفة خاطرك، وترسخ في ذهنك، ثم أجر على لسانك مراراً كذلك، ثم إن بقي لك شك وتردد في معناه ﴿إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ [القيامة: 19] أي: تبينه وتوضيحه لك، وإزالة ترددك إشكالك عنه.

ثم قال سبحانه: ﴿كَلَّا﴾ ردعاً لرسوله ﷺ، وكفاً لعموم عباده عن العجلة في جميع الأمور مبالغة وتأكيذاً؛ لأن الإنسان مجبول على الاستعجال، مطبوع عليه؛ لذلك بالغ سبحانه في النهي عنه، وأردف بهذا النهي حسب العاجل والأجل، فقال على سبيل الإضراب: ﴿بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ * وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ﴾ [القيامة: 20.21] يعني: إن بني آدم كلهم مجبولون على العجلة؛ لذلك يحبون ويختارون اللذة العاجلة الدنيوية مع سرعة انقضائها وزوالها، على اللذة الآجلة الأخروية مع بقائها ودوامها، وعدم انقضائها أصلاً، ويتركون الأعمال المقتضية لها.

لذلك ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يوم قيام الساعة ﴿نَاضِرَةٌ﴾ [القيامة: 22] طرية بهية مشرقة، يتلألأ منها أنوار اليقين والعرفان، وآثار الأعمال الصالحة والأخلاق المرضية، وهي وجوه أرباب العناية الموفقين على صلاح الدارين، وفلاح النشأتين. لذلك حيثن ﴿إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾⁽¹⁾ [القيامة: 23] وبمطالعة لقائه مشرفة مسرورة.

(1) قال علاء الدولة: بلا حجاب كلما ينظر إلى وجه نضارة وجه الناظر وقرارة عينه وحق لها تنظر وتفر، وكلما تزيد نضاره الوجه وقرارة العين يتنعم بمشاهدة جمال وجه الرب أكثر من الأول؛ لأن حسن جماله بلا نهاية، والناظر بقدر قرارة عينه يقدر أن يشاهد ذلك الجمال، فكلما يزداد قربه يزداد حسن جماله في نظره ولأجل هذا لا يستريح الواصلون من العمل بعد وصولهم إلى الأصل ﴿لِيُثْلَ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾ [الصفات: 61]، وعلى هذه المشاهدة ﴿فَلْيَتَنَافِسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: 26] فعلامة الواصل إلى هذا المقام في الدنيا زيادة عطشه عند شرب

﴿وَوَجُوهٌ﴾ آخر ﴿يَوْمَئِذٍ بِأَسْرَةٍ﴾ [القيامة: 24] عبوسة كلوحة، متغيرة مسودة.
 بحيث ﴿تَنْظُرُ﴾ بل يجزم كل من نظر إليها ﴿أَن يَفْعَلَ بِهَا﴾ ويعرض عليها
 ﴿فَاقِرَةً﴾ [القيامة: 25] داهية شديدة، ومصيبة عظيمة تكسر فقار ظهرها من هولها
 وشدتها.

﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ الثَّرَاقِي﴾ ٢٦ ﴿وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ﴾ ٢٧ ﴿وَضَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ﴾ ٢٨ ﴿وَالْتَفَتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ﴾ ٢٩ ﴿إِنَّ
 رَبَّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ﴾ ٣٠ ﴿فَلَا صَلَفَ وَلَا مَلَّ﴾ ٣١ ﴿وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ ٣٢ ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى آهِلِهِمْ بِتَكْوَنٍ﴾ ٣٣
 ﴿أَوَّلَ لَكَ فَأُولَى﴾ ٣٤ ﴿ثُمَّ أَوَّلَ لَكَ فَأُولَى﴾ ٣٥ ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ ٣٦ ﴿الزَّبِيكَ نُطْفَةً مِن مَّنِيٍّ يُمْنَى﴾ ٣٧
 ﴿ثُمَّ كَانَ عِلْقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى﴾ ٣٨ ﴿فَجَعَلْنَاهُ الْزَوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى﴾ ٣٩ ﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِيرٍ﴾ ٤٠ ﴿عَلَى أَن يَحْيَىٰ لَكَ الْوَلَدُ﴾
 ﴿٤٠﴾ [القيامة: 26-40].

﴿كَلَّا﴾ أي: كيف تحبون وتختارون اللذة الفانية العاجلة على الباقية الآجلة؟ أما
 تتذكرون ﴿إِذَا بَلَغَتِ﴾ النفس، وعزمت على التوديع والخروج ﴿الْثَرَاقي﴾ [القيامة: 26]
 أي: عالم الصدر قريب المخرج؟

﴿وَقِيلَ﴾ حيثُذ في حقه؛ أي: الملائكة الموكلون على الموت، مستفهمين فيما
 بينهم على سبيل المشورة: ﴿مَنْ﴾ هو ﴿رَاقٍ﴾ [القيامة: 27] مثا، قابض روحه، أملائكة
 الرحمة أم ملائكة العذاب؟

﴿وَ﴾ حيثُذ ﴿ظَنَّ﴾ بل جزم المختصر ﴿أَنَّهُ الْفِرَاقُ﴾ [القيامة: 28] والافتراق
 عن الدنيا، وما فيها من عموم اللذات والشهوات المحبوبة فيها.
 ﴿وَ﴾ بعدما جزم بفراق الأحبة ﴿الْتَفَتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ﴾ [القيامة: 29] أي:
 التولت ساقه بساقه من كمال ضجرته وأسفه، فلا يقدر حركتها وتحريكها.

ماء مشاهدته، فكلما يزداد عطشه إلى الأبد الأبد، وسر هذا الحرف يتعلق بعدد القرآن، فاجتهد
 في أن تصل إلى هذه الكرامة العظيمة في الدنيا، لأن استيفاء حفظك منها مع الآلات والأدوات
 يزيد نفعا فما يرى بعد نزع الآلات والأدوات.

وبالجملة: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ﴾ [القيامة: 30] ⁽¹⁾ أي: سوقه إليه، ورجوعه نحوه، وحكمه عنده، وحسابه عليه.

وبالجملة: إذا سُئِلَ الإنسان حيثُ عَمَّا أمر له ونهي عنه في النشأة الأولى، كيف يجيب، مع أنه ﴿فَلَا ضِدْقَ﴾ على من أمر بتصديقه، ولا قَبْلَ منه ما هو صلاحه في دينه ﴿وَلَا ضَلَىٰ﴾ [القيامة: 31] ومال إلى الله في الأوقات المكتوبة المقدرة للتوجه والرجوع نحوه سبحانه!؟

﴿وَلَكِنْ﴾ عكس الأمر؛ إذ ﴿كَذَّبَ﴾ على من أمر بتصديقه ﴿وَتَوَلَّى﴾ [القيامة: 32] أي: انصرف وأعرض عن الطاعات المأمورة به.

﴿ثُمَّ﴾ بعد انصرافه وإعراضه عن المرشد الداعي ﴿ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّى﴾ [القيامة: 33] يتبختر فرحاناً مسروراً، مباهياً بفعلته، مفتخراً بشأنه.

قيل له حيثُ من قَبْلِ الحق مخاطباً إياه بالويل والهلاك؛ بسبب فعله هذا ومباهاته: ﴿أَوَّلَىٰ﴾ وأليق ﴿لَكَ﴾ وبحالك في شأنك هذا الويل والهلاك ﴿فَأَوَّلَىٰ﴾ [القيامة: 34] لك وبحالك الويل والهلاك.

﴿ثُمَّ أَوَّلَىٰ لَكَ﴾ كذلك ﴿فَأَوَّلَىٰ﴾ [القيامة: 35] لك كذلك تأكيداً على ذلك، وتشديداً على عذابك، ووخامة حالك ومآلك، أيها المسرف المفرط، المباهي بالإعراض والانصراف عن الإيمان والطاعات؛ المراد منه: أبو جهل، عليه اللعنة.

ثم قال سبحانه على سبيل التوبيخ والتهديد: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ﴾ المصّر على الكفران والطغيان ﴿أَن يَتْرَكَ سُذًى﴾ [القيامة: 36] مهملأ لا يكلف، ولا يحاسب بعد التكليف، ولا يجازى ولا يعاقب على أفعاله، مع أنه إنما جُبل على فطرة التكليف والمعرفة، ويمقتضى حسبه هذا أنكر البعث والجزاء، وخرج عن مقتضى الأوامر والنواهي الواردة عليه في نشأة الاختبار، مصراً على كفره وكفرانه!؟

ومن أين يتأتى له الخروج عن رتبة العبودية ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً﴾ مهينة مردولة، حاصلة ﴿مِنْ مِّنِّي﴾ مهين مردول ﴿يُنْفَىٰ﴾ [القيامة: 37] ويصب في الرحم المردول!؟ ﴿ثُمَّ كَانَ خَلْقَةً﴾ قدرة في الرحم، كسائر الأقدار ﴿فَخَلَقَ﴾ أي: قدر سبحانه

(1) إلى الله وإلى حكمه يساق، لا إلى غيره، إما إلى الجنة وإما إلى النار، وهو مصدر: ساقه مساقاً.

أعضائه وجوارحه منها، وبعدما قدره وصوره ﴿فَسَوَّى﴾ [القيامة: 38] أي: عدّله وقوّمه سبحانه بحوله وقوته، فصار جسداً ذا حس وحركة، وقوّاه فأقامه.

﴿فَجَعَلَ﴾ وخلق بكمال قدرته، ومتانة حكمته وصنعتة لمصلحة التناسل والتكاثر ﴿مِنْهُ﴾ أي: من ماء الإنسان ونطفته ﴿الزَّوْجَيْنِ﴾ الصنفين ﴿الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى﴾ [القيامة: 39] تميماً للحكمة البالغة المتقنة.

ثم قال سبحانه موبخاً مفرغاً على وجه الاستبعاد عن كفران الإنسان، وإصراره على إنكار البعث والحشر، وإعادة الأموات أحياء كما كان: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ القادر المقتدر الذي قدر على خلق هذه الصور المهيبة الخبيثة وتبديلها، صورها عجيبة بديعة، قابلة لفيضان أنواع الكمالات، لاثقة للخلافة والنيابة الإلهية ﴿بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُخَيِّبَ الْمُؤْتَى﴾⁽¹⁾ [القيامة: 40] مرة بعد أخرى، مع أن الإعادة أهون من الإبداء^{١٩}

بلى، لك الإعادة والإبداء أيها القادر المقتدر على خلق الأشياء، أنت تفعل ما تشاء، وتحكم ما تريد، لا تُسأل عن فعلك، إنك حميد مجيد.

خاتمة السورة

عليك أيها الموحد المتحقق بحقيقة الحق وشموله، واستقلاله في تصرفات ملكه وملكوته، وجبروته ولاهوته أن تعتقد أن قدرته الكاملة لا يعترها كلال، ولا يعرضها فطرة ولا زوال، بل له أن يظهر ويوجد بمقتضى قدرته جميع ما ثبت وتحقق في حضرة علمه، ولوح قضائه من الصور البديعة التي لا يخطر ببالك مطلقاً، فله أن يكون ويوجد من كل ذرة عوالم ما شاء الله، وكذا يدرج العوالم الغير المحصورة في كل ذرة من

(1) قال علاء الدولة: أليس الذي عمل هذه الأعمال في نطفة، وخلق صاحب النطفة بإرادته كما شاء مما يشاء يقدر أن يحيي القوى المبته القالية والنفسية غير المدركة بتائجها الباقية وبما كسبت من الآلام الدائمة، بلى قادر على أن يحيي الموتى في الدنيا قبل نزع الآلات والأدوات منها لتعلم عن السيئات، وتتوب إلى خالق السماوات والأرض، وتحى بعد نزع الآلات حياة طيبة أبد الأبد، وقادر على أن يحيي الموتى المعقّى بعد نزع الاستعدادات لتشفى في الآخرة أبد الأبد ونحسد على ذلك؛ لأننا شاهدنا في أنفسنا وفي أنفس غيرنا مما أرسلهم الله إلينا لنداويهم فداويهم وأحياهم الله تعالى، وشاهدوا كل الذي كتب في هذه السورة مشاهدة إيقان عيان عن غير ظن وحسبان، وصار إيمانهم الغيبي الذي يخبر الله عنهم في كلامه بقوله تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ [البقرة: 3] إيماناً شهودياً وعياناً ذوقياً أظهر من فلق الصبح.

ذرائر الكائنات.

وبالجملة: من وصل إلى سعة قلب الإنسان، وساحة صدره ظهر عنده أنه لا يمتنع، ولا يستحيل في جنب قدرته سبحانه وإرادته شيء من مقدوراته ومراداته مطلقاً.

فهيئات هيئات لو نظرت إلى أجزاء العالم بنظر العبرة والاستبصار، بل إلى نفسك ورقائق أعضائك وجوارحك، ودفعت الألفة والعادة عن البين، لرأيت من كل شيء وفي كل ذرة من ذرائر العالم عجائب وغرائب، لا تُعدّ ولا تُحصى.

غاية ما في الباب: إن ألفك حجبك عن هذا الإدراك، وعادتك عاقتك عن رؤية البدائع الإلهية، ولو تنوّر بصر بصيرتك، ونظر سرك وسريرتك بكحل الاستبصار والاعتبار، لرأيت من عجائب قدرة الله، وبدائع صنعه وحكمته في كل طرفة ولمحة ما بجنبه أمر الحشر والنشر، وإعادة الأموات أحياء سهل يسير.

حققنا بحقيتك وقيوميتك يا ذا القوة المتين.

سورة الإنسان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فاتحة سورة الإنسان

لا يخفى على من انكشف بحقيقة الإنسان، وكيفية تطوراته المتلونة، وشئونه المتروية من الخبائث والخساسة إلى أنواع النجاة والكرامة حتى وصل إلى رتبة الخلافة والنبابة الإلهية أن مبنى ترقيه وتدلّيه من حضيض الإمكان إلى أوج الوجوب، إنما هي بالتربية الإلهية، وتكريمه بمقتضى تجليه عليه بعموم أسمائه الكاملة، وأوصافه الشاملة؛ ليرشده إلى وحدة ذاته، ويخلقه بأخلاقه وأوصافه.

ولاشك أن تربية الدنى المرذولة إنما هي بتغيير الخصلة المذمومة، وتبديل المدينة المستهجنة، وذلك لا يتيسر إلا بوضع التكاليف، وتحميل المتاعب والمشاق القالعة المصفية لأقدار الطبائع، وأكدار الهيولي اللازمة للقوى البشرية، وأيضاً بتلميز المعارف والحقائق المشوقة إلى اللذات الروحانية، والمكاشفات اللدنية المخلصة عن الرسوم العادية مطلقاً؛ لذلك أشار سبحانه في هذه السورة العظيمة الشأن إلى أحوال الإنسان، وكيفية ترقيه من شأن إلى شأن إلى أن وصل إلى ما وصل من الهداية والعرفان، فقال متيمناً: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ المتجلى بمقتضى عموم أسمائه الحسنی، وصفاته العليا في مظهر الإنسان ﴿الرَّحْمَنُ﴾ عليه بأنواع التربية والإحسان حتى أوصله وهداه إلى طريق الإيمان والعرفان ﴿الرَّحِيمُ﴾ عليه، يوصله إلى مرتبة الكشف والعيان.

﴿هَذَا أَنَّى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينَ مَنَ الْذَهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ۝١ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ۝٢ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَكِينًا وَاعْلَلًا وَغَلَلًَا وَمَعِيرًا ۝٤ إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝٥ حِينَ يَشْرَبُونَ بِهَا عِلَّةٌ أَقْبَىٰ يَفْعَرُونَهَا نَعِيجًا ۝٦﴾ [الإنسان: 1-6].

﴿هَلْ أَتَى﴾ أي: قد سبق ومضى ﴿عَلَى الْإِنْسَانِ﴾ المصوّر بصورة الرحمن

﴿حِينَ مِّنَ الدَّهْرِ﴾ أي: شأن محدود من الشئون الغير المحدودة الإلهية، بحيث ﴿لَمْ يَكُنْ﴾ الإنسان فيه ﴿شَيْئًا﴾ إذ العدم ليس بشيء، فكيف كان ﴿مَذْكُورًا﴾ [الإنسان: 1] ⁽¹⁾ ١٩

(1) قال سيدنا البيطار: اعلم - رحمك الله - أن ﴿الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ [الرحمن: 1، 2]، للإنسان قبل خلق الإنسان ثم ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ [الرحمن: 3، 4]، والقرآن الجامع لكتاب الوجود الإلهي خلق رسول الله ﷺ الموصوف بالعظمة الإلهية، فتعليم القرآن له هو تجلي الأحدية، وفي هذا التجلي لم يكن شيئًا مذكورًا مع الأحدية الغنية بأحدية ذاتها عن العالمين، وإتيان الحين من الدهر عبارة عن انفراد الأحدية بذاتها لذاتها بتجلي أحدي هو عين ذاتها، واندراج كل شيء بتلك الأحدية عبر عنه بتعليم الرحمن القرآن وبأحسن تقويم، وخلق الإنسان هو الرد، أي: التزل من أسفل سافلين؛ لأن الصورة الإنسانية وفق كمال الوجود مفتاحًا ومغلاقًا، وهذا المعنى هو مراد سيدي عبد السلام بن شيش ﷺ بقوله: اللهم صل على من منه انشقت الأسرار وانفلقت الأنوار.. إلى آخر ما قال. وقال فرد زمانه وغوث أوانه سيدي محمد وفا قدس الله سره: قلب القطب هو اسم الأعظم، ووجه ذاته الأكرم الذي قام به الخلق والأمر وعليه مدار السر والجهر، وكل قلوب بني آدم بين إصبعين من أصابعه كقلب واحد، فهم ألسنة الناطقة، وكلماته الصادقة وأقلامه الفاتقة والرائقة، ولو برز جامع عالم القدرة يفسد نظام عالم الحكمة، ﴿وَلَيْكُنْ يُنَزَّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ * إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ [الشورى: 27] انتهى كلامه، واعلم - رحمك الله - أن القطب مظهر الأخلاق المحمدية بحسب استعداده واستعداد وقته وزمانه، فهو في كل زمان مظهر محمدي كامل؛ لأن خلق رسول الله ﷺ هو القرآن، والقطب مظهر ذلك الخلق الذي هو القرآن، وأما قلب القطب الذي قال عنه سيدي محمد وفا بأنه اسم الله الأعظم ووجه ذاته الأكرم، فهو السراج المنير الذي هو قلب القرآن يس، وهو النور المحمدي الذي هو الحقيقة الإنسانية المحمدية التي علم الرحمن: أي: تجلي الرحمن على تلك الحقيقة بكنه ذاته التي هي مدلول جميع ما في القرآن قبل خلق صورة الإنسان، فهي غيب القطب، والقطب الذي هو المظهر المحمدي الكامل في وقته هو شهادة ذلك الغيب، وذلك الغيب هو الإنسان الذي ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ بل كان الله، ولم يكن شيء، والشيء المذكور هو المظهر، وفي حضرة الأحدية لا يمتاز مظهر عن مظهر، قال الشيخ الأكبر ﷺ بلسان تلك الحضرة:

وسوانا ماتم أين الظهور لو ظهرنا للشيء كان سوانا
واعلم أن القطب هو فجر الشهادة لليالي الغيب العشر الخمسة بشرية والخمسة ملكية وتلك الليالي العشر محمد ﷺ وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل والروح الأكبر المذكور في آية: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَأِئِكَةُ صَفًّا﴾ [النبا: 38] وقد أخبر القطب

﴿إِنَّا﴾ من مقام عظيم جودنا بمقتضى كمال قدرتنا وإرادتنا، ووفور حكمتنا ﴿خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ﴾ وقدرنا وجوده بعدما أخرجناه من العدم الصرف نحو فضاء البروز، وصورناه بصور العناصر ﴿مِنْ نُفُثَةٍ﴾ مهينة مرذولة ﴿أَمْشَاجٍ﴾ مختلطة مجتمعة من الذكر والأنثى، وبعدهما صورناه هيكلاً سوياً، وأودعنا فيه ما أودعنا من الروح وسميناه إنساناً ﴿نَبْتَلِيهِ﴾ نختبره ونجربه، هل يتفطن إلى موجدته ومظهره، أم لا؟.

وكيف لا نختبره ﴿فَجَعَلْنَاهُ﴾ لحكمة الاختبار، ومصلحة الاعتبار ﴿سَمِيعًا﴾ متمكناً قادراً على استماع آياتنا الدالة على وحدة ذاتنا، وكمالات أسمائنا وصفاتنا ﴿بَصِيرًا﴾ [الإنسان: 2] مقتدرًا على مشاهدة بدائع صنعنا، وغرائب صنعتنا، وعجائب حكمتنا؛ ليكون معتبراً منها، متوجهاً إلى فاعلها.

ومع إعطاء تلك الكرامات العظيمة إياه ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ﴾ يعني: أودعنا فيه العقل الفطري المنشعب من العقل الكلي الذي هو حضرة علمنا، وبواسطته هديناه إلينا سبيلاً بأن أرسلنا الرسل المتبئين عليه، الموقظين له من نعاس النسيان، المنهين له إلى ما أودعنا فيه من الوديعه البديعة، وأيدناهم بالآيات المبيّنة المتبّيه، النازلة من لدنا، والبيانات الواضحة الموضحة لطريق توحيدنا، وسبيل شهودنا، وبعدهما وضع الحق، واتضح السبيل على الوجه الأبلغ الأكمل.

فعليه الاختبار ﴿إِنَّمَا شَاكِرًا﴾ أي: إمّا أن يكون شاكرًا مشغلاً بشكر النعم، مواظبًا على أداء حقوق الكرم، صارفًا عنان عزمه واختياره إلى صوب الهداية والرشاد حتى يكون من أرباب العناية والسداد، المتنعمين في جنة الرضا والتسليم ﴿وَلِإِنَّمَا كَفُورًا﴾ [الإنسان: 3] للنعم، كافرًا لمنعمها، مقتفياً أثر أصحاب الغفلة والعناد، واللدود والفساد

سيدي أبو الحسن الشاذلي ؑ أنه كان يقوم في أبحر عشرة، وهي العشرة التي ذكرناها، وقال أبو الحسن الشاذلي: للقطب خمس عشرة كرامة فمن ادعاه أو شيئاً منها فليبرز أن يمد بمدد الرحمة والعصمة والخلافة والنبابة، ومدد حملة العرش العظيم، ويكشف له عن حقيقة اللات وإحاطة الصفات، ويكرم بكرامة الحكم والفصل بين الموجودين، وانفصال الأول عن الأولى، وما اتصل عنه إلى متناه، وما ثبت فيه، وحكم ما قبل وحكم ما بعد وحكم من لا قبل له ولا بعد، وعلم البدء وهو العلم المحيط بكل علم، ويكل معلوم بدء من السر الأول إلى متناه، ثم يعود إليه. انتهى كلامه ؑ. ولا يخفى أن طلسم هذا الكثر لا يحله إلا من تحقق بما تحقق به أبو الحسن الشاذلي ؑ.

حتى يكون من أصحاب الجحيم.

وبالجملة: ﴿إِنَّا﴾ بمقتضى قهرنا وجلالنا ﴿أَعْتَدْنَا﴾ وهيئنا ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾ الساترين بغيوم هوياتهم الباطلة شمس الحق المشرقة، الظاهرة على صفائح ذرائر الكائنات؛ لذلك خرجوا عن ربة ربيته، وعروة عبوديته، وأعرضوا عن مقتضى حدوده الموضوعة بين عباده ﴿سَلَّاسِلَ﴾ أي: سلاسل الحرص وطول الأمل، يُقَادُونَ ويُسْحَبُونَ بها نحو نيران الإمكان، وجحيم الطرد والحرمان بأنواع الخيبة والخسران ﴿وَأَغْلَالًا﴾ أي: أغلال الأماني والشهوات، يُقَيَّدُونَ بها ﴿وَسَعِيرًا﴾ [الإنسان: 4] مسعرا مملوءا بنيران الافتقار والاحتياج، والأماني والآمال، يُطْرَحُونَ فيها طول دهرهم بأنواع الخذلان والهوان أبداً، ويُسَجَّنُونَ خالدين مخلدين.

ثم أردف سبحانه الوعيد بالوعد على مقتضى سنته المستمرة فقال: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ﴾ الأخيار، البارين المبرورين ذوي الأيدي والأبصار، المستغرقين في بحار المعارف والأسرار ﴿يَشْرَبُونَ﴾ لدى الملك الجبار خمور الشهود والاعتبار ﴿مِنْ كَأْسٍ﴾ أي: من كؤوس ذرائر العالم المستعار؛ ولذلك ﴿كَانَ مِزَاجُهَا﴾ أي: ما يمزج بها ويخلط ﴿كَافُورًا﴾⁽¹⁾ [الإنسان: 5] هو برد اليقين.

يعني: ﴿عَيْنًا﴾ معينا هي ينبوع بحر الوجود ﴿يَشْرَبُ بِهَا﴾ ومنها ﴿عِبَادُ اللَّهِ﴾ الواصلون إلى عالم اللاهوت، والقانون في فضاء الجبروت، الباقون بقاء حضرة الرحموت؛ لذلك ﴿يَفْجَرُونَهَا﴾ ويجرونها ﴿تَفْجِيرًا﴾ [الإنسان: 6] وإجراء حيث شاءوا.

﴿يُؤْتُونَ بِالْغَدْرِ وَخِفَاوَنَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾⁽⁷⁾ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حَيْدٍ مُشْكِيًا وَيَنْتِمُوا
وَأَسِيرًا⁽⁸⁾ إِنَّمَا تُطْعَمُونَ لَسَانًا قَوْلًا يُهْدِيكُمْ إِلَىٰ سَبِيلٍ مُّسْتَقِيمٍ وَلَا تَشْكُرُوا⁽⁹⁾ إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَتَطِيرًا⁽¹⁰⁾
فَوْقَهُمْ أَعْيُنُ اللَّهِ يُخَوِّدُ الْوَيْلَ وَالْقَهْرَ نَظْرًا⁽¹¹⁾ وَجَزَاءُكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ أَجْرًا وَحَرِيرًا⁽¹²⁾ مُّشْكِيًا فِيهَا

(1) قال علاء الدولة: يعني: إن الشاكرين نعمنا يشربون من كأس استعدادهم التي كان مزاجها كافورا؛ يعني: طينة الكأس ممن وجه بكافور الجمال صورة والجلال معنى، والمسك جلال في الصورة والكافور جمالي في الصورة، وفي بيان هذه السر لطيفة، لو لجت بها لاستباح العوام سفك دم، وإن كان من بطن القرآن فطويت صحيفتها.

عَلَى الْأَرْأَيْكَ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلُّهَا وَذُلَّتْ قُطُوبُهَا نَذِيرًا ﴿١٤﴾ [الإنسان: 7-14].

وصاروا من كمال وصولهم واتصالهم ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾ ويوفرون على المنذور ﴿و﴾ كيف لا يوفون أولئك الموفون، مع أنهم ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا﴾ وأي يوم، يومًا ﴿كَانَ شَرُّهُ﴾ شدائده وأهواله ﴿مُشْتَطِرًا﴾ [الإنسان: 7] طائرًا منتشرًا بين عموم العباد؟

﴿و﴾ من كمال استغراقهم بمطالعة وجهه الكريم ﴿يُطْعِمُونَ الطَّعَامَ﴾ أي: الرزق الصوري والمعنوي، المسوق لهم من عنده سبحانه تقوية وتقويماً، ترحيماً وتكريماً ﴿عَلَى حُبِّهِ﴾ طلباً لمرضاته ﴿مِنْ كَيْتَانِ﴾ أسكنه الفقر، وأزعجه إلى المعاونة والسؤال ﴿وَيَتِيمًا﴾ أدركه الذل، وأحوجه إلى الافتقار ﴿وَأَسِيرًا﴾ [الإنسان: 8] أذله الصغار والهوان، وأفقره إلى الرعاية والترحم.

عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أن الحسن والحسين - سلام الله وصلواته على جدهما ووالديهما وعليهما - مرضا مرضاً هائلاً فعادهما رسول الله ﷺ في ناس، فقالوا: يا أبا الحسن لير نذرت على ولديك، فنذر علي وفاطمة - على النبي وعليهما وابنيهما الصلاة والسلام - وفضة جارية لفاطمة صوم ثلاثة أيام إن برئا، ثم لما برئا صاموا وما معهم شيء، واستقرض علي من شمعون الخيري ثلاثة أصع من الشعير، فطحنت فاطمة صاعاً، وخبزت خمسة أقراص على عدد رؤوسهم، فوضعوا بين أيديهم ليفطروا، فجاء على الباب مسكين، فأعطوا له وآثروه على أنفسهم، وباتوا ولم يذوقوا إلا الماء، وأصبحوا صياماً.

فلما أمسوا فعلوا كذلك، فآلم عليهم يتيم فأثروه كذلك، فأصبحوا صياماً، ففعلوا في اليوم الثالث مثل ذلك، فجاء أسير، فأعطوه فباتوا بلا طعام، فنزل جبريل بهذه الآية فقال: هناك الله في أهل بيتك يا نبي الله.

ثم لما أضمرنا في نفوسهم ومناجاتهم حين صدور هذا الإحسان عنهم طلب مرضاة الله، وتثبيتاً لهم على دينه وطاعته، وتشويقاً منهم إلى لقائه، نزل في حقهم على وفق ما نوا: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ﴾ أي: ما نطعمكم أيها المحتاجون إلا ﴿لِوَجْهِ اللَّهِ﴾ الكريم، وطلباً لمرضاته؛ إذ ﴿لَا تُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً﴾ ليصير عوضاً؛ لإطعامنا لوجه الله الكريم ﴿وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان: 9] ما لنا من الشكر والجزاء أمر.

وكيف يتأتى منا طلب الشكر والجزاء؛ إذ قدرتنا على إطعامكم إنما هي بإقدار الله إيانا، وإعطاؤنا إنما هي من عطاياه؟ وبالجمله: ﴿إِنَّا نَخَافُ﴾ بطلب الأجر والجزاء ﴿مِنْ﴾ غضب ﴿رَبِّنَا﴾ بنا ﴿يَوْمًا﴾ وأي يوم، يومًا ﴿عَبُوسًا﴾ تعبس فيه مطلق الوجوه من شدة هوله، بل صارت ﴿قَمَطَرِيرًا﴾⁽¹⁾ [الإنسان: 10] في غاية الشدة والعبوسة، سيما على أهل الرياء والسمعة، الطامعين بصدقاتهم الذكر الجميل، والثناء الجزيل، مع أنهم إنما يعطون من مال الله لعيال الله.

وبعدما أخلصوا لله، وخافوا من عذابه ﴿فَوَقَاهُمُ اللَّهُ﴾ الحكيم الحفيظ ﴿شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ﴾ أي: فرغ عنهم شره، وأبدله لهم خيرًا ﴿وَلَقَّاهُمْ﴾ أي: لقي لهم يومهم ﴿نَضْرَةً﴾ طراوة وصفاء في وجوههم ﴿وَسُرُورًا﴾ [الإنسان: 11] وبهجة في قلوبهم.

﴿و﴾ بعدما فعلوا ما فعلوا خالصًا لوجه الله ﴿جَزَاهُمْ﴾ سبحانه ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ وحبسوا نفوسهم عن مشتريات المنهيات والمحرمات، وعلى أداء الواجبات، وإيثار الأموال والأرزاق المسوق نحوهم؛ لطلب المرضاة ﴿جَنَّةٍ﴾ مصورة من صالحات أعمالهم وحالاتهم ومقاماتهم، يتلذذون فيها باللذات الروحانية أبد الآباد ﴿و﴾ يلبسون فيها ﴿حَرِيرًا﴾ [الإنسان: 12] متخذًا من حلل الأسماء والصفات التي لا يتصور فيها الحول والخشونة أصلاً.

﴿مُتَكِّينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ﴾ يعني: مستظهرين فيها بالالطاف الإلهية، مستظلين بكنف حفظه وجواره، بحيث ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا﴾ أي: حرارتها المؤذية لهم ﴿وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ [الإنسان: 13] أي: البرودة المضرة، بل تعتدل فيها الهواء والأهواء؛ لتعديلهم الأخلاق والأعمال والأحوال.

﴿و﴾ ليس ظلال الجنة بعيدة عنهم، بل كانت ﴿دَائِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا﴾ الموعودة لهم من قبل الحق ﴿و﴾ لهم فيها ثمار متجددة، متلونة من أنواع المعارف والحقائق البدنية المترتبة على أشجار الأسماء والصفات الإلهية التي اتصفوا بها، وتخلقوا

(1) قال السمناني: إنا نخاف من اللطيفة الربوبية السكينة في قلوبنا يومًا أظلم فيه شمس الروح، وقمر القلب وكوكب الحواس، ونجوم القوى فصار يومًا عبوسًا على صاحبه، وهذا يشاهد وقت تقرر ذكر الرب عن القلب الغافل عن الرب، وفي ذكر القمطرير شدة الكرب، وهو عند تقرر القلب السليم عن الذكر الذي يجري على لسان ملوث بالغيبة، والكذب والفحش، ومما لا يعنيه.

﴿وَنُفِثَ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ فَإِذَا يَكُونُ صَبُوحٌ ثَلَاثَةٌ يُسَبِّحُونَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ رِزَاقُهَا زَيْجِلًا ﴿١٧﴾﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ نَارَ اللَّهِ مَصْلِيًا ﴿١٨﴾ وَتُفَوِّثُ عَنْهُمْ وَهُمْ يُفَوِّثُونَ ﴿١٩﴾﴾ أَفَإِنْ يَسْتَدْرِي ﴿٢٠﴾ عَلَيْهِمْ نَارُ اللَّهِ مِنْهُمْ وَلَئِنْ يَسْتَدْرِي ﴿٢١﴾ إِنَّ هَذَا لَكُنْزٌ فَهُمْ لَا يَحْكُمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ وَإِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَنَكِيدُونَ ﴿٢٣﴾﴾

وأية قواعد حقوق الإنسان متخذة من غاية صفاتها وصفاتها لا يرى لها لون ولا كون، بحيث أشبه أمرها عند الرائي؛ لذلك هتفزوها تغديروا⁽¹⁾ [الإنسان: 16] بمقتضى ما راعوا في الاعتدال في الأقطار والأخلاق.

(١) قال السمناني: يعني: يطاف عليهم قوامهم المظهر بآنية نباتهم الثابتة، مثل القصعة في الصلاة وأكواب استعدادهم الرسمية الصافية؛ مثل الزجاج وشبهه بالزجاج؛ لأن الزجاج يخرج من الحجر، ويشمل النار تحته؛ لتحرق أجزاء الباطلة الكثيفة، كما كان حال الغالب فهو مثل الحجر، فينبغي أن يشمل صاحبه نار الذكور؛ ليخرج منه خباياه وكشافه حتى يصير آنية صافية لطيفة، وشبهه بالفضة؛ ليكون آتياً من الكسر صلاية استعدادهم مثل الفضة، وصغارهم ودرتهم الزجاجية يصف أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب هه نفس المومنها أنها أصلب من الصلدا وأذل من العبد.

يعني: ﴿عَيْنًا فِيهَا﴾ جارية بماء الحياة الأزلية الأبدية السرمدية ﴿تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا﴾ [الإنسان: 18] لهدايتها وإرشادها إلى مشرب التوحيد، وبحر الوحدة الذاتية، كأنها تلقى وتلقن تلك العين المترشحة من بحر الحياة الأزلية الأبدية لأرباب العناية بقولها: سل أيها الطالب الحائر في بيداء الطلب سبيلاً إلى الوحدة الحقيقية الحقيّة.

﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾ تأنيساً لهم وتصحيهاً ﴿وَلَذَانِ﴾ حسان، مصورون من أعمالهم وأحوالهم ﴿مُخَلَّدُونَ﴾ دائمون على صباحتهم وحسنهم، بحيث ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ﴾ أيها المعتبر الرائي ﴿حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنْثُورًا﴾ [الإنسان: 19] من صفاء ألوانهم، ومقبولية هياكلهم، وصباحة خدّهم، ورشاقة قدّمهم، وانعكاس أشعة وجوههم من كمال اللطافة والطلاوة والصفاء المفرط.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿إِذَا رَأَيْتَ﴾ أيها المعتبر الرائي ﴿ثُمَّ﴾ أي: في الجنة ﴿رَأَيْتَ﴾ ما رأيت، وما أدراك ما رأيت، رأيت ﴿نَعِيمًا﴾ وأتي نعيم، نعيمًا لا يكتنه غوره وطوره ﴿وَمُلْكًا﴾ وأتي ملك، ملكًا ﴿كَبِيرًا﴾ [الإنسان: 20] وسيعًا فسيحًا، لا يدرك وسعته وقدره، ولا يكتنه طوره وغوره.

ومع ذلك ﴿عَالِيَهُمْ﴾ أي: يعلو عليهم فيها تعظيمًا لهم وتكريماً ﴿ثِيَابٌ سُندُسٍ﴾ رقيق من الديباج ﴿خُضْرٌ﴾ على لون الحياة؛ لأن حياتهم فيها سرمدية ﴿وَإِنْشَبَرٌ﴾ غليظ منه كذلك ﴿وَحُلُوهَا أَسَاوِرٌ﴾ متخذة ﴿مِنْ فِضَّةٍ﴾ تميماً لتنعمهم وترفهم فيها ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿سَقَاهُمْ رَبُّهُمْ﴾ بعدما تمكنوا في مقعد الصدق عند الملك المقتدر ﴿شَرَابًا﴾ من كأس المحبة، ورحيق التوحيد والتحقيق ﴿طَهُورًا﴾ [الإنسان: 21] خالياً خالصاً عن شوب الثبوية، وشين الكثرة مطلقاً، فسكروا منه، ولم يصحوا أبداً.

ثم قيل لهم من قبل الحق: ﴿إِنَّ هَذَا﴾ التي فزتم عليه الآن ﴿كَانَ لَكُمْ جَزَاءً﴾ موعوداً في مقابلة أعمالكم وأخلاقكم، وأحوالكم ومعارفكم، ومواجدكم التي أنتم عليها في النشأة الأولى ﴿وَكَانَ سَعْيُكُمْ﴾ الذي كنتم عليه في نشأة الاختبار ﴿مُشْكُورًا﴾ [الإنسان: 22] مجازاً عليه، غير مضيع مع زيادات منّا عليكم تفضلاً وامتناناً.

ثم لقا جمع سبحانه جميع الفضائل والكمالات، وعموم المعارف والمشاهدات والمكاشفات اللدنية في المرتبة الجامعة الختمية المحمدية، المحيطة على عموم المراتب والمناصب، خاطبهم سبحانه خطاب امتنان ورحمة على وجه التعطف والتلطف فقال: ﴿إِنَّا﴾ بمقتضى فضلنا وجودنا ﴿نَخْنُ نَزِّلْنَا عَلَيْكَ﴾ يا أكمل الرسل

تأييداً لك، وتعظيماً لشأنك ﴿الْقُرْآنَ﴾ الحاوي لما في الكتب السالفة، المحتوي لجميع الكمالات الثلاثة لعموم الأنبياء والرسل، المجتازين في سبيل التوحيد ﴿تَنْزِيلًا﴾ [الإنسان: 23] مفرقاً منجماً على مقتضى الحكمة البالغة الباعثة على إنزالها حسب حاجتك إليها، وانكشافك بما فيها؛ لتدرج في سلوكك وشهودك.

﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آيَةً أَوْ كَفُورًا ۝١١ وَأَذْكُرِ آيَاتِ رَبِّكَ بِكُنُوزٍ وَأَسْوَءِ ۝١٢ وَمِمَّنْ أَلْجَأَ الْقُلُوبَ لِلَّهِ وَسَبَّحَهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُجِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذُرُونَ ۝١٣ وَرَأَاهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ۝١٤ نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَلَهُمْ تَبْدِيلًا ۝١٥ إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَهًا غَيْرَ رَبِّهِ سَبِيلًا ۝١٦ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝١٧ يَدْخُلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالْظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝١٨﴾ [الإنسان: 24-31].

وبعد ما سمعت ما سمعت من الكرامة والتعظيم ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ ولا تستعجل في نصرتك وظهورك على عموم أعدائك من جنود أهل التقليد والضلال، سيما كفار مكة، خذلهم الله.

﴿و﴾ بعدما كوشفت بحقية الحق، ووحدته واستقلاله في الوجود ومطلق الآثار ﴿لَا تُطِعْ مِنْهُمْ﴾ أي: من أهل التقليد وأصحاب الضلال أحداً سواء كان ﴿آيَةً﴾ متناهياً في الفسوق والعصيان، بحيث ينتهي إثمه إلى الكفر ﴿أَوْ كَفُورًا﴾ [الإنسان: 24] ⁽¹⁾ لنعم الله، مبالغاً في كفران نعمه ونسيان كرمه، بحيث ينتهي كفرانه إلى الكفر، أعاذنا الله وعموم عباده منهما.

(1) قال الورتجي: حقيقة إشارته أنه تعالى عَرَفَ لهم الطريق، فمن بقى في الطريق ولم يصل إليه فمنعه لم يبلغ، ومن وصل إليه فيجد به بلغ إليه، فمن بلغ يكون بمعرفة شاكراً له، ومن لم يبلغ إليه فيجد؛ لأنه يكون كافراً به، إذ لم يذق طعم الوصال، ولم يز نور مشاهدة الجمال، مهتد الطريق، ونضوب الأعلام، وأوضح المنار والأدلة، ودعاهم به إلى نفسه، فمن واصل يسكن بما وجد به وهو شاكراً، ومن واصل لم يسكن بما وجد، ويكون معريداً بطلب مزيد الدنوى، وفيه كل ما وجد لم يكن راضياً حتى وصل إلى غيوبة الغيب، وشرب من أنهار صرف الصفات والذات، فيخرج متحداً يدعي الربوبية، ويكون كافر الحقيقة، قال سهل: بيئنا له طريق الخير من طريق الشر، إما أن يكون شاكراً طائعاً، فمستقره الجنة، وإما أن يكون كفوراً جاحداً، فمأواه النار.

﴿وَعَدَمًا تَحَقَّقَتْ بِمَقَامِ الْكُشْفِ وَالشَّهَادَةِ﴾ اذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿[الإنسان: 25] أي: في عموم أوقاتك وحالاتك، وداوم على ذلك.

﴿وَمِنَ اللَّيْلِ﴾ الموضوع؛ للخلوة مع الله، ودوام المراقبة معه ﴿فَاسْجُدْ لَهُ﴾ وتوجه نحوه توجهًا خالصًا، مقارنًا بكمال الخضوع والخشوع، والتذلل التام ﴿وَسَبِّحْهُ﴾ أي: نزه ذاته عن جميع ما لا يليق بشأنه ﴿لَيْلًا﴾ أي: في خلاله تسييحًا ﴿طَوِيلًا﴾ [الإنسان: 26] خاليًا عن مطلق الشواغل، فارغ البال عن تشتت الآمال، هكذا دأب أصحاب الكمال، وديانة أصحاب الوجد.

والحال ﴿إِنْ هَؤُلَاءِ﴾ أي: أصحاب الضلال المنحرفين عن جادة الاعتدال ﴿يُحِبُّونَ﴾ اللذة ﴿الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ﴾ أي: يتركون أمامهم وخلفهم بلا مبالاة لهم ﴿يَوْمًا ثَقِيلًا﴾ [الإنسان: 27] شديدًا، يشتد الأمر فيه عليهم ويصعب، ومع ذلك ينكرون له ويكذبونه.

وكيف يذرونه وينكرونه، مع أننا نخبر به، ونأمر بتصديقه؛ إذ ﴿نَحْنُ﴾ بمقتضى قدرتنا ﴿خَلَقْنَاهُمْ﴾ وقدرنا وجودهم أولاً من أهون الأشياء، وأخسها وأرذلها ﴿وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ﴾ أي: عدلنا أركانهم وجوارحهم، وأحكمنا مفاصلهم وأوصالهم، وبالجمله: سويناهم أشخاصًا قوابل للتكليف؛ ليرتب عليهم الإيمان والتصديق بجميع المعتقدات الدينية ﴿وَعَدَمًا﴾ بعدما لم يؤمنوا، ولم يصدقوا عنادًا ومكابرة ﴿إِذَا شِئْنَا﴾ وتعلق مشيئتنا على إهلاكهم واستئصالهم أهلكتناهم واستأصلناهم، و﴿بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ﴾ في الخلقة وجميع لوازمها ﴿تَبْدِيلًا﴾ [الإنسان: 28] حسنًا، بحيث يكون المبدل خيرًا، وأحسن وأكمل من المبدل منه.

وبالجمله: ﴿إِنْ هَذِهِ﴾ الآيات الدالة على تهذيب الأخلاق والأطوار ﴿تَذَكُّرَةٌ﴾ ناشئة من قبل الحق ﴿فَمَنْ شَاءَ﴾ أن يتعظ به، أو يتذكر بما فيها ﴿اتَّخَذْ﴾ أولاً ﴿إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ [الإنسان: 29] يعني: شرع في مسالك القرب والوصول إلى الله، فتقرب نحوه بالمعاملات، ثم بالأحوال والمقامات، ثم بالمعارف والحقائق المنتهية إلى المكاشفات والمشاهدات المؤدية إلى الوصول والنهايات، وليس وراء الله مرمى ومنتهى.

﴿وَعَدَمًا﴾ لكن ﴿مَّا تَشَاءُونَ﴾ أيها المتقربون إلى الله، السائرون نحوه حسب التوفيق والتيسير الإلهي ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ الموفق لهم، الموجد المقدر لعموم أفعالهم وأعمالهم، المنجي لهم عن غياهب الإمكان، وظلمات الخيالات والأوهام ﴿إِنْ يَشَاءُ﴾

المطلع على استعدادات عباده ﴿كَانَ عَلِيمًا﴾ بقابلياتهم الثلاثة لفيضان الكشف والشهود ﴿حَكِيمًا﴾ [الإنسان: 30] في تربيتهم وتكميلهم.

﴿يُدْخِلُ﴾ بمقتضى هدايته ولطفه ﴿مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ﴾⁽¹⁾ التي هي سعة وحدته ﴿وَوَ﴾ لكن ﴿الظَّالِمِينَ﴾ الخارجين عن مقتضى الحدود الإلهية، المحرومين عن نظر العناية والتوفيق مطلقاً ﴿أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الإنسان: 31] لا عذاب أشد منه إيلاًماً، وأفزع انتقاماً، وهو حرمانهم عن ساحة عز القبول، نعوذ بك يا ذا القوة المتين.

خاتمة السورة

عليك أيها المرید المترصد لمشیئة الله وتيسيره - وفقك الله على ما أملك، وأعانك على إنجاحه - أن تفرغ همك، وتخلي قلبك عن الالتفات إلى الدنيا معرضاً عن آمالها وأمانيتها، متوجهاً إلى الآخرة وما فيها، متعرضاً لنفحات الحق، مستنشقاً من روائح روحه ورحمته، راجياً من سعة لطفه وجوده أن يسر لك، ويوفقك في عموم أوقاتك وحالاتك على ما هو خير لك في أولاك وأخراك، ويدفع عنك شرور بشرتك، ومقتضيات بهيمتك وقواك.

وبالجملة: فاتخذة وكيلاً، وثق إليه، واجعله حسيباً وكفيلاً؛ إذ هو أعلم بما ينبغي لك منك، ويليق بحالك، فلك التفويض والتكلان، والأمر بيد الله الحكيم المستعان.

(1) قال ابن الخطيب: إن فسرنا الرحمة بالإيمان فالآية صريحة في أن الإيمان من الله تعالى، وإن فسرناها بالجنة كان دخول الجنة بسبب مشيئة بسبب مشيئة الله تعالى وفضله، وإحسانه لا بسبب الاستحقاق؛ لأنه لو ثبت الاستحقاق لكان تركه يفضي إلى الجهل أو الحاجة، وهما محالان على الله تعالى، والمفضي إلى المحال محال، فتركه محال، فوجوده واجب عقلاً، وعدمه ممتنع عقلاً، وما كان كذلك لا يكون معلقاً على المشيئة البتة. تفسير الباني لابن عادل (156/16).

سورة المرسلات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فاتحة سورة المرسلات

لا يخفى على من انكشف بوحدة الحق، وانجذب إلى مرتبة الكشف والشهود والانجلاء التام المسقط لعموم العبارات والاعتبارات أن الركون إليه سبحانه، والانجذاب نحوه إنما يحصل بجذبات إلهية، ونفحات غيبية مهبة من نفسات الرحمن من قبل يمن عالم اللاهوت وحضرة الرحمت.

ولاشك أن الجذبات الإلهية متفاوتة بتفاوت الاستعدادات والقابليات المترتبة على رتبة الأسماء والصفات:

فمنهم: من جذبته العناية، وأدركته النفحات والنسمات اللاهوتية، كالبرق الخاطف فعصفن عليهم، وأزيل عنهم ملابس الإمكان بالكلية، وأخرجهم عن سجن الطبيعة والهيولي على الفور بلا تراخ ومهلة.

ومنهم: من نشرنا عليهم هينات لينات، بحيث يستروحوا من هبوبها، ويستريحوا فيها حتى يترسخ في نفوسهم آثارها فيتدرجون إليها، ويتحنون نحوها متشوقين فيتطرقون أثرها حتى وصلوا إلى ما وصلوا، بل اتصلوا.

ومنهم: من يهين عليهم، ويفرقن في نفوسهم بين الحق والباطل، والهداية والضلال على سبيل التدرج فيوقعن بينهم الفتن والبليات، وأنواع التجارب والاختبارات حتى يتفطن البعض منهم، ويتنبه فيكون من أصحاب الجنة، والبعض الآخر لم يتفطن، ولم ينبه فيكون من أصحاب النار.

ومنهم: من يلقيهم لهم بعد هبوبهن عليهم ذكرًا من عالم اللاهوت، مجردًا عن الفكر والفطنة، فكيف عن التحنن والتشوق، فكيف عن السيران والطيران؟!

فالأولى: إشارة إلى طريقة الشطار الطائرين إلى الله، كالبرق الخاطف.

والثانية: إلى طريقة الأبرار أرباب المواجهيد والواردات والأذواق.

والثالثة: على طريق الأخيار، وأصحاب المعاملات والاستدلالات.

والرابعة: إلى طريقة العوام القانعين بالذكر والتكرار بلا وجدان وفطنة،

وذوق ومعرفة.

لذلك قال سبحانه في شأن العوام: ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الأعراف: 179].

ثم لما أراد سبحانه أن يشير إلى هذه الطرق أقسم بحاملي وحْيِهِ، ونفسات رحمته الفائضة منه سبحانه على عموم عباده على الدوام؛ ليستمدوا منه، ويتطرقوا نحوه متذكرين لمبدئهم ومعادهم حسب استعداداتهم وقابلياتهم، فقال بعدما تيمن: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ المظهر لعموم عباده بامتداد أظلاله المترتبة على أوصافه الذاتية وأسمائه ﴿الرَّحْمَنِ﴾ عليهم بإفازة نسمات روحه، ونفسات رحمته ﴿الرَّحِيمِ﴾ عليهم، يوصلهم إلى فضاء وحدته بإرسال شمائم روحه وراحته.

﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا﴾ ① ﴿فَالْمُصَوِّتِ أَصْفًا﴾ ② ﴿وَالنَّاشِرَاتِ فُشْرًا﴾ ③ ﴿فَالْمُفْرِقَتِ قَرَفًا﴾ ④ ﴿فَالْمُلْقِيَتِ ذِكْرًا﴾ ⑤ ﴿عِذْرًا أَوْ نَذْرًا﴾ ⑥ ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَفِّعُ﴾ ⑦ ﴿فَإِذَا الثَّجُومُ طُمِسَتْ﴾ ⑧ ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ﴾ ⑨ ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُفِّتْ﴾ ⑩ ﴿وَإِذَا الرَّسْلُ أِقْنَتْ﴾ ⑪ ﴿لَأَيَّ يَوْمٍ أُنْزِلَتْ﴾ ⑫ ﴿يَوْمَ الْفَصْلِ﴾ ⑬ ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الْفَصْلِ﴾ ⑭ ﴿وَبَلْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ ⑮ ﴿أَلَمْ يَكُنْ لَكَ الْأَوَّلِينَ﴾ ⑯ ﴿ثُمَّ نَتَّبِعُهُمُ الْآخِرِينَ﴾ ⑰ ﴿كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ ⑱ ﴿وَبَلْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ ⑲ [المرسلات: 1-19].

﴿و﴾ حق ﴿المرسلات﴾ أي: رياح الجذبات المهيبة من قتل عالم اللاهوت، لاسترواح أرواح سكان عالم الناسوت وأشباحهم ﴿عُرْفًا﴾⁽¹⁾ [المرسلات: 1] للتعارف والاتلاف الواقع بينهم بحسب الحقيقة.

(1) أقسم سبحانه وتعالى بطوائف من الملائكة أرسلهن بأوامره فعصفن في مضيهن، ويطوائف منهم نشرن أجنحتهن في الجو عند انحطاطهن بالوحي، أو نشرن الشرائع في الأرض، أو نشرن النفوس الموتى بالكفر والجهل بما أو حين ففرقن بين الحق والباطل، فالقن ذكرا إلى الأنبياء عليهم السلام عذرا للمحققين أو نذرا للمبطلين، أو أقسم برياح عذاب أرسلهن فعصفن، وبرياح رحمة نشرن السحاب في الجو ففرقن بينه كقوله: (ويجعله كسفًا) فالقن ذكرا إما عذرا للذين يعتذرون إلى الله بتوبتهم واستغفارهم إذا رأوا نعمة الله في الغيث وشكرونها، وإما نذرا للذين لا يشكرون وينسبون ذلك إلى الأنواء، وجعلن ملقيات للذكر باعتبار السبية. تفسير النسفي (3/498).

﴿فَالْعَاصِفَاتِ﴾ النازعات ملابس عالم الناسوت، وثياب الإمكان عن أرواح المحبين المنجذبين نحو الحق ﴿عَضْفًا﴾ [المرسلات: 2] سريعًا شديدًا تخليصًا لهم عن سجن الطبيعة تفريجًا وترويجًا.

﴿وَالنَّاشِرَاتِ﴾ المنتشرات على أراضى استعدادات أرباب الطلب والإرادات المتوجهين نحو الحق بعزيمة خالصة ﴿نَشْرًا﴾ [المرسلات: 3] لينًا هينًا، بحيث يوقظهم عن نوم الغفلة، ويخلصهم عن مضيق الضلال، ويرشدهم إلى فضاء الوصال.

﴿فَالْفَارِقَاتِ﴾ الواصلات إلى بقعة الإمكان من قبل الرحمن؛ ليفصلن ويفرقن لساكنيها بين الحق والباطل، والحرام والحلال، والهداية والضلال الواقعة في سلوك طريق الحق، وسبيل توحيده ﴿فَرَقًا﴾ [المرسلات: 4] بينًا واضحًا؛ ليتنبهوا إلى مبدئهم ومعادهم.

﴿فَالْمُلْقِيَاتِ﴾ الملقنات لحوامل أثقال الطبيعة والأركان، المسجونين في سجن الإمكان، المقيدون بسلاسل الزمان، وأغلال المكان ﴿ذِكْرًا﴾ [المرسلات: 5] حسنًا من عالم اللاهوت، يجرونه على ألسنتهم؛ لعلمهم يتذكرون بها مبدأهم الأصلي، ومنشأهم الحقيقي.

ليكون لهم ذكرهم هذا ﴿غُذْرًا﴾ يزيل ويمحو سيئات عالم الناسوت، وآثام لوازم بقعة الإمكان بعدما تنبهوا بها إلى عالم اللاهوت، طرّقوا نحوه مهاجرين من بقعة الناسوت ﴿أَوْ نُذْرًا﴾ [المرسلات: 6] ينذرهم عن نيران الإمكان، وسعير الطرد والخذلان بعدما تذكروا نعيم عالم اللاهوت، وفضاء الجبروت.

يعني: ويحق هذه المقسمات العظام، المكرمات عند الله ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ﴾ أيها المكلفون من قبل الحق في يوم العرض والجزاء ﴿لَوَاقِعَ﴾ [المرسلات: 7] محقق وقعه وثبوت بلا ريب وتردد.

وبعدما وقعت الواقعة، وقامت القيامة ﴿فَإِذَا الثُّجُومُ﴾ أي: الهويات المترتبة في عالم الكون والفساد ﴿طُمِئَتْ﴾ [المرسلات: 8] انمحقت وانمحت، وغابت وتلاشت عند ظهور شمس الذات.

﴿وَأِذَا السَّمَاءُ﴾ أي: نظام عالم الكون والفساد ﴿فَرَجَّتْ﴾ [المرسلات: 9] وانفصمت وتلاشت.

﴿وَإِذَا الْجِبَالُ﴾ الرواسي التي هي أوتاد الأرض، وهي في الحقيقة عبارة عن الهياكل المحسوسة في عالم الكون والفساد ﴿نُسِفَتْ﴾ [المرسلات: 10] قلعت عن أماكنها، ثم ذريت برياح الفناء.

﴿وَإِذَا الرُّسُلُ﴾ المبعوثون؛ للإرشاد والتكميل، والإشهاد على صلاح العباد وسدادهم ﴿أُقْتَتِ﴾ [المرسلات: 11] ووقّعت؛ أي: عُيِّنَ لهم وقت الشهادة على أممهم بعدما أبهم عليهم وقتها في النشأة الأولى.

كانه قيل لهم من قبل الحق: ﴿لَأَيَّ يَوْمٍ أُجِلَّتْ﴾ [المرسلات: 12] وأُخرت شهادتهم؟.

وأجيب أيضًا من جانبه سبحانه: ﴿لِيَوْمِ الْفَضْلِ﴾ [المرسلات: 13].

﴿وَمَا أَذْرَاكَ﴾ وأعلمك يا أكمل الرسل ﴿مَا يَوْمَ الْفَضْلِ﴾ [المرسلات: 14]؟ أبهمه سبحانه تهويلًا وتفخيّمًا.

وبالجملة: ﴿وَنُذِّلُ﴾ وهلاك مؤبد مستمر ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي: في يوم الفصل ﴿لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: 15] به، المنكرين له في النشأة الأولى، سيما بعد إخبار الرسل والكتب، وكيف يكذبونه وينكرون عليه أولئك الضالون المكذبون، مع أنهم قد سمعوا حال المكذبين المنكرين الماضين؟

﴿أَلَمْ تَهْلِكْ﴾ المكذبين ﴿الْأُولَئِينَ﴾ [المرسلات: 16] كقوم نوح وعاد وثمود، ولم نستأصلهم؛ بسبب إنكارهم وتكذيبهم بهذا اليوم؟

﴿ثُمَّ تُبْعَثُهُمُ الْآخِرِينَ﴾ [المرسلات: 17] أي: نحن نُبعث ونُعقِّب إهلاك الأولين بإهلاك الآخرين، كقوم شعيب وموسى وعيسى، وغيرهم أيضًا؛ بسبب تكذيب هذا اليوم، وتكذيب من أخبر به من الكتب والرسل.

وبالجملة: ﴿كَذَلِكَ﴾ أي: مثلما فعلنا بالمكذبين السابقين، والآخرين اللاحقين ﴿نُقْفِلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ [المرسلات: 18] أي: بعموم هؤلاء المجرمين الحاضرين، المكذبين على رسول الله ﷺ وآياته النازلة عليه.

لذلك ﴿وَنُذِّلُ﴾ عظيم ﴿يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: 19].

﴿أَلَمْ تَخْلُقْنَا مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ ﴿فَجَعَلْتَهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ﴾ ﴿إِنْ قَدَرْتَ مَعْلُومٍ﴾ ﴿فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ

الْقَادِرُونَ ﴿٣٢﴾ وَيُنَزِّلُ الْيَوْمَ ذِئْبًا ﴿٣٣﴾ أَلَمْ تَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٣٤﴾ أَحْيَاءَ وَأَمْوَاتًا ﴿٣٥﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رُوسًا شَمِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا ﴿٣٦﴾ وَيُنَزِّلُ الْيَوْمَ ذِئْبًا ﴿٣٧﴾ أَنْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٣٨﴾ أَنْطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ ﴿٣٩﴾ لَا ظِلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ الْهَبِ ﴿٤٠﴾ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ﴿٤١﴾ كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ ﴿٤٢﴾ وَيُنَزِّلُ الْيَوْمَ ذِئْبًا ﴿٤٣﴾ [المرسلات: 20-34].

وكيف تكذبون أيها المكذبون بما أمرتم بتصديقه من لدنا، مع أنكم قد عرفتم قدرتنا عليه وعلى أمثاله؟! ﴿أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ﴾ أيها المجبولون على النسيان ﴿مِنْ مَّاءٍ﴾ مسترذل مستنزل ﴿مُهِينٍ﴾ [المرسلات: 20] في غاية المهانة والخبثاءة؟!

وبعد نزوله ﴿فَجَعَلْنَاهُ﴾ مستقرا ﴿فِي قَرَارٍ﴾ يعني: مقر الرحم ﴿مَكِينٍ﴾ [المرسلات: 21] مستقر.

﴿إِلَى قَدَرٍ مَّغْلُومٍ﴾ [المرسلات: 22] وأجل معين، قدره الله العليم الحكيم للولادة، وتسوية الخلق، والخروج إلى عالم الشهادة.

وبالجملة: ﴿فَقَدَرْنَا﴾ على خلقكم من النطفة المهينة، المكيئة في ظلمة الرحم، وعلى إخراجكم منها إلى فضاء العالم، وتربيته فيها إلى أن صار كل منكم شخصا ذا رأي ورشد، قابلاً لحمل التكاليف المثمرة للمعرفة والإيمان.

﴿فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ﴾ [المرسلات: 23] المقتدرون نحن على إخراجكم من قبوركم أحياء كما كنتم في يوم البعث والجزاء.

فلم تكذبون به أيها المكذبون، مع أنه ﴿وَنُزِّلُ الْيَوْمَ ذِئْبًا﴾ [المرسلات: 24] بقدرتنا على الإعادة؟!

وكيف تنكرون قدرتنا الكاملة الشاملة على مطلق المقدورات؟! ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ﴾ اليابسة ﴿كِفَاتًا﴾ [المرسلات: 25] جامعة كافية.

ضامة ﴿أَحْيَاءَ﴾ مرة ﴿وَأَمْوَاتًا﴾ [المرسلات: 26] أخرى؛ أي: كيف تكف وتجمع الأحياء والأموات من الإنسان على التعاقب والتوالي تارة فيها، وتارة عليها؟! ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا﴾ وعليها من نوع الإنسان ﴿رُوسًا شَمِخَاتٍ﴾ أوتادا وأقطابا

﴿شَامِخَاتٍ﴾⁽¹⁾ عاليات متعاليات عن أن ينال بكنه معارفهم وشهوداتهم إدراك أحد ﴿وَأَنْسَقَيْنَاكُمْ﴾ من لدنّيّات أولئك الأوتاد المتعالية أعذار أطوارهم العالية عن إدراك الأنام وإفهامهم ﴿مَاءٌ﴾ حياتاً ﴿فُرَاتًا﴾ [المرسلات: 27] سائغاً شرابه لأولي العزائم الصحيحة، والمشارب الصافية.

وبالجملة: ﴿وَنِلْ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: 28] لقدرتنا واقتدارنا على إظهار هذه البدائع التي كلّت دونها وصف الألسن والأحلام، ودرك العقول والأفهام، وكيف يكذبونه إذا عاينوه؟

ويقال لهم حينئذٍ زجراً عليهم وتوبيخاً: ﴿انطَلِقُوا﴾ وادخلوا أيها المكذبون ﴿إِلَىٰ مَا كُنتُمْ بِهِ تَكْذِبُونَ﴾ [المرسلات: 29] من العذاب والنكال، وأنواع العقوبات والمكروهات.

ثم قيل لهم تأكيداً وتشديداً على توبيخهم وتقريعهم: ﴿انطَلِقُوا إِلَىٰ ظِلٍّ﴾ وأي ظل، ظل ﴿ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ﴾ [المرسلات: 30] متشعبة من القوى البهيمية الوهمية الشهوية، والغضبية؛ إذ بها تقترب المعاصي، وتكتسب جميع الآثام الموجبة لدخول النار.

﴿لَا ظَلِيلٍ﴾ إذ لا يدفع ضرر الحرارة، كسائر الأظلال ﴿وَلَا يُغْنِي﴾ ويدفع ﴿مِنْ﴾ حر ﴿اللَّهِبِ﴾. [المرسلات: 31] الجهنمية، وإحراق النيران.

وكيف يمكن أن يدفع حر جهنم ﴿إِنَّهَا﴾ أي: جهنم الطرد والخذلان، وجحيم اللعن والحرمان ﴿تَزِي بِشَرِّ﴾ وهي ما تطايرت من النار حين التهايبها وسوادتها، وأي شر، كل شر ﴿كَالْقَصْرِ﴾ [المرسلات: 32] الرفيع في الكبر وعظم المقدار؟

﴿كَأَنَّهُ﴾ في التابع والتوالي ﴿جِمَالَةٌ﴾ إبل متسلسلة، مترادفة متتابعة ﴿صَفَرٌ﴾

(1) قال حقي (16/ 378): صفة بعد صفة والشامخ العالي المرتفع أي طوالاً شواهي يعنى بلد وسر فرز ومنه شمع بأنفه عبارة عن الكبر، وفي عين المعاني رواسى أي ثوابت الأصول رواسخ العروق شامخات أي مرتفعات الفروع ووصف جمع المذكر يجمع المؤنث في غير العقلاء مطرد كاشهر معلومات ونحوه والتكثير للتخفيف أو للإشعار بأن ما يرى ظهر الأرض من الجبال بعض منها، وأن في عداد الجبال ما لم يعرف ولم ير فإن السماء فيها جبال أيضاً بدلالة قوله تعالى من جبال فيها من برد.

[المرسلات: 33] لونها، شبهها بها في عظم أجرامها وتتابعها، ولونها.

﴿وَنُلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: 34] بتكذيبهم بهذا العذاب الهائل بعدما أمروا بتصديقه على السنة الرسل والكتب.

﴿هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ﴾ (٣٥) وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ هَذَا يَوْمٌ
الْفَصْلُ جَمْعُكُمْ وَالْأُولَى ﴿٣٨﴾ فَإِنْ كَانَ لَكُمُ كَيْدٌ فَكِيدُوا ﴿٣٩﴾ وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ
فِي ظُلُلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوْكَةً مَّخَاشَتُهُمْ ﴿٤٢﴾ كُلُّوا وَأَشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَلِكَ
نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾ كُلُّوا وَتَمَنَعُوا فَلِيلاً إِنَّكُمْ تَجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ
لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ
بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾ [المرسلات: 35-50].

وبعد ما ساقهم الخزنة إليها بالزجر التام، والعنف المفرط، فأخذوا يطرحونهم إليها مهانين صاغرين، وهم يتضرعون صائحين فزعين، قيل لهم حيثئذ: ﴿هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ﴾ [المرسلات: 35] إذ نطقهم كاللأنطق في عالم الدفع والنفع.

﴿وَلَا يُؤْذَنُ﴾ حيثئذ ﴿لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ [المرسلات: 36] إذ لا يسمع منهم العذر؛ لانتهاء نشأة التلافي والتدارك بالأعذار والتوبة.

وبالجملة: ﴿وَنُلَّ﴾ عظيم ﴿يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: 37] وأي ويل، ويل لا يكتفه غوره وطوره، وشدة هوله.

ثم قال لهم سبحانه حيثئذ توبيخاً وتقريعاً: ﴿هَذَا يَوْمُ الْفُضْلِ﴾ بين المحق والمبطل، والمسيء والمحسن ﴿جَمَعْنَاكُمْ وَالْأُولَى﴾ [المرسلات: 38] أي: جمعنا الآخرين والأولين، والسابقين واللاحقين فيه.

﴿فَإِنْ كَانَ لَكُمْ﴾ أيها المكلفون ﴿كَيْدٌ﴾ ومكر تقاومون به معي، وتدفعون به عنكم عذابي ﴿فَكِيدُونِ﴾ [المرسلات: 39] وامكروني إن استطعتم.

وَالَا ﴿وَنُلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: 40] حتماً؛ لأنه من أين يتأتى بينهم المكر والكيد، والحيلة والخداع مع الله في التخلص من العذاب، سيما في تلك الحالة ١٩

وبالجملة: سوقوا نحو النار، وطُرحوا فيها مهانين، وعُذبوا بها صاغرين خالدين.
ثم أردف سبحانه وعيد المكذبين بوعده المصدقين فقال: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ﴾ من
الشرك والمعاصي، المصدقين بيوم الدين مستغرقون يومئذ في أنواع التمتع والترفة ﴿فِي
ظِلَالٍ﴾ ممدودة في ظلال البساتين ﴿وَعُيُونٍ﴾ [المرسلات: 41] جارية فيها.
﴿وَفَوَاحٍ﴾ كثيرة ﴿مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ [المرسلات: 42].

ويقال لهم حيثئذ تلطفاً وتكريماً: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا﴾ لكم مريئاً ﴿بِمَا كُنتُمْ
تَعْمَلُونَ﴾ [المرسلات: 43] من الأعمال الصالحة، والأخلاق المرضية المثمرة لتلك
الحالات العلية، والمقامات السيئة.

﴿إِنَّا كَذَلِكَ﴾ أي: مثل ما أنتم عليه من الترفه والتمتع ﴿نَجْزِي﴾ عموم
﴿الْمُحْسِنِينَ﴾ [المرسلات: 44] المخلصين في الأعمال والأخلاق، الراضين بما جرى
عليهم من مقتضيات القضاء.

وبالجملة: ﴿وَنُزِّلَ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: 45] لكم هذا النعيم المقيم،
ولهم ذاك العذاب الأليم.

ثم قيل للمكذبين من قِبَلِ الحق زجراً عليهم، وتوبيخاً لهم بما اختاروا اللذة
الفانية على اللذة الباقية على سبيل الفرض والتقدير، كأنهم أمروا به في النشأة الأولى:
﴿كُلُوا وَتَمَتُّعُوا﴾ بالأمته الدنيوية زمناً ﴿قَلِيلًا إِنَّكُمْ تُجْرِمُونَ﴾ [المرسلات: 46]
بالجرائم العظيمة، مؤاخذون عليها في النشأة الأخرى بشؤم تكذيبكم بما أمرتم
بتصديقه.

وبالجملة: ﴿وَنُزِّلَ﴾ عظيم ﴿يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: 47] إذ عرضوا
أنفسهم على العذاب المؤبد المخلد.

﴿وَوَيْلٌ﴾ كيف لا يؤاخذون أولئك المعاندون المكابرون، كانوا من كمال استكبارهم
وعتوهم ﴿إِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ إمحاضاً للنصح: ﴿ارْكَعُوا﴾ تواضعوا لأمر الله، واخضعوا
لحكمه، وانقادوا وصلوا نحوه متذللين ﴿لَا يَزْكَفُونَ﴾ [المرسلات: 48] من غاية
استكبارهم واستعظامهم، ولا يمثلون لحكم الله وأمر رسوله، ولا يطيعون لهم تعتاً
وعناداً، بل يكذبونهم ويستهزئون معهم؟

لذلك يحل عليهم ﴿وَنُزِّلَ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: 49] المستهزئين مع

رسل الله، الظاهرين عليهم بالإشارة والاستكبار، المتكبرين بما نزل عليهم من الكتب الميَّنة لمعالم الدين، ومراسم التوحيد واليقين.

وبعد ما لم يؤمنوا بهذا الكتاب المبين المبين لطريق الحق، ومنهج الصدق والصواب ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ﴾⁽¹⁾ أي: بعد القرآن ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ [المرسلات: 50] أولئك المنكرون المعاندون المسرفون؟!!

جعلنا الله ممن آمن به، وامثل بما فيه، وتفتن برموزه وإشاراته بميَّته وجوده.

خاتمة السورة

عليك أيها الموحد المحمدي، القاصد لسلوك طريق الهداية والتوفيق، العازم على التحقق والتمكن في مقعد صدق التوحيد والتحقيق - يسر الله عليك مبتغاك - أن تمسك بحبل المتين القرآني، وتتشبث بأذيال هدايته وإرشاده، وتمثل بما فيه من الأوامر والنواهي والأحكام الموردة فيه، وتفتن بما رمز له، وأشير إليه من المعارف والحقائق المصفيّة لسرك على الالتفات إلى ما سوى الحق، المعدة لقلبك لفيضان الكشف والشهود، فلك أن تتبطل على الله حسب استعدادك، وتتخلق بالأخلاق المحمدية التي هي القرآن.

والتوفيق بيد الله، والهداية عنده، يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

(1) قال الرازي (321/ 7): على أن القرآن ليس قديماً قالوا: لأن الحديث ضد القديم، وأيضاً فلفظ الحديث يفيد من جهة العادة حدوثه عن قرب، ولذلك يقال: إن هذا الشيء حديث، وليس بعتيق فيجعلون الحديث ضد العتيق الذي طال زمان وجوده، ويقال: في الكلام إنه حديث؛ لأنه يحدث حالاً بعد حال على الأسماع.

سورة النبأ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فاتحة سورة النبأ

لا يخفى على من انكشف له سرائر التكاليف الإلهية، وحكم الأحكام الموردة من لدنه، ومصالح الأوامر والنواهي الناشئة من قدس ذاته أن مقتضى الألوهية والربوبية تربية المربوب، وتأديبه بتحميل المتاعب والمشاق المانعة عن مقتضيات الهوى ومتابعة شياطين الأوهام والخيالات الباطلة التي هي من جنود الأمانة بالسوء، وبعدما لم يمتنع ولم يتزجر عن مقتضيات القوى الطبيعية، ولم يأت بالطاعات والعبادات المكلفة المأمورة له لم يعتدل على صراط العدالة الإلهية، ولم يستقم على الطريق المستقيم الموصل إلى جنة النعيم، فالحكمة الإلهية تقتضي أن يعذبه بالعذاب الأليم، ويدخله في نار الجحيم أبدا مؤبدا، خالدا مخلدا.

لذلك وضع سبحانه بمقتضى حكمته نشأتين: نشأة الاختبار والابتلاء، ونشأة الانتقال والجزاء، فجعل الأولى منزل العبور والاعتبار، والأخرى دار الثبوت والقرار. فالعاقل العارف لا بد وأن يؤمن ويوقن بكلتيهما، ويستعد في أولاهما لأخراهما، ومن اغتر بالأولى وشغل بها عن الأخرى فقد لحق بالأخسرين أعمالاً ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَبِيلُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يُخَسِبُونَ أَنَّهُمْ يُخْسِبُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: 104] وبالجمله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا﴾ [الكهف: 105] لكمال ظهور النشأة الأخرى، ووضوح براهين المرتابين وقوعها وقيامها، حيث يتساءلون ويتقاولون فيما بينهم بخبر وقوعها وقيامها، ويتداولونها على سبيل المراء والاستهزاء، فقال سبحانه بعدما تيمن: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ الذي ظهر على ما ظهر ويطن حسب النشأتين ﴿الرَّحْمَنِ﴾ لكل حسب النشأة الأولى ﴿الرَّحِيمِ﴾ لهم أيضا حسب النشأة الأخرى.

﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ ① ﴿عَنِ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ﴾ ② ﴿الَّذِي هُوَ بِهِ مُخْلِقُونَ﴾ ③ ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ ④ ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ ⑤ ﴿أَلَمْ يَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا﴾ ⑥ ﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ ⑦ ﴿وَخَلَقْتُمْكُمْ أَزْوَاجًا﴾ ⑧ ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ

مُبَارَكًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا أَيْلَ بَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾ [النبا: 1-16].

﴿عَمَّ﴾ يعني: عن ما، وعن أي شيء وأمر ﴿يَسْأَلُونَ﴾ [النبا: 1] ويتقاولون فيما بينهم مرء ومجادلة؟.

﴿عَنِ النَّبَاِ الْعَظِيمِ * الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾ [النبا: 2. 3] أي: يختلفون في قيام الساعة الموعودة؛ لتنفيذ أعمال العباد، والجزاء عليهم على وفقها، مع أن أمره أظهر من أن يشك فيه ويسأل عنه، ويستعزأ به، ويختلف فيه وفي وقوعه.

﴿كَلَّا﴾ أي: من أين يتأتى لهم إنكاره والتساؤل فيه على وجه المرء، مع أنهم ﴿سَيَعْلَمُونَ﴾ [النبا: 4] عن قريب، بل قربه كلمح البصر، بل هو أقرب؟!

﴿ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ [النبا: 5] حين ألم عليهم بغتة، وهم لا يشعرون.

وبالجملة: من أين يتأتى لهم إنكار يوم البعث والجزاء، هل ينكرون قدرتنا الكاملة على أمثاله؟!

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا﴾ [النبا: 6] لهم، ممهدة مبسوطة، ينتشرون عليه ويستريحون؟!

﴿وَلَمْ نَجْعَلِ الْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ [النبا: 7] ⁽¹⁾ عليها تقريرًا لها وتثبيتًا؟!

﴿وَوَخَلَقْنَاكُمْ﴾ أي: قدرنا أشباحكم أيها المكلفون ﴿أَزْوَاجًا﴾ [النبا: 8] أصنافًا ذكرًا وأنثى؛ لتأنسوا وتتناسلوا؟!

﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ﴾ في الليالي ﴿مُبَاتًا﴾ [النبا: 9] قطعًا عن الإحساس والحركة؛ ليحصل إرخاء الأعصاب والعضلات؛ لتستريحوا، وزالت كلال القوى وفتورها فتشتد بالاستراحة، وتشتغل بأفعالها في النهار بجرأة تامة، وقوة كاملة.

(1) إن هذه الآية إنما ذكرت ليستدل على وجود الصانع؛ والشروط فيه أن يكون ذلك أمرًا مشاهدًا معلومًا، حتى يصح الاستدلال به على وجود الصانع لأن الشيء إذا رأيت حجمه، ومقداره، صار ذلك الحجم، وذلك المقدار عبرة. تفسير اللباب لابن عادل (380/9).

﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ﴾ لكم ﴿لِبَاسًا﴾ [النبا: 10] غطاءً وغشاءً تستترون فيه، وتختفون به فيما فيه الإخفاء مطلوبكم.

﴿وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾ [النبا: 11] وقتاً تطلبون فيه ما تعيشون من حوائجكم ومطعوماتكم وملبوساتكم.

﴿وَبَيَّنَّا﴾ بكمال قدرتنا، ومتانة حكمتنا ﴿فَوْقَكُمْ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا﴾ [النبا: 12] أقوياء محكمات، مستحكمات لا يتأثرن بمر الدهور، وكر الإعصار كسائر الأبنية.

﴿وَجَعَلْنَا﴾ في خلالها ﴿سِرَاجًا﴾ مضيئاً متلألئ، متشعشعاً ﴿وَهَاجًا﴾ [النبا: 13] حاراً سخياً في غاية السخونة عند الانعكاس؛ لتضج ما تحتاجون إليه في أمور معاشكم.

﴿وَأَنْزَلْنَا﴾ أيضاً تميماً لتربيتكم، وترتيب معيشتكم ﴿مِنْ﴾ السحب ﴿الْمُفَصِّرَاتِ﴾ بالرياح ﴿مَاءً ثَجَاجًا﴾ [النبا: 14] مطراً كثير الانصباب، متتالي القطر. ﴿لِنُخْرِجَ بِهِ﴾ أي: بالماء ﴿حَبًّا﴾ تقاتون به ﴿وَنَبَاتًا﴾ [النبا: 15] تعلق به مواشيكم.

﴿وَجَنَّاتٍ﴾ منتزهات لكم وبساتين ﴿أَلْفَافًا﴾ [النبا: 16] ملتفات أشجارها وثمارها من كثرتها وكثافتها.

كل ذلك من المقدورات التي يتفطن منها العاقل المنصف على وقوع الحشر والنشر، وجميع الأمور الغيبية الموعودة في يوم الجزاء، بل جميع المقدورات الداخلة تحت قبضة القدرة الإلهية؛ إذ نسبة القدرة الكاملة الإلهية إلى هذه المقدورات وأمثالها، وإلى الأمور الموعودة فيها على السواء، والإرادة الكاملة الإلهية ترجع كلها منها عند حلول ما قدر الله له من الوقت والأجل.

وبالجملة: من ترقى إدراكه عن مضيق الألف، وخرق حجب الرسوم والعادات، وخلص من ظلمات الأوهام والخيالات العائقة عن الوصول إلى وحدة الذات التي هي منبع عموم الخيرات، ومنشأ جميع الكمالات، انكشف له ولاح عنده أن أمر النشأة الأولى والأخرى وأماليهما، بل أضعافهما وآلافهما في جنب القدرة الغالبة الإلهية سهل يسير، لكن المحجوب المحبوس في عالم المحسوس المقيّد بعقال العقل

المبهوتين، المشوب بالوهم المنحوس، والخيال المزور المنكوس، يتخيل حصر المظاهر والمجالي الإلهية بسراب عالم الطبيعة والهيولي؛ لذلك وقع فيما وقع من البلوى، وزلت نعله في سبيل القرب من المولى.

هب لنا من لدنك رحمة تنجيننا عن أمثال هذه المهالك، إنك أنت الوهاب.

﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا﴾ (١٧) ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ (١٨) ﴿وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ﴾
﴿فَكَانَتْ أَبْوَابًا﴾ (١٩) ﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ (٢٠) ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾ (٢١) ﴿لِلطَّغِينِ مَثَابًا﴾
﴿٢٢﴾ ﴿لَيْثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا﴾ (٢٣) ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا﴾ (٢٤) ﴿إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾ (٢٥) ﴿جَزَاءً﴾
﴿وِفَاقًا﴾ (٢٦) ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾ (٢٧) ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا﴾ (٢٨) ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ﴾
﴿كِتَابًا﴾ (٢٩) ﴿فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ (٣٠) ﴿[النبا: 17-30].﴾

ثم قال سبحانه: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ﴾ الفارق بين احتجاب أصحاب الحيرة والضلال، وأرباب العناية والوصال ﴿كَانَ﴾ له ﴿مِيقَاتًا﴾ [النبا: 17] وقتًا معينًا في حضرة علم الله، مقدّرًا في لوح قضائه، لم يطلع أحدًا عليه وعلى تعيينه، بل أخبرهم بآماراته وعلاماته.

اذكر يا أكمل الرسل ﴿يَوْمَ﴾ أي: يوم إذ حل وقت يوم الفصل، وقيام الساعة ﴿يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾ النفخة الأولى؛ لبعث الموتى، وإذا وصل لهم ذلك الصدى فيخرجون من قبورهم حيارى سكارى مبهوتين، ثم ينفخ فيه ثانيًا؛ للحشر ﴿فَتَأْتُونَ﴾ المحشر ﴿أَفْوَاجًا﴾ [النبا: 18] زمرا زمرا، فرقا فرقا.

﴿و﴾ يومئذ ﴿فُتِحَتِ السَّمَاءُ﴾ أي: خرقت وشقت ﴿فَكَانَتْ﴾ الخرق والشقوق لها ﴿أَبْوَابًا﴾ [النبا: 19].

﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ﴾ عن وجه الأرض، وتحركت فطارت أجزاءها، كالهباء نحو الهواء ﴿فَكَانَتْ﴾ أشكالها وهيئاتها ﴿سَرَابًا﴾ [النبا: 20] أي: كالسراب يرى على صورة الجبال، ولا حقيقة لها كما هي الآن عند العارف المكاشف.

﴿إِنَّ جَهَنَّمَ﴾ يومئذ ﴿كَانَتْ مِرْصَادًا﴾ [النبا: 21] مرصدًا ومصيرًا لعموم العباد، يعبرها أهل الجنة على تفاوت سرعة وبطء، مرتبًا على تفاوت أعمالهم وأحوالهم ومقاماتهم: منهم من لا يلتفت نحوها، ولا يدركها أين هي وإن عبرها.

ومنهم من يعبرها، كالبرق الخاطف، ثم الأمثل الأمثل فينجون من غوائلها، ويسقط فيها أهل النار، ويبتلون بأغلالها وسلاسلها فتصير ﴿لِلطَّاغِيَتِ﴾ المصيرين على كفرهم وطغيانهم ﴿مَأْبَا﴾ [النبا: 22] مرجعًا وماوي، لا يخرجون منها

بل يكونون ﴿لَا يَشِينُ﴾ ماكثين ﴿فِيهَا أَخْقَابًا﴾ [النبا: 23] وأي أحقاب، أحقابًا لا كأحقاب الدنيا، بل لا نهاية لها، ولا غاية لحدّها فذكرها كناية عن عدم نهايتها.

وهم ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا﴾ أي: في جهنم البعد والحرمان ﴿بَرْذًا﴾ لحرمانهم عن لذة برد اليقين في النشأة الأولى ﴿وَلَا شَرَابًا﴾ [النبا: 24] لأنهم لم يشربوا في النشأة الأولى من زلال الإيمان شربة، ولا من رحيق العرفان جرعة.

لذلك لم يشربوا في النشأة الأخرى ﴿إِلَّا حَمِيمًا﴾ ماء حارًا، سخن بنيران غضبهم وشهواتهم، بحيث يقطع أمعاءهم من شدة حرارته.

﴿وَعَسَاقًا﴾ [النبا: 25] صديدًا يسيل من جراحات أهل النار، بدل ما يأكلون ويشربون من أموال اليتامى والمظلومين ظلماً.

وبالجملة: جوزوا فيها ﴿جَزَاءً وَفَاقًا﴾ [النبا: 26] موافقًا مطابقًا لأعمالهم التي أتوا بها في دار الدنيا.

وبالجملة: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا﴾ حين يعموا على المعاصي، وعزموا على الآثام ﴿لَا يَزْجُونَ﴾ ولا ياملون ﴿حِسَابًا﴾ [النبا: 27] ولا يخافون عذابًا.

﴿وَلَهُذَا﴾ لهذا ﴿كَذَّبُوا﴾ بآياتنا الدالة على كمال قدرتنا، واقتدارنا على وجوه الإنعام والانتقام، وعلى رسلنا المنزلة إليهم بتلك الآيات ﴿بِآيَاتِنَا كَذَابًا﴾ [النبا: 28] تكذيبًا بليغًا، وإنكارًا شديدًا إلى حيث يستهزئون بالآيات والرمل.

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ أَخْصَيْنَاهُ كِتَابًا﴾ [النبا: 29] يعني: وهم وإن بالغوا في التكذيب والعناد فصلنا عليهم أعمالهم، وأحصينا لهم جميع خصائلهم المذمومة في صحف أعمالهم، سيحاسبون عليها على التفصيل، ويجازون بمقتضاها.

وبعدما يحاسبون ويؤاخذون، يقال لهم جزًا عليهم وتوبيخًا: ﴿قَدْ ذُوقُوا﴾ أيها المسرفون المفرطون ﴿فَلَنْ نُزِيدَكُمْ﴾ بأعمالكم وتكذيبكم ﴿إِلَّا عَذَابًا﴾ [النبا: 30] فوق العذاب.

في الحديث - صلوات الله على قائله - «هذه الآية أشد ما في القرآن على أهل

(النار)⁽¹⁾.

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾ (٣١) ﴿حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا﴾ (٣٢) ﴿وَكَوَاعِبَ أَرْبَابًا﴾ (٣٣) ﴿وَكَاسًا دِهَاقًا﴾ (٣٤) ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَابًا﴾ (٣٥) ﴿جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءٌ حِسَابًا﴾ (٣٦) ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾ (٣٧) ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ (٣٨) ﴿ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَن شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ مَثَابًا﴾ (٣٩) ﴿إِنَّا أَنْذَرْتَكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَلَيْتَنِي كُنْتُ ثَرِيًّا﴾ (٤٠) ﴿[النبا: 31-40].﴾

ثم أردف سبحانه بوعيدهم وعد المؤمنين تشديدا لعذابهم وتأكيذا: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ﴾ المؤمنين، المتحفظين نفوسهم عن محارم الله خوفا من عذاب الله، ورجاء من فضله ﴿مَفَازًا﴾ [النبا: 31] مخلصا ونجاة من جميع المكاهر اللاحقة للكفار والعصاة. ﴿حَدَائِقَ﴾ ذات بهجة ونضارة ونزاهة ﴿وَأَعْنَابًا﴾ [النبا: 32] معروشات وغير معروشات.

﴿وَوَ﴾ إن لهم فيها أزواجا ﴿كَوَاعِبَ﴾ نواهد، استدارة ثديهن مثل الرمان ﴿أَثْرَابًا﴾ [النبا: 33] أبكارا، ﴿لَمْ يَطْمِئْنُوا﴾ إنش قبلهم ﴿وَلَا جَانُ﴾ [الرحمن: 56]. ﴿وَكَاسًا﴾ من خمور المحبة الإلهية ﴿دِهَاقًا﴾ [النبا: 34] ملائنا. ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا﴾ أي: في الجنة عند شرب خمور المحبة ﴿لَغْوًا﴾ فضولا من الكلام ﴿وَلَا كِذَابًا﴾ [النبا: 35] ⁽²⁾ أي: مكاذبة، يكذب بعضهم بعضا، كما يقع بين شارب شراب الدنيا.

ولأنما يجازون بما يجازون ﴿جَزَاءً﴾ ناشئا ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿عَطَاءً﴾ منه إياهم تفضلا عليهم وإحسانا؛ إذ لا يجب عليه سبحانه شيء ﴿حِسَابًا﴾ [النبا: 36]

(1) ذكره الرازي في «تفسيره» (301/16).

(2) قال بNDAR بن الحسين: الجزاء إذا كان من الله لا يكون له نهاية؛ لأنه لا يكون على حد الأعواض، بل يكون فوق الحدود؛ لأنه ممن لا حد له ولا نهاية، فعطاؤه لا حد له ولا نهاية، قال بعضهم: العطاء من الله موضع الفضل لا موضع الجزاء، والجزاء على الأعمال والفضل موهبة من الله، يخص به الخواص من أهل وداة. [العرائس].

كافيًا وافيًا، لا ينقصون ولا ينتظرون.

وكيف لا يتفضل سبحانه على أوليائه، مع كونه ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ السياق يدل على أن التفسير جرى على قراءة نافع وابن كثير وغيرهما: «رَبُّ» أي: مربِّي العلويات والسفليات ﴿وَمَا يَتْنَهُمَا﴾ من الممتزجات ﴿الرَّحْمَنِ﴾ السياق يدل على أن التفسير جرى على قراءة نافع وابن كثير وغيرهما: «الرَّحْمَنُ» المستوي على عروش الكل بالرحمة العامة، والاستيلاء التام، والسلطنة القاهرة، والبسطة الغالبة بالإرادة والاختيار، بحيث ﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾ ولا يقدرُونَ؛ أي: أهل السماوات والأرض ﴿مِنْتَهُ﴾ سبحانه ﴿خُطَابًا﴾ [النبا: 37] أي: لا يسع لهم أن يخاطبوه، ويطالبوا منه شيئًا من زيادة ثواب ونقص عقاب، بل هو بذاته فعَّال لكل ما يريد من مقتضيات أسمائه وصفاته بالإرادة والاختيار، لا يُسْئَلُ عن فعله، إنه حكيم حميد!١٩

وكيف يملك ويقدر خطابه سبحانه هؤلاء الأظلال الهلكى في حدود ذواتهم، مع أنه ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ﴾ أي: الوجودات الإضافية الفائضة على هياكل الهويات من أشعة نور الوجود المطلق ﴿وَالْمَلَائِكَةُ﴾ أي: الأسماء والصفات الإلهية المجردات عن التعليقات مطلقًا ﴿صَفًا﴾ صافين مصطفين، ساكتين صامتين من كمال دهشتهم عن سطوة سلطنة الذات القاهرة الغالبة ﴿لَا يَتَكَلَّمُونَ﴾ حيثُذ، ولا يقدرُونَ على التفوه بالحال أو المقال ﴿إِلَّا مَنْ أِذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ﴾ بالشفاعة والسؤال فتكلم بإذنه ﴿وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبا: 38] مرضيًا عند الله مستجابًا!٢٠

وبالجملة: ﴿ذَلِكَ النُّوْمُ﴾ أي: يوم الفصل والقيامة هو اليوم ﴿الحَقُّ﴾ الثابت الكائن وقوعه بلا خلف ولا ريب ﴿فَمَنْ شَاءَ﴾ أن يامن من فتنه، ويخلص من عذابه ﴿اتَّخِذْ﴾ وأخذ في النشأة الأولى ﴿إِلَىٰ رَبِّهِ مَأْبًا﴾ [النبا: 39] مرجعًا ومنقلبًا يتوجه إليه، ويتحنن نحوه متقربًا بصوالح الأعمال، ومحاسن الأخلاق والأطوار.

وبالجملة: ﴿إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ﴾ أيها المعرضون عن الله، المنصرفون عن طاعاته وعباداته ﴿عَذَابًا قَرِيبًا﴾ سيلحقكم بغته، وأنتم لا تشعرون بأماراته ومقدماته ﴿يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ﴾ ويرجى جميع ﴿مَا قَدَّمَتْ يَدَاةُ﴾ خيرًا كان أو شرًا، نفقًا كان أو ضرًا ﴿وَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ رأى الكل يومئذ ما رأى من المصالح والمقايح الصادرة منه، الجارية عليه ﴿يَقُولُ الْكَافِرُ﴾ الرائي قوايح أفعاله، وفواسد أعماله، متأسفًا متحسرًا متمنيًا هلاكه على سبيل المبالغة: ﴿يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾ [النبا: 40] لم أخلق ولم أكلف؛ حتى لا أستحق هذا

الويل والثبور.

هب لنا من لدنك رحمة، إنك أنت الرحيم الغفور.

خاتمة السورة

عليك أيها الموحد المحمدي أن تتزود ليوم الجزاء بالتقوى عن محارم الله، والاجتناب عن منهياته، والامثال بأوامره، والتخلق بأخلاقه؛ حتى لا تستحي من الله في يوم الجزاء، ولا تمنى مقتك وهلاكك مثل من كفر وعصى.

فلك أن تلازم على أداء الواجبات والمستحبات، والمسئونات من الصلوات والزكوات وأنواع الطاعات، والتقرب نحوه بالنوافل من الطاعات والصلوات والصدقات، والخدمة بالجوارح والآلات لعموم عباد الله، والسعي إلى مطلق الخيرات والمبرات، والاجتهاد في طريق الحسنات وترك السيئات ومطلق المنكرات؛ حتى تتخلص من كؤود العقبات، وتصل إلى روضات الجنات، وتفوز بالفوز بالسعادات وأنواع الكرامات.

جعلنا الله من أرباب الهداية والتوفيق، ويسر لنا الوصول إلى مقر التوحيد والتحقيق بمئه وجوده.

سورة النازعات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فاتحة سورة النازعات

لا يخفى على السالكين المندرجين عن مضيق الطبيعة نحو فضاء الحقيقة، مهاجرًا من بقعة الإمكان ولوازمها نحو الوجوب الذاتي أن التخلص والنجاة من سلاسل الأماني وأغلال الآمال مطلقًا لا يتيسر إلا بجواذب الحق، وروحه المفوض من عنده على أسمائه وصفاته الفعالة في عالم الكون والفساد، الموسومين المتسمين بالملائكة النازعات المخلصات للأرواح البشرية التي هي من جنود عالم اللاهوت، المسجونة في مضيق الناسوت في حصون الهويات الإمكانية، وقلائع الطبايع والأركان. فبعضهم بعدما هبطوا إليها، وتوطنوا فيها نسوا موطنهم الأصلي ومزلهم الحقيقي، وبعضهم صاروا محبوسين مسجونين، متذكرين الموطن الأصلي، راجين الخلاص عن ورطة الهلاك، وبعضهم مترددون، وبعضهم متحركون مضطربون للخروج، ولا يتأتى لهم.

ولما كان حالهم في سجن الطبيعة وعالم الإمكان هكذا، وكُلّ عليهم سبحانه عناية منه وفضلًا نوازع نازلة من عالم الجبروت حسب قيوداتهم التي كانوا عليها، حتى يخلصوهم عن مضيق الناسوت، ويوصلوهم إلى فضاء اللاهوت.

وأقسم سبحانه بحق هذه النوازع العظيمة الشئون؛ لثبوت يوم البعث والجزاء الذي انقهرت وانعدمت عند قيامه وظهوره سراب عالم الناسوت مطلقًا؛ ليرتدع المنكرون عن إنكاره، ويتزجر الملحدون عن الجحود فيه، فقال بعد التيمن: ﴿يَسْمِ اللَّهَ الْمُقَدِّرَ لَأُمُورِ عِبَادِهِ حَسَبَ مَا اقْتَضَتْ حِكْمَتُهُ وَمَصْلَحَتُهُ﴾ (الرَّحْمَنُ) عليهم في النشأة الأولى، ينههم عن مينة الغفلة ﴿الرَّحِيمَ﴾ في النشأة الأخرى، يخلصهم عن سجن الطبيعة.

﴿وَالْتَرَعَتِ غَرَقًا ۝١ وَالنَّشِيطَاتِ تَشَاطَا ۝٢ وَالسَّيْحَاتِ مَسَبَا ۝٣ فَالْسَّيْقَاتِ مَسَاقَا ۝٤﴾

﴿فَالْمُدِيرَاتِ أَمْرًا ۝٥ يَوْمَ تَجُفُّ الرَّيْحَةُ ۝٦ تَتَّبِعُنَّ الرَّادِفَةَ ۝٧ قُلُوبٌ يَوْمَهُذَى لِحْفَةٍ ۝٨ أَبْصَرُهَا

خَشِيعَةً ﴿٩﴾ يَقُولُونَ أَوْنَالا لِمَرَدُّودُونَ فِي لَحَافِرٍ ﴿١٠﴾ أَوْ ذَا كُنَّا عِظْمًا مَّخْرَجَةً ﴿١١﴾ قَالُوا تِلْكَ إِذَا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾ [النازعات: 1-14].

﴿و﴾ حق ﴿النازعات﴾ المخلّصات أرواح عموم العباد عن محابس الطبائع والأركان ﴿عزقًا﴾ [النازعات: 1] لاستغراقهم في لوازم الناسوت، ومقتضياتها المغشية صفاء عالم اللاهوت.

﴿وَالنَّاشِطَاتِ﴾ المتزعات المخرجات لنفوس أرباب المحبة والولاء المتشوقين إلى عالم العماء، وفضاء اللاهوت ﴿نَشْطًا﴾ [النازعات: 2] رفقا ولطفًا؛ لكمال تحننهم وشوقهم إلى الخلاص.

﴿وَالسَّابِحَاتِ﴾ المخرجات أرواح الأبرار من أشباحهم هينات لينات، يقبضون رفقا، ثم يمهلون حتى يستريح، ثم يقبضون، هكذا إلى أن يخلصوهم، كالسابع في الماء يتحرك، ثم يستريح، ثم يتحرك ﴿سَبَحًا﴾ [النازعات: 3] لكونهم سابحين في بحر الحيرة حتى وصلوا إلى بحر اليقين.

﴿فَالسَّابِقَاتِ﴾ أي: النفوس الفانية في الله، الباقية ببقائه، المبادرة إلى الخروج قبل نزول النازعات ﴿سَبَقًا﴾ [النازعات: 4] لكمال شوقهم وانبعاثهم، وتجردهم عن ملابس عالم الناسوت، وانخلاعهم عن مقتضيات الطبيعة والأركان قبل حلول الأجل، وهجوم المخرجات المخلّصات.

﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ﴾ الموكلات على تدابير عموم المظاهر من الأرزاق والأجال، وجميع الأمور الجارية في عالم الكون والفساد ﴿أَمْرًا﴾ [النازعات: 5] ⁽¹⁾ لكونهم مأمورين بها، موكلين عليها بمقتضى حكمة القدير العليم؛ يعني: وحق هذه الحوامل العظام، والموكلات الكرام لتبعثن من قبوركم، ولتحاسبن على أعمالكم أيها المكلفون.

(1) قال القاشاني: أقسم بالنفوس المشتاقة التي غلب عليها النزاع إلى جناب الحق غريقة في بحار الشوق والمحبة والتي تنشط من مقر النفس وأسر الطبيعة أي تخرج من قيود صفاتها وعلائق البدن من قولهم نور ناشط إذا خرج من بلد إلى بلد أو من قولهم نشط من عقاله والتي تسبح في بحار الصفات فتسبح إلى عين الذات ومقام الفناء في الوحدة فتدبر بالرجوع إلى الكثرة أمر الدعوة إلى الحق والهداية وأمر النظام في مقام التفصيل بعد الجمع انتهى ثم إن النفوس الشريفة لا يبعد أن يظهر منها آثار في هذا العالم سواء كانت مفارقة عن الإبدان أولا فتكون مدبرات.

اذكروا ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ﴾ تتحرك وتضطرب ﴿الزَّاجِفَةُ﴾ [النازعات: 6] المتقررة الساكنة التي لا حركة لها أصلاً، كالأرض وسائر الجمادات.

وبعد تحرك هؤلاء الجوامد ﴿تَتَّبِعُهَا﴾ في الحركة والاضطراب والاندكاك ﴿الرَّادِفَةُ﴾ [النازعات: 7] أي: العلويات السائرة المتحركة، حيث تتشقق السماوات، وتنتشر الكواكب، وبالجمله: تختلط العلويات بالسفليات وتتمازجان، بحيث لا علو ولا سفلى.

ومن شدة الهول ونهاية الفرع ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾ [النازعات: 8] قلقة حائرة، شديدة الاضطراب.

﴿أَبْصَارُهَا﴾ أي: أبصار أصحاب القلوب حينئذٍ ﴿خَاشِعَةٌ﴾ [النازعات: 9] شاخصة ذليلة من شدة الخوف والهول، مع أن هؤلاء الشاخصين الواجفين كانوا ﴿يَقُولُونَ أَتِنَّا﴾ في النشأة الأولى حين أخبرهم الرسل بالبعث والحشر على سبيل الاستبعاد والإنكار ﴿لَمَزْدُودُونَ فِي الْخَافِرَةِ﴾ [النازعات: 10] أي: إلى الحالة التي كنا عليها؛ يعني: أنبعث أحياء كما كنا من قبل ١٢

ثم يزيدون الإنكار على الإنكار بقولهم: ﴿إِذَا كُنَّا عِظَامًا نُخْرَجُ﴾ [النازعات: 11] بالية رميمه، نُبعث ونحيا ١٢ كلاً وحاشا، من أين يتأتى لنا هذا ١٢

وبعدما استبعدوا واستكبروا بما استنكروا ﴿قَالُوا﴾ منهمكين ومستهزئين: ﴿تِلْكَ﴾ الحالة المفروضة لو وقعت، ورددنا إلى الحياة بعد الموت، كما زعم هؤلاء المدعون؛ يعنون: الرسل، يحصل لنا ﴿إِذَا كُرَّةٌ﴾ عودة ورجعة ﴿خَاسِرَةٌ﴾ [النازعات: 12] ذا خسران وخذلان؛ لأننا كنا نكذب بها، ولا نصديق من أخبر بها، وبعدما وقعت كنا خاسرين خسراناً عظيماً.

وبعدما تقاولوا من بطرهم وخيلائهم ما تقاولوا، قيل لهم من قبل الحق، مقرعاً على استماع استعداداتهم: لا تستبعدوا أمر الساعة، ولا تستصعبوها ﴿فَإِنَّمَا هِيَ﴾ أي: أمر الساعة وقيامها عند كمال قدرتنا الغالبة القاهرة ﴿زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ [النازعات: 13] أي: نفخة واحدة، يُنفخ في الصور بأمرنا وحكمنا.

فإذا نفخت النفخة الثانية ﴿فَإِذَا هُمْ بِالشَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: 14] أي: فوجئ بنو آدم بأجمعهم فصاروا أحياء على وجه الأرض، كما كانوا عليها في النشأة الأولى من

الهيئات والأشكال، والهيكل والهويات.

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾ (١٥) إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ أَذْهَبَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَن تَرْكَبَ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَى ﴿١٩﴾ فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَى ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَذْبَرَ يَتَغَى ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَى ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى ﴿٢٦﴾ [النازعات: 15-26].

ثم أشار سبحانه إلى تسلية حبيبه ﷺ، وحثه على الاصطبار بأذيات أصحاب التكذيب والاستكبار فقال: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾ [النازعات: 15] يعني: بما اضطربت بتكذيب قومك، وإنكارهم عليك، وإعراضهم عن هدايتك وإرشادك يا أكمل الرسل، أليس قد أتيتك حديث أخيك موسى الكليم؛ حتى يسليك ويزيح كربك، ويرشدك إلى الصبر والثبات مثل أخيك؛ حتى تظفر على أعدائك مثله.

وذلك وقت ﴿إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ﴾ بلا وسيلة الملك، وسفارة السفير؛ إذ هو حينئذٍ من إفراط المحبة ﴿بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ﴾ عن رذائل الأغيار، والالتفات إلى ما سوى الملك الجبار ﴿طُوًى﴾ [النازعات: 16] أي: طويت دونه حينئذٍ مطلق التعينات والنقوش الطارئة على بحر الوجود من رياح الإضافات المعوجة الممنوحة.

وبعدما تقرر في مقعد الصدق، وتمكن على مكنن اللاهوت أمره سبحانه بالالتفات إلى عالم الناسوت، والرجعة نحوه؛ للإرشاد والتكميل تميماً لقضية الحكمة البالغة، المتقنة الإلهية بقوله: ﴿أَذْهَبَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ العالي العاتي، الباغي الطاغى ﴿إِنَّهُ طَغَى﴾ [النازعات: 17] وتجاوز عن مقتضى العبودية طغياناً فاحشاً إلى أن ادعى الألوهية لنفسه.

﴿فَقُلْ﴾ مستفهماً أولاً على طريق الملاينة اللازمة لمرتبة النبوة والإرشاد: ﴿هَلْ لَكَ﴾ بعدما انحرفت عن جادة العبودية بهذه الدعوى الكاذبة الباطلة ميل ﴿إِلَىٰ أَن تَرْكَبَ﴾ [النازعات: 18] وتطهر عن رذيلة الكفر والطغيان، ونقيصة الظلم والعدوان.

﴿وَأَهْدِيكَ﴾ وأرشدك أنا بإذن الله ووجيه ﴿إِلَى﴾ توحيد ﴿رَبِّكَ﴾ وتقديس مربيك الذي أظهرك من كتم العدم، ورباك بأنواع اللطف والكرم، وبعدما تعرف وحدة ربك، وتؤمن بأسمائه الحسنی وصفاته العليا، وتصديق بكمال قدرته واقتداره على

وجوه الانتقامات والإنعامات، وباستقلاله في عموم التدبيرات والتصرفات ﴿فَتَخْشَى﴾ [النازعات: 19] حيثُ عن بطشه وقهره، وتشتغل بأداء المأمورات، وترك المنكرات والمحرمات، والاجتناب عن مطلق المنهيات، وبالجمله: تكون من زمرة أرباب العناية والكرامات، وتتخلص من نيران الطبيعة ودركاتها؟.

وبعدما ذهب موسى لمقتضى أمر الله ووحيه إلى فرعون الطاغى الباغى، وبالغ في التبليغ وإظهار الدعوة، والملاينة على وجه الرفق والمداراة ﴿فَأَرَاهُ﴾ على سبيل التبيين والتوضيح ﴿الآيَةَ الْكُبْرَى﴾⁽¹⁾ [النازعات: 20] يعني: العصا وتقليبها حية، أو جنس الآيات النازلة عليه.

وبعدما سمع فرعون من موسى ما سمع، ورأى من الآيات ما رأى استكبر وعتا ﴿فَكَذَّبَ﴾ فرعون موسى ﴿وَعَصَى﴾ [النازعات: 21] على المولى، وزاد على البغى والطغيان.

﴿ثُمَّ﴾ بعدما أقبل عليه موسى بالإرشاد والتكميل بأمر الله ﴿أَذْبَرَهُ﴾ فرعون عن الإقبال، وأقبل على البغى والضلال؛ لذلك ﴿يَسْعَى﴾ [النازعات: 22] ويجتهد في المعارضة والإبطال.

﴿فَحَشَرَ﴾ جنوده وسحرة بلاده ﴿فَنَادَى﴾ [النازعات: 23] على رموس الملا على سبيل الاستعلاء والاستكبار.

﴿فَقَالَ﴾ ذلك المسرف المفرط من كمال البطر والافتخار: ﴿أَنَا زَيْكُمُ﴾ ومريكم

(1) «الفاء» في «فأراه»: معطوف على محذوف، يعني فذهب فأراه، كقوله تعالى: (ضرب يَعْصَاكَ الحجر فانفجرت) أي: فضرب فانفجرت، واختلفوا في الآية الكبرى، أي: العلامة العظمى، وهي المعجزة، فقيل: هي العصا، وقيل: اليد البيضاء تترق كالشمس، قاله مقاتل والكلبي، والأول: قول عطاء وابن عباس؛ لأنه ليس في اليد إلا انقلاب لونها، وهذا كان حاصلًا في العصا لأنها لما انقلبت حية، فلا بد وأن يتغير اللون الأول، فإذا كل ما في اليد، فهو حاصل في العصا، وأمور أخرى، وهي الحياة في الجرم الجمادي، وتزايد الأجر إليه، وحصول القدرة الكبيرة والقوة الشديدة، وابتلاعها أشياء كثيرة، وزوال الحياة، والقدرة عليها، وبقاء تلك الأجزاء التي عظمت، وزوال ذلك اللون والشكل اللذين صارت العصا بهما حية، وكل واحد من هذه الوجوه كان معجزًا مستقلًا في نفسه، فعلمنا أن الآية الكبرى هي العصا، وقال مجاهد: هي مجموع العصا واليد، وقيل: فلق البحر، وقيل: جميع آياته ومعجزاته. [تفسير الباب لابن عادل (212/ 16)].

الاجل ﴿الْأُولَى﴾ [النازعات: 24] من كل من يلي أمركم أيها البرايا.

وبعدما أفرط في البغي والطغيان، وبالف في الظلم والعدوان ﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ﴾ القدير القهار بمقتضى اسمه المضل المذل فجعل سبحانه طغيانه وعدوانه ﴿نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى﴾ [النازعات: 25] أي: سبب الأغلال والسلاسل في النشأة الأخرى، وسبباً للإهلاك والإغراق في النشأة الأولى.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ الشأن الذي جرى على فرعون من أنواع البلاء في النشأة الأولى والآخرة ﴿لَعِبْرَةً﴾ عظة عظيمة، وتذكيراً بليغاً ﴿لِمَن يَخْشَى﴾ [النازعات: 26] عن غضب الله، ومقتضيات قهره وجلاله.

﴿مَآنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا﴾ ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمَكَهَا فَتَوَنَّاهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴿٢٩﴾ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴿٣١﴾ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ﴿٣٢﴾ مَتَّعًا لَّكُمْ وَلَآئِفِكُمْ ﴿٣٣﴾ فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَةُ الْكُبْرَى ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى ﴿٣٥﴾ وَبُورَتِ الْجَبِيزُ لِمَن يَرَى ﴿٣٦﴾ [النازعات: 27-36].

ثم أشار سبحانه إلى توبيخ المنكرين للنشأة الأخرى، وتقريعهم وتسفيههم بمقتضى عقلهم فقال: ﴿أَأَنْتُمْ﴾ أيها المنكرون المفرطون المترفون ﴿أَشَدُّ﴾ وأصعب ﴿خَلْقًا﴾ وإيجاداً على سبيل الإعادة ﴿أَمِ السَّمَاءُ﴾ التي هي أرفع الأبنية وأعلاها، وأشدّها نظاماً، وأقواها بنياناً؛ إذ هو سبحانه ﴿بَنَاهَا﴾ [النازعات: 27] بقدرته الكاملة.

وأحسن بناءها، حيث ﴿رَفَعَ سَمَكَهَا﴾ وسقفها بلا أعمدة وأسانيد واسطوانات ﴿فَسَوَّاهَا﴾ [النازعات: 28] وعدلها بلا قصور وفتور.

وبعدما سَوَّاهَا أدارها على الاستدارة، ورتب على حركاتها الجديدين ﴿وَأَغْطَشَ﴾ أي: أظلم ﴿لَيْلَهَا﴾ الحاصل من حركاتها ﴿وَأَخْرَجَ﴾ أبرز وأظهر ﴿ضُحَاهَا﴾ [النازعات: 29] ضوء شمسها في النهار الحاصل من تلك الحركات.

﴿و﴾ بعدما رتبها كذلك خلق ﴿الْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ﴾ أي: بعد خلق السماوات وأعجب في خلقها بأن ﴿دَحَاهَا﴾⁽¹⁾ [النازعات: 30] مهدها وبسطها لمن يسكن عليها

(1) قال الألوسي (22/ 151): لأنها لا تصلح بياناً لبناء السماء فلا بد من تقدير معطوف عليه وحيث

ويستقر فيها.

وبعد بسطها كذلك ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا﴾ حيث فجر فيها عيوناً، وأجرى أنهاراً ﴿وَ﴾ إن ظهر عليها أيضاً ﴿مَزَعَاهَا﴾ [النازعات: 31] تقويماً لمن عليها وما عليها. ﴿وَ﴾ رتب ﴿الْجِبَالَ﴾ الطوال الثقال عليها حتى ﴿أَزْمَاهَا﴾ [النازعات: 32] وأثبتها.

وإنما مهدها وبسطها، وأثبت عليها وفجر منها؛ لتكون ﴿مَتَاعًا لَكُمْ﴾ أي: تمتيعاً لكم عليها ﴿وَلَا نَعَامِكُمْ﴾ [النازعات: 33] أيضاً، فإنها من لواحق معاشكم ومتعماتها. وبعدما فضل عليكم سبحانه بأنواع الخيرات والبركات ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَةُ الْكُبْرَى﴾ [النازعات: 34] والداهية العظمى التي هي عبارة عن قيام الساعة الموعودة. ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى﴾ [النازعات: 35] حيث يعطى لهم صحائف أعمالهم مفصلة فينظرون فيها، ويتذكرون بها جميع ما صدر عنهم من الأعمال الصالحة والفاصلة فيجازون بمقتضاها.

﴿وَيُزَيَّرُ الْجَعِيمُ﴾ أي: ظهرت ولاحت ﴿لِمَنْ يَرَى﴾ [النازعات: 36] أي: لكل من يتأتى منه الرؤية؛ أي: ظهر أمرها، بحيث لا يخفى على أحد.

﴿فَأَمَّا مَنْ طَفَى﴾ ٣٧ ﴿وَأَثَرُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ ٣٨ ﴿فَإِنَّ الْجَعِيمَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ ٣٩ ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى﴾ ٤٠ ﴿فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ ٤١ ﴿يَتْلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ ٤٢ ﴿فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرِنَهَا﴾ ٤٣ ﴿إِلَّا رِيكٌ مُنْتَهَا﴾ ٤٤ ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ مَنِ يَخْشَاهَا﴾ ٤٥ ﴿كَانَتْهُمْ يَوْمَ يُزَوَّلُهَا لَرَبِّهَا﴾ ٤٦ ﴿إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ ٤٧ [النازعات: 37-46].

ثم قسم الناس حينئذ قسمين: ﴿فَأَمَّا مَنْ طَفَى﴾ [النازعات: 37] في

يقدر جملة فعلية على قراءة الجمهور أي فعل ما فعل في السماء وجملة اسمية على قراءة الآخرين أي السماء وما يتعلق بها مخلوق له تعالى وجوز عطف الأرض بالرفع على (السماء) من حيث المعنى كأنه قيل السماء أشد خلقاً والأرض بعد ذلك أي والأرض بعدما ذكر من السماء أشد خلقاً فيكون وزان قوله تعالى: (دحاها) النخ وزان قوله تعالى: (بناها) النخ وحيث فلا يكون بعد ذلك مشعراً بتأخر دحو الأرض عن بناء السماء.

النشأة الأولى.

﴿وَأَثَرُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [النازعات: 38] أي: اختار الحياة المستعارة، الدنيئة الدنيوية ولوازمها من اللذات والشهوات الفانية على الحياة الأخروية، وما يترتب عليها من اللذات اللدنيئة الباقية.

﴿فَإِنَّ الْجَحِيمَ﴾ المسعرة بنيران غضبهم وشهواتهم ﴿هِيَ الْمَأْوَى﴾ [النازعات: 39] لهم، مقصورة عليهم، لا مأوى لهم سواها.

﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ﴾ أي: خاف عن قيامه بين يدي الله، ووقوعه في المحشر؛ للحساب، وعرض الأعمال عليه سبحانه والجزاء عليها ﴿وَوَ﴾ مع خوفه وخشيته ﴿نَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى﴾ [النازعات: 40] أي: كف نفسه عن مقتضياتها التي هي تردّيها وتغويها.

﴿فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ [النازعات: 41] أي: مأواهم مقصورة على الجنة، وهم فيها أبداً خالدون لا يتحولون إلا إلى ما هو أولى منها، وأعلى درجة ومقاماً.

ثم قال سبحانه: ﴿يَسْأَلُونَكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿عَنِ السَّاعَةِ﴾ وقيامها التي هي من جملة الغيوب التي لا نطلع عن درجاتها ومقاماتها أحداً عليها: ﴿أَيَّانَ مَزْسَاهَا﴾ [النازعات: 42] أي: متى إرساؤها وإقامتها، وفي أيّ آن إتيانها وقيامها، عَيْنَ لنا وقتها؟.

﴿فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا﴾ [النازعات: 43] أي: أنت في أي شيء وشأن منها أن تذكر لهم وقتها، أو تعينها، مع أننا لا نطلعك على وقتها، سوى أننا أوحينا لك آتيها وثبوتها، وتحقق قيامها، فما لك إلا تبليغ ما يوحي إليك؟!

بل ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُشَاهَا﴾ [النازعات: 44] أي: منتهى علمها، وتعين وقتها إنما هو مفروض إلى حضرة علم الله، موكل إلى لوح قضائه.

﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ مِّنْ يَّخْشَاهَا﴾ [النازعات: 45] أي: أنت ما تُبعث إلا؛ للإنذار الخائفين الموفقين على الخوف من أهوالها وأفزاعها، لا من المقذرين المعيّنين لوقتها. وكيف يسع لك هذا التعيين والتقدير؛ إذ هي من جملة الغيوب التي استأثر الله بها، ولم يطلع أحداً عليها؟!

ثم قال سبحانه تهويلاً على المنكرين: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا﴾ ويعاينون قيامها تيقنوا حيثُ على سبيل الجزم أنهم ﴿لَمْ يَلْبَثُوا﴾ ولم يمكثوا في دار الدنيا ﴿إِلَّا عَشِيَّةً﴾

أي: عشية يوم ﴿أَوْ ضُحَاهَا﴾ [النازعات: 46] أي: ضحى تلك العشية، يعني: يستقصرون مدة لبثهم في الدنيا بالنسبة إلى هول يوم القيامة وطولها.

نعوذ بك من النار وما قرب إليها يا غفار.

خاتمة السورة

عليك أيها المحمدي المحقق، الموقن بقيام الساعة وما فيها من الثواب والعقاب، والجنة والنار أن تزرع في محراثك هذا ما ستحصده هناك من بذور الأعمال الصالحة، والأخلاق المرضية، والأطوار المحمودة، وسائر السنن والآداب المقبولة الماثورة من النبي المختار، وعترته الأخيار الأطهار، لا بد لك أن تكون على ذكر من قيامها وأحوالها في عموم أحوالك.

وإياك إياك الاغترار بالحياة المستعارة، والالتفات إلى مزخرفات الدنيا الغدارة المكاراة، فإنها تمكر بك، وتغويك، وتضللك عن طريق الحق وترديك.

فعليك ألا تتبع بغوائلها، ولا تنخدع بمخائيلها؛ حتى لا تكون من زمرة الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ﴿أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الزمر: 15].

جعلنا الله من زمرة الأمنين الفائزين، المستبشرين الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

سورة عبس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فاتحة سورة عبس

لا يخفى على من تمكن بمقر عز الوحدة، وتوطن في السواد الأعظم اللاهوتي أن علامة التمكين والتثيت ألا يبقى للموحد المحقق شيء من لوازم عالم الناسوت، بحيث لا يتكبر على من دونه، ولا يتحسر على من فوقه، بل لم يبق في عين شهوده سدل الاثنية، ورمد الفوقية والتحتية مطلقاً، بل صار كل في نظر شهوده على السواء، بحيث ﴿مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوتٍ﴾ [الملك: 3] سيما ترجيح أصحاب الثروة والغفلة، الفاقدين نظر البصيرة والاستبصار على أرباب الإرادة والاعتبار، وإن فقد منهم حس الظاهر.

ثم لما كان ﷺ مشغولاً بإيمان رؤساء مكة وصناديدهم ودعوتهم، جلس يوماً من الأيام معهم على سبيل الملاينة رجاء أن يوفقوا للإيمان، ويرغبوا إلى قبول الدعوة، وكان ﷺ يصاحبهم ويداريهم حتى دخل عليه ﷺ ابن أم مكتوم الأعمى ﷺ، ولم يدر من هم عنده فقال: يا رسول الله علمني مما علمك الله، ولم يلتفت إليه ﷺ، واشتغل مع أهل الثروة، فناداه بما نادى مرة بعد أخرى حتى غضب رسول الله ﷺ، وقطب وجهه، فصار عبوساً فجري في نجواه ما جرى من لحوق العار، بأن يعيب هؤلاء الصناديد بأن أتباعه ما هي إلا العجزة والعميان والمساكين.

فكان عليه ﷺ حتى أوحى إليه سبحانه معاتباً عليه مؤدباً، فقال متيميناً: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ الذي ظهر على قلوب أوليائه بمقتضى سعة رحمته ﴿الرَّحْمَنِ﴾ عليهم بحفظ مرتبتهم ﴿الرَّحِيمِ﴾ عليهم، يوقظهم عن غفلتهم.

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى ۝ (١) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ۝ (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّه يُرَى ۝ (٣) أَوْ يَلْكُزُ فَنَنْفَعَهُ الْذِكْرَى ۝ (٤) أَلَمْ يَنْزِلْ عَلَيْكَ الْوَحْيُ ۝ (٥) فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى ۝ (٦) وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَرْبَى ۝ (٧) وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى ۝ (٨) وَهُوَ يَخْشَى ۝ (٩) فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى ۝ (١٠) كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۝ (١١) فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ ۝ (١٢) لِي نُحْصِيَ مَكْرَمَهُ ۝ (١٣) مَرْفُوعَهُ مُنْظَرَهُ ۝ (١٤)﴾

﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ﴾ ١٥ ﴿كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ ١٦ ﴿قِيلَ الْإِنْسَنُ مَا أَكْفَرُهُ﴾ ١٧ ﴿مِنَ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ ١٨ ﴿مِنْ نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ﴾ ١٩ ﴿ثُمَّ السَّبِيلَ يَسْرَهُ﴾ ٢٠ ﴿ثُمَّ أَمَانَهُ فَأَقْبَرَهُ﴾ ٢١ ﴿ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ﴾ ٢٢ ﴿[عبس: 1-22].

﴿عَبَسَ﴾ وجهه من الكراهة عن المسترشد ﴿وَتَوَلَّى﴾ [عبس: 1] ⁽¹⁾ أي: أعرض عنه، وحول صفحة وجهه عنه كارهاً إياه.

وقت ﴿أَن جَاءَهُ﴾ المسترشد ﴿الْأَعْمَى﴾ [عبس: 2] أخرج الكلام سبحانه مع حبيبه ﷺ على طريق الغيبة؛ إظهاراً لكمال الغيرة، والحمية الإلهية عن هذه الغفلة الغير مرضية.

ثم التفت إلى الخطاب؛ لكمال التأديب والتشنيع فقال على سبيل التهويل: ﴿وَمَا يُذَرِّكَ﴾ أي: وأي شيء يكشف لك حاله وقلبه ﴿لَعَلَّهُ يَزْكِي﴾ [عبس: 3] ويتطهر عن الآثام، ويهتدي إلى طريق الإسلام بهدايتك وإرشادك، بخلاف أولئك الجهلة الغفلة الذين تحننت نحوهم، وتحببت دعوتهم، فإنهم لا يهتدون ولا يتطهرون.

﴿أَوْ يَذْكُرُ﴾ أي: يتعظ ويتذكر هذا المريد الفقير من كلامك ﴿فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى﴾ [عبس: 4] والعظة، وتوجه هو بسببها إلى المولى.

﴿أَمَّا مَنْ اسْتَغْنَى﴾ [عبس: 5] عن الله، وأعرض عن تذكيرك ودعوتك مستكبراً بماله وثروته، وسيادته وكمال نخوته.

﴿فَأَنَّتْ لَهُ تَصَدَّى﴾ [عبس: 6] تميل وتعرض بالإقبال إليه، وتحنن بكمال المحبة نحوه.

﴿وَمَا عَلَيْكَ﴾ أي: أي شيء عرض عليك، ولحق بك عن المكاره الإمكانية ﴿أَلَّا يَزْكِي﴾ [عبس: 7] ولا يتطهر عن خبائث الآثام، وأدناس العصيان حتى يبعثك عن

(1) قال الورتجي: بين الله سبحانه هاهنا درجة الفقر وتعظيم أهله وخسة الدنيا وتحقير أهلها، وأن الفقر إذا كان نعت الصادق في المعرفة والمحبة كان شرفاً له، وهو من أهل الصحبة، ولا يجوز الاشتغال بصحبة الأغنياء ودعوتهم إلى طريق الفقر إذا كانت سجيته لم تكن سجية أهل المعرفة، فإذا كان حالهم كذلك لا يأتون إلى طريق الحق بنعت التجريد؛ فالصحبة معهم ضائعة، ألا ترى كيف عاتب الله نبيه ﷺ بهذه الآية.

الإعراض عن أهل الحق، وعدم الالتفات نحوهم، مع أن ما عليك إلا البلاغ والتبليغ.
﴿وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ﴾ من أرباب الطلب والإخلاص ﴿يَسْأَلُ﴾ [عبس: 8] ويسرع
بطلب الخير والهداية.

﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿هُوَ يَخْشَى﴾ [عبس: 9] عن غضب الله، ويرجو ثوابه.
﴿فَأَنْتَ﴾ مع كونك مبعوثاً عن الهداية والإرشاد إلى أصحاب الإرادة والقبول
﴿عَنْ تَلْهِىَ﴾ [عبس: 10] تتشاغل وتنصرف، كأنك تحقره ولا تبال بشأنه وإيمانه؛
لرثاء حاله وفقره.

ثم بالغ سبحانه في تأديب حبيبه ﷺ وأكد، حيث قال: ﴿كَلَّا﴾ أي: ارتدع عن
فعلتك هذه، ولا تمل إلى أصحاب الزيف والضلال معرضاً عن أرباب الهداية والكمال؛
إذ ما عليك التخير والاختيار، إن عليك إلا التبليغ والإنذار ﴿إِنَّهَا﴾ أي: دعوتك
وتذكيراتك بالآيات ﴿تَذَكَّرُ﴾ [عبس: 11] نازلة من ربك، مأمورة لك تبليغها إلى
الناس.

﴿فَمَنْ شَاءَ﴾ سبحانه اتعاضه من عباده ﴿ذَكَرَهُ﴾ [عبس: 12] أي: بالقرآن،
ووعظه به سواء كان فقيراً أو غنياً.

وكيف لا يوعظ به، مع أنه منزل من عند الله ﴿فِي ضُحُفٍ﴾ نازلة على رسل الله
﴿مُكْرَمَةً﴾ [عبس: 13] عنده سبحانه؟!

﴿مَرْفُوعَةٍ﴾ مقبولة لديه درجة ومكاناً، ملقاة من عند الله إلى رسول الله ﴿مُطَهَّرَةٍ﴾
[عبس: 14].

﴿بِأَيْدِي مَفْرَعةٍ﴾ [عبس: 15] أي: ملائكة يتوسلون بين الله ورسله.
﴿كِرَامٍ﴾ أعزة من عند الله، ذو كرامة على أهل الإيمان ﴿بَرَزَةٍ﴾⁽¹⁾ [عبس: 16]
أنقياء مبرورين في أنفسهم، بارين على عباد الله مع هذه الكرامة العظيمة الإلهية،
والإشفاق البليغ من لدنه سبحانه، والرحمة العامة من عنده.

(1) قال علاء الدولة: بأيدي كتبة على الله بررة على خلقه بكتابتهم كل ينوون قبل الوقوع من الخير،
ولا يكتبون ما ينوون من السر إلا بعد الوقوع، وهم جمع من الملائكة التي خلقهم الله من رشاش
النور المطهر من رأس القلم على لوح العقل، وهم الكتبة وفي هذه سر يتعلق بحد القرآن مما
يجب أن يطوي سره.

﴿قَتَلَ الْإِنْسَانَ﴾ أي: لعن وطُرد عن ساحة عز القبول ﴿مَا أَكْفَرَهُ﴾ [عبس: 17] أي: أي شيء حداه وبعثه إلى الإعراض عن الله المنعم المفضل، والانصراف عن طاعته وعبادته، مع أنه عالم بكمال كرامته سبحانه عليه، معترف ببدايع صنعه وصنعتة معه، متذكر في نفسه، مستحضر بشئونه وتطورات السالفة!؟

﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ﴾ مسترذل مستنزل ﴿خَلَقَهُ﴾ [عبس: 18] وأوجده حسب قدرته.

﴿مِنْ نُطْفَةٍ﴾ مهينة خبيثة ﴿خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ﴾ [عبس: 19] أي: هيأ آلاته وأعضاءه منها، فعذله وسوى هيكله، ومن أنى تكبر وافتخر وبطر!؟

﴿ثُمَّ السَّبِيلَ﴾ الموحد الموصل إلى ربه وموجده الذي هو مبدؤه ومعاده ﴿يُسْرَهُ﴾ [عبس: 20] وسهل عليه بأن أفاض عليه، وأودع فيه العقل الفطري المنشعب من العقل الكلي الإلهي؛ ليعرف به مبدأه ومعاده.

﴿ثُمَّ أَمَاتَهُ﴾ عن نشأة الاختبار والابتلاء تخليصاً وتقريباً له إلى ربه ﴿فَأَقْبَرَهُ﴾ [عبس: 21] في البرزخ.

﴿ثُمَّ إِذَا شَاءَ﴾ وتعلق مشيئته للإحياء ﴿أَنْشَرَهُ﴾ [عبس: 22] من القبر، وحشره إلى المحشر فحاسبه فجازاه على مقتضى حسابه، خيراً كان أو شراً فضلاً منه وعدلاً.

﴿كَلَّا لَمَّا يَقُضْ مَا أَمَرُهُ﴾ ٣٢ ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ ٣٣ ﴿أَنَا صَبَّأُ الْمَلَكُ صَبًّا﴾ ٣٤ ﴿ثُمَّ شَفَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا﴾ ٣٥ ﴿فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا﴾ ٣٦ ﴿وَعَبًّا وَقَضْبًا﴾ ٣٧ ﴿وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا﴾ ٣٨ ﴿وَحَدَائِقَ غُلًّا﴾ ٣٩ ﴿وَلَكُمْ مِّنْهَا لَكْرٌ وَلَآتَمِيزُكُمْ﴾ ٤٠ ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّلَاحَةُ﴾ ٤١ ﴿يَوْمَ يُفْرَأُ الْمِيزَةُ مِنَ الْخَبْرِ﴾ ٤٢ ﴿وَأَمِيرُهُ وَأَمِيرُهُ﴾ ٤٣ ﴿وَمَنْجَبُهُ وَمَنْجَبُهُ﴾ ٤٤ ﴿لِكُلِّ أَمْرٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُخْبِرُهُ﴾ ٤٥ ﴿وَجُودٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفَرَةٌ﴾ ٤٦ ﴿ضَالِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾ ٤٧ ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ﴾ ٤٨ ﴿تَرْهَقُهَا قَفَرَةٌ﴾ ٤٩ ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرَةُ الْفَجِرَةُ﴾ ٥٠ [عبس: 23-42].

﴿كَلَّا﴾ ردع له وويل عليه، ما هذا النسيان والكفران لهذه النعم العظام والكرامات الجسام ﴿لَمَّا يَقُضْ﴾ أي: لم يقض ولم يجز من لدن وجوده وظهوره على ﴿مَا أَمَرُهُ﴾ [عبس: 23] الحق به؛ إذ لا يخلو أحد من أفراد الإنسان عن الكفر والكفران، والإثم والعدوان، إلا أن بعضه متدارك متلاف، قد جبر بالتوبة والإيمان ما

كسر بالكفر، وبعضه مغمور في عصيانه ونسيانه إلى حيث لا يتنبه قط.
وبالجملة: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ﴾ المجبول على الكفران والنسيان ﴿إِلَى طَعَامِهِ﴾⁽¹⁾
[عبس: 24] المسوق له من لدنا تفضلاً وتكريماً؛ لتقويته وتقويم بنيته.
﴿أَنَا﴾ من مقام عظيم جودنا كيف ﴿صَبَّيْنَا الْمَاءَ﴾ وأنزلنا من جانب السماء
﴿صَبًّا﴾ [عبس: 25] ترويحاً له، وتهيئة لأسباب معاشه.
﴿ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ﴾ بعدما صببنا الماء عليه ﴿شَقًّا﴾ [عبس: 26] بديعاً.
﴿فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا﴾ [عبس: 27] من أنواع الحبوب التي يقتات بها الإنسان
﴿وَعِنبًا﴾ متضمناً لأنواع الادم والمشروبات.
﴿وَقَضْبًا﴾ [عبس: 28] نباتاً يُقَطَّع مرة بعد مرة، يعين للأكل.
﴿وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا﴾ [عبس: 29].
﴿وَوَفَاكِهِ﴾ أي: ألوان الفاكهة وأنواعها وأصنافها ﴿وَأَبًا﴾ [عبس: 31] علفاً
لمواشيه ومراكبه التي بها يتم ترفهه وتنعمه.
وبالجملة: أعطاكم وأحسن إليكم سبحانه ما أعطى وأحسن من النعم العظام،
والكرم الجسام؛ ليكون ﴿مَتَاعًا﴾ وتمتعاً ﴿لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ [عبس: 32] التي بها يتم
ترفهكم وتنعمكم، وإنما أنعم عليكم سبحانه؛ لتعرفوا المنعم، وتواظبوا على شكر
النعم، وأنتم تكفرون للنعم والمنعم جميعاً.
اذكروا ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ﴾ [عبس: 33] الصيحة المقرعة لصماخكم
وأسماعكم.

فحيثئذ شق عليكم الأمر، وصعب الهول، مع أنه لا نصر يومئذ ولا مظاهره، ولا
إغاثة من أحد ولا إغاثة، بل ﴿يَوْمٌ﴾ أي: يومئذ ﴿يَفْزُزُ الْمَرءَ مِنْ أَخِيهِ﴾ [عبس: 34]

(1) أي: فلينظر اللطيفة الغيبية والشهادية المستجمعة في الإنسان الذي أنس علوي وأنس سفلي إلى
طعام المركب من المحفوظ العلوية المفلوبة والحقوق السفلية المستكنة في المحفوظ وكيفية
اجتماع الأضرار فيه رحمة منا وحكمة منا ليعبر بالرزق الدال جعلنا بسبب حصولها. [مين
الحياة].

شقيقه وشقيقته ﴿وَأُمِّهِ﴾ التي يأوي إليها.

﴿وَأَبِيهِ﴾ [عبس: 35] الذي يظاهر ويفتخر به ﴿وَصَاحِبَتِهِ﴾ التي هي أحب إليه من عشائره.

﴿وَبَيْنِهِ﴾ [عبس: 36] الذين هم أعز عليه من عموم أقاربه.

وسبب النفرة والفرار: اشتغال كل بحاله بلا التفات منه إلى حال غيره؛ إذ ﴿لِكُلِّ﴾
أَمْرٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: 37] يشغله عن شئون غيره، ويزعجه على
الاهتمام به، مع أنه لا يكفه ولا يكفيه.

وكيف لا يكون كذلك؛ إذ ﴿وَجُودٌ يَوْمَئِذٍ مُنْفِرَةٌ﴾ [عبس: 38] مضينة مشرقة،
متنورة بنور الإيمان والعرفان.

﴿ضَاحِكَةٌ﴾ فرحًا وسرورًا بقاء الرحمن ﴿مُنْبَشِّرَةٌ﴾ [عبس: 39] بعلو
الدرجات والمقامات بأنواع السعادات والكرامات.

﴿وَوَجُودٌ﴾ آخر ﴿يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ﴾ [عبس: 40] غبار وكدورة ناشئة من أكدار
الكفر والكفران، وأنواع الآثام والعصيان.

مظلمة إلى حيث ﴿تَرْفُقُهَا﴾ وتغشيها ﴿فَتْرَةٌ﴾ [عبس: 41] مذلة وصغار، وذلة
وخسارة.

وبالجملة: ﴿أُولَئِكَ﴾ البعداء عن ساحة عز القبول، المكذبون بكذورات الكفر
والشرك، وأنواع الفسوق والفجور ﴿هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجْرَةُ﴾ [عبس: 42] الخارجون عن
مقتضى الحدود الإلهية، ونور المعرفة والإيمان بمتابعة القوى البهيمية من الشهوة
والغضبية؛ إذ كلتاها مناط عموم الشرور والخسران.

أعاذنا الله وعموم عباده من شرهما.

خاتمة السورة

عليك أيها المستنشط القاصد لتبشير الحق وتيسره أن تسمع نداء البشارة
والتوفيق الإلهي من السنة عموم رسل الله وكتبه، فلك أن تقتفي أثر هؤلاء الكرام،
وتمثل بما في كتاب الله العليم العلام من الأوامر والنواهي، ومطلق الأحكام والعبير،
والتذكيرات الموردة فيه، المتعلقة لتهديب الظاهر والباطن عن الميل والإلحاد، إلى

الأمور المؤدية إلى إفساد العقائد والعناد.

فلك إفرار عن أصحاب الزيف والضلال، والانصراف عن مخالطتهم ومصاحبتهم في كل حال؛ حتى تكون من زمرة أصحاب المتنعمين في جنات النعيم، لا من الضالين المكذبين المخلدين في دركات الجحيم، المعذبين بالعذاب الأليم.

نسأل منك يا ذا القوة المتين الفوز بدرجات إينعيم، والعود عن دركات الجحيم يا من فضله وكرمه عظيم.

سورة التكويد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فاتحة سورة التكويد

لا يخفى على المنكشفين بسطوة سلطنة جلال الله، وقهره الغالب أن قيام الساعة، ووقوع الطامة الكبرى التي انقهرت دونها نفوس السوى مطلقاً في جنب القدرة الكاملة الإلهية، إنما هي في غاية اليسر والسهولة، والمنكر المستبعد لها، وللأمور الموعودة فيها مكابرة عن مقتضى عقله، سيما بعد ورود الوحي الإلهي.

وبالجملة: ليس إنكار المنكر بعد وضوح الآيات، وسطوع البينات إلا من اعتياده بمزخرفات الوهم والخيال اللذين هما من أقوى أسباب الكفر والضلال، ومن خلص عن رقية تلك القوتين، ونجا من غوائلهما وتغريراتهما فقد جزم بوقوع عموم ما أخبر الحق به في هذه السورة بلا تردد وارتباب على الوجه الذي نص عليه سبحانه، وفضله بعد التيمن: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ المتجلى بعموم كمالاته في الشاتين ﴿الرَّحْمَنِ﴾ في النشأة الأولى؛ لانبساط وبسط ظلاله على عموم الأشياء ﴿الرَّحِيمِ﴾ في النشأة الأخرى؛ لقبضه الكل إلى ما منه بدأ.

﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ۝٢ وَإِذَا الْبِلَآءُ مُمِيتَتْ ۝٣ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٤ وَإِذَا الْأَنْفُسُ زُجِجَتْ ۝٥ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٦ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٧ وَإِذَا الْأَنْفُسُ زُجِجَتْ ۝٨ وَإِذَا الْبِلَآءُ مُمِيتَتْ ۝٩ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝١٠ وَإِذَا الْأَنْفُسُ زُجِجَتْ ۝١١ وَإِذَا الْبِلَآءُ مُمِيتَتْ ۝١٢ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝١٣﴾ [التكويد: 1-14].

﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ [التكويد: 1] ⁽¹⁾ يعني: إذا قامت القيامة، ولاحت شمس

(1) قال البقلي: الإشارة في هذه الآيات إلى ظهور تجلي الذات والصفات في قلوب العارفين، فهناك تكوّر شمس أرواحهم من غلبة نور عظمة الذات، وانكدرت نجوم عقولهم من صولة أنوار

الذات الأحدية عن ممكن العماء، وغلبت نشأة اللاهوت على نشأة الناسوت كور الوجود الإضافي المنعكس من الوجود المطلق الإلهي، المنبسط على صفائح مطلق العكوس والأظلال، ولف وطوي، بحيث لم يبق له أثر عند ظهور شمس الحقيقة الحقيقة.

﴿وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ﴾ [التكويد: 2] يعني: انقضت واضمحلت حيث نجوم الهويات، وهياكل الماهيات الحاصلة من الأوضاع والنسب، والإضافات العدمية الاعتبارية المحضة، بحيث لم يبق لها رسم وأثر عند ظهور الهوية الذاتية الإلهية الحقيقة.

﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ [التكويد: 3] يعني: سارت وانقلعت، وطارى عن أماكنها جبال الأنواع والأجناس الواقعة في عالم التعينات.

﴿وَإِذَا الْعِشَارُ﴾ يعني: السحب الماطرة لمياه المعارف، والحقائق الفائضة على أراضي الاستعدادات القابلة لها، اللاتقة لفيضاتها ﴿عُطِّلَتْ﴾ [التكويد: 4] وتركت؛ لاضمحلال محالها، وتلاشي قوابلها بانقضاء نشأة الاختبار.

﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ﴾ أي: النفوس المستوحشة الأبية، الوحشية التائهة في بوادي الطبيعة، وقفر الهولي ﴿خُشِرَتْ﴾ [التكويد: 5] وجمعت إلى ما منه انتشرت وبدت.

﴿وَإِذَا الْبِحَارُ﴾ أي: البحار الحاصلة من اعتبارات الوجود وشثونه ظاهرًا وباطنًا، غيبًا وشهادة، دنيا وعقبى ﴿سُجِّرَتْ﴾ [التكويد: 6] جمعت وملئت واتحدت، فيصار بحر الوجود بحرًا واحدًا زخارًا، لا ساحل له أصلًا.

﴿وَإِذَا النُّفُوسُ﴾ يعني: الأرواح الفائضة على هياكل الأشباح من عالم الأمر

الصفات، وسُيِّرَتْ جبال قلوبهم من أثقال واردات محبتها، وتعطّلت نفوسهم في سطوات جلالها، فهناك سُجِّرَتْ بحار التوحيد، وحشرت طيور التفريد، ولا يبقى إلا وجه ذي الجلال والإكرام، ولكل عارف في كل حالة من هذه الأحوال له قيامة. قال الحسين: تطمس الشمس بعد تنويرها، وتغور البحار بعد تفجيرها، وتنسف الجبال بتسييرها، وتدرس العشار بعد تعطيلها، وتُخمد الجحيم بعد تسميرها، وتطوى الصحف بعد النشر، وتحشر الوحوش من القبر، وتزلزل الأرض، وتخرج أثقالها للعرض على الجبار، وذلك أصعب مقام المخالفين، وأهون مقام الموافقين، فطوى لمن أثبت في ذلك المقام.

الإلهي ﴿زُوجَتْ﴾ [التكويد: 7] وقرنت يومئذ بيواعثها التي هي الأسماء والصفات الإلهية، والأسباب اللاهوتية.

﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ﴾ [التكويد: 8] أي: أبكار المعاني والمعارف الإلهية، المودعة المدفونة في أراضي الطبائع والأركان، مع اتصافها بالحياة الأزلية الأبدية، سُئِلَتْ من سكان تلك البقاع، ومن تلك المخدرات الحسان ﴿بِأَيِّ ذَنْبٍ﴾ وجريمة ﴿قُتِلَتْ﴾ [التكويد: 9] تركت ودفنت، مع أنها إنما جاءت في أراضي الطبائع والاستعدادات، مع أنها إنما حيت وجبلت؛ لكسب أنواع الخيرات، واقتراف أصناف السعادات والكرامات؟

﴿وَإِذَا الصُّحُفُ﴾ أي: صحائف تفاصيل الأعمال المشتملة على عموم الأمانى والآمال، المطوية فيها جميع الأحوال الصادرة من أصحاب الغفلة والضلال ﴿نُشِرَتْ﴾ [التكويد: 10] فَرِقت وكشفت بين أصحابها.

﴿وَإِذَا السَّمَاءُ﴾ أي: سماء الأسماء والصفات الإلهية المتجلية على شئون الظهور والنزول ﴿كُشِطَتْ﴾ [التكويد: 11] طويت وأزيلت عن هذه الشئون إلى شئون البطون والخفاء.

﴿وَإِذَا الْجَحِيمُ﴾ المعد لأصحاب الغفلة والضلال، التائهين في بوادي الجهالات بمتابعة أهويتهم الباطلة، وآرائهم الفاسدة العاطلة ﴿سُيِّعَتْ﴾ [التكويد: 12] أوقدت وأحيت بنيران غضبهم وشهواتهم التي كانوا عليها في نشأة الاختبار.

﴿وَإِذَا الْجَنَّةُ﴾ المعدة لأرباب العناية والوصال، المتصفين بالتقوى عن مطلق المحارم، والامثال بمقتضيات الأوامر والنواهي، وعموم الأحكام الموردة في الكتب الإلهية، المتعلقة بإرشادهم وتكميلهم ﴿أُزْلِفَتْ﴾ [التكويد: 13] قربت وقرنت بهم، بحيث فازوا بعموم ما وعدوا من قبل الحق.

﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أُخْضِرَتْ﴾ [التكويد: 14] يعني: علمت حيثئذ كل نفس من النفوس المودعة في هياكل الهويات لحكمة المعرفة والتوحيد أي شيء أحضرت عند الحساب عليها من الأمور المأمورة لها؛ حتى تجازى بها وعلى مقتضاها.

﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنُوسِ ۝١٥ الْجَوَارِ الْكُنُوسِ ۝١٦ وَاللَّيْلِ إِذَا عَنَصَسَ ۝١٧ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ۝١٨ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝١٩ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ۝٢٠ مُطَّلَعٌ ثَمَّ أَمِينٍ ۝٢١ وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ ۝٢٢ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِالْأَفْقَى الْمُبِينِ ۝٢٣ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ۝٢٤ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ۝٢٥ فَأَتَيْنَ تَذْهَبُونَ ۝٢٦ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ۝٢٧ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ۝٢٨ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝٢٩﴾ [التكوير: 15-29].

وبعدما عدَّ سبحانه أحوال القيامة وأهوالها أشار إلى ما يدل على التأكيد والمبالغة في وقوعها فقال: ﴿فَلَا أُقْسِمُ﴾ أي: لا حاجة إلى القسم؛ لإثبات هذه المذكورات؛ إذ هي في غاية السهولة والظهور عند القدرة الغالبة الإلهية، بل أقسم ﴿بِالْخُنُوسِ﴾ [التكوير: 15] أي: بالنفوس الزكية عن لوث الناسوت، الراجعة إلى عالم اللاهوت، وحضرة الرحمت قبل قيام الساعة؛ لصفاء مشربها، ونظافة طينتها.

﴿الْجَوَارِ الْكُنُوسِ﴾ [التكوير: 16] ⁽¹⁾ أي: أقسم أيضًا بنفوس الشطار الطائرين إلى الله، المختفين تحت قباب عزه؛ وشمس ذاته، بحيث لا يعرفهم أحد سواه سبحانه.

﴿وَوَقَدْ رَءَاهُ بِالْأَفْقَى الْمُبِينِ﴾ أي: عالم العماء الإلهي ﴿إِذَا عَنَصَسَ﴾ [التكوير: 17] أقبل ظلامه واشتد، بحيث اختفى فيه عموم ما ظهر وبطن.

﴿وَوَقَدْ رَءَاهُ بِالْصُّبْحِ﴾ أي: عالم الجلاء المنعكس من ذلك العماء اللاهوتي ﴿إِذَا

(1) قال البقلي: أقسم الله بنيرات عالم الملكوت إذا شاهدت عرائس الصفات في روازنها، ونظرت إلى قلوب المشتاقين، وجذبته بنورها إلى أعلى عليين، فلما بلغت الأرواح إلى سرادق الدنو تخنس باستارها بعد تجليها، وتكنس باحتجابها بعد انكشافها؛ لذوبان الأرواح في نيران الأشواق، وهيجان الأشباح إلى عالم الأفراح، وأقسم بظلمة ليالي الهجران في وقت الاستتار في قلوب العارفين، وبطلوع صبح أنوار مشاهدته بنعت الوصال في فؤاد المحبين، وأيضًا أقسم بطيران الأرواح القدسية بجناح المحبة والمعرفة في هواء الهوية، وهذا كنوسها إذا هامت بوجوهها في غيب الغيب، فإذا وصلت إلى قاف القدم، وتلدورت بسطوات الأزلية تخنس، وتفر من صدمات القيومية إلى عالم الأمر والحكم؛ لأن الحدوثية تزول عن موازاة القدم، وأيضًا أقسم بسير هذه الأرواح العاشقة في طرقات العلوم المجهولة، فتستفيد منها ما يكون بخلاف العلوم الرسمية.

تَنفَسُ ﴿التكويد: 18﴾ أي: أضاء وأشرق على أهل الفناء الفانين عن الفناء، المتعطشين بزالال البقاء.

﴿إِنَّهُ﴾ يعني: أقسم سبحانه بهذه المقسمات العظيمة أن القرآن ﴿لَقَوْلُ رَسُولٍ﴾ مرسل من قبل الله ﴿كَرِيمٍ﴾ [التكويد: 19] متصف بالكرامة والأمانة؛ يعني: العقل الكل المسمى بجبريل.

﴿ذِي قُوَّةٍ﴾ غالبه على حمل الوحي الإلهي ﴿عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ﴾ العظيم المحيط بعروش عموم المظاهر ﴿مَكِينٍ﴾ [التكويد: 20] ذي مرتبة ومكانة عظيمة.

﴿مُطَاعٍ ثُمَّ﴾ أي: في عالم الأسماء والصفات؛ إذ عموم المدارك والقوى تابعة مطيعة للعقل الكلي الذي هو حضرة العلم الإلهي، ولوح قضائه ﴿أَمِينٍ﴾ [التكويد: 21] حفيظ على الوحي الإلهي بالتوفيق الإلهي، بحيث لا يشذ عنه شيء من أوامره ونواهيه. ﴿وَهُ﴾ أيضًا أقسم سبحانه بتلك المقسمات على أنه ﴿مَا صَاحِبُكُمْ﴾ الذي نزل عليه هذا إلا أمين بهذا الكتاب المبين؛ يعني: محمدًا ﷺ ﴿بِمَخْثُونٍ﴾ [التكويد: 22] ومختل القوى والآلات، كما زعمتم؛ إذ زعمكم هذا بالنسبة إليه ﷺ إنما هو من غاية انحطاطكم عن رتبته، وجهلكم بمكانته، وإلا فهو ﷺ في أعلى طبقات الإدراك.

﴿وَهُ﴾ كيف لا يكون ﷺ في أعلى طبقات الإدراك والمعرفة ﴿لَقَدْ رَأَاهُ﴾ يعني: علم وعرف ﷺ جبريل الذي هو العقل الكل ﴿بِالْأَفْقِ الْمُبِينِ﴾⁽¹⁾ [التكويد: 23] الذي

(1) قال علاء الدولة: يعني: صاحب الوارد الإلهي وهو إشارة إلى: أفق محمد ﷺ خاصة في هذا المقام؛ لأن أفق آدم ﷺ كان متصلًا بأفق نوح، كان متصلًا بأفق إبراهيم، كان متصلًا بأفق موسى، وأفق موسى كان متصلًا بأفق داود، وأفق داود كان متصلًا بأفق عيسى، وأفق عيسى كان متصلًا بأفق محمد ﷺ وعلى آله وصحبه وعلى جميع الأنبياء والمرسلين، وأفق محمد ﷺ كان متصلًا بالحق وهو أفق الأعلى من طرف الخلق؛ يعني: ليس أفق أعلى من أفقه وهو الأفق المبين من طرف الحق، كما أن المعدن أفقًا إلى حد النبات، وللنبات أفقًا إلى حد الحيوان، وللحيوان أفقًا إلى حد الإنسان، والإنسان صاحب الأفقين العلوين والسفلين ولأجل هذا كان وسطًا وخيرًا، فهكذا صارت أمة محمد ﷺ وسطًا كما قال الله تعالى في كتابه: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: 143]، وقال الله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ [آل عمران: 110] وفي حقيقة الأفق سر يتعلق بحد القرآن مما لا يجوز إفشاؤه، هذا بساط قد طويناه.

هو حضرة العلم الإلهي، ولوح قضائه؟

﴿وَمَا هُوَ﴾ ﴿عَلَى الْغَيْبِ﴾ الذي أطلعه الحق عليه من المعارف والحقائق، والرموز والإشارات المتعلقة بتصفية الظاهر والباطن، وتخلية السر والضمير عن الالتفات إلى الغير مطلقاً ﴿بِضْنَيْنِ﴾ [التكويد: 24] بخيل شحيح، سيما بعدما أمره سبحانه بنشرها وتبليغها، وما هو على المغيبات التي نطق بها بمقتضى الوحي الإلهي، وإلهامه بظنين متهم، يتهمه أحد، وينسبه إلى الافتراء المستبعد عن علو شأنه، ورفعة قدره ومكانه ﴿بِمَرَّاحِلٍ﴾.

﴿وَ﴾ كذا ﴿مَا هُوَ﴾ يعني: القرآن الذي هو تكلم به، ونزل عليه ﴿بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾ [التكويد: 25] أي: ما هو شعر وكهانة ناشئة من شياطين الوهم والخيال، كما زعمه أهل الزيغ والضلال المترددين في أودية الجهل والغفلة، وهاوية العناد والجدال.

وبعد ما لاح عظم شأن القرآن، ورفعة قدره، وعلو مكانته ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ [التكويد: 26] تعدلون وتنصرفون عن جادة العدالة الإلهية أيها الضالون المضلون؟.

﴿إِنْ هُوَ﴾ أي: ما هذا القرآن العظيم ﴿إِلَّا ذِكْرٌ﴾ عظة كبيرة ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ [التكويد: 27] أي: لعموم من جُبل على فطرة التذكر، وقابلية الإرشاد والتكميل.

﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾ [التكويد: 28] أي: عظة وتذكير لمن قصد الاستقامة على صراط العدالة الإلهية، تذكر به واتعظ؛ لإرشاده وهدايته.

﴿وَ﴾ غاية ما في الباب: إنه ﴿مَا تَشَاءُونَ﴾ وتختارون طريق الهداية والرشاد لأنفسكم ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ هدايتكم، ويوفقكم على الاستقامة والرشاد عنايةً منه وفضلاً؛ إذ عموم أفعالكم إنما هي مستندة إلى الله، صادرة منه سبحانه أصالة؛ إذ هو سبحانه ﴿رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكويد: 29] لا مربى في الوجود سواه، ولا مدبر في الشهود إلا هو، ومقتضى تربيته وتكميله: إرشاد عباده وتوفيقهم إلى ما هو أصلح لهم، واليق بحالهم.

وفقنا بفضلك وجودك بما تحب وترضى أنت عنا يا مولانا.

خاتمة السورة

عليك أيها الطالب لتوفيق الحق، وتربيته على الوجه الأصلى الألى أن تفوض عموم أمورك، وأعمالك وأحوالك كلها إلى مشيئة الله، وتسلمها إليه سبحانه طوعاً وربةً بلا توهم تخير واختيار منك، وإرادة جزئية أو كلية؛ إذ ليس لك من الأمر شيء، بل الأمور الجارية كلها لله، وبمقتضى تقديره وقضائه، وليس لك إلا التسليم والرضا بجميع ما جرى عليك من القضاء.

ولياك إياك الاغترار بحياة الدنيا، الفرار الفرار، وما فيها من المزخرفات الخداعة المكارة، فإنها دار العتو والاعتبار، لا منزل الإقامة والقرار، واللائق بحال الفطن الذكى ألا يتمكن فيها إلا على وجه الضرورة والاضطرار، لا على سبيل الرضا والاختيار.

جعلنا الله ممن تنبه ببطلان الدنيا الدنية وعموم ما فيها، وعدم ثباتها وقرارها.

سورة الانفطار

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فاتحة سورة الانفطار

لا يخفى على من لاح عليه أثر القدرة العالية الإلهية، وانكشفت دونه غناه سبحانه في ذاته عن عموم مظاهره ومصنوعاته أن جميع ما ظهر وبطن غيبًا وشهادةً إنما هو محكوم كلمة المحكم، وقضائه المبرم، له أن يتصرف فيها ويقلبها كيف يشاء إرادة واختيارًا، لكنها مرهونة بأوقات، ومسبوبة بأمارات مقدرة من عنده سبحانه.

ومن تلك العلامات ما ذكر سبحانه في هذه السورة بعدما تيمن: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ الذي ظهر على ما ظهر وبطن حسب قدرته الغالبة ﴿الرَّحْمَنِ﴾ على عموم مظاهره بإعطاء الوجودات الإضافية ﴿الرَّحِيمِ﴾ عليها بخلعها عنها عند ظهور الوحدة الذاتية على صرافتها.

﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ ① ﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ﴾ ② ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾ ③ ﴿وَإِذَا الْقُبُورُ بُعِثَتْ﴾ ④ ﴿عِلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ ⑤ ﴿يَأْتِيهَا الْإِنْسُنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ ⑥ ﴿الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ﴾ ⑦ ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ ⑧ [الانفطار: 1-8].

﴿إِذَا السَّمَاءُ﴾ المعبر بها عن العلويات المتأثرات عن الأسماء والصفات الإلهية ﴿انْفَطَرَتْ﴾ [الانفطار: 1] انشقت وانخرقت، ولم يبق قابليتها للتأثر والاستمداد من الأسماء والصفات.

﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ﴾ التي تعينت عليها بالهويات، وتكثرت بالهياكل والماهيات ﴿انْتَثَرَتْ﴾ [الانفطار: 2] وتفرقت أوضاعها، وتلاشت أشكالها وهيئاتها.

﴿وَإِذَا الْبِحَارُ﴾ المستحدثة من صعود الأمواج المتراكمة، المترادفة على بحر الوجود، واتصف كل واحد منها بالصفات المتنوعة، مثل الغيب والشهادة، والأولى والأخرى، إلى غير ذلك من العوالم التي لا تُعد ولا تُحصى ﴿فُجِّرَتْ﴾ [الانفطار: 3] انفجرت وانفتحت بعضها على بعض، وارتفعت صور الأمواج، واتصل الكل فصار

بحرًا واحدًا وحدانيًا على ما كان أولاً وأبدًا.

﴿وَإِذَا الْقُبُورُ﴾ المدرسة المتكسة التي لم يبق في أجوافها شيء من أمارات عالم الناسوت ﴿بُغِثَتْ﴾ [الانفطار: 4] قلبت وبحثرت، وخرج من مطاويها ما فيها من حصة عالم اللاهوت.

﴿عَلِمَتْ﴾ يومئذ ﴿نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ﴾ في نشأة الاختبار والاعتبار من صوالح الأعمال، ومحاسن الأخلاق والأطوار ﴿وَأَخْرَتْ﴾ [الانفطار: 5] أهملت وتركت فيها منها.

ثم نادى سبحانه مظهر الإنسان، المصور بصورة الرحمن بدءاً معاتباً وتخجيلاً على ما عرض عليه من الغفلة والنسيان، مع أنه جُبل على فطرة التوحيد والعرفان، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ﴾ المنعم عليك بأنواع الإنعام والإحسان ﴿مَّا غَرَّكَ﴾ أي: أي شيء خدعك ومكر بك حتى جبرك على الكفر والعصيان ﴿بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ [الانفطار: 6] ١٩

﴿الَّذِي خَلَقَكَ﴾ أوجدك وصورك في أحسن تقويم ﴿فَسَوَّاكَ﴾ أي: سوى أعضائك وجوارحك سليمة عن مطلق العيوب.

﴿فَعَدَّلَكَ﴾ [الانفطار: 7] أي: جعلك معتدل المزاج، متناسب الأعضاء، مطبوع الهيكل.

وبالجملة: ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار: 8] يعني: في أي صورة بديعة عجيبة، ممتازة عن صور عموم الحيوانات تعلق بها مشيئته وإرادته ركبك عليها، أي: انتخب صورتك من صور جميع المظاهر فركبك عليها.

قيل للفضيل بن عياض - قُدِّس سره -: لو أقامك الله تعالى يوم القيامة، وقال: يا فضيل ما غرَّك بربك الكريم، ماذا كنت تقول؟ فقال: أقول: غرني ستورك المرخاة.

وقال يحيى بن معاذ - قُدِّس سره -: لو أقامني سبحانه بين يديه، فقال: يا يحيى ما غرَّك بي؟ قلت: غرني برك بي سالفاً وآتفاً.

وقال أبو بكر الوراق - قُدِّس سره -: لو قال لي: ما غرَّك بربك الكريم؟ لقلت: كرم ربي الكريم.

وأنا الفقير الحقير، خادم الفقراء وتراب أقدامهم، أقول لو قال لي ربي: ما غرَّك بربك؟ لقلت: كفالتك بي، وكونك سفعي وبصري، وعموم قواي ومشاهري، يا ربي.

﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالذِّينِ﴾ ٩ ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ﴾ ١٠ ﴿كِرَامًا كُنُيِينَ﴾ ١١ ﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ ١٢ ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ ١٣ ﴿وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ ١٤ ﴿يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الذِّينِ﴾ ١٥ ﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ﴾ ١٦ ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الذِّينِ﴾ ١٧ ﴿ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الذِّينِ﴾ ١٨ ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ ١٩ ﴿[الانفطار: 9-19].

ثم قال سبحانه: ﴿كَلَّا﴾ ردعًا للإنسان عن الغفلة والاعتذار بإيراد الأعذار الكاذبة ﴿بَلْ تُكَذِّبُونَ﴾ أيها المفترون المسرفون ﴿بِالذِّينِ﴾ [الانفطار: 9] وترتب الجزاء على أعمالكم وأخلاقكم حسناتها وسيئاتها؛ لذلك اغتررتم بالحياة المستعارة، وفعلتم ما فعلتم من المفسد والمقابع بشدة الإنكار والإصرار، بلا مبالاة وخشية من القدير العليم.

﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ﴾ من قبل الحق ﴿لَحَافِظِينَ﴾⁽¹⁾ [الانفطار: 10] رقباء من الملائكة يحفظون عليكم أعمالكم على التفصيل الذي صدر عنكم. ﴿كِرَامًا﴾ في حفظها، أمناء لا يزيدون عليها، ولا ينقصون منها؛ لكونهم ﴿كَاتِبِينَ﴾ [الانفطار: 11] مثبتين في صحف أعمالكم.

﴿يَعْلَمُونَ﴾ منكم جميع ﴿مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: 12] فيقررون عليكم وقت حسابكم، ثم تجازون على مقتضاها.

﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ﴾ البارين المبرورين ﴿لَفِي نَعِيمٍ﴾ [الانفطار: 13] ومسرة دائمة، وفوز عظيم.

﴿وَإِنَّ الْفُجَّارَ﴾ المسرفين المفترين ﴿لَفِي جَحِيمٍ﴾ [الانفطار: 14] معذبين بعذاب اليم.

﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ ويدخلون فيها ﴿يَوْمَ الذِّينِ﴾ [الانفطار: 15] والجزاء

(1) لأن بذور البر إذا زرعت خرجت النعيم، وبذور الفجور إذا زرعت أبرزت الجحيم، وإنكم اليوم في الزراعة لأن الدنيا مزرعة الآخرة، وغداً في الحصاد فكل أحد يحصد ما يزرع، فالمعجب من العاقل أنه يزرع الشوك ويرجو الرطب فليس هذا الغرور إلا من إلقاء الغرور، فاحذر منه وأزرع من مزرعتك خيراً تحصد رغبته ولا تزرع شراً لئلا تحصد ندامته. [عين الحياة].

بعدهما حوسبوا.

﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ﴾ [الانفطار: 16] متحولين مفارقين أبدًا، صاروا فيها خالدين مخلدين.

ثم أبهم ذلك اليوم على السامعين تعظيمًا له، وتفخيماً على سبيل التهويل: ﴿وَمَا أَذْرَاكَ﴾ وأعلمك أيها المغرور ﴿مَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ [الانفطار: 17] وما شأنه، وشدة هوله وقوته؟

﴿ثُمَّ مَا أَذْرَاكَ﴾ يا مغرور ﴿مَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ [الانفطار: 18] وما يجري عليك فيه من الشدائد والأهوال، وأنواع الهموم والأحزان؟

وبالجملة: يوم، وأي يوم ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ﴾ ترفع وتدفع ﴿نَفْسٌ لِنَفْسٍ﴾ حميم لحميم، أو صديق لصديق ﴿شَيْثًا﴾ مما حكم عليها واستحق بها من الجزاء، بل كل نفس رهينة ما كسبت، مشغولة بما اقترفت، بلا التفات إلى غيرها من شدة هوله وحزنه ﴿وَالْأَمْرُ﴾ أي: أمور العباد وما جرى عليهم من الثواب والعقاب كلها ﴿يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾⁽¹⁾ [الانفطار: 19] مختصة به، موكولة لمشيئته، مفوضة إلى إرادته، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد فضلاً وعدلاً، لا يُسئل عن فعله، إنه حكيم حميد.

(1) قال السمناني: اليوم أيضاً لله، ولكنهم سبب اختيارهم الذي أعطاهم الله محجبون عن المختار الحقيقي الوهاب لكل أحد اختياره، فإذا نزع عنهم الاستعداد وأخذ الاختيار فعرفوا في ذلك الوقت أن ليس لهم اختيار، ولا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا، ولا موتا ولا حياة ولا نشورا، وأقروا أن الأمر بيد الله وهو المرید المختار الفعال لما يريد ولا ينفعهم في ذلك الوقت الإقرار، فالواجب عليك أيها السالك، أن تجتهد في أن تشاهد اليوم مختارته ومضطربته وتعلم أن الأمر كله بيد الله يبطش ويأخذ، ويعطي ويمنع، ويحيي ويميت، يرفع أقواما ويضع آخرين، يعز من يشاء ويذل من يشاء، ويحكم ما يريد، وتلتجئ إلى حضرته بالتمسك والعجز ليرحمك إن شاء الله، ولا يمكن هذا إلا بترك اختيارك وتسليمك إلى شيخك، ليوصلك إلى الاختيارية الحقيقية إن شاء الله، ولأجل هذا السر يحتاج إلى بشر مثلك، لينفرك ويبشرك ويهديك إلى ربك، ولأجل هذا تلي على زبدة الكائنات عليه أزكى التحيات وأزكى الصلوات بقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [الكهف: 110] وهذه سنة سنّها الله تعالى ولن تجد لسته تبديلاً، من يرد أن يصل إلى الله؛ فليذ بأذيال متابعة حبيبه، ومن يرد أن يصل إلى حبيبه فليعتصم بحبل ولايته ويشاهد ولايته، فليترك اختياره وإرادته وإلا فلا يلعب بالتوراة إن لم يكن يهوديًا صرفًا، والله إن منادي الحق ينادي دائما من الصباح إلى الزواجر.

اصنع بنا ما أنت أهل به يا مولانا.

خاتمة السورة

عليك أيها المترقب بفضل الحق ولطفه في يوم الجزاء أن تفوض أمورك كلها إلى الله في نشأتك هذه، وتقوم بين يدي الله في كل الأحوال، وتنخلع عن مقتضيات ناسوتك في عموم الشئون والأطوار الطارئة عليكم على تعاقب الأدوار في مدة حياتك المستعارة.

ولياك إياك الاغترار بخداع هذه الغدارة المكاراة، فاعتبر من أهل هذه الدار إن كنت من ذوي العبرة والابتبصار، فاعبر عنها، فإنها ما هي دار القرار، بل منزل الخبرة والاعتبار ﴿فَاغْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ﴾ [الحشر: 2].

سورة المطففين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فاتحة سورة المطففين

لا يخفى على من تمكن في جادة العدالة الإلهية، ورسخ قدم عزمه وهمته على صراط الاستقامة الحقية، الموصلة إلى ينبوع بحر الوحدة الذاتية أن الانحراف والميل عن مقتضى القسط والإنصاف الإلهي إنما هو من طغيان القوى البهيمية، واستيلاء شياطين الأمانة على جنوده المطمثنة، وغلبة مقتضيات لوازم الإمكان، ولو احق الطبيعة المورث لأنواع الخذلان والخسران.

ولاشك أن طريان هذه الخصال المذمومة إنما نشأ من متابعة الهوى، والركون إلى مزخرفات الدنيا، ومن جعلتها: البخس والتطفيف في المكايل والموازن الموضوعية؛ لحفظ الاعتدال؛ ولمراعاة الاتصاف والانتصاف بين المسلمين، من عدل عنها مفرطاً أو مفرطاً فقد استحق الويل الأبدي، والهلاك السرمدي، كما قال سبحانه متيمناً باسمه: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ المستوي على صراط العدالة والتقويم ﴿الرَّحْمَنِ﴾ لعموم عبادته بوضع القسطاس المستقيم القويم ﴿الرَّحِيمِ﴾ لخواصهم، يهديهم إلى صراط مستقيم.

﴿وَبَلِّغْ لِلْمُطَفِّفِينَ ۝١ الَّذِينَ إِذَا أَكْمَلُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٦﴾
﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَارِ لَفِي سِجِّينٍ ۝٧ وَمَا أَتَرِكُ مَا يَمْحُونَ ۝٨ كِتَابَ مَرْقُومٍ ۝٩﴾ [المطففين: 1-9].

﴿وَنَزَّلْ﴾ عظيم، وعذاب أليم ﴿لِلْمُطَفِّفِينَ﴾ [المطففين: 1] الذين ينقصون المكيال والميزان، ويبخسون حقوق الناس، سئاهم سبحانه مطففين؛ لأنهم يسرقون من الحقوق طفيفاً حقيراً على وجه الدناءة والخساسة، وهو لمن أخس الأفعال الذميمة، وأدناها وأخبثها.

في الحديث - صلوات الله وسلامه على قائله :- «ما نقض العهد قوم إلا سلط الله عليهم عدوهم، وما حكموا بغير ما أنزل الله إلا فشا فيهم الفقر، وما ظهرت فيهم الفاحشة إلا فشا فيهم الموت، ولا طففوا الكيل إلا منعوا النبات، وأخذوا بالسنين، ولا منعوا الزكاة إلا حبس عليهم القطر»⁽¹⁾، وهم ﴿الَّذِينَ إِذَا أَكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ﴾ أي: أخذوا منهم لأنفسهم ﴿يَشْتَوُونَ﴾ [المطففين: 2] ويزيدون على المكيال قليلاً قليلاً ترجيحاً لأنفسهم عليهم.

﴿وَإِذَا كَالُواهُمْ﴾ أي: للناس ﴿أَوْ وَزَنُواهُمْ﴾ لأجلهم ﴿يُخْسِرُونَ﴾⁽²⁾ [المطففين: 3] يُنقصون منه قليلاً قليلاً ترجيحاً لغبطتهم عليهم، مع أن الكيل والوزن إنما هو للتسوية والتعديل.

ثم قال سبحانه على وجه التعجب والتشنيع: ﴿أَلَا يَظُنُّ﴾ بل يستيقن ﴿أُولَئِكَ﴾ المسرفون المفرطون بارتكاب هذه الخصلة الذميمة ﴿أَنَّهُمْ مُّبْعُوثُونَ﴾ [المطففين: 4]؟ ﴿لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [المطففين: 5] لعظم ما فيه من الشدائد والأحوال، وأنواع الأفزع والأحزان، سيما على أهل العصيان؛ إذ يفتضحون على رؤوس الأشهاد.

﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ﴾ بأجمعهم؛ لأجل العرض ﴿لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين: 6] ليحكم عليهم سبحانه على مقتضى السؤال والحساب، إما بالجنة وإما بالنار.

ثم قال سبحانه: ﴿كَلَّا﴾ ردعاً للمطففين بفجورهم، وخروجهم عن مقتضى العدالة الإلهية الموضوعة فيما بينهم بالقسط؛ يعني: كيف يخرجون عن مقتضاها ﴿إِنْ كِتَابَ الْفُجَارِ﴾ أي: ثبت فيه تفاصيل أعمالهم وأفعالهم، وأخلاقهم وأطوارهم المذمومة كلها مضبوطة محفوظة فيه، محكوم عليهم من قبل الحق بمقتضى ما في كتبهم أنهم

(1) ذكره البيضاوي في «تفسيره» (379/5).

(2) قال علاء الدولة: يعني: يكيلون على الحفظة أعمالهم الناقصة، ويزنون حظوظ القوى من القوى السفلية في التفكير في آلاء الله ونعمائه، والاعتبار بما في عالم الآفاق، واستماع المواعظ بوزن خاسر، ويستوفون حظوظها من القوى العلوية من الحياة والعقل وغيرهما مما نكب بها نفسها بالحظوظ العاجلة على وفق سواها، ولولاها لكانت مثل البهائم في جذب النافع ودفع المضار عن نفسه، وخسران وزنهم يرجع إلى أعمالهم الباطنة مثل: الحضور، والإخلاص، والصدق، والنية، والتوجه وأمثالها، وخسران كيلهم يرجع إلى الأعمال التي تتعلق بالحواس الظاهرة مثل: أركان الصلاة، والإمساك والشرب، وإيتاء الزكاة وأشبهها.

﴿لَفِي سَجِينٍ﴾ [المطففين: 7] أي: مقرهم في الدرك الأسفل من النار؟
ثم أبهمه سبحانه تهويلاً وتفخيماً فقال: ﴿وَمَا أَذْرَاكَ﴾ أيها المسرف المفرط ﴿وَمَا سَجِينٌ﴾ [المطففين: 8] ما لم تقع فيه، ولم تذق من عذابه ونكاله؟
وبالجملة: كتاب الفجار ﴿كِتَابٌ مَرْقُومٌ﴾ [المطففين: 9] مسطور بين الرقوم والرسوم، يعرفه من نظر إليه ألا خير فيه، ولا نفع في ضمنه، بل إنما هو مشعر بأنواع العذاب والعقاب.

﴿وَقَدْ يَوْمَهُدٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١٠﴾ الَّذِينَ يَكْذِبُونَ يَوْمَ الدِّينِ ۝١١ ﴿وَمَا يَكْذِبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢﴾
إِذَا نُنَازِلُ عَلَيْهِ السَّيِّئَاتُ ۝١٣ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝١٤ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَهُدٍ لَّمْ حَاجِبُونَ ۝١٥ ثُمَّ لَمْ يَلْمِزُوكَ لِجِئِكَ بِهِنَّ ۝١٦ ثُمَّ قَالَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ۝١٧﴾ [المطففين: 10-17].

وبالجملة: ﴿وَقَدْ يَوْمَهُدٍ﴾ عظيم ﴿يَوْمَهُدٍ﴾ أي: يوم أعطي ذلك الكتاب ﴿لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المطففين: 10] له في النشأة الأولى، وبواسطة تكذيبهم وإنكارهم به يرتكبون من الجرائم والمعاصي ما لا يعد ولا يحصى.

يعني: وهم ﴿الَّذِينَ يَكْذِبُونَ يَوْمَ الدِّينِ﴾ [المطففين: 11] والجزاء بجميع الأمور الأخروية من السؤال والحساب، وإعطاء الكتب وسائر المعتقدات.

﴿وَمَا يَكْذِبُ بِهِ﴾ سيما بعد نزول الآيات القاطعة، والبراهين الساطعة من قِبَلِ الحق بالحق على أهل الحق ﴿إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ﴾ متجاوز عن الحد في الإفراط والغلو، منكر لكمال قدرة الله وإحاطة علمه، حتى أنكر القدرة على الإعادة، مع أن الإبداء الإبداعي مقدور قدرته الغالبة أيضاً ﴿أَثِيمٍ﴾ [المطففين: 12] مبالغ في الجهل والغفلة بارتكاب الشهوات، المعمية لقلوب بصائره عن إدراك آيات القدرة الغالبة الإلهية، الفانية للحصر والإحصاء.

مع أن كل واحدة من تلك الآثار دليل مستقل على الإعادة عند المتأمل المنصف، إلا أن المنكر مكابر عن مقتضى عقله، وما أجراه وأغراه على الإنكار والإصرار إلا شياطين الأوهام والخيالات المورثة له من إلف الطبيعة، ورسوخ العادات المبنية على التقليدات الراسخة، المتقررة في قلوب أصحاب الغفلة والضلال.

لذلك ﴿إِذَا تُلِي﴾ وتقرأ ﴿عَلَيْهِ آيَاتُنَا﴾ الدالة على كمال قدرتنا واختيارنا، واستقلالنا في عموم المرادات والتصرفات الواقعة في ملكنا وملكوتنا ﴿قَالَ﴾ من فرط جهله، ونهاية غفلته وإعراضه عن الحق وأهله: ما هي إلا ﴿أَصَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [المطففين: 13] أي: أكاذيبهم المسطورة في دواوينهم.

ثم قال سبحانه: ﴿كَلَّا﴾ ردعاً له عن هذا الافتراء والمراء على سبيل الإنكار والاستهزاء؛ يعني: ما هذه الآيات البينات من المفتريات، كما زعمها أولئك البغاة الطغاة الهالكين في تيه البغي والطغيان، والغى والعدوان ﴿بَلْ رَانَ﴾ يعني: حدث في نفوسهم رين الغفلة، وصدأ الجهل والضلال، وازداد وغلب حتى علا وأحاط ﴿عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ فكسفها وكدرها إلى حيث أظلمها وأسودها، ولم يبق فيها لمعة من بياض نور الإيمان، وما ذلك إلا بسبب ﴿مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: 14] من المعاصي، والشهوات المذهبة لجودة الفطرة الأصلية، والفطنة الجبلية التي فطروا عليها في أصل الخلقة.

ثم قال سبحانه: ﴿كَلَّا﴾ ردعاً لهم عن اقتراف الرين المصدئ لقلوبهم، كيف يكسبونه، مع أنهم جبلوا على فطرة الإيمان والتوحيد ﴿إِنَّهُمْ﴾ أي: أولئك المفسدون المسرفون ﴿عَنْ رَبِّهِمْ﴾ الذي رباهم لمصلحة المعرفة والإيمان ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يوم اقتراف المعاصي الرائنة ﴿لَمَخْجُوبُونَ﴾ [المطففين: 15] ⁽¹⁾ عن الله، وظهور نوره اللامع في صفائح الأنفس والآفاق، مع أنه لا سترة له سبحانه، ولا حجاب في حال من الأحوال، إلا أن خفافيش بقعة الإمكان لا يرون شمس ذاته اللامعة بواسطة غيوم هوياتهم الباطلة، وتعيناتهم العاطلة.

﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ﴾ بعدما حجبوا عن الله، وحرموا عن مطالعة وجهه الكريم ﴿لَصَالُوا﴾

(1) لا يقتضي الحجاب مطلقاً، فإنه يُقَيَّدُ بيوم القيامة، فقد ينكشف عنهم عماهم، وإن كان ذلك دون انكشاف بصائر أهل النعيم؛ لأن محل أهل النعيم؛ وهو الجنة، وكذا أبدانهم لطيف قابل لكل نور ذاتي، ونعيم صفاتي، وأما محل أهل الجحيم؛ وهو النار، وكذا أجسامهم، فكثيف ليس بمقابل لذلك، فليس لهم نعيم صفاتي أصلاً من المطعم، والمشرب، والمنكح ونحوها، وأما النعيم الذاتي فبقدر تصفية ذاتهم وصفاتهم؛ وإنما قلنا النعيم الذاتي من طريق المشاكلة، وإلا فلا نعيم هناك أصلاً؛ لأنه عالم الفناء عن الحس، وليس عنده ذوق، ويرد وسلام فاعرفه، واجتهد أن تكون من الدين أبيضت وجوههم في جميع العوالم، فإن النور الدائم لا يلحقه الظلمة.

الْجَحِيمِ ﴿المطففين: 16﴾ أي: داخلوها وخالدون فيها أبدًا.

﴿ثُمَّ يُقَالُ﴾ لهم تعبيرًا وتشديدًا لعذابه من قِبَلِ الحق حيثُ: ﴿هَذَا﴾ العذاب هو العذاب ﴿الَّذِي كُتِبَ بِهِ تَكَذِّبُونَ﴾ [المطففين: 17] مصرون على تكذيبه وإنكاره، بل مستهزئون به متهمون.

﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عَلَيَيْنَ ﴿١٨﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عَلَيُونَ ﴿١٩﴾ كِتَابٌ مُزْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى الْأَرَآئِكِ يَنْظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْمُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَمُهُمْ مِنْهُمُ فِي ذَلِكَ فَلَيْتَنَافَسُ الْمُتَنَفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِنْ أَجْلِهُ مِنَ النَّعِيمِ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [المطففين: 18-28].

ثم كرر سبحانه لفظة: ﴿كَلَّا﴾ ردعًا لهم بعد ردع، تأكيدًا وتقريعًا، وليكون توطئة وتمهيدًا لتعقيب وعيدهم بوعده المؤمنين، مع أن في هذا التعقيب زيادة زجر وتقريع عليهم بما اقترفوا من الآثام والعصيان، المؤدية إلى دار الندامة والحرمان ﴿إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ﴾ أي: ما كتب فيه عموم آثارهم الصالحة، الصادرة عنهم إيمانًا واحتسابًا، ثقةً بالله، وخوفًا من غضبه، محفوظة فيه جميع ما ذكر، محكوم عليهم بمقتضى ما فيه، إنهم ﴿لَفِي عَلَيَيْنَ﴾ [المطففين: 18] أي: متمكنون في أعلى درجات الجنة، وأرفع مقاماتها. ثم أبهمه سبحانه تعظيمًا وتفخيماً فقال: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾ أيها البار المبرور ﴿مَا عَلَيُونَ﴾ [المطففين: 19] وما شأنه الرفيع، ومكانته البديعة، وما فيها من اللذات الروحانية التي من لم يذوقها لم يعرفها!

رزقنا الله الوصول إليها، والحصول دونها.

وبالجملة: كتاب الأبرار ﴿كِتَابٌ مُزْقُومٌ﴾ [المطففين: 20] بين الرقم والرسوم.

﴿يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [المطففين: 21] أي: أرباب العناية والتوفيق، فيعلمون أن ما فيه خير كله بمجرد رؤيتهم وشهودهم في بادئ النظر.

وبالجملة: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ﴾ البارين على الله، المبرورين بين الناس ﴿لَفِي نَعِيمٍ﴾ [المطففين: 22] مقيم.

متكئين ﴿عَلَى الْأَرَآئِكِ﴾ المصورة من صالحات أعمالهم، وصفاء عقائدهم وأخلاقهم ﴿يَنْظُرُونَ﴾ [المطففين: 23] إلى ما يسرهم ويفرحهم من الصور الخسنة،

والمتزهات البديعة.

بحيث ﴿تَعْرِفُ﴾ أيها الرائي ﴿فِي وَجْهِهِمْ﴾ في بادئ الرأي ﴿نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾ [المطففين: 24] بهجة الشعم، وبرق الرضا والتسليم.

ومع ذلك ﴿يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ﴾ خمر من خمور المحبة والولاء ﴿مُخْتَوِمٍ﴾ [المطففين: 25] مطبوع على غيرهم، بحيث لا يشمون روائحها أصلاً.

﴿خِتَامُهُ مِسْكٌ﴾ أي: روائحها الواصله لهم من قبل كشفهم عنه ختامه كالمسك، بلا كراهة وبشاعة، كخمور الدنيا ﴿وَفِي ذَلِكَ﴾ أي: في رحيق التحقيق، وكأس المحبة والتصديق ﴿فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: 26] أي: فليرغب الراغبون؛ لنفاسته وسرعة سوغه وانحداره، وكمال لذته وذوقه.

﴿وَمَزَاجُهُ﴾ أي: ما يخرج به، ويخلط من ماء المعارف والحقائق منتشياً ﴿مِنْ تَنْنِيمٍ﴾ [المطففين: 27] مقام عال، وهو ينبوع بحر الوجود الذي هو الوحدة الذاتية الإلهية.

فكان ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾ [المطففين: 28] أي: يشرب من عذبتها وفراتها من تقرب نحو الحق باليقين الحقيقي، فإنهم يشربون من عين الوحدة بلا مزج وخلط.

ذقنا حلاوة نعيمك، وبرد يقينك، وشربة تسنيمك يا خير الرازقين.

﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ﴾ ٢٩ ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾ ٣٠ ﴿وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ﴾ ٣١ ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ﴾ ٣٢ ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَفِظِينَ﴾ ٣٣ ﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ ٣٤ ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ﴾ ٣٥ ﴿هَلْ تُوِبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ ٣٦ [المطففين: 29-36].

﴿إِنَّ﴾ المشركين المسرفين ﴿الَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾ بالجرائم العظام الموجبة لأنواع الانتقام، من جملتها: إنهم ﴿كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ﴾ [المطففين: 29] ويستهزئون بفقراء المؤمنين.

﴿وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ﴾ متهمين ﴿يَتَغَامَزُونَ﴾ [المطففين: 30] أي: يغمز بعضهم بعضهم، ويشيرون بأعينهم كبراً عليهم وخيلاً.

﴿وَإِذَا انْقَلَبُوا﴾ ورجعوا ﴿إِلَىٰ أَهْلِهِمْ﴾ وأماكنهم وإخوانهم ﴿انْقَلَبُوا﴾ وصاروا ﴿فَكِهِينَ﴾ [المطففين: 31] متلذذين متهكمين بما رأوا من شيم المؤمنين من صلاتهم وخشوعهم فيها، وتضرعهم واستكانتهم، وتواضعهم مع إخوانهم.

﴿وَهُمْ﴾ هم من شدة شكيمتهم وغيظهم ﴿إِذَا﴾ مروا ﴿زَأَوْهُمْ﴾ أي: المؤمنين ﴿قَالُوا﴾ متهكمين: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ﴾ السفلة المستحسنين ﴿لَضَالُّونَ﴾ [المطففين: 32] منحرفون عن مقتضى الرشد والهداية بمتابعة هذا المجنون؛ يعنون: الرسول ﷺ.

﴿وَهُمْ﴾ هم يقولون هكذا من كمال ضلالهم في أنفسهم، بل من حسدهم عليهم، مع أنهم ﴿مَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ﴾ أي: على المؤمنين ﴿خَافِظِينَ﴾ [المطففين: 33] يحفظون عليهم أعمالهم، ويشهدون بهدايتهم وضلالهم، بل الأمر بالعكس.

﴿فَالْيَوْمَ﴾ أي: اليوم الموعود المعهود الذي هو يوم القيامة ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله، وصدقوا بالآخرة، وبجميع الأمور الموعودة فيها ﴿مِنَ الْكُفَّارِ﴾ المصرين على العناد والإنكار ﴿يَضْحَكُونَ﴾ [المطففين: 34] أي: يضحك المؤمنون يومئذ عكس ما كانوا عليه في النشأة الأولى؛ إذ يرونهم أذلاء صاغرين، مغلولين في نار القطيعة، معذبين بأنواع المحن.

مع أن المؤمنين حيثئذ متكئين ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ﴾ المعدة لهم جزاء ما يتكلمون على الله، ويتكلمون إلى فضله وإحسانه، مواظبين على أداء المأمورات وترك المنكرات، صابرين على متاعب الطاعات ومشاق التكالييف القالعة لعرق المستلذات الجسمانية، والمشتهيات النفسانية ﴿يَنْظُرُونَ﴾ [المطففين: 35] حيثئذ بنور الإيمان، وصفاء اليقين والعرفان إلى وخامة ما فيه أصحاب الكفر والكفران، ويشكرون بنعمة الإيمان والإحسان.

﴿هَلْ ثَوَّبَ الْكُفَّارُ﴾ وقد جوزوا يومئذ بأسوأ الجزاء؛ بسبب ﴿مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾⁽¹⁾ [المطففين: 36] من الاستهانة والاستهزاء بالمؤمنين، وضحكهم بأعمالهم، وتغامزهم فيما بينهم بعيونهم تهكمًا عليهم.

(1) قال السمناني: يعني: هل جزاء استهزائهم بالمؤمنين إلا هزاء، فعليك يا سالك الطريقة أن تستهزئ بالقوى المجرمة، وشاهد نعمك لتعمل بالنعيم المقيم عملاً صالحاً؛ ليكون غداً من المقرين الشارين رحيق المحبة الممزوجة بنسيم ريق الساقى إن شاء الله تعالى.

جعلنا الله ممن بصره بعيوب نفسه، وأعماه عن عيوب غيره بمَنِّه وجوده.

خاتمة السورة

عليك أيها المحمدي المراقب على تربية النفس، المداوم على تهذيب الأخلاق أن تصفي نفسك عن مطلق الرذائل المنافية لصفاء مشرب التوحيد، وتخلصها عن عموم القيود الإمكانية المتولدة من طغيان الطبيعة، وتُحلِّيها بمحاسن الأخلاق والأطوار المناسبة للفترة الأصلية التي جبلت عليها في مبدأ خلقك، فلك الاتكال على الله، والفرار من على أصحاب الغفلة والضلال.

وإياك إياك أن تخالطهم وتجالس معهم؛ لأن صحبة الأشرار تُميت القلوب، وتؤثر في السر، وتُذهب جودة الفطنة، وتكدر صفاء مشرب الوحدة، وتُزيد الوحشة، وتورث النسيان المستلزم لأنواع الخسران والحرمان.

جعلنا الله ممن أذاقه حلاوة خلوته، وأنسه مع وحدته.

سورة الانشقاق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فاتحة سورة الانشقاق

لا يخفى على من سلك عن مضيق الناسوت نحو فضاء اللاهوت، وتوجه إلى كعبة الوحدة مهاجرًا عن عالم الكثرة أن العود والرجوع إنما هو على مقتضى البدء والظهور، وأن التدلي والارتفاع إنما هو على طبق التدني والانحطاط، فكما نزلت نفس الإنسان، وهبطت روحه في النشأة الأولى من سماء الأسماء المعبر بعالم اللاهوت، المقدس عن شوائب النقص، وسعات الحدوث مطلقًا إلى عالم الطبيعة والهيولي المكثرة بأنواع الكدورات، كذلك صعدت نحوها منها بعدما وفقه الحق، وأدركته العناية من جانبه.

وللصعود والعروج علامات وأوقات قدرها الله العليم الحكيم في سابق علمه، ولوح قضائه، ولم يُطلع أحدًا على وقته، بل أخبر سبحانه في هذه السورة عن بعض علاماته وأماراته فقال بعدما تيمن: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ الذي ظهر على عموم ما ظهر في بدء الوجود بمقتضى الجود ﴿الرَّحْمَنُ﴾ عليها بإمدادها وإبقائها إلى اليوم الموعود ﴿الرَّحِيمُ﴾ على خواص عباده، يوصلهم إلى مرتبة الكشف والشهود.

﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ① وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ② وَإِنَّا الْأَرْضُ مُدَّتْ ③ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَخُلَّتْ ④ وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ⑤ يَتَأَيَّهَا الْإِنْسَنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدًّا فَلَمَّٰلِكِيهِ ⑥ فَأَمَّا مَنْ أُوْقَىٰ كِتَبَهُ يَمِينِهِ ⑦ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ⑧ وَنَقْلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ⑨ وَأَمَّا مَنْ أُوْقَىٰ كِتَبَهُ وِرَاءَ ظَهْرِهِ ⑩ فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا ⑪ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ⑫﴾ [الانشقاق: 1-12].

﴿إِذَا السَّمَاءُ﴾ أي: سماء عالم الطبيعة والأركان ﴿انشَقَّتْ﴾ [الانشقاق: 1] وانخرقت؛ لتصعد وتعرج الأرواح الفائضة إلى الأشباح نحو سماء الأسماء والصفات بعد خرق التعينات، ورفع الإضافات.

﴿وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا﴾ أي: أصغت وانقادت لحكم ربها وأمره الذي مضى على

انشقاقها ﴿و﴾ بعدما أمرت ﴿حُقَّتْ﴾ [الانشقاق: 2] لها، ولاقت بحالها أن امتثلت بالمأمور وانتقادت.

﴿وَإِذَا الْأَرْضُ﴾ أي: أرض الطبيعة والهيولي القابلة المجبولة لانعكاس تأثيرات سماء الأسماء والصفات ﴿مُدَّتْ﴾ [الانشقاق: 3] امتدت وانبسطت لقبول مطاويها. ﴿وَأَلْقَتْ﴾ أخرجت فظهرت ﴿مَا فِيهَا﴾ من التقوى المودعة القابلة لفيضان أنوار الذات ﴿وَتَخَلَّتْ﴾ [الانشقاق: 4] عن حفظ الأمانات الإلهية.

﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا﴾ في الإلقاء والتخلية ﴿وَحُقَّتْ﴾ [الانشقاق: 5] لها للاستئذان والإصغاء، ولاقتضاء مرتبة العبودية ذلك، حينئذ انكشفت لها جزاء ما كسبت واقترفت في نشأة الاختبار.

ثم نادى سبحانه الإنسان نداء تنبيه وتخطية، وتحريك حمية فطرية، وسلسلة جبلية فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ﴾ المصور على صورة الرحمن، المنتخب من بين سائر المظاهر لحكمة الخلافة والنيابة، ومصلحة المعرفة في التوحيد، فاعرف قدرك، ولا تغفل عن حقيقتك ﴿إِنَّكَ كَادِحٌ﴾ ساعٍ للتقرب والتوحيد ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ كَذْحَا﴾ وسعيًا متتهيًا إلى إفناء هويتك في هوية الحق، وبالجمل: ﴿فَمُلَاقِيهِ﴾ [الانشقاق: 6] يعني: أنت ملاقي ربك بمقتضى سعيك واجتهادك، فلك ألا تفرق ما يوصلك إليه، ويفنيك فيه بعد جذب من جانب الحق، وتوفيق من لدنه؛ لتكون من أرياب اليمن والكرامة، الموسومين بأصحاب اليمين، المؤتمنين لهم صحف أعمالهم من قبل إيمانهم التي هي علامة إيمانهم وعرفانهم.

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ﴾ المطوي المشتمل على تفاصيل ما صدر عنه ﴿بِيَمِينِهِ﴾ [الانشقاق: 7] الذي هو عنوان اليمن والكرامة والرضوان.

﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ [الانشقاق: 8] سهلاً سريعاً.

﴿وَيُنْقَلِبُ﴾ ويرجع بعد الحساب ﴿إِلَىٰ أَهْلِهِ﴾ الذي هم رفقاؤه في سبيل السعادة والكرامة ﴿مَسْرُورًا﴾ [الانشقاق: 9] مبسوطاً فرحاناً.

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ﴾ [الانشقاق: 10] الذي هو عنوان الشقاوة، ودليل العتاب والعقاب، وأنواع الملامة والندامة.

﴿فَسَوْفَ يَدْعُو﴾ ويتمنى ﴿ثُبُورًا﴾ [الانشقاق: 11] ويلأ وهلاكاً؛ لصعوبة حسابه،

وغلبة سيئاته على حسناته.

﴿و﴾ بالآخرة ﴿يُضَلَّى﴾ ويطرح صاغراً ذليلاً ﴿سَعِيرًا﴾ [الانشقاق: 12] مسعراً
بنيان الشهوات والغفلات الصادرة منه بمتابعة الأوهام والخيالات، وأنواع الضلال
والجهالات الناشئة من القوى البهيمية الحاصلة من طغيان الطبيعة.

﴿إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا﴾ (١٣) ﴿إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ﴾ (١٤) ﴿بَلْ إِنْ رَيْتَ كَانَ يَدِهِ بَصِيرًا﴾ (١٥) ﴿فَلَا
أَقْسِمُ بِالشَّفَقِ﴾ (١٦) ﴿وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ﴾ (١٧) ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ﴾ (١٨) ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾ (١٩) ﴿فَمَا
لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٢٠) ﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ﴾ (٢١) ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يَكْذِبُونَ﴾ (٢٢) ﴿وَاللَّهُ
أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾ (٢٣) ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (٢٤) ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ (٢٥) [الانشقاق: 13-25].

﴿إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ﴾ في دار الدنيا ﴿مَسْرُورًا﴾ [الانشقاق: 13] بطراً فرحاناً،
فخوراً بالمال والجاه، والثروة والسيادة، متفوقاً على الأقران، يمشي على الأرض
خيلاً.

وإنما حمله عليه ﴿إِنَّهُ ظَنَّ﴾ بل تيقن جهلاً وعناداً ﴿أَنْ لَنْ يَحُورَ﴾ [الانشقاق:
14] أي: لن ينقلب ويرجع إلى الله، ولن يقوم بين يديه سبحانه للحساب والجزاء؛
لذلك اجتراً من المعاصي.

ثم قال سبحانه: ﴿بَلَى﴾ ردعاً عما قبله، وتصديقاً لما بعده على سبيل التعريض
﴿إِنْ رَيْتَ﴾ الذي رباه على فطرة المعرفة، وجبله على نشأة التوحيد ﴿كَانَ بِهِ بَصِيرًا﴾
[الانشقاق: 15] عالماً بتفاصيل أعماله الصادرة عنه على وجه الخبرة والبصارة، بحيث
لا يشذ عن حيلة علمه شيء من أعماله وأحواله، فلا يهمله، بل يعيده ويجازيه.

ثم قال سبحانه: ﴿فَلَا أَقْسِمُ﴾ لإتيان يوم القيامة، وإثبات ما فيها من الثواب
والعقاب، والجزاء والحساب وغير ذلك؛ إذ هي أمور ظاهرة مكشوفة عند ذوي
الكشف والشهود من أرباب المحبة والولاء، الواصلين إلى بحر الوحدة، وينبوع
الحقيقة، بل أقسم ﴿بِالشَّفَقِ﴾ [الانشقاق: 16] المنبئ عن الشفقة والرحم الإلهي، وهو
البياض المعترض من أفق عالم اللاهوت عند انقضاء نشأة الناسوت، حين حكم
سبحانه بانطواء سجلات عموم التعينات والهويات.

﴿وَاللَّيْلِ﴾ أي: أقسم بالليل؛ أي: مرتبة العماء الإلهي ﴿وَمَا وَسَقَ﴾ [الانشقاق: 17] أي: ضم وجمع من الأنوار المنعكسة إليها هياكل الأشباح.

﴿وَالْقَمَرِ﴾ أي: أقسم أيضًا بالقمر؛ أي: الوجود الكلي الإضافي، المنبسط على مرآة العدم المنعكس من شمس الذات الأحدية المتشعشة، المتجلية عن مطلع الفضاء اللاهوتية ﴿إِذَا اتَّسَقَ﴾ [الانشقاق: 18] تم وعمم، وشمل الكل، وصار بدرًا كاملاً بلا نقصان.

﴿لَتَرْكَبُنَّ﴾ أيها المكلفون، ولتطرحن في نار القطيعة والحرمان ﴿طَبَقًا﴾ مجاوزًا ﴿عَنْ طَبَقٍ﴾ [الانشقاق: 19]⁽¹⁾ بعيدًا عنه، متجاوزًا في شدة الأهوال والأقراع، وبعد الغور والطور في الحرقة، وأنواع العذاب والنكال.

وبالجملة: بحق هذه المقسمات العظام لدخلكم في طبقات النيران لو كفرتم بالله وعصيتم أمره، وخرجتم عن مقتضى حدوده وأحكامه.

وبعد ما سمعوا ما سمعوا من الصادق الصدوق ﴿فَمَا لَهُمْ﴾ أي: أي شيء عرض عليهم ولحقهم ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الانشقاق: 20] ولا يتصفون بالانقياد والتسليم، سيما بعد ورود الزواجر والروادع من قبل الحق على السنة الرسل والكتب.

﴿وَلَا يَرْجِعُونَ﴾ من كمال غفلتهم عن الله، وضلالهم عن سنن الهداية والرشاد ﴿إِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ﴾ المبين لطريق الحق، وسبيل الإيمان والعرفان ﴿لَا يَسْجُدُونَ﴾ [الانشقاق: 21] لا يخضعون ولا يتذللون، مع أنه إنما نزل؛ لهدايتهم وإرشادهم عنادًا ومكابرة، فكيف التذلل والخضوع؟

﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يَكْذِبُونَ﴾ [الانشقاق: 22] به ويمتزله، ويمن أنزل إليه جميعًا.

﴿وَلَا يَرْجِعُونَ﴾ بالجملة: ﴿اللَّهُ﴾ المطلع بما في ضمائر عبادته ﴿أَعْلَمُ﴾ بعلمه الحضورى ﴿بِمَا يُوعُونَ﴾ [الانشقاق: 23] أي: بعموم ما يضمرونه في نفوسهم من الكفر والكفران، وأنواع البغي والعدوان، والغفلة والطغيان، يجازيهم على مقتضى علمه بهم، وخبرته بما في نفوسهم.

(1) قال التستري في تفسيره (254/2): باطنها لترفعن درجة فوق درجة في الجنة، ولتحولن من حال إلى حال أشرف منها وأسر، كما كنتم في الدنيا ترفعون من درجة إلى درجة أعلى منها، من طمع وخوف وشوق ومحبة.

وبالجملة: ﴿فَبَشِّرْهُمْ﴾ يا أكمل الرسل بشارة على سبيل التهكم والاستهزاء
 ﴿بِعَذَابِ أَلِيمٍ﴾ [الانشقاق: 24] نازل عليهم حين أخذوا بعصيانهم وآثامهم.
 ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ منهم، وخرجوا عن ورطة الطغيان
 مستمسكين بعروة الإيمان، متشبثين بحبل القرآن ﴿لَهُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿غَيْرُ مَفْثُونٍ﴾⁽¹⁾
 [الانشقاق: 25] أي: غير مقطوع ومنقوص، إن أخلصوا في إيمانهم وإذعانهم.
 اصنع بنا ما أنت به أهل يا مولانا.

خاتمة السورة

عليك أيها الموحد المحمدي، المجبول على فطرة الإيمان والعرفان - مكنك الله
 فيما يسر لك، وثبتك عليه - أن تتمسك بحبل التوفيق الإلهي، وتثبت بأذيال همم
 أرباب التحقيق من الأنبياء والرسل الهادين المهدين، والأولياء الألباء المهتدين
 لهدايتهم؛ إذ هم خلاصة الوجود، وزبدة أرباب الكشف والشهود.
 فلك أن تتخلق بأخلاقهم، وتقتفي بآثارهم الماثورة عنهم، وتسترشد من المرشد
 الرشيد الذي هو القرآن المجيد الموصل لأرباب التوفيق إلى زلال التوحيد، المسقط
 لأنواع التقاليد الراسخة في قلوب أصحاب الغفلة والتخمين.
 فلك أن تتأمل ظاهره وباطنه، وحده ومطلعه؛ حتى تتوصل بها إلى ما فوقها من
 الرموز التي وهبها سبحانه، وجاد بها لبعض النفوس القدسية الفانية في قدس الذات
 الباقية ببقائها.
 جعلنا الله من خدامهم وتراب أقدامهم.

(1) قال علاء الدولة: أي: غير مقطوع ولا منقوص، فعليك أيها السالك أن تخضع لأمر الحق،
 وتصدق الآيات الأنفسية التي تطرأ عليك والقرآن الذي يقرأ عليك لطيفتك السرية، وتؤمن
 بالحق الذي أنزل عليك، وتعمل بما فيه ليكون لك أجراً غير منون.

سورة البروج

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فاتحة سورة البروج

لا يخفى على من تحقق بسماء الأسماء اللاهوتية المشتملة على بروج عالم الجبروت، وقصور مملكة الملكوت الموهوبة لسكانها من حضرة الرحموت أن الوصول إليها والحصول دونها إنما ييسر للمستوحشين عن لوازم الإمكان، ومقتضيات نشأة الناسوت، المستأنسين بسكان عالم اللاهوت، وسواد أعظم الفقر. ولا شك أن الاستئناس معهم إنما يحصل بجذبة غالبة، وخطفة جالبة إلهية، والجذبة الإلهية مسبقة بالمحبة المفرطة، والمودة المزعجة إلى الفناء في المحبوب الحقيقي، والمحبة إنما تنشأ من الشوق الغالب الجالب، والشوق إنما ينبعث من الإرادة والطلب الصادر عن العزيمة المذكورة الخالصة، والعزيمة ما خلصت وصفت عن أكنار الطبيعة إلا بالخلوة والعزلة عن الناس، ودوام العفة والقناعة، ومقارنة الرضا والتسليم، والتفويض والتوكل على وجه التبتل إلى العليم الحكيم. فالكل مسبق برفاقة التوفيق، والتصبر على متاعب الطاعات، ومشاق العبادات والرياضات القالعة لمقتضيات القوى البشرية المورثة من القوى الطبيعية. والمنهمكون في بحر الغفلة والضلال لا ييسر لهم الاستئناس بالكبير المتعال؛ لذلك لعنوا وطردوا عن ساحة عز القبول والحصول على وجه المبالغة والتأكيد، كما قال سبحانه في شأن طردهم ولعنهم مقسمًا بالأمور العظام، متيمناً: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ المتجلي في عموم المجالي بمقتضى أسمائه وصفاته إظهارًا للقدرة الكاملة ﴿الرَّحْمَنُ﴾ لكل تميمًا لتربيته ﴿الرَّحِيمُ﴾ لنوع الإنسان تعظيمًا لحكمته ومصلحته المودعة في نشأته.

﴿وَالسَّمَاءَ ذَاتَ الْبُرُوجِ ١﴾ وَالْيَوْمِ الْوَعْدِ ٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ٣﴾ قِيلَ أَتَسْتَبِ الْأَخْدُودِ ٤﴾ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ٦﴾ وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ٧﴾ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ٨﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ

مَثَى وَشَهِدٌ ﴿١﴾ [البروج: 1-9].

﴿وَالسَّمَاءِ﴾ أي: وحق سماء الأسماء والصفات المتشعبة المتجلية في عالم اللاهوت ﴿ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ [البروج: 1] من النفوس القدسية القابلة لانعكاسها وتشعشعها، المستعدة لفيض أنوارها الذاتية.

﴿وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ﴾ [البروج: 2] للانجلاء الكامل، والانكشاف التام المنعكس عن عالم العماء عند ارتفاع سدل الأسماء والصفات عن البين.

﴿وَوَاحِدٌ﴾ اتحاد ﴿شَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ [البروج: 3] ⁽¹⁾ في العين، إنكم أيها المحجوبون عن الله، المطرودون عن ساحة عز حضوره، الملعونون مردودون عن كنف قربه وجواره؛ يعني: كفار مكة - لعنهم الله - لأن السورة نازلة في تثبيت المؤمنين على أذاهم.

كما ﴿قُتِلَ﴾ ولُعِنَ ﴿أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ﴾ [البروج: 4] الخد: الشق في الأرض وغيرها.

رُوي أنه كان لملك ساحر فكبر، فضم إليه غلامًا؛ ليعلمه، وكان في طريق الغلام

(1) قال المرتجبي: الشاهد هو، والمشهود هو، يرى نفسه؛ إذ لا يراه أحدٌ بالحققة، وأيضًا الشاهد هو، إذا تجلّى بتجلّي الجمال والحسن، والمشهود كله مستحسن جميل بجماله، وأيضًا الشاهد هو، والمشهود قلوب العارفين شاهدا بنعت الكشف، وأيضًا الشاهد قلوب المحبين، ومشهود لقائه هو شاهدهم، وهو مشهودهم هو شاهد العارف والعارف شاهده، قال الواسطي: الشاهد هو، والمشهود الكون لا يقال متى شهدهم، ولا يحدث لله شهادة، فحيث كانت الربوبية كانت العبودية؛ لأنه شهدهم قبل خلقهم علمًا وقدرة ورؤية، وتصريفًا في الإيجاد والإبقاء والإفناء، لم يحدث له في إحداث الخلق أحداث؛ لأنه لا فصل، ولا وصل، والوجود معدوم، والمعدوم موجود لم يحضر أبداً وقته، وأحضرهم أحداث أوقاته، ولما ثبت الشهود بالمشاهدة وجب أنه لم يكن عنده مفقودًا أبدًا، أو يستحيل أن يكون الباري مفقودًا، قال فارس: كلاهما عائد عليه هو الناظر، والمنظور إليه، وهو الشاهد لخلقه، والمشاهد لهم بوجود الإيمان وحقائقه، قال الحسين: في هذه الآية علامة أنه ما انفصل الكون عن المكوّن ولا قاريه، قال سهل: الشاهد نفس الروح، والمشهود نفس الطبع، وقد وقعت لي نكتة في التوحيد: أنه تعالى لم يزل شاهدًا، فلو ثبت مشهودًا غير نفسه من الحدثان، فإذا تقول بقدم الحادث والعلم بوجود المحدثات على الحقيقة كان مشهود الحق إذا كان في علمه علم كينونية المكوّنات، وكيفية وجودها، فإذا وجودها وعدمها سواء في شهود الحق.

راهب يستمع منه كلامًا، فرأى في طريقه يومًا حية حبست الناس، فأخذ الغلام حجرًا فقال: اللهم إن كان الراهب أحب إليك من الساحر فاقتلها، فقتلها، وكان بعد ذلك يرى الأكفم والأبرص، ويشفي المريض، فعمي جليس للملك، فابراه، فأسلم، فسأله الملك: من أبرأك؟ فقال: ربي.

فغضب الملك عليه، فعذبه فدل على الغلام، فعذبه فدل على الراهب، فقده بالمنشار، وذهب بالغلام إلى جبل؛ ليطرح من أعلاه، فرجف بالقوم، فطاحوا ونجا الغلام، فذهب به إلى سفينة؛ ليغرق، فاكفأت السفينة بمن معه ونجا.

وقال الغلام للملك: لست بقاتلي حتى تأخذ سهمًا من كناتي، وتقول: بسم الله رب الغلام، ثم ترميني به، فرماه فقال: بسم الله رب الغلام، فأصاب صدغه، فوضع عليه يده فمات، فأمن الناس.

وقيل للملك: نزل بك ما كنت تحذر، فأمر بحفر أخاديد، فأوقدت فيها النيران، فمن لم يرجع منهم طرحه فيها حتى جاءت امرأة مع صبي رضيع، فتقاعست فقال الرضيع بإلهام الله إياه، مع أنه في غير أوان تكلمه، مثل عيسى النبي - صلوات الله عليه -: يا أمه اصبري، فإنك على الحق، فاقشحت في ﴿النَّارِ﴾ بدل من لفظه: الأخدود، بدل الاشتمال ﴿ذَاتِ الْوُقُودِ﴾ [البروج: 5] والحطب الكثير تهويلًا عليهم بشدة التهابها وسورتها؛ لينزجروا عما اختاروا، ويعودوا عن الإسلام والتوحيد.

ثم لما طرح المؤمنون فيها التهب النار تهابًا شديدًا، وخرجت على أطرافها فأحرقت كثيرًا من صناديد أولئك الظلمة ﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا﴾ وفي أطرافها ﴿قُعُودٌ﴾ [البروج: 6] قاعدون على الكراسي حول النار.

﴿وَهُمْ﴾ أي: رؤساؤهم ﴿عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾ أي: الموكلون ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ من الأخذ والإفناء ﴿شُهُودٌ﴾ [البروج: 7] عدول مشرفون من قِبَل الملك، أمناء من جانبه، أقعدهم حولها؛ لئلا يتهاون الأعونة في إهلاك المؤمنين، وطرحهم في النار.

﴿وَالْعَدُوَانِ﴾ أي: من المؤمنين بهذا الانتقام الصعب الهائل ﴿إِلَّا﴾ أنهم كرهوا منهم، واستكروها عليهم ﴿أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ﴾ الواحد الأحد الصمد، الحي القيوم، الحقيق بالإيمان والإطاعة ﴿الْعَزِيزِ﴾ الغالب القاهر على من دونه من السوى والأغيار مطلقًا ﴿الْحَمِيدِ﴾ [البروج: 8] المستحق لأصناف الأثنية والمحامد استحقاقًا ذاتيًا ووصفيًا.

وكيف لا يكون سبحانه عزيزاً حميداً، مع أنه القادر ﴿الَّذِي لَهُ﴾ وفي حيلة قدرته وإرادته ﴿مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: مظاهر العلويات والسفليات، وما بينهما من الممتزجات ١٩ ﴿و﴾ كيف لا، هو ﴿اللَّهُ﴾ المستقل بالالوهية والوجود ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ لمع عليه برق وجوده ﴿شَهِيدٌ﴾ [البروج: 9] حاضر غير مغيب ١٩

﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾
 ﴿١٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ
 ﴿١١﴾ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُ هُوَ بَدِيعُ وَبْدِئِ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ الْغَفُورُ الْودُودُ ﴿١٤﴾ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ﴿١٥﴾
 فَقَالَ لَمَّا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ هَلْ أُنَبِّئُكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ ﴿١٧﴾ قِرْعُونَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَاللَّهُ
 مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ ﴿٢٠﴾ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ ﴿٢٢﴾ [البروج: 10-22].

وبالجملة: ﴿إِنَّ﴾ المسرفين المفسدين ﴿الَّذِينَ فَتَنُوا﴾ وأحرقوا ﴿الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ ظلماً وعدواناً، كراهة هدايتهم وإيمانهم ﴿ثُمَّ﴾ بعدما فعلوا من الإفراط والإسراف ﴿لَمْ يَتُوبُوا﴾ إلى الله، ولم يرجعوا نحوه سبحانه عن ظلمهم، ولم يستغفروا نادمين ﴿فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾ الطرد والحرمان عن حضور الحثان المئان ﴿وَلَهُمْ﴾ ولحق بهم؛ بسبب كفرهم بالله، وإنكارهم توحيدَه ﴿عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ [البروج: 10] بدل ما فعلوا بالمؤمنين من حرقهم في الأخاديد.

ثم عقب سبحانه وعيدهم بوعده المؤمنين فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بوحدة الحق ﴿و﴾ أكدوا إيمانهم بأن ﴿عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ المقرونة بالإخلاص في النيات ﴿لَهُمْ﴾ عند ربهم جزاء إيمانهم وأعمالهم تفضلاً عليهم ﴿جَنَّاتٍ﴾ منزهات العلم والعين والحق ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ جداول المعارف والحقائق المتشعبة من بحر الحقيقة، وبالجملة: ﴿ذَلِكَ﴾ القول العظيم الشأن، البعيد رفعة ومكانة عن أفهام الأنام هو ﴿الْفَوْزُ الْكَبِيرُ﴾ [البروج: 11] والفضل العظيم الذي لا فوز أعظم منه وأرفع.

ثم أشار سبحانه إلى تهديد أصحاب الضلال، المنحرفين عن جادة الاعتدال، مخاطباً لحبيبه ﷺ فقال: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ﴾ يا أكمل الرسل، وأخذة بالعنف لعصاة عباده المائلين عن سبيل سداده، وجادة رشاده ﴿لَشَدِيدَةٌ﴾ [البروج: 12] بحيث لا يقاس على شدة بطشه، وتضاعف عذابه وانتقامه.

وكيف يقاس على بطشه، ويقاوم مع أخذه ﴿إِنَّهُ﴾ سبحانه ﴿هُوَ﴾ القادر الغالب الذي ﴿يَبْدِئُ﴾ ويظهر عموم المظاهر والموجودات من كتم العدم بالقدرة الغالبة الكاملة، ثم يخفي ويعدم كلها أيضاً بكمال قدرته ﴿وَيُعِيدُ﴾ [البروج: 13] ويخرج عن فضاء الظهور مرة بعد أخرى بمقتضى قدرته واختياره، فكيف يقاوم ويقاس مع قدرته سبحانه هذه؟!

وكيف يطبق أحد أن يقوم بمعارضته - تعالى شأنه أن يعارض حكمه، ويتنازع سلطانه - يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، لا يُسأل عن فعله، إنه حكيم حميد؟! ﴿وَهُوَ﴾ سبحانه بمقتضى سعة جوده ورحمته ﴿الْغَفُورُ﴾ الستار المحاء لذنوب من تاب ورجع نحوه مخلصاً نادماً، وإن كبرت وكثرت، فإن رحمته أوسع منه وأشمل ﴿الْوَدُودُ﴾ [البروج: 14] المحب لإخلاص المذنبين، وتوبة المستغفرين، وضراعة الخائفين المخبتين، المستحيين من الله، النادمين على ما صدر عنهم وقت الغفلة والغرور.

وكيف لا يود ولا يغفر سبحانه، مع أنه ﴿ذُو الْعَرْشِ﴾ المستوي على عروش ما ظهر وبطن بالاستيلاء التام، والاستقلال الكامل ﴿الْمَجِيدُ﴾ [البروج: 15] العظيم في ذاته وصفاته، وأسمائه وأفعاله؛ إذ لا وجود لسواه، ولا كون لغيره.

فظهر أنه ﴿فَعَالٌ﴾ بالاستقلال الاختيار ﴿لَمَّا يُرِيدُ﴾ [البروج: 16]⁽¹⁾ وجميع الأفعال الجارية في ملكه وملكوته صادرة عنه باختياره، وبلا شركة فيها ومظاهرة؛ إذ لا يجري في ملكه إلا ما يشاء بمقتضى علمه الشامل، وحكمته الكاملة، سواء كان إنعاماً أو انتقاماً.

(1) قال القشيري: إن أراد أن يجعل أرباب الأرواح من أرباب النفوس فهو قادر على ذلك، وهو عادل في ذلك، وإن أراد عكس ذلك فهو كذلك فلذا كان العارف لا يزول اضطرابه، ولا يكون مع غير الله قراره، هل أتاك حديث الجنود، أي: جنود النفس التي تُحارب به الروح لتهوي بها إلى الحضيض الأسفل، ثم فترها بفرعون الهوى، وشمود حب الدنيا، والطبع الدني، بل الذين كفروا بطريق الخصوص في تكذيب، لهذا كله، فلا يفرقون بين الروح والنفس، ولا بين الفرق والجمع، والله من وراءهم محيط، لا يفوته شيء، لإحاطة المحيط بالأشياء ذاتاً وصفاتاً وفعلات، بل هو أي: ما يوحى إلى الأسرار الصافية، والأرواح الطاهرة قرآن مجيد في لوح محفوظ عن الخواطر والهواجس الظلمانية، وهو قلب العارف.

ثم أشار سبحانه إلى تسليّة حبيبه ﷺ، وحثه على الصبر بأذيات قومه وتكذيبهم إياه مكابرة فقال: ﴿هَلْ أَتَاكَ﴾ أي: قد أتاك ووصل إليك، وثبت ذلك عندك يا أكمل الرسل بالتواتر ﴿خَدِيثُ الْجُنُودِ﴾ [البروج: 17] أي: أخبار الأمم السالفة، وقصة تكذيبهم للرسل والكتب، وانتقامنا عنهم بعدما بلغ أذيات الرسل غايتها.

يعني: ﴿فِرْعَوْنُ﴾ الطاغى الباغى وملته، كيف كذبوا أخاك موسى الكليم ﷺ، وكيف قصدوا لمقته وهلاكه مرارًا، وكيف انتقمنا عنهم واستأصلناهم ﴿وَتَمُودُ﴾ [البروج: 18] المردود، كيف كذبوا أخاك صالحًا ﷺ، وكيف انتقمنا عنهم، تذكر يا أكمل الرسل قصصهم مع رسلهم، وما جرى عليهم من لدنا، فاصبر على ما أصابك من قومك، فإن ذلك من عزم الأمور، فسننتقم عنهم، مثلما انتقمنا من الأمم السالفة الهالكة.

﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بك وبكتابك ﴿فِي تَكْذِيبٍ﴾ [البروج: 19] أعظم من تكذيب الماضين، إنهم سمعوا قصصهم، وما جرى عليهم بشؤم تكذيبهم فلم يعتبروا، ولم يتزجروا، فسيلحقهم أشد مما لحقهم من العذاب عاجلاً وأجلاً.

﴿وَالْجَمَلَةُ﴾ بالله المطلع لعموم ما جرى في ضمايرهم من الكفر والشقاق ﴿مِنْ وَرَائِهِمْ﴾ أي: وراء هوياتهم الباطلة، وتعيناتهم العاطلة ﴿مُحِيطٌ﴾ [البروج: 20] لهم بالإحاطة الذاتية، بحيث لا يفوت منه سبحانه شيء من جرائمهم وآثامهم، سيجازيهم عليها بمقتضى إحاطته، وهم منكرون إحاطته؛ لذلك ينكرون كتابه الجامع لجميع الكمالات الدنيوية والأخروية، الغيبة والشهادية، ينسبونه إلى الشعر والكهانة، وأنواع التزويرات والمفتريات الباطلة عنادًا ومكابرة، مع أنه لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ﴾ فرقان بين الحق والباطل، والهداية والضلال ﴿مُجِيدٌ﴾ [البروج: 21] عظيم عند الله مبین، مبين لأحكام الدين المستبين.

ثبت ﴿فِي لَوْحٍ مَّخْفُوظٍ﴾ [البروج: 22] هو حضرة العلم الإلهي، ولوح قضائه المصون عن مطلق التحريف والتغيير.

جعلنا الله ممن تنور بنور الإيمان، وانكشف بحقية القرآن الفرقان.

خاتمة السورة

عليك أيها الموحّد المحمدي، المنكشف بحقية القرآن - هداك الله إلى حقيقته -

أن تعتقد إلى أن تنكشف أن مطلق الحوادث الجارية في عالم الكون والفساد، إنما هو مثبت في لوح القضاء المصون عن سمت التبديل والتغير؛ إذ ما يبدل القول والحكم لدى القادر الحكيم العليم.

والتصرفات الواقعة في عالم الملك والملكوت إنما هي مرفوعة مرسومة فيه على وجهها، بحيث لا يشذ شيء منها عنه، والقرآن المجيد منتخب منه، حاوٍ على عموم ما ثبت فيه إجمالاً.

ومن أدركته العناية السرمدية، وجذبه الجذبة الأحدية تفتن من رموز القرآن إلى نور الأسرار والمعارف التي فصلها الحق في لوح قضائه، وحضرة علمه، لكن الواصل إلى هذه المرتبة العلية أقل من القليل.

وبالجملة: فكن راجئاً من الله الجميل، ولا تيأس من روح الله، إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الخاسرون.

سورة الطارق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فاتحة سورة الطارق

لا يخفى على من تحقق بحیطة الحق وحفظه، ورقابته لعموم عباده أن كل ما صدر عن صدر، وعلى أي وجه صدر، فإن الله عليه رقيب عتيد، يحافظه ويراقبه سواء كان خيراً أو شراً، نفعاً أو ضرراً، عملاً أو اعتقاداً، حالاً أو مقاماً.

والسر في ذلك: ألا يغفل العبد عن الله بحال من الأحوال، وشأن من الشئون، وكيف يغفل عنه سبحانه، فإنه مستمد منه سبحانه دائماً في عموم حالاته حسب أنفاسه ولحظاته وخطراته؟!

لذلك أقسم سبحانه؛ لإثبات هذا المطلب العزيز بما أقسم؛ ليكون العبد على ذكر من ربه، وحضور عنده، بحيث لا يغيب عنه لمحة وطرفة؛ حتى لا يصدر عنه ما لا يرضى به سبحانه بمتابعة شياطين القوى الأمارة، فقال سبحانه متيمناً: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ المراقب لأحوال عباده؛ كيلا يوسوس في صدورهم الشيطان ﴿الرَّحْمَنِ﴾ عليهم، يحفظهم عن موجبات الندامة والخذلان ﴿الرَّحِيمِ﴾ لهم، يهديهم إلى طريق الجنان.

﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾ ① وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ② النَّجْمُ الثَّاقِبُ ③ إِنَّ كُلًّا لَفِي سَكَنٍ ④ حَافِظٌ ⑤ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ⑥ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ⑦ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ⑧ إِنَّهُ عَلَى رَجِيمٍ لَقَائِدٌ ⑨ يَوْمَ تَبْلَى التَّرَائِبُ ⑩ قَالَتِ الْمُؤْمِنُ قُوَّةٌ وَلَا تُلَاقِي ⑪ [الطارق: 1-10].

﴿وَالسَّمَاءِ﴾ أي: وحق سماء الأسماء اللاهوتية، المصونة عن مطلق التغير والزوال، المتعالية عن مدارك الهمم ومشاعر الخيال ﴿و﴾ بحق ﴿الطَّارِقِ﴾ [الطارق: 1] الذي يتخطف منها على آحاد الرجال بعدما هاجروا عن بقعة الناسوت متشمرين بالعزيمة الخالصة نحو فضاء اللاهوت بمقتضى الجذب الجبلي، والميل الفطري المعنوي.

ثم أبهمه سبحانه على حبيبه تعظماً وتفخيماً فقال: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾ أيها المظهر

الكامل اللائق لفيضان الطوارق اللاهوتية ﴿مَا الطَّارِقُ﴾ [الطارق: 2] حين كنت مقيداً في عالم الناسوت، وبعدها أطلقك الحق عن قيود عالم الناسوت عرفت أن الطارق الذي يطرقك من عالم اللاهوت والجبروت.

﴿النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾ [الطارق: 3] أي: الجذبة المضئية الأحدية، اللامعة المتشعشة، الناشئة من عالم العماء الذي هو محل كمال الجلاء والانجلاء الذاتي، والجذوة المشتعلة الساقطة من نار العشق والمحبة المفرطة الإلهية إلى شجرة ناسوتك، القائلة لك بعدما أمرك بالانخلاع عن كسوة ناسوتك: ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾ [طه: 12].

واطرح لوازم نشأتك بعدما سمعت ما سمعت يا أكمل الرسل، فاسترح في مقعد صدقك عند ربك ﴿إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى * وَأَنَا اخْتَرْتُكَ﴾ [طه: 13.2] لمظهرية المعارف والحقائق ﴿فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى﴾ [طه: 13] إليك الآيات البينات لمراسم التوحيد واليقين.

وبالجملة: وحق هذين القسمين العظيمين ﴿إِنْ كُلُّ نَفْسٍ﴾ أي: ما كل نفس من النفوس الزكية والخبيثة ﴿لَمَّا﴾ أي: إلا ﴿عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾⁽¹⁾ [الطارق: 4] من قبل الحق، يحفظ لها أقوالها وأفعالها وأحوالها، وحالاتها ومقاماتها؛ حتى لا يدفعها ويسلمها إلى المقادير التي حصل منها، وصدر على طبقها حتى جوزيت على مقتضاها.

وبعدما سمع الإنسان ما سمع من الحكمة العلية الإلهية ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ﴾ المركب من الجهل والنسيان، وليتأمل في منشئه ﴿مِمَّ خُلِقَ﴾ [الطارق: 5] يعني: فليراجع وجدانه، ولينظر مبدأه ومنشأه؛ حتى يظهر له من أي شيء قدر وجوده، فعرف قدره، ولم يتعد طوره.

﴿خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ﴾ مهين مسترذل ﴿ذَاقِقٍ﴾ [الطارق: 6] مدفوق مصبوب في الرحم على وجه التلذذ والاضطراب من كلا الجانبين.

(1) قال السمناني: جواب القسم؛ يعني: ليس كل نفس لما عليها منا حافظ، وحفظتك من هذا القبيل يحفظونك من العاهات الجسمانية والآفات الروحانية، وأنت غافل عن نفسك وعن حفظك وتحسب أنك خلقت للأكل والشرب، والجماع والبهائم ولا تتفكر في خلقك.

مع أنه ﴿يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾ [الطارق: 7] أي: من ظهر الرجل وصدر المرأة.

وبعدما تأمل الإنسان في مبدئه، وعرف أصل منشئه تفطن منه أن وفقه الحق إلى قدرة الصانع العليم، الحكيم الذي خلقه من هاتين الفضلتين الخيشتين، ورباه إلى أن صار بشراً سوياً، قابلاً لفيضان أنواع المعارف والحقائق، لائقاً للخلافة الإلهية، مهبطاً للوحي والإلهام.

وتفطن أيضاً، بل جزم وتيقن أن من قدر على خلقه وإيجاده ابتداءً ﴿إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ﴾ وإعادته وبعثه من القبور ﴿لَقَادِرٌ﴾ [الطارق: 8] ألبته، فكيف ينكر قدرته سبحانه على البعث والحشر، مع أن الإعادة أهون عنده من الإبداء؟

تأملوا أيها المجبولون على فطرة العبرة والتكليف ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ [الطارق: 9] وتكشف الستائر، ويظهر ما خفي في الضمائر من الإنكار والإصرار، وفواسد النيات والأعمال.

﴿فَمَا لَهُ﴾ أي: للإنسان حيثئذ ﴿مِنْ قُوَّةٍ﴾ يدفع عن نفسه ما يترتب على أعماله وأحواله من العذاب والعقاب على وجه الجزاء ﴿وَلَا نَاصِرٍ﴾ [الطارق: 10] يدفعه عنه وينصره؛ إذ كل نفس يومئذ رهينة بما كسبت، مشغولة بجزاء ما جرت خيراً كان أو شراً.

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ﴾ ١١ ﴿وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّنْعِ﴾ ١٢ إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ ١٣ وَمَا هُوَ بِالْمُزِيلِ ١٤ إِنْهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ١٥ وَآكِيذٌ كَيْدًا ١٦ فَمِثْلُ الْكَافِرِينَ أَمْهَلُهُمْ رُوحًا ١٧ [الطارق: 11-17].

ثم أقسم سبحانه بما أقسم؛ لإثبات حقية القرآن وفضله، وكونه بريئاً عن قدح القادحين، وطعن الطاعنين فقال: ﴿وَالسَّمَاءِ﴾ أي: وحق سماء الأسماء اللاهوتية التي هي في أعلى درجات الارتفاع ﴿ذَاتِ الرَّجْعِ﴾ [الطارق: 11] والعود؛ إذ تدور على هياكل عالم الناسوت طرفة، وترجع في الحال، كالبرق الخاطف آثارها إلا لأرباب العناية من البدلاء الذين بذلت لوازم ناسوتهم في المرة بخواص اللاهوت، ولا تدوم وتستقر.

﴿وَالْأَرْضِ﴾ أي: أرض الطبيعة والهيولى القابلة لانعكاس ما لمع عليها من

سماء الأسماء ﴿ذَاتِ الصُّدُوعِ﴾ [الطارق: 12] أي: التأثير والتشقق بقبول أثر مؤثرات عالم اللاهوت.

يعني: وبحق هذين القسمين العظيمين ﴿إِنَّهُ﴾ أي: القرآن ﴿لَقَوْلٌ فَضْلٌ﴾ [الطارق: 13] فاصل بين الحق والباطل، والهداية والضلال.

﴿وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ﴾ [الطارق: 14] كما زعمه المسرفون المفرطون في شأنه، بل هو جدّ كله، صدر عن حكمة بالغة إلهية لمصلحة الهداية والرشاد لعموم العباد، وبالجملّة: ﴿إِنَّهُمْ﴾ يعني: طغاة مكة ﴿يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ [الطارق: 15] ويمكرون مكراً في إبطال القرآن وإطفاء نوره مرء ومكابرة، فيرمونه بأنواع القدح والطعن الفائنض على عموم الأعيان، وينسبونه إلى ما لا يليق بشأنه.

﴿وَأَكِيدُ﴾ أيضاً في أخذهم وانتقامهم بعدما استحقوا الأخذ والانتقام ﴿كَيْدًا﴾ [الطارق: 16] على سبيل الاستدراج والإمهال، بحيث لا يحتسبون، بل يحملون إمهالنا على الإهمال؛ لذلك يغترون ويجترئون في قدحه وطعنه.

وبعدما سمعت ما سمعت يا أكمل الرسل ﴿فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ﴾ أنت أيضاً، ولا تستعجل بانتقامهم، ولا تشتغل بالدعاء عليهم سريعاً؛ إذ إمهالنا إياهم ابتلاء منّا لهم وفتنة جالبة لمصيبة عظيمة، ومتى تحققت يا أكمل الرسل ما قلنا لك ﴿أَمْهِلْهُمْ﴾ وأعرض عن المرء والمجادلة معهم، وانتظر لمقتهم، وترقب لهلاكهم ﴿رُؤُودًا﴾⁽¹⁾ [الطارق: 17] إمهالاً يسيراً في زمان قليل، وسيظهر عن قريب دينك على عموم الأديان، وهم يقهرون ويستأصلون.

جعلنا الله ممن صبر وظفر على مبتغاه بمنه ولطفه.

خاتمة السورة

عليك أيها المتوكل على الحق، المتبتل نحوه بالعزيمة الخالصة أن تفوض عموم

(1) قال علاء الدولة: يعني: أنظر لهم ولا تستعجل؛ لكي يتمتعوا ويلهمهم الأمل فيأخذهم أخذ بفتة، وتعد لهم بما كادوا باللطفية الإرادية عذاباً شديداً؛ وهو عذاب الإطلاع على عرش اللطفية وما أودع الله لصاحبها من النعيم المقيم والملك العظيم في جنة قلبها، ونحشرهم على فوات الاستعداد الذي يمكن تربيتها.

أمورك إلى ربك، بحيث لا يخطر ببالك أن تلتفت إلى تحصيلها باستدراك، وتتخذ كفيلاً حسيباً، كافياً بجميع حوائجك وأشغالك.

وبالجملة: كن فائياً في الله يكفيك جميع مؤنك؛ إذ الكل بالله ومن الله وفي الله، بل أنت ما أنت، بل أنت هو، بل هو هو، لا حول ولا قوة إلا بالله ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: 88].

سورة الأعلى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فاتحة سورة الأعلى

لا يخفى على الموحدين الواصلين إلى مقام التمكين بلا تلعثم وتلوين أن العارف المحقق بعدما وصل إلى مقام الفناء في الله، وحصل دون ذروة التوحيد الذاتي والبقاء السرمدي، لم يبق في عين شهوده سوى الوحدة الذاتية الصرفة، الخالية عن تعدد الأسماء والصفات مطلقاً؛ إذ تلون الأوصاف وتعدد الأسماء من جملة الحجب والغطاء عند أرباب المحبة والولاء، المتحققين بعالم العماء الذي لا يمكن التعبير عنه مطلقاً؛ لاضمحلال الحجب والآلات التي بها يتوسل إلى التعبير والإشارة والرمز والغمز والإيماء.

وبالجملة: لا يسع حينئذ سوى التقديس والتسبيح؛ إذ لا يحتاج المسبح المقدس إلى التوسل مطلقاً؛ لذلك أمر سبحانه حبيبہ ﷺ بعدما وصل إلى القرب والشهود بالتسبيح ولقنه بالتقديس المقارن باسمه الأعلى، لا على وجه الاسمية والإضافة، ولا على وجه الوصفية؛ إذ الاسم والوصف وسائر الاعتبارات لا يسع في ذلك المقام؛ ولا على معنى التفضيل، بل على وجه العجز والقصور عن الإدراك والتغيير والإشارة ومطلق الوسائل المؤدية إلى الإخبار عنه سبحانه؛ إذ كُلت حينئذ ألسنة الاستعدادات عن مطلق الإيماء والإشارات، وانحسرت المدارك والعقول، فصار الكل مبهوئاً حائرًا هائلًا، بل فانيًا مضمحلًا، لم يبق له رسم ولا اسم ولا خبر ولا أثر.

وبعدما وقع ما وقع، فقد وقع أجره على الله بأمره بما أمره بمقتضى حكمته وعلمه حسب إرادته ومشيتته، فقال بعد التيمن: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ المتعالي ذاته عن أحلام الأنام وأفهام الخواص والغوام ﴿الرَّحْمَنِ﴾ لعموم مظاهره، يدعوهم إلى دار السلام ﴿الرَّحِيمِ﴾ لخواصهم، يهديهم إلى أرفع المكانة وأعلى المقام.

﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ ١ ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى﴾ ٢ ﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾ ٣ ﴿وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى﴾

٤ ﴿فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى﴾ ٥ ﴿سَنُقَرِّبُكَ فَلَا تَنسَى﴾ ٦ ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى﴾ ٧

وَنُفِثَ لَكَ الْبَسْمُ ﴿٨﴾ فَذَكِّرْ إِنَّ نَفْعَ الذِّكْرِ ﴿٩﴾ [الأعلى: 1-9].

﴿سُبِّح﴾ يا من غرق في تيار بحر زخار الوجود، وتلاشى في لمعات شمس الشهود ﴿اِسْمُ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾^(١) [الأعلى: 1] وإن لم يبق لك التوسل بمطلق الأسماء، بعدما فنيت في المسمى.

ثم تذكر بمقتضى حصّة عبوديتك نعمه الواصلة إليك بعدما فزت بخلق البقاء، وتذكيرًا استحضارًا لما جرى عليك من الشئون والأطوار في نشأة ناسوتك؛ إذ هو سبحانه القادر ﴿الَّذِي خَلَقَ﴾ وأوجد عموم ما خلق وأظهر ﴿فَسَوَّى﴾ [الأعلى: 2] خلق الكل بحوله وقوته، مع ما يتعلق به، ويترتب عليه في معاشه ومعاده.

﴿وَهُوَ﴾ هو ﴿الَّذِي قَدَّرَ﴾ المقادير ودبر التدابير وأحسن التصاوير وأودع فيها ما أودع من الاستعدادات والقابليات الجالبة لأنواع الكمالات، وبعدما عدلها وهياها ﴿فَهَدَى﴾ [الأعلى: 3] أي: هدى الكل إلى ما جبلوا لأجله بوضع التكاليف المشتملة على الأوامر والنواهي، والأحكام الواجبة والمنذوبة، والأخلاق المرضية والآداب السنية؛ ليطمئنوا على الأمور المذكورة ويترسخوا فيها بالعزيمة الخالصة حتى يفيض عليهم طلائع سلطان الوحدة الذاتية المنقذة لهم عن ورطة الناسوت، الموصلة إلى فضاء اللاهوت.

﴿وَهُوَ﴾ هو سبحانه ﴿الَّذِي أَخْرَجَ﴾ بكمال قدرته ﴿الْمَرْعَى﴾ [الأعلى: 4] أي: أنبت وأظهر المرعى الحاصل في مرتع الدنيا بأجناسها وأنواعها وأصنافها؛ تميمًا لتربية دواب الطباع وحوامل الأركان القابلة لتأثيرات عالم الأسماء والصفات؛ ليتقنوا بها ويستعدوا لفيضان المعارف والحقائق، وأنواع الكمالات اللائقة التي هم جُبلوا لأجلها.

(١) قال علاء الدولة: من أن يجري على لسان ملوث، والاسم الأعلى هو الله، والذكر الأفضل لا إله إلا الله ولأجل هذا السر اختار المشايخ الذين عرفوا الطريق على وجه التحقيق وهم طبقة أستاذ الطريقة الجنيد البغدادي - قدس سره - للسالكين الذين دخلوا في الطريقة، وجاهدوا في تطهير القلب؛ لينزل سلطان ذكر الرب فيه لا إله إلا الله، وإذا ظهرت صورة الذكر صورة لسانك، وظهرت معاني الذكر حقيقة جنانك عرفت الرب وسبحته حق التسييح، وعلمت أنه خالقك من العناصر الأربعة فسواك في أعدل الأمزجة ليصلح أن يكون مركبًا للروح الإضافي، وقدر أقوات القوى الروحانية من نفحات الطاف الرب، وأقوات القوى الجسمانية من تدبيرات السماوية النازلة إلى أرض القلب، وهدى كل قوة إلى قوتها المقدر.

وبعدما حصل لهم ما حصل من الكمالات المنتظرة في نشأة الناسوت ﴿فَجَعَلَهُ﴾ سبحانه مرعى العالم مع كمال نضارتها وبهائها في نظر شهود أولي الأبواب، الناظرين بنور الله من وراء سدل الأسماء والصفات ﴿غُثَاءً﴾ يابسًا، بل سرابًا باطلاً بعدما تحققوا بمقر التوحيد، ورفعوا وسائل الأوصاف والأسماء عن البين، فصار الكل حينئذ هباء ﴿أَخْوَى﴾ [الأعلى: 5] عدماً لا يبقى، أسود موحشاً مظلماً، بعدما كان أخضر مفرحاً.

ثم التفت سبحانه نحو حبيبه ﷺ على سبيل التفضل والامتنان فقال على وجه الوصاية والتذكير: ﴿صُنِّفْتُكَ﴾ ونجعلك قارئاً مراقباً على وجوه الوحي والإلهام النازل من لدنا عليك، مع أنك أُمِّي لم يعهد منك أمثالها ﴿فَلَا تَنْسَى﴾ [الأعلى: 6] يعني: عليك أن تضبط هذه النعمة وتحفظها على وجهها، وتواظب على أداء شكرها بلا فوت شيء منها وزيادة عليها وتحريف فيها.

﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ العليم الحكيم نسيانه منك بأن نسخ تلاوته أو حكمه أو كلاهما على مقتضى حكمته المتقنة المستحكمة ومصلحته، وبعدهما سمعت يا أكمل الرسل ما سمعت قدم عليها، ولا تغفل سرّاً وجهراً، وحالاً ومقالاً عنها ﴿إِنَّهُ﴾ سبحانه ﴿يَعْلَمُ﴾ منك ﴿الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى﴾ [الأعلى: 7] أي: ظاهره وباطنه؛ يعني: ما امتثلت بظاهرك من مقتضيات الوحي والإلهام، وبباطنك من الإخلاص في النيات والحالات والخلوص في العزائم والمقامات.

﴿وَأَعْلَمُ﴾ يا أكمل الرسل أنا بمقتضى عظيم جودنا معك ﴿نُفَيْسُوكَ﴾ ونوفقك على التدين والتحفظ بمقتضيات الوحي ﴿لِلْيُسْرَى﴾ [الأعلى: 8] أي: للطريقة السهلة السمحة البيضاء.

وبعدما يسرنا لك وسهلنا عليك طريق الهداية والإرشاد ﴿فَدَكِّرْ﴾ يعني: عظ بالقرآن وبين الأحكام الموردة فيه للناس ﴿إِنْ نَفَعْتَ الذِّكْرَى﴾ [الأعلى: 9] أي: سواء نفعت عظمتك وتذكيرك إياهم أو لم تنفع؛ إذ ما عليك إلا البلاغ، وعلينا الحساب.

﴿سَيَذَكَّرُ مَنْ يَشَاءُ﴾ ١٠ ﴿وَيَنْجَنِيهَا الْأَشَقَى﴾ ١١ ﴿الَّذِي يَصِلُ النَّارَ الْكُبْرَى﴾ ١٢ ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾ ١٣ ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ ١٤ ﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾ ١٥ ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ ١٦ ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ ١٧ ﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾ ١٨ ﴿صُحُفٍ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾ ١٩ ﴿[الأعلى: 10-19].

ولا تيأس يا أكمل الرسل من مبالغتهم في الإعراض والانصراف عنك وعن تذكيرك إنه ﴿سَيَذَكَّرُ﴾ ويتعظ بتذكيرك ﴿مَنْ يَخْشَى﴾ [الأعلى: 10] عن بطش الله، وعن كمال قدرته على وجوه الانتقام.

وبعدما تأملت في القرآن مرارًا، وتدبرت في فحوايه تكرارًا، تنبه على حقيقته، فتذكر به وامثل بما فيه ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا﴾ أي: يعرض عنها وعن سماعها؛ يعني: الذكر والعظة التي هي القرآن ﴿الْأَشْقَى﴾ [الأعلى: 11] أي: الكافر، الذي جبل على فطرة الشقاوة وجبلة الجهل والغباوة.

﴿الَّذِي يَضِلُّ﴾ ويدخل في النشأة الأخرى ﴿النَّارَ الْكُبْرَى﴾ [الأعلى: 12] التي هي بأضعاف نار الدنيا في الحرقة والحرارة، لذلك قال: «كبرى» أو في الدرك الأسفل منها وهو أكبرها.

﴿ثُمَّ﴾ بعدما دخل في نار القطيعة والحرمان بأنواع الخيبة والمخذلان ﴿لَا يَمُوتُ﴾ فيها؛ يعني: يستريح ﴿وَلَا يَخْنَى﴾ [الأعلى: 13] حياة نافعة طيبة كسكان بقعة الإمكان، الداخلين في نيران الشهوات ودركات الأماني والآمال، لا يموتون حتى يستريحوا، ولا يحيون بلا منية إلا منية وغل الأمل وسلسلة الحرص.

وبالجملة: هم معذبون في عموم الأوقات والأحوال، لا نجاة لهم عنه ماداموا في قيد الحياة، وبعدما ماتوا بأنواع الحسرات، سيصلون في أسفل الدركات وأصعب العقوبات.

هب لنا جذوة من نار المحبة، تنجينا عن نيران الإمكان في النشأة الأولى والأخرى.

ثم قال سبحانه على سبيل التنبيه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾ وفاز بالدرجة القصوى والمرتبة العليا ﴿مَنْ تَزَكَّى﴾ [الأعلى: 14] وتظهر عن أدناس الطبائع وأكدار الهيولى من الميل إلى الدنيا وما فيها من اللذات الفانية، والشهوات الغير الباقية، وتوجه نحو المولى بالعزيمة الخالصة.

﴿وَذَكَرَ﴾ في أوائل الطلب ومبادئ الإرادة ﴿اسْمَ رَبِّهِ﴾ أي: جنس الأسماء الإلهية متفطنًا بمعناها، يقظان فرحان متشوقًا ﴿فَصَلَّى﴾ [الأعلى: 15] ومال نحوه سبحانه في الأوقات المأمورة المحفوظة، محرمًا على نفسه عموم مبتغاه من دنياه.

﴿بَلْ﴾ هؤلاء الحمقى الهلكى التائهون في تيه الضلال، المغلولون بأغلال

الأماني والآمال ﴿تُؤْتِرُونَ﴾ وتختارون ﴿الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [الأعلى: 16] المستعارة الفانية على الحياة الحقيقية الأخروية الباقية؛ لذلك يجمعون أسباب الفساد والإفساد، ولا يتزودون ليوم الميعاد.

﴿وَ﴾ الحال أنها: أي: ﴿الْآخِرَةَ﴾ وما وعد فيها من اللذات الروحانية الباقية ﴿حَيْرٌ﴾ مما في الدنيا وأمانيتها ﴿وَأَبْقَى﴾ [الأعلى: 17] وأدوم بحيث لا انقطاع لها.

﴿إِنَّ هَذَا﴾ الذي وعظك الحق به يا أكمل الرسل، ووصاك بالفلاح ﴿لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾ [الأعلى: 18] ⁽¹⁾ أي: مثبت، مسطور على وجهه، وتلك الصحف ﴿صُحُفٌ﴾ جدك يا أكمل الرسل ﴿إِبْرَاهِيمَ﴾ الفائق في الخلعة والفلاح على عموم أرباب الصلاح والنجاح ﴿وَمُوسَى﴾ [الأعلى: 19] الكلم الفائز من عند الله بالفوز العظيم، وهو مرتبة التكليم مع الله العزيز العليم. جعلنا الله من خدامهم وتراب أقدامهم.

خاتمة السورة

عليك أيها الطالب للفلاح الأخروي الحقيقي والنجاح المعنوي أن تزكي أولاً نفسك عن مطلق الرذائل العائقة عن التوجه الحقيقي نحو الحق، وتصفى سرك عن الميل إلى مزخرفات الدنيا الدنية وأمانيتها الغير الهنية، فلك أن ترغب نفسك عن مقتضيات الإمكان، ولا تغريها إلى لذاتها وشهواتها، فعليك أن تلازم الخلوة والخمول، وتجنب عن أصحاب الثروة والفضول حتى يعينك الحق إلى التلقي بالقبول بما يوجبك الفلاح والفوز بالنجاح.

افتح لنا أبواب رحمتك إنك أنت الفتاح.

(1) إن هذا الوعظ لفي الصحف المتقدمة، وكذلك في صحف إبراهيم وموسى وغيرهما؛ لأن التوحيد، والوعد، والوعيد، لا تختلف باختلاف الشرائع. تفسير القشيري (8 / ص 70).

سورة الغاشية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فاتحة سورة الغاشية

لا يخفى على المنكشفين بالنشأة الآخروية، المتحققين بظهور الحق حسب النشأتين أن الوقوف بين يدي الله وعرض الأعمال عليه سبحانه والحساب عليها والجزاء على مقتضاها مشهودة للعارف المحقق، مكشوفة عنده في كل آن وزمان، وبعد الحساب والجزاء فرقة منهم رابحون مقبولون عند الله، وفرقة خاسرون مردودون. فالمقبولون في كنف جوار الله مسرورون متنعمون والمردودون في نار القطيعة والحرمان محرومون مطرودون؛ لذلك أخبر سبحانه في كتابه بطريق المبالغة والتحقيق مخاطبًا لحبيبه ﷺ، فقال بعدما تيمن: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ القادر المقتدر على عموم مقدوراته حسب النشأتين ﴿الرَّحْمَنِ﴾ على عموم عبادته، ينبهم نحو المرجع والمعاد ﴿الرَّحِيمِ﴾ لخواصهم، يهديهم إلى سبيل الرشاد.

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾ ① ﴿وَجُودَ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٍ﴾ ② ﴿عَامِلَةً نَّاصِبَةٍ﴾ ③ ﴿تَصَلَّى نَارًا﴾ ④ ﴿حَامِيَةً﴾ ⑤ ﴿تُشَقَّى مِنْ عَيْنٍ عَاتِيَةٍ﴾ ⑥ ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ﴾ ⑦ ﴿لَا يَسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ﴾ ⑧ ﴿[الغاشية: 1-7].﴾

﴿هَلْ أَتَاكَ﴾ أي: قد أتاك ووصل إليك يا أكمل الرسل ﴿حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾ [الغاشية: 1] أي: الداهية العظيمة التي تغشى الناس وتحيط بهم يوم القيامة بشدائدها حين وقفوا بين يدي الله للعرض والجزاء، وهم حيثئذ من شدة الهول والفرع حيارى، سكارى تائهون، هائمون، مرعوبون عما يفعل بهم، وكيف يحكم عليهم. وبعدها أخذوا للحساب وحوسبوا: ﴿وَجُودَ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٍ﴾ [الغاشية: 2] ذليلة شاخصة منكوسة.

﴿عَامِلَةً﴾ يومئذ بأعمال لا تنفعها، كالتوبة والتوجه وطلب العفو والمغفرة بعد مضي أوانها ﴿نَّاصِبَةٍ﴾ [الغاشية: 3] مبالغة في التعب والمشقة، رجاء أن يُعفا عنها

ويغفر لها، فلا تنفعها حيثُ عملها، وإن أتعبت نفسها لانقضاء نشأة الاختبار المأمورة فيها الأعمال.

﴿تَضَلَّى﴾ وتطرح حيثُ ﴿نَارًا حَامِيَةً﴾ [الغاشية: 4] في نهاية الحر والحرقه؛ تأكيداً وتشديدًا لعذابها.

﴿تَشْقَى﴾ عند إشرافها على الهلاك من شدة العطش ﴿مِنْ عَيْنٍ آيَةٍ﴾ [الغاشية: 5] متناهية في الحرارة، وكيف لا، قد أوقدت حولها نار جهنم منذ خلقت، هذا شرابهم.

﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ﴾ [الغاشية: 6] شبرق يابس، أمرٌ من الصبر وأبشع من جميع الأشياء البشعة، ومع نهاية بشاعته ومرارته وشدة حرارته ﴿لَا يُسْمِنُ﴾ حتى يزيد في قوتهم ﴿وَلَا يُغْنِي﴾ ولا يدفع ﴿مِنْ جُوعٍ﴾ [الغاشية: 7] وبالجمله: لا يفيد البدن أصلاً.

﴿وَجُودٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ﴾ ٨ ﴿لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ﴾ ٩ ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ ١٠ ﴿لَا تَسْمَعُ فِيهَا لُغِيَّةٌ﴾ ١١ ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾ ١٢ ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ﴾ ١٣ ﴿وَأَكْوَابُ مَوْضُوعَةٌ﴾ ١٤ ﴿وَنَارُ مَصْفُوفَةٌ﴾ ١٥ ﴿وَزَرَائِبُ مَبْنُوتَةٌ﴾ ١٦ [الغاشية: 8-16].

﴿وَجُودٌ﴾ آخر ﴿يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ﴾ [الغاشية: 8] متعنة مبتهجة مسرورة. ﴿لِسَعْيِهَا﴾ الذي تحملته من أنواع المتاعب والمشاق في نشأة الدنيا ﴿رَاضِيَةٌ﴾ [الغاشية: 9] سيما بعدما رأت ما ترتب على سعيها من الجزاء.

وكيف لا ترضى؛ إذ هي متعنة بسبب ذلك بالسعي ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ [الغاشية: 10] متعالية أوصاف نزاقتها ونضارتها عن مدارك العقول ومشاعر الحواس، مصفاة عن مطلق المكاره بحيث ﴿لَا تَسْمَعُ فِيهَا﴾ كلمة ﴿لَاغِيَةً﴾ [الغاشية: 11] لا فائدة لها.

ولتتميم نزاقتها ونضارتها ﴿فِيهَا عَيْنٌ﴾ ماؤها في غاية البياض والصفاء ﴿جَارِيَةٌ﴾ [الغاشية: 12] في خلالها وأنهارها أبداً.

ولتتميم ترفهم وتنعمهم ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ﴾ [الغاشية: 13] مرتفعة عن الأرض على قوائم طوال.

﴿وَأَكْوَابُ﴾ أوان لا عروة لها ﴿مَوْضُوعَةٌ﴾ [الغاشية: 14] بين أيديهم.

﴿ونمارق﴾ وسائد في غاية الصفاء، متلونة بالألوان المطبوعة ﴿منضفوفة﴾
[الغاشية: 15] مفروشة بعضها في جنب بعض.

﴿وزرابي﴾ بسط آخر فاخرة متلونة ﴿مبثوثة﴾ [الغاشية: 16] مبسوطة بين
أيديهم، فلا تستبعدوا ولا تستغربوا عن قدرة الله أمثال هذا.

﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ (١٧) ﴿وَالِى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ﴾ (١٨) ﴿وَالِى الْجِبَالِ
كَيْفَ نُصِبَتْ﴾ (١٩) ﴿وَالِى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ (٢٠) ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ (٢١) ﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ
بِمُصَيِّرٍ﴾ (٢٢) ﴿إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ﴾ (٢٣) ﴿فَعَذَابُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ (٢٤) ﴿إِنَّا إِلَهُكُمْ﴾ (٢٥) ﴿ثُمَّ
إِنَّا عَلَيْنَا حِسَابُهُمْ﴾ (٢٦) [الغاشية: 17-26].

﴿أ﴾ ينكرون ويستبعدون أولئك البعداء، المنكرون، المفرطون قدرة الله القدير
الحكيم على أمثال هذه المقدورات ﴿فَلَا يَنْظُرُونَ﴾ بنظر التأمل والاعتبار ﴿إِلَى الْإِبِلِ
كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ [الغاشية: 17] ^(١) على الهيكل الغريب والشكل العجيب، تحمل كثيرا

(١) انظر كيف تحقق الشيخ البيطار من هذه الآية المباركة بقوله الرباني حيث قال: اعلم - رحمك الله -
أن الإبل عجيبة باسمها ومعناها؛ لأنها من جهة اسمها جمع وفرد؛ لأن الإبل لفظ يدل على
الكثرة لاستغراقه لكل فرد منها مع أن هذا الاسم لا واحد له من لفظه مثل: ثمرة وتمر، وحب
وحب، فاسم الإبل وإن دل على الكثير فهو واحد في عين تلك الكثرة، كذلك صور العالم وإن
تكاثرته فهي حقيقة واحدة بين الوجود والعدم؛ لأنها برزخية بين ذات الله ومعاني أسمائه
وصفاته، فمن الذات التي هي الوجود المحض، ومن معاني الأسماء - التي هي أحكام لا وجود
لها في العين، وإنما تتعلل في الذهن - فهي عدم في الوجود العيني ظهر العالم الذي هو عبارة
عن الصور، فالصور برزخية لا وجودية من كل وجه، ولا عدمية من كل وجه فهي من جهة
الوجود عين الذات، ومن جهة الحكم العدمي عين الأسماء والصفات، فشابه لفظ الإبل الحق
في واحديته، وصور العالم في كثرته، كذلك لفظ الجلالة هو واحد في نفسه، ولكن اندرج فيه
كل شيء، وأما العجب في معناها، فإنها مع كبرها وعظمتها تنقاد لكل عظيم وحقيق وصغير
وكبير، وتحمل النفيس والخسيس، ولا تمنع أحدا من التمكن منها ولو كان نملة أو بعوضة،
كذلك وجود الله تعالى لا يأبى أحدا، فهو ظاهر في السعيد والشقي والعزیز والذليل، فأشبهت
الأرض التي هي تحت العزيز والذليل، مع أن الأرض لما ذلت تحت نعال الذليل أعزها الله
تعالى بسجود آدمي، ووضع وجهه الذي هو أشرف ما فيه عليها، وقد قال الله: «لو دليتم بحبل
لهبطتم على الله» والهبوط لا يكون إلا على الأرض، فقد سماها باسمه مع أنه ليس كمثله شيء،

وتأكل قليلاً وتصير منقادة لكل أحد حتى النسوان والصبيان مع عظمة جسمها وكمال قوتها وقدرتها وتحمل على الجوع والعطش مدة، وتتأثر من المودة والغرام، وتسکر منها إلى حيث تنقطع عن الأكل والشرب زماناً ممتداً، وتتأثر أيضاً من أحسن الأصوات

كذلك قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ [الإسراء: 70]، وما حملهم في البر مثل الإبل، وإن كانت الواهورات الظاهرة في زماننا هذا تحمل بني آدم براء، ولكن لا تحملهم إلى ما شاءوا، بل حملاً مقيداً، فالحامل هو الله والصورة صورة الإبل، فصورة الإبل وجه من وجوه الله، ولهذا قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ [الغاشية: 17] أي: كيف تنزل الحق الذي ليس كمثله شيء إلى هذه الصورة الإبلية حتى حمل بني آدم بنفسه، فقال: ﴿وَحَمَلْنَهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ [الإسراء: 70]، فالحامل هو الله في صورة الإبل، فصورة الإبل مخلوقة حادثة والحامل قديم، فظهر من ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ في صورة الحادث مع أنه باقي على قدمه، فمن نظر إلى الإبل فقد نظر إلى وجه الاسم الإلهي (الحامل) لا ترى أن رسول الله ﷺ لما طلبوا الصحابة أن يحملهم فقال: «والله لا أحملكم ولا أجد ما أحملكم عليه» ثم أرسل لهم وأعطاهم من الإبل ما يحملهم، فقال بعض الصحابة: يا رسول الله، إنك أقسمت ثم أعطيتهم، فقال: «أنا ما حملتهم ولكن الله حملهم». ثم قال تعالى: ﴿وَالَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ﴾ [الغاشية: 18]؛ لأنها بعل الأرض، فالأرض تحتها كما أن المرأة تحت الرجل، فالأرض منكوبة للسماء وزوجة لها، فحركات الأفلاك السماوية بمنزلة الجماع، والأمطار النازلة في الأرض بمنزلة الماء الذي يلقي في الرحم، ونبات الأرض بمنزلة الولد الذي تخرجه المرأة من بطنها، فأشبهت السماء الذكر في الرفع، والأرض أشبهت الأنثى في السطح، وأما الجبال المنصوبة بين السماء والأرض فهي بمنزلة الخشى من بني آدم، فهي برزخية المنزلة؛ لأن لها وجه إلى ذكورة السماء، ووجه إلى أنوثة الأرض لاتصالها بالأرض، وهي تحمل بني آدم من جهة السكن.

قال تعالى: ﴿وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ﴾ [الحجر: 82]، فلها مع الاسم (الحامل) الاسم (الواقى)، والاسم (الحفيظ) والاسم (الساتر) والاسم (المؤمن)، وجميع ذلك أسماء الله، والمسمى هو، فما في الوجود إلا هو، فهذه دلالات ظاهرة في هذه الأربع وهي: الإبل والسماء والجبال المنصوبة والأرض المسطحة، فأشبهت تربيع مراتب الوجود في قوله تعالى: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ [الحديد: 3]، وهذه المعاني متوجهة على هذه الصور الأربعة، فلكل منها نصيب من الأولية والآخرة والظاهرة والباطنية، فنصّبها الله دلالات على وجود ذاته، إذ نظر الإنسان إليها ليتعدى نظره من صورها الظاهرة إلى الباطن فيها، وهو الحق تعالى.

والحددي، وصارت من كمال التأثر إلى حيث تهلك نفسها من سرعة الجري، وتجري الدمع من عينها، وبالجملية: ظهر منها حين حُدي عليها عجائب كثيرة، يتفطن بها أهل العبر والاستبصار.

﴿وَالْيَ السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ﴾ [الغاشية: 18] بلا عمد وأسانيد مشورة عليها من الكواكب التي لا ندرك حقائقها وأوصافها وأشكالها وطبائعها وحالاتها، وما لنا منها إلا الحيرة والنظر على وجه العبر.

﴿وَالْيَ الْجِبَالِ﴾ الرواسي ﴿كَيْفَ نُصِبَتْ﴾ [الغاشية: 19] على وجه الأرض مشتملة على معادن ومياه وأجسام.

﴿وَالْيَ الْأَرْضِ﴾ التي هي مقر أنواع الحيوانات وأصناف المعادن وأنواع النباتات ﴿كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [الغاشية: 20] مهدت وبسطت.

ومع وضوح هذه المقدورات العظيمة الشأن، الصادرة من الحكيم المنان ذي الطول والإحسان، ينكرون قدرته سبحانه على المقدورات الأخروية، فالعجب كل العجب عمن شهد آثار القدرة الغالبة الإلهية في نفسه وفي الآفاق، فتردد في المقدورات الآخر الأخروية وأنكر عليها.

وما ذلك إلا من ظلمات الألف والعادات المترتبة على الأوهام والخيالات الباطلة والطارئة على أهل الغفلة والضلال، المسجونين في سجن الإمكان بأنواع الخيبة والخسران وإلا فظهور آثار القدرة الغالبة الإلهية أجل وأعلى من أن تتردد فيه الآراء، أو تنكر عليه الأهواء، وبالجملية: ﴿مَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ [النور: 40].

وبعد ما سمعت ما سمعت من كمال قدرة الله ﴿فَذَكِّرْ﴾ يا أكمل الرسل بالقرآن بمقتضى ما أمرت به وألهمت ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ [الغاشية: 21] مبلغ، فلا بأس عليك إن لم ينظروا ولم يعتبروا، ما عليك إلا البلاغ، فلا تقصر في تبليغك.

إذ ﴿لَنْتَ عَلَيْهِمْ يُمْسِكُ﴾ [الغاشية: 22] مسلط، ملزم، مكره للقبول البتة.

﴿إِلَّا مَنْ تَوَلَّى﴾ يعني: لكن من أعرض وبغى بعد تذكيرك وتبليغك ﴿وَكَفَرَ﴾ [الغاشية: 23] وطفى بما سمع منك، واستهزأ معك وكذبك.

﴿فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ﴾ العزيز الحكيم المقتدر على وجوه الانتقام ﴿الْعَذَابُ الْأَكْبَرُ﴾ [الغاشية: 24] الذي لا عذاب أعظم منه وأشد، وهو حرمانهم عن رتبة الخلافة

وخلودهم في نار القطيعة بأنواع الخذلان والخسران، وبالجملية: بلغ يا أكمل الرسل جميع ما أنزل إليك على كافة البرية، ولا تبال بإعراضهم وتكذيبهم.

﴿إِنَّ إِلَيْنَا﴾ لا إلى غيرنا من الوسائل والأسباب العادية ﴿إِيَابَهُمْ﴾ [الغاشية: 25] ورجوعهم، كما أن منّا مبدأهم وصدورهم.

﴿ثُمَّ﴾ بعدما رجعوا إلينا صاغرين ﴿إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾ [الغاشية: 26] على أعمالهم التي صدرت عنهم في نشأة الاختبار، وبعدها حاسبناهم، جزيناهم أحسن الجزاء إن كانوا من أصحاب اليمين، وعذبناهم بأنواع العذاب والنكال إن كانوا من أصحاب الشمال.

رب يسر حسابك علينا، وقنا عذابك، إنك أنت الرؤوف الرحيم.

خاتمة السورة

عليك أيها المحمدي المتوجه نحو الحق، التحقيق بالتوجه والرجوع أن ترجع إلى الله قبل حلول الأجل المقدر للقيامة الصغرى والكبرى، وتفوض أمورك كلها إليه سبحانه بالإرادة والرضا، وتنخلع عن لوازم ناسوتك بالمرة.

وبالجملية: عليك أن تتصف بالموت الإرادي قبل حلول الأجل الاضطراري الطبيعي، حتى تكون عند ربك دائماً وفي كنف حفظه وجواره بلا انتظار منك إلى الطامة الكبرى والحساب والجزاء، ولا يتيسر عليك هذا إلا بتوفيق الله وجذب من جانبه، فلك السعي والاجتهاد، والله الملهم للرشاد والهادي إلى سبيل السداد.

سورة الفجر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فاتحة سورة الفجر

لا يخفى على من ترقى عن حضيض الغفلة وغور الغرور إلى فروة المعرفة وأوج السرور أن التدني من مضيق الناسوت والترقي نحو فضاء اللاهوت إنما يحصل بالجدبة الغالبة الإلهية المثنية للقوى البهيمية عن مقتضياتها الطبيعية مطلقاً، المعطلة للوهم والخيال عن التصرف في عالم المثال، الرادعة للعقل الفطري المتشعب من العلم الإلهي، المقتبس من مشكاة لوح القضاء عن متابعة القوى الداركة البشرية وآلاتها، وسفارة الحواس الظاهرة والباطنة إياهم، ومعاونة الواهمة المتخيلة اللتين هما من جنود إبليس الأمانة بالسوء.

ولاشك أن هذا الترقى إنما يتيسر بعد الموت الإرادي وبعد التبدل عن مقتضيات الأوصاف البشرية، وحصوله إنما هو بالميل الفطري المترتب على الرابطة المعنوية والعلقة الحقيقية التي هي مناط التكليف الإلهية المثمرة لأنواع المعارف والحقائق الدنية، المنتشئة عن صفاء مشرب التوحيد.

لذلك أقسم سبحانه بمسالك أرباب السلوك المهاجرين عن عالم الناسوت نحو فضاء اللاهوت، وأبتدأ بخلق صبح الانجلاء اللاهوتي، فقال بعدما تيمن: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ المدير لأمر عباده؛ ليخرجهم من ظلمات الطبيعة إلى نور الحقيقة ﴿الرَّحْمَنِ﴾ عليهم بوضع التكليف الشاقة القالعة لعرق الإلف والعادة الموروثة لهم من مقتضيات عالم الناسوت ﴿الرَّحِيمِ﴾ لهم، يميتهم بالموت الإرادي عن لوازم بشرتهم ولواحق هويتهم الباطلة الإمكانية.

﴿وَالْفَجْرِ ۝١ وَلَإِلَٰهَ عَشْرِ ۝٢ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ۝٣ وَالْأَيْلِ إِنَّا يُسِّرُ ۝٤﴾ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّئِي
جَبْرِ ۝٥ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرْمَ قَاتِ الْأَعْدَاءِ ۝٧ أَلَمْ تَرَ يَتْلُفْ أَيْدِيَهُمْ فِي الْأَرْضِ ۝٨
وَتَمُودَ الَّذِي جَاءَ بِالسَّحَرِ بِالْوَادِ ۝٩﴾ [الفجر: 1-9].

﴿وَالْفَجْرِ﴾ [الفجر: 1] أي: وحق انفلاق صبح السعادة المتنفس بأنفاس الرحمانية المتلألئ من سماء العماء وأفق عالم الأعلى اللاهوتي.

﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ [الفجر: 2] أي: ويحق ليالي الحواس العشر، المقبلة إلى الإدبار والانمحاء عند انجلاء الفجر اللاهوتي وصبح العماء الذاتي.

﴿وَالشَّفْعِ﴾ أي: شفع الملوك الجديدين، وارتفاعهما عن العين وانمحائهما عن البين ﴿وَالْوَثْرِ﴾ [الفجر: 3] أي: الوجود الوجداني، المطلق، المنزه عن التعدد والتكثر مطلقاً في ذاته.

﴿وَاللَّيْلِ﴾ أي: ليل العدم المظلم في ذاته ﴿إِذَا يَشْرِقُ﴾ [الفجر: 4] وذهبت ظلمته بامتداد أظلال الوجود وشروق شمس الذات عليه.

﴿هَلْ﴾ يحتاج ﴿فِي ذَلِكَ﴾ أي: في كل واحد من المقسمات العظيمة الشأن ﴿قَسَمٌ﴾ ويمين يؤكدها ﴿إِلَّيَّ حَجْرٍ﴾ [الفجر: 5] عقل فطري خالص عن شوب الوهم والخيال، خال عن مزاحمة مطلق الإلف والعادات الحاصلة من الرسوم والتقليدات، الناشئة من ظلمات الطبيعة.

وبالجملة: أقسم سبحانه بحق هذه المقسمات الرفيعة القدر والمكان أنه سبحانه يعذب أصحاب الزيف والضلال، المقيدون بسلاسل الحرص وأغلال الآمال في الدنيا بشهوات الإمكان، وفي الآخرة بدركات النيران؛ يعني: كفار مكة خذلهم الله.

استبعدت يا أكمل الرسل تعذيبنا إياهم وانتقامنا عنهم ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أي: ألم تعلم ولم تخبر بالتواتر الموجب للجزم واليقين ﴿كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾ [الفجر: 6] يعني: كيف أهلك عادًا.

﴿إِزْمَ﴾ اسم لبنائهم وبلدهم ﴿ذَاتِ الْعِمَادِ﴾ [الفجر: 7] أي: الأساطين الطوال شديدة الأساس، رفيعة السمك، عريضة الجدار.

﴿أَلَمْ يَخْلُقْ﴾ ولم يوجد ﴿مِثْلَهَا﴾ أي: مثل بنائهم وبلدهم ﴿فِي الْبِلَادِ﴾⁽¹⁾ [الفجر: 8] في الإحكام والرفعة وأنواع النزاهة واللطافة، وهم كانوا أكثر الناس أعمارًا

(1) قال علاء الدولة: يعني: ألم تر القوى النفسية إن الله فعل بالقوى العادية التي نبت لنسفها من التنعم في ذات عماد قلبها إرم جنة من القول النباتية الخبيثة، متى ما شاءت على وفق هواها دخلت وأكلت من ثمارها، لم يخلق مثل ذلك الإرم في قوالب غيرها كيف خربها ربها.

وأولادًا وأموالًا وجاهًا وثروة بأضعاف هؤلاء المفسدين، فأهلكهم سبحانه واستأصلهم بعدما أفرطوا في أطوارهم الخارجة عن حد الاعتدال ﴿وَتَشْمُودٌ﴾ يعني: كيف فعل بشمود أيضًا ما فعل من الهلاك، مع أنهم ﴿الَّذِينَ جَاءُوا﴾ قطعوا ونقبوا ﴿الضُّخْرَ﴾ أي: صخور الجبال ﴿بِالْوَادِ﴾ [الفجر: 9] أي: بواد القرى، واتخذوا فيها بلادًا حصينة منيعة من شدة قدرتهم وقوتهم، مع ذلك أهلكهم سبحانه.

﴿وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ﴾ (١٠) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ (١١) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (١٢) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (١٣) إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ (١٤) فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ (١٦) [الفجر: 10-16].

﴿وَفِرْعَوْنَ﴾ الطاغية الباغي ﴿ذِي الْأَوْتَادِ﴾ [الفجر: 10] أي: ذي العسكر الكثير، المشتمل على المضارب والخيام، المشتملة على الأوتاد والأطناب. وهؤلاء المذكورين هم: ﴿الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ﴾ [الفجر: 11] واستكبروا على ضعفاء العباد اتكالا بما عندهم من المال والجاه والثروة والسيادة.

﴿فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ﴾ [الفجر: 12] أي: أنواع الكفر والظلم والعناد.

وبعدما بالغوا في الفساد والإفساد ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾ [الفجر: 13] أي: نوعًا من العذاب، كأنه يصب عليهم ويمطر كالماء من السحاب، وهو كناية عن ترادف موجات الهلاك وتتابعها، وبالجمله: أهلكهم بأشد العذاب وأكثره.

ثم قال سبحانه مخاطبًا لحبيبه ﷺ، منبهاً له على كمال قدرته على انتقام عصاة عباده: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ الذي ربك على كمال المعرفة واليقين ﴿لَبِالْمِرْصَادِ﴾^(١) [الفجر: 14] أي: مراقب محافظ لطرق عباده، يرقبهم سبحانه كيف يسلكون نحوه: هل في سبيل الضلال والفساد، أم في طريق الهداية والرشاد؟ مع أن الكل مجبول على فطرة التوحيد لكن الحكمة الإلهية تقتضي الابتلاء والاختبار.

(١) قال علاء الدولة: يعني: يرصدك ويريك في قلبك ويسمع نجواك ولا يخرب عنه شيء في الأرض ولا في السماء، ولا في الأرض القالب، ولا في الصدور، ولا في نهار الروح، ولا في ظلمة ليل النفس، ولا في أطوار القلب.

﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ﴾ المذبذب بين الإحسان والكفران ﴿إِذَا مَا ابْتَلَاهُ﴾ اختبره وجربه ﴿رِزْقَهُ﴾ بالغنى واليسر ﴿فَأَكْرَمَهُ﴾ بالجاء والثروة ﴿وَنَعَّمَهُ﴾ بالأموال والأولاد ﴿فَيَقُولُ﴾ شكراً لما وصل إليه من النعم ومقتضيات الكرم: ﴿رَبِّي أَكْرَمَنِ﴾ [الفجر: 15] وتفضل علي بما أعطاني من الخير والحسنى.

﴿وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ﴾ ربه بالفقر والعسر بعد اليسر ﴿فَقَدَّرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ﴾ وقصر على قدر كفايته وحاجته وقوت يومه، بحيث لم يزد على مؤنة معاشه ﴿فَيَقُولُ﴾ مشتكياً إلى الله باثاً للشكوى عنده سبحانه: ﴿رَبِّي أَهَانَنِ﴾ [الفجر: 16] وأذلني، حيث لم يعط لي ما أعطى لفلان وفلان، مع أن الفقر خير من الغنى؛ إذ الفقر لو قرن بالتسليم والرضا لأدى صاحبه إلى جنة المأوى وملك لا ييلى، والغنى لو لم يقرن بالشكر والإنفاق والإحسان لأدى صاحبه إلى دركات الجحيم وأودية النيران.

﴿كَلَّا بَلْ لَا تُكْرَمُونَ الْيَتِيمَ﴾ ١٧ ﴿وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ ١٨ ﴿وَتَأْكُلُونَ الثَّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا﴾ ١٩ ﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ ٢٠ ﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾ ٢١ ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ ٢٢ ﴿وَجِئَءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَنذَكُرُ الْإِنْسَانَ أَنَّهُ لَئِذَا أَلْذَكَّرُ﴾ ٢٣ [الفجر: 17-23].

ثم قال سبحانه: ﴿كَلَّا﴾ ردعاً له عن هذا الاعتقاد بأن الكرامة باليسر والتوسعة والإهانة بالفقد والفقر ﴿بَلْ﴾ الكرامة بالإنفاق والإطعام على فقراء الله؛ طلباً لمرضاة الله؛ وأنتم أيها الأغنياء ﴿لَا تُكْرَمُونَ الْيَتِيمَ﴾ [الفجر: 17] ولا تتفقدونه بالنفقة والكسوة.

﴿وَلَا تَحَاضُّونَ﴾ أي: لا تأمرون غيركم ﴿عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ [الفجر: 18] وإطعامه.

﴿وَأَنْتُمْ أَيُّهَا الْأَغْنِيَاءُ﴾ ﴿تَأْكُلُونَ الثَّرَاثَ﴾ أي: ميراث الأيتام ﴿أَكْلًا لَمًّا﴾ [الفجر: 19] أي: أكلاً على سبيل الجمع بين سهامكم وسهامهم، بأن تأخذوا وتحرزوا أموالهم؛ لترقبوها لهم وتزيدوها لأجلهم، فتأكلوا منها ومن غاليتها دائماً.

﴿وَأَنْتُمْ أَيُّهَا الْأَغْنِيَاءُ﴾ ﴿تُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ [الفجر: 20] كثيراً مع حرص شديد وأمل كامل، ولا تطعمون الفقراء والمساكين؛ خوفاً من نفاذه.

ثُمَّ قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿كَلَّا﴾ رَدْعًا لَهُمْ عَمَّا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ حُبِّ الْمَالِ وَالْخُلْطِ عَلَيْهِمْ بَيْنَ الْحَرَامِ وَالْحَلَالِ؛ يَعْنِي: كَيْفَ تَوَدُّونَ أَيُّهَا الْبَخْلَاءُ الْمَمْسُكُونَ حَسَابِهَا وَقَتَ ﴿إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ﴾ أَي: كَسَرَتْ وَاسْتَوَتْ، فَصَارَتْ ﴿دَكًّا دَكًّا﴾ [الفجر: 21] وَهَبَاءً مُنْبِثًا.

﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ وَظَهَرَتْ طَلَائِعُ هَيْبَتِهِ وَأَثَارُ قَهْرِهِ وَجَلَالِهِ ﴿وَوُجَّهَ﴾ جَاءَ ﴿الْمَلَكُ﴾ أَي: الْمَلَائِكَةُ الْمُوَكَّلُونَ مِنْ عِنْدِهِ سُبْحَانَهُ؛ لَتَنْقِيدِ أَعْمَالِ الْعِبَادِ وَالْحِسَابِ وَالسُّؤَالِ ﴿صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: 22] أَي: صَفًّا بَعْدَ صَفٍّ، حَسَبَ مَا يُؤْمَرُونَ مِنْ قِبَلِ الْحَقِّ.

﴿وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ﴾ أَي: أَحْضَرَتْ تَهْوِيلًا عَلَى أَصْحَابِهَا وَتَفْظِيغًا ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أَي: يَوْمَ الْقِيَامَةِ الَّتِي ظَهَرَتْ فِيهَا هَذِهِ الْأَثَارُ ﴿يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ﴾ مَعَاصِيهِ وَقَوْلٍ مِنْ يَزْجِرُهُ عَنْهَا وَيَنْذَرُهُ، فَيَنْدِمُ عَلَيْهَا وَيَتَأَسَفُ ﴿وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى﴾ [الفجر: 23] أَي: مِنْ أَيْنَ يَنْفَعُهُ التَّذَكُّرُ وَالذِّكْرَى حِينَئِذٍ؛ إِذْ نَشَأَ الْاِخْتِبَارُ وَالتَّلَافِي قَدْ انْقَضَتْ ۱۹

﴿يَقُولُ يَلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ ٢٤ ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ﴾ ٢٥ ﴿وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ﴾ ٢٦ ﴿يَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ ٢٧ ﴿أَرْجَىٰ إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً مَُرْضِيَةً﴾ ٢٨ ﴿فَأَنزِلْ فِي عِبَادِي﴾ ٢٩ ﴿وَأَنزِلْ جَنَّةً﴾ ٣٠ [الفجر: 24-30].

وَبَعْدَمَا جَزَمَ أَنَّهُ لَا نَفْعَ يَوْمَئِذٍ لِتَذَكُّرِهِ ﴿يَقُولُ﴾ مَتَمْنِيًا عَلَى وَجْهِ الْحَسْرَةِ وَالنَّدَامَةِ: ﴿يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ﴾ فِي الْإِبْتِلَاءِ وَالْاِخْتِبَارِ ﴿لِحَيَاتِي﴾ [الفجر: 24] وَنَجَاتِي فِي هَذَا الْيَوْمِ.

وَبِالْجُمْلَةِ: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ﴾ [الفجر: 25] أَي: لَا يُعَذِّبُ أَحَدٌ مِنَ الزَّبَانِيَةِ مِثْلَ مَا عَذَّبَ هُوَ نَفْسَهُ بِالْحَسْرَةِ وَالنَّدَامَةِ وَأَنْوَاعِ الْكُرْبَةِ وَالْكَآبَةِ وَالْخِذْلَانِ. ﴿وَلَا يُوثِقُ﴾ وَيُحْكِمُ ﴿وَثَاقَهُ﴾ وَنَكَالَهُ ﴿أَحَدٌ﴾ [الفجر: 26] مِثْلَ مَا أَوْثَقَهُ وَأَحْكَمَهُ هُوَ عَلَى نَفْسِهِ بِأَنْوَاعِ الْخِيَةِ وَالْخُسْرَانِ وَالْقَصَّةِ وَالْحَرَمَانِ؛ إِذْ الْعَذَابُ الرُّوحَانِيُّ الطَّارِئُ مِنَ النَّدَامَةِ وَالْخِذْلَانِ لَا يُقَاسُ شِدَّةُ تَأْثِيرِهِ إِلَى سَائِرِ الْعَذَابِ الْجِسْمَانِيِّ.

ثُمَّ أَشَارَ سُبْحَانَهُ إِلَى حُسْنِ أَحْوَالِ أَرْيَابِ الْعَنَانَةِ وَالْكَرَامَةِ يَوْمَئِذٍ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الْمَوْقِنِينَ الَّذِينَ تَزَوَّدُوا فِي النِّشْأَةِ الْأُولَى لِلْآخِرَى، وَاتَّصَفُوا بِالتَّقْوَى، وَلَمْ يَعْصُوا فِي مَدَّةِ أَعْمَارِهِمْ إِلَى الْمَوْلَى، وَلَمْ يَتَّبِعُوا الْهَوَى، وَاطْمَأَنَّنُوا وَوُطِّنُوا نَفُوسَهُمْ بِمَا جَرَى

عليهم من مقتضيات الانقضاء، وبالجمله: لم يضطربوا في السراء والضراء، ولم يبالوا في الشدة والرخاء، فيقال لهم يومئذ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ [الفجر: 27] المتقررة المتمكنة بمقام الرضا والتسليم.

﴿أَزِجِي إِلَى رَبِّكَ﴾ واصعدي على الطريق الذي هبطت عنه ﴿رَاضِيَةً﴾ متصفة بالرضا. كما كنت راضية بالقضاء في النشأة الأولى ﴿مَرْضِيَّةً﴾ [الفجر: 28] مقبولة مكرمة عند المولى.

وبعدما رجعت على الوجه المذكور ﴿فَاذْخُلِي فِي﴾ زمرة ﴿عِبَادِي﴾ [الفجر: 29] الذين وصلوا إلى كنف جواري، وحصلوا في مقعد الصدق لدي.

﴿و﴾ بالجمله: ﴿ادْخُلِي جَنَّتِي﴾⁽¹⁾ [الفجر: 30] أي: جنة وحدتي واستريحتي في خلوة لاهوتي.

جعلنا الله ممن خوطب بهذا الخطاب المستطاب، إنه هو الملمهم للصواب، وعنده حسن المآب.

خاتمة السورة

عليك أيها الموحد المتروك بهذا النداء، والمحب المترصد لسمع هذا الصدى أن تكون في عموم أوقاتك على حضور مع ربك، بحيث لا يشغلك عنه سبحانه الالتفات إلى غيره مطلقاً من الميل إلى الدنيا وأمانيتها وعموم ما فيها، بل تكون مطمئناً راضياً بما جرى عليك من مقتضيات القضاء، مفوضاً أمورك كلها إليه على وجه التسليم والرضا، متوجّهاً بالعزيمة الخالصة نحو المولى، حتى تكون مخاطباً بهذا الخطاب المستطاب في كل نفس من أنفاسك التي جرت عليك في عموم أوقاتك وحالاتك. وبالجمله: لا تغفل عن الله مطلقاً تقر بتشريف أمثال هذه الخطابات العلية والكرامات السنية.

جعلنا الله من زمرة المستيقظين المطمئنين.

(1) قال علاء الدولة: يعني: في جنة القلب المضاف إلى الرب لشرفها فيا أيها السالك، أعبر بهذه الحالات واعتبر عن مشتبهات النفس الأماره؛ لتكون من الداخلين جنة الرب، ولا تفرح بالبسط ولا تحزن بالفيض، وكن في كلتا الحالتين ذاكر للرب لئلا تكون من الذين يعبدون الله على حرف كما ذكرهم الله في كتابه.

سورة البلد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فاتحة سورة البلد

لا يخفى على من وصل إلى مقام القلب الذي هو عبارة عن البيت الحرام الحقيقي والكعبة المعنوية التي دحيت وبسطت من تحتها أراضي الاستعدادات، وتوجهت نحوها زوار القابليات من كل فج عميق ومرمى سحيق من بوادي الإمكان وأودية الطبائع والأركان، إنما وصل إليه وتشرف بطوافه، ووقف بين يدي الله ناوياً الموت الإرادي، محرماً عن لوازم الطبيعة ومقتضيات الإمكان من ميقات الطلب والإرادة الصادقة، مغتسلاً بزمزم التوبة والإنابة عن الالتفات إلى مطلق السوى والأغيار، متجرداً عن ثياب الغفلة وجلباب الاغترار، ساعياً بين صفاء المحبة ومروءة المودة الإلهية بكمال الشوق والذوق، متوجهاً للوقوف إلى عرفات اللاهوت، متعرضاً عن عوارض عالم الناسوت، ذابحاً كبش نفسه تقريباً إلى الحي الذي لا يموت، منخلعاً عن جلباب البدن ولوازمه في منى الفناء، معاملاً مع الله في سوق البقاء؛ طلباً لربح اللقاء، حلّ له أن يقاتل عند الحرام الإلهي مع جنود الأمانة وكفار القوى والآلات، إلى أن يغلب عليهم ويهلكهم، ويصفي البيت العتيق الإلهي، الذي هو قلب الإنسان الكامل عن أصنام الأحلام وأوثان الأماني والآمال الحاصلة من الخيالات والأوهام.

لذلك رخص سبحانه لحبيه ﷺ القتال في حرم مكة، مع أن الحرمة فيها مؤبدة، فقال بعدما تيمن: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ الذي اختار لنفسه بيتاً صورياً ليكون قبلة لأصحاب الصورة، وبيتاً معنوياً؛ ليكون وجهة لأرباب القلوب ﴿الرَّحْمَنِ﴾ لعباده، حيث يدعوهم إلى كعبة المقصود ﴿الرَّحِيمِ﴾ لهم، يوصلهم إلى عرفات الوحدة وبيت معمر الوجود.

﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ ١ ﴿وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ ٢ ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾ ٣ ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي

كَبِيرٍ﴾ ٤ ﴿أَنْحَسِبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْنَا أَحَدٌ﴾ ٥ ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَا لَا بَلَاءَ﴾ ٦ ﴿أَنْحَسِبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ

﴿أَنْ لَمْ يَجْعَلْ لَنَا عَيْنَيْنِ﴾ ٧ ﴿وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ﴾ ٨ ﴿وَهَدْيَةً الْبَلَدَيْنِ﴾ ٩ ﴿[البلد:

﴿لَا أَقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ [البلد: 1] الذي هو كعبة آمال أرباب الإرادة والطلب؛ ألا وهو السواد الأعظم اللاهوتي؛ إذ لا حاجة بالقسم لأرباب المعرفة، بل أقسم لأصحاب الغفلة ﴿بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ يعني: مكة - شرفها الله - التي وضعت بيتًا حرامًا، لا يحل لأحد أن يفعل فيها شيئًا من المحظورات المباح.

﴿و﴾ من جملة خواصك التي اصطفيناك وميزناك بها عن سائر الناس يا أكمل الرسل هي أنه: ﴿أَنْتَ حِلٌّ﴾ يعني: أنت لجمعك وجامعيتك وحياسة مرتبتك عموم المراتب، مستحل للتعرض خاصة للقتل والأسر في الحرم من بين عموم الناس؛ لمزيد فضيلتك ومنزلك عند الله، وزيادة خصوصيتك ﴿بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ [البلد: 2] الذي حرم على عموم العباد، وإنما أحل لك أيضًا ساعة من نهار لا أزيد منها، وبعد ذلك يحرم لك أيضًا.

﴿وَوَالِدٍ﴾ أي: أقسم بالوالد الذي هو آدم الصفي عليه السلام في عالم اللاهوت ﴿وَمَا وَلَدٌ﴾ [البلد: 3] منه في عالم الطبيعة بعد هبوطها إلى مضيق الناسوت.

وبالجملة: بحق هذه المقسمات العظام ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ﴾ أي: أظهرنا نشأة ناسوته مغمورًا ﴿فِي كَبَدٍ﴾ [البلد: 4] تعب ومشقة كثيرة، شاغلة لعموم حواسه ومداركه بحيث يستوعب ويحيط بجميع القوى والآلات حوائج المعاش وأسبابه، فاشتغل عن الله بسبب ذلك وترك أمر معاده، فأخذه في كسب الأموال وجمع الحطام والآثام المبعدة عن الحكيم العلام، فصار من غاية استغراقه بالدنيا نسي العقبى، وزلت نعله عن طريق المولى.

لذلك كذب وتولى، واستكبر واستولى، واستظهر بأمواله وأولاده، واستعلى وترقى أمره في الغفلة والغرور إلى أن طغى على الله، وبغى على عباده، وخيل أنه لا يغلب ولا يعلى، كما قال سبحانه مفرغًا عليه مسفها له: ﴿أَيَحْسَبُ﴾ المجبول على الكفر والنسيان ﴿أَنْ لَّنْ يَفْذِرَ﴾ أي: أنه لن يستطيع ﴿عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾ [البلد: 5] فينتقم عنه ويأخذه على ما صدر عنه من العتو والعناد.

ومن كمال بطره وغروره ومفاخرته على بني نوعه ﴿يَقُولُ﴾ على سبيل الخيلاء والسمعة والرياء: ﴿أَهْلَكْتُ﴾ وأنفقت في سبيل الله ﴿مَالًا لُبَدًا﴾ [البلد: 6] مالا كثيرا ملبدا منضدا مجتمعًا متراكما.

﴿أَيَحْسَبُ﴾ ويعتقد ذلك الأحق ﴿أَنْ﴾ أي: أنه ﴿لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ﴾ [البلد: 7] أي: لم يعلم الله إنفاقه ونيته فيه، واعتقاده عليه وإبطاله بالمن والأذى.

وكيف يتأتى إنكار إطلاعنا إياه وإلى ما صدر عنه ١٩ ﴿أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ﴾ ولم نظهر في جسده حين صورناه بمقتضى حولنا وقوتنا وكمال قدرتنا ﴿عَيْنَيْنِ﴾ [البلد: 8] ليصر بهما عجائب صنعتنا وغرائب حكمتنا.

﴿وَلِسَانًا﴾ ليعرب ويترجم به ما جرى في خلده ﴿وَشَفَتَيْنِ﴾ [البلد: 9] مبينين على التكلم والتعريب على وجه الإفصاح والتوضيح.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ﴾ [البلد: 10] أي: طريق الخير والشر، والهداية والضلال، واختبرناه بهما وابتليناه أي طريق يختار لنفسه بعدما وفقناه لكليهما ونبهناه عليهما ١٩

﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾ ١١ ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ﴾ ١٢ ﴿فَكُ رَقِيبٌ﴾ ١٣ ﴿أَوْ إِطْعَمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبٍ﴾ ١٤ ﴿يَتِيمًا ذَا مَقْرَبٍ﴾ ١٥ ﴿أَوْ مَسْكِينًا ذَا مَتْرَبٍ﴾ ١٦ ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَةِ﴾ ١٧ ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ ١٨ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّا بَنَيْنَاهُمْ أَصْحَابَ الْمَشْأَمِ﴾ ١٩ ﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤَصَّدَةٌ﴾ ٢٠ [البلد: 11-20].

وبعدما أعطيناه ما أعطيناه وهديناه ﴿فَلَا اقْتَحَمَ﴾ وما دخل الإنسان ﴿الْعَقَبَةَ﴾ [البلد: 11] أي: الكؤودة الوعرة على نفسه الشاقة لها، حتى يؤدي شكر ما أعطيناه.

ثم أبهمها سبحانه تعظيمًا وتفخيماً فقال: ﴿وَمَا أَذْرَاكَ﴾ أيها المغرور بالحياة المستعار ولوازمها ﴿مَا الْعَقَبَةُ﴾ [البلد: 12] الكؤودة في طريق أهل الإيمان والعرفان.

ثم بيّنها بقوله: ﴿فَكُ رَقِيبٌ﴾ [البلد: 13] أي: العقبة الكؤودة فك الرقبة عن رقبة الأمان والأمال.

﴿أَوْ﴾ العقبة ﴿إِطْعَامٌ﴾ على فقراء الله وعجزة عباده ﴿فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبٍ﴾ [البلد: 14] أي: حاجة شديدة وجوع مفرط.

يعني: ﴿يَتِيمًا ذَا مَقْرَبٍ﴾ [البلد: 15] أي: له قرابة إلى المطعم.

﴿أَوْ مَسْكِينًا ذَا مَتْرَبٍ﴾ [البلد: 16] أسكته الفقر وأغبره في تراب

المذلة والصغار.

﴿ثُمَّ﴾ بعدما أقدم على اقتحام العقبة المذكورة ﴿كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله، وأيقنوا أن ما في أيديهم لله، وهم منفقون بإقدار الله في سبيل الله ﴿وَو﴾ مع إيمانهم بالله واتصافهم بالأعمال الصالحة المؤكدة لإيمانهم ﴿تَوَاصَّوْا﴾ بينهم؛ أي: أوصى بعضهم بعضاً ﴿بِالصَّبْرِ﴾ على مشاق التكاليف الإلهية ومتاعب الطاعات المأمورة لهم ﴿وَو﴾ كذلك ﴿تَوَاصَّوْا﴾ بينهم ﴿بِالْمَرْحَمَةِ﴾ [البلد: 17] والشفقة على عباد الله وتعظيمهم، والتحنن نحوهم، والإحسان معهم ولو بكلمة طيبة.

﴿أُولَئِكَ﴾ السعداء، الموصوفون بلذة الكرامة العظمى ﴿أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ [البلد: 18] عند الله؛ أي: ذوي الثمن والكرامة وأنواع اللطف، وأعلى الدرجة والمقامة.

ثم قال سبحانه على مقتضى سنته المستمرة في كتابه: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وكذبوا ﴿بِآيَاتِنَا﴾ الدالة على عظمة ذاتنا، وكمالات أسمائنا وصفاتنا ﴿هُمُ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾ [البلد: 19] أي: ذوو الملامة والندامة، المأخوذون بشؤم كفرهم ومعاصيهم، المجزيون بفواصد ما اقترفوا من الجرائم والآثام.

لذلك ﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤَصَّدَةٌ﴾⁽¹⁾ [البلد: 20] مطبقة، مغلقة، مكتوبة بحيث لا يمكنهم من لوازمها: التنفس فيها أصلاً؛ لكونهم منهمكين في النشأة الأولى في لوازم الإمكان بحيث لا يمكنهم في لوازمها ومقتضياتها. نعوذ بك من النار، وما قرب إليها يا غفار.

خاتمة السورة

عليك أيها المترقب للكرامة الإلهية والسعادة الأبدية - يشر الله لك طريق الوصول إليه - أن تشتغل بصوالح الأعمال، وتجتنب عن فواصدها وتكتسب الأخلاق المرضية المقربة إلى الله، المبعدة عن شامة أصحاب الزيغ والضلال، المنهمكين في بحر الغفلة بأنواع الشهوات واللذات البهيمية والوهمية الفانية، العائقة من الوصول إلى

(1) قال علاء الدولة: يعني: عليهم نار مطبقة عليهم الأبواب لا يدخل عليهم روح من عالم الروح، ولا يخرج من داخلهم كرب وغم بأنهم كسبوا هذه النار المؤصدة بكفرانهم وطغيانهم اللطيفة في عالم الكسب.

اللذات الروحانية الباقية.

وإياك إياك الاختلاط مع أصحاب الثروة المفتخرين بالمال والجاه، المتصفين بالنخوة الحاصلة منها، فإن صحبتك معهم تزل قدمك عن منهج التوكل، وتميل قلبك عن الرضا والتسليم.

ثبت أقدامنا على جادة توحيدك يا ذا القوة المتين.

سورة الشمس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فاتحة سورة الشمس

لا يخفى على من انكشف بوحدة الوجود، وسريان شمس الذات على صفائح ذرات المظاهر والمجالي الفانية الإلهية والإحصاء أن انبساط الحق وظهور الوجود إنما هو على مقتضى الجود الإلهي، وحسب اقتضاء رقائق الأسماء والصفات الكاملة المندرجة فيه للظهور والجللاء بمقتضى الحب الذاتي، المنبعث عن التجلي الجمالي على شئون متنوعة وأطوار شتى.

لذلك أقسم سبحانه بكمليات الأطوار، وابتداً بظهور شمس الذات، التي هي ينبوع بحر الوجود، فقال بعد التيمن: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ المنزه عن الظهور والبطون بحسب ذاته ﴿الرَّحْمَنُ﴾ أي: وحق شمس الذات الأحدية لإظهار كمالات أسمائه وصفاته ﴿الرَّحِيمُ﴾ بإخفائها في وحدة ذاته.

﴿وَالشَّمْسُ وَخُسْفَاهَا﴾ ١ ﴿وَالْقَمَرُ إِذَا فَتَنَاهَا﴾ ٢ ﴿وَالنَّهَارُ إِذَا جَلَّاهَا﴾ ٣ ﴿وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَاهَا﴾ ٤ ﴿وَالسَّمَاءَ وَمَا بَنَاهَا﴾ ٥ ﴿وَالْأَرْضَ وَمَا طَعْنَاهَا﴾ ٦ ﴿وَتَقْوَاهَا﴾ ٧ ﴿وَالْمَاءَ فَجُورَهَا﴾ ٨ ﴿وَتَقْوَاهَا﴾ ٩ ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ ١٠ ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ ١١ [الشمس: 1-10].

﴿وَالشَّمْسُ﴾ أي: وحق شمس الذات الأحدية، المتألثة من سماء عالم الأسماء العماء، وأفق فضاء اللاهوت ﴿وَوَ﴾ بحق ﴿ضُحَاهَا﴾ [الشمس: 1] ⁽¹⁾ المنبسط على

(1) قال روزبهان: أقسم الله بشمس جلال قدمه إذا ارتفعت من مشارق قلوب العارفين، فنور بسنانها أسرارهم، وأيضاً أي: وشمس عرفانهم حين أشرقت بنور الإيقان، وأررت لهم لطائف العيان والبيان، وقمر صفاته إذا تتابعت أنوارها عقيب كشوف أنوار ذاته في فؤاد المقربين، وأيضاً أي: بقمر الإيمان إذا تلا شمس العرفان، ونهار صباح الأزل إذا تجلّى لأرواح الموحدين والصديقين، وليل تحير أهل الفناء في ميادين وحدانيته؛ حيث لا يدركون منافذ درك الحقائق، وأيضاً أي:

مرآة العدم القابلة لانعكاسها.

﴿وَقَدْ حَقَّ الْقَمَرُ﴾ أي: الوجود الإضافي الكلي، المحيط على مطلق العكوس والأظلال المنعكسة من مرآة العدم، التي هي عبارة عن سراب العالم غيبًا وشهادة ﴿إِذَا تَلَاهَا﴾ [الشمس: 2] تبعها ولحقها؛ أي: شمس الذات في الإحاطة والشمول.

﴿وَالنَّهَارُ﴾ أي: نشأة الظهور والبروز المنعكسة من عالم الأسماء والصفات ﴿إِذَا جَلَّاهَا﴾ [الشمس: 3] أي: شمس الذات، وفصلت آثار أسمائها وصفاتها الكامنة فيها على صفحات الكائنات.

﴿وَاللَّيْلُ﴾ أي: نشأة البطون والخفاء المنعكسة من عالم العماء، والسواد الأظلم الذي اضمحلت دونه نفوس عموم الكثرات، وتلاشت آثار الأسماء والصفات لكمال تشعشعها وبريقها ﴿إِذَا يَغْشَاهَا﴾ [الشمس: 4] حيث خفيت شمس الظهور من إفراط النور وكمال تشعشعها في البريق والظهور.

﴿وَالسَّمَاءُ﴾ أي: سماء الأسماء والصفات المزينة بنجوم الآثار والشئون المترفة عليها ﴿وَمَا بَنَاهَا﴾ [الشمس: 5] من التجليات الحبية الجمالية والجلالية.

﴿وَالْأَرْضُ﴾ أي: استعدادات القوابل السفلية، القابلة لانعكاس آثار العلويات ﴿وَمَا طَخَّاهَا﴾ [الشمس: 6] ونشرها من الآثار المرتبة على الصفات الفعالة الإلهية.

﴿وَنَفْسٍ﴾ أي: روح فائضة من عالم الأسماء والصفات على هياكل المسميات وقوابل العلويات والسفليات؛ ليستفيد بتذكر الموطن الأصلي والمنشأ الجبلي ﴿وَمَا سَوَّاهَا﴾ [الشمس: 7] أي: عدلها وركبها ممتزجة من الآثار العلوية والسفلية.

وبعد ما سواها وعدلها كذلك ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ [الشمس: 8] على مقتضى ما أودع فيها من الآثار العلوية والسفلية، ثم كلّفها بما كلّفها؛ لتمييز المحق من

بليل قهريات عظمته إذا تغشى بعين الامتحان أفئدة الطالبين والمطلوبين؛ لأن الكل في ضرب هذا البلاء، حتى قال سيد الوري ﷺ: «إِنَّهُ لِيَغَانُ عَلَى قَلْبِي»، وسماء قلوب المحجّين فيها أبراج الغيوب تسري فيها نيرات كشوقات الملكوت والجبروت وما بينهما، أقسم بالفعل، ثم بالصفة، ثم بالذات، وجميعها خبرٌ عن عين الجمع في الحقيقة، وفي عين التفرقة من حيث رسم الحقيقة، وأرض عقول العارفين التي هي مساقط شروق أنوار المشاهدة.

المبطل، والضال من الهادي، والكافر من المؤمن؛ تمييزاً للحكمة المتقنة البالغة الإلهية وإظهاراً للقدره الغالبة.

ثم قال سبحانه جواباً لهذه المقسمات المذكورة على سبيل الكناية والتنبيه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾ وفاز بما أفلح، وفاز عند الله من الدرجات العلية ﴿مَنْ زَكَّاهَا﴾ [الشمس: 9] أي: طهر نفسه عن الرذائل السفلية، ومقتضيات اللاهوتية الإمكانية وأمانيتها.

﴿وَقَدْ خَابَ﴾ خسر وهلك ﴿مَنْ دَسَّاهَا﴾ [الشمس: 10] أنقص عن كمالاتها وأضلها؛ حيث حملها على اقتراف المعاصي والآثام المترتبة على سفليات الطبائع والهبولى ورذائل الإمكان المورث لها أنواع الخيبة والخسران، وأصناف الحرمان والخذلان.

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَنِهَا﴾ ١١ ﴿إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا﴾ ١٢ ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا﴾ ١٣ ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا﴾ ١٤ ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾ ١٥ [الشمس: 11-15].

لذلك ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ﴾ المبالغ في إهلاك النفس وتضليلها وتقريرها بمن أرسل إليها وأمر لإرشادها، حين انحرفت عن جادة العدالة ﴿بِطَغْوَاهَا﴾ [الشمس: 11] أي: بسبب طغيانها وتقليبها حظوظ السفليات على حظوظ العلويات، وبعنوان القوى الأمانة على جنود المطمئنة، وبانقهار نشآت اللاهوت بغلبة مقتضيات الناسوت.

وذلك أنهم قد بالغوا في العتو والعناد والتكذيب والإفساد، سيما وقت ﴿إِذِ انْبَعَثَ﴾ أي: قام وأقدم مسرعاً ﴿أَشْقَاهَا﴾ [الشمس: 12] أي: أشقى القبيلة وأرداها وأضلها عن طريق الحق - وهو: قدار بن سالف - إلى عقر الناقة المعهودة المحفوظة المخصصة بالوصية الإلهية.

وبعدما صمم عزمه إلى العقر ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ﴾ وهو صالح عليه السلام على مقتضى شفقة النبوة: ذروا ﴿نَاقَةَ اللَّهِ﴾ واحذروا عقرها، وبالجمله: لا تمسوها بسوء مطلقاً، فياخذكم عذاب عظيم ﴿وَسُقْيَاهَا﴾ [الشمس: 13] التي عين الله لها، ولا تذبوها عن الماء.

﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ ولم يقبلوا قول الرسول، واجتمعوا على عقرها ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ فخرج الرسول من بينهم؛ خوفاً من حلول عذاب الله وسطوة قهره وجلاله، وبعدما ارتكبوا

المحظور المنهي ﴿قَدْ مَدَمَ عَلَيْهِمْ رَيْثُهُمْ﴾ أي: طبق عليهم الصيحة الهائلة، فأهلكهم بها بالمرّة ﴿بِذَنْبِهِمْ﴾ الذي صدر عنهم، وهو تكذيب الرسول المرشد لهم من قبل الحق ﴿فَسَوَّاهَا﴾ [الشمس: 14] أي: سوى الدمدمة عليهم، وأعمت بينهم بحيث لا ينجو منهم أحد، وبالجملّة: أقدم العاقر اللعين على عقرها، واتفقوا معه.

﴿وَلَا يَخَافُ﴾ هو وهم ﴿عُقْبَاهَا﴾ [الشمس: 15] أي: ما يعقب عقرها ويتبعها من أنواع البلاء والمصيبة والعناء، وأخبرهم بها الرسول فكذبوه واستهزءوا معه؛ لذلك لحقهم من سيئات أعمالهم.

نعوذ بك من سيئات الأعمال، وتشئت الأحوال، وتفاقم الأحوال.

خاتمة السورة

عليك أيها الطالب للفلاح الأبدي والصلاح السرمدي المترتب على العناية الإلهية وفضله أن تصفي نفسك عن مقتضيات الإمكان وظلمات الهوى والأركان، حتى تأمن عن طغيانها وعدوانها، فلك أن تحليها بالمعارف والحقائق ومحاسن الشيم والأعمال والخلاق الموجبة لفيضان لوازم الكشف والشهود، المخلص عن مطلق القيود لقراءة إطلاق الوحدة الذاتية المسقطة لعموم الكثرات المتفرعة على الإضافات الطارئة على التعينات العدمية.

وفقنا الله لتخليّة النفوس عن مطلق الرذائل، وتحليتها لمحاسن الشيم والخصائل.

سورة الليل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فاتحة سورة الليل

لا يخفى على المنكشفين بنشآت الحق وشئونه الغيبية والشهادية أن تنزلات الحق عن مطلق العماء اللاهوتي نحو قضاء الناسوت على أطوار متفاوتة، وشئون شتى حسب اقتضاء رقائق أسمائه الذاتية المقتضية للظهور والجلاء.

لذلك أقسم سبحانه بنشأتي الغيب والشهادة، وما امتزج منهما في البرزخ الجامع الإنساني المحتوي على نشأتي الغيب والشهادة، المتفرعة عليهما التكاليف الإلهية، فقال بعد التيمن: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ المتجلي على عموم شئونه المترتبة على أسمائه الغير، المحصورة ﴿الرَّحْمَنِ﴾ لجميع مظاهره، حيث يطلعها على ذاته؛ ليتوجه الكل نحوه طوعاً ﴿الرَّحِيمِ﴾ لنوع الإنسان؛ حيث تبه عليه سر سريان وحدته الذاتية على صحائف الكثرات المترتبة.

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى ۝١ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى ۝٢ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ۝٣ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى ۝٤ فَأَمَّا مَنْ أَهْلَى وَآلَى ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ۝٦ فَسَيَّرُهُ لِلْيُسْرَى ۝٧ وَأَمَّا مَنْ يَخْلُ وَاسْتَفْتَى ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ۝٩ فَسَيَّرُهُ لِلْعُسْرَى ۝١٠ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى ۝١١﴾ [الليل: 1-11].

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى﴾ [الليل: 1] أي: وحق الهوية الغيبية الإلهية المتمكنة في مكنن العماء، المغشي لنفوش الكثرات المترتبة على الأسماء والصفات من شدة بريقها ولمعانها.

﴿وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى﴾ [الليل: 2] أي: وحق الهوية الشهادية الإلهية، الظاهرة في عالم البروز والجلاء، المظهرة لأثار الأسماء والصفات إظهاراً للحكمة البالغة التي هي ترتب الإيمان والعرفان على تلك الآثار.

﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى﴾ [الليل: 3] أي: وحق القادر الحكيم الذي خلق وقلدر وصور برزخ الإنسان المصور على صورة الرحمن، الجامع لعموم مراتب الأكوان؛

حيث ركبته وأودع فيه من الحصص اللاهوتية الغيبية والناسوتية الشهادية، ثم كلف بالتكاليف الشاقة؛ ليرقى من حضيض الناسوت إلى ذروة اللاهوت؛ لذلك استخلفه واصطفاه وانتخبه من عموم مظاهره؛ ليرتب على مرتبة هذه المصلحة العلية والمصلحة السنية، وإنما خلقه زوجاً؛ ليدوم في نشأة الشهادة وجود مرتبته التي هي الغاية القصوى لنشأة الشهادة.

ثم قال سبحانه جواباً للقسم، مخاطباً على أفراد الإنسان؛ تربية لهم وتنبهاً على مفاسدهم ومصالحهم: ﴿إِنْ سَأَلْتُمْ﴾ الذي سعيتم به أيها المكلفون في نشأة الاختبار ﴿لَشَيْءٍ﴾ [الليل: 4] مختلفة متفاوتة حسب تفاوت ما أودع الله فيكم من الحصص المذكورة.

﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى﴾ مما ساق له الحق من الرزق الصوري والمعنوي، مقارناً للخشوع والخضوع وخلوص النية والطوية وأنواع الطاعات والعبادات المأمورة له ﴿وَأَتَّقَى﴾ [الليل: 5] عن مطلق المحارم والمنهيات التي وردت الزواجر الإلهية فيها. ﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى﴾ [الليل: 6] أي: صدق بعموم مقتضيات الأسماء الإلهية وبآثار صفاتها العليا التي لا تعد ولا تحصى.

﴿فَسُيِّرَ﴾ أي: نُعِدَّ ونوَفِّقَه ﴿لِلْيُسْرَى﴾ [الليل: 7] للطريق السهلة الموصلة إلى مقصد التوحيد، والمعرفة المنجية عن غياهب الشكوك وظلمات الأوهام. ﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ﴾ ولم ينفق على مقتضى ما أمره الحق ﴿وَأَسْتَفْتَى﴾ [الليل: 8] عن مقتضيات الأسماء ﴿وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى﴾ [الليل: 9].

﴿فَسُيِّرَ﴾ ونستعده ﴿لِلْعُسْرَى﴾ [الليل: 10] أي: للطريق البعيرة الوعرة، التي هي طريق الكفر والمعصية المؤدية إلى أودية الشهوات الإمكانية، المستلزمة للدركات النيرانية.

﴿وَ﴾ بعدما نأخذه في النشأة الأخرى بسبب بخله وكفره ﴿مَا يُغْنِي﴾ يكف ويدفع ﴿عَنْهُ مَالَهُ﴾ شيئاً من غضب الله ﴿إِذَا تَرَدَّى﴾ [الليل: 11] أي: هوى وهلك في قعر جهنم الإمكان وسعير النيران.

﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى﴾ ١٢ وَلَئِنَّا لِلْآخِرَةِ وَالْأُولَى ١٣ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى ١٤ لَا يَسْلَوْنَهَا إِلَّا الْآسَفَى ١٥ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى ١٦ وَسَيُجَنَّبُهَا الْآتَفَى ١٧ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى ١٨ وَمَا لِأَحَدٍ

عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَى ﴿٢١﴾ [الليل: 12-21].

ثم قال سبحانه تعريضا للمسرفين المفرطين: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى﴾ [الليل: 12] يعني: ما علينا من إصلاحكم إلا الهداية والإرشاد، فهديناكم ولم تهتدوا. ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى﴾ [الليل: 13] يعني: ما لنا إلا التبيين والتنبيه بأن الآخرة خير من الأولى، فبيننا طريق المعاش في النشأة الأولى، وطريق التزود والتهيئة للآخرة، فلم تقبلوا منا، ولم تمثلوا بما بيننا، ومع ذلك أكدنا هدايتكم وإرشادكم بالإنذار البليغ.

﴿فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى﴾ [الليل: 14] تتوقد وتتلهب من شدة سورتها. وبيننا لكم أيضا أنها ﴿لَا يَضِلَّهَا﴾ ولا يدخل فيها ﴿إِلَّا الْأَشْقَى﴾ [الليل: 15]. ﴿الَّذِي كَذَّبَ﴾ بالكتب الإلهية وما فيها من الأحكام ﴿وَتَوَلَّى﴾ [الليل: 16] أعرض عن الرسل، وانصرف عن دعوتهم، ومع ذلك لم يقبل منا. ﴿وَكَاذِبًا بَيْنَا لَكُمْ أَيُّهَا الْمَكْلُفُونَ﴾ أي: يُبعد عن النار المسعرة في دركات الجحيم ﴿الْأَثْقَى﴾ [الليل: 17].

﴿الَّذِي يُؤْتِي﴾ يعطي ويتصدق ﴿مَالَهُ﴾ في سبيل الله؛ طلبنا لمرضاة الله على فقراء الله كيف ﴿يَتَزَكَّى﴾ [الليل: 18] ويتطهر عن قاذورات الدنيا، ولم يبق في قلبه سوى المولى حتى وصل إلى سدرة المنتهى، ومع وجود هذه الآيات لم يتنبهوا ولم يتفطنوا. ﴿وَمَا لَأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى﴾ [الليل: 19] يعني: ما يصح ويليق لأحد أن يتصدق بماله على طمع الجزاء والعوض والمكافأة، بل اللائق بحاله ألا يعطي ما يعطي على من يعطي.

﴿إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى﴾ [الليل: 20] يعني: طلبنا للقاء الله في يوم الجزاء لا الثناء الدنيوي ولا للثواب الأخروي، بل رجاء أن يلقي ربه ويطلع وجهه الكريم. ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَى﴾⁽¹⁾ [الليل: 21] عن الله، بالفوز بشرف اللقاء عند

(1) قال علاء الدولة: أي: عن قريب يرضى عنه ربه بإعطائه إياه وعده من المقام المحمود أحده قبول شفاعته في أمته الخاطئة، وهذه أرجى آية في كتاب الله للامة الخاطئة فاجتهد إن تكون مستقيما في اعتقادك باللطفية الخفية التي هي فيك مودعة، متيقنا بما أخبرتك اللطفية الخفية عن الغيوب

كشف الغطاء.

اللهم ارزقنا لقاءك يوم نلقاك.

خاتمة السورة

عليك أيها الطالب لرضاء الله، والراجي مطالعة جمال الله وجلاله أن تحسن الأدب مع الله في عموم أحوالك في النشأة الأولى، وتزكي نفسك عن مطلق الأمانى والآمال الشاغلة عن التوجه نحوه، فعليك التبتل والاجتهاد على وجه الإخلاص والتوفيق من الله يهديك إلى سبيل الرشاد.

وإياك إياك أن تلتفت إلى مزخرفات الدنيا الدنية، فإنها تلهيك عن الدرجات العلية الآخروية، وتغويك إلى الدركات الهوية الجهنمية الإمكانية، فلك أن تطرح كلها حتى تخلص عن غوائلها.

جعلنا الله ممن تنفر عن الدنيا وما فيها.

سورة الضحى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فاتحة سورة الضحى

لا يخفى على من دخل تحت قباب العز الإلهي، وفني في هويته أن عموم أحوال العباد وأخلاقهم أطوارهم بعدما انخلعوا عن لوازم ناسوتهم، واتصفوا بخلع اللاهوت وصارت راجعة إلى الله، مستندة إليه، صادرة منه سبحانه، وهم حيثئذ في كنف حفظه وحضائنه، يرقبهم حيث شاء بمقتضى حكمته البالغة.

ولاشك أن أفضل من تخلق بأخلاق الله، وخير من دخل تحت حیطة حضائنه سبحانه، وتمكن في سواد أعظم اللاهوت، هو نبينا صلوات الله عليه وسلامه؛ لذلك خاطب معه سبحانه خطاب ملاطفة وتكريم، وسلّاه عمّا زور المشركون في شأنه من أنه قد قلاه ربّه وودّعه.

وبالغ سبحانه في تسليته حيث أقسم بما أقسم بعد التيمن ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ الذي ظهر على حبيبه ﷺ حتى أخرجه عن مضيق الناسوت، مهاجرًا إلى فضاء اللاهوت ﴿الرَّحْمَنُ﴾ لعموم عبادته؛ حيث أرسل حبيبه ﷺ إليهم رحمة للعالمين ﴿الرَّحِيمُ﴾ لخواصهم يرشداهم بمتابعته إلى روضة الرضا وجنة التسليم.

﴿وَالضُّحَى﴾ ① وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى ② مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ③ وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى

④ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى ⑤ [الضحى: 1-5].

﴿وَالضُّحَى﴾ [الضحى: 1] أي: وحق شروق الذات الأحدي الصمدي عند

ضحى بعثة الحضرة الأحمدية.

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى﴾ [الضحى: 2] أي: وحق الانجلاء التام المنعكس من عالم

العماء اللاهوتي، المغشي لمطلق الأضواء والأنوار المتفاوتة المرئية في نشأتي الغيب والشهادة، المقتبسة من الأسماء والصفات، المستتبعة للإضافات المتكثرة في عالم التفضيل.

﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ﴾ وقطع عنك قطع المودّع ﴿رَبُّكَ﴾ الذي ربّاك على عينه واصطفاك

لنفسه ﴿وَمَا قَلَى﴾ [الضحى: 3] أي: ما أبغضك؛ يعني: لا تحزن من قول المشركين وزعمهم في حَقِّك أنك ودعك ربك وقلاك في نشأتك الأولى، بل رعاك واتصل بك في آخرك.

﴿وَلَا خِرَّةٌ﴾ التي هي نشأة لاهوتك ﴿خَيْرٌ لَّكَ﴾ وأليق بحالك ﴿مِنْ﴾ نشأتك ﴿الأولى﴾ [الضحى: 4] التي هي نشأة ناسوتك.

وكيف لا تكون الآخرة خيراً لك من الدنيا؛ إذ هي باقية ببقاء الله، دائمة بدوامه، وهذه محدثة فانية، بل باطلة زاهية، زائلة بزهوق التعينات وبطلان الأوضاع والإضافات التي هي حاصلة منها.

﴿و﴾ لا تحزن أيها النبي المستوي على جادة العدالة اللاهوتية من هذيانات أهل الضلال ﴿لَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ﴾ بعد انخلاعك من ملابس ناسوتك ومقتضيات بشريتك من اللذات اللاهوتية التي لا يدرك كنهها إلا من اتصف بها، وذاق منها ﴿فَتَرْضَى﴾ [الضحى: 5] ⁽¹⁾ حيثئذ من ربك، ورضي بك عنك.

﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى﴾ ١ ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾ ٢ ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾ ٣
فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ٤ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ٥ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ٦ [الضحى: 6-11].

وبعد ما سمعت يا أكمل الرسل من الوعد الإلهي ما سمعت تذكر كرم ربك منك فيما مضى، وترقب من كراماته التي ستأتيك، وبالجمل: لا تيأس من روح الله ورحمته، وكيف تيأس أيها النبي المغفور في بحار لطفه وجوده؟ ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ﴾ ويصادفك ربك مع كونك ﴿يَتِيمًا﴾ بلا رشد ومرشد ﴿فَأَوَى﴾ [الضحى: 6] أي: ضمك نحوه، سبحانه وجذبك عنك إليه، وقرن اسمك باسمه.

(1) قال روزبهان: هذه بشارة لأمته المرحومة، فإنه لا يرضى حتى يدخل الله جميع أمت الجنة بلا حساب ولا عتاب ولا حجاب، وكيف يرضى العاشق من معشوقه حتى يكون هو المعشوق بصير هو هو، ولا يكون ذلك إلا بعد فناء نعوت الحدث في نعوت القدم. قال ابن عطاء: كأنه يقول لنيه: أفترضى بالعطاء عوضاً عن المعطي؟ فيقول: لا فقيل له: ﴿وَأَنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ أي: على همة جليلة؛ إذ لم يؤثر فيك شيء من الأكوان، ولا يرضيك شيء منها.

﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا﴾ خاليًا عن الحكم والأحكام، منهمكًا في لوازم الإمكان
﴿فَهَدَى﴾ [الضحى: 7] أي: هداك وأرشدك إلى الإسلام، وأوصلك إلى زلال التوحيد
والعرفان.

﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا﴾ فقيرًا حسب إمكانك ومقتضيات بشريتك الموروثة لك من
نشأة ناسوتك ﴿فَأَغْنَى﴾ [الضحى: 8] أي: أغناك بغناؤه بعدما أفناك فيه، وشرفك بخلق
اللاهوت بعدما أخرجك عن ملابس الناسوت.

وبعدما كنت يتيمًا فأواك ربك، ووجدك ضالًا فهداك، ووجدك فقيرًا فأغناك،
وبالجملة: كرمك واصطفاك وعظمتك واجتباك ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ﴾ الفاقد للرشد والرشيد
﴿فَلَا تَقْهَرْ﴾ [الضحى: 9] متى يأوي إليك للاسترشاد لا تردعه ولا تزجره، وكلّم معه
حسب استعداده وقابليته إلى حيث توصله وترشده إلى طريق الطلب والإرادة.

﴿وَأَمَّا السَّائِلَ﴾ الذي يسأل من مكنونات ضميرك ومن السرائر المودعة فيك من
الودائع اللاهوتية ﴿فَلَا تَنْهَزْ﴾ [الضحى: 10] أي: لا تمنعه ولا تخييه، بل أحسن إليه
كما أحسن الله إليك حسب استفاضته واستعداده.

﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ﴾ وهدايته وإرشاده ﴿فَحَدِّثْ﴾⁽¹⁾ [الضحى: 11] يا أكمل
الرسل مع المسترشدين المستكملين، فإن حديثك من سرائر الدين وأسرار المعرفة
وايقين مع المؤمنين المسترشدين والطلابين، المستوجبين الشكر منك لنعم الله وأداء
لمحقوق كرمه واستجلاب لمزيد إنعامه وإفضاله.

(1) قال السمناني: أي: بنعمة معارف الحقائق اللاهوتية التي ريناك بصفات الربوبية ثم أنعمنا بها
عليك فحدث مع كل أحد من أمم قواك على قدر عقولهم ولأجل هذا قال ﷺ «نحن معاشر
الأنبياء أمرنا أن نكلم الناس على قدر عقولهم» وأوتي ﷺ في هذا المقام جوامع الكلام بحيث لو
تكلم بكلمة وجيزة أخذ منها الخاص والعام كلهم على قدر استعدادهم، فأيديهم وكانت مندرجة
في كلمة الوجيزة معان كثيرة فاجتهد بها السالك أن تكون في هذا المقام مؤدبًا بأداب رسولك
مع ربك متخلق بخلق الله مع خلق الله في عالم شهادتك وغيبك ليتمكن لك أن تؤدي حق هذا
المقام وتتمتع بعده بالمقام المحمود المخصوص بمحمد أحمد للخلائق بأخلاقه الحميدة
القاسم بين الخلق رزق خلق الخلائق، وفيه أسرار تتعلق بحد القرآن فادرج أيها الإنسان الغالب
عليك النسيان وتوكل على الرحيم الملك المستعان الملك الدنيا في السرور والأحزان لتكون
في ملكك وملكوتك مهدي إلى آخر الزمان.

خاتمة السورة

عليك أيها المحمدي الملازم لتعديد نعم الحق على نفسك أن تداوم وتواظب على أداء حقوق ما وصل إليك من النعم العظام والكرم الجسام، فلك أن تحدث في عموم أوقاتك وحالاتك عن كرم مولاك، وتشكره على ما أولاك من الآلاء والنعماء في أولاك ووعد لك في أخراك.

وبالجملة: كن من الشاكرين لنعم الله، المحذّثين بحقوق كرمه، ولا تكن من الغافلين في حال من الأحوال، وسبح بحمد ربك بالغدو والأصال.

سورة الشرح

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فاتحة سورة ألم نشرح

لا يخفى على من شرح الله صدره للإسلام، ووشع قلبه لقبول عموم الأحكام إلى حيث وُشِعَ الحق فيه مع شثونه وتطوراته الغير المتناهية، المترتبة على أسمائه وصفاته أن تفسيح الصدر وتوسيعه إنما هو من علامات العناية الإلهية لخلص عباده؛ إذ مقام الخلقة والخلافة إنما يترتب على هذا الشرح والتوسيع، وهو من أعظم الفتوحات الإلهية.

لذلك خاطب سبحانه حبيبه ﷺ في مقام الامتنان به، وعاتبه عليه؛ تنبيهاً على جلالة شأنه ورفعته مكانه عند الله، فقال متيمناً باسمه، مستفهماً على سبيل التأكيد والتقرير: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ الذي شرح صدور عباده لقبول سرائر المعرفة واليقين ﴿الرَّحْمَنِ﴾ عليهم بدفع الأوزار والأثقال المانعة عن القبول بعدما هداهم إلى الطريق المستبين ﴿الرَّحِيمِ﴾ لهم، يُعليهم ويرفع ذكرهم بعدما أخرجهم عن مقتضيات بشريتهم إلى أعلى عليين.

﴿أَلَمْ تَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ ① وَوَضَعْنَا عَنكَ ② وَزَرَكَ ③ أَلَمْ تَنْقُصْ ظَهْرَكَ ④ وَرَفَعْنَا لَكَ ⑤ ذِكْرَكَ ⑥ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ⑦ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ⑧ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ⑨ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ⑩ ﴿الشرح: 1-8﴾.

﴿أَلَمْ تَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح: 1] ⁽¹⁾ يا أكمل الرسل من اجتبتنا، واصطفينا

(1) قال الورتجي: شرح صدره - صلوات الله وسلامه عليه - طلوع شمس جلال الحق فيه، فأضاء منه روحه وقلبه وعقله، وطار روحه في الأزل، وطار عقله في الأبد، وطار قلبه في الجبروت، ونفسه في الملكوت، فتولَّى الحق شرح صدره بنفسه لا بغيره، وذلك حين ظهر لسره ذاته القديم، وصفاته الأزلية، فصار موسعاً مبسوطاً بوسع الذات والصفات، فشزحه يزيد إلى الأبد؛ لأن جلال الحق لا نهاية له، وكان صدره محل تجلّي الحق، فبقي مع الحق في ساحة

للنيابة والرسالة، ولم تفسح ونوسع خلدك لقول الآيات الواردة عليك منّا، والامثال بالأحكام الموردة من لدنا، مع كونك أميّا، عارياً، خاليّاً عنها وعمّا يترتب عليها؟.

وبعدما شرحنا لك صدرك لشعائر الإسلام ومعالم الدين ومراسم التوحيد اجتبيناك للرسالة والتبليغ إلى عموم الأنام ﴿وَقَدْ﴾ بعدما أمرناك بالرسالة ﴿وَضَعْنَا﴾ أي: أزلنا ﴿عَنكَ وَزَرَكْ﴾ [الشرح: 2] أي: ثقلك الطارئ عليك من حمل أعباء الرسالة وأداء التبليغ.

﴿الَّذِي﴾ من غاية شدته وثقله ﴿أَنْقَضَ﴾ أي: قصم وكسر ﴿ظَهَرَكَ﴾ [الشرح: 3] لأنك أمي، ذاهل عن مطلق الأحكام، مأمور بها؛ لذلك ثقل وضاق عليك الأمر.

﴿وَقَدْ﴾ بعدما وفّقناك على تبليغ الرسالة، وأيدناك بالآيات الموردة المتزلة في موارد الأحكام ﴿زَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: 4] حيث قرنا اسمك باسمنا، وخلّفناك عنّا واخترناك لخلافتنا ونيابتنا؛ لذلك أنزلنا في شأنك: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: 80]، ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَكَ إِنَّمَا يَتَّبِعُونَ اللَّهَ﴾ [الفتح: 10] إلى غير ذلك من الآيات، وأي رفع وكرامة أعلى وأعظم من ذلك؟

وبعدما كرمناك بأمثال هذه الكرامات العلية لا تياس من سعة روحنا ورحمتنا وإعانتنا وإغاثتنا، ولا تحزن على أذى قومك واستهزائهم، وتطاول معاداتهم وعنادهم معك ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ﴾ الذي قد عرض عليك ولحق بك من قبلهم ﴿يُسْرًا﴾ [الشرح: 5] ناشئاً من قبل الحق، مقابلاً واصلاً إليك من حيث لا تحسب.

ثم كرر سبحانه تأكيداً ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ﴾ الذي ألم بك الآن ﴿يُسْرًا﴾ [الشرح: 6] منّا مترقباً كيفما اتفق.

وفي تعريف العسر وإعادته معرفة وتنكير اليسر وإعادته نكرة أيضاً إشعار بقلّة طرق العسر وأسبابه، وكثرة طرق اليسر وموجباته.

يعني: لا تياس من العسر الطارئ عليك أحياناً معهودة معدودة عن يسر ملازم لك في أكثر الأوقات والأزمان، مصاحب معك في جميع حالاتك.

الكبرياء حيث لا حيث ولا زمان ولا مكان، بل نور اللات في نور الصفات، ونور الصفات في نور الذات، فهو بين النورين محتجباً بأنوار الحقيقة عن أوهام الخليفة.

وبعدما أمرناك بتبليغ الرسالة وأرسلناك لنشرها، فلك أن تمثل بالمأمور على مقتضى الوحي والإلهام ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ﴾ عن الدعوة والتبليغ على مقتضى منصب النبوة والرسالة ﴿فَانْصَبْ﴾ [الشرح: 7] نفسك وأتعبها بالمجاهدات والرياضات القالعة لعرق لوازم الإمكان عن أصله على مقتضى رتبة الولاية.

﴿و﴾ بالجملة: ﴿إِلَىٰ رَيْكَ﴾ لا إلى غيره من وسائل المظاهر وأسبابها ﴿فَازْغَبْ﴾ [الشرح: 8] في خلواتك وصلواتك، في عموم حالاتك ومقاماتك، بلا روية الوسائل في البين، والوسائل في العين.

خاتمة السورة

عليك أيها الطالب الراغب إلى الله، القاصد للعكوف حول بابه أن تفرغ ههنا عن مطلق الأماني والآمال وعموم الأشغال المانعة عن الوصول إلى فناءه، وترغب عن الدنيا وما فيها، وتتوجه نحو الحق من طريق الفناء، وتطرح لوازم الحياة المستعارة بالكلية حتى تصل إلى مرتبة الموت الإرادي المستلزم للبقاء الأبدي السرمدي.

جعلنا الله من زمرة أرباب الرغبة إلى المولى وعن الدنيا، بمئه وجوده.

سورة التين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فاتحة سورة التين

لا يخفى على من انكشف له رفعة رتبة الإنسان، ووضح دونه علو شأنه وسمو برهانه أن من انحط عن الرتبة الإنسانية التي هي الخلافة الإلهية وسقط عنها، فقد لحق بأنزل المراتب وأدنى المنازل، كما عبر عنه سبحانه بأسفل السافلين؛ لذلك أقسم سبحانه بمعظمت المظاهر؛ لإثبات لحوق الإنسان بأسفل دركات النيران، بعدما انحط وسقط عن أعلى غرفات الجنان، فقال بعد التيمن: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ الذي خلق الإنسان في أحسن تقويم ﴿الرَّحْمَنِ﴾ عليه بأنواع التعظيم والتكريم ﴿الرَّحِيمِ﴾ عليه يوصله إلى روضات النعيم.

﴿وَالْتَيْنِ وَالزَّيْتُونِ﴾ ① وَطُورِ سِينِينَ ② وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ③ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ④ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ⑤ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ⑥ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالذِّينِ ⑦ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعَزَّ لَلْعَالَمِينَ ⑧﴾ [التين: 1-8].

﴿و﴾ حق ﴿التين والزيتون﴾ [التين: 1] هما جبلان في الأرض المقدسة، يكثر فيها كلتا الفاكهتين.

﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾ [التين: 2] أي: الجبل الذي ناجى عليه موسى الكليم مع ربه.
﴿و﴾ لاسيما بحق ﴿هَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾ [التين: 3] يعني: مكة - شرفها الله - سماها آميناً؛ لأن من دخله إيماناً واحتساباً كان آمناً من العذاب الأليم.
وبالجملة: بحق هذه المقسمات العظام ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ﴾ أي: جنسه ﴿فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: 4] وأقوم تعديل؛ إذ لا مظهر أعدل منه وأقوم بحسب الظاهر والباطن؛ لذلك اصطفيناه لخلافتنا من بين خليقتنا.

﴿ثُمَّ﴾ بعدما تعلق إرادتنا لرداءة فعله ﴿رَدَدْنَاهُ﴾ وأحطناه من تلك المرتبة العلية

والدرجة السنية ﴿أَنْفَلْ سَافِلِينَ﴾⁽¹⁾ [التين: 5] وهي مقتضيات الإمكان، المستلزم لدركات النيران، وسلاسل أمانيتها وأغلال آمالها.

﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بوحدة الحق ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ المخلصة لهم عن قيود الإمكان، المقربة لهم إلى فضاء الوجوب ﴿فَلَهُمْ﴾ بعدما وصلوا إلى عالم اللاهوت ﴿أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [التين: 6] أي: نعم لا تنقطع، ولا يمن بها عليهم أصلاً.

وبعد ما نبه سبحانه على ما نبه بأبلغ وجه وأوكده، حث عموم الإنسان على الإيمان ورغبتهم إلى اليقين والعرفان، فقال على وجه التقريع والتوبيخ: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ﴾ أي: أي شيء يحملك على الكفر والطغيان والتكذيب والكفران أيها الإنسان المجبول على فطرة التوحيد والعرفان ﴿بَعْدُ﴾ أي: بعدما ظهر الحق، ولاحت دلائل التصديق وأمارات اليقين ﴿بِالَّذِينَ﴾ [التين: 7] القويم، والسبيل المستقيم^{١٩}

﴿الَّذِينَ اللَّهُ﴾ القادر المقتدر على أمثال هذا الرد والخلق بالإرادة والاختيار ﴿بِأَحْكُمْ الْحَاكِمِينَ﴾ [التين: 8] على كل ما شاء، وأراد، سواء كان بدءاً أو إعادة، فله أن يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، لا يسأل عن فعله، إنه حكيم حميد.

خاتمة السورة

عليك أيها المحمدي الطالب للثبوت والثبات على جادة التوحيد التي هي أحسن تقويم الإنسان، وأعدل طريقه أن تتأمل في هذه الصورة حق التأمل، وتدخر لنفسك من فوائدها ما هو أهم، فعليك التوبة إلى الله، والإتيان بصوالح الأعمال، والاجتناب

(1) قال السمناني: لم يكن من غير حكمة، ولا يكون بعد هذا الرد رجوعك إليه، ولا ينفي منك لطيفة باقية تتنعم وتتألم بعد خراب البدن، فكل نفس تكون مطمئنة تؤمن وتقول: بلى وأنا من الشاهدين على أنك أحكم الحاكمين، ولا يمكن أن يصدر منك فعل غير حق وعمل غير متقن، خلقتنا لمظهرية صفات لطفك وقهرك، وأودعت فينا لطيفة مستحقة؛ لتكون مرآة لذاتك، فطوبى لمن آمن بحقيقتك وعمل عملاً صالحاً على مرآة وجوده بتصقيفها وإقامتها محاذاة الوجه بعد إخراج الحديد من الجبل، وبناء البلد الأمين الذي فيه مسكن المعقلة، وغرس الأشجار المثمرة؛ ليضئ بضياء نور مروج في دهن الزيت ﴿الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾ [التين: 3]، فيطلع في بستانه على ثمرة المعرفة الذاتية ويجتنيها ويأكلها ويصل إلى لطيفة ذوقها، اللهم أذكنا معرفتك الذاتية بمحمد ﷺ.

عن فواسدها.

ولياك إياك أن تتلطح بقاذورات الدنيا، وتنغمس بأمانيتها، فإنها تردك إلى
أدنى مراتب الإمكان الجالب لأسفل دركات النيران، وتغويك فيها بأنواع الخيبة
والخذلان.

سورة العلق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فاتحة سورة العلق

لا يخفى على من أيقظه الحق عن منام الغفلة، ووفقه للخروج عن أقطار عالم الإمكان نحو فضاء الوجود أن علامة العناية الإلهية وأمانة كرامته على الموفقين من لدنه، المنجذبين نحوه أن يذكرهم ويلقن عليهم أولاً: تعديد أسمائه الحسنی وأوصافه العظمى ويواظبهم عليها إلى أن نبع ينبوع الحكمة اللدنية المودعة في قلبه، المترشحة من بحر الذات الأحدية، ثم يظهر على لسانه، وصار حيثث على ذكر من ربه، متمكناً في مرتبة اليقين العلمي، ثم ترقى منها إلى أن صار علمه عياناً، ثم صار عيانه حقاً وبياناً.

لذلك أمر سبحانه حبيبہ ﷺ أولاً بالقراءة والتذكرة بأسمائه بعدما أراد سبحانه تربيته وتكريمه، فقال بعد التيمن: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ الذي دبر أمر الإنسان بأحسن التدبير ﴿الرَّحْمَنُ﴾ عليه حيث سواه أحسن التصوير ﴿الرَّحِيمُ﴾ عليه حيث هداه إلى خير منقلب ومصير.

﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ ① ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ ② ﴿أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ ③ ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ ④ ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ ⑤ ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَاجٍ﴾ ⑥ ﴿إِنَّ إِلَهَكُمْ رَحِيمٌ﴾ ⑦ ﴿الْعَلَقُ: 1-8﴾.

﴿أَقْرَأْ﴾ يا أكمل الرسل وتذكر بعدما أدركتك العناية، وأحاطت عليك الكرامة الإلهية ﴿بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ أي: داوم على تذكر عموم أسماء مربيك ﴿الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: 1] كل شيء، وأظهره من كتم العدم حسب أسمائه وصفاته، ورباه بأنواع اللطف والكرم وأباح عليه من جلائل النعم.

سيما ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ﴾ وخصه من عموم الأكوان بمزيد الإنعام والإحسان، مع أنه خلقه وقدر وجوده ﴿مِنْ عَلَقٍ﴾ [العلق: 2] دماء معلوقة مسترذلة، مكونة من مني

مرذول، مكون من الدم المسفوح، المتكون من إجراء الأغذية.

وبعدما أمر سبحانه حبيبه ﷺ بالقراءة، وتعدد الأسماء وإحصاءها، أمره بالقراءة ثانيًا؛ للتأمل والتدبر في معانيها، والاستكشاف عن فحاويها ومرموزاتها فقال: ﴿اقْرَأْ﴾ قراءة تدبر وتعمق واستكشاف على ما في مطاويها من البدائع والغرائب المودعة فيها، ولا تنظر إلى كونك أميًا لست من أهل الإملاء ﴿وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ [العلق: 3] الكامل الكرامة والهداية لأرباب العناية.

﴿الَّذِي عَلَّمَ﴾ الخط والرقم ﴿بِالْقَلَمِ﴾⁽¹⁾ [العلق: 4] الذي هو بمراحل عن التعلم والتفهم.

لا تستبعد من كمال كرامته وعنايته، تعلمك يا أكمل الرسل؛ إذ هو سبحانه ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ﴾ المصور على صورة الرحمن ﴿مَا لَمْ يَلْمَ﴾ [العلق: 5] من البيان والتيان، وأنواع طرق الكشف والعيان، فأنت يا أكمل الرسل من أعز أفراد الإنسان شأنًا، وأعلاه شرفًا وبرهانًا، وأرفعه قدرًا ومكانًا.

وبعدما أشار سبحانه إلى مبدأ الإنسان ومادته، وإلى متناه وغايته، تعجب سبحانه من حاله، واستبعد ما صدر عنه من الطغيان والكفران والبغي والعدوان، مع كمال عناية الله معه وكرامته إياه، فقال على سبيل الردع والزجر: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ﴾ المستحدث من الأقدار المهانة، المترقي إلى نهاية الكرامة وأعلى المقامة ﴿لَبِطْئٍ﴾ [العلق: 6] ويتجاوز عن حده، ويستكبر على ربه، وينسى أصل منشئه؛ لأجل ﴿أَنْ زَاهٍ﴾ علم نفسه أنه ﴿اسْتَفْتَى﴾ [العلق: 7] أي: صار غثيًا عن الله، مستغثًا عن الافتقار إليه، مستكبرًا على عباده، يمشي على وجه الأرض خيلاء بما عنده من حطام الدنيا ومزخرفاتها الفانية.

وكيف يتأتى لك الطغيان والاستكبار أيها المسترذل المهان المستحدث من

(1) وهو أول موجود أوجده الله في مرتبة الفاعلية، وهذه إشارة ترد على اللطيفة المتخلقة من ظلمات القلب، ويظهر على السالك بعد هذا الأمر العلم اللدني، فإذا أدى حق هذه المقامات إلى السجود يعطى له العلم المجهول في مقام الاقتراب، وهو مقام يرفع الحجاب فيه بين الأرباب الباطلة المضرة ورب الأرباب، يسجدوا له ويؤمنوا به ويقولوا: نحن التراب وأنت رب الأرباب، وفي هذا البيان سر عزيز يتعلق بحد القرآن الذي لا يمكن لقلم البيان التجاوز عنه؛ لأنه مأمور بأن يمد عينا البيان في ميدانه. [عين الحياة].

المهين ﴿إِنْ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ الذي أظهرك من كتم العدم، وأحدثك من الأمشاج المردولة ﴿الرُّجْعَى﴾ [العلق: 8] أي: الرجوع المعهود في النشأة الأخرى، فسيجزيك بجميع ما صدر عنك بعدما يحاسبك عليه بمقتضى العدالة والإنصاف.

﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ ۙ ١٠ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ ۙ ١١﴾ أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَىٰ الْهُدَىٰ ۙ ١٢ أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ ۙ ١٣
 أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۙ ١٤ أَلَمْ يَعْلَمْ ۙ ١٥ أَنَّ اللَّهَ يَبْصُرُ ۙ ١٦ مَا فِي الْأَرْحَامِ ۙ ١٧
 فَلْيَعْلَمِ ۙ ١٨ نَادِيَهُ ۙ ١٩ مَسَدُّ الزَّانِيَةِ ۙ ٢٠ كَلَّا لَا تُطْعَمُهُ وَأَقْرَبُ ۙ ٢١ ﴿[العلق: 9-19].

ثم نص سبحانه على ذكر بعض الطاغين المستغنين، المستكبرين بما عندهم من الجاه والثروة - وهو: أبو جهل اللعين - فقال: ﴿أَرَأَيْتَ﴾ أيها المعتبر الرائي الباغي الطاغى ﴿الَّذِي يَنْهَىٰ﴾ [العلق: 9] أي: يمنع ويكف ﴿عَبْدًا﴾ كاملاً في العبودية؛ يعني: محمداً ﷺ ﴿إِذَا صَلَّىٰ﴾ [العلق: 10] وتوجه نحو ربه بجميع أجزائه وجوارحه، وأراد أن يصرفه عنه.

وذلك أن أبا جهل قال: لو رأيت محمداً ساجداً لأطأن عنقه، فرآه ساجداً فجاءه ليطأه، ثم نكص واستدبر، ف قيل له: مالك؟ فقال: إن بيني وبينه خندقاً مملوءاً من النار وهولاً، وأجنحة.

ثم خاطب سبحانه هذا الطاغى الناهي خطاب تهديد وتقريع: ﴿أَرَأَيْتَ﴾ أي: أخبرني أيها المفسد المتناهي في البغي والعناد ﴿إِنْ كَانَ﴾ العبد المصلي ﴿عَلَىٰ الْهُدَىٰ﴾ [العلق: 11] والرشاد. ﴿أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ﴾ [العلق: 12] وبالاكتساب عن مقتضيات الهوى، لنتهاء عن فعله هذا، وأمره وإرشاده البتة.

﴿أَرَأَيْتَ﴾ أي: أخبرني أيضاً أنك نهيت عن الصلاة ﴿إِنْ كَذَّبَ﴾ على الله ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ [العلق: 13] أي: أعرض عن مقتضيات أوامره ونواهيه.

وبالجملة: نهيت عن الصلاة مطلقاً سواء ﴿كَانَ عَلَىٰ الْهُدَىٰ أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ﴾ [العلق: 12] مجتنباً على الهوى، أو مكذباً على المولى، معرضاً عما جرى عليهم من القضاء؛ يعني: ليس سبب نهيك إلا العصية والعناد، سواء كان محققاً في فعله أو مبطلاً. ثم قال سبحانه على سبيل التوبيخ والتقريع لهذا المكابر الناهي: ﴿أَلَمْ يَعْلَمِ﴾

ذلك الناهي المباهي المبالغ في العتو والعتاد ﴿يَأْنُ اللَّهُ﴾ القادر المقتدر على وجوه الإنعام والانتقام ﴿يَرَى﴾ [العلق: 14] يعلم ويبصر جميع ما صدر عنه من المجادلة والمراء، فيجازيه على مقتضى علمه وخبرته.

ثم قال سبحانه: ﴿كَلَّا﴾ ردعاً للناهي عما عليه من المكابرة والعتاد ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ﴾ الناهي، المبالغ، المباهي عما هو فيه من المكابرة والعتاد ﴿لَنَشْفَقَنَّ بِالْناصِيَةِ﴾ [العلق: 15] أي: لناخذن بناصيته ولنسجنه مكباً على وجهه نحو النار المعدة لتعذيب الكفرة، المبالغين في العتو والعتاد.

وأي ناصية؟ ﴿ناصِيَةٍ كاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ [العلق: 16] أي: كاذب خاطئ، وصف الناصية بهما؛ للمبالغة والتأكيد.

وبعدما نسجه كذلك، وناخذه على ظلمه ﴿فَلْيَنْدَعْ﴾ وليناد حيثد ﴿نَادِيَهُ﴾ [العلق: 17] أهل مجلسه وأعوانه من قهرنا مع أنا أيضاً ﴿مَنْدَعْ﴾ ونامر حتى ينصروا له وينقذه صارخاً عليهم، مستغيثاً منهم يومئذ ﴿الزَّانِيَةِ﴾ [العلق: 18] أي: الشرطة الموكلين على جهنم؛ ليجروه نحو النار على وجه الهوان والصفار.

ثم كرر سبحانه ﴿كَلَّا﴾ تأكيداً لردعه وتشديداً عليه، ثم نهى سبحانه حبيبه ﷺ عن إطاعة ذلك الباغي والإصغاء إلى قوله، والموانسة معه والالتفات إليه بقوله: ﴿لَا تُطِيعُهُ﴾ أي: دُم يا أكمل الرسل على صلاتك واثبت عليها، ولا تلتفت إلى هذياناته الباطلة ﴿وَاصْجُدْ﴾ لربك على وجه الخضوع والخشوع ﴿وَاقْتَرِبْ﴾ [العلق: 19] إليه وتقرب نحوه بإطراح لوازم ناسوتك، محرماً على نفسك حظوظك من دنياك، مسقطاً مقتضيات بشريتك ولواحق مادتك مطلقاً.

وفي الحديث: «أقرب ما يكون العبد إلى ربه إذا سجد» ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ [الحجر: 98-99].

خاتمة السورة

عليك أيها الطالب للتقرب نحو الحق والوصول إلى فضاء اللاهوت - أعانك الله

في مطلبك هذا وطلبك - أن تداوم على الطاعات والعبادات على وجه الإخلاص والتذلل التام والانكسار المفرط؛ إذ ما يتقرب العبد إلى ربه إلا بالاستكانة والضراعة، والإفناء عن لوازم نشأة الناسوت، والاتصاف بالموت الإرادي المورث للحياة الأبدية والبقاء السرمدية.

جعلنا الله من المتصفين به بمثله وجوده.

سورة القدر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فاتحة سورة القدر

لا يخفى على من انكشف بسرائر إنزال الكتب وإرسال الرسل من الموقنين على الإطلاع والوقوف بسر سريان الوحدة الذاتية الإلهية على صفحات الكثرات الفانية في الحصر والإحصاء أن المقادير المحفوظة في لوح القضاء، والتصاوير المضبوطة في حضرة العلم والقلم الأعلى إنما هي في عالم العماء الغيبي المسمى: ليلة القدر، وإنزالها منها نحو قضاء الشهادة والجلاء إنما هو أيضاً فيه، ولا شك أن السر من إنزال الكتب الإلهية إنما هو لضبط تلك المقادير والإخبار عنها على الوجه الذي ثبت في حضرة العلم ولوح القضاء.

لذلك أخبر سبحانه حبيبه ﷺ في مقام الامتحان بإنزال القرآن في ليلة القدر الغيبي، التي هي خير من ألف شهر من أزمته نشأة الشهادة، فقال بعد التيمن: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ الذي قدر عموم المقادير في حضرة علمه ولوح قضائه ﴿الرَّحْمَنِ﴾ لعباده بإنزال القرآن، المتيه لهم طريق المعرفة والإيمان ﴿الرَّحِيمِ﴾ لهم؛ يوقظهم عن نوم الغفلة ورقود النسيان.

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ (١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ (٢) لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ (٣) نَزَّلَ الْمَلَكُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ (٤) سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ (٥) [القدر: 1-5].

﴿إِنَّا﴾ من مقام عظيم لطفنا وجودنا لعموم عبادنا ﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾ أي: القرآن المبين لهم طريق النجاة من نيران الجهالات ﴿فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ (١) [القدر: 1] الغيبي التي لا

(١) قال علاء الدولة: أي: نور الذي يحصل به انشراح الصدر؛ وهو الجمال المخصوص بسيد أهل الكمال المودع في ظل قلبه، الذي بذلك النور ما كان لقلبه ظل قابلة قلبه، كان ظل النور لا ظل الظلمة بخلاف القوالب؛ لأنها ظلال ظلمانية، فلما طلعت شمس الروح أظهر ظلال الظلمة

إطلاع لأحد عليها إلا لعلام الغيوب.

لذلك أبهم سبحانه على حبيبه ﷺ، فقال: ﴿وَمَا أَذْرَاكَ﴾ أي: أي شيء أعلمك من مقتضيات بشريتك ولوازم ناسوتك ﴿مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ﴾ [القدر: 2] إذ هي خارجة عن مدارك عالم الناسوت.

ثم بينها سبحانه على مقتضى أفهام البشر ومداركهم، فقال: ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ [القدر: 3] من أيام عالم الشهادة ولياليها؛ إذ ﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ﴾ أي: سكان سواد الأعظم اللاهوتي ﴿وَالرُّوحُ﴾ الأمين، المدبر لأمر أشباح عالم الناسوت ﴿فِيهَا﴾ أي: في تلك الليلة، ونزولهم فيها إنما هو ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ يأمرهم بالنزول فيها، ومع كل منهم ﴿مِّنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾ [القدر: 4] من الأمور الجارية في عالم الشهادة.

﴿سَلَامٌ﴾ وتسليم من قبل الحق يسلم لهم سبحانه، ويفوض إليهم أمرهم على مقتضى حكمته المتقنة؛ ليقوم كل منهم به، ويحسن تدبيره على الوجه الذي أمر به، وبالجمل: ﴿هِيَ﴾ أي حالهم وشأنهم هذا وهكذا ﴿حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾ [القدر: 5] أي: إلى طلوع شمس الذاتية الإلهية، المفنية بأشعتها الذاتية عموم أضواء الأظلال والعكوس مطلقاً.

كان ليلة القدر التي سُتِرَتْ في خلال ليالي السنة، أو في ليالي شهر رمضان، أو في ليالي العشر الأخير منها - على ما قيل - هي منتخبة ممثلة من تلك الليلة القدرية، الغيبية العمائية، اللاهوتية؛ لذلك ما عينها الشارع وما عرفها، بل أبهمها وأخفاها.

قيل: في تلك الليلة يقدر عمومًا أحوال تلك السنة، وجميع ما يجري فيها من الحوادث الكائنة، كما أن في أصلها ومنشئها التي هي ليلة القدر الغيبية، متى يقدر عموم المقادير الكائنة أزلاً وأبداً؛ لذلك من أحيائها، فقد فاز بخيري الدارين. رزقنا الله وجدها والوصول إليها والتحقق دونها.

وهذا سر عزيز يتعلق بحد القرآن، فأنت أيها السالك الطالب اجتهد في طلب ذلك الظل المودع فيه ذلك النور في اللطيفة القلبية المستخلصة عن الأباطيل، المتسكن فيها نور لطيفتك الخفية ليصل في ظلمة ليل قلبك إلى ظل لطيفة المستودع فيها نور القدر، ونشاهد ذلك النور في لطيفتك المستحقة ليكون قالباً للطيفتك الخفية، وتصير صاحب القدر منشرح الصدر.

خاتمة السورة

عليك أيها العازم القاصد لإحياء تلك الليلة وإدراكها أن تشمر ذيلك لإحياء عموم الليالي الآتية عليك في أيام حياتك؛ إذ هي مسترة فيها، وبالجمله: لا تغفل عن الله في جميع حالاتك حتى تكون عموم لياليك قدرًا خيرًا من الدنيا وما فيها.

سورة البينة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فاتحة سورة البينة

لا يخفى على المستكشفين عن سرائر الآيات الواضحة، والبيانات اللائحة، الموضحة لمعالم الدين ومراسم التوحيد واليقين أن ظهور طريق الحق، وسلوك سبيل الهداية إنما يحصل ببعثة الرسل وإنزال الكتب؛ لأن تبين الحق ما هو إلا من قبل الحق، بل بالحق كما أخبر سبحانه عن حقيقة حال الكفرة في الإيمان والكفر، بعدما تيمن: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ المظهر لطريق الحق بإرسال الرسل وإنزال الآيات ﴿الرَّحْمَنِ﴾ لعموم عباده بإيضاح البيانات ﴿الرَّحِيمِ﴾ لخواصهم بإيصالهم إلى أعلى المقامات وأرفع الدرجات.

﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ۝١﴾
رَسُولٌ مِّنْ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۝٢ فِيهَا كُتِبَ قِيسَةٌ ۝٣ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا
مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ ۝٤﴾ [البينة: 1-4].

﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ يعني: اليهود والنصارى ﴿وَالْمُشْرِكِينَ﴾ أي: عبدة الأوثان ﴿مُنْفَكِينَ﴾ أي: لم يكونوا زائلين منفصلين في حين من الأحيان عن الإيمان والاعتقاد بنبوة محمد ﷺ؛ إذ أهل الكتاب آمنوا بنبوته بمقتضى ما وجدوا في كتبهم، والمشركون سمعوا من أسلافهم وصفه ونبوته واعتقدوا بعثته، فأمنوا له، ولم يزالوا على هذا الاعتقاد ﴿حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ [البينة: 1] على مقتضى سنة الله، فظهرت النجعة الواضحة والبيينة الموضحة.

وتلك البيينة والبرهان ﴿رَسُولٌ﴾ مرسل ﴿مِّنْ اللَّهِ﴾ مؤيد من لدنه بالآيات الواضحة والبيانات الإلهية ﴿يَتْلُو صُحُفًا﴾ أسفارًا محفوظة، مصورة، معجزة ﴿مُطَهَّرَةً﴾ [البينة: 2] عن مطلق الرذائل، بحيث لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؛ لأنه تنزيل منزل من حكيم عليم.

﴿فِيهَا﴾ أي: خلالها ومطاوئرها ﴿كُتِبَ قِيمَةٌ﴾ [البينة: 3] أي: مكتوبات صادقة حقه من الأوامر والنواهي والحكام المتعلقة لدين الإسلام، صادقة مستقيمة، لا عوج لها ولا انحراف، ناطقة بالحق الصريح.

وبالجملة: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ﴾ واختلف في الإنكار والاعتقاد، والإيمان والكفر ﴿الَّذِينَ أَوْثَرُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ﴾ [البينة: 4] يعني: ما تفرقت تلك الأمم عما هم عليه من تصديق النبي الموعود إلا من بعد ما ظهر الرسول الموعود، ولاحت البينة الواضحة، الدالة على صدقه في نبوته ودعوته، ألا وهو القرآن المعجز المبين لشعائر الإسلام.

وبالجملة: اختلفوا في نشأته ﷺ وبعد بعثته، فمنهم من آمن له على مقتضى ما وجدته في كتابه، ومنهم من كفر وأنكر عليه عنادًا ومكابرة؛ ولهذا حرّف-أوصافه المذكورة في الكتب السالفة مع أنهم لم يجدوا في دينه وكتابه ما يخالف أحكام كتبهم وأديانهم.

﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ ۝٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ۝٦﴾ [البينة: 5-6].

﴿و﴾ الحال أنهم ﴿مَا أُمِرُوا﴾ في كتبهم ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ﴾ الواحد الأحد الصمد الحقيقي بالحقية والألوهية ﴿مُخْلِصِينَ﴾ مخلصين ﴿لَهُ الدِّينَ﴾ والانقياد بلا اشتراك والحاد ﴿حُنَفَاءَ﴾ مائلين عن مطلق الأديان الباطلة ﴿وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ المكتوبة لهم في أوقاتها الموعودة المحفوظة ﴿وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ﴾ المصفية لأموالهم على وجهها ﴿وَذَلِكَ﴾ الذي أُمروا به في كتبهم هو ﴿دِينُ الْقِيَمَةِ﴾ [البينة: 5] والملة المستقيمة التي ظهر عليه محمد ﷺ، بلا تغيير وانحراف فيه واختلاف. وهم بالجملة: ما كفروا وأنكروا نبوته ورسالته ﷺ إلا عنادًا ومكابرة، بلا مستند صحيح لا عقلي ولا نقلي.

وبالجملة: ﴿إِنَّ﴾ الكافرين المعاندين ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بنبوة محمد ﷺ ﴿مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَ﴾ من ﴿الْمُشْرِكِينَ﴾ داخلون ﴿فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ الطرد والحرمان ﴿خَالِدِينَ﴾ فيها لا يتحولون عنها أصلاً، إلا إلى عذاب فوق العذاب، وأشد منه، وبالجملة: ﴿أُولَئِكَ﴾ الأشقياء، المردودون، المطرودون عن ساحة عز القبول ﴿هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾

[البينة: 6] الخليفة، وأردؤهم، كأنهم مقصرون على الشرارة والرداءة مجسمون منها.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِّ﴾ ﴿٧﴾ ﴿جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ عَدْنٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ [البينة: 7-8].

ثم قال سبحانه على مقتضى سته المستمرة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ منهم بوحدة الحق وصدقوا بنبو محمد ﷺ، وقبلوا دعوته ودينه حسب ما وجدوا في كتبهم، وسمعوا وصفه من أسلافهم بلا تحريف ولا تغيير ﴿و﴾ مع ذلك ﴿عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ المقربة لهم إلى الله والمرضية عنده سبحانه ﴿أُولَٰئِكَ﴾ السعداء المقبولون عند الله ﴿هُمْ خَيْرُ الْبَرِّ﴾ [البينة: 7] وأحسن الخليفة.

﴿جَزَاؤُهُمْ﴾ الذي استحقوها بإيمانهم وأعمالهم ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ عَدْنٌ﴾ متزهات علم وعين وحق ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي: جداول المعارف والحقائق المتجددة، المرشحة من بحر الحقيقة ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ دائمين فيها سرمداً، وبالجمله: ﴿رَضِيَ اللَّهُ﴾ المفضل المنعم العليم الحكيم ﴿عَنْهُمْ﴾ ⁽¹⁾ وعن أعمالهم ونياتهم وأخلاقهم فيها ﴿وَرَضُوا﴾ أيضاً ﴿عَنْهُ﴾ سبحانه بما قسم الله لهم، وأفاض عليهم بمقتضى استعداداتهم وقابلياتهم، وبالجمله: ﴿ذَلِكَ﴾ الأجر الجزيل والرضا

(1) قال الشيخ البقلي: «رضي الله عنهم»: في الأزل حين اصطفاهم قبل إيجادهم، «ورضوا عنه»: لما عاينوه وآثروه على من دونه عشقاً وشوقاً ومعرفة، وهذه الدرجات لمن عرف الله، ودأب في إجلاله، ورؤية عظمته، بقوله: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾، وأصل الرضا الاتصاف بصفة الرضا من الحق. قال الواسطي: الرضا والسخط نعتان قديمان يجريان على العبد بما جريا في الأزل، يظهر أن الرسم على المقبولين والمطرودين، فقد بانت شواهد المقبولين بضيائها عليهم كما بانت شواهد المطرودين بظلمها، فأثى ينفع مع تلك الألوان المصفرة، والأقدام المتفخمة، والأكمام المقصرة؟

وقال: استعمل الرضا جهداً، ولا تدع الرضا يستعملك، فتكون محجوراً بلذته عن حقيقة ما يطالع بعد درجته. قال سهل: الخشية سر، والخشوع ظاهر. وقال عمرو المكي: اشترط الراضين بالخشية في رضاهم عنه، لذلك أوجب لهم رضاه عنهم بأن يرضوا عنه ويخشوه في رضاه عنهم، ولا يكون ذلك إلا باجتناب المحارم، وعقد موافقتهم لموافقته، أن يكرهوا ما كره، ويرضوا ما رضي.

الجميل ﴿لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ [البينة: 8] وخاف من سخطه وغضبه، فامتثل بأوامره واجتنب عن نواهيه، واتصف بالتقوى عن مطلق محارمه ومحظوراته.

جعلنا الله من زميرتهم.

خاتمة السورة

عليك أيها الراجي لقبول الحق والرضاء أن تصفي سرك عن مطلق الرعونات المنافية للرضا عما جرى عليه القضاء، وتخلي ضميرك عن الميل إلى مطلق البدع والأهواء المبعدة عن التقرب نحو المولى، فلك التسليم والرضا، والتبتل نحو الحق في السراء والضراء، والتوكل عليه في الخصب والرخاء، فإنه لا تحرك في ملكه إلا ما يشاء.

سورة الزلزلة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فاتحة سورة الزلزلة

لا يخفى على المنكشفين بالنشأة الأخرى، التي هي نشأة انتقال الأعمال وجزائها أن الحكمة الإلهية، الباعثة على إيجاد الموجودات وإظهار المخلوقات، تقتضي أن يكون نشأة الاختبار والابتلاء سابقة على نشأة الجزاء؛ لتظهر سرائر التكليف الإلهية وفوائد الأوامر والنواهي والأحكام المنزلة من عنده، ويتميز مرتبة الربوبية عن مرتبة العبودية ومكانة الألوهية عن المألوهية.

وبعد ما اقتضت الحكمة المتقنة الإلهية بترتب النشأة الأخرى عن الأولى، أشار سبحانه إلى أمارات النشأة الأخرى وعلاماتها بعدما تيمن: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ المدبر لأمر عباده حسب النشأتين ﴿الرَّحْمَنِ﴾ عليهم في النشأة الأولى، حيث وضع التكليف المثمرة لهم خير الجزاء ﴿الرَّحِيمِ﴾ لخواصهم في النشأة الأخرى، يعجزهم الجزاء الأوفى.

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢ وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا ۝٣﴾

﴿يَوْمَئِذٍ تُخْبِرُهَا ۝٤ أَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝٥﴾ [الزلزلة: 1-5].

اذكر يا أكمل الرسل لمن كذب بالنشأة الأخرى، وأنكر يوم العرض والجزاء كيف يفعل ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ﴾ أي: هاجت واضطربت بعدما وصل إليها الأمر الإلهي المتضمن للتحريك والتهيج ﴿زِلْزَالَهَا﴾ [الزلزلة: 1] الذي قدر الله لها عند النفخة الأولى.

﴿و ۝٦﴾ بعدما هاجت وتحركت ﴿أَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ [الزلزلة: 2] أي:

دفاعتها ومكوناتها، وما في جوفها من الأموات.

﴿و ۝٧﴾ بعدما رأى الناس زلزالها وإخراجها ﴿قَالَ الْإِنْسَانُ﴾ من كمال حيرته

وتعجبه: ﴿مَا لَهَا﴾ [الزلزلة: 3] أي: ما عرض على الأرض ولحق بها حتى اضطرتها

إلى الحركة والاضطراب مع أنها ساكنة في حد ذاتها جامدة.

وبالجملة: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ﴾ الأرض بإلهام الله إياها ﴿أَخْبَارَهَا﴾ [الزلزلة: 4] أي: الأعمال التي عمل عليها بنو آدم.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ قال: «أتدرون ما أخبارها»، قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد وأمة بما عمل على ظهرها، أن تقول عمل علي كذا وكذا يوم كذا، فهذه أخبارها»⁽¹⁾.

وذلك ﴿بِأَنَّ رَّبِّكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿أَوْحَى لَهَا﴾ [الزلزلة: 5] أي: أمرها سبحانه وأذن لها بالكلام وألهمها، فحيثئذ تكلمت وتحدثت.

﴿يَوْمَئِذٍ يَصُدُّرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوَّا أَعْمَالَهُمْ﴾^(٦) ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾^(٧) ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾^(٨) [الزلزلة: 6-8].

اذكر يا أكمل الرسل ﴿يَوْمَئِذٍ يَصُدُّرُ﴾ ويرجع ويعود ﴿النَّاسُ﴾ عن موقف العرض والحساب ﴿أَشْتَاتًا﴾⁽²⁾ متفرقين، متحزبين حسب مراتبهم في الحساب، كل منهم مع شاكلته ﴿لِيُرَوَّا أَعْمَالَهُمْ﴾ [الزلزلة: 6] أي: أجزتهم المعدة لهم في الجنة والنار.

وبالجملة: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ أي: مقدار نملة صغيرة ووزنها ﴿خَيْرًا يَرَهُ﴾

(1) رواه أحمد (374/2، رقم 8854)، والترمذي (619/4، رقم 2429) وقال: حسن غريب. والحاكم (281/2، رقم 3012) وقال: صحيح على شرط الشيخين. والنسائي في «الكبرى» (6/520، رقم 11693).

(2) قال ابن عجيبة: متفرقين، جمع شت، نزلت في بني ليث بن عمرو، كانوا يتحزبون أن يأكل الرجل وحده، فربما قعد متظراً نهاره إلى الليل، فإذا لم يجد من يؤاكله من الضيفان أكل أكل ضرورة. وقيل: في قوم من الأنصار كانوا إذا نزل بهم ضيف لا يأكلون إلا مع ضيفهم، فرخص لهم أن يأكلوا كيف شاؤوا. وقيل: في قوم تخرجوا من الاجتماع على الطعام لاختلاف الناس في الأكل، وزيادة بعضهم على بعض، فخيرهم. وقيل: كان الغنى منهم إذا دخل على الفقير من ذوي قرابته وصداقته، ودعاه إلى الطعام، فيقول: إني أخرج أن أكل معك، وأنا غني وأنت فقير، فأباح لهم ذلك.

[الزلزلة: 7] أي: يرى جزاءها في الجنة.

﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: 8] أي: جزاءها في النار.

وهذه الآية أحكم آية وأقسطها، من الآيات الدالة على كمال العدل الإلهي وأشملها حكماً، لذلك قال ﷺ: «إِذَا زُلْزِلَتْ» تعدل نصف القرآن، و: «قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ» تعدل ثلث القرآن، و: «قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ» تعدل ربع القرآن⁽¹⁾.

خاتمة السورة

عليك أيها المتوجه نحو الحق أن تأتي وتتصف بصوالح الأعمال، وتجتنب عن فواسدها؛ لترى أحسن الجزاء، وتزيد عليها على مقتضى إخلاصك فيها وخشوعك في إتيانها، فلك أن تجعل مضمون هذه الآية نصب عينيك في عموم أحوالك وأعمالك؛ لتكون على ذكر تام وفطنة كاملة، مما يترتب على أعمالك من الجزاء. جعلنا الله من زمرة المتذكرين الممثلين بمقتضى هذه الآية.

(1). رواه الترمذي (75/11).

سورة العاديات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فاتحة سورة العاديات

لا يخفى على المستكشفين من نفحات الحق، المستروحين نسمات النفسات الرحمانية من قبل يمن اللاهوت، بإرسال حضرة الرحموت أن النيل والوصول إلى تلك المنازل البهية والمقامات العلية، إنما هو بعد رفض شواغل الناسوت، ورفع موانع بقعة الإمكان، وقطع آماله المتسقة، وأمانيه المتسلسلة، وذلك لا يتيسر إلا بجذب الحق وتأنيده، واجتهاد العبد وبذل جهده ووسعه.

لذلك أقسم سبحانه بما أقسم من النفوس المتشوقة، وقرن مع القسم ما قرن من كفران الإنسان وخسرانه باشتغاله على ما لا يعنيه من لوازم الحجج الناسوتية، فقال بعد التيمن: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ المدير لأمر الإنسان حتى أوصله إلى مرتبة اليقين والعرفان ﴿الرَّحْمَنُ﴾ عليه بخلقه على صورته ليليق بخلافته ﴿الرَّحِيمُ﴾ له، يريه ويهديه إلى حيث يوصله إلى بحر وحدته.

﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ۝١﴾ ﴿وَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا ۝٢﴾ ﴿وَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا ۝٣﴾ ﴿وَأَثَرِينَ بِهِ ۝٤﴾ ﴿وَقَعًا ۝٥﴾ ﴿فَوْسَطَنَ بِهِ جَمًّا ۝٦﴾ [العاديات: 1-5].

﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا﴾ [العاديات: 1] ⁽¹⁾ أقسم سبحانه بالنفوس المقدسة الزكية عن مطلق الرذائل والأنسية، وشبّها في سرعة العدو والجري بالخيول الجياد العادية، المجاوزة عن مضائق بقعة الإمكان، ومحابس نشأة الناسوت نحو فضاء الوجوب، ومراتب عوالم اللاهوت، شوقًا إليها وتحنًا نحوها؛ لذلك كلما قطعت عقبة من

(1) قال البقلي: أقسم الحق سبحانه بأفراس قلوب المحييين إذا ضُجبت. بأصوات الوصلة من تراكم مواجيد المشاهدة في ميادين الوحلة، حين عاينت مشاهدة السرمقية، وهي الموريات أنوار المعارف من قلاع الكواشف، ثم أقسم لواردات كثيوف صفاته حين أغارت أرواح العاشقين عند طلوع صياح مشاهدته.

العقبات الناسوتية تصبح ضبيحًا.

والضبيح: هو صوت أنفاس الفرس عند العدو، وتلك النفوس تصبح تشوقًا إلى مقعد الوجوب، وتنفسًا عن كروب الإمكان وأحزان الهيولى والأركان.

﴿فَالْمُورِيَّاتِ قَدْخَا﴾ [العاديات: 2] أي: النفوس المتحننة للسرعة، المستعجلة

نحو الموطن الأصلي بالميل الجبلي، سيما بعد الجذب الإلهي الموري لحوافر مراكب الشوق عند عدوها على أحجار الطبائع وجنادل الهيولى والأركان، نار المحبة والمودة من شدة تشوقها وتلذذها إلى النيل والوصول، واستنشاقها من نسائم روائح الحضور والقبول.

﴿فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا﴾ [العاديات: 3] أي: النفوس التي تغير في المبادرة

والمسابقة نحو عالم اللاهوت، وتجتهد وتسعى أن تصل إليها قبل كل واحدة من النفوس المبادرة إياها والساعية نحوها.

﴿فَأَتَزَنَّ بِهِ﴾ أي: هيجن وحركن في ذلك الوقت الذي وصلن إليه ﴿ثَقَا﴾

[العاديات: 4] ليكون علامة تدل على وصولهن.

﴿فَوَسَطْنَ بِهِ﴾ أي: دخلن بذلك الوقت ﴿جَمْعًا﴾ [العاديات: 5] سكان عالم

اللاهوت، أي: المطلقين عن جميع القيود الناسوتية.

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ ١ ﴿وَأَنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾ ٢ ﴿وَأَنَّهُ يُحِبُّ الْخَيْرَ

لَشَدِيدٌ﴾ ٣ ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعِثَ رَمَاهُ فِي الْقُبُورِ﴾ ٤ ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾ ٥ ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ

يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾ ٦ [العاديات: 6-11].

وبالجملة: بحق هذه المقسمات العظام ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ﴾ المجبول على الكفران

والنسيان ﴿لِرَبِّهِ﴾ الذي رباه بأنواع الكرم والإحسان ﴿لَكَنُودٌ﴾⁽¹⁾ [العاديات: 6] كفور

(1) قال علاء الدولة: يعني: إن للإنسان لا يرضى بهذا الفتح لأنه كنود، ويدخل مني الإذن بدخوله في عالم القلب، فالواجب على صاحب الهمم العلية أن يشكر الله على نعمة الفتح والنصرة في هذا المقام، ثم يسأل منه التوفيق للدخول في عالم القلم وكنوده من خلق همته، وصجلته من غاية اشتياقه، وبهاتين الخصلتين اللتين إن ظهرتا تبدلا بالهمة، والسرعة المحمودة التي أشار إليها الله تعالى حيث قال في كتابه: ﴿وَسَادُوا حُورًا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [آل عمران: 133]، صار الإنسان

مبالغ في الكفران والطغيان.

﴿وَإِنَّهُ﴾ أي: الإنسان نفسه ﴿عَلَىٰ ذَٰلِكَ﴾ أي: كنوديته وكفوريته ﴿لَشَهِيدٌ﴾ [العاديات: 7] لظهور آثار الكفران والطغيان عليه دائماً، وبالجمله: هو نفسه شاهد على كفره وكفرانه، وشركه وطغيانه، إلى حيث يلوح أثر عصيانه عليه.

﴿وَإِنَّهُ﴾ من شدة بغيه وعدوانه وغفلته على الله وإحسانه ﴿لِحُبِّ الْخَيْرِ﴾ أي: المال والجاه والثروة، والسيادة المبعدة له عن كنف مولاه ﴿لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات: 8] قوي، مبالغ فيه، مبالغ متناه فيه، حريص في طلبه، متعب نفسه في تحصيله، وحبه هذا ما هو إلا من غاية كفرانه بنعم الله وحرمانه عن مقتضى كرمه وضعف يقينه بالله وموائد إنعامه وإحسانه.

وبالجمله: ﴿أَفَلَا يَغْلَمُ﴾ الإنسان الكفور، الكنود، المحب للجاه والمال ﴿إِذَا

أشرف الموجودات، وإن لم يكن هاتان الخصلتان موجودتان في ابن آدم، ويمكن له التجاوز عن مقامه، مثل الملائكة الذين يقولون: ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ [الصافات: 164]، وظلمه وجهله وكفرانه أيضاً من الواجبات العالية الهمة في سلوك الطريقة، كما أن الكنود والعجلة من الموجبات أيضاً إذا ظهر صار صفتين حميدتين معيتين لصاحبهما على قطع الطريق والغلبة على العدو، ويعلو الهمة التي هي نتيجة الكنود المطهر من تلويثات الهوى النفسية، ويسرعة السير لغلبة الاشتياق التي هي من خصائص صفة العجلة المزكاة من كدورات القوى القالبية، بحيث يسير في حمرة القصير سيرا باستعداد العجلة، ويصل إلى مطلوبه في سيره، وينتهي سيره في مدة يسيرة إلى ما لا يمكن الوصول لمتناه إلا بخمسين ألف سنة لغيره، فذلك الجهل، لأنه من جهله تثقل الأمانة قلبه وحملها حيث أبت الكائنات حملها وقبولها، كما يقول تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا﴾ [الأحزاب: 72] على نفسه، ﴿جَهُولًا﴾ [الأحزاب: 72] بحقيقة ثقل الأمانة، ولولا صفة ظلوميته لما حارب بنفسه وما قاتلها، ولما اجتهد في قلع أشجار خواطرها، وما شد عليها مشربها من ينبوع الهوى، ولولا صفة كفرانه لما التفت إلى تربيته طبعها له ورحم عليها، وما حملها على ترك مألوفاتها، وقطع النظر عن مشتياتها، وما أمرها بالمجاهدة في خلع عاداتها ورفض محبوتها طباعها، ونفض الأيدي من الدنيا ومتاعها، فكفرانه بنعمة تربيته اللطيفة، وبالنفس التي رباني في حجرها من زمان تعلق الروح بالعلة إلى أن بلغ مبلغ الرجال، وعلم أن الرجوع إلى الحق خير من التماذي في الباطل، وطقق بنفي الباطل وثبت الحق، وسلك الطريق وعرف المظلوم من المحمود على سبيل التحقيق، سير له قهر النفس وهواها وأضعف الطبيعة وأقواها، لأنها أَرْضَعَتْهُ مِنَ الصَّغَرِ إِلَى الْكِبَرِ.

بُغْتَرِ ﴿أَي: بُعْثَ وَنُشِرَ وَخُشِرَ ﴿مَا فِي الْقُبُورِ﴾ [العاديات: 9] من الموتى.

﴿وَحُصِّلَ﴾ أَي: جُمِعَ وَمَيِّزَ ﴿مَا فِي الصُّدُورِ﴾ [العاديات: 10] من المكنونات،
خَيْرًا كَانَ أَوْ شَرًّا.

﴿إِنَّ رَبَّهُم﴾ الذي أظهرهم من كتم العدم ورباهم بأنواع الكرم ﴿بِهِمْ يَوْمَئِذٍ﴾
وهو يوم القيامة التي فيه تبلى السرائر وتكشف الضمائر ﴿لُخَيْرٍ﴾ [العاديات: 11]
بصير بعموم ما جرى عليهم في نشأة الاختبار خيرًا كان أَوْ شَرًّا، فيجازيهم على مقتضى
علمه وخبرته بلا فوت شيء من ذلك، ومع علمه سبحانه بهم وبما صدر عنهم،
يعملون عملاً سيؤاخذون عليه.

نعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا.

خاتمة السورة

عليك أيها الإنسان الكامل المحبرل على حكمة المعرفة والإيقان أن تشمّر ذيلك
إلى ما جُبلت لأجله، وتخلّي خلدك عن مطلق الأشغال العائقة عن التوجه الحقيقي
نحو الحق، فلك أن ترى يوم الجزاء بين يديك ونصب عينيك، وبالجملّة: لا تغفل عن
الله، فإنه يرقبك في أولاك وآخراك.

سورة القارعة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فاتحة سورة القارعة

لا يخفى على الموقنين المنكشفين بسرائر النشأتين أن النشأة الأولى لاكتساب المعارف والحقائق الكاملة في مطاوي التكاليف الإلهية وسرائر أوامره وأحكامه، والثانية إنما هي للجزاء المترتب على تلك المعارف والحقائق، ولا شك أن من تهاون وتقاصر عما لزمه في الأولى فقد ضل وغوى واستحق الويل واللظى، ولحق بالأخسرين أعمالاً الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا، وفي الآخرة يجازون بمقتضاها. وللتحويل على أصحاب الغفلة وتقريعهم، سمي سبحانه يوم القيامة بالقارعة، وأبهمها؛ تفضيلاً وتهويلاً، فقال بعد التيمن: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ المتصف بالقهر واللفظ حسب النشأتين ﴿الرَّحْمَنِ﴾ على عموم المطيعين من عباده في النشأة الأولى ﴿الرَّحِيمِ﴾ على المخلصين منهم في النشأة الأخرى، يوصلهم إلى أقصى درجات النعيم.

﴿الْقَارِعَةُ ۝١ مَا الْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ۝٣ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ۝٤ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ۝٥﴾
[القارعة: 1-5].

﴿الْقَارِعَةُ﴾ [القارعة: 1] أي: الساعة التي تفرع الأسماك من هولها وهيتها، وتدهش العقول من شدتها وصولتها.
ثم أبهم سبحانه تهويلاً، فقال: ﴿مَا الْقَارِعَةُ﴾ [القارعة: 2] المذكورة، وأية شيء هي؟

ثم أبهمها مرة أخرى على حبيبه ﷺ؛ تأكيداً على تهويلها وفضاعة شأنها، فقال: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾ وأعلمك يا أكمل الرسل ﴿مَا الْقَارِعَةُ﴾ [القارعة: 3] العجبة الشأن الفظيعة العظيمة الهائلة المهولة؟

ثم عد سبحانه لوازمها وما يترتب عليها؛ ليتقل منها إليها، وإنما أشار سبحانه

بهذه الطريقة أيضًا إلى شدة هولها وفضاعتها؛ ليكون تهويلًا على تهويل، وتأكيذاً على تأكيد.

اذكر يا أكمل الرسل لمن تذكر ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ﴾ من شدة أهوالهم وأفزاعهم ﴿كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾ [القارعة: 4] أي: كالطير المتهافت على النار من شدة اضطرابه؛ يعني: يكون الناس يومئذ مثل الفراش المتفرق في الجهات من غاية الاضطراب، بحيث لا يتمالكون على نفوسهم، بل يركب بعضهم فوق بعض، ويطأ بعضهم بعضًا من شدة خشيتهم ورهبتهم وازدحامهم.

﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ﴾ من كمال قهر الله وغضبه ﴿كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾ [القارعة: 5] أي: كالصوف الملون المندوف، تطير في جو الهواء يمناً ويسرة.

﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ ٦ ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ ٧ ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ ٨ ﴿فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾ ٩ ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَ﴾ ١٠ ﴿نَارُ حَامِيَةٍ﴾ ١١ ﴿[القارعة: 6-11].

وبالجملة: ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ﴾ يومئذ ﴿مَوَازِينُهُ﴾ [القارعة: 6] ⁽¹⁾ أي: رُجحت

(1) اعلم أن ثقله الموازين عبارة عن: وجود الأعمال الرزينة لها التي لها وزن عند الله، وقدر دل عليه العيشة الراضية؛ لأن عيشة الرجل في الجنات، إنما هي بأعماله؛ لأن درجاتها ونعيمها مقسومة بقدرها؛ فهو إنما يدخل بثقل الموازين جنة الأعمال، وخفة الموازين عبارة عن: عدم الأعمال المقبولة دل عليه قوله: فأمة هاوية؛ لأن الله لا يقيم لمن خفت موازينه يوم القيامة وزناً ومقداراً؛ فيهوى في النار التي هي أصله؛ لأن كل ظلمة، وظلماني؛ إنما هو من النار، كما أن كل نور، ونوراني؛ إنما هو من الجنة، وفيه إشارة إلى أن الأعمال تتجسد يوم القيامة؛ فيكون لها ثقل وخفة، كما ذهب إليه أهل الشرع؛ لأن الأعراض لا توصف بذلك، وكان الظاهر أن تكون ثقله الموازين بسلبيات الأعمال؛ لتهبط بصاحبها إلى النار التي في الأرض السافلة، وأن يكون خفتها بصالحات الأعمال؛ لتصعد بصاحبها إلى الجنة التي في السماء العالية؛ لكن أُعتبرت الثقله بالصالحات، والخفة بالطالحات؛ لأن الجسم هو الذي يتصف بالثقل، والخفة، فوجود الصالحات مما يقتضي جسامتها، ووزنها، وقدرها، وصعودها ليس من حيث وجودها، وثقلها في نفسها؛ بل من حيث حال عاملها، فإن العامل لا بد وأن يكون مخلصاً بالكسر؛ بل مخلصاً بالفتح، والمخلص لا وجود له في نفسه؛ لأنه فإن عن أعماله، والتعلق بها، فاجتمع ثقل؛ وهو العمل، وخفيف؛ وهو حال العامل؛ فارتفع ميزانه إلى جانب العلو؛ كالروح مع الجسد؛ فإنه لولا الروح لم يكن للجسد قيام بنفسه.

مقادير حسناته على مقادير سيئاته ﴿فَهُوَ﴾ يومئذ ﴿فِي عِيشَةٍ﴾ هنيئة مريئة ﴿رَاضِيَةٍ﴾ [القارعة: 7] صاحبها عنها.

﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ﴾ يومئذ ﴿مَوَازِينُهُ﴾ [القارعة: 8] أي: خفت حسناته وثقلت سيئاته ﴿فَأُتِيَ﴾ أي: مستقره ومأواه، وما يأوي إليه ﴿هَآوِيَةً﴾ [القارعة: 9] هي من أسماء جهنم.

ثم أبهمها سبحانه؛ تهويلاً وتفظيلاً، فقال: ﴿وَمَا أَذْرَاكَ مَاهِيَةً﴾ [القارعة: 10] أي: الهاوية.

ثم فسرّها؛ ليكون أدخل في التهويل، فقال: ﴿نَارٌ خَامِيَةٌ﴾ [القارعة: 11] أي: ماهية الهاوية وحقيقتها: نار ذات حمى وحرارة، بحيث قد انتهت في الحرارة والسخونة غايتها.

أعاذنا الله وعموم عباده منها.

خاتمة السورة

عليك أيها الطالب لترجيح الحسنات على السيئات أن ترغب في شرك ونجواك عن مستلذات الدنيا ومشتهياتها، وتركن إلى اللذات الروحانية من الأحوال والمواجيد الأخروية المستلزمة للدرجات العلية والمقامات السنية عند الله.

وإياك إياك الأمانى وطول الأمل، فإنها توقعك في فتنة عظيمة وبلية شديدة، لا نجاة لك منها.

خلصنا الله وعموم عباده من غوائل الدنيا وما فيها.

سورة التكاثر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فاتحة سورة التكاثر

لا يخفى على من هداه الله إلى طريق المعرفة والإيمان، وكشف له سبيل الكشف والعيان، وأفاض عليه سبحانه الفضل والإحسان أن الأموال والأولاد ومطلق المزخرفات الدنيوية الفانية، التي هي أسباب التكاثر والتفاخر وعلل الاستكبار والخيلاء في النشأة الأولى من العوائق العائقة عن الوصول إلى روضة الرضا وجنة المأوى. فلا بد لأرباب الإرادة والولاء أن يتزهدوا عنها ولا يلتفتوا إليها، ويتزودوا بزيادة التقوى، فنعم الزاد التقوى والرضا بما جرى عليه القضاء.

لذلك خاطب سبحانه في هذه السورة أهل المفاخرة والمباهاة بتكاثر الأموال والأولاد، وأوعدهم بما أوعدهم؛ تسجيلاً على ضلالهم وانحرافهم عن جادة العدالة الإلهية وصراط التوحيد، فقال بعدما تيمن: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ المتجلى بكمالاته في الإنسان؛ ليربيه على نشأة الإيمان والعرفان ﴿الرَّحْمَنِ﴾ عليه بأنواع اللطف والإحسان؛ ليتوجه نحوه في عموم الأحيان ﴿الرَّحِيمِ﴾ له، يهديه إلى مرتبة الكشف والعيان.

﴿الْمَنَكُمُ التَّكَاثُرُ ۚ ۱﴾ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ۚ ۲﴾ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ ۳﴾ ثُمَّ كَلَّا

سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١﴾ [التكاثر: 1-4].

﴿الْمَنَكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ [التكاثر: 1] أي: شغلتكم المفاخرة والمباهاة بكثرة الأموال والأولاد أيها المنهمكون في بحر الغفلة والضلال عن توحيد ربكم وطاعته، وكنتم على هذا طول عمركم.

﴿حَتَّى زُرْتُمُ﴾ ولحقتم ﴿الْمَقَابِرَ﴾ [التكاثر: 2] وصرتم أمواتاً مثلهم، وما صدر عنكم، وما جُبلتم لأجله طول دهركم.

ثم قال سبحانه؛ ردعاً لهم وتهديداً: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [التكاثر: 3] أن أمركم

وشأنكم ما هذا التفاخر والتكاثر، وستعلمون ما يترتب عليها.

﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [التكاثر: 4] أن الأمر ليس هذا، كرره؛ تأكيداً ومبالغة في التهديد والوعيد، وتهويلاً للوعود.

﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴿٧﴾ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴿٨﴾﴾ [التكاثر: 5-8].

ثم سجل عليهم سبحانه جهلهم وضلالهم بقوله: ﴿كَلَّا﴾ يعني: ما تتكاثرون وتفتخرون بهذه الزخرفة الفانية أيها الجاهلون المكابرون ﴿لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾ [التكاثر: 5] أي: لو علمتم يقيناً علمياً، وصدقتكم تصديقاً قلبياً أنكم: ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾ [التكاثر: 6] لما تكاثرتكم وتفاخرتكم بما تفاخرتم، وما خطر ببالكم هذه الخواطر الكاذبة، إلا أنكم جاهلون غافلون عن رؤيتها، بل منكرون لها؛ لذلك تفتخرون وتكاثرون بالحطام الدنية الدنيوية، وتستلذون بلذاتها الفانية، وشهواتها الغير الباقية.

ثم كرر سبحانه أمر الرؤية؛ تهويلاً عليهم وتنصيصاً على وعيدهم، فقال: ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا﴾ أي: الجحيم المعدة لتعذيبكم ﴿عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ [التكاثر: 7] ⁽¹⁾ أي: يقيناً عينا حتى تعينوا بها، وترون منازلكم فيها.

﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ﴾ أيها الناس الناسون لعهود الحق ومواثيقه ﴿يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ [التكاثر: 8] الفاني الذي يشغلكم عن الحق ويلهاكم عن طاعته وعبادته، فحينئذ ظهر عليكم خطأ آرائكم وفساد أهوائكم التي كنتم عليها في النشأة الأولى. آتنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب.

(1) قال الورتجي: و«حقيقة اليقين» و«حق اليقين»: أن يعرف العبد أنه يرى جحيم قهر القدم الذي كان الحق موصوفاً في الأزل، ولم يصل إلى بطنان كنهه؛ لأنه الحدث والحق قديم، وأنى يصل الحدث إلى القدم أبداً؟ قال يحيى: «اليقين»: كشف الغطاء عن القلب، وقال فارس: «علم اليقين»: لا اضطراب فيه، و«عين اليقين»: هو العلم يؤدعه الله الأسرار، قال الخراز: «عين اليقين»: هو أن يرفع الحجب عن قلوبهم بتجلي لأرواحهم وأسرارهم، ويكشف عن أوهامهم حتى يروه عين اليقين، فيرجعوا عنه سكارى، ويتهوا عنه حيارى. قال بعضهم: «عين اليقين»: عين البقاء.

خاتمة السورة

عليك أيها المحمدي المتصف باليقين العلي بعموم المعتقدات الأخروية أن تكون على ذكر منها، بحيث يكون علمك بها عينًا قبل حلولها ونزولها، فعليك ألا تركز إلى الدنيا: مزخرفاتها ونعيمها ولذاتها، وتقنع بالكفاف وتتصف بالعفاف، وتلازم العزلة والخمول والفرار عن أصحاب الفضول، فإن صحبة الأشرار يعوقك عن ملاحظة الأسرار ويمنعك عن مشاهدة الأنوار.

ربنا هب لنا من لدنك جذبة تنجينا من فضول الكلام وتوصلنا إلى دار السلام.

سورة العصر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فاتحة سورة العصر

لا يخفى على من انكشف له وحدة الحق واستقلاله في الوجود وسريانه في جميع الموجودات والمشهودات الظاهرة على صفحات الكائنات أن ما سوى هذه الملاحظات والمشاهدات المتعلقة بكيفية شئون الحق وتطوراتها، المترتبة على أسمائه الحسنى وصفاته العليا إنما هو خسران مبین ونقصان عظيم؛ إذ الفطرية الإنسانية إنما جُبلت لأجلها، فمن لم يتصف بها ﴿فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾ [النساء: 119].

لذلك تَبَّ سبحانه في هذه السورة على خسران الإنسان وحرمانه عن طريق العرفان ما لم يتصف بالإيمان والأعمال الصالحة، فقال سبحانه مقسمًا بعدما تيمن: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ الذي خلق الإنسان على صورته؛ ليتخلق بأخلاقه ﴿الرَّحْمَنِ﴾ عليه حيث أظهره من كتم العدم ورباه بأنواع اللطف والكرم ﴿الرَّحِيمِ﴾ عليه، يهديه إلى صراط مستقيم موصل إلى توحيده.

﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَّصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٣﴾ [العصر: 1-3].

﴿وَالْعَصْرِ﴾ [العصر: 1] أقسم سبحانه بالعصر والدمر الذي هو عبارة عن بقاء الوجود الأزلي الأبدي ودوامه السرمدي.

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ﴾ المجبول على فطرة المعرفة والإيمان حسب حصته اللاهوتية ﴿لَفِي خُسْرٍ﴾⁽¹⁾ [العصر: 2] عظيم، وخيبة يئنة؛ بسبب اشتغاله بما لا يعنيه من لوازم

(1) قال علاء الدولة: اسمع بسمع حديد وقلبي شهيد أن الله تعالى خلق الإنسان ﴿فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: 4] بإدراجه جميع المفردات العلوية والسفلية فيه، فلذلك جمع الله تعالى لأمة محمد خواص جميع الساعات في الصلاة الوسطى؛ وهي صلاة العصر، إذا أدى الإنسان حق الطاعة في تلك الساعة صيرت الفوائد المدرجة في جميع الساعات لها، وأشار إلى هذا المعنى حبيب

بشريته المتعلقة بحصة الناسوت.

﴿إِلَّا﴾ الموقنين ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بوحدة الحق، وتفطنوا باستقلاله في التصرفات الجارية في ملكه وملكوته ﴿وَوَ﴾ مع الإيمان والإذعان ﴿عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ الدالة على إخلاصهم ويقينهم ونياتهم ﴿وَوَ﴾ مع ذلك ﴿تَوَاصَوْا بِالْحَقِّ﴾ أي: أوصى بعضهم بعضاً نسلوك طريق الحق وتوحيده ﴿وَتَوَاصَوْا﴾ أيضاً ﴿بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: 3] على مشاق الطاعات ومتاعب الرياضات الطارئة عليهم، من قطع المألوفات الإمكانية، وترك اللذات البهيمية اللازمة للقوى البشرية.

وفقنا الله على قلعها وقطعها.

خاتمة السورة

عليك أيها المحمدي القاصد لقطع العلائق الإمكانية أن تتصبر على عموم البلوى العارضة لك في نشأتك الأولى، وتسترجع إلى الله في جميعها، وتسند إليه سبحانه أولاً وبالذات بلا رؤية الوسائل في البين، وتوطن قلبك مع ربك في جميع حالاتك، وترضى عن الله في عموم ما جرى عليك في مقتضيات قضائه، وبالجملة: كن فانيًا في الله تفز بخير الدارين وفلاح النشأتين.

الله ﷻ قال: «إن الله فرض على أمة موسى ﷺ أن يعملوا يوماً لياخذوا أجورهم، فعملوا من الصبح إلى الظهر وملوا وتركوا العمل والأجر، فتعين الله تعالى لأمته عيسى ﷺ من الظهر إلى العصر، وعملوا وتركوا العمل والأجر، ثم فرض الله تعالى على أمتي بقية اليوم أن يعملوا وياخذوا أجر اليوم كله فقبلوا وعملوا، وأخذوا الأجر الكثير بالعمل القليل».

سورة الهمزة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فاتحة سورة الهمزة

لا يخفى على الموحدين المستكشفين عن سرائر التوحيد واليقين أن الكمالات الدينية كلها منوطة بالتخلق بأخلاق الله والتأديب بآدابه، فلا بد لأرباب الإرادة والطلب أن يهذبوا ظواهرهم أولاً بالشرائع النبوية والنواميس المصطفوية المقتبسة من مشكاتي النبوة والولاية، وبواطنهم بالخواطف الغيبية والهواتف اللدنية، الملهمة إليهم حسب القوى القدسية اللاهوتية المتعلقة باسعداداتهم الفطرية وقابلياتهم الجبلية، فمن رغب عنها، ولم يتصف بها، فما له في الآخرة من خلاق.

لذلك حث وحرض سبحانه في هذه السورة أرباب العناية والتوفيق على كسب الآداب، والتخلق بمحاسن الأخلاق، والاتصاف بأوصاف الكمال بتوبيخ أصحاب الغفلة والضلال المسيئين الأدب مع الله ومع عباده، وبسوء منقلبهم ومآبهم عنده سبحانه، فقال بعد التيمن: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ المتجلى بكمالاته في نوع الإنسان ﴿الرَّحْمَنِ﴾ عليه بأنواع اللطف والإحسان ﴿الرَّحِيمِ﴾ لخواص عباده حيث خلقهم بأخلاقه.

﴿وَبَلِّغْ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةً ۝١﴾ الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ۝٢﴾ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ

أَخْلَدَهُ ۝٣﴾ [الهمزة: 1-3].

﴿وَبَلِّغْ﴾ عظيم وهلاك هائل شديد لكل فرد من أفراد الأقوام ﴿لِكُلِّ هُمَزَةٍ﴾ يمشي بين الناس بالهمز وكسر الأعراض، وصارت له هذه الديانة القبيحة عادة راسخة مستمرة، وأيضاً لكل ﴿لُّمَزَةٍ﴾ [الهمزة: 1] يطعن في أنساب الأنام، وينسبهم إلى أنواع البغي والآثام افتراء ومراء.

وما جزأه وحمله على هذه الخصلة القبيحة والفعلة الوقحة إلا ثروته وماله وجاهه وسيادته، فإنه ﴿الَّذِي جَمَعَ مَالًا﴾ وأمتعة من الزخارف الدنية الدنيوية التي مالت قلوب أبنائها وأصحابها إليها ﴿وَعَدَّدَهُ﴾ [الهمزة: 2].

﴿يَخْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾ [الهمة: 3] أي: أدام وأبقى ماله نفسه وجعله مخلداً في الدنيا، مستمراً فيها أبداً، بحيث لا يطرأ عليه زوال وانتقال. وبالجمله: اغتر بماله وجاهه إلى حيث خيل له الخلود به فيها والدوام عليها بطراً وغروراً.

﴿كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ﴾ ① ﴿وَمَا أَذْرَكَ مَا الْحُطَمَةُ﴾ ② ﴿نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ﴾ ③ ﴿الَّتِي تَطْلُعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ﴾ ④ ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّدَةٌ﴾ ⑤ ﴿فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ﴾ ⑥ [الهمة: 4-9].
ثم قال سبحانه: ﴿كَلَّا﴾ ردعاً له عن حسبانته واغتراره، وخطأ رأيه وطغيانه؛ يعني: من أين يتأتى ويتيسر له الخلود والدوام فيها؟! والله ﴿لَيُنْبَذَنَّ﴾ ويطرحن يوم الجزاء ﴿فِي الْحُطَمَةِ﴾ [الهمة: 4] أي: النار التي من شأنها أنها تحطم وتكسر وتفني من يطرح فيها.

ثم أبهمها تهويلاً، فقال: ﴿وَمَا أَذْرَكَ مَا الْحُطَمَةُ﴾ [الهمة: 5] المعدة لتعذيبه. ثم فسرها؛ لكونه أدخل في التهويل والتفظيع بقوله: ﴿نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ الَّتِي تَطْلُعُ﴾ [الهمة: 6-7] وتعلو ﴿عَلَى الْأَفْئِدَةِ﴾ [الهمة: 7] ⁽¹⁾ والأكباد؛ أي: حرقها وإيلامها غير مختص بظواهر الجلود، بل يسري إلى البواطن أيضاً، كما أن أثر الهمز واللمز اللذين هما سببا التعديل بهذه الحطمة يشمل ظواهر الناس وبواطنهم. وبالجمله ﴿إِنَّهَا﴾ أي: النار الموقدة الإلهية ﴿عَلَيْهِمْ مُّوَصَّدَةٌ﴾ [الهمة: 8] أي: مطبقة عليهم، محيطة بهم، محفوفة بحواشيهم وحواليهم، وهم حينئذٍ مشدودون، موثقون بأيديهم وأرجلهم.

﴿فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ﴾ [الهمة: 9] أي: أعمدة وأخشاب طوال مثقوبة، ومن أعناقهم بالسلاسل والأغلال، ألا وهي مصورة من سلاسل الآمال وأغلال الآماني التي هم

(1) قال روزبهان: «نار القهر، ونور اللطف، «نار قهره»: إبعاده قلوب المنكرين عن ساحة جلاله، و«نار لطفه»: نيران محبته في قلوب أوليائه من المحييين والعارفين، وقال جعفر: النيران شيء مختلف، فمنها: نار المحبة، ونار المعرفة تثقد في أفئدة الموحدين، ونيران جهنم تثقد في أفئدة الكافرين، ونيران المحبة إذا أثقت في قلب المؤمن تحرق كل همّة غير الله، وكل ذكر سوى ذكره.

مقيدون بها في بقعة الإمكان.

أعاذنا الله وعموم عباده منها.

خاتمة السورة

عليك أيها الموحد المحمدي الوجل الخائف عن مقتضيات القهر الإلهي وموجبات غضبه أن تعتدل في عموم أخلاقك وأطوارك، وتعيش بين بني نوعك هيناً ليناً، فرحان بلا مماراة ومخاصمة، تصاحبهم وتداريهم على وجه الوفاق والملاطفة، بلا شوب الشقاق والنفاق.

وبالجملة: ترجّحهم على نفسك في كل الأمور، وتراعيهم حسب المقدور فإن رعايتك إياهم، وترجيح جانبهم يؤدي إلى مراعاة جانب الحق وترجيحه.

وبالجملة: أحسن إليهم كما أحسن الله لك، فكن من المحسنين، واعبد ربك في كل ذرة حتى يأتيك اليقين.

سورة الفيل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فاتحة سورة الفيل

لا يخفى على من انكشف بحیطة الأوصاف الإلهية وشمول أسمائه الحسنی على عموم ذرائر الأكوان أن من جملتها القادرة الغالبة المودعة في أجزاء العالم كلها متى تعلق إرادته سبحانه بإظهار القدرة أظهر من كل ذرة ونملة حسب قدرته الغالبة أفعالا عجيبة وآثارا بليغة، تدهش العقول وتقرع الأسماع.

كما أخبر سبحانه في هذه السورة لحبيبه ﷺ؛ تبيينًا له وتوطيئًا، تميمًا لتربيته، فقال بعدما تيمن: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ القادر المقتدر على كل ما دخل في حیطة علمه وإرادته ﴿الْزَّخْمَنِ﴾ لعموم عبادته؛ حيث دبر أمورهم على مقتضى الحكمة المتقنة البالغة ﴿الزَّجِيمِ﴾ لهم، يوصلهم إلى الدرجة الرفیعة اللاهوتية.

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ ١ ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾ ٢ ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ ٣ ﴿تَرْمِيهِمْ بِحِجَارٍ مِّنْ سِجِّيلٍ﴾ ٤ ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ ٥ ﴿[الفيل: 1-5].

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ ولم تعلم يقينًا علميًا حاصلًا لك من طريق السمع إلى حيث وصل إلى مرتبة اليقين العيني من كثرة السماع من الثقات، وتكرره ﴿كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ﴾ الذي ربك يا أكمل الرسل لرسالته، وأظهر دينك على الأديان كلها، ونصرك على عموم أعدائك بقدرته الغالبة ﴿بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ [الفيل: 1] وهو جيش أبرهة بن الصباح الأشرم ملك اليمن من قبل أصحمة النجاشي.

قصد هدم الكعبة عمرها الله، فخرج مع جيشه، ومعه فيل كثيرة، لكن فيها فيل عظيم جسيم في غاية الجسامة، مسمى بـ «محمود» كانوا يأمرؤن له بهدم البنيان،

فيهدمها في الحال، ولهذا سُمّوه بهذا الاسم.

وسبب هذا القصد أن أبرهة بنى كنيسة بصنعاء، فسامها قُليس، فعزم أن يصرف الحاج من مكة إليها، فلما انتشر الخبر، ذهب رجل من كنانة إلى قُليس ذات ليلة، فتغوط فيها ولطخ بها محاربها، فوصل الخبر إلى أبرهة فغار غيرة شديدة، فحلف: والله لأهدمن الكعبة.

فخرج مع جيشه وفيله، حتى وصل إلى حوالي الحرم، وأراد أن يأمر الفيل بهدمها، فبرك ولم يبرح نحوها، فضربوه وشدّدوا عليه، فلم يفد، فكانوا إذا وجهوه إلى جهة غير جهة البيت هروا وأسرع، وأما نحوها فلم يمش قط، فصاروا متحيرين في شأنه.

كما قال سبحانه: ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ﴾ الذي كادوا به لهدم البيت وانصراف الزوار عنه نحو بيتهم الذي قد بنوا ﴿فِي تَضْلِيلٍ﴾ [الفيل: 2] ضياع وهلاك ١٩

﴿و﴾ كيف لا يكون في الضياع والخسار؛ إذ ﴿أَرْسَلَ﴾ سبحانه بمقتضى قدرته الغالبة ﴿عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ [الفيل: 3] ⁽¹⁾ أفواجًا كثيرة متفرقة، متفوقة من جنس واحد من الطير، مع كل واحد منها ثلاثة أحجار.

﴿تَرْمِيهِمْ﴾ يعني: الطير، جيش أبرهة ﴿بِحِجَارَةٍ﴾ متخذة ﴿مِّنْ سِجِّيلٍ﴾ [الفيل: 4] وهو معرب: سنك وكل.

﴿فَجَعَلَهُمْ﴾ من كثرة ما ترميهم بها ﴿كَغَضِيفٍ مَّاكُولٍ﴾ [الفيل: 5] أي: كتبن يأكله الأنعام وتروث به، فتفرقه الرياح؛ أي: صاروا من شدة غضب الله إياهم هباءً منثورًا.

(1) قال عكرمة: قال: طير نشأت من قبل البحر، لها رؤوس كرؤوس الأفاقي، وقيل: كرموس السباع، لم تر قبل يومئذ ولا بعده، فجعلت ترميهم بالحجارة لتجدر جلودهم، وكان أول يوم رمي فيه الجدرى. تفسير التستري (356/2).

خاتمة السورة

عليك أيها السالك الخائف من بطش الله، المحترز عن مقتضى قهره وجلاله أن تكون في عموم أحوالك وأطوارك بين الخوف والرجاء عن جلال الله وجماله، بحيث لا يجري عليك نفس من أنفاسك، وأنت فيه خالٍ عن كلا النقيضين.

وبالجملة: لا تياس من روح الله، ولا تتكل على كرمه، فاعلم أنه سبحانه يرقبك في حالاتك، ويعلم منك ما لم تعلم من نفسك، فكن من المخلصين ولا تكن من القانطين، فإن ناقدك خير بصير.

سورة قريش

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فاتحة سورة قريش

لا يخفى على من تفتن بسرائر العبودية المستلزمة لأنواع التذلل والخضوع والانكسار التام والخشوع المفرط أن الباعث عليها والداعي إليها إنما هو الإنعام العام والإحسان التام الذي هو القيام على عموم الحوائج اللازمة للهوية الشخصية، المقومة لها، المبقية لماهيتها.

ولاشك أن المتكفل المستقل لحوائج عموم المظاهر والمجالي هو الله الواحد الأحد الصمد القادر المقتدر على جميع المقدورات بالاستقلال والاختيار، المربي لكل بأنواع اللطف والكرم، وهو المستحق للإطاعة والانقياد استحقاقاً ذاتياً وصفياً، وكيف لا؛ إذ لا معبود سواه، ولا إله غيره؟

لذلك أمر سبحانه حبيبه في هذه السورة بعبوديته وانقياده، فقال بعد التيمن: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ المظهر لكل من كتم العدم ﴿الرَّحْمَنِ﴾ على الكل بأنواع الكرم ﴿الرَّحِيمِ﴾ عليهم، بإلزام العبودية والذم، تعجبوا أيها المعتبرون!

﴿لَا يَلْفُ قُرَيْشٌ ۝١﴾ لَيْلَيْهِمْ رِحْلَةُ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ۝٢﴾ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا

الْبَيْتِ ۝٣﴾ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ۝٤﴾ [قريش: 1-4].

﴿لَا يَلْفُ قُرَيْشٌ﴾ [قريش: 1] ⁽¹⁾ أي: اتلافهم وتآلفهم فيما بينهم، واتفاقهم

على أن ينصرفوا من حوالي بيت الله حين ﴿لَيْلَيْهِمْ﴾ واتفاقهم على الظعن والارتحال ﴿رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾ [قريش: 2] يعني: يرتحلون في كل سنة مرتين: مرة في الشتاء

(1) قال القشيري: مصدر آلف، إذا جَعَلْتُهُ يَأْلَفُ، وهو أَلِفٌ إلْفًا، والمعنى: جعلهم كعصفٍ مأكولٍ لَيْلَيْهِمْ قُرَيْشٌ، أي لِيَأْلَفُوا رِحْلَتَهُمْ فِي الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ، وكانت لهم رحلتان للاختيار: رحلة إلى الشام في القيظ، ورحلة إلى اليمن في الشتاء والمعنى: أنعم الله عليهم بإهلاك عدوهم لِيَوْلَقَهُمْ رِحْلَتَهُمْ، تفسير القشيري (8 / 106).

نحو اليمن ومرة في الصيف إلى الشام، والباعث على ترحالهم: فقد الزاد في مكة؛ إذ هي بواد غير ذي زرع، فيشق عليهم الأمر، فيتجروا في كل سنة مرتين.

فكره الله منهم هذا، وأمرهم بالمكوث والإقامة حول بيته، بقوله: ﴿فَلْيَبْغُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾ [قريش: 3] وليعتكفوا في حواليه، وليتوكلوا عليه ولا يتجروا؛ إذ هو القادر المقتدر ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُمْ﴾ وأشبعهم ﴿مِنْ جُوعٍ﴾ شملهم وأحاط بهم حتى أكلوا الجيف والعظام المحرقة ﴿وَأَمَّنَّهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ [قريش: 4] لحقهم من أعدائهم مرارًا ببركة هذا البيت، فلهم أن يسكنوا في حواليه، متوكلين على ربه، يكفي لهم مؤنة أرزاقهم بحوله وقوته، كما كفى لهم فيما مضى.

خاتمة السورة

عليك أيها المتوجه إلى الله، المتوكل على كرمه وإحسانه أن تمثل بجميع ما أمرك الحق عليه، وتفوض أمورك كلها إليه، وترضى على عموم ما جرى عليك من القضاء، وتعتقد أن الأمر كله لله، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، لا يسأل عن فعله، إنه حكيم حميد.

سورة الماعون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فاتحة سورة الماعون

لا يخفى على من انكشف له سرائر الدين القويم، وحكم الأحكام الموردة في الشرع المستقيم، ومصالح التكاليف الواردة من العليم الحكيم أن سر العبودية والتدين والانقياد، إنما هو التأدب مع الله، وحسن القيام على أداء حقوق ربوبيته ومقتضيات ألوهيته، ولا شك أن من تقاصر فيها وتهاون عليها، فقد انحرف عن جادة العبودية، واستحق الويل والشبور من الله المنتقم الغيور.

كما أشار إليه سبحانه في هذه السورة مستفهماً على سبيل التعجب والاستبعاد، فقال بعد التيمن: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ الذي وضع الدين بين الأنام؛ ليهديهم إلى دار السلام ﴿الرَّحْمَنِ﴾ عليهم بإنزال التكاليف والأحكام ﴿الرَّحِيمِ﴾ عليهم، يوصلهم إلى أعلى المكانة وأرفع المقام.

﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْدينِ ۚ ١﴾ فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ ٢ وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ ٣ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ٤ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ٥ الَّذِينَ هُمْ يُرَآؤُونَ ٦ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ٧﴾ [الماعون: 1-7].

﴿أَرَأَيْتَ﴾ أي: هل عرفت وأبصرت المعاند الكاذب ﴿الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْدينِ﴾ [الماعون: 1] أي: يوم الجزاء والحساب الموعود؛ لتتقيد الأعمال والأفعال الجارية في نشأة الاختبار؟.

﴿فَذَلِكَ﴾ المكذب المنكر هو ﴿الَّذِي يَدْعُ﴾ ويدفع بالعنف المفرط ﴿الْيَتِيمَ﴾ [الماعون: 2] الذي جاءه لينفعه من ماله الذي كان عنده؛ لكونه قيمياً ووصياً له، قيل: هو الوليد بن المغيرة، وقيل غيره، وما ذلك إلا من غاية بخله وخساسته.

﴿و﴾ من شدة بخله وخساسته وإمساكه المفرط ﴿لَا يَحْضُ﴾ لا يبحث أحداً ﴿عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ [الماعون: 3] يعني: هو لا يطعم ولا يرضى أيضاً بإطعام الغير

من شدة شحه وإمساكه، هذا أمانة تكذيبه بالدين والجزاء بحسب الظاهر.
 أمّا بحسب الباطن ﴿فَوَيْلٌ﴾ عظيم وعذاب أليم ﴿لِلْمُضِلِّينَ﴾ [الماعون: 4]
 المكذبين بيوم الجزاء، المنكرين لمعالم الدين المستبين؛ لأنهم ﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ
 صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾⁽¹⁾ [الماعون: 5] غافلون، لا يحافظون عليها في أوقاتها المحفوظة
 لها، ولا يواظبون على إقامتها.

بل هم ﴿الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ﴾ [الماعون: 6] بها على رءوس الملاء، ويتركونها في
 خلواتهم؛ لعدم اعتدادهم واعتقادهم بها، وما يترتب عليها من الجزاء مع تهاونهم
 وتكاسلهم في الصلاة التي هي عماد الدين وأعلى مراسم التوحيد واليقين.
 ﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ [الماعون: 7] أي: الزكاة المهدبة لنفوسهم عن الشح
 المستهجن والتقتير المستقبح، والفتوات المؤدية إلى عموم الحسنات والخيرات
 المسقطة للمروءات.

خاتمة السورة

عليك أيها الطالب لطريق الحق، التحقيق بالإطاعة والاتباع أن تهذب ظاهرك
 وباطنك عن مطلق الرذائل المنافية للعدالة الإلهية، وتخلى سرك عن الالتفات إلى ما
 سوى الحق؛ لتكون صلاتك منك ميلاً حقيقياً إلى الله، ومعراجاً معنوياً موصلاً إلى
 توحيده.

وإياك إياك المراء والمجادلة مع بني نوعك، والاستكبار عليهم، وإظهار الثروة
 والسيادة فيما بينهم بالثمال والجاه، فإنه يميت قلبك، ويزيد في هواك، ويبعدك عن
 مولاك، تضرك في أولاك وأخراك.

(1) يعني: ويل للقوى النفسية المقلدة المؤمنة خوفاً من المجاهدة التي [عليها] صاحبها السالك، لئلا
 يقتلها بالمجاهدة ولئلا يأسرهما ويغير عليها مالها وأهلها، واستعدادها وهواها يسلوك بالصورة
 رعيًا عن المجاهدة؛ وهم عن حقيقتها ساهون لا يصلون إلا لدفع الضرر عنهم ويجز النفع عن
 صاحبهم إليهم. [عين الحياة].

سورة الكوثر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فاتحة سورة الكوثر

لا يخفى على من وصل إلى بحر الحقيقة، وورد على الحوض المورود والمقام المحمود الذي هو الوجود الإلهي المنبسط بمقتضى الجود الذاتي إلى عموم الموجودات أن الوصول إلى هذا المطلب الأعلى والمقصد الأقصى الذي هو التوحيد الذاتي المعبر بالحوض الكوثر، الذي هو عبارة عن كثرة الخير والبركة، ما تيسر والتقوى جماهير الأنبياء والرسل للحضرة الختمية الخاتمية المحمدية - صلوات الله عليه وسلامه - لذلك ختم بيعته أمر الإرسال والتشريع.

ولهذا نبه سبحانه في هذه السورة على عظم شأنه وجلالة قدره ومكانه، فقال بعد التيمن: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ المتجلى على حبيبه ﷺ بعموم كمالاته؛ ليكون مرآة يترأى منه ﷺ آثار جميع أسمائه الحسنی وصفاته العليا ﴿الرَّحْمَنُ﴾ على عموم الأنام ببعثه ﷺ حين يهديهم إلى دار السلام ﴿الرَّحِيمُ﴾ للخواص منهم، يرشدهم إلى التوحيد الذاتي الذي هو المنجي عن ظلمات الأوهام.

﴿إِنَّا أَعْطَيْنَكَ الْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ ۝٢﴾ إِنَّكَ شَانِكَ هُوَ

الْأَبْتَرُ ۝٣﴾ [الكوثر: 1-3].

﴿إِنَّا﴾ من مقام عظيم جودنا ومحض كرامتنا ﴿أَعْطَيْنَاكَ﴾ يا أكمل الرسل إعطاء وكرامة ﴿الْكَوْثَرَ﴾⁽¹⁾ [الكوثر: 1] الذي هو التحقق بوحدة الذات والانكشاف بها

(1) «الكوثر»: حقيقة استغراقه في بحر جماله، ودنوه في منازل قربه، وله كوثر القلب يجري فيه أنهار أنوار مشاهدة الحق من بحار الأزل، والأبد يزيد في كل نفس سواقيها إلى الأبد. قال جعفر: نور في قلبك ذلك على، وقطعتك عما سواي. وقال: الشفاعة لامتك. وقال ابن عطاء: الرسالة والنبوة. وقال: معرفة ربوبيتي، وانفراد بوحدة ذاتي وقدرتي ومشيتي. وقال الجنيد: أعطيتك نور المعرفة، وانفراد الوجدانية.

والوقوف عليها.

وبعد ما أعطيناك ما أعطيناك، وخصّصناك بالكرامة التي لم نعط أحداً من الأنبياء والرسل الذين مضوا قبلك ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾ ودم على التوجه نحوه وأخلص فيه، واستقم عليه ﴿وَأَنْحِزْ﴾ [الكوثر: 2] بدنة ناسوتك بعدما وصلت إلى كعب الذات، وفزت بعرفات الأسماء والصفات؛ تقرباً إلى الله، ولا تلتفت إلى من يشينك ويعيبك من الجهلة المكابرين.

﴿إِنْ شَاءَ رَبُّكَ﴾ الذي يشينك ويبغضك في شأنك وأمرك هذا ﴿هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ [الكوثر: 3] المقطوع العقب والأثر من كل خير، وأترك يبقى إلى قيام الساعة.

خاتمة السورة

عليك أيها المحمدي القاصد للورود إلى الحوض والكوثر والشرب منها أن تتوجه في عموم أوقاتك وحالاتك إلى الله على وجه التبتل والإخلاص، وتميت بهيمة بدنك بالموت الإرادي، وتهديها في طريق الحق؛ تقرباً إليه سبحانه؛ لتنال خير الدارين وفلاح النشاطين.

سورة الكافرون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فاتحة سورة الكافرون

لا يخفى على أهل الخبرة والوقوف بأمارات مقصد التوحيد، وعلامات مسلك الفناء في الله والبقاء ببقائه أن الطرق إلى الله متفاوتة، والمعارج نحوه متنوعة مختلفة؛ إذ لكل وجهة هو موليها.

وأكمل الطرق وأشملها وأسلمها هو الذي ركب واستقام عليه الحضرة الختامية الخاتمية؛ لأن طريقه ﷺ مستوعب لعموم الطرق والسبل؛ إذ هو مبني على التوحيد الذاتي المشتمل على توحيد الصفات والأفعال مطلقاً، ولا يهتدي إليه أحد من الخلق إلا بجذب من جانب الحق، وتوفيق من لدنه، ومن لم يؤيد من قبل الحق، ولم تدركه العناية من لدنه ما اهتدى إليه سبيلاً.

لذلك أمر سبحانه في هذه السورة حبيبه ﷺ حين دعاه الكفرة ليعبد ﷺ سنة إلى ما عبدوا من آلهتهم الباطلة، حتى يعبدوا الله الواحد الأحد، المستحق للعبودية والتذلل سنة أخرى مجازاة لها، مقابلة إياها بأن لا يلتفت إلى قولهم الباطل ورأيهم الزائف الزائل، فقال بعدما تيمن: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ المطلع لما في ضمائر عموم عباده من الهداية والضلال ﴿الرَّحْمَنِ﴾ عليهم بإرسال الرسل يدعوهم إلى سبيل السلامة والرشاد ﴿الرَّحِيمِ﴾ لهم، يوصلهم إلى خير المنقلب والمآب.

﴿قُلْ يَتَأَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۝١ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ

۝٣ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ ۝٤ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾

[الكافرون: 1-6].

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل منادياً لمن دعاك إلى عبادة آلهته الباطلة: ﴿يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ [الكافرون: 1] الساترون شمس الحق الظاهر في الأنفس والآفاق بغيوم هوياتكم الباطلة.

﴿لَا أَعْبُدُ﴾ أي: لا أنقاد وأتوجه، سيما بعدما وفقني الله إلى توحيده، وهداني

نحو شمس ذاته، وشرفني بمطالعة وجهه الكريم ﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾ [الكافرون: 2] من الآلهة الباطلة والأظلال الهالكة العاطلة، التي اتخذتموها آلهة من تلقاء أنفسكم أنتم وآباؤكم مع أنه ﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ [يوسف: 40]، بل ما تتبعون أنتم وهم باتخاذهم إلا الظن وما تهوى الأنفس من غير ورود الهداية؛ لأنه من قبل الحق.

﴿وَلَا أَنْتُمْ﴾ أيضًا ﴿عَابِدُونَ مَا أُعْبُدُ﴾ [الكافرون: 3] من الحق الوحيد، الفريد، الحقيق بالعبادة والإطاعة، بالاستقلال والانفراد؛ إذ لا إله معه، ولا شيء يماثله حتى يشاركه في أخص أوصافه التي هي الألوهية؛ إذ ليس في وسعكم واستعدادكم الإيمان به والإيقان بوحده واستقلاله في ملكه وملكوته، ومع ذلك ما وفقكم الحق عليه وأقدركم به.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿لَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ﴾ [الكافرون: 4] إذ لا يليق بالألوهية حتى أعبد له.

﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أُعْبُدُ﴾⁽¹⁾ [الكافرون: 5] إذ لا يتيسر لكم الإيمان به والاطلاع على وجوده والاتصاف بمعرفته وشهوده، فكيف تعبدون أنتم الله الواحد الأحد، الصمد بلا جذب من جانبه وتوفيق من لدنه؟ وأنا أيضًا لا أعبد لمعبوداتكم الباطلة التي هي بمراحل عن رتبة الألوهية والعبودية.

وبالجملة: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ﴾ الذي أنتم عليه، وطريقكم الذي تتوجهون إليه بعدما لم يوفقكم الحق على الهداية والإيمان ﴿وَلِي دِينِ﴾ [الكافرون: 6] الذي أنا عليه، لا تركوا دينكم بديني، ولا أنا أيضًا تارك ديني بدينكم، بل لكم دينكم ولي ديني، والتوفيق بيد الله والهداية والضلال.

(1) الإشارة: إذا طلبت العامة المريد بالرجوع، إلى الدنيا والاشتغال بها، يقال له: قل يا أيها الكافرون بطريق التجريد، والتي هي سبب حصول التوحيد والتفريد، لا أعبد ما تعبدون من الدنيا وحفظها، أي: لا أرجع إليها فيما يُستقبل من الزمان، ولا أنتم عابدون ما أعبد من أفراد الحق بالمحبة والعبادة، أي: لا تقدرون على ذلك، ولا أنا عابد ما عبدتم من الدنيا في الحال. انظر: البحر المديد (116/7).

خاتمة السورة

عليك أيها الموحد المحمدي الحنيف، المائل عن كل الأديان والمذاهب
 المنافية لصرافة شرب التوحيد ألا تجالس مع أهل الغفلة والضلال، المترددين في أودية
 الجهلات بأنواع الخيالات الباطلة، والأوهام العاطلة المترتبة على هوياتهم العدمية
 وتعيناتهم الوهمية، ولا تصاحبهم في حال من الأحوال، فإن صحبتك معهم تبعدك عن
 الحق وتغريك نحو الباطل، فإن النفوس الإنسانية أسرع عدوًا وأشد ميلًا إلى البدع
 والأهواء الفاسدة والآراء العاطلة الباطلة.

سورة النصر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فاتحة سورة النصر

لا يخفى على من فتح عليه الحق باب العناية، وكشف له سبيل الهداية والكرامة أن كل من دخل في كنف حفظ الحق وجواره، وتوكل عليه، وفوض الأمور كلها إليه، فقد أعانه الله ونصره على جميع أعاديته، وأنجح عموم مطالبه ومآربه، وجميع ما قدر له من الكمالات التي أودعها الحق في استعداداته الفطرية وقابليته الجبلية.

ولاشك أن أكمل الناس استعدادًا وأكمله قابلية، وأفضله كمالاً وشرفاً، هو الحضرة الختمية الخاتمية التي طويت المراتب كلها دون مرتبته ﷺ، ولهذا كمل جميع مكارمه وكمالاته المنتظرة في نشأته الأولى؛ ليكون مقدمةً وعنواناً على تكميل كمالاتها الأخروية، كما نبه عليه سبحانه في هذه السورة بعد التيمن والتبرك: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ المدير لأمور حبيبه ﷺ على الوجه الأكمل الأحكم ﴿الرَّحْمَنِ﴾ عليه لنصر أوليائه وقهر أعدائه ﴿الرَّحِيمِ﴾ له، حيث فتح له أبواب الفتوحات الغيبية والشهادية، والفيوضات اللدنية الفائضة عليه من عالم اللاهوت.

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْ لَهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ۝٣﴾ [النصر: 1-3].

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ﴾ أي: إذا جاءك يا أكمل الرسل وعد الله الذي وعدك أن ينصرك على جميع أعدائك، ويظهر دينك على الأديان كلها ﴿وَالْفَتْحُ﴾⁽¹⁾ [النصر: 1]

(1) قال البقلي: نصر الله لحبيبه ﷺ وجميع أحبائه أفرادهم بفردانيته عما دونه، وأنجاهم عن جنس النفوس، وإبلاغهم مقام الأنس نظفرهم على كل بغية لهم، وأداء ما عليهم من حقوق العبودية، و«الفتح»: انفتاح أبواب الوصال، وانكشاف أنوار الجمال والجلال، وبلوغهم عين الكمال، وأيضاً «نصر الله»: كشف غطاء النفس، و«الفتح»: وقوع نور القدس في القلب إذا ذهب قتام

الذي أخبرك الحق بقوله: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ [الفتح: 1].

﴿و﴾ بعدما جاءك الفتح والنصر الموعود آن لك وكمل ظهورك واستيلاؤك على عموم الأعداء، وظهر دينك على سائر الأديان ﴿رَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ [النصر: 2] فوجًا فوجًا، فرقة فرقة، بعدما كانوا يدخلون فيه فرادى فرادى.

﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ يا أكمل الرسل؛ شكرًا لما أعطاك جميع ما وعدك، وفتح عليك الآفاق، وأتم بعبثك وظهورك محاسن الشيم ومكارم الأخلاق ﴿وَاسْتَغْفِرْهُ﴾ واطلب منه العفو والغفران من لدنه؛ هضمًا لنفسك وفرطاتك؛ إذ قلما يخلو المبشر من الخطر.

﴿إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ [النصر: 3] يغفر من استغفر له، ويقبل توبة من أناب إليه أيضًا، سيما إذا كانت مقرونة بالإخلاص.

وبعدما نزلت هذه السورة، وأمر سبحانه ﷺ بالحمد والاستغفار، تغمم الأصحاب وتحزنوا، وفهموا منها أن أجل رسول الله ﷺ قد قُرب، فودَّعه الحق، وأمره بالحمد والاستغفار؛ لذلك سُمِّيَ هذه السورة سورة التوديع أيضًا.

خاتمة السورة

عليك أيها الطالب للنجاة الأخروية والراغب إلى اللذات الدنية الروحانية الموعودة فيها أن تستغفر إلى الله، وتسترجع نحوه في أوقاتك وحالاتك، وتفوض أمورك كلها إليه، وتتخذة وكيلًا، وتجعله حسيبًا وكفيلًا، فلك أن تواظب على الطاعات والعبادات، وتجتنب عن مطلق المحارم والمنكرات، يحفظك الحق عن جميع الملمات ويوصلك إلى عموم المهمات بفضله ولطفه.

الحدثان، فجاء النصر، وإذا انكشف جمال الرحمن قام الفتح، وذلك بشارة الله لحبيبه ﷺ بوصوله إليه، وتخلُّصه من أعباء النبوة، ومشقة الرسالة، ورؤية الأغيار، فأمره بتقديسه لنفسه، والاستغفار منه لأمته.

سورة المسد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فاتحة سورة المسد

لا يخفى على من انكشف له الغناء الذاتي الإلهي، وظهر عنده أن الدنيا وما فيها ما هي إلا سراب باطل وظل زائل، لا ثبات لنعيمها، ولا قرار لمقيمها أن الاغترار بها وما يترتب على حطامها وأمتعتها الفانية والأباطيل الزائفة، والغفلة عن الله وعن اللذات الآخروية المعدة عنده سبحانه لأرياب العناية، كما أخبر سبحانه في هذه السورة عن بعض الميسرفين المتحجبين عن الله، المستسلمين عن مقتضيات ألوهيته وربوبيته من غاية اغتراره بماله وجاهه وثروته وسيادته بين الأنام، فقال بعد التيمن: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ الغني بذاته عن عموم مظاهره ومصنوعاته ﴿الرَّحْمَنِ﴾ عليهم بإفاضة الوجود ﴿الرَّحِيمِ﴾ عليهم، يوصلهم إلى مرتبة الكشف والشهود في اليوم الموعود، لو أخلصوا في الطاعة والتوجه نحو الخلاق الودود.

﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَّا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَأَمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝٥﴾ [المسد: 1-5].

﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾⁽¹⁾ أي: خابت وخسرت، يذاه كناية عنه، وما ذلك إلا أنه من غاية نخوته وغروره، بحيث هلك في نار فظيعة كنفسه الجهنمية التي خبيته خيبة أبدية وخسراناً سرمدياً حينما ظهر على رسول الله ﷺ بأنواع المكروه، وعارض معه على وجه لا يليق بشأنه ﷺ اتكالا على ماله وجاهه وثروته وسيادته.

(1) قال البقلي: ويُنْعَى الله من لا تصل يدُه هُتَّة إلى وثقى عروة نبوته والإيمان برسالاته والمعرفة بكمال شرفه خسرت في الأزل يده؛ إذ قطعها الحق عن مصافحة حبيبهِ صلاة الله وسلامه عليه، والأخذ بعروة متابعتِهِ، ذلك الخسران من خذلان الحق إِيَّاه، فإذا كان محجوباً عن طريق الرشَد لا ينفعه أعماله ولا أمواله.

وذلك لما نزلت الآية الكريمة: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: 214]

صعد رسول الله ﷺ ذات يوم إلى الصفا، فنادى: «يا بني فهر، يا بني عدي، لبطون قريش» حتى اجتمعوا، فقال: «أرايتم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تقبل عليكم، أكنتم مصدقي؟» قالوا: نعم ما جربنا عليك إلا صدقاً، قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد».

فقال أبو لهب على سبيل الاستهزاء: تبا لك يا محمد، ألهذا جمعتنا؟ فنزلت: ﴿تَبَّتْ يُدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾⁽¹⁾ لمجادلته مع رسول الله ﷺ ومرائه معه، وقصد استحقاقه واستهانته إياه ﷺ.

﴿وَوَيْلٌ لِلَّهِ الْعَلِيِّنَ﴾ [المسد: 1] وهلك ذلك اللعين المفرط على الوجه الذي أخبر الله بهلاكه إلى حيث ﴿مَا أَغْنَىٰ﴾ ودفع ﴿عَنْهُ مَالَهُ﴾ الذي يتكل عليه، ويستظهر به شيئاً من غضب الله ﴿وَوَيْلٌ﴾ ما نفع له ونصر عليه ﴿مَا كَسَبَ﴾ [المسد: 2] وجمع من الأموال والأولاد والأتباع.

قيل: مات بالعدسة بعد وقعة بدر بأيام معدودة، وترك ثلاثة أيام حتى أُنْتِن، ثم استأجروا بعض السودان حتى دفنوه، فهو إخبار عن الغيب، وقد وقع على وجهه، هذا مآل أمره في النشأة الأولى.

وفي النشأة الأخرى ﴿سَيُضْلَىٰ﴾ ويدخل ذلك اللعين ﴿نَارًا﴾ وأي نار، ناراً ﴿ذَاتَ لَهَبٍ﴾ [المسد: 3] واشتعال عال من شدة سورتها وفظاعتها.

﴿وَأَمْرَأَتُهُ﴾ التي تمشي بالنميمة بين الناس، وتوقد نار الفتنة والعداوة بينهم تصير هي ﴿حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾ [المسد: 4] بنار جهنم، تحتطب لها من الضريع والزقوم، أو هي «حمالة الحطب» فيها على قراءة الرفع؛ يعني: صورت نميمتها التي قد مشيت بها في الدنيا بإيقاد نار الفتن على هذه الصورة، فتلازم عليها.

﴿فِي جِيدِهَا﴾ وعنقها ﴿حَبْلٌ﴾ سلسلة متخذة ﴿مِنْ مَسَدٍ﴾ [المسد: 5] مفتول قد قُتل من الحديد، تحمل بها الحطب مع أنها من أشراف قريش، هي وزوجها أيضاً.

خاتمة السورة

عليك أيها المعتبر المستبصر - عصمك الله من تباب الدارين وخسارهما
وبوارهما - أن تتأمل في مرموزات القرآن من القصص والأحكام والعبر والأمثال،
فتأخذ حظك منها مقدار ما يسر الله لك، وأودعه في وسعك وطاقتك.

فاعلم أن كل ما في القرآن إنما نزل للإرشاد والتكميل، فلك أن تأخذ من
إشارات هذه السورة حسن المعاشرة وآداب المصاحبة، وحقارة مزخرفات الدنيا وما
يترتب عليها من اللذات الوهمية، الساقطة عن درجة الاعتبار، الزائغة الزائلة بلا قرار
ومدار.

سورة الإخلاص

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فاتحة سورة الإخلاص

لا يخفى على من اتصف بالمعرفة الإلهية وانكشف بوحدته واستقلاله سبحانه في الوجود والوجوب الذاتي، واستغناؤه سبحانه في ذاته عن عموم المظاهر والمجالي، وتعالیه عن لوازم الافتقار والاحتياج المؤدي إلى وصمة الإمكان وصمة الاستكمال والنقصان أن الذات الأحدية منزهة عن مطلق التحديد والتوصيف الذي يصف به الواصفون ذاته عن عموم المظاهر والمجالي، وعراء عن لوازم الافتقار والاحتياج المؤدي إلى بعض الإمكان.

لذلك بين سبحانه ذاته في هذه السورة ووصفه الذاتي بمقتضى علمه الحضوري بذاته؛ تنبيها وتعلیما على عباده وإرشادا لهم، فقال بعد التيمن: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ الذي لا يكتنه ذاته بمدارك مظاهره ومصنوعاته مطلقا ﴿الرَّحْمَنِ﴾ عليهم بتوصيف ذاته إياهم ﴿الرَّحِيمِ﴾ لخواصهم، يهديهم إلى سرائر معرفته وتوحيده.

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ (٢) لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا شَيْءٌ ۝ (٣) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝ (٤)﴾ [الإخلاص: 1-4].

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل لمن سأل عنك بقوله: صف لنا ربك الذي تدعوننا إلى الإيمان به وعبادته: ﴿هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾^(١) [الإخلاص: 1] أي: هو الذات المتصف

(١) قال البقلي: كان الله جل جلاله مستترا بنفسه في أزل أزله، قال: «كنت كنزا مخفيا، فأحييت أن أعرف»، فإذا أوجد أعلام ظهور أفعاله تُعرف نعوته بفعله، فلم يعرف أحد بالحقيقة؛ إذ الوسائط حجاب، فأراد إظهار كنوز ذاته وصفاته، فاختر من خلاصة الوجود خاصا خالصا، فالبس لسانه فصاحة الربوبية، ونور قلبه بنور المعرفة، وظهر لعينه عين الحقيقة، فأمره بتعريفه لعباده العارفين، بقوله: ﴿قُلْ﴾: ظاهره سر، وباطنه سر، حرف تحت بحر من غوامض علوم الربوبية، فالقاف: إشارة إلى قهر عظمتة على الحدثان حتى لا يصل إلى ذرة من حقيقة العرفان بالوهمية الرحمن!

بالألوهية الغيبية والشهادية، المتعالية عن كليهما بحسب ذاته المتصفة بالألوهية والربوبية، المستجمعة لجميع شرائط الكمال حسب الأسماء والصفات الكاملة، الكامنة في تلك الذات المتصفة بالأحادية المطلقة المنزهة عن التعدد والكثرة مطلقاً، المستقل في الوجود والحياة والقيومية المستلزمة للديمومية والبقاء الأزلي الأبدي السرمدي، الذي كان لا يكال بقاؤه ودوامه بمطلق الموازين والمقادير، ولا يحيط به وبقيوميته مطلق التدابير والتقادير.

فكيف كان سبحانه محلاً للتقدير؛ إذ هو ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ [الإخلاص: 2] أي: السيد السند الذي يقصد نحوه ويرجع إليه عموم ما ظهر وبطن من الكوائن والفواقد الكائنة في نشأتي الغيب والشهادة، والأولى والأخرى، وهو في ذاته مستغن عن جميعها مطلقاً.

وكيف لا يكون مستغنياً؛ إذ هو الله الذي ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ إذ الإيلاد إنما هو للأخلاف

لأن على وجه القدم وقاية الغيرة، وهناك في الأزل قلزم الحيرة، واللام: إشارة إلى لا النفي أي: لا يصل إلى كنه الألوهية أهل الحدوثية أمره بالإشارة إلى الإشارة، وغوامض سرّ الذات؛ إذ قال: هو أوقع قلوب الراسخين في أودية الهوية الغيبية في تيه غيب الغيب بنعت الوله والحيرة، فلم يصلوا إلى هاء الهوية، فانصرفوا إلى واو الوصف، فمجزوا عن الوصف؛ إذ لم يصلوا إلى الموصوف، فاحتجبوا بالغيب وبُعد بطون الهوية، وانصرفوا حيارى سكارى عطاشى والهيّن غير مدركين أوائل الحقائق، فاعترفوا بالعجز عن الإدراك، وإدراك الإدراك، فلما علم الحق عجزهم عن إدراك سر الهوية أظهر لهم أنوار الذات والصفات، رحمةً ولطفاً بهم لكيلا يُحرّموا من نصيب عرفانه وإيمانه، وقال الله أي: الذي لو تركوه، ولم تدركوه بعد طلبكم هذا، هو الله الذي بان بنعت الوجدانية والجمال والجلال من قرار الهوية، وأيضاً لما غاصوا في بحار الهوية بانت لهم أنوار الألوهية، فانصرفوا من صدمات الصمدية، وسطوات الأحدية، ووقعوا في تيه الحيرة، ونسوا ما بان لهم، وفرّوا، ثم طلبوا، فلم يجدوا، فأظهر الله ما ظهر لهم في الغيب، فقال: أين أنتم مما رأيتم هذا هو الله، فظهر لهم في الظاهر كما ظهر لهم في الباطن، فلما رأوه عياناً فنوا في أول ألف الفردانية، ثم بقوا في لام جماله، وهابوا من عظم لام جلاله، ثم سقطوا في بحر هويته، أيضاً منه بدأ وإليه يعود، الأول: إشارة وغيب، والآخر: إشارة وغيب. قال: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ﴾، وفي البين بدا وخفا بقوله: ﴿وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾، فلما عاينوه سكروا بجماله، وأنصفوا بجلاله، وأتحدوا بفردانيته، وصاروا وحدانيين، كادوا أن يدعوا الوجدانية، فقطعهم الحق عن سرّ الأحدية.

وخوف الانعدام والانقضاء، وهو سبحانه بمقتضى قيومته ووجوب وجوده ودوام بقائه لا يطرأ عليه أمثال هذه النقائص المستلزمة لضبط العاقبة والمآل؛ إذ لا يجر عليه انقضاء وانتقال ﴿وَوَلَدَ﴾ كذا ﴿لَمْ يُولَدْ﴾ [الإخلاص: 3] لذلك؛ إذ كل ما ظهر وبطن، أزلاً وأبداً إنما هو منه وبه وله وفيه، وكل ما فرض من الوجود أزلاً وأبداً ما هو خارج عن حيلة أظلال أسمائه وعكوس صفاته، فكيف يتصور أن يسبقه شيء هو غيره مع أنه لا غير في الوجود مطلقاً حتى يلده.

﴿وَوَلَدَ﴾ بالجملة: هو سبحانه منفرد في توحده، متوحد في انفراده، ومستقل في استقلاله، بحيث ﴿لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: 4] لا قبله ولا بعده، بل لا إله سواه، ولا موجود غيره.

خاتمة السورة

عليك أيها الموحّد المحمدي المنكشف بالتوحيد الذاتي - مكنك الله في مقر عزك وتمكينك - أن تصرف عنان عزمك وهمتك بعدما كوشفت بتوحيده الذاتي وكمالات أسمائه وصفاته نحو سوابغ آلائه ونعمائه الفائضة منه سبحانه حسب رقائق أسمائه الحسنى وأوصافه العظمى، وتشاهد آثار قدرته الغالبة التي تتحير منه العقول والآراء.

وإياك إياك أن تغفل عن الله طرفه، فإنها تورثك حسرة طويلة؛ إذ كل نفس من النفسات الإلهية التي جرت عليك في أوقات حياتك مشتملة على عجائب صنع الله وبدائع حكمته المتقنة البالغة، بحيث ما مضى مثلها أزلاً ولا سيأتي شبهها أبداً، فعليك أن تغتنم الفرصة وتعرض للنفحات الإلهية، ولا يشغلك شيء منها.

جعلنا الله من المتعرضين بنفحات الحق، المستنشقين من نسيمات روحه وراحته بميته وجوده.

سورة الفلق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فاتحة سورة الفلق

لا يخفى على من اعتصم بالله ودخل في كنف حفظه وجواره، مفوضاً أموره كلها إليه أنه سبحانه يوقيه من كل ما يضره ويغويه، ويحفظه عن كل ما يرديه ويؤديه؛ لذلك أمر حبيبه ﷺ حين قصد إليه أعداؤه بالسوء، وسحروا له حسداً على ظهوره واستيلائه وانتشار صيته الحسن في الآفاق والأقطار بالاستعاذة والاستلجاء نحوه بكمال الخلوص والثوق، فقال بعد التيمن: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ المراقب على محافظة خلص عباده من جميع ما يضرهم ويؤذيهم بعدما رجعوا إليه، وتعوذوا به مخلصين ﴿الرَّحْمَنِ﴾ عليهم بإنزال الرقي وتلقين الدعاء ﴿الرَّحِيمِ﴾ لهم، يبرؤهم ويشفيهم بعدما اخلصوا في التعوذ والالتجاء.

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ ① مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ② وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ③ وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ④ وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ⑤ ﴿ [الفلق: 1-5].

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل بعدما أصابتك من أعدائك مصيبة وعرضتك بشؤم أعينهم عارضة؛ إزالة لها ودفعاً لضررها: ﴿أَعُوذُ﴾ والوذ مخلصاً ﴿بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ [الفلق: 1] أي: بالذي فلق وشق ظلام الليل بنور الصبح المنير، وفلق ظلمة العدم بإشراق نور الوجود.

﴿مِنْ شَرِّ﴾ جميع ﴿مَا خَلَقَ﴾ [الفلق: 2] في عالم الكون والفساد من النفوس الخبيثة.

﴿وَمِنْ شَرِّ﴾ كذا الود به سبحانه ﴿مِنْ شَرِّ﴾ كل ﴿غَاسِقٍ﴾ مظلم محيل ﴿إِذَا وَقَبَ﴾ [الفلق: 3] دخل وانغمس في ظلامه ليحيل ويمكر.

﴿وَمِنْ شَرِّ﴾ كذا ﴿مِنْ شَرِّ﴾ النباء السواحر ﴿النَّفَّاثَاتِ﴾ النافخات بريق أفواههن ﴿فِي﴾

العُقْدِ [الفلق: 4] التي عقدن على الخيط؛ ليسحرن الناس بها.

﴿و﴾ بالجملة: أعوذ برب الفلق ﴿مِنْ شَرِّ﴾ كل ﴿حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾⁽¹⁾ [الفلق: 5] وقصد أن يحسد، فإنه سبحانه يكفي مؤنة شرورهم عنك بحوله وقوته.

خاتمة السورة

عليك أيها المحمدي الملتجئ إلى الله، المستعد بفضله وحوله وقوته أن تداوم على ذكر الله وقراءة القرآن، وتكرار الأذكار والتسابيح الماثورة من النبي المختار في عموم أوقاتك وحالاتك، سيما في خلال الليالي والأسحار، وفي آناء الليل وأطراف النهار، لعل الله يرقبك عن فتنة ما ذراً وبرأ في الليل والنهار، ويكفي عنك مؤنة شرور من عاداك بالسحر وغيره بحوله وقوته.

(1) قال علاء الدولة: أي: من شر قوة حسدية نفسه حسدت على القوة القلبية عند انبعاثها وقت طلوع الفلق، وهذه الاستعاذة واجبة على اللطيفة عند سلوكها ووصولها إلى أفق القلب في عالم النفس، وأيضاً واجبة على اللطيفة القلبية السالكية الواصلة إلى أفق السر في عالم القلب، وأيضاً واجبة على اللطيفة القلبية السائرة الواصلة إلى الروح في عالم السر، وأيضاً واجبة على اللطيفة السرية السائرة الواصلة إلى أفق الخفى في الروح، وأيضاً واجبة على اللطيفة الخفية بتجلي اللطيفة على لطيفة أنانيتها، فأما استعاذة اللطيفة الخفية المنسوبة إلى محمد ﷺ يقول في هذا المقام: «اللهم إني أعوذ بك منك، اللهم أعطني من شرّي وشر ما يقوم بي، وأخرجني مني، وخلني عني» على متابعة من قال من كمال معرفته، فأما أنا فلا أقول إلا: اللهم صل عليه وعلى آله وصحبه وسلم.

سورة الناس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فاتحة سورة الناس

لا يخفى على من انكشف له سرائر التوحيد واليقين، وانتفح عليه معالم أسرار الدين القويم والصراط المستقيم أن من تمسك بحبل التوفيق الإلهي واستمسك به، لا بد وأن يحفظ نفسه دائماً من فتنة شياطين القوى الأثارة، التي توسوس دائماً في صدور الأنام بأنواع الوسوسة، وتوقعهم في أصناف الفتن والمضائق الناشئة من الأوهام والخيالات الباطلة المتعلقة بنشأة الناسوت حتى تزيع قلوبهم، وتضلهم عن الطريق المستبين.

لذلك لقن سبحانه ﷻ تميماً لتربيته وتنبيهاً على من تبعه من المؤمنين، وإرشاداً لهم فقال لهم بعد التيمن باسمه الأعلى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ المدبر لمصالح عباده بمقتضى جوده ﴿الرَّحْمَنِ﴾ عليهم لحفظهم عما يتعدى بهم عن كنف حفظه ﴿الرَّحِيمِ﴾ عليهم، ينبههم على ما يضرهم ويغويهم؛ ليتمكنوا على الدين القويم، وترسخوا على الصراط المستقيم.

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ① مَلِكِ النَّاسِ ② إِلَهِ النَّاسِ ③ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ④ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ⑤ مِنَ الْغِيَةِ ⑥ وَالنَّكَاسِ ⑦﴾ [الناس: 1-6].

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل بعدما مكنتك الحق في مقعد التوحيد، وهداك الوصول إلى ينبوع بحر الحقيقة التي هي الوحدة الذاتية ملتجئاً إلى الله، مستمسكاً بعروة عصمته: ﴿أَعُوذُ﴾ وألوذ ﴿بِرَبِّ النَّاسِ﴾ [الناس: 1] الذي أظهرهم من كتم العدم ورياهم بأنواع اللطف والكرم، لكونه: ﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾ [الناس: 2].

﴿إِلَهِ النَّاسِ﴾ [الناس: 3] إذ ظهور الكل منه ورجوعه إليه.

﴿مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ﴾⁽¹⁾ الموسوس، المثير للفتن في قلوب الناس ﴿الْخَنَاسِ﴾

(1) قال الشيخ روزبهان البقلي الورتجبي الشيرازي: يبين أن الوسوسة تأتي من الشيطان تارة بلا واسطة، وتارة بالواسطة؛ إذ لم يقدر الملعون أن يوسوس في صدره من غلبة نور التوفيق والمشاهدة، وظهارة الكفر وصفاء الذكر، وعار عليه في مقام غرابة بعض شياطين الإنس، ويدعوه بلسانه إلى بعض الشهوات أو البدع والأهواء، فيوقعه إلى الحجاب، فأمر الله حبيبه أن يستعيد به من وسوسة شياطين الإنس والجن الذين وصفهم الله بقوله: ﴿شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾، واحذر يا صاحبي من هذه الوسواس، واعرف شأنها وأصلها وفرعها، فإن الوسواس تأتيك في جميع المقامات، وفي بعض المواجهات والأحوال، فينبغي أن تعرف مكائده وأسلحته ومواقعه ووساوسه، واستعن بالله في جوابه وعلاجه، حتى تبلغ إلى مقام مشاهدة الحق بالحق، ويغني عنك بشرتك وأوصافها، ويكون نورًا بنوره، مقدسًا بقدسه عن كل خاطر وعارض، فإن عرفت حقيقة ما ذكرت فصررت إمامًا للمتقين، وسراجًا للمقتبين.

قال عمرو المكي: الوسواس من وجهين: من النفس، والعدو، «فوسواس النفس»: بالمعاصي التي يوسوس فيها العدو كلها غير طبعي، فإن النفس لا توسوس بهما، أحدهما: التشكيك، والآخر: القول على الله بغير علم، قال الله في وصف الشيطان: ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾. وقال يحيى بن معاذ: «الوسوسة»: بذر الشيطان، فإن لم تعطه أرضًا وماءً ضاع بذره، وإن أعطيته الأرض والماء بذر فيها، فمثل ما الأرض والماء؟ فقال: الشيع أرضه، والنوم ماؤه. وقال يحيى: إنما هو جسم وروح وقلب وصدر وشغاف وفؤاد، «فالجسم»: بحر الشهوات، قال الله: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾، و«الروح» بحر المناجاة، و«الصدر»: بحر الوسواس، قال الله تعالى: ﴿يُوسُوسُ الَّذِي فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾، و«الشغاف»: بحر المحبة.

قال الله تعالى: ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾، و«الفؤاد»: بحر الرؤية، قال الله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾، و«التقلب»: بحر العمل. وقال سهل: «الوسوسة»: ذكر الطبع. وقال: إذا كان القلب مشغولاً بالله لم يصل إليه الوسواس بحال. وقال عبد العزيز المكي: يوسوس في فؤاد العامة، وقلوب الخواص لو دنا منها إبليس لاحترق. صدق الشيخ فيما قال، ولكن في سر السر، وغيب الغيب، ونور النور، وسنا السنا، ولطف اللطف، وشهود الشهود، ودنو الدنو، ووصال الوصال، وبقاء البقاء وعيان العيان تكون قلوب العارفين والموحدين والمحبين والمريدin والمؤمنين في قبض العزة منقلبة بين أصابع الصفة التي هي أنوار آزال الأزال، وآباد الأباد، طالیه يوصل الوصل، وعرفان العرفان، وحقيقة الحقيقة، كالفراش حول الشمع كمال شوقها الاحتراق بنيرانه، كذلك قلوبهم محترقة هناك بنيران الكبرياء، فاتية في سطوات الجلال، باقية بسبحات الجمال،

[الناس: 4] الدَّفَاع، الرَّجَّاع للناس، فإنه منبسط على قلب الإنسان، فإذا ذكر الله تعالى خنس وانقبض وإذا غفل انبسط على قلبه، فالتطارد بين ذكر الله تعالى ووسوسة الشيطان كالتطارد بين النور والظلام إذا جاء أحدهما طرد الآخر، مثله كمثل الواهمة تساعد في المقدمات، فإذا آل الأمر إلى النتيجة رجع وارتدع، مثلاً إذا قيل: الميت جماد والجماد لا يخاف منه أقرت، وإذا قيل: فالميت لا يخاف منه فرت ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنْفِرَةٌ * فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ﴾ [المدثر: 50-51].

﴿الَّذِي يُؤَسِّسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾ [الناس: 5] إذا غفلوا عن ذكر ربهم، وجعلوا إنتاج قضية أهوائهم من همهم.

﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ [الناس: 6] بيان للوسواس، أو للذي، أو متعلق بـيوسوس؛ أي: يوسوس في صدورهم من جهة الجنة والناس بأن يلقي إليهم أنهما يضران وينفعان بالتأثير والاستقلال، فيرجون منهما المطالب والآمال، فيقعون في تيه الحسرة

مصونة عن ذل الحجاب، محروسة عن طيران العذاب، كيف يخللها ققام الوسواس، فهواجس بالنفس، وحديث الناس، سبحانه من صفاهم بصفاته عن كل كدور، وبراهم بقدسه عن كل علة، الوسواس في الصدور، والقلوب في الحضور والنور والسرور، كيف يصل حركات الإنسانية إلى من استغرق في بحار الوحدة، لا بأس بأن طوى على الصدور وسواس وهواجس من محل الامتحان، فإن الأرواح في يمين الرحمن، والقلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن، والحمد لله الذي رد أمره إلى الوسوسة، ألا ترى كيف شكاه عنه خواص الصحابة إلى حبيب الله وصفته صلوات الله وسلامه عليه، فقالوا: «إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به»، فقال: أو قد وجدتموه؟ قالوا: نعم. قال: ذلك صريح الإيمان». وقال أبو عمرو البخاري: أصل الوسوسة ينتجها من عشرة أشياء:

أولها: «الحرص»: فقاتله بالتوكل والقناعة، والثانية: «الأمل»: فأكسره بمناجاة الأجل، والثالثة: «التمتع بشهوات الدنيا»: فقاتله بزوال النعمة وطول الحساب، والرابعة: «الحسد»: فأكسره برؤية العدل، والخامسة: «البلاء»: فأكسره برؤية المنة والعوافي، والسادسة: «الكبر»: فأكسره بالتواضع، والسابعة: «الاستخفاف بحرمة المؤمنين»: فأكسره بتعظيم حرمتهم، والثامنة: «حب الدنيا والمنحمة من الناس»: فأكسره بالإخلاص، والتاسعة: «طلب العلو والرفعة»: فأكسره بالخشوع، والعاشرة: «المنع والبخل»: فأكسره بالجود والسخاء، والحمد لله حمداً لا انقطاع له ولا انتهاء، والصلاة والسلام على سيد الرسل وخاتم الأنبياء، وعلى آله وصحبه وسائر الأولياء، ما دامت الأرض والسماء.

وهاوية الضلال.

أعاذنا الله وعموم عباده من شر كلا الفريقين بفضلته وجوده.

خاتمة السورة

إياك إياك أيها الطالب للخلاص، الراغب في الإخلاص أن تتبع الهوى وتنكب على الشهوات، فإن الإنسان إن اتبع الهوى وطاعة قضية القوى صار القلب عش الشيطان ومعدنه؛ لأن الهوى هو مرماه ومرتعه، وإن جاهد الشهوات ولم يسلطها على نفسه، صار القلب مستقر الملائكة ومهبطه.

ومهما غلب على القلب ذكر الدنيا ومقتضيات الهوى، وجد الشيطان مجالاً واسعاً، فيوسوس بالشر وما يجري إلى سوء المعاقبة، ويطرحه في الهاوية، ومتى أعرض عن الشهوات وجاهدها إلى حيث ينبغي، وأقبل على الطاعات كما ينبغي، يلهمه الملك بالخيرات، ويعينه في أسباب النجاة، ويرشده إلى الفوز بالجنات، فإن الخواطر مبدأ الأفعال؛ إذ الخواطر تحرك الرغبة، والرغبة تحرك العزم والنية، والنية تحرك الأعضاء وترسخ العقائد، فإن كانت من الخواطر المحمودة الإلهامية يفضي إلى الصلاح والنعمة، وإن كانت من الوسوس الشيطانية يسري إلى الفساد والنقمة.

أعاذنا الله تعالى من مهادة النفس ومساعدة الهوى، وأعاننا على مجاهدة الشهوات ومعاينة فرط القوى بحرمة سيد السادات، وصفوة الكائنات، صلوات الله التامات وتسليماتهم الزاكيات عليه وعلى آله وأزواجه الطاهرات وذرياته السادات، وخلفائه الراشدين، وأصحابه أجمعين.

عجل بالنصر وبالفرج يا رب بهم وبآلهم

والحمد لله أولاً وآخراً وباطناً وظاهراً. والحمد لله رب العالمين

تم الجزء الرابع على يد أفقر الوري إلى ربه، اللطيف الساتر، الرشيد السيد عبد القادر ابن السيد مصطفى ابن السيد عبد الرحمن الرشيد، الحنفي مذهباً، القادري طريقة، غفر الله له ولوالديه، ولمن أحسن إليه، وللمسلمين أجمعين آمين.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حمداً لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله ﷺ، أما بعد....

فقد بدأت بكتابة هذا التفسير الشريف الميمون الحاوي لجميع المسائل والفنون المضيء

بجواهر أهل المعارف الكاملين المقترف من بحر النور الرباني، والهيكل الصمداني، إمام
العارفين وفذلكة طروس الدفتر النوراني، تاج الدين القطب، القطب الكامل
سيدنا عبد القادر الكيلاني، أعاد الله علينا وعلى المسلمين من بركاته، وبركات
معاني سره العرفاني على يد خلاصة العلماء الصوفية وجوهرة الفضلاء الشامية
ذي الوجه الأنور من جامع الورد في الشام نور الشيخ الإمام

والحبر الهمام، كردي الأصل أبو بكر قدس الله، رزحه وزاد في أعلا الجنات فتوحه كان
سبباً في نسخة مولانا، وولي نعمتنا رعوس الأمراء ونخبة الوزراء أفندينا محمود
باشا بلغه الله من الخير والعز ما شاء نجل المرحوم والمغمود برحمة الله تعالى
الحاج نجيب باشا وكان ملتزماً أمره لتسميمه ومقابلته وتنقيحه من بابه
الكرم الجود مفتوح وميدان منهل عزه للفضل قُيُوح لازال محروماً
بعناية من نور تجليه الأعظم على الخلق يلوح إمامنا ورئيس الرؤساء
في شامنا السيد صالح... بني زاده أعطاه الله تعالى من... والفضل
ما أراده إنه على ما يشاء قدير ولذنوب المذنبين خير وأنا أحقر
الورى وأذل الفقرا كاتبه الخليل إبراهيم نجل المرحوم السيد
... غفر الله له ولنا وستر عيوبه ورحم الله

بحرمة المؤلف المسلمين والمسلمات الأحياء

منهم والأموات وقد وافق تمام كتابتي بهذا

التفسير الشريف يوم الثلاثاء الرابع

من شهر شعبان المعظم لسنة خمسة

وسبعون ومائتي وألف من هجرة

... من له العز والشرف

وصلى الله وسلم

على من لا نبي

بعده

فهرس بأهر المصادر والمراجع

- 1- تبصير الرحمن في تفسير القرآن للشيخ المهامي، ط دار الكتب العلمية- بيروت- بتحقيقنا.
- 2- تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب. ط. دار الغد العربي بالعباسية - مصر.
- 3- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للعلامة الصوفي محمود الألوسي طبع دار الكتب العلمية.
- 4- تفسير روح البيان للعارف إسماعيل حقي. طبع دار الكتب العلمية.
- 5- البحر المديد في تفسير القرآن المجيد للإمام ابن عجيبة. ط. مركز الدكتور حسن عباس زكي للدراسات الإسلامية بالقاهرة.
- 6- الدر المتثور في التفسير بالمأثور. طبع دار الكتب العلمية.
- 7- تفسير ابن كثير للعلامة الحافظ إسماعيل بن كثير. ط. دار الكتب العلمية.
- 8- التأويلات النجمية لنجم الدين كبرى ويلي عین الحياة للسمناني، ط دار الكتب العلمية.
- 9- عرائس البيان في حقائق القرآن، لروزبهان البقلي الشيرازي، ط دار الكتب العلمية- بيروت- بتحقيقنا.
- 10- التأويلات النجمية، لنجم الدين كبرى، ط دار الكتب العلمية- بيروت- بتحقيقنا.
- 11- تفسير القرطبي، ط دار الكتب المصرية.
- 12- تفسير القشيري، ط دار الكتب العلمية.
- 13- حقائق القرآن لأبي عبد الرحمن التلمي، ط طهران.
- 14- نظم الدرر للبقاعي، ط دار الكتب العلمية.
- 15- تفسير اللباب لابن عادل الحنبلي، ط دار الكتب العلمية.

- 16- روح البيان في تفسير القرآن لإسماعيل حقي، ط دار الكتب العلمية.
- 17- مرآة الحقائق لإسماعيل حقي، ط دار الآفاق العربية مصر (بتحقيقنا).
- 18- تفسير التستري، ط دار الكتب العلمية.
- 19- فتح الباري بشرح صحيح البخاري للحافظ بن حجر. ط الدار السلفية.
الهند.
- 20- إحياء علوم الدين ومعه المغنى عن حمل الأسفار في تخريج ما في الإحياء من الأخبار دار الكتب العلمية.
- 21- لطائف الإعلام في إشارات أهل الإلهام للشيخ عبد الرازق القاشاني. ط. الهيئة المصرية العامة للكتاب، ودار الكتب العلمية بيروت.
- 22- الفتوحات المكية (أو - كما تُسمى - الشرح الكامل للشريعة المحمدية الإسلامية) لإمام الأئمة العارف المحقق مولانا محيي الدين بن العربي المعروف بالشيخ الأكبر. ط. دار صادر في أربعة مجلدات.
- 23- الكمالات الإلهية في الصفات المحمدية لإمامنا عبد الكريم الجيلي. ط. دار الكتب العلمية بيروت، ط. دار الفكر بالقاهرة.
- 24- كتاب المواقف الإلهية والفيوضات السبوحية للعارف الكامل سيدي عبد القادر الجزائري ط. دار الكتب العلمية بيروت.

فهرس المحتويات

3	سورة الفتح
21	سورة الحجرات
31	سورة ق
51	سورة الذاريات
64	سورة الطور
76	سورة النجم
91	سورة القمر
105	سورة الرحمن
119	سورة الواقعة
135	سورة الحديد
152	سورة المجادلة
165	سورة الحشر
179	سورة الممتحنة
188	سورة الصف
196	سورة الجمعة
203	سورة المنافقون
209	سورة التغابن
218	سورة الطلاق
227	سورة التحريم
237	سورة الملك
247	سورة القلم
259	سورة الحاقة
269	سورة المعارج
278	سورة نوح
286	سورة الجن

295	سورة المزمل
304	سورة المدثر
317	سورة القيامة
326	سورة الإنسان
337	سورة المرسلات
346	سورة النبأ
354	سورة النازعات
363	سورة عبس
370	سورة التكويد
377	سورة الانفطار
382	سورة المطففين
390	سورة الانشقاق
395	سورة البروج
402	سورة الطارق
407	سورة الأعلى
412	سورة الغاشية
418	سورة الفجر
424	سورة البلد
429	سورة الشمس
433	سورة الليل
437	سورة الضحى
441	سورة الشرح
444	سورة التين
447	سورة العلق
452	سورة القدر
455	سورة البيّنة
459	سورة الزلزلة

462.....	سورة العاديات
466.....	سورة القارعة
469.....	سورة التكاثر
472.....	سورة العصر
474.....	سورة الهمزة
477.....	سورة الفيل
480.....	سورة قريش
482.....	سورة الماعون
484.....	سورة الكوثر
486.....	سورة الكافرون
489.....	سورة النصر
491.....	سورة المسد
494.....	سورة الإخلاص
497.....	سورة الفلق
499.....	سورة الناس
505.....	فهرس بأهم المصادر والمراجع
507.....	فهرس المحتويات

